

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثالث

دار إحياء التراث العربي

الآية: ١٤١ - ١٤٩

الآية: ١٥٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٦٩

الآية: ١٧٠ - ١٧٩

الآية: ١٨٠ - ١٨٩

الآية: ١٩٠ - ٢٠٠

سورة النساء

الآية: ١ - ٩

الآية: ١٠ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٢٩

الآية: ٣٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

الآية: ٥٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٨٩

الآية: ٩٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١٠٩

الآية: ١١٠ - ١١٨

الآية: ١١٩ - ١٢٩

الآية: ١٣٠ - ١٣٩

الآية: ١٤٠ - ١٤٩

الآية: ١٥٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٧٦

سورة المائدة

الآية: ١ - ٩

الآية: ١٠ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٢٩

الآية: ٣٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

الآية: ٥٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٨٢

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثالث

دار إحياء التراث العربي

(٣)

قوله تعالى: (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (١٤١) آية. المعنى، واللغة:

قيل: في معنى قوله: " وليمحص الله " أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: ليبنتلي، " ويمحق الكافرين " بنقصهم في قول ابن عباس، وقال غيره يهلكهم، وقال الفراء: " معنى " وليمحص الله " يعني ذنوب المؤمنين، وقال الزجاج: يخلصهم من الذنوب وهذا قريب من قول الفراء: وقال الرماني معناه " وليمحص الله الذين آمنوا " ينجيهم من الذنوب بالابتلاء ويهلك الكافرين بالذنوب عند الابتلاء، وأصل التمحيص التخليص في قول أبي العباس تقول محصت الشيء أمحصه محصا: إذا خلصته. وقال الخليل: المحص الخلوص من العيب. محصته محصا أي خلصته من كل عيب، ومحص الجمل: إذا ذهب وبره يمحص. وجبل محص أي ملص، ومحص الظبي، يمحص إذا عدا عدوا شديدا محصا، ويستحب أن تمحص قوائم الفرس أي تخلص من الرهل. وتقول: اللهم

محص عنا ذنوبنا أي اذهبها عنا، لأنه تخليص الحسنات بتكفير السيئات. ويقال تمحص
الفرس:

إذا ذهب شحمه الرديء، وبقي لحمه، وقوته بالضمور. وأصل المحق فناء الشئ حالاً بعد حال،
ولهذا دخله معنى نقصان، وأمحق الشئ امحاقاً، والمحاق: آخر الشهر إذا أمحق الهلال، فلم
ير، لذهاب ضوئه حالاً بعد حال. وامتحق الشئ وتمحق:

إذا ذهبت بركته بنقصانها حالاً بعد حال. ومحقه تمحيقاً. وإنما قابل بين التمحيص، والمحق،
لان محص هؤلاء باهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك باهلاك أنفسهم، وهذه مقابلة في المعنى.
وقيل في تمحيص المؤمنين بالمداولة قولان:

أحدهما - لما في تخليتهم مع تمكين الكافرين منهم من التعريض للصبر الذي يستحقون به
عظيم الاجر، ويحط كثيراً من الذنوب.

الثاني - لما في ذلك من اللطف الذي يعصم من اقتراف المعصية.

(٤)

قوله تعالى:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (١٤٢) آية بلا
خلاف.

القراءة والمعنى واللغة:

قرأ الحسن " ويعلم الصابرين " بكسر الميم. الباقون بفتحها. ووجه قراءة الحسن أنه عطف
على، ولما يعلم الله كأنه قال، ولما يعلم الله ويعلم الصابرين. وقوله:
" أم حسبتم " معناه: أحسبتم " ان تدخلوا الجنة " وقيل معنى (أم) معنى بل على جهة الإنكار،
لان يحسبوا ذلك الحسبان، كما يقال: قد صممت على الخلاف أم تتوهم الإهمال، والفرق بين
لم ولما أن لما جواب، لقول القائل: قد فعل فلان يريد به الحال، فجوابه (لما فعل) وإذا قال:
فعل فجوابه (لم يفعل)، فلما كانت (لما) مؤكدة بحرف كانت جواباً لما هو مؤكد بحرف
وأيضاً، فإنه يجوز الوقف على (لما) في مثل أن يقول القائل: قد جاء فلان، فيجيبه آخر
فيقول:

لما أي لما يجيء، ولا يجوز ذلك في (لم). ومعنى " ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم " أي لما
يعلم الله جهادكم يعني أنهم لا يدخلون الجنة إلا بفعل الجهاد، لأنه من أعظم أركان الشرع.
وقوله: " ويعلم الصابرين " نصب على الصرف عن العطف إذ ليس المعنى على نفي الثاني،
والاول، وإنما هو على نفي اجتماع الثاني والاول، نحو قولهم: لا يسعني شئ ويعجز عنك.
وقال الشاعر:

لأنته عن خلق وتأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم (١)
وانما جاز " ولا يعلم الله الذين جاهدوا منكم) على معنى نفي الجهاد دون

" ١ " قائله أبوالاسود الدؤلي، ونسب للمتوكل الكناني معجم البلدان ٧: ٣٨٤، والاعاني ١١: ٣٩ طبعة بولاق،
والبيت من الابيات الحكمية المشهورة وقبله
ابدأ بنفسك فاتهما عن غيرها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

(٥)

العلم، لما فيه من الايجاز في انتفاء الجهاد، لانه لو كان لعلمه، وتقديره ولما يكن المعلوم من
الجهاد الذي أوجب عليكم، لان المعنى مفهوم لا يشتبه.
قوله تعالى:

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) (١٤٣) آية.
المعنى:

قال الحسن، ومجاهد، والربيع: وقتادة، والسدي: كانوا يتمنون الموت بالشهادة بعد بدر قبل
أحد، فلما رأوه يوم أحد أعرض كثير منهم عنه، فانهزموا فعاتبهم الله على ذلك. وقوله: " فقد
رأيتموه " فيه حذف ومعناه رأيتم أسباب الموت، لان الموت لا يرى كما قال الشاعر:
ومحلما يمشون تحت لوائه * والموت تحت لواء آل محلم

أي أسباب الموت. وقال البلخي: معنى " رأيتموه " أي علمتم، وأنتم تنظرون أسباب الموت من
غير أن يكون في الاول حذف. فان قيل هل يجوز أن يتمنى قتل المشركين لهم ليناوا منزلة
الشهادة؟ قلنا: لا، لان قتل المشركين لهم معصية، ولا يجوز تمني المعاصي، كما لا يجوز
إدارتها، ولا الامر بها. فاذا ثبت ذلك، فتمنيهم الشهادة بالصبر على الجهاد إلى أن يقتلوا، وقال
الجبائي: إنما تمنوا الموت دون القتل إذا كانوا مجاهدين قال الازهري قوله: " رأيتموه وأنتم
تنظرون " معناه وأعينكم صحيحة، كما يقول القائل رأيت كذا، وليس في عينك سوء. والفرق
بين التمني والارادة أن الارادة من أفعال القلوب، والتمني هو قول القائل: ليت كان كذا وليت
لم يكن كذا. وقوله: " وأنتم تنظرون " بعد، قوله
" فقد رأيتموه " يحتمل أمرين "

أحدهما - أن يكون تأكيداً للرؤية، كما تقول: رأيت عياناً ورأيت بعيني.

(٦)

وسمعه بأذني، لئلا يتوهم رؤية القلب، وسمع العلم.

والثاني - أن يكون معناه وأنتم تتأملون الحال في ذلك كيف هي، لان النظر هو تقليب الحدفة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته، وليس معناه الرؤية على وجه الحقيقة.
قوله تعالى:

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) (١٤٤) آية بلا خلاف.
القصة، والنزول:

قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: إن سبب نزول هذه الآية انه لما ارجف بان النبي (صلى الله عليه وآله) قتل يوم أحد واشيع ذلك، قال ناس لو كان نبيا ما قتل. وقال آخرون نقاتل على ماقاتل عليه حتى نلحق به، وكان سبب انهزامهم وتضعفهم اخلال الرماة بمكانهم من فم الشعب، وكان النبي (صلى الله عليه وآله) نهاهم عن الاخلال به، وحذرهم من الانصراف عن الشعب مخافة أن يخرج منه كمين عليهم.

فلما انهزم المشركون في الجولة الاولى، فتبعوهم المسلمون وتواقعوا في غنائمهم فقال الموكلون بالشعب: يغنمون ولا نغنم. فقال لهم رئيسهم: الله لا تفعلوا فان النبي (صلى الله عليه وآله) أمرنا ألا نبرح، فلم يقبلوا منه وانصرفوا، وثبت رئيسهم مع إثني عشر رجلا، فقتلوا، خرج عليهم خالد بن الوليد في مأتي فارس من الشعب، وكان كامنا فيه، وكان ذلك سبب هزيمة المسلمين، وإصابة رباعية النبي (صلى الله عليه وآله) وجرحه، وكان الذي جرحه وكسر رباعيته عتبة بن أبي وقاص، وقيل إن عبدالله ابن قمية ضربه على حبل عاتقه، ومضى إلى المشركين، وقال قتلت محمدا وشاع ذلك فأنزل الله هذه الآية

(٧)

فان قيل: كيف دخل الاستفهام على الشرط، وإنما هو كغيره من الانقلاب والتقدير أنتقلبون إن مات أو قتل؟ قيل: لانه لما انعقد الشرط به صار جملة واحدة وخبرا واحدا بمنزلة تقدير الاسم قبل الفعل في الذكر إذا قيل أزيد قام، وكذلك تقديمه في القسم، والاكتفاء بجواب الشرط من جواب القسم، كما قال الشاعر: (١).

حلفت له إن تدلج الليل لا يزل * أمامك بيت من بيوتي سائر (٢)
أي حلفت له لا يزال امامك بيت وأجاز الفراء في مثله أفان مات أو قتل " تتقلبون بالرفع، والجزم ومعنى " انقلبتم على أعقابكم " أي ارتددتم كفارا بعد إيمانكم، لان الرجوع عن الحق إلى الباطل بمنزلة رجوع القهقري في القبح، والتتكيل (٣) بالنفس فجرى كالمثل في هذا المعنى، والالف في قوله " أفان " ألف انكار بصورة ألف استفهام، لان التقرير به يظهر ما فيه من المنكر، فلذلك أخرج مخرج الاستفهام مع أن معناه الانكار. ومثله أتختار الفساد على

الصالح والخطأ على الصواب. وقوله: (أفان مات أو قتل) يدل على أن الموت غير القتل لأنه لو كان هو إياه لما عطف به عليه، لأن الشيء لا يعطف على نفسه. والقتل هو نقض بنيه الحياة، والموت في الناس من قال: هو معنى يضاد الحياة وفيهم من قال: هو افساد البنية التي تحتاج الحياة إليها بفعل معان فيه تضاد المعاني التي تحتاج إليها الحياة. وقوله: "ومن ينقلب على عقبيه" أي من يرتد ويرجع عن الإسلام " فلن يضر الله شيئاً " لأنه لا يجوز عليه المضار بل مضرته عائدة عليه، لأنه يستحق العقاب الدائم. وقوله: " وسيجزى الله الشاكرين " معناه يثيب

" ١ " هو الراعي

" ٢ " معاني القرآن للفراء ١: ٦٩ - ٢٣٦ والمعاني الكبير: " ٨٠٥. وخزانة الادب ٤. ٤٥٠. ورواية المعاني الكبير (عائز) بدل (سائر) وقال: أي بيت هجاء عائز. من قولهم: عار الفرس: اذا ذهب وجاء مترددا ويقال: قصيدة عائزة أي سائرة في كل وجه. ادلج: سار في أول الليل.

" ٣ " في المخطوطة (والسيل) والصحيح ما في المطبوعة

(٨)

الله الشاكرين على شكرهم لنعم الله واعترافهم بها. ووجه اتصال هذا بما قبله اتصال الوعد بالوعد، لأن قوله: " فلن يضر الله شيئاً " دليل على معنى الوعد، لأن معناه انما يضر نفسه باستحقاقه العقاب " وسيجزى الله الشاكرين " بما يستحقونه من الثواب. قوله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) (١٤٥) آية بلا خلاف. المعنى، والاعراب، واللغة:

قيل في السبب الذي اقتضى قوله: " وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله " قولان: أحدهما - التسلية عما يلحق النفس بموت النبي (صلى الله عليه وآله) من جهة أنه باذن الله عزوجل.

الثاني - للحض على الجهاد من حيث لا يموت أحد إلا باذن الله تعالى. وقوله: " إلا باذن الله " يحتمل أمرين " أحدهما - إلا بعلمه. والثاني إلا بأمره. وقال أبو علي: الآية تدل على أنه لا يقدر على الموت غير الله، كما لا يقدر على ضده من الحياة إلا الله، ولو كان من مقدور غيره لم يكن باذنه، لأنه عاصى الله في فعله.

وقوله: " كتابا مؤجلا " نصب على المصدر بفعل محذوف دل عليه أول الكلام مع العلم بأن كلما يكون فقد كتبه الله، فتقديره كتب الله ذلك " كتابا مؤجلا ". ويجوز أن يدل على الفعل المحذوف مصدره المنتصب به. وقوله: " ومن

(٩)

يرد ثواب الدنيا نؤته منها " قيل في معناه ثلاثة أقوال:
أحدها - من عمل للدنيا لم نحرمه ما قسمنا له فيها من غير حظ في الآخرة - في قول ابن اسحاق - أي فلا يغتر بحاله في الدنيا.

(الثاني - - (١) من أراد بجهاده ثواب الدنيا أي النصيب من الغنيمة في قول أبي علي

(الجبائي)

الثالث - من يرد ثواب الدنيا بالتعرض له بعمل النوافل مع مواجهة الكبائر جوزي بها في الدنيا من غير حظ في الآخرة لاحتباط عمله بفسقه على مذهب من يقول بالاحتباط، ومن يرد بعمله ثواب الآخرة نؤته إياها. و (من) في قوله:

" منها " تكون زائدة. ويحتمل أن تكون للتبعيض، لأنه يستحق الثواب على قدر عمله. وإنما كرر قوله: " وسنجزي الشاكرين " ها هنا، وفي الآية الأولى، لامرين:
أحدهما - للتأكد ليتمكن المعنى في النفس.

الثاني - " وسنجزي الشاكرين " من الرزق في الدنيا، عن ابن اسحاق لئلا يتوهم ان الشاكر يحرم ما يعطاه الكافر مما قسم له في الدنيا. وقال الجبائي في الآية دلالة على أن اجل الانسان إنما هو أجل واحد. وهو الوقت الذي يموت فيه، لأنه لا يقتطع بالقتل عن الاجل الذي أخبر الله أنه اجل لموته، وقال ابن الاخشاذ:

لا دليل فيه على ذلك لان للانسان أجلين أجل يموت فيه لا محالة، وأجل هو موهبة من الله تعالى له، ومع ذلك فلن يموت إلا عند الاجل الذي جعله الله أجلا لموته والاقوى الاول، لان الاجل عبارة عن الوقت الذي يحدث فيه الموت أو القتل، وبالتقدير لا يكون الشئ أجلا كما لا يكون بالتقدير ملكا، وقد بينا في شرح الجمل ذلك مستوفى.

" ١ " في المطبوعة (الثاني) ساقطة.

(١٠)

قوله تعالى:

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)
(١٤٦) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة:

قرأ ابن كثير " كايين " على وزن كاعن. الباقون " كأيين " مشددة على وزن كعين، ومعناها واحد، وهو بمعنى كما قال جرير:

وكائن بالاباطح من صديق * يراني لو اصببت هو المصابا (١)
وقال آخر:

وكائن رددنا عنكم من مدحج * يجيئ أمام الالف يردي مقنعا (٢)
ومثل المشدد قول الشاعر:

كايين في المعاشر من اناس * اخوهم فوقهم وهم كرام

وأصل كايين (أي) دخلت عليها كاف التشبيه، كما أن أصل (كذا) (ذا)

دخلت عليها كاف التشبيه. وانما غيرت في اللفظ لتغيرها في المعنى، لانها نقلت إلى معنى (كم) في التكثر. ومن خفف فلكرهية التضعيف، كما خفف لا سيما. وقرأ أهل الكوفة، وابن عامر (قاتل) الباقون (قتل) فمن قرأ (قتل) نفى الوهن عن بقي. ومن قرأ (قاتل) نفاه عن ذكر.

المعنى، واللغة:

وقوله: (ربيون) قيل في معناه أقوال.

أحدها - قال ابن عباس، والحسن: علماء فقهاء، وقال مجاهد، وقتادة:

" ١ " ديوانه ١: ٩. " ٢ " الكامل للمبرد: ١٠٧٢.

(١١)

جموع كثيرة. وقال الاخفش: هم منسوبون إلى الرب. ومعناه المتمسكون بعبادة الله. وقال غيره: منسوبون إلى علم الرب. وقال الزجاج: الربو عشرة آلاف، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، وارتفاعه يحتمل أمرين:

أحدهما - على مذهب الحسن في أنه لم يقتل نبي قط في معركة فيرتفع بأنه لم يسم فاعله في (قتل) وعلى مذهب ابن اسحاق، وقتادة، والربيع، والسدي: رفع بالابتداء، فقدم عليه الخبر بمعنى قتل، ومعه ربيون كثير، فعلى هذا يكون النبي المقتول، والذين معه لا يهنون، وذلك أن يوم أحد كان أرجف بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قتل، فبين الله تعالى أنه لو قتل لما أوجب

ذلك أن تهنوا وتضعفوا، كما لم يهن من كان مع الانبياء بقتلهم، وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

والوهن هو الضعف وإنما قال: فما وهنوا، وما ضعفوا من حيث أن الوهن انكسار الجد بالخوف، ونحوه والضعف: نقصان القوة وقوله: " وما إستكانوا " معناه ما ظهروا الضعف، وقيل معناه ما خضعوا، لأنه يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد، فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان العدة، ولا استكانوا بالخضوع.

وقال ابن اسحاق: فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم. ولا استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن دينهم. وقال الزجاج معنى ما وهنوا ما فتروا، وما ضعفوا وما جنبوا عن قتال عدوهم، وما استكانوا ما خضعوا. وقال الأزهري: الاستكانة أصلها من الكنية، وهي الحالة السيئة يقال بات بكنية يعني بيته سوء، ومجيئة سوء أي بحال سوء وقوله: " والله يحب الصابرين " معناه يريد ثواب من صبر في جنبه في امتثال أمره، والقيام بواجباته التي من جملةتها الجهاد في سبيل الله. قوله تعالى:

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (١٤٧) آية

(١٢)

المعنى واللغة:

هذا إخبار عن الربيبين الذين ذكرهم في الآية الأولى بأنهم كانوا يقولون في أكثر أحوالهم " ربنا اغفر لنا ذنوبنا " لأن من المعلوم أنهم قد كانوا يقولون أقوالا غير هذا، لكن لما كان هذا هو الأكثر لم يعتد بذلك. وقيل: معناه وما كان قولهم حين قتل نبيهم إلا هذا القول انقطاعا إلى الله وطلبا لمغفرته. وقوله:

" اغفر لنا ذنوبنا " أي استرها علينا بترك عقابنا، ومجازاتنا عليها " واسرافنا في امرنا " فالاسراف هو مجاوزة المقدار الذي تقتضيه الحكمة. والاسراف مذموم، كما أن الاقتار مذموم، كما قال تعالى: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " (١) وكما قال " والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (٢) والاسراف، والافراط بمعنى، وضدهما التقصير والتقتير. وقيل الاسراف مجاوزة الحق إلى الباطل بزيادة أو نقصان والاول أظهر. وأصل الاسراف مجاوزة الحد يقال: سرفت القوم إذا جاوزتهم، وأنت لا تعرف مكانهم وسرفت الشيء إذا نسيتَه لأنك جاوزته إلى غيره بالسهو عنه. ويقال: أصنع من سرفة، وهي دويبة صغيرة تنقب الشجر، وتبني فيه بيتا.

إن قيل: كيف قوبل الذنوب والاسراف في الامر؟ قلنا: قال الضحاك: هو بمنزلة اغفر لنا الصغير والكبير من خطايانا.

الاعراب، والمعنى:

و " قولهم " نصب بأنه خبر (كل) والاسم (أن قالوا)، وانما اختير ذلك، لان ما بعد الايجاب معرفة، فهو أحق بأن يكون الاسم، كقول الشاعر:

وقد علم الاقوام ما كان داءها * بثهلان إلا الخزي ممن يقودها (٣)

" ١ " سورة الاسرى آية: ٢٩ " ٢ " سورة الفرقان آية: ٦٧.

" ٣ " سبويه ١: ٢٤ ولم ينسبه. يصف كتيبة منهزمة يقول: لم يكن سبب انهزامها الا جبن من يقودها، فجعل الخزي كناية عن الجبن.

(١٣)

ويجوز الرفع على أنه اسم (كان) وقد قرئ به في الشواذ. ومثله قوله:

" ماكان حجتهم إلا أن قالوا " (١) " وما كان جواب قومه إلا أن قالوا " (٢)

وقوله: " وثبت أقدامنا " أي أعنا وأطف لنا بما تثبت معه أقدامنا وإن كان ثبوت القدم من فعل العباد لكن لما كان بلطفه ومعونته جاز نسبته إليه مجازا.

قوله تعالى:

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (١٤٨) آية.

المعنى، واللغة:

قوله: " فآتاهم الله " يعني من تقدم ذكره من الربيبين الذين وصفهم. وقال الجبائي: يعني به المسلمين الذين صفتهم ماتقدم ذكره أي أعطاهم الله ثواب الدنيا قال قتادة، والربيع: هو نصرهم على عدوهم حتى ظفروا بهم، وقهروهم. " وثواب الآخرة ": الجنة. وزاد ابن جريج الغنيمة، ويجوز أن يكون ما آتاهم الله في الدنيا من الظفر والنصر وأخذ الغنيمة ثوابا مستحقا لهم على طاعتهم، لان في ذلك تعظيما لهم وتجيلا، ولذلك تقول: إن المدح على أفعال الطاعة والتسمية بالاسماء الشريفة بعض الثواب، ويجوز أن يكون الله تعالى أعطاهم ذلك تفضلا منه تعالى، أو لما لهم فيه من اللطف، فتكون تسميته بأنه ثواب مجازا، وحد الثواب هو النفع الخالص المستحق الذي يقارنه تعظيم وتبجيل، والعوض هو النفع المستحق الخالي من التعظيم والتبجيل، والتفضل هو النفع الذي ليس بمستحق ولامعه تعظيم وتبجيل.

وانما جاز تأخير الثواب المستحق مع ثبوت الاستحقاق له عقيب الطاعة الامرين:

أحدهما - قال أبو علي: لأنه يوفر عليه ما يفوته في زمان التكليف إلى خير الثواب: وقال
الرماني: لأنه إذا أضر عظم ما يستحقه بالتأخر على ما كان

" ١ " سورة الجاثية آية: ٢٤ " ٢ " سورة الاعراف آية: ٨١

(١٤)

لو قدم، لأنه إذا استحق مثلاً مائة جزء عاجلاً، فإذا أضر استحق مائة وعشرة أو مائة وجزء،
وقيل في وجه حسن تأخيره أنه لو كان عقيب الطاعة لآدى إلى أن يكون المكلف ملجأً إلى
فعل الطاعة، لأن المنافع الكثيرة تلجئ إلى الفعل كما أن دفع المضار العظيمة تلجئ إلى مثله،
وذلك ينافي التكليف، وقوله: " والله يحب المحسنين " أي يريد ثوابهم وتعظيمهم وتبجيلهم
والفرق بين الاحسان والانعام أن الاحسان قد يكون إنعاماً بأن يكون نفعاً للمنتفعين به، وقد
يكون احساناً بأن يكون فعلاً حسناً، ومن القسم الاخير يقال هو تعالى محسن بفعل العقاب، ولا
يقال محسن من القسم الاول، ويقال هو محسن بفعل الثواب على الوجهين معا (١).
قوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين (١٤٩) بل
الله مولاكم وهو خير الناصرين) (١٥٠) آيتان بلا خلاف.
المعنى:

هذا خطاب للمؤمنين حذرهم الله من أن يطيعوا الكفار، وبين أنهم إن أطاعوهم ردوهم كافرين.
والمعنى ب " الذين كفروا " قيل فيهم قولان:
أحدهما - قال الحسن، وابن جريج إنهم اليهود، والناصري أي إن تستنصحوهم وتقبلوا رأيهم
يردوكم خاسرين، وقال السدي: أراد إن تطيعوا أبا سفيان وأصحابه يرجعوكم كافرين.
والطاعة موافقة الارادة المرغبة في الفعل، وبالترغيب ينفصل من الاجابة، وإن كان موافقة
الارادة حاصلة، وفي الناس من قال: الطاعة في موافقة الامر، والاول أصح، لأن من فعل
ما يقتضي العقل وجوبه أو حسنه يقال: إنه

" ١ " في المخطوطة باسقاط (معا).

(١٥)

مطيع لله، وإن لم يكن هناك أمر على أن من امتثل الامر إنما سمي مطيعاً لموافقة الارادة
المرغبة من حيث أن الامر لا يكون أمراً إلا بارادة المأمور به، والطاعة تكون بمتابعة الواجب
والندب معا، لأن الارادة تتناولها الاعراب، والحجة، واللغة، والمعنى:

وقوله: (إن تطيعوا) جزم بأنه شرط. وقوله: "يردوكم" جزم بأنه جواب الشرط. وقوله: "فتقلبوا" جزم بالعطف عليه. وقوله: "خاسرين" نصب على الحال. وقوله: "بل الله" فحقيقة (بل) الاضراب عن الاول إلى الثاني سواء كانا موجبين أو نفيين أو احدهما موجبا والآخر نفيًا قول: جاء زيد بل عمرو، وما جاء زيد بل عمرو لم يجئ، وما أتى زيد بل خالد.

فان قيل: كيف عطف ببل وهي لا تشترك الثاني مع الاول في المعنى؟ قلنا:

لان الاضراب عن الاول كالبدال، ولذلك وجب العطف بالاشراك في الاعراب كما يجب في البديل غير أن البديل لم يحتج إلى حرف، لان الثاني هو الاول أو في تقدير ما هو كالاول، و (لكن) للاستدراك أيضا، وهو يقتضي نفيًا إما متقدما أو متأخرا كقولك ما جاءني زيد، لكن عمرو، وجاء زيد لكن عمرو لم يأت، وبهذا فارقت بل. وقوله: "بل الله" كان يجوز النصب في (الله) قال الفراء:

على معنى أطيعوا الله مولاكم، لان قبله "إن تطيعوا" ثم أضرب عن الاول وأوجب الثاني بل أطيعوا الله (مولاكم). والرفع يحتمل أن يكون على الابتداء ومولاكم خبره، ويحتمل أن يكون مولاكم مبتدأ، و (الله) خبره، وقد قدم عليه. ومعنى مولاكم أي هو أولى بطاعتكم ونصرتكم. وقيل معناه وليكم بالنصرة بدلالة قوله: "هو خير الناصرين" والاصل فيه، ولي الشئ الشئ من غير فصل بينه وبينه، فالولاية إيلاء النصره، ويجوز لانه يتولى فعل النصره، وان لم يكله إلى غيره، لان من فعل شيئًا فقد تولى فعله. فان قيل: كيف قال "وهو خير الناصرين" مع أنه لا يعتد بنصر غير الله مع نصرته؟ قيل: معناه إنه إن اعتد بنصرة غير الله فنصرة

(١٦)

الله خير منها، لانه لا يجوز أن يغلب، وغيره يجوز أن يغلب، وان نصر فالثقة بنصرة الله تحصل، ولا تحصل بنصرة غيره.

قوله تعالى:

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) (١٥١)

- آية بلا خلاف -:

ذكر ابن اسحاق أنه لما نال المسلمين ما نالهم يوم أحد بمخالفة الرماة أمر نبيهم (صلى الله عليه وآله) وكان من ظهور المشركين عليهم ما كان عرفهم الله عزوجل الحال في ذلك ثم وعدهم بالنصر لهم، والخذلان، لاعدائهم بالرعب، وذكر السدي: أن أبا سفيان وأصحابه هموا بالرجوع بعد أحد لاستئصال المسلمين عند أنفسهم، فالقى الله الرعب في قلوبهم حتى انقلبوا خائبين عقوبة على شركهم "بالله ما لم ينزل به سلطانا" يعني برهاننا.

اللغة، والحجة:

فالسُلطان معناه هاهنا الحجة، والبرهان، وأصله القوة، فسُلطان الملك قوته. والسُلطان: البرهان لقوته على دفع الباطل. والسُلطان: التوكيل على المطالبة بالحق، لانه تقوية عليه، والتسليط على الشئ: التقوية عليه مع الاغراء به.

والسلطة: حدة اللسان مع شدة الصخب للقوة على ذلك مع إثبات (١) فعله:

والسليط: الزيت لقوة اشتعاله بحدته. واللقاء حقيقته في الاعيان، كقوله:

" وألقى الالواح " (٢) واستعمل في الرعب مجازاً، ومثل قوله: " وألقيت عليك محبة مني "

(٣) وقوله: " ومأواهم النار " أي مستقرهم وفي الآية دلالة على

" ١ " في المخطوطة (إيثار) " ٢ " سورة الاعراف آية: ١٤٩.

" ٣ " سورة طه آية: ٣٩.

(١٧)

فساد التقليد، لانه لا برهان مع صاحبه على صحة مذهبه، فكل من قال بمذهب لا برهان عليه، فمبطل بدلالة الآية، وقوله: " وبئس مثوى الظالمين " فالمثوى:

المنزل، وأصله الثواء، وهو طول الإقامة ثوى يثوي ثواء: إذا طال مقامه وأثواني فلان مثوي أي أنزلني منزلاً وربية البيت: أم مثواه. والثوي: الضيف لانه مقيم مع القوم. وانما قيل لجهنم " بئس مثوى الظالمين " وبئس للذم، كما أن نعم للحمد لامرين:

أحدهما - إن الضرر تنفر منه النفس كما ينفر العقل من القبح فجرى التشبيه على وجه المجاز - هذا قول أبي علي - وقال البلخي: لان الذم يجري علي النقص كما يجري على القبح حقيقة فيهما، نحو قولهم: الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) وقد رعبته رعباً أي أفزعته، والاسم الرعب ورعبت الاناء إذاملته فهو مرعوب.

قوله تعالى:

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) (١٥٢) آية.

المعنى، والقصة:

ذكر ابن عباس، والبراء بن عازب، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وابن اسحاق: أن الوعد المذكور كان يوم أحد، لان المسلمين كانوا يقتلون المشركين قتلاً ذريعاً حتى أخل الرماة

بمكانهم الذي أمرهم النبي (صلى الله عليه وآله) بملازمته، فحينئذ حمل خالد بن الوليد من وراء المسلمين، وتراجع المشركون، وقتل من المسلمين

(١٨)

سبعون رجلاً ثم هزموا، وقد نادى مناد قتل محمد ثم من الله على المسلمين، فرجعوا وقويت نفوسهم، ونزل الخذلان بعدوهم، حتى ولوا عنهم، ومعنى "تحسونهم" تقتلونهم.
اللغة:

والحس هو القتل على وجه الاستئصال قال جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى * حريق النار في أجم الحصيد (١)

وأصله الاحساس ومنه قوله: "هل تحس منهم من أحد" (٢) وقوله:

"فلما أحس عيسى منهم الكفر" (٣) أي وجده من جهة الحاسة، وحسه يحسه:

إذا قتله، لانه أبطل حسه بالقتل، والتحسس طلب الاخبار، وفي التنزيل: "يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه" (٤) وذلك لانه طلب لهما بحاسة السمع.

والمحسة التي ينفذ بها التراب عن الدابة، لانه يحس بها من جهة حكها لجلدها.

وقوله: "بأذنه" معناه بعلمه، ويجوز أن يكون المراد بلطفه، لان أصل الأذن الاطلاق في الفعل، فاللطف تيسر (٥) له، كما أن الأذن كذلك إلا أن اللطف تدبير يقع معه الفعل لا محالة اختياراً كما يقع في أصل الأذن اختياراً.

المعنى:

قال أبو علي قوله: "إذ تحسونهم" يعني يوم بدر "حتى إذا فشلتم" يوم أحد "من بعد ما أراكم ما تحبون" يوم بدر. والاولى أن يكون هذا حكاية عن يوم أحد على ما بيناه. وقوله: "حتى إذا فشلتم" معناه جبنتم عن عدوكم وكعتم

" ١ " ديوانه ١ : ٤٧ من قصيدة يمدح بها الحجاج.

" ٢ " سورة الكهف آية: ٩٩ " ٣ " سورة آل عمران آية: ٥٢.

" ٤ " سورة يوسف آية: ٨٧. " ٥ " في المخطوطة (تفسير).

(١٩)

"وتنازعتم" في الامر يعني اختلفتم "من بعد ما أراكم ما تحبون" معناه أنهم أعطوا النصر، فخالفوا في ما قيل لهم من لزوم فم الشعب. واختلفوا، فعوقبوا بأن ديل عليهم في قول الحسن، وقوله: "منكم من يريد الدنيا" أي منكم من قصده الغنيمة في حربكم "ومنكم من يريد الآخرة

" أي بثبوتها في موضعه بقصدته بجهاده إلى ما عند الله في قول ابن مسعود، وابن عباس، والربيع.

الاعراب. والمعنى:

فان قيل أين جواب " حتى إذا "؟ قلنا: فيه قولان:
أحدهما - إنه محذوف، وتقديره امتحنتم.

والآخر - على زيادة الواو والتقديم والتأخير، وتقديره حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتكم - في قول الفراء -، كما قال (فلما أسلما وتله للجبين وناديناها أن يا ابراهيم) (١) ومعناه ناديناها، والواو زائدة. ومثله (حتى إذا فتحت يا جوج وما جوج... واقترب) (٢) ومعناه اقترب. ومثله قوله: (حتى إذا جاؤها وفتحت) (٣) وأنشد:

حتى إذا قملت بطونكم * ورأيتم ابناءكم شبوا

قلبتم ظهر المجن لنا * ان اللئيم العاجز الخب (٤)

والبصريون لا يجيزون زيادة الواو ويتأولون جميع ما استشهد به على الحذف لأنه أبلغ في الكلام، وأحسن من جهة الأيجاز. وقوله: (ثم صرفكم عنهم) قيل في إضافة انصرفهم إلى الله مع أنه معصية قولان:

(١) سورة الصافات: آية ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) سورة الانبياء: آية ٧٦ - ٧٧.

(٣) سورة الزمر: آية ٧٣. (٤) قائلهما الاسود بن يعفر النهشلي وهو في اكثر الكتب غير منسوب معاني القرآن:
للفراء ١: ١٠٧، ٢٣٨ واللسان: (قمل) وتأويل مشكل القرآن ٢ ٣٨١. المعاني الكبير: ٥٣٣ واللسان: (وقب) قملت بطونكم: كثرت قبائلكم المجن: الترس. الخب: المخادع.

(٢٠)

أحدهما - إنهم كانوا فريقين منهم من عصى بانصرافه، ومنهم من لم يعص، لانهم قلوبا بعد انهزام تلك الفرقة، فانصرفوا باذن الله بأن التجأوا إلى أحد، لان الله إنما أوجب ثبات المائة للمنتئين فادا نقصوا، لا يجب عليهم ذلك. وجاز أن يذكر الفريقين في الجملة بأنه صرفهم، وبأنهم عفا عنهم، ويكون على ما بيناه في التفصيل هذا قول أبي علي. وقال البلخي (ثم صرفكم عنهم) معناه لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم (ليبتليكم) بالمظاهرة في الانعام عليكم، والتخفيف عنكم. وقوله (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون) فاذا تصعدون متعلق بقوله: (ولقد عفا) في قول الزجاج. وقال الجبائي قوله: (ولقد عفا عنكم)

خاص لمن لم يعص بانصرافه، والاولى أن يكون عاما في جميعهم، لانه لايمتنع أن يكون الله عفا لهم عن هذه المعصية.

وقال البلخي: معناه (ولقد عفا عنكم) بتتبعهم بعد أن كان أمرهم بالتتبع لهم، فلما بلغوا حمراء الاسد أعفاهم من ذلك، ولايجوز أن يكون، صرفهم فعل الله، لانه قبيح والله تعالى لايفعل القبيح.

قوله تعالى:

(إذ تصعدون ولاتلون على أحد والرسول يدعوكم في اخراكم فاتابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولأما أصابكم والله خبير بما تعملون) (١٥٣) آية.
القراءة، والحجة، واللغة، والمعنى:

التقدير اذكروا (إذ تصعدون) ويجوز أن يكون متعلقا بقوله: (ولقد عفا عنكم.. إذ تصعدون)، والقراء كلهم على ضم التاء من الاصعاد. وقرأ الحسن بفتح التاء والعين من الصعود، وقيل: الاصعاد في مستوى الارض، والصعود في

(٢١)

ارتفاع يقال أصعدنا من مكة إذا ابتدأنا السفر منهاو كذلك أصعدنا من الكوفة إلى خراسان على قول الفراء، والمبرد، والزجاج. ووجه ذلك أن الاصعاد إبعاد في الارض كالإبعاد في الارتفاع، وعلى ذلك تأويل (تصعدون) أي أصعدوا في الوادي يوم أحد عن قتادة، والربيع. وقال ابن عباس والحسن انهم صعدوا في أحد في الجبل فرارا، فيجوز أن يكون ذلك بعد أن أصعدوا في الوادي. وقوله (ولاتلون على أحد) معناه لاتعرجون على أحد. وقوله: (والرسول يدعوكم في أخراكم) قال ابن عباس والسدي، والربيع: إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يدعوهم، فيقول: ارجعوا أي عبادالله ارجعوا أنا رسول الله. وقوله: (فاتابكم غما بغم) في معناه قولان:

أحدهما - إنه إنما قيل في الغم ثواب، لان أصله ما يرجع من الجزاء على الفعل طاعة كان أو معصية ثم كثر في جزاء الطاعة كما قال الشاعر:

واراني طربا في إثرهم * طرب الواله أو كالمختبل

فعلى هذا يكون الغم عقوبة لهم على فعلهم، وهزيمتهم. والثاني - أن يكون وضع الشئ مكان غيره كماقال (فبشرهم بعذاب أليم) (١) أي ضعه موضع البشارة، كما قال الشاعر:

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه * اداهم سودا او محدرجة سمرا (٢)

أراد بقوله سودا قيودا. وقيل في معنى قوله: (غما بغم) قولان:

أحدهما - غما على غم، كما يقال: نزلت ببني فلان وعلى بني فلان. وقال قتادة، والربيع:
الغم الاول: القتل والجراح. والثاني: الارجاجاف بقتل محمد (صلى الله عليه وآله).
والقول الثاني - غما بغم أي مع غم كما يقال: ما زلت يزيد حتى فعل أي

(١) سورة الانبياء: ٣، والتوبة آية: ٣٥، والانشقاق آية: ٢٤.

(٢) قاتله الفرزدق. ديوانه: ٢٢٧، والنقائض: ٦١٨ وطبقات فحول الشعراء:

٢٥٦، وتاريخ الطبري ٦: ١٣٩، ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٣٩. وروايته مختلفة. وفي أغلب المصادر وهكذا:
ولما خشيت أن يكون عطاؤه

(٢٢)

مع زيد. وقال الحسن غما يوم أحد بعد غم يعني يوم بدر. أي كله للاستصلاح وان اختلف
الحال. وقال الحسين بن علي المغربي: معنى (غما بغم) يعني غم المشركين بماظهر من قوة
المسلمين على طلبهم على حمراء الاسد، فجعل هذا الغم عوض غم المسلمين بمائيل منهم.
وقوله: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) معناه ما فاتكم من الغنيمة (ولاما أصابكم) من الهزيمة في
قول ابن زيد. واللام في قوله: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) يحتمل أن يكون متعلقا بقوله:
(عفا عنكم) (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) ويحتمل أن يتعلق ب (أثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا
على ما فاتكم)

من الغنيمة ولا ما أصابكم من الشدة في طاعة الله، لان ذلك يؤديكم إلى مضاعفة الغم عليكم.
وقوله: (والله خبير بما تعملون) فيه تجديد تحذير بأنه لا يخفى عليه شئ من أعمال العباد.
قوله تعالى:

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون
بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شئ قل إن الامر كله لله يخفون في
أنفسهم مالا يبيدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم
لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في
قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (١٥٤) آية بلا خلاف.

القراءة والمعنى والحجة والاعراب والقصة:

قرأ حمزة، والكسائي: تغشى بالتاء الباقون بالياء. فمن قرأ بالتنكير أراد

(٢٣)

النعاس، ومن أنت أراد الامنة، ومثله (ألم يك نطفة من مني يمني) (١) (وان شجرة الزقوم
طعام الاثيم كالمهل يغلي) (٢) بالتاء، والياء. وقرأ أبو عمرو، وحده (إن الامر كله) بالرفع.

الباقون بالنصب، ووجه الرفع أنه على الابتداء، كما قال: (وكل اتوه داخرين) (٣) ويكون (الله) خبره، لأنه لما وقع الامر في الجواب ادبت صورته في الاسم ثم جاءت الفائدة في الخبر، ولأنه نقيض بعض، فكما يجوز الرفع في (بعض) يجوز في (كل) نحو إن الامر بعضه لزيد. والنصب على أنه تأكيد للامر (وامنة) منصوب، لأنه مفعول به، ونعاسا بدلا منه، والنعاس هو الامنة.

وهذه الامنة التي ذكرها الله في هذه الآية نزلت يوم أحد في قول عبدالرحمن ابن عوف وأبي طلحة، والزبير بن العوام، وقتادة، والربيع، وكان السبب في ذلك توعده المشركين لهم بالرجوع، فكانوا تحت الجحف متهيئين للقتال فأنزل الله تعالى الامنة على المؤمنين، فناموا دون المنافقين الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم أو يغيروا على المدينة لسوء الظن، فطير عنهم النوم على ما ذكره ابن اسحاق وابن زيد، وقتادة، والربيع. وقوله: (يغشى طائفة منكم) يعني النعاس يغشى المؤمنين (وطائفة قد اهتمهم) القراء على الرفع. والواو واو الحال كأنه قال: يغشى النعاس طائفة في حال ما أهتم طائفة منهم أنفسهم. ورفع بالابتداء، والخبر يظنون، ويصلح أن يكون الخبر (قد اهتمهم أنفسهم) والجملة في موضع الحال. ولايجوز النصب على أن يجعل واو العطف كما تقول ضربت زيدا وعمرا كلمته. والتقدير وأهتم طائفة اهتمهم أنفسهم.

المعنى:

وقوله: (يقولون هل لنا من الامر من شيء) قيل في معناه قولان:

(١) سورة القيامة آية: ٢٧.

(٢) سورة الدخان: ٤٣ - ٤٥.

(٣) سورة النمل آية: ٨٧.

(٢٤)

أحدهما - قال الحسن أخرجنا كرها، ولو كان الامر إلينا ماخرجنا. وذلك من قبل عبدالله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير على قول الزبير بن العوام، وابن جريج.

والآخر - أي ليس لنا من الظفر شيء كما وعدنا على وجه التكذيب بذلك (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) أي من الشك، والنفاق، وتكذيب الوعد بالاستعلاء على أهل الشرك ذكره الجبائي. وقوله: (وليبنتي الله ما في صدوركم)

يحتمل أمرين:

أحدهما - ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لكم مظهرة في العدل عليكم وإخراج مخرج كلام المختبر لهذه العلة، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها، فلا يبتلى ليستفيد علما. والثاني - ليبتلى أولياء الله ما في صدوركم إلا أنه اضيف الابتلاء إلى الله عزوجل تفخيما لشأنه. وقوله: (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) يحتمل أمرين: أحدهما - لوتحلتفتم لخرج منكم الذين كتب عليهم القتل ولم يكن لينجيه قعودكم - عن أبي علي -.

الثاني - لوتخلفتم لخرج المؤمنون، ولم يتخلفوا بتخلفكم ذكره البلخي، ولايوجب ذلك أن يكون المشركون غير قادرين على ترك القتال من حيث علم الله منهم ذلك، وكتبه، لانه كما علم أنهم لايتخارون ذلك بسوء اختيارهم علم انهم قادرون. ولو وجب ذلك لوجب أن لايكون تعالى قادرا على ما علم أنه لايفعله وذلك كفر بالله. قوله تعالى:

(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) (١٥٥) آية.

(٢٥)

المعنى، واللغة:

روي عن عمر بن الخطاب، وقتادة، والربيع: ان المعنى بالمتولي في هذه الآية هم الذين ولوا الدبر عن المشركين بأحد. وقال السدي: هم الذين هربوا إلى المدينة في وقت الهزيمة. وقوله: (إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) قيل في الكسب الذي أداهم إلى الفرار الذي اقتترفوه قولان:

أحدهما - محبتهم للغنيمة مع حرصهم على تبقية الحياة، وفي ذلك الوجه عما يؤدي إلى الفتور فيما يلزم من الامور على قول الجبائي.

والثاني - ذكره الزجاج، استزلهم بذكر خطايا سلفت لهم، فكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة منها، والخروج من المظلمة فيها. وقوله: (ولقد عفا الله عنهم) يحتمل أمرين:

أحدهما - قال ابن جريج، وابن زيد: حلم عنهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة به، ليدل على عظم تلك المعصية.

والآخر - عفا لهم تلك الخطيئة ليدل على أنهم قد أخلصوا التوبة. وقوله:

(إن الله غفور رحيم) فحلمه تعالى عنهم هو امهاله بطول المدة بترك الانتقام مع ما فعل بهم من ضروب الانعام.

وأصل الحلم الاناة، وهي ترك العجلة، فالامهال بفعل النعمة بدلان من النعمة كالاناة بترك العجلة. ومنه الحلم في النوم، لان حال السكون والدعة كحال الاناة. ومنه الحلمة: رأس الثدي، لخروج اللبن الذي يحلم الصبي.

وذكر البلخي أن الذين بقوا مع النبي (صلى الله عليه وآله) يوم أحد فلم ينهزموا ثلاثة عشر رجلاً: خمسة من المهاجرين: علي (ع) وأبو بكر، وطلحة، وعبدالرحمن ابن أبي عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الانصار. فعلي وطلحة، لاخلاف فيهما. والباقون فيهم خلاف. وأما عمر، فروي عنه أنه قال: رأيتني

(٢٦)

أصعد في الجبل كأنني أروى (١). وعثمان انهزم، فلم يرجع إلا بعد ثلاثة - أيام - (٢) فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): لقد ذهب في عريضة. وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة: من أن المعاصي من الله، لانه تعالى نسب ذلك في الآية إلى استزلال الشيطان. قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) (١٥٦) آية. المعنى، واللغة، والاعراب:

هذا خطاب متوجه إلى المؤمنين الذين نهامهم الله أن يكونوا مثل الذين كفروا، وقالوا لآخوانهم، وهم عبدالله بن أبي بن سلول، وأصحابه - في قول السدي ومجاهد -: (إذا ضربوا في الأرض) أي سافروا فيها لتجارة أو طلب معيشة - في قول ابن اسحاق، والسدي -، فأصله الضرب باليد. وقيل الاصل في الضرب في الأرض الايغال في السير (أو كانوا غزى) أي جمع غاز كما قالوا: شاهد وشهد، وقائل وقول، قال رؤبة:

فاليوم قد نههني تنهني * وأول حلم ليس بالمسفه

وقول: الاداه فلاده (٣)

(١) اروى: ضأن الجبل. ج أروية - بضم الهمزة وكسرها -.

(٢) (ايام) ساقطة من المطبوعة (٣) ديوانه: ١٦٦ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٠٦ واللسان: (قول)، (ده)

وخزانة الادب ٣: ٩٠ وغيرها وهو من قصيدة يذكر فيها شبابه. نههت فلانا عن الشيء -

(٢٧)

ويجوز فيه غزاة كقاض، وقضاة. وغزاء ممدود كمخارب وخراب، وكاتب وكتاب. ويجوز (قالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض،) ولايجوز اكرمك إذا زرتي على أن توقع إذا موضع إذ، لامرين:

أحدهما لانه متصل ب (لاتكونوا) كهؤلاء إذا ضرب اخوانكم في الارض. الثاني - لان (الذي) إذا كان مبهما غير موقت يجري مجرى ما في الجزاء، فيقع الماضي فيه. وقع المستقبل، نحو (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) (١) معناه يكفرون، ويصدون. ومثله (إلا من تاب وآمن) (٢) معناه إلامن يتوب. ومثله كثير. ويجوز لاکرم من الذي أكرمك إذا زرته، لابهام الذي، ولايجوز لاکرم من هذا الذي أكرمك إذا زرته، لتوقيت الذي من أجل الاشارة إليه بهذا ولانه دخله معنى كلما ضربوا في الارض، فلا يصح على هذاالمعنى إلا باذا دون إذ قال الشاعر:

واني لاتيكم تشكر ما مضى * من الامر واستيجاب ما كان في غد (٣)
أي ما يكون في غد، وهذا قول الفراء واللام في قوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) متعلقة ب (لاتكونوا) كهؤلاء الكفار في هذا القول منهم، (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) دونكم.

والثاني - قالوا ذلك ليحمله حسرة على لام العاقبة - وهذا قول أبي علي - والحسرة عليهم في ذلك من وجهين:

أحدهما - الخيبة فيما أملوا من الموافقة لهم من المؤمنين، فلما لم يقبلوا منهم،

فتنه زجرته فانزجر. والاول: الرجوع وقد اختلف في تفسير (الاده فلاده). قال أبو عبيدة: ان لم يكن هذا، فلا ذاقال ابن قتيبة: ان لم يكن هذا الامر لم يكن غيره.

ويروي أهل العربية ان الدال مبدلة من ذال. قال بعضهم: هذا مثل يضرب للرجل يطلب شيئاً فاذا منعه، طلب غيره. وقال الاصمعي: لا أدري ما أصله. قال بعضهم: (ده) كلمة فارسية:

(١) سورة الحج: آية ٢٥.

(٢) سورة مريم: آية ٦٠.

(٣) انظر ١: ٣٥١.

(٢٨)

كان ذلك حسرة في قلوبهم.

والآخر - ما فاتهم من عز الظفر والغنيمة. وقوله: (والله يحيي ويميت) معناه ههنا الاحتجاج على من خالف أمرالله في الجهاد طلباً للحياة، وهرباً من الموت، لان الله تعالى إذا كان هو الذي يحيي ويميت لم ينفع (١) الهرب من أمره بذلك خوف الموت، وطلب

الحياة (والله بما يعملون بصير) أي مبصر. ويحتمل أن يكون بمعنى عليم. وفيه تهديد، لأن معناه أن الله يجازي كلا منهم بعمله ان خيرا فحيرا وان شرا فشرًا.
قوله تعالى:

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) (١٥٧) آية.
المعنى، والاعراب:

إن قيل كيف قال: (المغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) مع تفاوت ما بينهما ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الانسان للذرة (٢) خير من البعرة؟! قيل: إنما جاز ذلك لان الناس يؤثرون حال الدنيا على الآخرة حتى أنهم يتركون الجهاد في سبيل الله محبة للدنيا، والاستكثار منها، وما جمعوا فيها.

فان قيل أين جواب الجزاء ب (إن)؟ قيل: استغني عنه بجواب القسم في قوله: (المغفرة من الله ورحمة خير) وقد اجتمع شيئان كل واحد منهما يحتاج إلى جواب، فكان جواب القسم أولى بالذكر - لان له صدر الكلام - مما يذكر في حشوه.

فان قيل: لم شرط (المغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) وهو خير كيف

(١) في المخطوطة (لم يمنع).

(٢) في المخطوطة (الذرة).

(٢٩)

تصرفت الحال؟ قلنا: لانه لا يكون (المغفرة) بالتعرض للقتل في سبيل الله خيرا من غير أن يقع التعرض لذلك لاستحالة استحقاقها بما لم يكن منه، لانه لم يفعل.

فان قيل: لم جاز جواب القسم مع الماضي في الجزاء دون المستقبل في نحو قولهم لئن قتلتم لمغفرة خير؟ قلنا: لان حرف الجزاء إذا لم يعمل في الجواب لم يحسن أن يعمل في الشرط، لان إلغاءه من أحدهما يوجب إلغاءه من الآخر كما أن أعماله في أحدهما يوجب أعماله في الآخر لئلا يتنافر الكلام بالتفاوت.

فان قيل: لم أعملت (ان) ولم تعمل (لو) وكل واحدة منهما تعقد الفعل بالجواب؟ قلنا: لان (ان) تنتقل الفعل نقلين إلى (١) الاستقبال، والجزاء، وليس كذلك (لو) لانها لمامضى.

ان قيل: كيف وجب بالتعرض للقتل المغفرة وإنما تجب بالتوبة؟ قلنا: لانه يجب به تكفير الصغيرة مع أنه لطف في التوبة من الكبيرة. ومعنى الآية أن المنافقين كانوا يثبطون المؤمنين عن الجهاد، على ما تقدم شرحه في هذه السورة فيبين الله تعالى لو انكم إن قتلتم أو متم من غير أن تقتلوا (لمغفرة من الله ورحمة)

تتالونها (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا، والبقاء فيها، وانتفاعكم في هذه الدنيا، لان جميع ذلك إلى زوال.

قوله تعالى: (ولئن متم أو قتلتم لآلى الله تحشرون) (١٥٨) آية.

اللغة، والاعراب،، والمعنى:

اللام في قوله: (ولئن متم أو قتلتم) يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون خلفا من القسم، ويكون اللام في قوله: (لآلى الله)

جوابا كقولك: والله ان متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله.

(١) في المطبوعة (في) بدل (إلى)

(٣٠)

والثاني - أن تكون مؤكدة لما بعدها، كمتأكد (ان) مابعدها، وتكون الثانية جوابا لقسم محذوف، والنون مع لام القسم في فعل المضارع لآبد منها، لان القسم أحق بالتأكيد من كلما تدخله النون من جهة أن ذكر القسم دليل أنه من مواضع التأكيد فاذا جازت في غيره من الامر، والنهي، والاستفهام، والعرض، والجزاء مع ما اذ كان ذكر القسم قد أنبأ أنه من مواضع التأكيد، لزمتم فيه، لانه أحق بها من غيره (١). والفرق بين لام القسم ولام الابتداء: أن لام الابتداء تصرف الاسم إليه، فلا يعمل فيه ما قبلها نحو (قد علمت لزيد خير منك)

(وقد علمت بأن زيدا ليقدم). وليس كذلك لام القسم، لانها لا تدخل على الاسم، ولا تكسر لها لام (إن) نحو قد علمت ان زيدا ليقومن، ويلزمها النون في المستقبل. والفرق بين (أو) و (أم) أن (أم) استفهام، وفيها معادلة الالف نحو (أزيد في الدار أم عمرو) وليس ذلك في (أو) ولهذا اختلفت الجواب فيهما، فكل في (أم) بالتعيين وفي (أو) ب (نعم) أو (لا)

ومعنى الآية الحث على الجهاد وترك التقاعد. ويقال أن الله يحشر العباد ليجزي كل واحد على ما يستحقه: المحسن على احسانه والمسئ على اساءته سواء قتل أو مات كيف تصرفت به الحال.

قوله تعالى:

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (١٥٩) آية.

(١) في المخطوطة (لم لان الاخر من تفسير) بدل (فيه لانه أحق بها من غير) وقد أثبتنا ما في المطبوعة لانه أوضح.

(٣١)

الاعراب والمعنى: قوله: (فبما رحمة من الله) معناه فبرحمة، وما زائدة باجماع المفسرين ذهب إليه قتادة، والزجاج، والفراء وجميع أهل التأويل. ومثله قوله: (عما قليل ليصبحن نادمين) فجاءت (ما) مؤكدة للكلام وسبيل دخولها لحسن النظم، كدخولها لاتزان الشعر، وكل ذلك تأكيد ليتمكن المعنى في النفس، فجرى مجرى التكرير. قال الحسن بن علي المغربي عندي أن معنى (ما) أي وتقديره فبأي رحمة من الله، وهذا ضعيف. ورحمة مجرورة بالباء، ولو رفعت كان جائزا على تقدير فيما هو رحمة. والمعنى ان لينك لهم مما يوجب دخولهم في الدين، لانك تأتيهم بالحجج والبراهين مع لين خلق.

اللغة، والمعنى:

وقوله: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) فالفظ الجافي، والغليظ القلب القاسي، يقال فيه فظظت تفظ فظاظة، فأنت فظ، وهو على وزن فعل إلا أنه ادغم كضب. وأصل الفظاظة الجفوة. ومنه الفظاظة. ومنه الفظاظ:

خشونة الكلام. والافتظاظ: شرب ماء الكرش لجفائه على الطباع.

وقوله: (فظا غليظ القلب) انما جمع بين الصفتين مع اتفاقهما في المعنى، لازالة التوهم أن الفظاظة في الكلام دون ما ينطوي عليه القلب من الحال، وهو وجه من وجوه التأكيد إذ يكون لازالة الغلط في التأويل، ولتمكين المعنى في النفس بالتكرير، وما يقوم مقامه.

وقوله: (وشاورهم في الامر) أمر من الله تعالى لنبيه أن يشاور أصحابه يقال شاورت الرجل مشاورة وشوارا وما يكون عن ذلك اسمه المشورة. وبعضهم يقول المشورة. وفلان حسن الشورة، والصورة أي حسن الهيئة واللباس وإنه لشير صير، وحسن الشارة، والشوار: متاع البيت. ومعنى شاورت فلانا أي

(٣٢)

أظهرت ما عندي في الرأي، وما عنده (١). وشرت الدابة أشورها: إذا امتحنتها فعرفت هيئتها في سيرها. وقيل في وجه مشاورة النبي (صلى الله عليه وآله) إياهم مع استغنائه بالوحي عن تعرف صواب الرأي من العباد ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة، والربيع، وابن اسحاق أن ذلك على وجه التطيب لنفوسهم، والتأليف لهم، والرفع من أقدارهم إذ كانوا ممن يوثق بقوله: (ويرجع إلى رأيه).

والثاني - قال سفيان بن عيينه: وجه ذلك لتقتدي به أمته في المشاورة ولا يرونها منزلة نقيصة كما مدحوا بأن أمرهم شورى بينهم.

الثالث قال الحسن، والضحاك: انه للامرين، لاجلال الصحابة واقتداء الامة به في ذلك. وأجاز أبو علي الجبائي: أن يستعين برأيهم في بعض أمور الدنيا.

وقال قوم: وجه ذلك أن يمتحنهم فيتميز الناصح في مشورته من الغاش النية.

وقوله: (فاذا عزمت فتوكل على الله) فالتوكل على الله هو تعويض الامر إليه للثقة بحسن تدبيره، وأصله الاتكال، وهو الاكتفاء في فعل ما يحتاج إليه بمن يسند إليه. ومنه الوكالة، لانها عقد على الكفاية بالنيابة والوكيل هو المتكل عليه بتقويض الامر إليه. وقوله: (إن الله يحب المتوكلين) معناه يريد ثوابهم على توكلهم واسنادهم أمورهم إلى الله تعالى.

قوله تعالى: (إن ينصركم الله فלא غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١٦٠)

- آية بلاخلاف -.

المعنى: معنى هذه الآية الترغيب في طاعة الله التي يستحق بها النصر، والتحذير

(١) في المخطوطة ساقطة جملة (في الرأي وماعده).

(٣٣)

من معصيته التي يستحق بها خذلانه مع ايجاب التوكل عليه الذي يؤمن معه أن يكلمهم إلى أنفسهم فيهلكوا، ولانه إذا نصرهم الله فلا أحد يقدر على مغالبتة، وإذا خذلهم فلا أحد يقدر على نصرتهم بعده. و (من) في قوله: (فمن ذا الذي ينصركم من بعده) معناها التقرير بالنفي في صورة الاستفهام أي لا ينصركم أحد من بعده، كما تقول من يعد لك إن فسقك الامام. وإنما تضمن حرف الاستفهام معنى النفي، لان جوابه يجب أن يكون بالنفي، فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه.

وكان أبلغ لتقرير المخاطب فيه. قال أبو علي الجبائي: وفي الآية دليل على أن من غلبه أعداء الله من الباغين لم ينصره الله، لانه لو نصره لما غلبوه، وذلك بحسب ما في المعلوم من مصالح العباد من تعريض المؤمنين لمنازل الابرار بالصبر على الجهاد مع خوف القتل من حيث لم يجعل على أمان من غلبة الفجار، وهذا إنما هو في النصر بالغلبة، فاما النصر بالحجة، فان الله تعالى نصر المؤمنين من حيث هداهم إلى طريق الحق بما نصب لهم من الأدلة الواضحة والبراهين النيرة، ولولا ذلك لماحسن التكليف. قال البخاري: المؤمنون منصورون أبداً إن غلبوا، فهم المنصورون بالغلبة، وإن غلبوا، فهم المنصورون بالحجة. قال

الجبائي: والنصر بالغلبة ثواب، لانه لايجوز أن ينصر الله الظالمين من حيث لايريد استعلاءهم بالظلم على غيرهم.

وقال ابن الاخشاد: ليس بثواب كيف تصرفت الحال، لان الله قد أمرنا أن ننصر الفئة المبغي عليها.

وقال البلخي لايجوز أن ينصر الله الكافر على وجه. فأما الخذلان فعقاب بلاخلاف. والخذلان هو الامتناع من المعونة على العدو في وقت الحاجة إليها، لانه لو امتنع إنسان من معونة بعض الملوك على عدوه مع استغناؤه عنها لم يكن خاذلاً، وكذلك سبيل المؤمن المغلوب في بعض الحروب ليس يحتاج إلى المعونة مع الاستفساد بها بدلا من الاستصلاح، فلذلك لم يكن ماوقع به على جهة الخذلان.

(٣٤)

قوله تعالى:

(وماكان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون) (١٦١) - آية - .

القراءة، والمعنى، والحجة، والنزول، واللغة:

قرأ ابن كثير وابن عمرو، وعاصم (يغفل) بفتح الياء وضم الغين. الباقون بضم الياء وفتح الغين. فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه ماكان لنبي أن يخون يقال من الغنيمة غل يغل: إذا خان فيها. ومن الخيانة أغل يغل قال النمر بن تولب:

جزى الله عنا حمزة ابنة نوفل * جزاء مغل بالامانة كاذب

بما سألت عني الوشاة ليكذبوا * علي وقد أوليتها في النوائب (١)

(ويقال من - (٢) الخيانة غل يغل، ومن قرأ بضم الياء وفتح الغين أراد، وماكان لنبي أن

يخون أي ينسب) إليه الخيانة. ويحتمل أن يكون أراد ما كان لنبي أن يخان بمعنى يسرق منه. ويكون تخصيص النبي بذلك تعظيماً للذنب. قال أبو علي الفارسي: لا يكاد يقال: ما كان لزيد أن يضرب، فهذه حجة من قرأ بفتح الياء. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: سبب نزول هذه الآية أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغنم، فقال بعضهم لعل النبي (صلى الله عليه وآله) أخذها. وقال الضحاك إنما لم يقسم للطلائع من المغنم، فعرفه الله الحكم. وروي عن الحسن أنه قال: معنى يغل يخان. وقال بعضهم: هذا غلط، لانه لايجوز أن يخان أحد نبيا كان أو غيره، فلا معنى للاختصاص. وهذا الطعن ليس بشئ لان وجه اختصاصه بالذكر لعظم خيانتته

على خيانة غيره، كماقال: (اجتنبوا الرجس من الاوثان) (٣)

وإن وجب اجتناب جميع الأرجاس، وقد يجوز أن يخص النبي بالذكر، لأنه القائم

(١) الصحاح للجوهري (غلل).

(٢) مابين القوسين ساقط من المطبوعة.

(٣) سورة الحج: آية ٣٠

(٣٥)

بأمر الغنائم، فيكون بمنزلة ماكان لاحد أن يغل. وأصل الغلول هو الغلل، وهو دخول الماء في خلل الشجر تقول: الغل الماء في أصول الشجر ينغل الغللا، فالغلول الخيانة، لأنها تجري في الملك على خفى من غير الوجه الذي يحل كالغلل، وانما خصت الخيانة بالصفة دون السرقة، لأنه يجري إليها بسهولة، لأنها مع عقد الامانة. ومنه الغل الحقد، لان العداوة تجري به في النفس كالغلل. ومنه الغل. ومنه الغليل، حرارة العطش. والغلة، لأنها تجري في الملك من جهات مختلفة، والغلالة، لأنها شعار تحت. البدن والغلالة مسمار الدرع. وقوله: (ومن يغلل يأت بماغل يوم القيامة) قيل في معناه قولان:

أحدهما - يأتي به حاملا له على ظهره، كما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه كان إذا غنم مغنمابعت مناديا ألا لا يغلن أحد مخيطا فما دونه، ألا لا يغلن أحد بعيرا فيأتي به على ظهره له رغاء، ألا لا يغلن أحد فرسا فيأتي به يوم القيامة على ظهره له حممة - في قول ابن عباس، وأبي هريرة وأبي حميد الساعدي، عبدالله بن انيس وابن عمر، وقتادة - وذلك ليفضح به على رؤوس الاشهاد. قال البلخي: يجوز أن يكون ما تضمنه الخبر على وجه المثل كأن الله تعالى إذا فضحه يوم القيامة جرى ذلك مجرى أن يكون حاملا له وله صوت.

الثاني - يأتي به يوم القيامة، لأنه لم يكفر عنه، كما تكفر الصغائر، فهو يعاقب عليه.

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: إن الله تعالى لو عذب الانبياء والمؤمنين لم يكن ظلما لهم، لأنه قد بين أنه لو لم يوفها ماكسبت، لكان ظلما لها.

قوله تعالى:

(أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (١٦٢) - آية

بلاخلاف -.

(٣٦)

المعنى، والنزول:

قيل. في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها قال الحسن، والضحاك معناها، أفمن اتبع رضوان الله في ترك الغلول كمن باء بسخط من الله في فعل الغلول، وهو اختيار الطبري قال: لأنه أشبه بما تقدم.
الثاني - قال ابن اسحاق (أفمن اتبع رضوان الله) في العمل بطاعته على ماكره الناس (كمن باء بسخط من الله) في العمل بمعصيته على ما أحبوا.
الثالث - قال الزجاج، وأبو علي: (أفمن اتبع رضوان الله) بالجهد في سبيله (كمن باء بسخط من الله) بالفرار منه رغبة عنه.
وسبب نزولها أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما أمر بالخروج إلى أحد قعد عنه جماعة من المنافقين، فأنزل الله فيهم هذه الآية.
اللغة:

(ورضوان الله) - بكسر الراء وضمها - لغتان، وقرأ بالضم حفص عن عاصم على ما حكيناه عنه، فالضم على وزن الكفران. والكسر على وزن حسابان.
وباء معناه رجع تقول: باء بذنبه يبيوء بوءا إذا رجع به. وبوأتة منزلا أي هيأته، لأنه يرجع إليه، لأنه مأواه. والبواء قتل الجائي بمن قتله. والسخط من الله من هو إرادة العقاب بمسحقه، ولعنه وهو مخالف للغيب، لأن الغيظ هو هيجان الطبع وانزعاج النفس، ولا يجوز إطلاقه على الله تعالى. والمصير: هو المرجع.
والفرق بينهما أن المرجع هو انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها. والمصير: انقلاب الشيء إلى خلاف الحال التي هو عليها نحو مصير الطين خزفا، ولم يرجع خزفا، لأنه لم يكن قبل ذلك خزفا، فأما مرجع الفضة خاتما فصحيح، لأنه قد كان قبل خاتما وأما مرجع العباد إلى الله، فلأنهم ينقلبون إلى حال لا يملكون فيها لانفسهم شيئا، كما كانوا قبل ما ملكوا.

(٣٧)

قوله تعالى: (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) (١٦٣) - آية - المعنى:
قيل معنى قوله: (هم درجات عند الله) أن تقديره المؤمنون ذوا درجة رفيعة عند الله. والكفار ذوا درجة خسيصة. وقيل في معناه قولان:
أحدهما - اختلاف مراتب كل فريق من أهل الثواب، والعقاب، لأن النار أدراك لقوله: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) (١) والجنة طبقات بعضها أعلى من بعض، كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل عليين (٢)، كما يرى النجم في أفق السماء.
والثاني - اختلاف مرتبتي أهل الثواب، والعقاب بالمهولاء من النعيم، والكرامة ولاولئك من العذاب والمهانة. وعبر عن ذلك بدرجات مجازا. فان قيل كيف قال: (هم درجات) وانما لهم درجات) وانما لهم درجات قيل، لأن اختلاف أعمالهم قد ميزهم بمنزلة المختلفي الذوات

كاختلاف مراتب الدرجات لتبعيدهم من استواء الاحوال، فجاء هذا على وجه التجوز، كما قال ابن هرمة انشده سيبويه -:

أنصب للمنية تعزيرهم * رجالي أم هم درج السيول (٣)

وقوله: (والله بصير بما يعملون) معناه عليم. وفيه تحذير من أن يتكل على الاسرار في الاعمال ظنا بأن ذلك يخفى على الله، لان أسرار العباد عند الله علانية. وفيه توثيق بأنه لا يضيع للعامل لربه شئ لانه لا يخفى عليه جميعه.

(١) سورة النساء: آية ١٤٤.

(٢) في المخطوطة (أ) كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل النار يطعون عليهم فيرونهم كما يرى النجم في افق السماء. والاصح مافي المطبوعة.

(٣) سيبويه ١: ٢٠٦، واللسان (درج) ومجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٠٧ والخزانة ١: ٢٠٣ وقد رواه بعضهم: أرجما للمنون يكون قومي * لريب الدهر أم درج السيول

(٣٨)

اللغة، والحجة:

وأصل الدرجة الرتبة، فمنه الدرج، لانه يطوى رتبة بعد رتبة يقال:

أدرجه إدراجا. والدرجان مشي الصبي لتقارب الرتب، درج يدرج درجا ودرجانا.

والدرج معروف. والترقي في العلم درجة بعد درجة أي منزلة بعد منزلة كالدرجة المعروفة. فان قيل هلا كان القرآن كله حقيقة، ولم يكن فيه شئ من المجاز، فان الحقيقة أحسن من المجاز؟ قلنا: ليس الامر على ذلك فان المجاز في موضعه أولى، وأحسن من الحقيقة لما فيه من الايجاز من غير اخلال بمعنى، وهي المبالغة بالاستعارة التي لا تنوب منابها الحقيقة، لان قولهم إذ هو الشمس ضياء أبلغ في النفوس من قولهم هو كالشمس ضياء، كذلك الجزاء بالجزاء أحسن من الجزاء بالابتداء، لانه أدل على تقابل المعنى بتقابل اللفظ، فكذلك (هم درجات) أولى وأبلغ من هم أهل درجات، للايجاز من غير اخلال.

قوله تعالى:

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (١٦٤) - آية -.

اللغة، والمعنى:

قوله: (لقد من الله) معناه أنعم الله. وأصل المن القطع. منه يمنه منا:

إذا قطعه. (ولهم أجر غير ممنون) (١) أي غير مقطوع. والمن النعمة، لأنه يقطع بها عن البلية. ويقول القائل: من علي بكذا أي استتقذني به مما أنا فيه. والمن تكدير النعمة، لأنه قطع لها عن وجوب الشكر عليها. والمنة القوة، لأنه

(١) سورة حم السجدة: آية ٨ وسورة الانشقاق: آية ٢٥.

(٣٩)

يقطع بها الاعمال. وفي تخصيص المؤمن بذكر هذه النعمة وإن كانت نعمة على جميع المكلفين قيل فيه من حيث أنها على المؤمنين أعظم منها على الكافرين، لأنها نعمة عليهم من حيث هي نفع في نفسها. وفيما يؤدي إليه من الايمان بها، والعمل بما توجبه أحكامها، فالمؤمن يستحق اضافتها إليه من وجهتين، لما بيناه من حالها، ونظائر ذلك قد بيناه مثل قوله: (هدى للمتقين) وغير ذلك وإنما أضافه إلى المتقين من حيث أنهم المنتفعون بها دون غيرهم. وقوله: (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها من أنفسهم ليكون ذلك شرفا لهم، فيكون ذلك داعيا لهم إلى الايمان.

الثاني - من أنفسهم، لسهولة تعلم الحكمة عليهم، لأنه بلسانه.

الثالث - من أنفسهم، ليتيسر عليهم علم أحواله من الصدق والامانة والعفة والطهارة. وقال الزجاج: من عليهم إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم من الاميين، لا يتلو كتابا ولا يخط بيمينه، فنشأ بين قوم يخبرونه ويعرفونه بالصدق والامانة وأنه لم يقرأ كتابا ولا لقنه، فتلا عليهم أقاصيص الامم السالفة، فكان ذلك من أدل دليل على صدقة فيما أتى به. وقوله: (يتلو عليهم آياته) معناه يقرأ عليهم ما أنزله عليه من آيات القرآن (ويزكيهم) يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها - يشهد لهم بأنهم أزكيا في الدين، فيصيروا بهذه المنزلة الرفيعة في الخلق.

الثاني - يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين سالكين سبيل المهتدين.

الثالث - قال الفراء يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها. وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعني القرآن، وهو الحكمة. وإنما كرره بواو العطف لامرين:

أحدهما - قال قتادة: الكتاب القرآن، والحكمة السنة.

والثاني - لاختلاف فائدة الصفتين، وذلك أن الكتاب ذكر للبيان أنه مما يكتب ويخدا ليبقى على الدهر، والحكمة البيان عما يحتاج إليه من طريق المعرفة.

(٤٠)

وقوله: (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) يعني أنهم كانوا كفارا. وكفرهم هو ضلالهم فأنقذهم الله بالنبى (صلى الله عليه وآله).

قوله تعالى: (أولما أصابنكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير) (١٦٥) - آية واحده - المعنى: إنما دخلت الواو في (أولما أصابنكم) لعطف جملة على جملة إنه تقدمها ألف الاستفهام، لأن له صدر الكلام. وإنما اتصل الواو الثاني بالاول ليدل على تعلقه به في المعنى، وذلك أنه وصل التقريع على الخطيئة بالتذكير بالنعمة لفرقة واحدة. والمصيبة التي أصابت المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد، فإنه قتل منهم سبعون رجلا وكانواهم أصابوا من المشركين يوم بدر مثليها، فانهم كانوا قتلوا من المشركين سبعين وأسرهم سبعين في - قول قتادة، والربيع، وعكرمة، والسدي - فقال الزجاج: لانهم أصابوا يوم أحد منهم مثلهم، ويوم بدر مثلهم، فقد أصابوا مثلهم. وهذا ضعيف، لانه خلاف لاهل السير، لانه لاخلاف أنه لم يقتل من المشركين مثل من قتل من المسلمين بل قتل منهم نفر يسير، فحمله على ما قاله ترك الظاهر. وقوله: حكاية عن المسلمين (أنى هذا) أي من أين هذا.

وقوله: (قل هو من عند أنفسكم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة، والربيع: لانهم اختلفوا في الخروج من المدينة للقتال يوم أحد وكان دعاهم النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أن يتحصنوا بها ويدعوا المشركين إلى أن يقصدوهم فيها، فقالوا كنا نمتنع من ذلك في الجاهلية، ونحن في الاسلام، وأنت يارسول الله نبينا أحق بالامتناع وأعز.

والثاني - روي عن علي (ع) وعبيدة السلماني أن الحكم كان في أسرى بدر

(٤١)

القتل، فاختراروا هم الفداء، وشرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم في القابل بعدتهم، فقالوا رضينا بذلك، فانا نأخذ الفداء وننتفع به. وإذا قتل منافيما بعد كنا شهداء. وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

الثالث - لخلاف الرماة يوم أحد لما أمرهم به النبي (صلى الله عليه وآله) من ملازمة موضعهم. وقوله: (إن الله على كل شئ قدير) معناه ههنا أنه على كل شئ قدير يدبركم بأحسن التدبير من النصر مع طاعتكم وتركه مع المخالفة إلى ما وقع به النهي، وهذا جواب لقوله: (أنى هذا) وقد تقدم الوعد بالنصرة، وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة: بان المعاصي كلها من فعل الله، لانه تعالى قال (قل هو من عند أنفسكم) ولولم يكن فعلوه، لما كان من عند أنفسهم كما أنه لو فعله الله، لكان من عنده.

قوله تعالى:

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين) (١٦٦) - آية -.

المعنى:

قوله: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) يعني يوم أحد وما دخل عليهم من المصيبة بقتل من قتل من المؤمنين. وقوله: (فباذن الله) قيل في معناه قولان:
أحدهما - بعلم الله. ومنه قوله: (فاذنوا بحرب من الله) (١) معناه اعلموا ومنه قوله: (وآذان من الله) (٢) أي إعلام. ومنه (أذناك ما منا من شهيد) (٣) يعني أعلمناك.
الثاني - أنه بتخليئة الله التي تقوم مقام الاطلاق في الفعل برفع الموانع،

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٩.

(٢) سورة التوبة: آية ٣.

(٣) حم السجدة: آية ٤٧.

(٤٢)

والتمكين من الفعل الذي يصح معه التكليف. ولايجوز أن يكون المراد به بأمر الله، لانه خلاف الاجماع، لان أحدا لايقول: إن الله يأمر المشركين بقتل المؤمنين، ولانه يأمر بشئ من القبائح، ولان الامر بالقبيح قبيح، لايجوز أن يفعله الله تعالى. ويمكن أن يحمل مع تسليم أنه بأمر الله بأن يكون ذلك مصروفا إلى المنهزمين المعذورين بعد اخلال من أخل بالشعب، وضعفهم عن مقاومة عدوهم، وان حمل على الجميع أمكن أن يكون ذلك بعد تفرقهم وتبدد شملهم وانفساد نظامهم، لان عند ذلك أذن الله في الرجوع وألا يخاطروا بنفوسهم وقوله: (وليعلم المؤمنين) ليس معناه أن الله يعلم عند ذلك ما لم يكن عالما به، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها وإنما معناه، وليتميز المؤمنون من المنافقين إلا أنه أجرى على المعلوم لفظ العلم مجازا على المظاهرة في المجازاة بالقول على ما يظهر من الفعل من جهة أنه ليس يعاملهم بما في معلومه أنه يكون منهم إن بقوا، بل يعاملهم معاملة من كأنه لايعلم ما يكون منهم حتى يظهر. ليكونوا على غاية الثقة بأن الله إنما يجازي بحسب ما وقع من الاحسان أو الاساءة.

فان قيل: هل يجوز أن يقول القائل: المعاصي تقع باذن الله، كما قال:

(ما أصابكم) من ايقاع المشركين بكم (باذن الله)؟ قلنا: لايجوز ذلك لان الله تعالى إنما خاطبهم بذلك على وجه التسلية للمؤمنين، فدل ذلك على أن الاذن المراد به التمكين ليمتيزوا بظهور الطاعة منهم. وليس كذلك قولهم: المعاصي باذن الله، لانه لما عري من تلك القرينة صار بمعنى اباحة الله، والله تعالى لايبيح المعاصي، لانها قبيحة، ولان إباحتها تخرجها من معنى المعصية. والفاء انما دخلت في قوله:

(فبأذن الله) لان خبر (ما) التي بمعنى الذي يشبه جواب الجزاء، لانه معلق بالفعل في الصلة كتعليقه بالفعل في الشرط، كقولك الذي قام فمن أجل أنه كريم أي، لاجل قيامه صح أنه كريم. ومن أجل كرمه قام. وقد قيل أن (ما) هي بمعنى الجزاء، ولا يصح ههنا لان الفعل بمعنى المضي.

(٤٣)

قوله تعالى: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)

(١٦٧) - آية بلا خلاف -.

المعنى: قوله: (وليعلم الذين نافقوا) عطف على قوله: (وليعلم المؤمنين) وقيل في خبر ليعلم قولان:

أحدهما - أنه مكتف بالاسم، لانه بمعنى ليعرف المنافقين.

والثاني - أنه محذوف، وتقديره: وليعلم المنافقين متميزين من المؤمنين.

وقوله: (وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله) روي أن القائل لهم ذلك كان عبدالله بن عمرو بن خزام يذكرهم الله ويحذرهم أن يخذلوا نبيه عند حضور عدوه - في قول ابن اسحاق والسدي - وقوله: (أو ادفعوا) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال السدي، وابن جريج: ادفعوا بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا.

الثاني - قال ابن عون الانصاري: معناه رابطوا بالقيام على الخيل إن لم تقاتلوا معنا. وقوله: (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال ابن اسحاق، والسدي ان القائل لذلك عبدالله بن أبي بن سلول، انزل يوم أحد بثلاثمائة نفس، قال لهم علام نقتل أنفسنا ارجعوا بنا، وقالوا للمؤمنين لا يكون بينكم قتال، ولو علمنا أنه يكون قتال لخرجنا معكم وأضمرنا في باطنهم عداوة النبي (صلى الله عليه وآله)، والمؤمنين، فقال الله تعالى: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) لانهم بهذا الاظهار إلى الكفر أقرب منهم للايمان إذ كانوا قبل ذلك في ظاهر أحوالهم إلى الايمان أقرب

(٤٤)

حتى هتكوا أنفسهم عندهم كانت تخفى عليه حالهم من المؤمنين الذين كانوا يحسنون الظن بهم، وليس المراد أن بينهم وبين المؤمنين قربا يوجب دخول لفظة أفعل بينهم. وانما هو مثل قول القائل: - وهو صادق - لمن هو كاذب: أناأصدق منك، وإن لم يكن بينهما مقارنة في

الصدق. وقوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) انما ذكر الافواه، وإن كان القول لا يكون إلا بالافواه لامرين:

أحدهما - للتأكيد من حيث يضاف القول إلى الانسان على جهة المجاز، فيقال: قد قال كذا: إذقاله غيره ورضي به، وكذلك (يكتبون الكتاب بأيديهم) (١) أي يتولونه على غير جهة الامر به.

والثاني - لانه فرق بذكر الافواه بين قول اللسان وقول الكتاب.

وقوله: (والله أعلم بما يكتُمون) يعني أعلم من الكافرين الذين قالوا:

لا يكون قتال، وما كتموه في نفوسهم من النفاق.

قوله تعالى: (الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (١٦٨) - آية - .

الاعراب:

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب:

أحدها - أن يكون نصباعلى البدل من الذين نافقوا.

الثاني - الرفع على البدل من الضمير في يكتُمون.

الثالث - الرفع على خبر الابتداء، وتقديره: هم (الذين قالوا لآخوانهم)

(١) سورة البقرة: آية ٧٩.

(٤٥)

المعنى:

والمعنى بهذا الكلام والقائلون لهذا القول عبدالله بن أبي وأصحابه من المنافقين قالوه في قتلنى يوم أخدمن آخوانهم على قول جابر بن عبدالله، وقتادة، والسدي، والربيع - وقوله: (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) معناه ادفعوا قال الشاعر:

تقول إذا درأت لها وضيئي * أهذا دينه أبدا وديني (١)

فان قيل كيف يلزمهم دفع الموت عن أنفسهم بقولهم أنهم لو لم يخرجوا لم يقتلوا؟ قيل لان من علم الغيب في السلامة من القتل يجب أن يمكنه أن يدفع عن نفسه الموت فليدفعه، فهو، أجدى عليه.

فان قيل: كيف كان هذا القول منهم كذبا مع أنه اخبار على ماجرت به العادة؟ قلنا: لانهم لا يدرون لعلمهم لو لم يخرجوا لدخل المشركون عليهم في ديارهم، فقتلوهم هذا قول أبي علي وقال غيره معنى (إن كنتم صادقين) أي محقين في تثبيطكم من الجهاد فرارا من القتل.

قوله تعالى:

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (١٦٩) - آية
بلاخلاف -.

المعنى:

ذكر ابن عباس، وابن مسعود، وجابر بن عبدالله عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال لما
أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد انهار الجنة، وتأكل من
ثمارها. قال البلخي: وهذا ضعيف، لان الارواح جماد لاحياة فيها،

(١) انظر ٢: ١٤٨.

(٤٦)

ولو كانت حية لاحتاجت إلى أرواح أخر وأدى إلى مالا يتناهى فضعف الخبر من هذا الوجه. وفي الناس من قال: إن تأويل الآية اخبار عن صفة حال الشهداء في الجنة من حيث فسد القول بالرجعة، وهذا ليس بشئ لانه خلاف الظاهر، ولان أحدا من المؤمن لا يحسب أن الشهداء في الجنة أموات، وأيضا، فقد وصفهم الله بأنهم أحياء فرحون في الحال، لان نصب فرحين هو على الحال.

وقوله: (لم يلحقوا بهم من خلفهم) يؤكد ذلك، لانهم في الآخرة قد لحقوا بهم، ومعنى الآية النهي عن أن يظن أحد أن المقتولين في سبيل الله أموات.

والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله)، والمراد به جميع المكلفين، كما قال: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) وأنه ينبغي أن يعتقد أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله) وبهذا قال الحسن، وعمر بن عبيد، وواصل بن عطاء واختاره الجبائي، والرماني، وأكثر المفسرين. وقال بعضهم وذكره الزجاج: المعنى ولاتحسبنهم أمواتا في دينهم بل هو أحياء في دينهم، كما قال: (أو من كان ميتا فأحييناه)

الآية (١) وقال البلخي معناه: لاتحسبنهم كما يقول الكفار أنهم لا يبعثون بل يبعثون، وهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين). وقال قوم: إن أرواحهم تسرح في الجنة وتلتذ بنعيمها، فهم (أحياء عند ربهم) وقوله: (عند ربهم) قيل في معناه قولان: أحدهما - أنهم بحيث لا يملك لهم أحنفعا ولاضرا إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لان ذلك من صفة الاجسام وذلك مستحيل عليه تعالى.

والوجه الآخر عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس - ذكره أبو علي -
الاعراب:

وقوله: (بل أحياء) رفع على أنه خبر الابتداء، وتقديره بل هم أحياء، ولايجوز فيه النصب بحال، لانه كان يصير المعنى بل احسبنهم أحياء، والمراد بل

(١) سورة الانعام: آية ١٢٢.

(٤٧)

اعلمهم احياء.

المعنى والحجة:

فان قيل لم لايجوز أن يكون المعنى بل أحياء على معنى أنهم بمنزلة الاحياء كما يقال لمن خلف خلفا صالحا أو ثناء جميلا: مامات فلان بل هو حي؟ قلنا:

لايجوز ذلك لانه انما جاز هذا بقريظة دلت عليه من حصول العلم بأنه ميت فانصرف الكلام إلى أنه بمنزلة الحي، وليس كذلك الآية لان إحياء الله لهم في البرزخ جائز مقدور والحكمة تجيزه.

فان قيل أليس في الناس من أنكر الحديث من حيث أن الروح عرض لايحوز أن يتتعم؟ قيل: هذا ليس بصحيح، لان الروح جسم رقيق هوائي مأخوذ من الريح. والدليل على ذلك أن الروح تخرج من البدن وترد إليه وهي الحساسة الفعالة دون البدن، وليست من الحياة في شيء، لان ضد الحياة الموت وليس كذلك الروح - هذا قول الرمانى سؤاله وجوابه - . وفي الآية دليل على أن الرجعة إلى دار الدنيا جائزة لاقوام مخصوصين، لانه تعالى أخبر أن قوما ممن قتلوا في سبيل الله ردهم الله أحياء كما كانوا، فأما الرجعة التي يذهب إليها أهل التناسخ، ففاسدة، والقول بها باطل لما بيناه في غير موضع، وذكرنا جملة منه في شرح جمل العلم فمن أرادَه وقف عليه من هناك ان شاءالله. وقال أكثر المفسرين الآية مختصة بقتلى أحد. وقال أبو جعفر (ع)، وكثير من المفسرين: انها تتناول قتلى بدر وأحد معا. قوله تعالى:

(فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
(١٧٠) - آية - .

(٤٨)

الاعراب:

قوله: (فرحين) نصب على الحال من (يرزقون) وهو أولى من رفعه على بل أحياء لان النصب ينبئ عن اجتماع الرزق والفرح في حال واحدة، ولو رفع على الاستئناف لكان جائزا. وقال الفراء: يجوز نصبه على القطع عن الاول.

المعنى، واللغة:

وقوله: (بما آتاهم الله من فضله) معناه بما أعطاهم الله من ضروب نعمه، ومعنى يستبشرون أي يسرون بالبشارة وأصل الاستفعال طلب الفعل فالمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة، فوجده.

وأصل البشارة من البشرة وذلك لظهور السرور بها في بشرة الوجه. ومنه البشر لظهور بشرته. ومعنى قوله:

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) أي هم بمنزلة من قد بشرفي صاحبه بما يسر به. ولاهل التأويل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن جريج، وقتادة: يقولون: اخواننا يقتلون كما قتلنا فيصيبون من كرامة الله ما أصبنا.

والآخر - أنه يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من اخوانه يبشر ذلك فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدمه في الدنيا - ذكره السدي - وقال الزجاج: معناه أنهم لم يلحقوا بهم في الفعل إلا أن لهم فضلا عظيما بتصديقهم وإيمانهم.

ولحقت ذلك والحقت غيري، مثل علمت وأعلمت، وقيل لحقت وألحقت لغتان بمعنى واحد مثل بان وأبان، وعلى ذلك: إن عذابك بالكفار ملحق أي لاحق على هذا أكثر نقاد الحديث. وروى بعض النقات ملحق بنصب الحاء ذكره البلخي.

وقوله: (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قيل في موضع أن قولان:

أحدهما - انه خفض بالباء وتقديره بان لاخوف، هذا قول الخليل،

(٤٩)

والكسائي والزجاج.

الثاني ان يكون موضعه نصبا على أنه لما حذف حرف الجر نصب بالفعل كما قال الشاعر:

أمرتك الخير (١)

أي بالخير في قول غيرهم.

قوله تعالى: (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين) (١٧١) - آية

-

القراءة:

قرأ الكسائي (وإن الله) - بكسر الالف - الباقون بفتحها على معنى وبأن الله، ورجح هذه

القراءة أبو علي الفارسي. والكسر على الاستئناف. وفي قراءة عبدالله (والله لا يضيع أجر

المؤمنين). وهو يقوي قراءة من قرأ بالكسر.

قوله: (يستبشرون).

المعنى:

يعني هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله الذين وصفهم بانهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من

فضله، وانهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فوصفهم ههنا بانهم يستبشرون بنعمة

من الله وفضل. وفضل الله وان كان هو النعمة قيل في تكراره ههنا قولان:

أحدهما - لانها ليست نعمة مضيقه على قدر الكفاية من غير مضاعفة السرور واللذة.

(٥٠)

والآخر - للتأكيد لتمكين المعنى في النفس، والمبالغة. والنعمة هي المنفعة التي يستحق بها الشكر إذا كانت خالية من وجوه القبح، لأن المنفعة على ضربين: أحدهما - منفعة اغترار، وحيلة، و - الثاني - منفعة خالصة من شائب الاساءة. والنعمة: تعظيم بفعل غير المنعم، كنعمة الرسول على من دعاه إلى الاسلام فاستجاب له، لأن دعاءه له نفع من وجهين:

أحدهما - حسن النية في دعائه إلى الحق ليستجيب له.

والآخر - قصده الدعاء إلى حق من يعلم انه يستجيب له المدعو وانما يستدل بفعل غير المنعم على موضع النعمة في الجلالة وعظم المنزلة.

وقوله: (وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وان كانوا هم علموا ذلك فانما ذكر الله انهم يستبشرون بذلك، لأن ما يعلمونه في دار التكليف يعلمونه بدليل.

وما يعلمونه بعد الموت يعلمونه ضرورة. وبينهما فرق واضح، لأن مع العلم الضروري يتضاعف سرورهم، ويشتد اغتباطهم.

قوله تعالى:

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) (١٧٢) - آية واحدة -.

سبب النزول والقصة:

ذكر ابن عباس والسدي، وابن اسحاق، وابن جريج، وقتادة: ان سبب نزول هذه الآية ان أباسفيان: صخر بن حرب، وأصحابه لما انصرفوا عن أحد، ندموا. وقال بعضهم لبعض: لامحمدا قتلتم ولا الكواعب اردفتهم فارجعوا غيروا على المدينة، واسبوا ذراريهم. وقيل: إن بعضهم قال لبعض: إنكم قتلتم عدوكم حتى إذالم يبق إلا الشريد تركتموهم. ارجعوا فاستأصلوهم. فرجعوا إلى حمراء الاسد وسمع بهم النبي (صلى الله عليه وآله) فدعا أصحابه إلى الخروج، وقال: لا يخرج معنا

(٥١)

إلا من حضرنا أمس للقتال، ومن تأخر عنا، فلا يخرج معنا. وروي أنه (صلى الله عليه وآله) أذن لجابر وحده في الخروج - . وكان خلفه أبوه على بناته يقوم بهن - فاعتل بعضهم بأن قال: بناجراح، وآلام فانزل الله تعالى (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) وقيل نزلت فيهم أيضا (ولاتهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله

مالا يرجون) (١) ثم استجابوا على ما بهم إلى اتباعهم وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فانهزموا من غير حرب.

وخرج المسلمون إلى حمراء الأسد. وهي على ثمانية أميال من المدينة. الاعراب، واللغة:

وموضع (الذين) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: الجر - على أن يكون لغتا للمؤمنين - والرفع - على الابتداء - وخبر الذين الجملة - والنصب - على المدح - وقوله: (من بعد ما أصابهم القرع) معناه من بعد ما نالهم الجراح وأصله الخلوص من الكدر. ومنه ماء قراح أي خالص. والقراح من الارض: ماخلص طينه من السبخ، وغيره. والقريحة خالص الطبيعة. واقترحت عليه كذا أي اشتهيته عليه لخلوصه على ماتتوق نفسه إليه، كأنه قال: استخلصته. وفرس قارح أي طلع نابه لخلوصه ببلوغ تلك الحال عن نقص الصغار، وكذلك ناقة قارح أي حامل. فالقراح الجراح، لخلوص المه إلى النفس.

وأجاب، واستجاب بمعنى واحد. وقال قوم: استجاب: طلب الاجابة.

واجاب: فعل الاجابة. وقوله: (للذين احسنوا) فالاحسان هو النفع الحسن.

والافضال النفع الزائد على أقل المقدار. وقوله: (واتقوا) معناه اتقوا معاصي الله (أجر عظيم) معناه ههنا الذين فعلوا الحسن الجميل من طاعة النبي (صلى الله عليه وآله)، والانتهاه إلى قوله. وقوله (منهم) معناه تبيين الصفة لا التبعض.

(١) سورة النساء: آية ١٠٣.

(٥٢)

قوله تعالى:

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (١٧٣) - آية بلاخلاف - المعنى:

وقيل في المعنى بقوله: (الناس) الاول ثلاثة أقوال:

أولها - قال ابن عباس، وابن اسحاق: انهم ركب دسهم أبوسفیان إلى المسلمين ليجبنوهم عند منصرفهم من أحد لما أرادوا الرجوع إليهم وقال السدي:

هو اعرابي ضمن له جعل على ذلك. وقال الواقدي هو نعيم بن مسعود الاشجعي وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقوله: (إن الناس قد جمعوا لكم)

المعنى به أبوسفيان و أصحابه - في قول أكثر المفسرين - وقال مجاهد: انما كان ذلك في بدر الصغرى وهي سنة أربع وكانت أحد في سنة ثلاث من الهجرة. وإنما عبر بلفظ الجميع عن الواحد في قوله: (قال لهم الناس) لأميرين:

أحدهما - ان تقديره جاء القول من قبل الناس، فوضع كلام موضع كلام - ذكره الرماني - . والثاني - إن الواحد يقوم مقام الناس، لأن (الانسان) إذا انتظر قوما فجاء واحد منهم، فديقال: جاء الناس إما لتفخيم الشأن، وأما لابتداء الاتيان.

وقوله: (فاخشوهم) حكاية عن قول نعيم بن مسعود للمسلمين. يعني اخشوا أباسفيان، وأصحابه فبين الله تعالى ان ذلك القول زادهم ايمانا وثباتا على دينهم، واقامة على نصرته نبيهم. وقالوا عند ذلك (حسبنا الله ونعم الوكيل) ومعناه كافينا الله.

اللغة، والقصة:

وأصله من الحساب، لان الكفاية بحسب الحاجة، وبحساب الحاجة. ومنه

(٥٣)

الحسبان وهو الظن. والوكيل: الحفيظ. وقيل: هو الولي. وأصله القيام بالتدبير. المتولى للشئ قائم بتدبيره، والحافظ له يرجع إلى هذا المعنى. ومعنى الوكيل في صفات الله المتولى للقيام بتدبير خلقه، لانه مالكمهم رحيم بهم. والوكيل في صفة غيره: انما يعقد بالتوكيل. وقال قوم من المفسرين: إن هذا التخويف من المشركين كان في السنة المقبلة، لان أباسفيان، لما انصرف يوم أحد، قال موعدكم بدر في العام المقبل. فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لمن حضره: قولوا نعم. فلما كان العام المقبل خرج النبي (صلى الله عليه وآله) بأصحابه، وكان أبوسفيان كره الخروج، فذس من يخوف النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه لم يسمعوا منهم، وخرجوا إلى بدر فلما لم يحضر أحد من المشركين، رجعوا، وكانوا صادفوا هناك تجارة اشتروها فربحوا فيها، وكان

ذلك نعمة من الله. وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع).
قوله تعالى:

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)
(١٧٤) - آية بلاخلاف - .

المعنى، واللغة، والاعراب:

الانقلاب، والرجوع، والمصير واحد. وقد فرق بينهما بأن الانقلاب هو المصير إلى ضد ما كان قبل ذلك كانقلاب الطين خزفا. ولم يكن قبل ذلك خزفا والرجوع هو المصير إلى ما كان قبل ذلك وقوله: (بنعمة من الله وفضل)) قيل في معناه قولان:

أحدهما - ان النعمة العافية. والفضل: التجارة. والسوء: القتل - في قول السدي، ومجاهد - وقال الزجاج: النعمة ههنا الثبوت على الايمان في طاعة الله وفضل الربح في تجارتهم، لانه روي أنهم اقاموا في الموضع ثلاثة أيام فاشترؤا أدمأ وزبيبا ربحوا فيه: وقال قوم: إن أقل ما يفعله الله بالخلق فهو نعمة، وما زادعليه

(٥٤)

فهو الموصوف بأنه فضل. والفرق بين النعمة والمنفعة أن النعمة لاتكون نعمة إلا إذا كانت حسنة، لانه يستحق بها الشكر ولايستحق الشكر بالقبيح. والمنفعة قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة مثل ان يغضب ما لاينتفع به - وإن كان قبيحا - وقوله: (لم يمسههم سوء) موضعه نصب على الحال. وتقديره: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل سالمين. والعامل فيه (فانقلبوا) والمعني بالآية الذين أمرهم الله تعالى بتتبع المشركين إلى حمراء الاسد، فلما بلغوا إليها وكان المشركون أسرعوا في المضي إلى مكة رجع المسلمون من هناك من غير أن يمسههم قتل ولاجراح غانمين سالمين، وقد امتثلوا ما أمرهم الله تعالى به. واتبعوا رضوانه (والله ذو فضل عظيم)

أي ذو إحسان عظيم على عباده ديني ودنيوي.

قوله تعالى:

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (١٧٥) - آية - .
معنى الآية انما ذلك التخويف الذي كان من نعيم بن مسعود من فعل الشيطان، وباغوائه، وتسويله. يخوف أولياءه المؤمنين. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يخوف المؤمنين بالكافرين. وقال الزجاج، وأبو علي الفارسي، وغيرهما من أهل العربية: إن تقديره يخوفكم أولياءه. أي من أوليائه بدلالة قوله: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي إن كنتم مصدقين بالله فقد أعلمتكم أنني انصركم عليهم، فقد سقط عنكم الخوف. ومثله قوله: (لينذر باسا شديدا من لدنه) (١) ومعناه لينذرکم بأسا والتقدير لينذرکم ببأس شديد، فلما حذف الجار نصبه. وقيل: إن (يخوف) يتعدى إلى مفعولين، لانك تقول: خفت زيدا وخوفت زيدا عمرا. ويكون في الآية حذف أحد المفعولين، كماقلناه في

(١) سورة الكهف: آية ٢.

(٥٥)

قولهم: فلان يعطي الدراهم ويكسو الثياب. وقال بعضهم: هذا لايشبه الآية، لانه انما أجازوا حذف المفعول الثاني في أعطى الدراهم، لانه لايشته أن الدراهم هي التي اعطيت. وفي الآية

تشبته الحال في من المخوف ومن المخوف وقال قوم: (يخوف اولياءه) أي انما خاف المنافقون ومن لاحقيقة لايمانهم. وقال الحسن، والسدي:

يخوف اولياءه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين ويخوف يتعدى إلى مفعولين كما يتعدى، يعطي لان أصله خاف زيد القتال وخوفته القتال. كما تقول عرف زيد أخاك وعرفته أخاك. فان قيل: كيف يكون الاولياء على المفعول الثاني وانما التخويف من الاولياء لغيرهم؟ قيل: ليس التقدير هكذا. وانما هو على (خاف المؤمنون اولياء الشيطان). وهو خوفهم اولياءه. قال الرماني: وغلط من قدر التقدير الاول. وقوله: (فلا تخافوهم) يعني لاتخافوا المشركين. وانما قال:

(ذلك) وهي انما يشاربها إلى ما هو بعيد لانه أراد ذلك القول تقدم من المخوف لهم من قوله: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم).

قوله تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم) (١٧٦) - آية بلاخلاف - .
القراءة:

قرأ نافع في جميع القرآن (يحزنك) - بضم الياء - إلا قوله: (لا يحزنهم الفرع الاكبر) (١).
الباقون بفتح الياء في جميع القرآن. وقرأ أبو جعفر عكس ماقرأ نافع. فانه فتح في جميع القرآن إلا قوله (لا يحزنهم) فانه ضم الياء

(١) سورة الانبياء: آية ١٠٣.

(٥٦)

وحكى البلخي عن ابن أبي محييص الضم في الجميع.
اللغة:

قال سيبويه: تقول: فتن الرجل، وفتنته. وحزن، وحزنته. وزعم الخليل أنك حيث قلت فتنته، وحزنته، لم ترد أن تقول: جعلته حزينا وجعلته فاتنا.
كما أنك حين قلت: أدخلته جعلته داخلا، ولكن أردت أن تقول: جعلت فيه حزنا، وفتنة. فقلت فتنته كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلا. ودهنته جعلت فيه دهنا. فجئت بفعلته - على حده - ولم ترد بفعلته ههنا نفس قولك حزن وفتن ولو أردت ذلك لقلت أحزنته وأفتنته. وفتن من فتنته مثل حزن من حزنته قال:

وقال بعض العرب: أفتنت الرجل وأحزنته إذا جعلته حزينا، وفانتا، فغيره إلى أفل - هذاحاه أبو علي الفارسي حجة لنافع - وقال قوله: (لايحزنهم) إنما ضم على خلاف أصله لعله اتبع أثرا أو أحب الاخذ بالوجهين: المعنى:

والمعنى بقوله: (الذين يسارعون في الكفر) - على قول مجاهد - وابن اسحاق - المنافقون. وفي قول أبي علي الجبائي: قوم من العرب ارتدوا عن الاسلام. فان قيل: كيف قال: (يريد الله أن لايجعل لهم حظا في الآخرة) والارادة لاتتعلق بالأليكون الشئ وإنما تتعلق بما يصح حدوثه؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - قال ابن اسحاق: (يريد الله) أن يحبط أعمالهم بما استحقوه من المعاصي والكبائر. والثاني - ان الله يريد أن يحكم بحرمان ثوابهم الذي عرضوا له بتكليفهم، وهو الذي يليق بمذهبنا، لان الاحباط عندنا ليس بصحيح فان قيل كيف قال: (يريد الله) وهذا إخبار عن كونه مريدا في حال الاخبار، وإرادة الله تعالى لعقابهم تكون يوم القيامة، وتقديمها على وجه يكون عزما وتوطينا للنفس

(٥٧)

لا (١) يجوز عليه تعالى؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - قال أبو علي: معناه أنه سيريد في الآخرة حرمانهم الثواب، لكفرهم الذي ارتكبوه. والثاني - أن الارادة متعلقة بالحكم بذلك، وذلك حاصل في حال الخطاب. وقال الحسن: يريد بذلك فيما حكم من عدله. وقوله: (يسارعون في الكفر) أي يبادرون إليه. والسرعة وإن كانت محمودة في كثير من المواضع، فانها مذمومة في الكفر. والعجلة مذمومة على كل حال إلا في المبادرة إلى الطاعات. وقيل: إن العجلة هي تقديم الشئ قبل وقته، وهي مذمومة على كل حال، والسرعة فعل لم يتأخر فيه شئ عن وقته، ولا يقدم قبله، ثم بين تعالى أنهم لمسارعتهم إلى الكفر لا يضررون الله شيئا، لان الضرر يستحيل عليه تعالى. وانما يضررون أنفسهم بأن يفوتوا نفوسهم الثواب، ويستحقوا العظيم من العقاب، ففي الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) عما يناله من الغم باسراع قوم إلى الكفر بأن وبال ذلك عائد عليهم، ولا يضررون الله شيئا. قوله تعالى:

(إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضرروا الله شيئا ولهم عذاب اليم) (١٧٧) - آية - . المعنى: استأنف الله تعالى بهذه الآية الاخبار بأن من اشترى الكفر بالايمان بمعنى استبدل الكفر بالايمان. وقد بينا فيما مضى أن تسمية ذلك شراء مجاز لكن لما فعلوا الكفر بدلا من

الايمان شبه ذلك بشراء السلعه بالثمن وبين أن من فعل ذلك لا يضر الله شيئاً، لان مضرتة عائدة عليه على ما بيناه. وانما كرر (لن يضرُوا)

(١) في المطبوعة (ولا).

(٥٨)

الله في هذه الآية، لانه ذكر في الآية الا ولى - على طريقة العلة - لما يجب من التسلية عن المسارعة إلى الضلالة، وذكر في هذه الآية على وجه العلة لاختصاص المضرة للعاصي دون المعصى.

اللغة:

والفرق بين المضرة والاساءة أن الاساءة لاتكون إلا قبيحة، والمضرة قد تكون حسنة إذا كانت لطفاً، أو مستحقة أو فيها نفع يوفي عليها أو دفع ضرر أعظم منها كفعل العقاب، وضرب الصبي للتأديب، وغير ذلك.

الاعراب:

وقوله: (شيئاً) نصب على أنه وقع موقع المصدر، وتقديره (لن يضرُوا الله شيئاً) من الضرر. ويحتمل أن يكون نصباً بحذف الباء كأنه قال بشئ مما يضره، كما يقول القائل: ما ضررت زيدا شيئاً من نقص مال، ولا غيره.

قوله تعالى:

(ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) (١٧٨) - آية واحدة بلاخلاف -.

القراءة، والاعراب:

قرأ حمزه (ولا تحسبن) بالتاء وفتح السين. الباقرن بالياء، وهو الأقوى، لان حسبت يتعدى إلى مفعولين (وأن) على تقدير مفعولين، لان قوله: (أنما نملي لهم خير لانفسهم) سدمسد المفعولين لانه لا يعمل في (أنما) إلا ما يتعدى إلى مفعولين: نحو حسبت وظننت واخواتهما. وحسبت يتعدى إلى مفعولين أو مفعول

(٥٩)

يسدمسد المفعولين نحو حسبت أن زيدا منطلق وحسبت أن يقوم عمرو. فقوله:

(أنما نملي لهم خير لانفسهم، سد مسد المفعولين اللذين يقتضيهما (يحسبن)

وكسر (إن) مع القراءة بالياء ضعيف وقرئ به. ووجه ذلك قال أبو علي الفارسي (إن) يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء، ويدخل كل واحد منهما على الابتداء والخبر فكسر (إن) بعد

(يحسبن) وعلق عنها الحسينان، كما يعلق باللام، فكأنه قال: لايحسبن الذين كفروا للاخرة خير لهم. ومن قرأ بالتاء فعلى البدل، كقوله: (هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة) (١) وكما قال الشاعر:

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما (٢)
وقال الفراء: يجوز أن يكون عمل فيه (يحسبن) مقدره تدل عليها الاولى.
وتقديره: ولاتحسبن الذين كفروا يحسبون انما نملي لهم وهكذا في قوله:
(هل ينظرون) ويجوز كسر (انما) مع التاء في (يحسبن) وهو وجه الكلام، لتكون الجملة في موضع الخبر: نحو حسبت زيدا انه كريم. غير انه لم يقرأ به أحد من السبعة. وقوله: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) معنى اللام ههنا للعاقبة وليست بلام الغرض. كأنه قال: إن عاقبة أمرهم ازدياد الاثم كما قال: (فالتقطه آل فرعون

(١) سورة الزخرف: آية ٦٦. (٢) قائله عبدة بن الطبيب أمالي السيد المرتضى ١: ١١٤، والاغاني ١٢: ١٤٨ والحماسة شرح التبريزي ٢: ٢٨٥، ٢٨٦ وغيرها وهو من أبيات قالها في قيس بن عاصم ومطلعها:
عليك سلام الله قيس بن عاصم * ورحمته ماشاء أن يترحما
وقيس بن عاصم رجل حليم شريف في قومه، وكان الاحنف بن قيس يقول: انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم.
وقال ابن الاعرابي: قيل ليس بماذا؟ دت؟ فقال: بثلاث: بذل الندى وكف الاذى، ونصر المولى. قال التبريزي في شرحه لهذا المبت: يروى (هلك) بالنصب وبالرفع، فاذا نصبته كان (هلكه) في موضع البدل من (قيس) و (هلك) ينتصب على أنه خبر (كان) كأنه قال: فما كل هلك قيس هلك واحد من الناس بل مات لموته حق كثير. واذا رفعته كان (هلكه) في موضع المبتدأ (وهلك واحد) في موضع الخبر. والجملة في موضع النصب على انها خبر كان.

(٦٠)

ليكون لهم عدوا وحرنا) (١) وكما قال: (وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله) (وكقوله: (لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا في الأرض..))
إلى قوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) (٣) وما قالوا ذلك ليكون حسرة وإنما كان عاقبته كذلك وقال الشاعر:

وأم سماك فلا تجزعي * فللموت ماتلد الوالده (٤)

وقال آخر:

أموالنا لذوي الميراث تجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وقال:

وللمنايا تربى كل مرضعة * وللخراب يجد الناس بنيانا

وقال آخر:

لدوا للموت وابنوا للخراب * — فلكم يصير إلى ذهاب —

ويقول القائل: ما تزيدك موعظتي الاشرأ، وما أراها عليك إلابالالا. ولا يجوز أن يحمل ذلك على لام الغرض والارادة، لوجهين:

أحدهما - ان ارادة القبيح قبيحة ولاتجوز ذلك عليه تعالى.

والثاني - لوكانت اللام لام الارادة لكان الكفار مطيعين لله من حيث فعلوا ما اراده الله وذلك خلاف الاجماع. وقد قال الله تعالى: (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) (ه وقال: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) (٦)

وقال أبو الحسن الاخفش والاسكافي: في الآية تقديم وتأخير. وتقديره ولاتحسن الذين كفروا إنما نملي لهم ليزدادوا إثما إنما نملي لهم خير لانفسهم. وهذا ضعيف،

(١) سورة القصص: آية ٨. (٢) سورة الزمر: آية ٨.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٦.

(٤) العجز في الذيل من سمط الآلي: ٩٢ وهو مثل سائر ينسب لشتيم بن خويلد الفزاري ولسماك بن عمرو الباهلي.

(٥) سورة الذاريات: آية ٥٦. (٦) سورة النساء: آية ٦٣.

(٦١)

لانه كان يجب لوكان على التقديم، والتأخير أن تكون انما الاخيرة مفتوحة الهمزة لانها معمول تحسبن - على هذا القول - وأن تكون الاولى مكسورة، لانها مبتدأة في اللفظ والتقديم والتأخير لايجوز الاعراب عن استحقاقه وذلك خلاف ما عليه جميع القراء، فانهم أجمعوا على كسر الثانية. والاكثر على فتح الاولى. ويمكن أن يقال: - نصره لابي الحسن - أن يكون التقدير ولاتحسن الذين كفروا قائلين:

إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، بل فليعلموا إنما نملي لهم خير لانفسهم. فيكون الحسبان قد علق، ولم يعمل. وتكون إنما الثانية كسرت، لانها بعد القول. وتكون في موضع نصب بالقول المقدر وتكون إنما الاولى منصوبة بالعلم المقدر الذي بيناه.

وعلى هذا يجوز أن يكون الوعد عاما، ويكون الوعيد المذكور مشروطا بالمقام على الكفر. وعلى الوجه الاول الذي حملنا اللام على العاقبة لايد من تخصيصها بمن علم منه انه لا يؤمن، لانه لو كان فيهم من يؤمن لما توجه إليهم هذا الوعيد المخصوص وقال البلخي: معناه لاتحسن الذين كفروا ان املاءنا لهم رضاء بافعالهم، وقبول لها بل هو شر لهم، لانا نملي لهم وهم يزدادون إثما يستحقون به عذابا أليما.

ومثله: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) (١) أي ذرأنا كثيرا من الخلق سيصيرون إلى جهنم بسوء فعالهم و (ما) في قوله: (إنما) تحتل أمرين:

أحدهما - أن تكون بمعنى الذي والتقدير: إن الذي نمليه خير لانفسهم.

والآخر - أن يكون ما نملي بمنزلة الاملاء فتكون مصدرا. وإذا كانت كذلك فلاتحتاج إلى عائد يعود إليها. والاملاء: طول المدة. (فنملي لهم))
معناه نطول أعمارهم. ومنه قوله: (واهجرني مليا) (٢) أي حينا طويلا. ومنه قوله: عشت طويلا، وتمليت حينا. والملا: الدهر والملوان: الليل والنهار، لطول تعاقبهما. واملاء الكتاب وانما أنكرتعالى أن يكون الاملاء خير لهم - وان

(١) سورة الاعراف: آية ١٧٨. (٢) سورة مريم: آية ٤٦.

(٦٢)

كانت نعمة دنيوية - من وجهين:
أحدهما - قال الجبائي: أراد خير من القتل في سبيل الله، كشهداء أحد الثاني - قال البلخي:
لاتحسبن ان ذلك خير استحقوه بفعلهم، أي لاتغتروا بذلك فتظنوا انه لمنزلة لهم، لانهم كانوا يقولون: إنه تعالى لو لم يرد ما هم عليه، لم يمهلهم.
قوله تعالى:

(ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وماكان انه ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) (١٧٩) - آية بلاخلاف -.

قرأ حمزة والكسائي (يميز) - بالتشديد - الباقون بالتخفيف. يقال: مازه يميزه، وميزه يميزه - لغتان -.

ومعنى الآية لم يكن الله ليدع المؤمنين على ماأنتم عليه، فلا يميز المؤمن من المنافق، والكافر (حتى يميز الخبيث من الطيب). وقيل في معنى الخبيث ههنا:
قولان:

أحدهما قال مجاهد، وابن اسحاق، وابن جريج: هو المنافق. قالوا: كما ميز المؤمن من المنافق يوم أحد. بالامتحان على ماضى شرحه.

الثاني - قال قتادة، والسدي: حتى يميز المؤمن من الكافر.

وسبب نزول الآية ماقاله السدي: إن المشركين قالوا: إن كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا، ومن يكفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال قوم: إن كان يعلم المنافقين، فما حاجته إلى اختبارهم؟ فأنزل الله تعالى انه يميزهم. وذلك يكون: تارة باختبارهم، وتارة بتعيينهم.

والتمييز بين الكافر وبين المؤمن أو المنافق والمؤمن بالامتحان والاختبار في

(٦٣)

تكليف الجهاد، ونحوه: مما يظهر به حالهم، وتتكشف ضمائرهم وقيل: بالدلالات، والعلامات التي يستدل بها عليهم من غير نص اعلام لهم فان قيل: هل اطلع نبيه (صلى الله عليه وآله) على الغيب؟ قلنا: عن ذلك جوابان:

أحدهما - قال السدي: لا، ولكنه اجتباها، فجعله رسولا وقال ابن اسحاق: ولكن الله اجتبي رسوله باعلامه كثيرا من الغايبات. وهذا هو الاليق بالآية. وقال الزجاج قوله: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) سببه أن قوما قالوا:

هلا جعلنا الله أنبياء؟ فأخبر الله تعالى أنه (يجتبي من رسله من يشاء) و (من) في الآية لتبيين الصفة لا للتبويض، لان الانبياء كلهم مجتبون. قوله تعالى:

(ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير) (١٨٠). قرأ حمزة (ولاتحسبن) بالتاء المعجمة من فوق الباقون بالياء، وهو الاقوى، لان عليه أكثر القراء، فمن قرأ بالتاء، فالتقدير على قراءته و لاتحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم. وجاز حذف البخل مع الفصل لدلالة يبخلون عليه، كما يقال من كذب كان شرا له. والمعنى كان الكذب شرا له. قال الشاعر:

إذا نهي السفية جرى إليه * وخالف والسفيه إلى خلاف (١)

ومعناه خالف إلى السفه. قال الزجاج: إنما تكون هو، وهما، وهم، وأنا وأنت، ونحن فصولا مع الافعال التي تحتاج إلى اسم وخبر، ولم يذكر سيبويه الفصل مع الابتداء، والخبر. قال: ولو تأول متأول قوله الفصل هاهنا أنه يدل

(١) معاني القرآن للقراء ١: ١٠٤ - ٢٤٩. أمالي ابن الشجري ١: ٦٨ - ١١٣ - ٣٠٥ و ٢: ١٣٢ - ٢٠٩ والانصاف: ٦٣ والخزانة: ٣٨٣.

(٦٤)

على أنه جائز في المبتدأ والخبر كان جائزا. قال: والقراءة بالياء عندي هو الاجود ويكون الاسم محذوفا، قال: والقراءة بالتاء لاتمتنع مثل قوله: (واسأل القرية) (١) وتقديره و لاتحسبن بخل الباخلين خيرا.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ما قاله السدي: إن المعنى بخلوا أن ينفقوا في سبيل الله كما بخلوا بمنع الزكاة. وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس - على قول ابن

عباس - والوجه الاول أظهر لان أكثر المفسرين على أنها نزلت في مانعي الزكاة، وهو قول أبي جعفر (ع) وقوله: (هو خير لهم)

فلفظة (هو) فصل، بين الاسم، والخبر على تقدير ولا تحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله البخل هو خيرا لهم فيمن قرأ بالياء وقوله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) قيل في معناه قولان:

أحدهما - رواه ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه شجاع أقرع يطوقونه، وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وقال ابراهيم النخعي: انهم يطوقون طوقا من نار. وقال أبو علي: هو كقوله: (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم) (٢) وقال البلخي معناه سيجازون كأنهم طوقوا. وقوله: (ولله ميراث السموات والارض) معناه أنه يبطل ملك كل شئ إلا ملك الله، فيصير كالميراث لصحة الملك الثاني بعد زوال الاول وإن لم يكن في صفات الله على جهة الانتقال، لانه لم يزل مالكا (عزوجل) والبخل هو منع الواجب لانه تعالى ذم به وتوعد عليه، وأصله في اللغة مشقة الاعطاء، وإنما يمنع الواجب لمشقة الاعطاء.

قوله تعالى:

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء

(١) سورة يوسف: آية ٨٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٦.

(٦٥)

سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) (١٨١) - آية بلاخلاف .-

قرأ حمزة وحده (سيكتب) بضم الياء. الباقيون بالنون. ذكر الحسن وقتادة: أن الذين نسبوا الله تعالى إلى الفقر وأنفسهم إلى الغناء هم قوم من اليهود لما نزل قوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) (١) قالوا إنما يستقرض الفقير من الاغنياء، فهو فقير ونحن أغنياء، والقائل لذلك حي بن أخطب وفنحاص اليهودي.

وقال أبو علي الجبائي: هم قوم من اليهود، وإنما قالوا ذلك من جهة ضيق الرزق.

وقيل: انهم قالوا ذلك تمويها على ضعفائهم لأنهم اعتقدوا أن الله فقير على الحقيقة. وقيل: انهم عنوا بذلك إله محمد الذي يدعي أنه رسوله دون من يعتقدون هم أنه على الحقيقة.

فان قيل: كيف الحكاية عنهم بأنهم قالوا ذلك، وإنما قالوه على جهة الالزام دون الاعتقاد؟ قلنا: لأنه إلزام باطل من حيث لا يوجبها الاصل الذي الزموا عليه، لأنه إنما قال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) على وجه التلطف في الاستدعاء إلى الطاعة، وحقيقته أن منزلة ما ينفقون في وجوه البر كمنزلة القرض الذي يرجع إليكم ويضاعف به الاجر لكم مع أنهم أخرجوا ذلك مخرج الاخبار عن الاعتقاد.

وفي الآية دلالة على أن الرضا بقبيح الفعل يجري مجراه في عظم الجرم، لان اليهود الذين وصفوا بقتل الانبياء لم يتولوا ذلك في الحقيقة، وإنما ذموا به، لانهم بمنزلة من تولاه في عظم الاثم. وقوله: (سنكتب ما قالوا) قيل في معناه قولان:

أحدهما - انه يكتب في صحائف أعمالهم، لأنه أظهر في الحجة عليهم وأجرى ان يستحيوا من قراءة ما أثبت من فضائحهم - على قول الجبائي -.

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٤ وسورة الحديد: آية ١١.

(٦٦)

الثاني - قال البلخي سيحفظ ما قالوا حتى يجازوا به أي هو بمنزلة ما قد كتب في أنه لا يضيع منه شيء. والاول أظهر. وقوله: (وذوقوا عذاب الحريق) يعني المحرق، والفائدة فيه ان يعلم أنه غذاب بالنار التي تحرق، وهي الملتهبة، لان مالم يلهب لا يسمى حريقاً، وقد يكون العذاب بغير النار. وقوله: (ذوقوا) يفيد أنكم لا تتخلصون من ذلك كما يقول القائل: ذق هذا البلاء يعني انك لست بناج منه. قوله تعالى:

(ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) (١٨٢) - آية -.

المعنى:

قوله: (ذلك) اشارة إلى ماتقدم ذكره من قوله: (ونقول ذوقوا عذاب الحريق). ذلك بما قدمت أيديكم) ومعناه بما جنيتموه على أنفسكم، فان الله لا يظلم أحداً من عبده، ولا يخسهم حقهم. وفيها دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لانها تدل على أنه لو وقع العقاب من غير جرم سلف من العبد، لكان ظلماً وذلك بخلاف ما يذهبون إليه من أن الله تعالى يعذب الاطفال من غير جرم. فان قيل: لم نفي كثرة الظلم على وجه لا يدخل فيه القليل، وهلانفي على وجه العموم كقوله: (لا يظلم مثقال ذرة) (١)

وكقوله: (لا يظلم الناس شيئاً) (٢) وقوله: (ولا يظلمون فتيلاً) (٣)

و (نفيراً)؟ قيل: لأنه خرج مخرج الجواب لمن توهم مذهب المجبرة فدل على أنه لو كان على ما يذهبون إليه، لكان ظلماً للعبيد، وما هو بظلام لهم. فان قيل: لم

(١) سورة النساء: آية ٣٩. (٢) سورة يونس: آية ٤٤.

(٣) سورة النساء: آية ٤٨ وسورة الاسرى: آية ٧١.

(٦٧)

أضيف التقديم إلى أيديهم وإنما هولهم في الحقيقة؟ قيل: لأنه إذا أضيف على هذه الطريقة كان أبعد من توهم الفساد في معنى الاضافة إذ قد يضاف الفعل إلى الانسان على معنى أنه أمر به ودعا إليه. كما قال: (يذبح أبناءهم) (١) وإذا ذكرت اليد دل على تولي الفعل نحو قوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً) (٢). الاعراب:

(وان الله) انما فتح ان لانه معطوف على ما عملت فيه الباء، وتقديره وبأن الله ليس بظلام للعبيد أي ذلك العذاب بما سلف من الاجرام وبامتناع ظلم الله للعباد، فموضع أن جر وموضع الباء في قوله: (مما) رفع، لانها في موضع خبر ذلك وهي متصلة بالاستقرار كأنه قيل ذلك مستقر بما قدمت أيديكم، كما يقول القائل: عقابك مما كسبت يداك.

قوله تعالى: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا الأنؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) (١٨٣) - آية - .
المعنى بقوله: ((الذين قالوا) هم الذين وصفهم الله بقوله: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير. الذين قالوا إن الله عهد إلينا).

الاعراب والمعنى:

والذين في موضع خفض ردا على قوله: (الذين قالوا إن الله فقير) ومعنى قولهم (إن الله عهد إلينا) أي أوصانا في كتبه، وعلى ألسن أنبيائه ألتصدق

(١) سورة القصص: آية ٤. (٢) سورة يس: آية ٧١.

(٦٨)

لرسول فيما يقوله: من أنه جاء به من عند الله من أمر ونهي، وغير ذلك، فالعهد: العقد الذي يتقدم به للتوثق، وهو كالوصية. وقوله: (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) معناه حتى يجيئنا بما يقرب به العبد إلى الله من صدقة وبر. وقربان مصدر على وزن عدوان، وخسران تقول قربت قربانا. وأما قوله: (تأكله النار)

فلان أكل النار ما قربه أحدهم لله في ذلك الزمان كان دليلاً على قبول الله له، ودلالة على صدق المقرب فيما ادعى أنه حق فيما نوزع فيه - في قول ابن عباس، والضحاك -، فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل لهم يامعشر من يزعم أن الله عهد إليه ألا يؤمن لرسول حتى يأتيه بقربان تأكله النار، قل: قد جاءكم رسل من الله من قبل. المعنى جاء أسلافكم بالبينات يعني بالحجج الدالة على صدق نبوتهم، وحقيقة قولهم: وقد ادعيتم أنه يدل على تصديق من أتى به والاقرار بنبوته من أكل النار قربانه، فلم قتلتموه إن كنتم صادقين؟ يعني قتلتموه وأنتم مقرون بأن الذين جاءوكم به من ذلك حجة لهم عليكم إن كنتم صادقين فيما عهد إليكم مما ادعيتموه وأضاف القتل إليهم وإن كان أسلافهم تولوه لأنهم رضوا بأفعالهم فنسب ذلك إليهم كما بيناه فيما تقدم في قوله تعالى: (ويقتلون النبيين بغير الحق) (١) فاراد الله أن يعلم المؤمنين أن هؤلاء معاندون متعنتون، وإلا فهم عالمون بصفات النبي (صلى الله عليه وآله) وما ذكره الله تعالى في التوراة وأنه صادق فيما يدعيه، وإنما لم ينزل الله ما طلبوه لأن المعجزات تابعة للمصالح وليست على الاقتراحات والتعنت. فان قيل هلا قطع الله عذرهم بالذي سألوا من القربان الذي تأكله النار؟ قيل: له لا يجب ذلك لأن ذلك اقتراح في الأدلة على الله والذي يلزم من ذلك أن يزيح عنهم بنصب الأدلة على ما دعاهم إلى معرفته.

قوله تعالى:

(فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات

(١) سورة البقرة: آية ٦١.

(٦٩)

والزبر والكتاب المنير) (١٨٤) - آية واحدة -.

القراءة، والحجة:

قرأ ابن عامر وحده وبالزبر وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. الباؤون بحذف الباء، فمن حذف فلان واو العطف أغنت عن تكرار العامل ومن أثبتتها فانما كرر العامل تأكيدا، وكلاهما جيدان.

اللغة، والمعنى:

وهذه الآية فيها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) عما كان يصيبه من الأذى من اليهود وأهل الشرك بتكذيبهم إياه بأن قال فقد كذب أسلافهم من رسل الله من جاءهم بالبينات والحجج القاطعة، والأدلة الواضحة. والزبر جمع زبور وهو البينات وكل كتاب فيه حكمة زبور. ومنه قول امرئ القيس:

لمن طلل ابصرته فشجاني * كخط زبور في عسيب يمان (١)
ويقال زبرت الكتاب إذا كتبتة، فهو مزبور وزبرت الرجل أزيهه: إذا زجرته والزبرة: القطعة
العظيمة من الحديد، ومنه قوله: (أتوني زبر الحديد) (٢)
والزبير: الحماة. والزبرة مجتمع الشعر على كتف الأسد. وزبرت البئر إذا أحكمت طيها
بالحجارة، فهو مزبور وما لفلان زبر أي عقل، والكتاب المراد به التوراة والانجيل، لان
اليهود كذبت عيسى، وما جاء به من الانجيل وحرقت ما جاء به موسى من صفة النبي (صلى الله
عليه وآله)، وبدلت عهده إليهم فيه. والنصارى أيضا جددت ما في الانجيل من نعتة وغيرت ما
أمرهم فيه به. وقوله: (المنير) معناه الذي ينير، فينير الحق لمن اشتبه عليه، وهو حجة له.
وإنما هو من النور، والاضاءة يقال: قد أنارك هذا الامر بمعنى أضاء لك وينير انارة فهو منير،
وهذا قول

(١) ديوانه: ٢١٠ وروايته (الزبور في العسيب اليماني). الزبور الكتاب المزبور أي المكتوب بالمزير وهو القلم.
العسيب اليماني: سعف النخل.
(٢) سورة الكهف: آية ٩٧.

(٧٠)

الحسن وابن جريج والضحاك، وأكثر المفسرين. فان قيل: لم جمع بين الزبر والكتاب
ومعناهما واحد؟ قلنا: لان أصلهما مختلف، فهو زبور لما فيه من الزجر عن خلاف الحق، وهو
كتاب، لانه ضم الحروف بعضها إلى بعض، وسمي زبور داود لكثرة ما فيه من المواعظ
والزواجر. فان قيل: كيف قال (فان كذبوك، فقد كذب رسل من قبلك) وهم وان لم يكذبوه
أيضا، فقد كذب رسل من قبله؟ قلنا: لان المعنى فقد جروا على عادة من قبلهم في تكذيب
أنبيائهم إلا أنه ورد على وجه الايجاز كما تقول: إن أحسنت إلي فقد طالما أحسنت.
قوله تعالى:

(كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار ودخل الجنة فقد
فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (١٨٥) - آية بلاخلاف -.

لايجوز أن يجعل (ما) في (إنما) بمعنى الذي وترفع أجوركم، لان يوم القيامة يصير من صلة
توفون وتوفون من صلة الذين فلا يأتي ما في الصلة بعد أجوركم. وأجوركم خبر، ومعنى
الآية إن مصير هؤلاء المفترين على الله من اليهود المكذبين برسوله الذين وصفهم، ومصير
غيرهم من جميع الخلق إليه تعالى من حيث حتم الموت على جميعهم، فقال لنبيه (صلى الله عليه
وآله) لا يحزنك قولهم وتكذيبهم وافتراء من افتري منهم على الله وعليك، وتكذيب من تقدمك من

الرسول. فان مرجعهم إلي وأوفي كل نفس منهم جزاء عمله، فقال: توفون أجوركم يعني أجور أعمالكم إن خيرا فخييرا وثوابا. وإن شرا فشرا وعقابا، وهو نصب على أنه مفعول به. وقوله: (فمن زحزح عن النار) معناه نحي عن النار، وأبعد منها (وادخل الجنة فقد فاز) أي نجا وظفر بعظيم الكرامة. وكل من لقي ما يغتبط به فقد فاز، ومعنى (فاز) تباعد من المكروه، ولقي ما يحب. والمفازة: مهلكة. وإنما سموها مفازة

(٧١)

أي منجاة كما سموا اللديغ سليما، والاعمى بصيرا. وظاهر الآية يدل على أن كل نفس تذوق الموت، وإن كانت مقتولة - على قول الرماني - ونحن وإن قلنا: إن الموت غير القتل، فلا بد أن نقول: إن المقتول يختار الله أن يفعل فيه الموت إذا كان في فعله مصلحة. وقوله: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) معناه وما لذات الدنيا، وشهواتها، وما فيها من زينتها إلا متعة متعكموها الغرور، والخداع:

المضمحل الذي لاحقيقة له عند الاختبار والامتحان، لانكم تلتذون بما يمتعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب، فلا تركنوا إليه، ولا تسكنوا، فانما هي غرور وإنما أنتم منها في غرور. وقال عكرمة: متاع الغرور، القوارير، وهي في الاصل كل متاع لابقاء له، وإنما وصفت الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور مع كشفها عن حالها، لانها بمنزلة من يغتر بالمحبوب ويبذل ما فيه الفرح والسرور، ليوقع في بلية تؤدي إلى هلكة، مبالغة في التحذير منها - على منا بيناه - وفي الآية دلالة على أن أقل نعيم من الآخرة خير من نعيم الدنيا بأسره ولذلك قال (صلى الله عليه وآله): (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها) واستدل بهذه الآية على أن القتل هو الموت على الحقيقة. ومنهم من قال في المقتول: موت، وقتل وللمخالف أن يقول: يمكن أن تكون الآية مخصوصة بمن يموت، ولا يقتل كما قال: (كل نفس بما كسبت رهينة) (١) وهي مختصة بالعقلاء البالغين، ويمكن أن يكون المراد كل نفس تعدم الحياة، فيكون ذلك على وجه الاستعارة. ذكره البلخي. وقوله: (ذائقة الموت) مجاز، لان الموت لا يذاق في الحقيقة، لان ذلك مشهور في كلامهم يقولون: ذاق الموت، وشرب بكأس المنون، لانه بمنزلة ما يذاق بذوق شدائده. والفرق بين الذوق وإدراك الطعم أن الذوق تقريب جسم المذوق إلى حاسة الذوق، والادراك للطعم هو وجدانه (٢)

وإن لم يكن هناك احساس، ولذلك يوصف تعالى بأنه مدرك للطعم ولا يوصف

(١) سورة المدثر: آية ٣٨. (٢) في المخطوطة: (هو وجدك به..)

(٧٢)

بأنه ذائق له. ويقولون: ذقته فلم أجد له طعما أي لابس في فلم أحس له طعما.

قوله تعالى:

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور) (١٨٦) - آية - .

قوله: (لتبلون) معناه لتختبرن أي توقع عليكم المحن، وتلحقكم الشدائد في أنفسكم، وأموالكم من قبل الكفار نحو ما نالهم من الشدائد في أنفسهم يوم أحد، ونحو ما كان الله يفعل بهم من الفقر وشدة العسر، وانما فعله ليصبروا وسماء بلوى مجازا، لان حقيقته لاتجوز عليه تعالى، لانها التجربة في اللغة. ويتعالى الله عن ذلك، لانه عالم بالاشياء قبل كونها. وإنما فعله ليتميز المحق منكم من غيره - هذا قول أبي علي الجبائي - وقال البلخي: معناه لتبلون بالعبادات في أنفسكم كالصلاة والصيام وغيرهما. وفي أموالكم من الانفاق في سبيل الله والزكوات، ليتميز المطيع من العاصي. واللام لام القسم. والنون دخلت مؤكدة، وضمت الواو لسكونها، وسكون النون. ولم تنصب لانها واو الجمع فرقا بينها وبين واو الاعراب. ويقال للواحد، لتبلى يارجل وللاثنتين لتبليان. ويفتح الياء في لتبلى في الواحد عند سيويه لسكونها وسكون النون. وفي قول غيره تبنى على الفتح لضم النون إليها.

كما بينى ما قبل هاء التأنيث. وللمرأة لتبلى وللمرأتين لتبليان وللنساء لتبليان.

زيدت الالف لاجتماع النونات وقوله: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) يعني ما سمعوه من اليهود ومن كفار مكة وغيرهم من تكذيب النبي (صلى الله عليه وآله) ومن الكلام الذي يغمهم ويكرثهم ثم بين تعالى بقوله:

(وإن تصبروا وتتقوا) إنكم ان صبرتم على ذلك وتمسكنم بالطاعة ولم تجزعوا عنده جزعا يبلغ الاثم، (فان ذلك من عزم الامور) ومعناه من جزم الامور، أي

(٧٣)

ما بان رشده وصوابه. ووجب على العاقل العزم عليه. وأذى مقصور. ويكتب بالياء يقال أذى يأذى أذى: إذاسمع مايسوءه وقد آذاني فلان يؤذيني إيذاء وتأذيت به تأذيا. وقال عكرمة وغيره: إن هذه الآيات كلها نزلت في فحاص اليهودى سيد بني قينقاع حين كتب النبي (صلى الله عليه وآله) إليه يستمده، فقال فنحاس: قد احتاج ربكم أن نمده. وهو القائل: (إن الله فقير ونحن اعنياء) (١) ونزلت فيه أيضا (لاتحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرلهم) (٢)

وقال الزهري: الآية نزلت في كعب بن الاشرف، وكان يهجو النبي (صلى الله عليه وآله)، والمؤمنين ويحرض المشركين عليهم حتى قتله محمد بن مسلمة غيلة. والبلوى التي ابتلوا بها،

قال الحسن: هي فرائض الدين من الجهاد في سبيل الله، والنفقة في طاعة الله، والتمسك بما يجب لله في كل ما أمر به ودعا إليه.

قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) (١٨٧) - آية بلا خلاف -
القراءة والحجة:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ((لبيئنه للناس ولا يكتمونه))
بالياء فيهما. الباقيون بالتاء فيهما، فمن قرأ بالياء، فلانهم غيب. ومن قرأ بالتاء حكى المخاطبة التي كانت في وقت أخذ الميثاق (ولتبيننه) لجماعة الرجال وللواحد تفتح النون.

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٨٠.

(٧٤)

المعنى:

والمعنى به اذكروا (إذا أخذ الله) منهم الميثاق ليبينن أمر نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يكتمونه (فنبذوه وراء ظهورهم) أي رموا به في قول ابن عباس، ولم يعملوا به وإن كانوا مقرين به. ويقال لمن يطرح الشيء ولا يعيابه رميته بظهر، قال الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي * بظهر ولا يعيالي جوابها (١)

أي لا تتركها، لا تعبأ بها، فأخبر الله تعالى عما حمل اليهود الذين كانوا رؤساء على كتمان أمر النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال: (واشتروا به ثمنا قليلا) أي قبلوا على ذلك الرشا، وقامت لهم بذلك رئاسة اكتسبوها فذلك حملهم على الكفر بما يخفونه، ثم ذم تعالى أفعالهم بقوله: (فبئس ما يشترون) لأن ما يكون عاقبته الهلاك والعقاب الدائم، وإن كان نفعاً عاجلاً، فهو بئس الشيء. وقال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة والسدي وابن جريج إن المعنى بهذه الآية فنحاص اليهودي، وأصحابه الذين كتموا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) وما بينه الله في التوراة. وقال قتادة وكعب وعبد الله بن مسعود هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم كافة، فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلاك. وقال الجبائي: المعنى بالآية اليهود والنصارى. وقال الحسن (لتبيننه ولا تكتمونه) معناه لتكلمن بالحق ولتصدقنه بالعمل. والميثاق الذي ذكره الله في الآية هو الإيمان التي أخذها عليهم أنبياءهم ليبينن ما في كتبهم من الأخبار والآيات الدالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يكتمونه.

والهاء في (لبيئنه) عائدة على محمد (صلى الله عليه وآله) في قول سعيد بن جبيرة والسدي، فيعود

(١) ديوانه ١ : ٩٥ وروايته:

عم بن زيد لاتهونن حاجتي * لديك ولايعيا علي جوابها
وفي اللسان وفي الاغاني الصدر كما في الديوان والعجز هكذا: (بظهر فلا يخفى علي جوابها)
ومعناه أي لاتجبنى بجواب لأدري ماهو.

(٧٥)

على معلوم غير مذكور. وقال الحسن وقتادة: قي عائدة على الكتاب فيدخل فيه بيان أمر النبي
(صلى الله عليه وآله) لانه في الكتاب.
قوله تعالى:

(لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من
العذاب ولهم عذاب أليم) (١٨٨)
آية - بلاخلاف - .

القراءة والحجة والاعراب:

قرأ أهل الكوفة ويعقوب (لاتحسبن) بالتاء وفتح الباء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء، وضم
الباء.

الباقون بالياء وفتح الباء.

(وتحسبنهم) الاخير بالتاء بلاخلاف. قال أبو علي من قرأ بالياء، لم يوقع يحسبن على شئ،
(والذين) رفع بأنه فاعل (لاتحسبن) قال: ووجه قراءة ابن كثير وأبي عمرو في أن لم يعديا
(حسبت) إلى مفعوليه ان (يحسب) في قوله:

(فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) لما جعل بدلا من الاول وعدي إلى مفعوليه استغنى بها في
تعدي الاول إليهما كما استغنى في قوله الشاعر:

بأي كتاب أم بأية سنة * ترى حبهم عارا علي وتحسب

فاكتفى بتعدي أحد الفعلين إلى المفعولين عن تعدي الآخر إليها. فان قال قائل: كيف يستقيم
تقدير البديل، وقد دخل الفاء بينهما، ولا يدخل بين البديل والمبديل منه الفاء؟ والجواب أن الفاء
زائدة، يدل ذلك على أنها لايجوز أن تكون التي تدخل على الخبر، لان ما قبل الفاء ليس
بمبتدأ، فتكون الفاء خبره، ولاتكون العاطفة، لان المعنى (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا)
ويحبون أنفسهم " بمفازة من العذاب " فاذا كان ذلك لم يجز تقدير العطف، لان الكلام

(٧٦)

لم يستقل بعد فيستقيم فيه تقدير العطف. وأما قوله: " فلا تحسبنهم " فان فعل الفاعل الذي هو يحسبون تعدى إلى ضميره، وحذفت واو الضمير لدخول النون الثقيلة. وقوله: (بمفازة من العذاب) في موضع المفعول الثاني، وفيه ذكر المفعول الاول. وفعل الفاعل في هذا الباب يتعدى إلى ضمير نفسه نحو ظننتني أخاه، لان هذه الافعال لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت (إن) واخواتها في دخولهن على الابتداء والخبر كدخول هذه الافعال عليهما، وذلك نحو قولك:

ظننتني ذاهبا، كما تقول: إني ذاهب، ولو قلت أظن نفسي تفعل، لم يجز كما يجوز أظننتني فاعلا. وقال أبو سعيد الخدري، وأبو وهب، والزجاج: المعنى بهذه الآية قوم من أهل الكتاب دخلوا على النبي (صلى الله عليه وآله) وخرجوا من عنده، فذكروا لمن كان رآهم في ذلك الوقت أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد أتاهم بأشياء قد عرفوها، فحمدهم من شاهدتهم من المسلمين على ذلك، وأظهروا خلاف ما أبطنوا، وأقاموا فيما بعد على الكفر، فأعلم الله تعالى نبيه أنهم ليسوا بمفازة أي ليسوا ببعد من العذاب.

وقيل معناه ليسوا بمنجاة من العذاب، ووقعت، " فلا تحسبنهم " مكررة لطول القصة كما يقولون: لا تظن زيدا إذا جاءك كلمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقا، فيعيد فلا تظننه توكيدا، واعلاما ان ذلك يتعلق بالاول، ولو لم يكرر كان جائزا، لكن مع التأكيد أوضح. وقوله: " وحبون أن يحمدا بمالم يفعلوا " قال البلخي: إنهم قالوا: " نحن أبناء الله وأحباؤه " (١) وأهل الصوم والصلاة وليسوا بأولياء الله، ولأحباؤه، ولأهل الصلاة والصيام، ولكنهم أهل شرك ونفاق. وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وقال قوم: " يحبون أن يحمدا " على أنهم أبطلوا أمر محمد (صلى الله عليه وآله)، وكذبوا ما أبطلوه، ولالهم قدرة على ذلك. النزول، والمعنى:

وروي عن ابن عباس، وسعيد أن الآية نزلت في اليهود حيث كانوا يفرحون

(١) سورة المائدة: آية ٢٠.

(٧٧)

باجلال الناس لهم ونسبهم إياهم إلى العلم. وقال الضحاك، والسدي: نزلت في اليهود حيث فرحوا بما أثبتوا من تكذيب النبي (صلى الله عليه وآله). وقال سعيد بن جبير: فرحوا بما أتى الله آل ابراهيم. وقال ابن عباس: إن النبي (صلى الله عليه وآله) سألهم عن شيء، فكتموا ففرحوا بكتمانهم، وأقوى هذه الأقوال أن يكون قوله: " لاتحسبن الذين يفرحون " يعني بها من أخبر الله عنهم أنه أخذ ميثاقهم ليبيّن للناس أمر محمد (صلى الله عليه وآله)، ولا يكتمونونه، لان قوله: "

لاتحسبن الذين يفرحون " في سياق الخبر عنهم وشبيهه بقصتهم مع أن أكثر أهل التأويل عليه. وقال الجبائي: الآية في المنافقين، لأنهم كانوا يعطون المؤمنين شيئاً يستعينون به على الجهاد لا على وجه القرية إلى الله بل على وجه الرياء ويفرحون بذلك، ويريدون مع ذلك أن يحمدا على ذلك ويعتقد أنهم فعلوه لوجه القرية، فقال: " لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا " بمنزلة المؤمنين الذين يفعلون الأفعال لله على وجه القرية إليه. وقال: " فلا تحسبنهم " مع ذلك بمنجاة " من العذاب " بل " لهم عذاب أليم " يعني مؤلم فحسبان الثاني متعلق بغير ماتعلق به الاول، فذلك كرر. فان قيل: أين خبر " لاتحسبن " الاولى؟ قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - " بمغازة من العذاب "، لأنها مكررة لطول الكلام. وقيل: الفاء زائدة على هذا، وهو قول الزجاج.

والثاني - ان الخبر محذوف، كأنه قال ناجين، ودل الخبر الاخير عليه. فان قيل: كيف يجوز أن يذم بالفرح وليس من فعل الانسان؟ قلنا ذم بالتعرض له على جهة الاشر والبطر كما قال: " لا يحب الفرحين ".

قوله تعالى:

(والله ملك السماوات والارض والله على كل شئ قدير)

(١٨٩) - آية بلا خلاف -.

(٧٨)

معنى الآية الاخبار من الله تعالى بأنه مالك مافي السماوات، ومافي الارض بمعنى أنه يملك تدبيرهما، وتصريفهما على ما شاء من جميع الوجوه ليس لغيره الاعتراض عليه في ذلك وانه المقتدر على جميع ذلك " وهو على كل شئ قدير "، وفي الآية تكذيب لمن قال: " إن الله فقير ونحن أغنياء " (١) لان من ملك مافي السماوات والارض لا يكون فقيراً. وفي قوله: (والله على كل شئ قدير)

تنبه على أنه قادر على إهلاك من يقول هذا القول جهلاً منه وعناداً، لكنه يحلم عنه ويؤخر عذابه لضرب من المصلحة وقوله: " على كل شئ قدير " خرج مخرج المبالغة، وهو أخص من قوله: " بكل شئ عليم " لان أفعال العباد لا توصف بالقدرة عليها، وفرق الرماني بين أن يقال هو قادر على أفعال العباد، وبين قادر على فعلهم، فقال قادر عليها يحتمل مالا يحتمل قادر على فعلهم، لانه يفيد أنه قادر على تصرفه كما يقولون فلان قادر على هذا الحجر أي قادر على رفعه، ووضع، وفلان قادر على نفسه أي قادر على ضبطها، ومنعها مما تتازع

إليه، فعلي هذا جائز أن يقال انه قادر على أفعال العباد بمعنى أنه قادر على المنع منها،
والتمكن منها دون ما يستحيل من القدرة على ايجادها.
قوله تعالى:

(إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الاباب) (١٩٠) - آية -
.-

في هذه الآية دلالة على وجوب النظر والفكر، والاعتبار بما يشاهد من الخلق والاستدلال على
الله تعالى، ومدح لمن كانت صفته هذه، ورد على من أنكر وجوب ذلك، وزعم أن الايمان
لا يكون إلا تقليدا وبالخبر، لانه تعالى أخبر عما في خلق السماوات والارض، واختلاف الليل
والنهار من الدلالات عليه

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.

(٧٩)

وعلى وحدانيته، لان من فكر في السماوات وعظمتها وعجائب ما فيها من النجوم والاقلاك،
ومسير ذلك على التقدير الذي تسير عليه، وفكر في الارض وما فيها من ضروب المنافع، وفي
اختلاف الليل والنهار ومجيئها بالاوقات والازمنة التي فيها المصالح، واتساق ذلك وانتظام
بعضها إلى بعض، وحاجة بعضها إلى بعض حتى لو عدم شئ منه لم يقد ماسواه (مقامه) (١)
علم أن ذلك لا يكون إلا من مدبر قادر عليم حكيم واحد، لانه لو كان قادرا، ولم يكن عالما
بالعواقب لما أغنت القدرة شيئا، ولو كان عالما غير حكيم في فعله لما أغنى العلم شيئا، ولو كانا
اثنين ما انتظم تدبير، ولاتم خلق، ولعلا بعضهم على بعض، كما قال تعالى: " لو كان فيهما
آلهة إلا الله لفسدتا " (٢) فكيف ينسب إلى الفقر من كان جميع ما في السماوات والارض بيده، أم
كيف يكون غنيا من كان رزقه بيد غيره إذ شاء رزقه وإذا شاء حرمه، ويدل على أن خالق
الجسم لا يشبهه، لانه لو أشبهه لكان محدثا مثله، ويدل على أنه قديم، لانه لو كان محدثا لاحتاج
إلى محدث ولأدى ذلك إلى ما لا ينتهي ويدل أيضا على أنه قادر على جميع الاجناس، لانه من
قدر على الجسم يقدر على سائر الاجناس، ووجه الدلالة من خلق السماوات والارض على الله
هو ان الانسان إذا فكر ورأى عظمتها، وثقل الارض ووقوفها على غير عمد يقلها، وحركة
السماوات حولها لأعلى شئ يدعمها، علم أن الممسك لذلك هو الذي لا يشبه الاجسام ولا
المحدثات، لانه لو اجتمع جميع الخلق على أن يمسكوا جسما خفيف المقدار، ويقلوه في الجو
من غير أن يدعموه لما قدروا عليه، فعلم حينئذ ان الذي يقدر عليه مخالف لجميع الاشياء وعلم
أيضا أنها لو كانت السماوات والارض معتمدة على غيرها لكان ذلك الغير يحتاج إلى ما يعتمد

عليه وفي ذلك اثبات ما لا يتناهى من الاجسام، وذلك محال فهذا أحد وجوه دلالة السماوات والارض، وهو أحد

(١) هكذا في المخطوطة (أ) وفي المطبوعة ما بين القوسين ساقط، والمخطوطة (ب) ناقصة في هذا المكان أوراقا كثيرة.
(٢) سورة الانبياء: آية ٢٢.

(٨٠)

ماقال (إن في ذلك لآيات لاولي الالباب) ووجه الدلالة من اختلاف الليل والنهار هو أن جميع الخلق لو اجتمعوا على أن يأتوا بالليل بدلا من النهار، أو النهار بدلا من الليل أو ينقصوا، أو يزدوا من أحدهما في الآخر لما قدروا عليه، كما قال:

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية (١) وقوله: ((لاولي الالباب) معناه لذوي (٢) العقول. واللب: العقل سمي به لانه خير مافي الانسان واللب من كل شئ خيره، وخالسه. فان قيل: فما وجه الاحتجاج بخلق السماوات - والارض - (٣) على الله ولم يثبت بعد انها مخلوقة قيل عند ثلاثة أجوبة: أولها - على تقدير اثبات كونها مخلوقة قبل الاستدلال به لان الحجة به قامت عليه من حيث أنها لم تنفك من المعاني المحدثه.

الثاني - أن الغرض ذكر ما يوجب صحة الذي تقدم ثم يترقى من ذلك إلى تصحيح ما يقتضيه على مراتبه، كالسؤال عن الدلالة على النبوة فيقع الجواب بذكر المعجزة دون ما قبلها من الرتبة.

الثالث - أن تعاقب الضياء والظلام يدل على حدوث الاجسام.
قوله تعالى: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار) (١٩١) - آية بلاخلاف -

(١) سورة القصص: آية ٧١ - ٧٢.
(٢) في المخطوطة زيادة (والفكر) في هذا الموضع.
(٣)
في المطبوعة ما بين القوسين ساقط.

(٨١)

موضع (الذين) خفض، لانه نعت (لاولي الالباب) أي فهو لاء يستدلون على توحيد الله بخلقه السماوات والارض، وأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم قياما وعودا، وهو نصب على الحال. وقوله (وعلى جنوبهم) أي ومضطجعين، وانما عطف على قياما وعودا، لان معناه يدل على الحال، لان الظرف يكون حالا للمعرفة كما يكون نعتا للنكرة، لانه من الاستقرار (كما تقول: مررت برجل على الحائط أي مستقرا على الحائط، ومررت برجل في الدار مثله، كما نقول أنا أصير إلى فلان ماشيا، وعلى الخيل، ومعناه وراكبا، كما (١) قال: (إذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) (٢) ومعناه مضطجعا أو قائما أو قاعدا فبين تعالى أن هؤلاء المستدلين على حقيقة توحيد الله يذكرون الله في سائر الاحوال. وقال قوم: (يذكرون الله قياما وعودا وعلى جنوبهم) أي يصلون على قدر إمكانهم في صحتهم وسقمهم، وهو المروي في أخبارنا، ولاتتافي بين التأويلين، لانه لايمتنع أن يصفهم بأنهم يفكرون في خلق السماوات والارض في هذه الاحوال ومع ذلك يصلون على هذه الاحوال في أوقات الصلوات، وهو قول ابن جريج وقتادة. وقوله: (ربنا ما خلقت هذا باطلا) انما قال هذا ولم يقل هذه ولا هؤلاء، لانه أراد به الخلق كأنه قال ما خلقت هذا الخلق باطلا (٣) أي يقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا) بل خلقتة دليلا على وحدانيتك وعلى صدق ما أتت به أنبياءك، لانهم يأتون بما يعجز عنه جميع الخلق. وقوله: (سبحانك)

معناه براءة لك من السوء وتزيتها لك من أن تكون خلقتها باطلا قال الشاعر:
أقول - لما جاغني فخره - * سبحان من علقمة الفاخر (٤)

(١) ما بين القوسين ساقط من المخطوطة (أ).

(٢) سورة يونس: آية ١٢.

(٣) في المخطوطة نقص سطر في هذا الموضع. (٤) قاله اعشى بني تغلب. ديوان الاعشى الكبير: ١٤٣، القصيدة ١٨، واللسان (سبح).

(٨٢)

وقال آخر:

سبحانه ثم سبحانا يعود له * وقبلنا سبح الجودي والجمد (١)
وقوله: (فقنا عذاب النار) أي فقد صدقنا رسلك بأن لك جنة ونارا فقنا عذاب النار. ووجه اتصال قوله (فقنا عذاب النار) بما قبله قيل فيه قولان:
أحدهما - كأنه قال: (ما خلقت هذا باطلا) بل تعريضا للثواب بدلا من العقاب (فقنا عذاب النار) بلطفك الذي نتمسك معه بطاعتك.

الثاني - اتصال الدعاء الذي هو طاعة الله بالاعتراف الذي هو طاعة له. وفي الآية دلالة على أن الكفر والضلال وجميع القبائح ليست خلقا لله، لأن هذه الأشياء كلها باطلة بلاخلاف. وقد نفى الله تعالى بحكايته عن أولي الالباب الذين رضي أقوالهم بأنه لا باطل فيما خلقه، فيجب بذلك القطع على أن القبائح كلها من فعل غيره، وأنه لا يجوز اضافتها إليه تعالى.

قوله تعالى:

(ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيتنا وما للظالمين من أنصار) (١٩٢) - آية - . وهذه أيضا حكاية عن أولي الالباب الذين وصفهم بانهم أيضا يقولون (ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيتنا) أي من ناله عذاب النار وما فيها من الذل والمهانة فهو المخزي. وقال ابن جريج، وقتادة، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب: الأجزاء يكون بالتأييد فيها. وقال جابر بن عبد الله: إن الخزي يكون بالدخول فيها. وروى عنه عمرو بن دينار وعطاء أنه قال: وما أخزاه من أحرقه بالنار إن دون ذا لخزيا، وهذا هو الأقوى، لأن الخزي إنما هو هتك المخزي، وفضيحتته، ومن عاقبه الله على ذنوبه، فقد فضحه وذلك هو

(١) اللسان: (سبح) نسبه لامية.

(٨٣)

الخزي، ولا ينافي ذلك ما نذهب إليه من جواز العفو عن المذنبين، لأنه تعالى إذا عفا عن العاصي لا يكون أخزاه وإن أدخله النار ثم أخرجها منها بعد استيفاء العقاب، فعلى قول من قال: الخزي يكون بالدوام لا يكون أخزاه، ومن قال يكون بنفس الدخول، له أن يقول: إن ذلك وإن كان خزيا، فليس مثل خزي الكفار، وما يفعل بهم من دوام العقاب، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) (١) وقوله: (وما للظالمين من أنصار) معناه ليس للظالمين من يدفع عنهم على وجه المغالبة والقهر، لأن الناصر هو الذي يدفع عن المنصور على وجه المغالبة ولا ينافي ذلك الشفاعة في أهل الكبائر لأن الشفاعة هي مسألة وخضوع وضرع إلى الله تعالى، وليست من النصرة في شيء وقوله (صلى الله عليه وآله) (يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمما وحمما) صريح بوقوع العفو عن مرتكبي الكبائر وتأول الرماني الخبر تأويلين:

أحدهما - أنه لولا الشفاعة، لواقعوا كبيرة يستوجبون بها الدخول فيها، فيخرجون بالشفاعة على هذا الوجه، كما يقال أخرجتني من السلعة إذا كان لولا مشورته، لدخل فيها بابتياعه إياها.

الثاني - لولا الشفاعة، لدخلوها بما معهم من الصغيرة ثم أخرجوا عنها إلى الجنة. والاول فاسد، لانه مجاز. والثاني - ليس بمذهب لاحد من القائلين بالوعيد لان الصغيرة تقع مكفرة لاعقاب عليها فكيف يدخل بها النار.

قوله تعالى: (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) (١٩٣) - آية بلاخلاف -.

(١) سورة التحريم: آية ٨.

(٨٤)

في هذه الآية أيضا حكاية عن تقدم وصفهم بأنهم أولوا الاباب وغير ذلك من الاوصاف التي مضت بأنهم يقولون: (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان) واختلفوا فيمن المنادي ههنا، فقال محمد بن كعب القرظي وقتادة: هو القرآن. وقال ابن جريج وابن زيد: هو رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو الذي اختاره الجبائي، واختار الطبري الاول قال: لانه ليس كل أحد سمع قول النبي (صلى الله عليه وآله) ولا رآه ولا عينه وسمع دعاءه إلى الله تعالى. والقرآن سمعه من رآه ومن لم يره كما قال تعالى مخبرا عن الجن انهم قالوا: (سمعنا قرآنا عجا يهدي إلى الرشد) وهذا الذي ذكره ليس بطعن، لانه إذا بلغه دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) جاز أن يقول (سمعنا مناديا) وإن كان فيه ضرب من التجوز، وقال قتادة سمعوا دعوة من الله فأجابوها وأحسنوا فيها وصبروا عليها. وقوله: (سمعنا مناديا) يعني نداء مناد لان المنادي لا يسمع وقوله: (للإيمان) معناه إلى الإيمان، كما قال: (الحمد لله الذي هدانا لهذا) (١)

ومعناه إلى هذا قال الراجز:

أوحى لها القرار فاستقرت * وشدها بالراسيات الثابت (٢)

يعني أوحى إليها. ومنه قوله: (بأن ربك أوحى لها) (٣) أي إليها، فمعنى الآية (ربنا اننا سمعنا) داعيا يدعو إلى الإيمان والتصديق بك، والاقرار بوحدانيتك، واتباع رسوك واتباع أمره ونهيه، فصدقنا بذلك يا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) ومعناه استرها علينا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رؤوس الأشهاد بعقوبتك، لكن كفرها عنا (وكفر عنا سيئاتنا) معناه امحها بفضلك ورحمتك ايانا (وتوفنا مع الأبرار) معناه واقبضنا إليك إذا قبضتتنا في جملة الأبرار، واحشرنا معهم.

(١) سورة الاعراف: آية ٤٢. (٢) انظر ٢: ٥٩ تعليقة. ١ (٣) سورة الزلزال: آية ٥.

(٨٥)

اللغة، والمعنى:

والابرار جمع بر، وهم الذين بروا الله بطاعتهم إياه حتى أرضوه، فرضي عنهم. وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذر وأصل البر الاتساع، فالبر الواسع من الأرض خلاف البحر والبرصلة الرحم والبر:

العمل الصالح. والبر: الحنطة والابرار على الخصم الزيادة عليه. وابتر من أصحابه إذا انفرد منهم.

فان قيل: إذا كان النداء إنما هو تنبيه المنادى ليقبل بوجهه على المكلم له، فما معنى ربنا؟ قلنا: الاصل في النداء تنبيه المنادى ثم استعمل في استفتاح الدعاء اقتضاءً للجواب واعترافاً بالفضل، ولا يجوز فتح (أن) بعد ربنا بإيقاع النداء عليه، لان بعده لا يكون إلا جملة ولا يقع فيه مفرد، لانه لا يجوز ربنا ادخالك النار من أخزيتته، لانه ابتداء لاخبر له. فان قيل: ما معنى قوله: " وكفرنا " وقد أغني عنه قوله: " فاغفر لنا " قلنا: جوابان:

أحدهما - اغفر لنا ذنوبنا ابتداءً بالتوبة، وكفرنا إن تبنا.

والثاني - اغفر لنا بالتوبة ذنوبنا، وكفرنا باجتتاب الكبائر السيئات، لان الغفران قد يكون ابتداءً ومن سبب والتكفير لا يكون إلا عند فعل من العبد وقوله: " ان آمنوا " تحتمل ان أمرين:

أحدهما - أن تكون بمعنى أي على ما ذكره الرماني.

والثاني - أن تكون الناصبة للفعل، لانه لا يقع في مثله دخول الباء نحو بأن آمنوا.

قوله تعالى:

(ربنا آتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) (١٩٤) - آية بلاخلاف -.

فهذه أيضا حكاية عن تقدم وصفهم بأنهم يقولون أعطنا ما وعدتنا على

(٨٦)

لسان رسلك من الثواب ولا تخزنا. والمخزي في اللغة المذل، المحقور بأمر قد لزمه بحجة تقول أخزيتته أي ألزمته حجة أدلته معها، والخزي والانقماح والارتداع متقاربة المعنى، والخزاية شدة الاستحياء. وقوله (إنك لاتخلف الميعاد)

استئناف كلام ولذلك كسرت (إن) والمعنى انك وعدت الجنة لمن آمن بك، وإنك لا تخلف الميعاد. فان قيل: ماوجه مسألتهم لله أن يؤتيهم ما وعدهم، والمعلوم أن الله ينجز وعده، ولايجوز عليه الخلف في الميعاد؟ قيل عن ذلك أجوبة:

أحدها - ما اختاره الجبائي، والرماني ان ذلك على وجه الانقطاع إليه والتضرع له والتعبد له كما قال: (رب احكم بالحق) (١) وقوله: (لاتحملنا ما لا طاقة لنا به) (٢) وأمثال ذلك كثيرة.

والثاني - قال قوم إن ذلك خرج مخرج المسألة ومعناه الخبر، وتقدير الكلام ربنا إنما سمعنا مناديا ينادي لليمان أن آمنوا بربكم فأمناربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، لتوفينا ما وعدتنا به على رسلك ولا تحزنا يوم القيامة لانهم علموا ان ما وعده الله به فلا بد من أن ينجزه والثالث - قال قوم: معناه المسألة والدعاء بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم من الكرامة على ألسن رسله، لأنهم كانوا قد استحقوا منزلة الكرامة عندالله في أنفسهم ثم سألوه أن يؤتيهم ما وعدهم بعد علمهم باستحقاقهم عند أنفسهم، لانه لو كان كذا، لكانوا زكوا أنفسهم وشهدوا لها أنهم ممن قد استوجب كرامة الله، وثوابه، ولا يليق ذلك بصفة أهل الفضل من المؤمنين.

والرابع - قال قوم إنما سألوا ذلك على وجه الرغبة منهم إليه تعالى أن يؤتيهم ما وعدهم من النصر على أعدائهم من أهل الكفر وإعلاء كلمة الحق على الباطل فيجعل ذلك لهم لانه لايجوز أن يكونوا مع ما وصفهم الله به غير واثقين ولاعلى غير يقين ان الله لا يخلف الميعاد فرغبوا إليه في تعجيل ذلك، ولكنهم

(١) سورة الانبياء: آية ١١٢. (٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٨٧)

كانوا وعدوا النصر ولم يوقت لهم في ذلك وقت فرغبوا إليه تعالى في تعجيل ذلك لهم لما لهم فيه من السرور بالظفر وهو اختيار الطبري.

وقال الآية مختصة بمن هاجر من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) من وطنه وأهله مفارقا لاهل الشرك بالله إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وغيرهم من تباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين رغبوا إليه تعالى في تعجيل نصرهم علي أعدائهم و علموا انه لا يخلف الميعاد ذلك غير أنهم سألوا تعجيله وقالوا لا صبر لنا على اناتك وحلمك وقوى ذلك بما بعد هذه الآية من قوله: " فاستجاب لهم ربهم أني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا... " الآيات بعدها وذلك

لايليق إلا بما ذكره، ولايليق بالاقاويل الباقية وإلى هذا أوماً البلخي، لانه قال في الآية الاخري: انها والتي بعدها في الذين هاجروا إلى النبي (صلى الله عليه وآله). وفي الآية دلالة على أنه يجوز أن يدعو العبد بما يعلم أنه يفعله مثل أن يقول رب احكم بالحق. وقوله: " فاغفر لنا ذنوبنا " خلاف ما يقوله المجبرة، ولايلزم على ذلك جواز التعبد بأن يدعو بما يعلم أنه لا يكون مثل أن يقول لا يظلم، لان في ذلك تحكما على فاعله وتجبرا عليه في تدبيره، ولوسوى بينهما كان جائزا كما قلنا في قوله: (لاتحملنا مالاطاقة لنا به) (١) على أحد الوجهين وقوله: " انك لاتخلف الميعاد " فيه اعتراف بأنه لا يخلف الميعاد بعد الدعاء بالايجاز لئلا ينوهم عليهم تجويز الخلف على الله تعالى. وقوله تعالى:

(فاستجاب لهم ربهم أني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واو نوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٨٨)

جنات تجري من تحتها الانهار ثوبا من عند الله والله عنده حسن الثواب) (١٩٥) - آية بلاخلاف -.

قرأ حمزة والكسائي وخلف " وقتلوا وقتلوا " بتقديم المفعولين على الفاعلين الباقون " قاتلوا وقتلوا " بتقديم الفاعلين على المفعولين، وشدد التاء من (قتلوا) ابن كثير وابن عامر. وقرأ عمر بن عبدالعزيز " وقتلوا " بلال " وقتلوا " وقال الطبري القراءة بتقديم المفعولين لاتجوز، وهذا خطأ ظاهر، لان من اختار اسم الفاعلين على المفعولين، وجه قراءته أن القتال قبل القتل. ومن قدم المفعولين على الفاعلين وجه قراءته يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون المعطوف بالواو ويجوز أن يكون أولا في المعنى. وان كان مؤخرا في اللفظ، لان الواو، لا يوجب الترتيب وهي تخالف الفاء في هذا المعنى، وهكذا خلافهم في سورة التوبة.

والثاني - أن يكون لما قتل منهم قاتلوا ولم يهنوا ولم يضعفوا لمكان من قتل منهم كما قال تعالى (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) (١) وقوله: (فاستجاب لهم ربهم أني) أي بأنني وحذف الباء، ولو قرئ بكسر الهمزة كان جائزا

على تقدير: قال لهم " إني لأضيع عمل عامل منكم " ومعنى قوله: " فاستجاب " أجابهم ربهم يعني الداعين بما تقدم وصف الله إياهم وأجاب واستجاب بمعنى قال الشاعر:
وداع دعا يامن يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٢)
أي لم يجبه. " بأني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى " من زائدة كما يقال كان من الحديث ومن الامر ومن القصة. ومن ههنا أحسن، لأن حرف

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٦.

(٢) قاله كعب بن سعد الغنوي الاصمعيات: ٩٨ والقصيدة مشهورة، يرثي بها أخاه أبا المغوار مر منها أبيات متفرقة. وقدمر هذا البيت في ١: ٨٤.

(٨٩)

النفي قد دخل في قوله: " لأضيع " من ههنا ليست زائدة، لأنها دخلت لمعنى ولا يصلح الكلام الإبهام، لأنها للترجمة والتفسير عن قوله: " منكم " بمعنى لأضيع عمل عامل منكم من الذكور والاناث، قالوا ولا تكون من زائدة إلا في موضع جدد. وقوله: (لأضيع عمل عامل منكم) لم يدركه الجدد لأنك لاتقول لأضرب غلام رجل في الدار، ولا في البيت، فيدخل ولا، لأنه لم ينله الجدد ولكن (من) مفسرة. وقوله: " لاكفرن عنهم سيئاتهم " معناه لآذهبنا واسقط عقابها، وهذه الآية، والتي قبلها - في قول البلخي - نزلت في المتبعين للنبي (صلى الله عليه وآله) والمهاجرين معه ثم هي في جميع من سلك سبيلهم واتبع آثارهم من المسلمين. وقوله: " لاكفرن عنهم سيئاتهم " أي لاغطينها وأمحونها وأطنها عنهم بما ينالهم من ألم الهجرة والجهاد واحتمال تلك الشدائد في جنب الله. وحمل السيئات على الصغائر. وقوله: " ثوابا من عند الله " نصب على المصدر ذكر على وجه التأكيد، لأن معنى " ولادخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار " (١) لاثبتهم، ومثله " كتاب الله عليكم " لأن قوله: " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم " (٢) معناه كتب الله عليكم (وكتاب الله عليكم) مؤكدا ومثل ذلك " صنع الله الذي " (٣) لأن قوله: " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " (٤) قد علم منه أن ذلك صنع الله. وقوله: " من ذكر أو أنثى " روي انه قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): مابال الرجال يذكرون، ولاتذكر النساء في الهجرة، فأنزل الله هذه الآية روي ذلك عن مجاهد، وعمرو بن دينار، ويقال ان القائل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) كانت أم سلمة (رض). وقوله: " بعضكم من بعض " قال أبو علي: يحتمل أمرين: أحدهما - أن يريد بقوله: " بعضكم " العاملين " من بعض " يعني بعض العمل الذي أمرتم به.

(١) سورة المائدة: آية ١٣. (٢) سورة النساء: آية ٢٢.

(٣، ٤) سورة النمل: ٨٨.

(٩٠)

والثاني - أن يكون عنى بقوله: " بعضكم من بعض " أن ذكور المؤمنين وأنثاهم مستوون في أن لا يضيع الله لاحد منهم عملا، وان يجازيهم على طاعاتهم، فأناث المؤمنين بعض المؤمنين، وكذلك ذكورهم، فبعضهم كبعض في هذا الباب.

وقال الطبري " بعضكم " يعني الذين يذكرونني " قياما وقيودا وعلى جنوبهم " من بعض في النصره، والملة، والدين، وحكم جميعكم فيما أفعل بكم حكم أحدكم في " أني لأضيع عمل عامل " ذكر منكم ولأنثى. والاضاعة: الاهلاك. ضاع الشئ يضيع: إذا هلك. وأضاعه اضاعه وضيعه تضييعا، ومنه الضيعة: القرية.

وقوله: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم) يعني الذين هاجروا عن قومهم من أهل الكفر في الله إلى اخوانهم المؤمنين " وأخرجوا من ديارهم " هم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة " وأوذوا في سبيلي " بمعنى أوذوا في طاعتي وعبادتي، وديني. وذلك هو سبيل الله " وقاتلوا " يعني في سبيل الله " وقتلوا " فيها " لاكفرن عنهم سيئاتهم " يعني لامحونها عنهم، ولا تفضلن عليهم بعفوي ورحمتي، ولا غفرنا لهم. وذلك يدل على أن إسقاط العقاب تفضل على كل حال.

" ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا " يعني جزاء لهم على أعمالهم " والله عنده حسن الثواب " معناه أن عنده من حسن الجزاء على الاعمال مالا يبلغه وصف واصف مما لآعين رأت ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد (١٩٦) متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (١٩٧) - آيتان بلاخلاف.

المعنى:

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله). وقيل في معناه قولان:

أحدهما - ان ذلك على وجه التأديب والتحذير، لان النبي لاتجوز عليه

(٩١)

المعاصي لمكان التحذير من الله والتخويف، كما قال (لئن أشركت ليحبطن عملك) (١) الثاني - ان الخطاب وان توجه إليه، فالمراد به جميع المؤمنين، وتقديره لا يغرنكم أيها المؤمنون ما ترون ان قوما من الكفار كانوا يتجرون ويربحون في الاسفار التي كانوا

يسافرونها، ويسلمون فيها لكونهم في الحرم، فأعلم الله تعالى أن ذلك مما لا ينبغي أن يغبطوا به، لأن مأواهم ومصيرهم بكفرهم إلى النار، ولا

خير بخير بعده النار. وقوله: "متاع قليل" معناه ذلك الكسب، والربح الذي يربحونه متاع قليل وسماه متاعاً، لأنهم متعوا به في الدنيا، والمتاع النفع الذي تتعجل به اللذة أما بوجود اللذة أو بما يكون به اللذة نحو المال الجليل، والملك، وغير ذلك من الأولاد والاخوان. ووصفه بالقللة لسرعة زواله وانقطاعه، وذلك قليل بالاضافة إلى نعيم الآخرة.

والمهاد الموضع الذي يسكن فيه الانسان ويفترشه.

ووصفه بأنه بئس المهاد على ضرب من المجاز، لمافيه من أنواع العذاب، لأن الذم انما هو على الاساءة كقولك: بئس الرجل - هذا قول أبي علي الجبائي - وقال البلخي: هو حقيقة لأنه على وجهين:

أحدهما - من جهة النقص.

والآخر - من جهة الاساءة، وهو معنى قول السدي، وقتادة، وأكثر المفسرين. والغرور ايهام حال السرور فيما الامر بخلافه في المعلوم، وليس كل ايهام غرورا، لأنه قد يتوهمه مخوفا فيحذر منه، فلا يقال غره. والفرق بين الغرر والخطر ان الغرر قبيح، لأنه ترك الحزم فيما يمكن أن يتوثق منه، والخطر قد يحسن على بعض الوجوه، لأنه من العظم من قولهم: رجل خطير أي عظيم، وبني المضارع مع النون الشديدة، لأنه بمنزلة ضم اسم إلى اسم للتأكيد. قوله تعالى:

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٥.

(٩٢)

الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار)

(١٩٨) - آية - .

قرأ أبو جعفر (لكن) بتشديد النون وفتحها - ههنا وفي (الزمر) - وقرأ أبو عمرو والكسائي، وحمزة في أكثر الروايات (الاشرار، والابرار، والقرار) بالامالة. الباقون - بالتفخيم - والامالة في فتحة الراء حسنة، لأن الراء المكسورة تغلب المفتوحة كما غلبت المستعلي في قولهم: قارب وطارد، وقادر فيمن أمالهن، فاذا غلبت المستعلي، فان تغلب الراء المفتوحة أولى، لأنه لا استعلاء في الراء، وإنما هو حرف من مخرج اللام فيه تكرير. ومن لم يمل، فلان كثيرا من الناس لا يميل شيئا من ذلك.

لما أخبر الله تعالى عما للكفار من سوء العاقبة وأنواع العذاب بشر المؤمنين بما أعد لهم من الجزاء عند الله وجزيل الثواب، فقال: (لكن الذين اتقوا ربهم) بفعل الطاعات، وترك المعاصي (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله) يعني ثوابا من عند الله، وهو نصب على المصدر على وجه التأكيد، لأن خلودهم فيه أنزلهم فيها، كأنه قال: نزلوها نزلا، وهو بمعنى أنزلوها أنزالا. ويحتمل أن يكون نصبا على التفسير، كقولك: هو لك هبة. وواحد الأبرار بار: مثل صاحب، وأصحاب. و. يجوز أن يكون بر وأبرار - على فعل وأفعال - تقول: بررت والدي، فأنابر. وأصله بررلكن ادغمت الراء للتضعيف. وقوله: "وما عند الله خير" يعني من الحبا والكرامة، وحسن المآب خير للأبرار مما يتقلب فيه الذين كفروا، لأن ما يتقلبون فيه زائل فان قليل، وما عند الله دائم غير زائل. وقدينا معنى (لكن) فيما مضى، وانها للاستدراك بها خلاف المعنى المتقدم من اثبات بعد نفي أو نفي بعد اثبات. فقوله: (لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) يتضمن معنى فما لهم كبير نفع، فجاء على ذلك، (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات) وقوله: (تجري من تحتها الأنهار) معناه تجري من تحت شجرها.

(٩٣)

ويقال انها تجري معلقة من غير أ حدود لها. روي ذلك عن عبدالله بن مسعود، ثم قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها (١)، وقوله في الفاجرة: إن الموت خير لها يعني إذا كانت تدوم على فجورها. قوله تعالى:

(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) (١٩٩) - آية بلاخلاف - . النزول:

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقال جابر بن عبدالله، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وابن جريج إن النبي (صلى الله عليه وآله) لما بلغه موت النجاشي، دعا له واستغفر له، وصلى عليه، وقال للمؤمنين: صلوا عليه، فقالوا نصلي على رجل ليس بمسلم؟ وقال قوم منافقون: نصلي على علق بنجران؟ فنزلت هذه الآية، فالصفات التي فيها صفات النجاشي. وقال ابن زيد وفي رواية عن ابن جريج وابن اسحاق إنها نزلت في جماعة من اليهود وكانوا أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام، ومن معه. وقال مجاهد: إنها نزلت في كل من أسلم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهو أولى، لانه عموم الآية، ولادلل يقطع به على ما قالوه على انها لو نزلت في

النجاشي أو من ذكر، لم يمنع ذلك من حملها على عمومها، في كل من أسلم من أهل الكتاب، لان الآية قد تنزل على سبب وتكون عامة في كل من تتناوله.
المعنى: وإنما خصوا بالوعيد، ليبين ان جزاء أعمالهم موفر عليهم، لا يضرهم كفر

(١) في المطبوعة: (فيها).

(٩٤)

من كفر منهم فتأويل الآية " وان من أهل الكتاب " : التوراة والانجيل " لمن يؤمن بالله " أي يصدق بالله ويقر بوحدانيته، " وما أنزل إليكم " أيها المؤمنون من كتابه ووحيه على لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وآله)، " وما أنزل إليهم " يعني إلى أهل الكتاب من الكتب " خاشعين " يعني خاضعين بالطاعة مستكينين له بها متذللين قال ابن زيد:

الخاشع: المتذلل الخائف. " لا يثترون بآيات الله ثمنا قليلا " معناه لا يحرفون ما أنزل الله في كتبه من أوصاف محمد (صلى الله عليه وآله) فيبدلونه، ولا غير ذلك من أحكامه، وحججه لغرض من الدنيا خسيس يعطونه على التبديل، وابتغاء الرئاسة على الجاهل، كما فعله غيرهم ممن: صفة بقوله تعالى: " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " (١) وقال: " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة " (٢) لكن ينفادون للحق، ويعملون بمأمرهم الله به مما أنزل إليهم، وينتهون عما نهاهم عنه ثم قال: " أولئك " يعني هؤلاء الذين يؤمنون " بالله. وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم... لهم أجرهم عند ربهم " يعني لهم عوض أعمالهم وثواب طاعتهم فيما يطيعونه فيها مذخور عند ربهم حتى يوفيهم يوم القيامة " إن الله سريع الحساب " وصفه بالسرعة لانه لا يؤخر الجزاء عن يستحقه لطول الحساب، لانه لا يخفى عليه شئ من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد أن عملوها، فلاحاجة به إلى احصاء، عدد فيقع في الاحصاء ابطاء وقال الجبائي: لانه قادر على أن يكلمهم في حال واحدة كل واحد بكلام يخصه. لانه قادر لنفسه و " خاشعين " نصب على الحال، ويمكن أن يكون حالا من الضمير في " يؤمن " وهو عائد إلى قوله: " لمن يؤمن بالله " ويمكن أن يكون حالا من قوله: (إليهم) وقال الحسن: الخشوع: الخوف اللازم للقلب من الله. وأصل الخشوع: السهولة: والخشعة، سهولة الرمل كالرطوبة. والخاشع من الارض: الذي لا يهتدى له، لان الرمل يعفي اثاره.

(١) سورة البقرة: آية ١٦. (٢) سورة البقرة: آية ٨٦.

(٩٥)

ومنه قوله: " خاشعة أبصارهم " (١) " وخشعت الاصوات للرحمن " (٢)
والخاشع: الخاضع ببصره. والخشوع: التذلل خلاف التصعب.
قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٢٠٠) -
آية بلاخلاف -.

اختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال قوم: معنى اصبروا اثبتوا على دينكم وصابروا الكفار
ورابطوهم يعني في سبيل الله ذهب إليه الحسن، وقتادة، وابن جريج، والضحاك وقال آخرون:
معناها " اصبروا " على دينكم " وصابروا " الوعد الذي وعدتكم به " ورابطوا " عدوي
وعدوكم ذهب إليه محمد بن كعب القرظي. وقال آخرون " اصبروا " على الجهاد " وصابروا
عدوكم ورابطوا " الخيل عليه ذهب إليه زيد بن أسلم. وقال آخرون: رابطوا الصلوات أي
انتظروها واحدة بعد واحدة، لان المرابطة لم تكن حينئذ وهذا مروى عن علي (ع) ذهب (٣)
إليه أبو سلمة بن عبدالرحمن، وجابر بن عبدالله وأبو هريرة والاولى أن تحمل الآية على
عمومها في الصبر على كل ما هو من الدين، فعلا كان أوتركا.
وأصل الرباط ارتباط الخيل للعدو، والربط الشد، ومنه قولهم: ربط الله على قلبه بالصبر، ثم
استعمل في كل مقيم في ثغر يدفع عن وراء من أرادهم بسوء وينبغي (٤) أن يحمل قوله
رابطوا أيضا على المرابطة لما عند الله لانه العرف في استعمال الخبر، وعلى انتظار الصلاة
واحدة بعد أخرى. وقوله: " واتقوا الله " معناه اتقوا ان تخالفوه فيما يأمركم به لكي تفلحوا -
وتفوزوا - (٥) بنعيم الابد وتتجحوا بطاعتكم من الثواب الدائم.

(١) سورة القلم: آية ٤٣. (٢) سورة طه: آية ١٠٨.

(٣) في المخطوطة (وذهب). (٤) في المطبوعة (ينبغي) باسقاط الواو.

(٥) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٩٦)

وروي عن أبي جعفر (ع) انه قال اصبروا على المصائب، وصابروا على عدوكم، ورابطوا
عدوكم. وانما جمع بين " اصبروا وصابروا " من أن المصابرة من الصبر، للبيان عن تفصيل
(١) الصبر الذي يعني به في الذكر لان المصابرة صبر على جهاد العدو يقابل صبره لان
المفاعلة بين اثنين.

وإنما وصف (أي) بالموصول ولم يوصف بالمضاف، لان (الذي) يجري مجرى الجنس، لان
فيه الالف واللام بمنزلة قوله ياأيها المؤمنون، ولايجوز ياأيها أخو زيد، لانه لايصح فيه
الجنس.

(١) في المطبوعة (تفضيل).

(٩٧)

سورة النساء مائة وسبعون آية كوفي. وخمس وسبعون بصري وهي مدينة كلها وقد روي عن بعضهم أنه قال: كلما في القرآن من قوله: (ياأيها الناس)

نزل بمكة، والاول قول قتادة، ومجاهد، وعبدالله بن عباس بن أبي ربيعه، وقال بعضهم: ان جميعها نزلت بالمدينة إلا آية واحدة وهي قوله: (إن الله يامرکم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) (١) فأنها نزلت بمكة حين أراد النبي (صلى الله عليه وآله) أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة ويسلمها إلى عمه العباس بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى:

(ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيبا) (١) - آية بلاخلاف -.

القراءة والحجة:

قرأ أهل الكوفة (تساءلون به) بتخفيف السين، الباقون بتشديدها، وقرأ حمزة وحده " والارحام " بجر الميم، الباقون بفتحها. فمن قرأ من أهل الكوفة

(١) سورة النساء: آية ٥٧.

(٩٨)

" تساءلون به " بالتخفيف فوجهه ان أصله تتساءلون، فحذف احدى التاءين وهي الاصلية: لان الاخرى للمضارعة، وانما حذفوها لاستتقالهم إياها في اللفظ فحذفت لان الكلام غير ملتبس. ومن شدد أدغم احدى التاءين في السين، لقرب مكان هذه من هذه. المعنى:

ومعنى " تساءلون به " تطالبون حقوقكم به " والارحام " القراءة المختارة عند النحويين النصب في الارحام على تقدير: واتقوا الارحام. وتكون (١) معطوفة على موضع " به " ذكره أبو علي الفارسي، فأما الخفض فلايجوز عندهم إلا في ضرورة الشعر كما قال الشاعر أنشده سيبويه:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا * فاذهب فما بك والايام من عجب

فجروا الايام عطفاً على موضع الكاف في " بك " وقال آخر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا * وما بينها والكعب غوط نغانف (٢)

فعطف الكعب على الهاء والالف في (بينها) وهو ظاهر على مكنى وقال آخر:

وان الله يعلمني ووهبا * وانا سوف نلقاه سوانا

فعطف وهبا على الياء في يعلمني، ومثل ذلك لايجوز في القرآن والكلام.

قال المازني: لان الثاني في العطف شريك للاول، فان كان الاول يصلح أن يكون شريكا للثاني جاز وإن لم يصلح أن يكون الثاني شريكا له لم يجز، قال: فكما لا تقول: مررت بزید وذاك (٣) لاتقول مررت بك وزید. وقال أبو علي الفارسي: لان المخفوض حرف متصل غير منفصل فكأنه كالتتوين في الاسم فقبح أن يعطف باسم

في المطبوعة: (أويكون).

(٢) قائله مسكين الدارمي معاني القرآن للقراء ١: ٢٥٣، والانصاف: ١٩٣ والخزانة ٣٣٨٢. السواري جمع سارية وهي الاسطوانة والغوط: المظمن من الارض. والنفائف جمع نفنف وهو الهواء بين الشئين * والبيت كناية عن طول قامتهم (٣) في النسخ المخطوطة والمطبوعة (كذلك) والظاهر ما ذكرنا.

(٩٩)

يقوم بنفسه على اسم لايقوم بنفسه. ويفسد من جهة المعنى من حيث ان اليمين بالرحم لايجوز، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (لاتحلفوا بأبائكم) فكيف تساءلون به وبالرحم على هذا وقال اسماعيل بن اسحاق: الحلف بغير الله أمر عظيم، وان ذلك خاص لله تعالى، وهو المروي في أخبارنا. وقال ابراهيم النخعي وغيره: انه من قولهم: نشدتك بالله وبالرحم. وقال ابن عباس، والسدي، وعكرمة، والحسن، والربيع، والضحاك، وابن جريج، وابن زيد، وقتادة: المعنى والارحام فصلوها.

وهذه الآية خطاب لجميع المكلفين من البشر.

وقوله: (وانقوا ربكم) فيه وعظ بان يتقى عصيانه بترك (١) ما أمر به وارتكاب مانهى عنه. وحذر من قطع الارحام لما أراد من الوصية بالاولاد والنساء والضعفاء، فأعلمهم انهم جميعا من نفس واحدة، فيكون ذلك داعيا لهم إلى لزوم أمره وحدوده في وراثتهم ومن يخلفون بعدهم، وفي النساء والايتام عطا لهم عليهم. ثم اخبر تعالى انه خلق الخلق من نفس واحدة فقال: " الذي خلقكم من نفس واحدة " والمراد بالنفس ههنا آدم عند جميع المفسرين: السدي وقتادة ومجاهد وغيرهم. وقوله: (وخلق منها زوجها) يعني حواء. روي انها خلقت من ضلع من أضلاع آدم، ذهب إليه أكثر المفسرين. وقال أبو جعفر (ع): خلقها من فضل الطينة التي خلق منها آدم، ولفظ النفس مؤنث بالصيغة، ومعناه التذكير ههنا، ولو قيل نفس واحد لجاز. المعنى، واللغة:

وقوله: (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) معنى بث نشر، يقال: بث الله الخلق.

ومنه قوله: " كالفراس المبوث " (٢) وذلك يدل على بث. وبعض العرب يقول أبث الله الخلق، ويقال بثنتك سري، وابثنتك سري لغتان.

وقوله: (إن الله كان عليكم رقيبا) أي حافظا تقول رقب رقيب رقابا وانما

(١) في المطبوعة: (يقول). (٢) سورة القارعة: آية ٤.

(١٠٠)

قال: " كان عليكم " ولفظ كان يفيد الماضي لانه أراد أنه كان حفيظا على من تقدم زمانه من عهد آدم وولده إلى زمان المخاطبين، وانه كان عالما بما صدر منهم، لم يخف عليه منه شيء. والرقيب الحافظ في قول مجاهد. وقال ابن زيد: الرقيب العالم، والمعنى متقارب، يقال: رقب يرقب رقوبا ورقبا ورقبة. قال أبوداود:

كمقاعد الرقباء للضرباء أيديهم نواهد (١)

وقيل في معنى " الذي تسألون به " قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد وإبراهيم: هو من قولهم: أسألك بالله والرحم، فعلى هذا يكون عطا على موضع به كأنه قال: وتذكرون الارحام في التساؤل.

الثاني - قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والربيع وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر (ع): واتقوا الارحام أن تقطعوها، فعلى هذا يكون معطوفا على اسم الله تعالى، ووجه النعمة في الخلق من نفس واحدة انه أقرب إلى أن يتعطفوا ويأمن بعضهم بعضا ويحامي بعضهم عن بعض، ولايأنف بعضهم عن بعض، لما بينهم من القرابة والرجوع إلى نفس واحدة، لان النفس الواحدة ههنا آدم (ع) باجماع المفسرين: الحسن وقتادة والسدي ومجاهد. وراز من نفس واحدة لان حواء من آدم على ما بيناه، فرجع الجميع آدم وانما أنت النفس والمراد بها آدم لان لفظ النفس مؤنثة، وان عني بها مذكر كما قال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال (٢)

فأنت على اللفظ، وقد حكينا عن أكثر المفسرين: ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن اسحاق: ان حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (المرأة خلقت من ضلع، وانك ان أردت أن تقيهما كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمعت بها). وروي عن أبي جعفر (ع)

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١١٣، واللسان (رقب) وهو من أبيات في نعت النور الابيض. الرقباء جمع رقيب وهو أمين أصحاب الميسر يحفظ ضربهم بالقداح.

والضرباء جمع ضرب وهو: الضارب بالقداح. وقيل أن الضمير في (أيديهم) يعود إلى الضرباء.

وقيل انه يعود إلى الرقباء، وهو الاصح.

(٢) انظر ٢: ٤٤٩ تعليقة ٣.

(١٠١)

أن حواء خلقت من فضل طينة آدم (ع).
قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم
إنه كان حوبا كبيرا) (٢) - آية بلاخلاف -
المعنى:

هذا خطاب لاوصياء اليتامى، أمرهم الله بأن يعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا الحلم وأونس منه
الرشد، وسماهم يتامى بعد البلوغ، وايناس الرشد مجازا، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال:
(لايتم بعد احتلام) كما قالوا في النبي (صلى الله عليه وآله) إنه يتيم أبي طالب بعد كبره يعنون انه
رباه. وقوله: (ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب)

معناه: لاتتبدلوا ما حرمه الله عليكم من أموال اليتامى بما أحله الله لكم من أموالكم، واختلفوا
في صفة التبديل فقال بعضهم كان أوصياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم والرفيع منه
ويجعلون مكانه الرديء الخسيس، ذهب إليه ابراهيم النخعي، والسدي، وابن المسيب،
والزهري، والضحاك، وقال قوم: معناه " ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب " بأن تتعجلوا الحرام قبل
أن يأتيكم الرزق الحلال الذي قدر لكم. ذهب إليه أبوصالح، ومجاهد. وقال ابن زيد: معناه ما
كان أهل الجاهلية يفعلونه، من أنهم لم يكونوا ايرزقون النساء ولاالصغار بل يأخذة الكبار.
وأقوى الوجوه الوجه الاول، لانه ذكر عقيب مال اليتامى وإن حمل على عموم النهي عن
التبديل بكل مال حرام كان قويا. وقوله: (ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم)
يعني أموال اليتامى مع أموالكم والتقدير: ولاتضيفوا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوهما جميعا، فأما
خط مال اليتيم بمال نفسه إذا لم يظلمه فلا بأس به بلاخلاف

(١٠٢)

قال الحسن لما نزلت هذه الآية كرهوا مخالطة اليتامى، فشق ذلك عليهم، فشكوا ذلك إلى
رسول الله، فأنزل الله تعالى: (ويستأونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وإن تخالطوهم
فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) (١) وهوالمروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع).
وقوله: (انه كان حوبا كبيرا) يعني إن أكلكم أموال اليتامى مع أموالكم حوب كبير، أي اثم
كبير في قول ابن عباس ومجاهد.

والهاء في قوله: " انه " دالة على اسم الفعل الذي هو الاكل. والحوب الاثم، يقال: حاب يحوب
حوبا وحبابة والاسم الحوب. وقرأ الحسن حوبا: ذهب إلى المصدر. ويقال:

تحوب فلان من كذا إذا تخرج منه. ويقال نزلنا بحوبة من الارض وبحيب من الارض يعني بموضع سوء. وحكى الفراء عن بني أسد ان الحائب القاتل. وقال الشاعر:

أيها تطيع ابن عيس انها رحم * حبتم بها فانا ختم بحجاج (٢)

أي أئتمتم والحوبة الحزن، والتحوب التحزن، والتحوب التأثم، والتحوب الهياح الشديد، والحوباء الروح والكبير العظيم قوله تعالى:

(وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيما نكحتم ذلك أدنى ألا تعولوا (٣) وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً)

(٤) - آيتان - .

(١) سورة آل عمران: آية ٢٢٠. (٢) اللسان (حوب) نسبه إلى النابغة وفي (جع) نسبه إلى نهكية الفزاري ورواية البيت فيهما:

صبرا بغيض بن ريث انها رحم...

(١٠٣)

النزول، والمعنى:

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال:

أولها - ماروي عن عائشة انها قالت: نزلت في اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بدون صداق مثلها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لها صداق مهر مثلها، وأمروا أن ينكحوا ما طاب مما سواهن من النساء إلى الرابع " فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " من سواهن

" أو ما ملكت أيما نكحتم " ومثل هذا ذكر في تفسير أصحابنا. وقالوا: انها متصلة بقوله:

(ويستفتونك في النساء قل الله يفتنكم فيهن وما يتلى في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن) (١) (فان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) الآية وبه قال الحسن والجبائي والميرد.

والثاني - قال ابن عباس وعكرمة: ان الرجل منهم كان يتزوج الاربع والخمس والست والعشر ويقول ما يمنعني أن أتزوج كما تزوج فلان فاذا فنى ماله مال على مال اليتيم فانفقته، فنهاهم الله تعالى عن أن يتجاوزوا بالاربع إن خافوا على مال اليتيم وإن خافوا من الاربع أيضا أن يقتصروا على واحدة.

والثالث - قال سعيد بن جبير والسدي وقتادة والربيع والضحاك. وفي احدى الروايات عن ابن عباس قالوا: كانوا يشددون في أمر اليتامى ولا يشددون في النساء، ينكح أحدهم النسوة فلا يعدل بينهن، فقال الله تعالى كما تخافون ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا في النساء، فانكحوا واحدة إلى الاربع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة.

والرابع - قال مجاهد: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى معناه: ان تخرجتم

(١) سورة النساء: آية ١٢٦.

(١٠٤)

من ولاية اليتامى وأكل أموالهم إيماناً وتصديقاً فكذلك تخرجوا من الزنا، وانكحوا النكاح المباح من واحدة إلى أربع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة.

والخامس - قال الحسن: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتيمة المرباة في حجركم فانكحوا ما طاب لكم من النساء مما أحل لكم من يتامى قراباتكم مثني وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت إيمانكم. وبه قال الجبائي وقال:

الخطاب متوجه إلى أولياء اليتيمة إذا أراد أن يتزوجها إذا كان هو وليها كان له أن يزوجه قبل البلوغ وله أن يتزوجها.

والسادس - قال الفراء: المعنى ان كنتم تتخرجون من مؤاكلة اليتامى فاحرجوا من جمعكم بين اليتامى، ثم لاتعدلون بينهن. وقوله: (فانكحوا ما طاب لكم) جواب لقوله: (وان خفتم ألا تقسطوا) على قول من قال مارويناه أولاً عن عائشة وأبي جعفر (ع). ومن قال: تقديره: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء الجواب قوله: " فانكحوا ما طاب لكم من النساء " والتقدير: فان خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء، فلا تتزوجوا منهن إلا من تأمنون معه الجور، مثني وثلاث ورباع، وان خفتم أيضاً من ذلك فواحدة، فان خفتم من الواحدة فما ملكت إيمانكم، فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء لدلالة الكلام عليه وهو قوله: (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم)

ومعنى " ألا تقسطوا " أي لاتعدلوا ولا تنتصفوا، فالاقساط هو العدل والانصاف والقسط هو الجور. ومنه قوله: (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) (١) وقد بيناه فيما مضى. واليتامى جمع لذكران اليتامى واناثهم في هذا المعنى.

المعنى، واللغة، والاعراب وقال الحسين بن علي المغربي: معنى ما طاب أي بلغ من النساء كما يقال:

طابت الثمرة إذا بلغت، قال: والمراد المنع من تزويج اليتيمة قبل البلوغ لئلا يجري

(١) سورة الجن: آية ١٥.

(١٠٥)

عليها الظلم، فان البالغة تختار لنفسها، وقيل: معنى " ما طاب لكم من النساء " من أحل لكم منهن دون من حرم عليكم، وانما قال: " ما طاب " ولم يقل: من طاب وان كان من لما يعقل وما لما لا يعقل لان المعنى: انكحوا الطيب أي الحلال هذه العدة، لانه ليس كل النساء حلالا، لان الله حرم كثيرا منهن بقوله:

" حرمت عليكم أمهاتكم " (١) الآية. هذا قول الفراء. وقال مجاهد: فانكحوا النساء نكاحا طيبا. وقال المبرد: " ما " ههنا للجنس كقول القائل: ما عندك؟ فنقول: رجل أو امرأة، فالمعنى بقوله: ما طاب الفعل دون اعيان النساء واشخاصهن، لان الاعيان لاتحرم ولاتحلل، وإنما يتناول التحريم والتحليل التصرف فيها، وجرى ذلك مجرى قول القائل: خذ من رقيقى ما أردت: إذا أراد خذ منهم ارادتك ولو أراد خذ الذي تريد لم يجز إلا أن يقول خذ من رقيقى من أردت وكذلك قوله:

" أو ما ملكت ايمانكم " معناه أو ملك ايمانكم، ومعنى " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثى وثلاث ورباع " فلينكح كل واحد منكم مثى وثلاث ورباع، كما قال: " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة " (٢)

معناه: فاجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة. وقوله: (مثى وثلاث ورباع)

بدل من (ماطاب) وموضعه النصب وتقديره: اثنين اثنين، وثلاثا وثلاثا، واربعاً اربعا، إلا انه لاينصرف لعنتين، احدهما: انه معدول عن اثنين اثنين وثلاث ثلاث في قول الزجاج، وقال غيره: لانه معدول ولانه نكرة، والنكرة أصل للاشياء، وقال غيرهم: هو معرفة، وهذا فاسد عند البصريين، لانه صفة للنكرة في قوله: " اولي اجنحة مثى وثلاث ورباع " (٣) والمعنى اولي اجنحة ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة. وقال الفراء لانه معدول، لانه يقع على الذكر والانثى، ولانه مضاف إلى ما يضاف إليه الثلاث، فكأن لامتناعه من الاضافة كان فيه الالف واللام. قال الشاعر:

(١) سورة النساء: آية ٢٢٠. (٢) سورة النور: آية ٤.

(٣) سورة فاطر: آية ١٢.

(١٠٦)

ولكنما اهلي بواد أنيسه * ذئاب تبغى الناس مثنى وموحدا (١)
ومن قال: انه اسم للعدد معرفة استدل بقول تميم بن أبي مقبل:
ترى النعرات الزرق تحت لبانه * احاد ومثنى أصعقتها صواهله (٢)
فرد احاد ومثنى على النعرات وهي معرفة، وقد يجئ منكرها مصروفا كما قال الشاعر:
قتلنا به من بين مثنى وموحدا * باربعة منكم وآخرخامس (٣)
وترك الصرف أكثر قال صخر الغي:
منت لك أن تلاقيني المنيا * احاد احاد في شهر حلال (٤)
وقد تقع هذه الالفاظ على الذكر والانثى، فوقعها على الانثى مثل الآية التي نحن في
تفسيرها، ووقعها على الذكر قوله: " اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع " لان المراد به الجناح
وهو مذكر، ويقال: احاد وموحدا وثنى ومثنى، وثلاث ومثلث، ورباع ومربع، ولم يسمع في
ما زاد عليه مثل خماس ولاالمخمس ولاالسداس والسباع إلا بيت للكيميت فانه يروى في العشرة
عشار، وهو قوله:

(١) قائله ساعدة بن جوية الهذلي. اللسان (بغى) وروايته (سباع) بدل (ذئاب).
(٢) معاني القرآن ١: ٢٥٥، ٣٤٥، واللسان (نعر)، (صعق)، (قرد)، (ثنى) وروايته في (فرد) فراد، بدل، احاد.
وأضعقتها، بدل أصعقتها وفي (نعر)
و (صعق) الحضر، بدل، الزرق.
النعرات جمع نكرة وهي ذبابة تسقط على الدواب فتؤذيها وأضعقتها صواهله أي قتلتها صهيله (٣) معاني القرآن
للفراء ١: ٢٥٤ وروايته:
وان الغلام المستهام بذكره * قتلنا به من بين مثنى وموحدا
باربعة منكم وآخر خامس * وساد مع الاظلام في رمح معبد
ولم يعرف لهما قائل. والبيت في المتن كما ترى ملفق منهما. وساد - بالتثوين - بمعنى سادس (٤) نسبة محمود
محمد شاكرفي تفسير الطبري ٧: ٥٤٥ إلى عمرو ذي الكلب وخطأ من نسبه إلى غيره، وهذا خطأ منه لامحالة لان
رواية القدماء أكثرها اذالم تكن جميعها تنسبه إلى صخر الغي. وقد اعترف هو أن الطبري روايته كذلك. وفي بعض
الروايات (في شهر حلال) منت لك: أي قدرت لك نيتك أن تلقاني في شهر حلال، أو حرام على اختلاف الرواية.

(١٠٧)

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خصالا عشارا (١)
يريد عشارا. وقال صخر السلمي في ثناوموحدا:
ولقد قتلكتم ثناء وموحدا * وتركت مرة مثل امس الدابر (٢)

ولم يرد أنه قتل الثلاثة، وإنما أراد أنه قتل نفرا كثيرا منهم واحدا بعد واحد واثنين بعد اثنين، وقوله: " فواحدة " نصب على انه مفعول به، والتقدير:

فان خفتي ألتعدلوا فيما زاد على الواحدة فانكحوا واحدة، ولو رفع كان جازا، وقد قرأه أبو جعفر المدني، وتقديره: فواحدة كافية، أو فواحدة مجزية، كما قال: (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) (٣) ومن استدل بهذه الآية على أن نكاح التسع، جائز فقد اخطأ، لان ذلك خلاف الاجماع، وأيضا فالمعنى:

فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ان امنتم الجور وإماتلاث ان لم تخافوا ذلك أو رباع ان امنتم ذلك فيهن، بدلالة قوله: " فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " لان معناه فان خفتم في الثنتين فانكحوا واحدة، ثم قال: فان خفتم أيضا في الواحدة فما ملكت ايمانكم. على أن مثنى لا يصح إلا لاثنتين اثنتين، أو اثنتين اثنتين على التفريق في قول الزجاج، فتقدير الآية " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث " — فتلاث — (٤) بدلا من مثنى ورباع بدلا من ثلاث، ولو قيل ب (أو)

لظن أنه ليس لصاحب مثنى ثلاث، ولالصاحب الثلاث رباع. ومن استدل بقوله: " فانكحوا " على وجوب التزويج من حيث أن الامر يقتضي الايجاب، فقد اخطأ، لان ظاهر الامر وإن اقتضى الايجاب، فقد ينصرف عنه بدليل، وقد قام الدليل على أن التزويج ليس بواجب على أن الغرض بالآية النهي عن العقد

" ١ " مجاز القرآن ١: ١١٦، والاغاني ٣: ١٣٩ واللسان (عشر) استرأه:

استبطأه، وعشار أي عشا عشا.

(٢) مجاز القرآن ١: ١١٥، والاغاني ١٣: ١٣٩. وروايته فيهما (المدير)

بدل (الدابر).

" ٣ " سورة البقرة: آية ٢٨٢. (٤) اثبتنا ما بين القوسين لعدم استقامة المعنى بدونه.

(١٠٨)

على من يخاف ألا يعدل بينهن، والتقدير: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فخرجتم فيهم، فكذلك فخرجوا في النساء، فلا تتكحوا إلا ما أمنتم الجور فيه (١) منهن، مما أحلته لكم منهن، من الواحدة إلى الرابع، وقد يراد.

بصورة الامر ما يراد بالنهي (٢) أو التهديد كقوله: " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (٣) وقال: " ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون " (٤)

والمراد بذلك كله التهديد والزجر، فكذلك معنى الآية النهي، وتقديرها: فلا تتكحوا إلا ما طاب لكم من النساء على ما بيناه.

وقوله: (ذلك ادنى ألا تعولوا) اشارة إلى العقد على الواحدة مع الخوف من الجور فيما زاد عليها، أو الاقتصار على ما ملكت أيمانكم، ومعنى " أدنى " أقرب " ألا تعولوا " وقيل في معنى " ألا تعولوا " ثلاثة أقوال:

أحدها - وهو الأقوى والأصح = أن معناه: ألا تجوروا، ولا تميلوا يقال منه: عال الرجل يعول عولا وعيالة إذا مال وجار، ومنه عول الفرائض، لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص، قال أبوطالب:

بميزان قسط وزنه غير عائل (٥)

وقال أبوطالب أيضا:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة * له شاهد من نفسه غير عائل (٦)

وروي: لا يضل شعيرة، وبهذا قال ابراهيم، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبومالك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن عباس، واختاره الطبري، والجبائي. وقال قوم: معناه: ألا تفتقروا، وهذا خطأ، لأن - العول - (٧)

الحاجة، يقال منه: عال الرجل يعيل عيلة إذا احتاج، كما قال الشاعر:

(١) في المطبوعة: (الا ماأمنتم به الجور فيه.).

(٢) في المطبوعة: (مايراد النهي.) وفي المخطوطة: (مايراد به النهي.).

(٣) سورة الكهف: آية ٢٩.

(٤) سورة النحل: آية ٥٥، وسورة الروم: آية ٣٤.

(٥ - ٦) سيرة ابن هشام ١: ٢٩٦. وفي البيت رواية أخرى هي (بميزان صدق).

(٧) أثبتنا ما بين القوسين لعدم تمامية المعنى الايه.

(١٠٩)

وما يدري الفقير متى غناه * وما يدري الغني متى يعيل (١)

أي: متى يفتقر. وقال ابن زيد: معناه: ألا تكثر عيالكم، وهذا أيضا خطأ، لأن المراد لو كان ذلك لما أباح الواحدة، وما شاء من مالك الايمان، لأن اباحة كل ما ملكت اليمين أزيد في العيال من أربع حرائر، على أن من كثرة العيال يقال: أعال يعيل فهو معيل، إذا كثر عياله وعال العيال: إذا مانهم، ومنه قوله: ابدأ بمن تعول. وحكي الكسائي، قال: سمعت كثيرا من العرب يقول:

عال الرجل يعول إذاكثر عياله. وقوله: " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة " فصدقاتهن:

جمع صدقة، يقال: هو صدق المرأة، وصدقة المرأة، وصدقة المرأة، وصدق المرأة، والفتح اقلها. ومن قال: صدقة المرأة قال: صدقاتهن، كما تقول: غرفة وغرفات، ويجوز صدقاتهن،

بضم الصاد وفتح الدال، وصدقاتهن، ذكره الزجاج. ولا يقرأ من هذه إلا بما قرئ به صدقاتهن، لان القراءة سنة متبعة. وقوله: " نحلة " نصب على المصدر، ومعناه، قال بعضهم: فريضة، وقال بعضهم ديانة، كما يقال: فلان ينتحل كذا وكذا، أي يدين به، ذكره الزجاج، وابن خالويه. قال بعضهم: هي نحلة من الله لهن، أن جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المرأة شيئاً من الغرم، وذلك نحلة من الله تعالى للنساء. ويقال: نحلت الرجل: إذا وهبت له نحلة ونحلا، ونحل جسمه ونحل: إذا دق، وسمي النحل نحلا لان الله نحل الناس منها العسل الذي يخرج من بطونها، والنحلة عطية عليك على غير جهة المثامنة، والنحلة الديانة، والمنحول من الشعر مالميس له، واختلفوا في المعنى بقوله " وآتوا النساء " فقال ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، واختاره الطبري، والجبائي، والرماني، والزجاج: المراد به الأزواج، أمرهم الله تعالى باعطاء المهر إذا دخل بها كاملا، إذا سمى لها، فأما غير المدخول بها إذا طلقت فان لها نصف المسمى، وإن لم يكن سمى،

(١) قائله أحيحة بن الجلاح الاوسي. معاني القرآن للفراء ١: ٢٥٥، والكامل لابن الاثير ١: ٢٧٨، واللسان (عبل) من قصيدة قالها في حرب بين قومه وبين الخزرج، وفي معاني القرآن بدل (وما) في الموضعين (ولا).

(١١٠)

فلها المتعة على ما بيناه فيما مضى. وقال أبو صالح: هذا خطاب للاولياء، لان الرجل منهم كان إذا زوج أيمه أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية. وروى هذا أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع)، وذكر المعمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم حضرمي ان اناسا كانوا يعطي هذا الرجل أخته، ويأخذ أخت الرجل، ولا يأخذون كثير مهر، فنهى الله عن ذلك، وأمر باعطاء صداقهن، وأول الاقوال أقوى، لان الله تعالى ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين للنساء، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن، ولا ينبغي أن يترك الظاهر من غير حجة ولادلالة، وقوله: (فان طبن لكم عن شيء منه نفسا) اختلفوا فيمن المخاطب به، فقال عكرمة، وابراهيم، وعلقمة، وقتادة، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد: الخطاب متوجه إلى الأزواج، لان أناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فانزل الله هذه الآية. وقال أبو صالح:، المعنى به الاولياء، لانه حمل أول الآية أيضا عليهم، على ما حكيناه عنه، والاول هو الاولى، لانابينا أن الخطاب متوجه إلى الأزواج الناكحين، فكذلك آخر الآية. ومعنى " فان طبن لكم عن شيء منه نفسا " إن طابت لكم أنفسهن بشيء، ونصبه على

التمييز، كما يقولون: ضقت بهذا الامر ذرعا، وقررت به عينا، والمعنى ضاق به ذرعي وقرت به عيني، كما قال الشاعر:

إذا التياز ذو العضلات قلنا * " اليك اليك " ضاق بها ذراعا (١)

وإنما هو على ذرعا وذراعا، لان المصدر والاسم يدلان على معنى واحد، فنقل صفة الذراع إلى رب الذراع، ثم أخرج الذراع مفسرة لموقع الفعل، ولذلك وحد النفس لما كانت مفسرة لموقع الخبر، والنفس المراد به الجنس، يقع على الواحد

(١) قائله القطامي، ديوانه: ٤٤. واللسان (تيز) ومعاني القرآن ١: ٢٥٦. والتياز: الكثير اللحم. وقوله (اليك اليك) أي: خذها.

(١١١)

والجمع، كما قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها * فيبيض وأما جلدها فصليب (١)

ولم يقل: فجلودها، ولو قال: (فان طين لكم عن شئ منه) أنفسا لمجاز، وكذلك ضقت به أذرعا وذراعا. فأما قوله: (بالاخسرين أعمالا) (٢) إنما جمع لثلا يوهم أنه عمل يضاف إلى الجميع، كما يضاف القتل إلى جماعة إذا رضوا به، ومالوا عليه. ومثل الآية: أنت حسن وجهها، فالفعل للوجه، فلما نقل إلى صاحب الوجه، نصب الوجه على التمييز. وقوله: (فكلوه هنيئا مريئا) فهنيئا مأخوذ من هنأت البعير بالقطران، وذلك إذا جرب فعولج به، كما قال الشاعر:

متبذلا تبذو محاسنه * يضع الهناء مواضع النقب (٣)

فالهني شفاء من المرض، كما أن الهناء شفاء من الجرب. ومعنى (فكلوه هنيئا مريئا) أي دواء شافيا، يقال منه: هنأني الطعام ومرأني: إذا صار لي دواء وعلاجا شافيا، وهنيئي ومريني بالكسر، وهي قليلة، ومن قال: هنأني يقول في المستقبل: يهنأني، ويمراني، ومن يقول: هنأني، يقول يهنئني، ويمرئني، فاذا أفردوا قالوا:

قد أمراني هذا الطعام، ولايقولون: أهنأني، والمصدر منه هنا، مرا، وقد مرؤ هذا الطعام مرا، ويقال: هنأت القوم إذا علتهم، وهنأت فلانا المال إذا وهبته له، أهنؤه هنا، ومنه قولهم: انما سميت هانيا لتهنا، أي: لتعطي، ومعنى قوله: (فان طين لكم عن شئ منه) يعني من المهر، و " من ههنا ليست للتبعيض وانما معناه لتبيين الجنس، كما قال (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) (٥)

(١) قائله علقمة بن عبدة (علقمة الفحل) ديوانه: ٢٧، وشرح المفضليات: ٧٧٧، وسيبويه ١: ١٠٧ من قصيدة في الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني حين أسر أخاه شأسا، فرحل اليه علقمة يطلب فكه. وقوله: (بها حيف الحسرى) الضمير راجع إلى المطلوب في البيت السابق، وهي آثار الطريق، والصليب الودك الذي يسيل من جلودها بعد موتها.

(٢) سورة الكهف: آية ١٠٤. (٣) قائله دريد بن الصمة. اللسان (نقب) والاعاني ١٠: ٢٢، والشعر والشعراء ٣٠٢. والنقب - بضم النون وسكون القاف وفتحها - جمع نقبه، أول الجرب حين يبدو.
(٤) سورة الحج: آية ٣٠.

(١١٢)

ولو وهبت له المهر كله لجاز، وكان حالاً بلاخلاف. واستدل أبو علي بهذه الآية على أن لولي اليتيمة الذي هو غير الاب أن يزوج اليتيمة، أو يتزوجها قبل أن تحيض، أو يكمل عقلها، بأن (١) قال الخطاب في قوله: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) متوجه إلى الاولياء الذين كانوا يتخرجون من العقد على اليتامى اللاتي لهم عليهن ولاية، خوفاً من الجور، فقال الله لهم: ان خفتك من العقد على أربع فعلى ثلاث، أو اثنتين، أو واحدة، أو ما ملكت أيماكم من سوهن، ثم أمرهم باعطائهن المهر، ثم قال: (فان طبن لكم) يعني الأزواج الذين هم الاولياء، " عن شئ " من ذلك، " فكلوه هنيئاً مريئاً " وهذا الذي قاله ليس بصحيح، لانه لا يسلم له أولاً أنه خطاب للاولياء، فما الدليل على ذلك ثم إن عندنا وعند الشافعي ليس لاحد من الاولياء أن يزوج الصغيرة إلا الاب (٢)

خاصة فكيف يسلم له ما قاله؟ ومن قال: يجوز ذلك، قال: يكون العقد موقوفاً على بلوغها ورضاها، فان لم ترض كان لها الفسخ، فعلى كل حال لا يصح ما قاله.
قوله تعالى:

(ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً) (٥) - آية - .

القرأة، والمعنى:

قرأنافع، وابن عباس، قيمانغير الف. اختلف أهل التأويل فيمن المراد بالسفهاء المذكورين في الآية، فقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، والسدي، والضحاك، ومجاهد، وقتادة، وأبو مالك: إنهم النساء والصبيان، وهو الذي رواه أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع) وقال سعيد بن جبيرة، والحسن

(١) في المطبوعة: فان، وقد صححنا على المخطوطة.

(٢) في المطبوعة: إلى الاب، وهو تحريف.

(١١٣)

وقتادة، في رواية أخرى عنهم: أنهم الصبيان الذين لم يبلغوا فحسب، وقال أبو مالك، معناه: لاتعط ولدك السفية مالك فيفسده الذي هو قيامك وقال ابن عباس في رواية أخرى: إنها نزلت في السفهاء وليس لليتامى في ذلك شيء، وبه قال ابن زيد، وقال أبو موسى الأشعري ثلاثة يدعون فلا يستجيب الله لهم:

رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، وقال: اللهم خلصني منها، ورجل أعطى مالا سفيةا، وقد قال الله: " ولاتؤتوا السفهاء أموالكم "، ورجل له على غيره مال فلم يشهد عليه. وقد روي عن أبي عبد الله (ع) ان السفية شارب الخمر، ومن جرى مجراه، وقال المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم حضرمي أن المراد به النساء خاصة، وروي ذلك عن مجاهد، والضحاك، وابن عمر، والاولى حمل الآية على عمومها في المنع من اعطاء المال السفية، سواء كان رجلا أو امرأة بالغاً أو غير بالغ.

والسفيه هو الذي يستحق الحجر عليه، لتضييعه ماله، ووضعه في غير موضعه، لان الله تعالى قال عقيب هذه الاوصاف: " وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم " فامر الاولياء بدفع الاموال إلى اليتامى إذا بلغوا، وأونس منهم رشداً، وقد يدخل في اليتامى الذكور والاناث، فوجب حملها على عمومها.
اللغة:

فأما من حمل الآية على النساء خاصة، فقوله ليس بصحيح، لان فعيلة لا يجمع فعلاء، وانما يجمع فعائل وفعيلات، كغريبة وغرايب وغربيات، وقد جاء: فقيرة وفقراء، ذكره الرماني. فأما الغرباء فجمع غريب المعنى:
وقوله: " أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم "

(١١٤)

اختلفوا في معناه. فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وحضرمي. معناه: لاتؤتوا يأيها الرشد السفهاء من النساء والصبيان - على ما ذكرنا من اختلافهم - " أموالكم التي جعل الله لكم " يعني أموالكم التي تملكونها، فتسلطوهم عليها، فيفسدوها، ويضيعوها، ولكن " ارزقوهم فيها " إن كانوا ممن يلزمكم نفقته، واكسوهم " وقولوا لهم قولاً معروفاً ". وقال السدي:

معناه: لاتعط امرأتك وولدك مالك، فيكونوا هم الذين ينفقون ويقومون عليك، واطعمهم من مالك، واكسهم. وبه قال ابن عباس، وابن زيد. وقال سعيد ابن جبير: يعني ب " أموالكم " أموالهم، كما قال: " ولاتقتلوا أنفسكم " (١) قال:

واليتامى لاتؤتوهم أموالهم، " و ارزقوهم فيها واكسوهم ". والاولى حمل الآية على الامرين، لان عمومه يقتضي ذلك، فلايجوز أن يعطى السفية الذي يفسد المال، ولااليتيم الذي لم يبلغ، ولاالذي بلغ ولم يؤنس منه الرشد، ولا أن يوصى إلى سفية، ولا يختص ببعض دون بعض، وإنما يكون اضافة مال اليتيم إلى من له القيام بأمرهم، على ضرب من المجاز، أو لانه أراد: لا تعطوا الاولياء ما يخصهم لمن هو سفية (٢) ويجري ذلك مجرى قول القائل لواحد: يا فلان أكلتم أموالكم بالباطل، فيخاطب الواحد بخطاب الجميع، ويريد به أنك وأصحابك أو قومك أكلتم، ويكون التقدير في الآية: " ولاتؤتوا السفهاء أموالكم " التي بعضها لكم، وبعضها لهم، فيضيعوها.

اللغة: وقوله: " التي جعل الله لكم قياما " معناه: ماجعله قوام معاشكم ومعاش سفهائكم، التي بها تقومون قياما، وقيما، وقواما، بمعنى واحد. وأصل القيام: القوام، فقلبت الواو ياء للكسرة التي قبلها، كما قالوا: صمت صياما، وحلت

(١) سورة النساء: آية ٢٨.

(٢) هكذا في المطبوعة والمخطوطة، وهي كما ترى

(١١٥)

حيالا، ومنه: فلان قوام أهله، وقيام أهله. ومنه: قوام الامر وملاكه، وهو اسم. والقيام مصدر. المعنى: وبهذا التأويل قال أبومالك، والسدي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن زيد. وقوله: (وارزقوهم فيها واكسوهم) اختلفوا في تأويله، فمن قال: عنى بقوله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) يعني أموال أولياء السفهاء، فانهم قالوا: معناه: وارزقوا أيها الناس سفهاءكم، من نسائكم وأولادكم من أموالكم، طعامهم، وما لا بد لهم منه. ذهب إليه مجاهد، والسدي، وغيرهما ممن تقدم ذكره. ومن قال: إن الخطاب للأولياء، بأن لا يؤتوا السفهاء أموالهم، يعني أموال السفهاء، حمل قوله: " وارزقوهم فيها واكسوهم " على أنه من أموال السفهاء، يعني ما لا بد منه من مؤنهم، وكسوتهم، وإذا حملنا الآية على عمومها، على ما بيناه، فالتقدير: وارزقوا أيها الرشد من خاص أموالكم من يلزمكم النفقة عليه، مما لا بد منه من مؤنة وكسوة، ولاتسلموا إليه إذا كان سفية، فيفسد المال. ويا أيها الاولياء، أنفقوا على السفهاء من أموالهم، التي لكم الولاية عليها، قدر ما يحتاجون إليه من النفقة والكسوة. وقوله: (وقولوا لهم قولا معروفا) قال مجاهد، وابن جريج. قولوا لهم، يعني للنساء والصبيان، وهم السفهاء، " قولا معروفا " في البر والصلة. وقال ابن زيد: ان كان السفية ليس من ولدك، ولايجب عليك نفقته، فقل له قولا معروفا، مثل:

عافانا الله وإياك، بارك الله فيك. وقال ابن جريج: معناه: يامعاشر ولالة السفهاء، قولوا قولوا
معروفا للسفهاء، وهو: إن صلحتم ورشدتم، سلمنا إليكم أموالكم، وخلينا بينكم وبينها، فاتقوا الله
في أنفسكم وأموالكم، وما أشبه ذلك، مما هو واجب عليكم، ويحتكم على الطاعة، وينهاكم عن
المعصية. وقال الزجاج: معناه:
علموهم مع إطعامكم إياهم وكسوتكم إياهم، أمر دينهم.

(١١٦)

وفي الآية دلالة على جواز الحجر على اليتيم إذا بلغ، ولم يؤنس منه الرشد، لان الله تعالى
منع من دفع المال إلى السفهاء، وقد بينا أن المراد به أموالهم على بعض الاحوال.
وفي الآية دلالة على وجوب الوصية، إذا كان الورثة سفهاء، لان ترك الوصية بمنزلة إعطاء
المال في حال الحياة إلى من هو سفيه، وإنما سمي الناقص العقل سفيها (١)، وان لم يكن
عاصيا، لان السفه هو خفة الحلم، ولذلك سمي الفاسق سفيها، لانه لا وزن له عند أهل الدين
(٢)، والعلم فتقل الوزن وخفته، ككبر القدر وصغره.
قوله تعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم
ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل
بالمعروف فاذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا) (٦) - آية بلا خلاف -
المعنى:

هذا خطاب لأولياء اليتامى، أمر الله تعالى بأن يختبروا عقول اليتامى في أفهامهم، وصلاحهم
في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم. وهو قول قتادة، والحسن، والسدي، ومجاهد، وابن عباس،
وابن زيد. وقد بينا أن الابتلاء معناه الاختبار فيما مضى. وقوله: " حتى إذا بلغوا النكاح "
معناه: حتى يبلغوا الحد الذي يقدرون على مجامعة النساء وينزل، وليس المراد الاحتلام، لان
في الناس من

(١) (سفيها) ساقطة من المطبوعة.

(٢) عند (أهل الدين) ساقطة من المطبوعة.

(١١٧)

لايحتلم، أو يتأخر احتلامه، وهو قول أكثر المفسرين: مجاهد، والسدي، وابن عباس، وابن زيد.
ومنهم من قال: إذا كمل عقله، واونس منه الرشد، سلم إليه ماله، وهو الاقوى. ومنهم من قال:
لايسلم إليه حتى يكمل له خمس عشرة سنة، وإن كان عاقلا، لان هذا حكم شرعي، وبكمال
العقل تلزمه المعارف لاغير، وقال أصحابنا: حد البلوغ إما بلوغ النكاح، أو الانبات في العانة،

أوكمال خمس عشرة سنة. وقوله: " فان أنستم منهم رشدا " معناه: فان وجدتم منهم رشدا وعرفتموه، وهو قول ابن عباس.

اللغة: تقول: أنست من فلان خيرا إيناسا وأنست به أنسا: إذا ألفتة. وفي قراءة عبدالله: فان أحسيتم يعني أحسستم، أي وجدتم، والاصل فيه: أبصرتم. ومنه قوله: " أنس من جانب الطور نارا " (١) أي أبصر، ومنه أخذ انسان العين، وهو حدقتها التي يبصر بها.

المعنى:

واختلفوا في معنى الرشد (٢)، فقال السدي، وقتادة: معناه عقلا ودينا وصلاحا. وقال الحسن (٣)، وابن عباس: معناه: صلاحا في الدين، وإصلاحا للمال. وقال مجاهد، والشعبي: معناه العقل. قال: لا يدفع إلى اليتيم ماله، وإن أخذ بلحيته، وإن كان شيخا، حتى يؤنس منه رشده: العقل. وقال ابن جريج:

صلاحا، وعلمما بما يصلحه.

والاقوى أن يحمل على أن المراد به العقل، وإصلاح المال، على ما قال ابن عباس، والحسن، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، للاجماع على أن من يكون كذلك لا يجوز الحجر في ماله، وإن كان فاجرا في دينه، فاذا كان ذلك اجماعا " (هامش) " (١) سورة القصص: آية ٢٩.

(٢) (واختلفوا في معنى الرشد) ساقطة من المطبوعة.

(٣) (الحسن) ساقط من المطبوعة.

(١١٨)

فكذلك إذا بلغ، وله مال في يدوصي أبيه أو في يد حاكم قد ولي ماله، وجب عليه أن يسلم إليه ماله، إذا كان عاقلا، مصلحا لما له، وإن كان فاسقا في دينه. وفي الآية دلالة على جواز الحجر على العاقل، إذا كان مفسدا في ماله، من حيث أنه إذا كان عند البلوغ يجوز منعه المال إذا كان مفسدا له، فكذلك في حال كمال العقل إذا صار بحيث يفسد المال، جاز الحجر عليه، وهو المشهور في أخبارنا.

ومن الناس من قال: لا يجوز الحجر على العاقل، ذكرناه في الخلاف.

وقوله: (فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا) فهو خطاب لأولياء اليتيم، أمرهم الله تعالى إذا بلغ اليتيم، وأونس منه الرشد، على ما فسرناه، أن يسلم إليه ماله، ولا يحبس منه. وقوله: (ولا تأكلوها إسرافا) معناه بغير ما أباحه الله لكم. وقال الحسن، والسدي: الإسراف في الأكل. وأصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبيح، وربما كان ذلك في الإفراط، وربما

كان في التقصير غير أنه إذا كان في الإفراط يقال منه: أسرف يسرف إسرافاً، وإذا كان في التقصير يقال: سرف يسرف سرفاً، يقال: مررت بكم فسرفتكم، يريد: فسهوت عنكم، واخطأتكم، كما قال الشاعر:

اعطوا هنيذة يحدوها ثمانية * ما في عطائهم من ولا سرف (١)

يعني لاخطأفيه، يريد أنهم يصيبون مواضع العطاء فلا يخطونها. وقوله:

" وداراً أن يكبروا " فالبدار والمبادرة مصدران، فهى الله تعالى أولياء اليتامى أن يأكلوا أموالهم اسرافاً بغير ما أباح الله لهم أكله، ولا مبادرة منكم بلوغهم، وإيناس الرشد منهم، حذراً أن يبلغوا، فيلزمكم تسليمه إليهم، وبه قال ابن عباس، وقتادة، والحسن، والسدي، وابن زيد.

(١) قائله جرير ديوانه ٢: ١٥ واللسان (هند) و (سرف) وهومن قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك، ويهجو آل المهلب. قوله: (هنيذة) اسم لكل مئة من الأبل، و (هنيذ) لا يصرف ولا يدخل عليه الألف واللام ولا يجمع وليس له واحد من جنسه. و (ثمانية) أي ثمانية من العبيد: وكان في المخطوطة والمطبوعة (عطاءكم) وهو مناسب في المعنى ولكن لم أجد أحد يرويه إلا (عطائهم).

(١١٩)

وأصل البدار الامتلاء. ومنه البدر القمر، لامتلائه نورا، والبدر: و

لامتلائها بالمال، والبيدر: لامتلائه بالطعام، وموضع " أن " نصب بالمبادرة، والمعنى:

لأتأكلوها مبادرة كبرهم. وقوله: (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " يعني: من كان غنيا من ولاية أموال اليتامى فليستعفف بماله عن أكلها، وبه قال ابن عباس، وإبراهيم. وقوله: (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال عبيدة: معناه القرض، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، ألا ترى أنه قال: (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم)

" ومن كان فقيرا " فاختلّفوا في الوجه الذي يجوز له أكل مال اليتيم به إذا كان فقيرا، وهو المعروف، فقال سعيد بن جبيرة، وعبيدة السلماني، وأبو العالية، وأبو وائل، والشعبي، ومجاهد، وعمر بن الخطاب: هو أن يأخذه قرضا على نفسه فيما لا بد له منه، ثم يقضيه، وبيننا أنه المروي عن أبي جعفر (ع). وقال الحسن، وإبراهيم، ومكحول، وعطاء بن أبي رباح: يأخذ ماسد الجوعة، ووارى العورة، ولا قضاء عليه، ولم يوجبوا أجره المثل، لأن أجره المثل ربما كانت أكثر من قدر الحاجة. والظاهر في أخبارنا أن له أجره المثل، سواء كان قدر كفايته، أو لم يكن. وسئل ابن عباس عن ولي يتيم له إيل هل له أن يصيب من ألبانها؟ فقال: إن كنت تلوط حوضها، وتهنأ جرباها، فأصبت من رسلها، غير مضر بغسل ولانهاكه في الحلب.

معنى تلوط حوضها: تطينه، وتهناً جرباها، معناه: تظليها بالهناء، وهو الخضخاض، ذكره الازهري، والرسل اللين، والنهك: المبالغة في الحلب. واختلفوا في هل للفقير من ولي اليتيم أن يأكل من ماله هو وعياله، فقال عمرو بن عبيد: ليس له ذلك، لقوله: " فليأكل بالمعروف " فخصه بالاكل، وقال الجبائي: له ذلك لان قوله: " بالمعروف " يقتضي أن يأكل هو وعياله، على ما جرت به العادة في أمثاله، وقال إن كان المال واسعا كان له أن يأخذ قدر كفايته، له ولمن يلزمه نفقته من غير اسراف، وإن كان قليلا كان له أجره المثل

(١٢٠)

لاغير، وإنما لم يجعل له أجره المثل إذا كان المال كثيرا، لانه ربما كان أجره المثل أكثر من نفقته بالمعروف، وعلى ما قلناه من أن له أجره المثل سقط هذا الاعتبار وقوله: (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم) خطاب لاولياء اليتامى، إذا دفعوا أموال اليتامى إليهم، أن يحتاطوا لانفسهم بالاشهاد عليهم، لتلايقع منهم جحود، ويكونوا أبعد من التهمة، وسواء كان ذلك في أيديهم، أو استقرضوه ديناعلى نفوسهم، فان الاشهاد يقتضيه الاحتياط، وليس بواجب. وقوله:

(كفى بالله حسيبا) معناه: كفى الله، والباء زائدة، وقال السدي: معناه: شهيدا ههنا، وقيل: معناه: وكفى بالله كافيا من الشهود، ولان أحسبني معناه: كفاي، والمعنى: وكفى بالله شهيدا في الثقة بايصال الحق إلى صاحبه والمحسب من الرجال المرتفع النسب. والمحسب، المكفى. وولي اليتيم الأمور بابتلائه، وهو الذي جعل إليه القيام به، من وصي، أو حاكم، أو أمين،، ينصبه الحاكم. وأجاز أصحابنا الاستقراض من مال اليتيم إذا كان مليا، وفيه خلاف.

قوله تعالى: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا)

(٧) - آية بلاخلاف -.

النزول:

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: إن أهل الجاهلية كانوا يورثون الذكور دون الاناث، فنزلت هذه الآية ردا لقولهم. وقال الزجاج: كانت العرب لاتورث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحریم والمال، فنزلت هذه الآية ردا عليهم، وبين أن للرجال نصيبا مما ترك الوالدان والاقربون، " وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا " يعني حظا مفروضا، قال الزجاج: مفروضا. نصب على الحال،

(١٢١)

وقال غيره: هو اسم في موضع المصدر، كقولك قسما واجبا، وفرضا لازما، ولو كان اسما ليس فيه معنى المصدر، لم يجوز قولك: عندي حق درهما، ويجوز: لك عندي درهم هبة مفترضة (١) وأصل الفرض الثبوت، والفرض: الحز في سية القوس حيث يثبت الوتر، والفرض: ما أثبتته على نفسك من هبة أو صلة، والفرض: إيجاب الله عزوجل على العبد ما يلزمه فعله لاثباته عليه، والفرض:

جند يفترضون، والفرض: ما أعطيت من غير قرص، لثبوت تملكه، والفرض: ضرب من التمر. والفارض المسنة، والفرضة: حيث ترمي (٢) السفن من النهر وكل ضخم فارض، والفرق بين الفرض والوجوب أن الفرض هو الايجاب، غير أن الفرض يقتضي فارضا فرضه، وليس كذلك الواجب لأنه قد يجب الشيء في نفسه من غير إيجاب موجب، ولذلك صح وجوب الثواب والعتق على الله تعالى، ولم يجوز فرضه عليه. وأصل الوجوب الوقوع، يقال: وجب الحائط وجوبا فهو واجب، إذا وقع، وسمعت وجبة أي وقعة كالهدة، ومنه " وجبت جنوبها " (٣)

أي وقعت لجنوبها، ووجب الحق وجوبا، إذا وقع سببه، كوجوب رد الوديعة، وقضاء الدين، ووجوب شكر المنعم، ووجوب الاجر، وإنجاز الوعد، ووجب القلب وجيبا إذا خفق من فزع وقعة كالهدة.

وفي الآية دليل على بطلان القول بالعصبة، لان الله تعالى فرض الميراث للرجال والنساء، فلو جاز أن يقال: النساء لا يرثن في موضع، لجاز لآخرين أن يقولوا: والرجال لا يرثون، والخبر المدعى في العصبة خبر واحد، لا يترك له عموم القرآن، لانه معلوم، والخبر مظنون، وقد بينا ضعف الخبر في كتاب تهذيب الاحكام، فمن أراد وقف عليه من هناك.

وفي الآية أيضا دلالة على أن الانبياء يرثون، لانه تعالى عم الميراث للرجال والنساء، ولم يخص، نبيا من غيره، وكما لا يجوز أن يقال: النبي لا يرث،

(١) في المطبوعة: مقبوضة. (٢) في المطبوعة: ترقا.

(٣) سورة الحج: آية ٣٦.

(١٢٢)

لانه خلاف الآية، فكذلك لا يجوز أن يقال: لا يرث، لانه خلافها، والخبر الذي يروون أنه قال: نحن معاشر الانبياء لانورث، ماتركناه صدقة، خبر واحد، وقد بينا مافيه، في غير موضع، وتأولناه، بعد تسليمه.

قوله تعالى:

(وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا)
(٨) - آية بلاخلاف - .

المعنى:

هذه الآية عندنا محكمة، وليست منسوخة، وهو قول ابن عباس، وسعيد ابن جبير، والحسن، وإبراهيم، ومجاهد، والشعبي، والزهري، ويحيى بن يعمر، والسدي، والبلخي، والجبائي، والزجاج، وأكثر المفسرين والفقهاء. وقال سعيد ابن المسيب، وأبو مالك، والضحاك، هي منسوخة، وإرزاق من حضر قسمة الميراث من هذه الاصناف، ليس بواجب، بل هو مندوب إليه، وهو الذي اختاره الجبائي، والبلخي، والرماني، وجعفر بن مبشر، وأكثر الفقهاء والمفسرين. وقال مجاهد: هو واجب، وحق لازم ما طابت به أنفس الورثة. وكل من ذهب إلى أنها منسوخة قال: إن الرزق ليس بواجب، وكذلك من قال أنها في الوصية.

واختلفوا فيمن المخاطب بقوله: "فارزقوهم" فقال أكثر المفسرين: إن المخاطب بذلك الورثة، أمروا بأن يرزقوا المذكورين، إذا كانوا لاسهم لهم في الميراث، وقال آخرون إنها تتوجه إلى من حضرته الوفاة، وأراد الوصية، فانه ينبغي له أن يوصي لمن لا يرثه من هؤلاء المذكورين، بشئ من ماله. وروي هذا القول الاخير عن ابن عباس، وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر، وسعيد ابن المسيب، واختار الطبري هذا الوجه، والوجه الاول روي عن ابن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأبي موسى الاشعري، وابن سيرين، والحسن، وسعيد بن جبير. قال سعيد بن جبير: إن كان الميت أوصى لهم بشئ أنفذت وصيته، وإن

(١٢٣)

كان الورثة كبارا أرضخوا لهم، وإن كانوا صغارا قال وليهم: إني لست أملك هذا المال، وليس لي، إنما هو للصغار، فذلك قوله: (وقولوا لهم قولا معروفا)

وبه قال السدي، وابن عباس. واختلفوا فيمن المأمور - بقول - (١) المعروف، فقال سعيد بن جبير: أمر الله يقول الولي الذي لا يرث، للمذكورين قولا معروفا، ويقول: إن هذا لقوم غيب أو يتامى صغار، ولكم فيه حق، ولسنا نملك أن نعطيكم منه. وقال قوم: المأمور بذلك الرجل الذي يوصي في ماله، والقول المعروف: أن يدعو لهم بالرزق والغنى، وما أشبه ذلك. وروي عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وابن زيد: أن الآية في الوصية، على أن يوصوا للقرابة، ويقولوا لغيرهم قولا معروفا. ومن قال إنها على الوجوب، قال: لا يعطي من مال اليتيم شيئا، ويقول قولا معروفا، ذهب إليه ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، والسدي. وروي ابن علي، عن عبيدة، أنه ذبح شاة من مال اليتيم، وقسمه بينهم، وقال: كنت أحب أن يكون من

مالي لولا هذه الآية. وعمل ابن سيرين في مال اليتيم ماعمل عبيدة، وأقوى الاقوال أن يكون الخطاب متوجها إلى الوراث البالغين، لان فيه أمرا بالرزق لمن حضر، ولم يخاطب الله من لايمك أن يخرج من مال غيره شيئا، فكأن الله تعالى حث هؤلاء، ورجبهم في أن يجعلوا للحاضرين شيئا مما يحقهم (٢)، ويقولوا لهم قولا، معروفا، فيصير ردا جميلا، من غير تأفف، ولا تضجر، وكذلك لو قلنا إنها متوجهة إلى الموصي، لكان محمولا على أنه يستحب له أن يوصي لهؤلاء بشئ من ماله، مالم يزد على الثلث، فان لم يختر ذلك قال لهم قولا جميلا، لا يتألمون منه، ولا يغتمون به.

وفي الآية حجة على المجبرة، لانه تعالى قال: " فارزقوهم " وفيه دلالة على أن الانسان يرزق غيره على معنى التمليك، وأن الله لايرزق حراما، لانه لو رزقه لخرج برزقه إياه من أن يكون حراما، ومثله قوله: " وهو خير الرازقين ".

-
- (١) في المطبوعة: لقوله المعروف، وفي المخطوطة: لقوله بالمعروف، وكلاهما تحريف.
(٢) هكذا في المطبوعة والمخطوطة والاولى: مما يلحقهم.

(١٢٤)

قوله تعالى:

(وليشخ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)
(٩) - آية بلاخلاف -.

المعنى: قيل في معنى الآية أربعة أقوال:

أحدها - النهي عن الوصية بمايجحف بالورثة، ويضر بهم، هذا قول ابن عباس، في بعض الروايات، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومجاهد.
الثاني - قال الحسن: كان الرجل يكون عند الميت فيقول: أوص بأكثر من الثلث من مالك، فنهاء الله عن ذلك.

الثالث - روي عن ابن عباس: أنه خطاب لولي مال اليتيم، يأمره بأداء الامانة فيه، والقيام بحفظه، كما لو خاف على مخلفيه، إذاكانوا ضعافا، وأحب أن يفعل بهم.

الرابع - قال مقسم: هي في حرمان نوي القربى أن يوصي لهم، بأن يقول الحاضر للوصية: لاتوص لاقاربك، ووفر على ورتنتك.

اللغة:

والذرية: على وزن فعلية، منسوبة إلى الذر، ويجوز أن يكون أصلها ذرورة، لكن الرء أبدلت ياء، وأدغمت الواو فيها، وهي بضم الذا، ويجوز فيها كسرهما، وقد قرئ به في الشواذ، ومن

كسر الذال فلكسرة الراء، كما قالوا في عنى عتي، وعصي، وضعاف: جمع ضعيف وضعيفة، كقولك: ظريف وظريفة وظراف، وخبيث وخباث، ويجمع أيضا ضعفاء. وأصل الضعاف من الضعف، وهو النقص في القوة، ومنه المضاعف، لأنه ينفي الضعف، ومنه الضعف. وقوله: (فليتقوا الله) يعني: فليتقوا معاصيه، (وليقولوا قولا سديدا)

(١٢٥)

وهو السليم من خلل الفساد، وذلك الحق بالدعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف بالورثة، ولا يحرم ذوي القربي، وأصل السديمن سد الخلل، تقول: سدته أسده سدا، والسداد: الصواب، والسداد - بكسر السين - من قولهم: فيه سداد من عوز، وسدد السهم: إذا قومه، والسد الردم، والسدة في الانف.

المعنى:

ومعنى الآية، أنه ينبغي للمؤمن الذي لو ترك ذرية ضعافا بعد موته، خاف عليهم الفقر والضياع، أن يخشى على ورثة غيره من الفقر والضياع، ولا يقول لمن يحضر وصيته أن يوصي بما يضر بورثته، وليتق الله في ذلك، وليتق الاضرار بورثة المؤمن، وليقل قولا سديدا، ولذلك نهى النبي (صلى الله عليه وآله) أن يوصى بأكثر من الثلث، وقال: " والثلث كثير " وقال لسعد " لان تدع ورثتك أغنياء أحب الي من أن تدعهم عالة يتكفون الناس بأيديهم ". قوله تعالى:

(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) (١٠) - آية - .

القراءة والحجة:

قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم: وسيصلون - بضم الياء - الباقون، بفتحها، والفتح أقوى، لقوله: " لا يصلها إلا الاشقى " (١) وقوله: " إلا من هو صال الجحيم " (٢) ومن ضم الياء ذهب إلى أصلاه الله إذا أحرقه بالنار. المعنى:

وإنما علق الله تعالى الوعيد في الآية لمن يأكل أموال اليتامى ظلما، لأنه قد

(١) سورة الليل: آية ١٥. (٢) سورة الصافات: آية ١٦٣.

(١٢٦)

يأكله على وجه الاستحقاق، بأن يأخذ منه أجره المثل، على ما قلناه. أو يأكل منه بالمعروف على ما فسرناه، أو يأخذه قرضا على نفسه، فان قيل: إذا أخذه قرضا على نفسه، أو أجره

المثل، فلا يكون أكل مال اليتيم، وإنما أكل مال نفسه. قلنا: ليس الأمر على ذلك، لأنه يكون أكل مال اليتيم، لكنه على وجه التزم عوضه في ذمته، أو استحقه بالعمل في ماله، فلم يخرج بذلك من استحقاق الاسم بانه مال اليتيم، ولو سلم ذلك، لجاز أن يكون المراد بذلك ضرباً من التأكيد وبيانا، لأنه لا يكون أكل مال اليتيم إلا ظلماً. ونصب ظلماً على المصدر، وتقديره: إن من أكل مال اليتيم فانه يظلمه ظلماً. وقوله: (إنما يأكلون في بطونهم ناراً) قيل في معناه وجهان:

أحدهما - ماقاله السدي من أن من أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه، ومن أذنيه وأنفه وعينه، يعرفه من رآه. بأكل مال اليتيم. الثاني - أنه على وجه المثل، من حيث أن فعل ذلك يصير إلى جهنم، فتمتلئ بالنار أجوافهم، عقاباً على ذلك الأكل منهم، كما قال الشاعر:

وان الذي اصبحتم تحلبونه * دم غير أن اللون ليس باحمر
يصف أقواماً أخذوا الأبل في الدية، يقول: فالذي تحلبون من ألبانها ليس لبناً، إنما هو دم القتيل.
اللغة:

وقوله: (وسيصلون سعيراً) فالصلا لزوم النار، للاحراق، أو التسخن، أو الانضاج، يقال: صلي بالنار يصلى صلاً بالقصر، قال العجاج:
وصاليات للصلأ صلي (١)
ويقال الصلا بالكسر والمد، قال الفرزدق:

(١) ديوانه: ٦٧ من أرجوزته المشهورة.

(١٢٧)

وقاتل كلب الحي عن نار أهله * ليربض فيها والصلأ متكنف (١)
واصطلى صلي بالنار اصطلاء، وأصليته النار اصطلاء، إذا القيته فيها. وفي التنزيل: " فسوف نصليه ناراً " (٢) والصالى بالشر الواقع فيه قال الشاعر:
لم اكن من جناتها علم الله * واني بحرها اليوم صالي (٣)
ومنه شاة مصلية، أي مشوية. والسعير بمعنى مسعورة، مثل كف خضيب، بمعنى مخضوبة، والسعر اشعال النار تقول سعرتها أسعرها سعراً. ومنه قوله:
" وإذا الجحيم سعرت " (٤) واستعرت النار في الحطب استعاراً، واستعرت الحرب والشر استعاراً، ومنه سعر السوق، لاستعارها به في النفاق.

المعنى:

وأكل مال اليتيم على وجه الظلم، وغصبه متساويان في توجه الوعيد إليه، ولا يدل على مثل ذلك في غير مال اليتيم، لأن الزواجر عن مال اليتيم أعظم. وقال الجبائي: هماسواء، ومن غصب من مال اليتيم خمسة دراهم فإن الوعيد يتوجه إليه وقال الرماني: لا يتوجه إليه، لأن أقل المال متناذرهم. وقال الجبائي: يلزمه كما يلزم مانع الزكاة. وقال الرماني: هذا ليس بصحيح، لأنه يجوز أن يكون منع الزكاة أعظم، وما قلناه أولاً أولى بعموم الآية. وقوله: لا يسمى المال إلا متناذرهم دعوى محضنة، لا برهان عليها.

قوله تعالى:

(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن

(١) ديوانه: ٥٦ والنقائض ٥٦١ واللسان (صلا) والمعنى: إن الكلب يزاحم أهل الحي على النار وهم متجمعون - متكفون - عليها من شدة البرد.

(٢) سورة النساء: آية ٢٩.

(٣) قاتله الحارث بن عباد البكري الاصمعيات ٦٧ القصيدة ١٧، وحماسة البحتري ٣٣ والكامل لابن الأثير ١: ٢٢٠ وخزانة الادب ١: ٢٢٥ وغيرها. وقد مر البيت في ١: ١٩٥ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التكوير: آية ١٢.

(١٢٨)

كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آبؤكم وأبنؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعافريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً) (١١) - آية بلاخلاف - .
القراءة والحجة:

قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم: يوصى - بفتح الصاد - الباؤون بكسرهما، وهو الاقوى، لقوله: "مما ترك إن كان له ولد" فتقدم ذكر الميت، وذكر المفروض مما ترك (١)، ومن فتحها فلأنه ليس لميت معين، وإنما هو شائع في الجميع.

سبب النزول والقصة:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال السدي، وابن عباس: إن سبب نزولها، أن القوم لم يكونوا يورثون النساء والبنات والبنين الصغار، ولم يورثوا إلا من قاتل وطاعن، فأنزل الله الآية، وأعلمهم كيفية

الميراث. وقال عطاء، عن ابن عباس، وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس، إنهم كانوا يورثون الولد، وللوالدين الوصية، فنسخ الله ذلك. وقال محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: كنت عليلاً مدنفاً، فعاده النبي (صلى الله عليه وآله)، ونضح الماء على وجهه فأفاق، وقال: يارسول الله، كيف أعمل

(١) في المطبوعة (ماترك)

(١٢٩)

في مالي: فأنزل الله الآية. وروي عن ابن عباس قال: كان المال للولد، والوصية للوالدين والاقربين، فنسخ (١) ذلك بهذه الآية.
المعنى:

وهذه الآية عامة في كل ولد يتركه الميت، وإن المال بينهم للذكر مثل حظ الانثيين، وكذلك حكم البنت والبنيتين. والبنت (٢) لها النصف، ولهما الثلثان على كل حال، إلا من خصه الدليل من الرق، والكفر، والقتل، فإنه لاخلاف أن الكافر، والمملوك، والقاتل عمداً، لا يرثون، وإن كان القاتل خطأ، فقيه الخلاف وعندنا يرث من المال دون الدية. فأما المسلم فإنه عندنا يرث الكافر، وفيه خلاف، ذكرناه في مسائل الخلاف، والعبد لا يرث لأنه لا يملك شيئاً، والمرث لا يرث وميراثه لورثته المسلمين، وهذا قول علي (ع). وقال سعيد بن المسيب: نرثهم ولا يرثونا وبه قال معاوية، والحسن، وعبدالله بن معقل، ومسروق وقوله (صلى الله عليه وآله)

" لا يوارث أهل ملتين " معناه: لا يرث كل واحد منهما صاحبه، فإنا نقول: المسلم يرث الكافر، والكافر لا يرث المسلم، فلم تثبت حقيقة التوارث بينهما.

ومعنى: " يوصيكم الله " فرض عليكم، لأن الوصية من الله فرض، كما قال: " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به " (٣) يعني فرض، عليكم، ذكره الزجاج، وإنما لم يعد قوله: " يوصيكم " إلى (مثل) فينصبه، لأنه كالقول في حكاية الجملة بعده، والتقدير: قال الله: " في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين " ولأن الغرض بالآية الفرق بين الموصى به والموصى له، في نحو أوصيت زيدا بعمره.

وقوله: (فإن كن نساء فوق اثنتين) فالظاهر يقتضي أن الثنتين لا يستحقان الثلثين، وإنما يستحق الثلثان إذا كن فوق اثنتين، لكن أجمعت الامة أن حكم البنيتين حكم من زاد عليهما من البنات، فتركنا له الظاهر. وقال أبو العباس المبرد،

(١) في المطبوعة (فمنسخ بهذه الآية) باسقاط ذلك.

(٢) (والبنت) ساقطة من المطبوعة.

(١٣٠)

واختاره إسماعيل بن اسحاق القاضي: إن في الآية دليلا على أن للبنتين الثلثين، لانه إذاقال: (للذكر مثل حظ الانثيين) وكان أول العدد ذكرا وأنثى، للذكر الثلثان وللانثى الثلث علم من ذلك أن للبنتين الثلثين، وأعلم الله أن مافوق البنتين لهن، الثلثان. وحكى الزجاج عن قال: ذلك معلوم، بقوله تعالى: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) (١)

فجعل للاخت النصف، كما جعل للبننت النصف، ثم قال: (فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان) (٢) فأعطيت البنتان الثلثين (٣)، كما أعطيت الاختان الثلثين وأعطي جملة الاخوات الثلثين، فكذلك جملة البنات. وذكر عن ابن عباس: أن البنتين بمنزلة البننت، وإنما استحق الثلثين الثلاث بنات فصاعدا. وحكى النظام، في كتاب النكت، عن ابن عباس: أن للبنتين نصفا وقيراطا، قال: لان للبننت الواحدة النصف، وللثلاث بنات الثلثين، فينبغي أن يكون للبنتين ما بينهما، ثم يشتركان في النصف وقيراط بالسوية. وقوله: (وإن كانت واحدة فلها النصف " يدل على أن فاطمة (ع) كانت مستحقة للميراث، لانه عام في كل بنت، والخبر المدعي في أن الانبياء لا يورثون خبر واحد، لا يترك له عموم الآية لانه معلوم لا يترك بمظنون. وقوله:

(ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) ليس في ذلك خلاف، وكذلك إن كان واحد من الابوين مع الولد، كان له السدس بالتسمية، بلاخلاف، ثم ينظر، فان كان الولد ذكرا، كان الباقي للولد واحدا كان أو أكثر، بلا خلاف، وكذلك إن كانوا ذكورا واناثا فالمال بينهم، " للذكر مثل حظ الانثيين " وإن كانت بنتا كان لها النصف، ولاحد الابوين السدس، والباقي عندنا يرد على البننت وأحد الابوين على قدر سهامهما، أيهما كان، لان قرابتهما سواء، ومن خالفنا يقول: إن كان أحد الابوين اباكان الباقي له، لانه عصبية وإن كانت أما ففيهم من يقول بالرد على البننت وعلى الام ومنهم من يقول: الباقي لبيت المال،

(١، ٢) سورة النساء: آية ١٧٥.

(٣) في المخطوطة والمطبوعة (اعطيت البننتين الثلثان) وهو؟.

(١٣١)

وإنما رددنا عليهما لقوله: (وألوا الارحام بعضهم أولى ببعض) (١) وههنا هما متساويان، لان البننت تتقرب بنفسها إلى الميت، فكذلك أحد الابوين، والخبر المدعي في أن ماأبقت الفرائض فلاولي عصبية ذكر، خبر ضعيف، بينا وجهه في تهذيب الاحكام، لا يخص به عموم القرآن.

وقوله (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث) فمفهومه أن الباقي للاب وليس فيه خلاف، فان كان في الفريضة زوج كان له النصف، ولام الثلث بالظاهر، وما بقي فلاب.
ومن قال: للام ثلث ما يبقي، فقد ترك الظاهر، وبمثل ماقلناه قال ابن عباس، فان كان بدل الزوج زوجة، كان الامر مثل ذلك، للزوجة الربع، ولام الثلث، والباقي للاب، وبه قال ابن عباس، وابن سيرين.

قوله: (فان كان له إخوة فلامه السدس) ففي أصحابنا من يقول: إنما يكون لها السدس إذا كان هناك أب لان التقدير: فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث، فان كان له إخوة وورثه أبواه فلامه السدس، ومنهم من قال: إن لها السدس مع وجود الاخوة، سواء كان هناك أب أو لم يكن، وبه قال جميع الفقهاء، غير أنا نقول: إن كان هناك أب، كان الباقي للاب، وإن لم يكن أب كان الباقي ردا على الام، ولايرث - أحد من الاخوة والاخوات مع الام شيئا، سواء كانوا من قبل أب وأم أو من قبل أب، أو من قبل أم - على حال، لان الام أقرب منهم بدرجة، ولا يحجب عندنا من الاخوة إلا من كان من قبل الاب والام، أو من قبل الاب، فأما من كان من قبل الام فحسب، فانه لايجب على حال، ولايجب أقل من أخوين، أو أخ وأختين، أو أربع أخوات، فأما الاختان فلايجبان على حال، وخالفنا جميع الفقهاء في ذلك فأما الاخوان (٢)

فلا خلاف أنه تحجب بهما الام عن الثلث إلى السدس، إلا ما قال ابن عباس: أنه لايجب بأقل من ثلاثة، لقوله: " إخوة " والثلاثة أقل الجمع، وحكي عن

(١) سورة الانفال: آية ٧٥.

(٢) في المطبوعة (الاخوات).

(١٣٢)

ابن عباس أيضا: أن ما يحجبه الاخوة من سهم الام من الثلث إلى السدس، يأخذه الاخوة دون الاب، وذلك خلاف ما أجمعت الامة عليه، لانه لاخلاف أن أحدا من الاخوة لا يستحق مع الابوين شيئا، وإنما قلنا إن اخوة بمعنى أخوين للاجماع من أهل العصر على ذلك، وأيضا فانه يجوز وضع لفظ الجمع في موضع التنبيه إذا اقترنت به دلالة، كما قال: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) (١)

ويقول القائل: ضربت الرجلين رؤسهما، ومن أخويك ظهورهما.

فان قيل: لم حجب الاخوة الام من غير أن يرثوا مع الاب؟ قلنا: قال قتادة: معونة للاب، لانه يقوم بنفقتهم، ونكاحهم، دون الام، وهذا بعينه رواه أصحابنا، وهو دال على أن الاخوة من الام

لا يحببون، لان الاب لا يلزمه نفقتهم على حال، وقوله: (أباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا) معناه: لاتعلمون أيهم أقرب لكم نفعا في الدين والدنيا، والله يعلمه، فاقسموه على ما بينه من يعلم المصلحة فيه. وقال بعضهم: الاب يجب عليه نفقة الابن إذا احتاج إليها، وكذلك الابن يجب عليه نفقة الاب مع الحاجة، فهما في النفع في هذا الباب سواء، لاتدرون أيهم أقرب نفعا. وقيل: لاتدرون أيكم يموت قبل صاحبه، فينتفع الآخر بماله.

فان قيل: كيف قدم الوصية على الدين في هذه الآية وفي التي بعدها، مع أن الدين يتقدم عليها بلا خلاف؟ قلنا: لان (أو) لاتوجب الترتيب، وإنما هي لاحد الشئيين، فكأنه قال: من بعد أحد هذين، مفردا أو مضموما إلى الآخر كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس أحدهما مفردا أو مضموما إلى الآخر ويجب البداية بالدين، لانه مثل رد الوديعة التي يجب ردها على صاحبها، فكذلك حال الدين، وجب ره أولا، ثم يكون بعده (٢) الوصية، ثم الميراث. وما قلنا اختاره الجبائي، والطبري، وهو المعتمد عليه في تأويل الآية. وقوله:

(١) سورة التحريم: آية ٤.

(٢) في المطبوعة (هذه) بدل (بعده)

(١٣٣)

(فريضة من الله) نصب على الحال من قوله: (لايويه) وتقديره: فلهؤلاء الورثة ما ذكرناه مفروضا، ف " فريضة " مؤكدة لقوله: " يوصيكم الله " هذا قول الزجاج، وقال غيره: هونصب على المصدر من قوله: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) فرضا مفروضا. وقال غيره: يجوز أن يكون نصبا على التمييز من قوله: (فلامه السدس) فريضة، كما تقول: هولك صدقة، أو هبة.

والثلث، والرابع، والسدس، يجوز فيه التخفيف والتنقيل، فالتخفيف لنقل الضمة، وقال قوم: الاصل فيها التخفيف، وإنما ثقل للاتباع، قال الزجاج: هذا خطأ لان الكلام وضع على الايجاز بالتخفيف عن التنقيل.

وقوله: (إن الله كان عليما حكيما) قيل (١) في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سيبويه: كان القوم شاهدوا علما: وحكمة، ومغفرة، وتفضلا، فقيل لهم: (إن الله كان عليما حكيما) لم يزل على ما شاهدتم عليه (٢).

والثاني - قال الحسن: كان الله عليما بالاشياء قبل حدوثها، حكيما فيما يقدره ويدبره منها.

الثالث - قال بعضهم: الخبر عن هذه الاشياء بالمضي، كالخبر بالاستقبال والحال، لان الاشياء عند الله على كل حال فيما مضى ومايستقبل.

وإنما قال في تنحية الاب والام: أبوان تغليبا للفظ الاب، ويقال أيضا للام أبة، ولايلزم على ذلك أن يقال: في ابن وابنة: إبنان، لانه يوهم، فان لم يوهم جاز ذلك ذكره الزجاج. قوله تعالى:

(ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو

(١) المطبوعة (فيدخل) بدل (قيل).

(٢) هكذا في المخطوطة والمطبوعة والعبارة فيها ما ترى.

(١٣٤)

دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم (١٢) - آية بلاخلاف -.

قوله: (ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) لاخلاف أن للزوج نصف ماتترك الزوجة إذا لم يكن لها ولد، فان كان لها ولد فله الربع أيضا بلاخلاف سواء كان الولد منه أو من غيره، وإن كان ولد لايرث لكونه مملوكا، أو كافرا، أو قاتلا، فلا يحجب الزوج من النصف إلى الربع، ووجوه كعدمه.

وكذلك حكم الزوجة، لهاالربع إذا لم يكن المزوج ولد، على ما قلناه في الزوجة سواء، فان كان له ولد، كان لها الثمن، وما تستحقه الزوجة إن كانت واحدة فهو لها، وإن كن اثنتين أو ثلاثا أو أربعا لم يكن لهن أكثر من ذلك بلاخلاف، ولا يستحق الزوج أقل من الربع في حال من الاحوال، ولا الزوجة أقل من الثمن على وجه من الوجوه، ولايدخل عليهما النقصان، وكذلك الابوان لاينقصان في حال من الاحوال من السدسين، لان العول عندنا باطل على مابيناه في مسائل الخلاف. وكل من ذكر الله له فرضا، فانما يستحقه إذاخرج من التركة الكفن، والدين، والوصية، فان استغرق الدين المال لم تنفذ الوصية، ولا ميراث، وإن بقي نفذت الوصية، مالم تزدد على ثلث ما يبقي بعد الدين، فان زادت ردت إلى الثلث.

وقوله: (وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت) يعني من الام، بلاخلاف.

(١٣٥)

الاعراب:

" وكلاتة " نصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - على أنه مصدر وقع موقع الحال، وتكون كان تامة، وتقديره: يورث متكلم النسب كاللة.

والثاني - بأن يكون خبر كان، ذكره الرماني، والبلخي، وتقديره " فان كان " (رجل) إسم كان ويورث: صفته. وكلالة خبره. والاول هو الوجه، لان (يورث) هو الذي اقتضى ذكر الكلالة، كما تقول: يورث هذا الرجل كاللة، بخلاف من يورث ميراث الصلب، ويورث كاللة عصابة وغير عصابة.

المعنى:

واختلفوا في معنى الكلالة، فقال أبوبكر وعمر، وابن عباس، وابن زيد، وقتادة، والزهري، وابن اسحاق: هو ماعدا الوالد والولد (١). وروي عن ابن عباس في رواية أخرى، أن الكلالة ما عدا الولد (٢)، وورث الاخوة من الام السدس مع الابوين، وهذا خلاف إجماع أهل الاعصار. وقال ابن زيد:

الميت يسمى كاللة. وقال جابر، وابن زيد: من عدا الوالد والولد من الورثة يسمى كاللة، فعلى هذا يسمى الزوج والزوجة كاللة، وقال قوم: الكلالة هو الميت الذي لا ولد له، ولا والد. وعندنا أن الكلالة هم الاخوة والاخوات، فمن ذكر في هذه الآية هو من كان من قبل الام، ومن ذكر في آخر السورة فهو من قبل الاب والام، أو من قبل الاب. اللغة:

وأصل الكلالة: الاحاطة، فمنه الاكليل، لاحاطته بالرأس، ومنه الكل

(١، ٢) في المخطوطة (ماعدا الولد) في الموضوعين.

(١٣٦)

لاحاطته بالعدد، والكلالة لاحاطتها بأصل النسب الذي هو الولد والوالد، ومنه الكلال، لانه تعب قد أحاط.

وقال أبو مسلم: أصلها من كل إذا أعياء، فكأنه تناول الميراث من بعد على كلال وإعياء. وقال الحسين بن علي المغربي: أصله عندي ما تركه الانسان وراء ظهره، مأخوذا من الكلالة، وهي مصدر الاكل، وهو الظهر، وقال: قرأت على أبي أسامة في كتاب الجيم، لابي عمرو الشيباني: تقول العرب: ولاني فلان أكله على وزن أظله، أي: ولاني ظهره، قال وهذا الاسم تعرفه العرب، وتخبر به عن جملة النسب والوراثة، قال عامر بن الطفيل:

وأني وان كنت ابن فارس عامر * وفي السر منها والصريح المهذب

فما سودتني عامر عن كاللة * أبي الله ان أسمو بأم ولأب (١)

هكذا أنشده الرازي في كتابه، وينشد عن وراثته. وقال زياد بن زيد العذري:
ولم أرث المجد التليد كاللة * ولم يأن مني فترة لعقيب
والكل الثقل، ويقولون لابن الاخ ومن يجري مجراه، ممن يعال على وجه التبرع: هذاكلي،
ومن قال: إن الاب لايدخل في الكلالة استدل بقول الشاعر:
فان أبا المرء أحمى له * ومولى الكلالة لا يغضب (٢)
فأفرد الاب من الكلالة. ولاخلاف أن الاخوة والاخوات من الام يتساوون في الميراث.
الاعراب:
وقوله: " وصية " نصب على المصدر بقوله: " يوصيكم الله " وصية وقال الفراء: نصب
بقوله:

" فلكل واحد منها السدس " وصية كما نقول: لك درهمان نفقة إني أهلك، والاول

(١) اللسان (كال). (٢) اللسان (كل).

(١٣٧)

أعم فائدة، وأولى. وقوله: " والله عليم حليم " معناه ههنا: عليم بمصالح خلقه، حليم بامهال من يعصيه، فلا يغتر مغتر بامهاله. وقوله: " وإن كان رجلا يورث كاللة أو امرأة " ثم قال: " وله أخ أو أخت " ولم يقل: لهما، كما نقول: من كان له أخ أو أخت فليصله، ويجوز: فليصلها، ويجوز: فليصلهما، فالاول يرد الكناية إلى الاخ، والثاني على الاخت، والثالث عليهما، كل ذلك حسن. وقوله: " غير مضار " نصب على الحال، يعني: يوصي بذلك غير مضار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصبا على أنه مفعول به. وحكى البلخي عن أبي عبيدة، وذكره الزجاج:

" يورث " بكسر الراء، قال: ومعناه من ليس بولد ولا والد، ومن نصب الراء أراد المصدر.
المعنى:

ومسائل المواريث وفروعها بسطناها في النهاية والمبسوط، وأوجزناها في الايجاز، في الفرائض، لانطول بذكرها في الكتاب، غير أننا نعقد ههنا جملة تدل على المذهب فنقول:
الميراث يستحق بشيئين: نسب وسبب، فالسبب الزوجية، والولاء، والولاء على ثلاثة أقسام:
ولاء العتق، وولاء تضمن الجريرة، وولاء الامامة، ولايستحق الميراث بالولاء إلا مع عدم ذوي الانساب. والميراث بالزوجية ثابت مع جميع الوراث، سواء ورثوا بالفرض أو بالقرابة، ولاينقص الزوج عن الربع في حال، ولايزاد على النصف، والزوجة لاتزاد على الربع، ولاتنقص من الثمن على وجهه.

والميراث بالنسب يستحق على وجهين: بالفرض، والقرباة، فالميراث بالفرض لا يجتمع فيه إلا من كانت قريبه واحدة إلى الميت، مثل البنت أو البنات مع الوالدين أو أحدهما، فانه متى انفرد واحدمنهم أخذ المال كله، بعضه بالفرض، والباقي بالرد، وإذا اجتمعا أخذ كل واحد منهم ماسمي له، والباقي يرد عليهم، إن

(١٣٨)

فضل. على قدر سهامهم، وان نقص، لمزاحمة الزوج أو الزوجة لهم، كان النقص داخلا على البنت أو البنات، دون الابوين، أو أحدهما، ودون الزوج والزوجة. ولا يجتمع مع الاولاد، ولا مع الوالدين، ولا مع أحدهما أحدمن يتقرب لهما، كالكلالتين فانهما لا يجتمعان مع الاولاد، ذكورا كانوا أو إناثا، ولا مع الوالدين، ولا مع أحدهما أبأكان أو أما، بل تجتمع كلاله الاب وكلاله الام، فكلاله الام إن كان واحدا كان له السدس، وإن كانا إثنين فصاعدا كان لهم الثلث، لا ينقصون منه، والباقي لكلاله الاب، فان زاحمهم الزوج أو الزوجة دخل النقص على كلاله الاب دون كلاله الام، ولا تجتمع كلاله الاب والام مع كلاله الاب خاصة، فان اجتمعا كان المال لكلاله الاب والام، دون كلاله الاب، ذكرا كان أو أنثى، أو ذكورا، أو أناثا، أو ذكورا وأناثا (١) ومن يورث بالقرباة دون الفرض لا يجتمع إلا — مع — (٢) من كانت قريبه واحدة، وأسبابه ودرجته متساوية، فعلى هذا لا يجتمع مع الولد للصلب ولد الولد، ذكرا كان ولد الصلب أو أنثى، لانه أقرب بدرجة، وكذلك لا يجتمع مع الابوين ولا مع أحدهما من يتقرب بهما من الاخوة والاخوات، والجد والجدة على حال، ولا يجتمع الجد والجدة مع الولد للصلب، ولا مع ولد الولد وإن نزلوا، ويجتمع الابوان مع ولد الولد وإن نزلوا، لانهم بمنزلة الولد للصلب، إذا لم يكن ولد الصلب، والجد والجدة يجتمعان مع الاخوة والاخوات، لانهم في درجة واحدة (٣) والجد من قبل الاب بمنزلة الاخ من قبله، والجدة من قبله بمنزلة الاخ من قبله، والجد من قبل الام بمنزلة الاخ من قبلها، والجدة من قبلها بمنزلة الاخ من قبلها، وأولاد الاخوة والاخوات يقاسمون الجد والجدة، لانهم بمنزلة آبائهم، ولا يجتمع مع الجد والجدة من يتقرب بهما من العم والعمة، والخال والخالة، والجد الأعلى،

(١) (أو ذكورا وأناثا) ساقطة من المطبوعة.

(٢) (مع) ساقطة من المطبوعة.

(٣) في المطبوعة (دج والجد) باسقاط واحدة والتأنيث من درجة.

(١٣٩)

والالجنة العليا، وعلى هذا تجري جملة المواريث، فان فروعها لا تنحصر، وفيما ذكرناه تنبيهه على ما لم نذكره.

وأما المسائل التي اختلف قول الصحابة فيها، فقد ذكرناها في خلاف الفقهاء، فلاوجه لذكرها ههنا، لانه يطول به الكتاب.

قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (١٤) - آيتان بلاخلاف - .

القراءة، والحجة:

قرأ نافع، وابن عامر: ندخله بالنون في الموضعين، الباقيون بالياء، فمن قرأ بالياء فلان ماتقدم لفظ الغائب ومن قرأ بالنون عدل عن خطاب الغائب إلى الاخبار عن الله بنون العظمة، كما قال: " بل الله مولاكم " (١) وقال بعده:

" سنلقي " فعدل عن الغائب.

المعنى، والاعراب:

قال الفراء، والزجاج: معنى " تلك " هذه، كأنه قال هذه حدود الله واختلفوا في معنى الحدود، فقال السدي: تلك شروط الله، وقال ابن عباس: تلك طاعة الله، وقال قوم: تلك فرائض الله وأمره، وقال قوم: تلك تفصيلات الله لفرائضه، وهو الأقوى، لان أصل الحد هو الفصل، مأخوذاً من حدود الدار التي تفصلها من غيرها، فمعنى الآية: هذه القسمة التي قسمها الله لكم، والفرائض التي فرضها لحياتكم من

سورة آل عمران: آية ١٥٠.

(١٤٠)

أمواتكم حدود الله، يعني فصول بين طاعة الله ومعصيته على ما قال ابن عباس، والمعنى تلك حدود طاعة الله، وانما اختص لوضوح المعنى للمخاطبين.

فان قيل: إذا كان ما تقدم ذكره دل على أنها حدود الله، فما الفائدة في هذا القول؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - للتأكيد، والثاني - أن الوجه في إعادته معلق به من الوعد والوعيد الصريح.

فان قيل: لم خصت الطاعة في قسمة الميراث بالوعد، مع أنه واحب في كل طاعة إذا فعلت لوجه الوجوب؟ قلنا: للبيان عن عظم موقع هذه الطاعة، مع التذكير بما يستحق عليها ترغيباً

فيها بوعد مقطوع. وقوله: (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) نصب على الحال. قال الزجاج والتقدير:

يدخلهم مقدرين الخلود فيها، والحال يستقبل فيها، كما تقول: مررت برجل معه باز، صائدا به غدا، أي يقدر الصيد به غدا. وقوله: (وذلك الفوز العظيم)

معناه الفلاح العظيم، فوصفه بأنه عظيم ولم يبين بالاضافة إلى ماذا، لأن المراد به أنه عظيم بالاضافة إلى منفعة الخيانة في التركة، من حيث كان أمر الدنيا حقيرا بالاضافة إلى أمر الآخرة. وقوله: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده)

معناه يعصي الله فيما بينه من الفرائض، وأموال اليتامى، " ويتعد " معناه:

يتجاوز ما بين له، " يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين " وخالدا نصب على أحد وجهين: أحدهما - أن يكون حالا من الهاء في يدخله.

والآخر - أن يكون صفة لنار في قول الزجاج، كقولك: زيد مررت بدار ساكن فيها، على حذف الضمير، والتقدير: ساكن هو فيها، لأن اسم الفاعل إذا جرى على غير من هولته لم يتضمن الضمير كما يتضمنه الفعل لو قلت: يسكن فيها.

واستدللت المعتزلة بهذه الآية على أن فاسق أهل الصلاة مخلد في النار، ومعاقب لامحالة، وهذا للدلالة لهم فيه من وجوه، لأن قوله: " ويتعد حدوده " إشارة

(١٤١)

إلى من يتعدى جميع حدود الله، ومن كان كذلك فعندنا يكون كافرا، وأيضا فلاخلاف أن الآية مخصوصة بصاحب الصغيرة، وإن كان فعل المعصية، وتعدى حدا فانه خارج منها، فان جاز لهم إخراج الصغيرة منها لدليل، جازلنا أن.

نخرج من يفضل الله عليه بالعفو، أو يشفع فيه النبي (صلى الله عليه وآله). وأيضا فان التائب لا بد من إخرجه من هذه الآية لقيام الدلالة على وجوب قبول التوبة، فكذلك يجب أن يشترط من يفضل الله باسقاط عقابه، فان قالوا: قبول التوبة واجب، والعفو ليس بواجب، قلنا: قبول التوبة واجب إذا حصلت، وكذلك سقوط العقاب واجب إذا حصل العفو، فان قالوا: يجوز أن لا يختار الله العفو، قلنا:

وكذلك يجوز ألا يختار العاصي التوبة، فان جعلوا الآية دالة على أن الله لا يختار العفو، جاز لغيرهم أن يجعل الآية دالة على أن العاصي لا يختار التوبة، على أن هذه الآية معارضة بآيات كثيرة، في وقوع العفو، كقوله: " ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " (١) على ماسنبيهه فيما بعد. وقوله: " إن الله يغفر الذنوب جميعا " (٢) وقوله: " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " (٣) فان شرطوا في آياتنا التوبة، شرطنا في آياتهم إرتفاع العفو، والكلام في ذلك مستقصى

في الوعيد، لانطول بذكره هذا الكتاب. ويمكن - مع تسليم ذلك - أن تحمل الآية على من يتعدى الحدود مستحلاً لها، فإنه يكون كافراً، ويتناوله الوعيد، على أن عند كثير من المرجئة العموم لاصيغة له، فمن أين ان " من " يفيد جميع العصاة؟ وما المنكر أن تكون الآية مختصة بالكفار.

قوله تعالى:

(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت

(١) سورة النساء: آية ٤٧، ١١٥. (٢) سورة الزمر: آية ٥٣.

(٣) سورة الرعد: آية ٧.

(١٤٢)

أو يجعل الله لهن سبيلاً (١٥) - آية بلاخلاف -
المعنى:

قال أكثر المفسرين، كالضحاك، وابن زيد، والجبائي، والبلخي، والزجاج، ومجاهد، وابن عباس، وقتادة، والسدي: إن هذه الآية منسوخة، لأنه كان الفرض الأول أن المرأة إذا زنت وقامت عليها البينة بذلك، أربعة شهود، أن تحبس في البيت أبداً حتى تموت، ثم نسخ ذلك بالرجم في المحصنين، والجلد في البكرين.

واللاتي جمع التي، وكذلك اللواتي، قال الشاعر:

من اللواتي والتي واللاتي * زعن أن كبرت لداتي (١)

ويجمع اللاتي باثبات الياء ويحذفها، قال الشاعر:

من اللات لم يحججن يبغين حسبة * ولكن ليقتلن البرئ المغفلا (٢)

وقوله: (أو يجعل الله لهن سبيلاً) قيل في معنى السبيل ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وعبدالله بن كثير، أنه الجلد للبكر مائة، وللثيب المحصن الرجم، وإذا جلد البكر فإنه ينفي سنة عندنا، وبه قال الحسن، وقتادة، وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

و - الثاني - قال الجبائي: النفي يجوز من طريق اجتهاد الامام، وأما من وجب عليه الرجم فإنه يجلد أو لاثم يرجم عند أكثر أصحابنا، وبه قال الحسن، وقتادة، وعبادة بن الصامت، وجماعة ذكرناهم في الخلاف. وفي أصحابنا من يقول: ذلك يختص الشيخ والشيخة، فإذا لم يكونا كذلك فليس عليهما غير الرجم، وأكثر الفقهاء على أنهما لا يجتمعان، وثبوت الرجم معلوم

من جهة التواتر على وجه لا يخلج فيه شك، وعليه اجماع الطائفة، بل اجماع الامة، ولم يخالف فيه إلا الخوارج، وهم لا يعتد بخلافهم. وقوله: " يأتين الفاحشة " يعني بالفاحشة،

(١) اللسان (لتا) والصاح، والتاج. ومجاز القرآن ١: ١١٩ وخزانة الادب وغيرها ولم يعرف قائله.

(٢) نسبه أبو عبيدة إلى عمر بن أبي ربيعة ولم نجد في ديوانه، ونسب إلى الحارث بن خلد في بعض النسخ. مجاز القرآن ١: ١٢٠.

(١٤٣)

وحذف الباء كما يقولون: أتيت أمرا عظيما، أي: بأمر عظيم، وتكلمت كلاما قبيحا، أي بكلام قبيح. وقال أبو مسلم: " واللاتي يأتين الفاحشة " قال: هما المرأة تخلوا بالمرأة في الفاحشة المذكورة عنهن: " أو يجعل الله لهن سبيلا " فالتزويج والاستغناء بالحلال، وهذا قول مخالف للاجماع، ولما عليه المفسرون، فانهم لا يختلفون أن الفاحشة المذكورة في الآية الزنا، وأن هذا الحكم منسوخ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) وأبي عبدالله (ع). ولما نزل قوله: " الزانية والزاني " (١) قال النبي (صلى الله عليه وآله): قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب الجلد ثم الرجم. قوله تعالى:

(واللذان يأتيانها منكم فآذو هما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيمًا) (١٦) - آية بالاخلاف.

القراءة، واللغة:

قرأ ابن كثير: " واللذان " بتشديد النون، وكذلك: " هذان " " فذانك "، ووافقه أبو عمرو في: فذانك. الباوق بالتخفيف، قال أبو علي: من شدد النون فوجهه أنه عوض من الحذف الذي لحق الكلمة، لان قولهم: (ذا) قد حذف لامها، وقد حذف الياء من اللذان في التنثية، لان أصله اللذان، فعوض عن ذلك التشديد، وفي العرب من يقول: اللذ بلإياء، وفي التنثية اللذا، وفي الجمع اللذوا، وللمرأة اللت، واللتا، واللات، بلإياء، وطى تقول مكان الذي: ذو، ومكان التي: ذات.

المعنى:

والمعنى بقوله: " اللذان " فيه ثلاثة أقوال:

سورة النور: آية ٢.

(١٤٤)

أولها - قال الحسن، وعطا: الرجل والمرأة، وقال السدي وابن زيد:

هما البكران من الرجل والنساء، وقال مجاهد: هما الرجلان الزانيان، قال الرماني: قول مجاهد لا يصح، لأنه لو كان كذلك لم يكن للثنائية معنى، لانه إنما يجئ الوعد والوعيد بلفظ الجمع، لانه لكل واحد منهم، أو بلفظ الواحد لدلالته على الجنس الذي يعم جميعهم، وأما التثنية فلا فائدة فيها، قال: والاول أظهر. قال أبو مسلم:

هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينهما، وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: السحاق زناء النساء بينهن، ومباشرة الرجل للرجل زناء، ومباشرة المرأة للمرأة زناء، قال: ولا يعرف في كلام العرب جمع بين الذكر والانثى في لفظ التذكير إلا إذا تقدمه ما يدل عليه، كقوله: " إن المسلمين والمسلمات "، ثم قال: " أعد الله لهم " (١)

وإلى هذا التأويل في معنى الرجلين ذهب أهل العراق، فلا يحدون للوطي، وهذا قول بعيد، والذي عليه جمهور المفسرين أن الفاحشة الزنا، وأن الحكم المذكور في الآية منسوخ بالحد المفروض في سورة النور، ذهب إليه الحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، والضحاك، والبلخي، والجبائي، والطبري، والزجاج، وغيرهم. وبعضهم قال: نسخها الحدود بالرجم أو الجلد.

وقوله: " فأذوهما " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: هو التعبير باللسان، والضرب بالنعال. وقال قتادة، والسدي، ومجاهد: هو التعبير والتوبيخ، فان قيل: كيف ذكر الاذى بعد الحبس؟ قلنا: فيه ثلاثة أوجه: أحدها - قال الحسن إن هذه الآية نزلت أولاً، ثم أمر بأن توضع في التلاوة بعد، فكان الاذى أولاً، ثم الحبس، بعد ذلك، ثم (٢) نسخ الحبس بالجلد أو بالرجم. الثاني - قال السدي: انه في البكرين خاصة، دون الثيبين، والاولى في

(١) سورة الاحزاب: آية ٣٥.

(٢) (ثم) ساقطة من المطبوعة.

(١٤٥)

الثيبين دون البكرين.

والثالث - قال الفراء: هذه الآية نسخت الاولى، قال أبو علي الجبائي:

في الآية دلالة على نسخ القرآن بالسنة، لانها نسخت بالرجم أو الجلد، والرجم ثبت بالسنة، ومن خالف في ذلك قول: هذه الآية نسخت بالجلد في الزنا، وأضيف إليه الرجم زيادة لانسخا، فلم يثبت نسخ القرآن بالسنة. فأما الاذى المذكور في الآية، فليس بمنسوخ، فان الزاني يؤذى

ويعنف، ويوبخ على فعله، ويذم. وإنما لا يقتصر عليه، فزيد في الأذى إقامة الحد عليه، وإنما نسخ الإقتصار عليه.

قوله تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) - آية واحدة - .

المعنى:

التوبة هي الندم على القبيح مع العزم على ألا يعود إلى مثله في القبح، وفي الناس من قال: يكفي الندم على ما مضى من القبيح، والعزم على ألا يعود إلى مثله، والاول أقوى، لاجماع الامة على أنها إذا حصلت على ذلك الوجه أسقطت العقاب، وإذا حصلت على الوجه الثاني ففي سقوط العقاب عنها خلاف، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أن التوبة إنما يقبلها ممن يعمل السوء بجهالة، وقيل في معنى بجهالة أربعة أقوال:

أحدها - قال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، وعطاء، وابن زيد: هو أن يفعلوها على جهه المعصية لله تعالى، لان كل معصية لها جهالة، لانه يدعو اليها الجهل، ويزينها للعبد، وإن كانت عمدا.

الثاني - بجهالة، أي بحال كحال الجهالة، التي لا يعلم صاحبها ما عليه في

(١٤٦)

مثلها من المضرة.

الثالث - قال الفراء: معنى " بجهالة " أي لا يعلمون كنه ما فيه من العقوبة، كما يعلم الشيء ضرورة.

الرابع - " بجهالة " أي وهم يجهلون أنها ذنوب ومعاصي، اختاره الجبائي، قال: يفعلونها بجهالة إما بتأويل يخطون فيه. أو بان يفرطوا في الاستدلال على قبحها، قال الرمانى: هذا ضعيف، لانه تأويل بخلاف ما أجمع عليه المفسرون، قال أبو العالية: إن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فبجهالة، وقال قتادة:

أجمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ذلك، وأيضا فانه يوجب أن من علم أنها ذنوب أن لا يكون له توبة، لان قوله: " انما التوبة " يفيد أنها لهؤلاء دون غيرهم، وظاهر الآية يدل على أن الله يقبل التوبة من جميع المعاصي كفرا كان أو قتلا أو غيرهما من المعاصي، ويقربه أيضا قوله: " والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق .. " إلى قوله: " إلا من تاب " (١)

فاستثنى من القتل، كما استثنى من الزنا والشرك، وحكي عن الحسن أنه قال: لا يقبل الله توبة القاتل. وروي أنه إنما قال ذلك لرجل كان عزم على قتل رجل على أن يتوب فيما بعد، فأراد صده عن ذلك. وقوله " فأولئك يتوب الله عليهم " بعد قوله " ثم يتوبون من قريب " معناه إن الله يقبل توبتهم إذا تابوا وأنابوا، وقوله: " من قريب " حث على أن التوبة يجب أن تكون عقيب المعصية، خوفا من الاخترام، وليس المراد بذلك أنها لو تأخرت لما قبلت. وقال الزجاج: معناه ثم يتوبون قبل الموت، لأن ما بين الإنسان وبين الموت قريب، والتوبة مقبولة قبل اليقين بالموت. وقال الحسن، والضحاك، وابن عمر: القريب ما لم يعاين الموت.

وقال علي (ع)، وقد قيل له: فان عاد؟ يغفر الله له ويتوب، مرارا، قيل:

إلى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور. وقال السدي، وابن عباس:

في حال الصحة قبل الموت. وقوله: " وكان الله عليما حكيما " معناه ههنا: وكان الله

(١) سورة الفرقان: آية ٦٨ - ٧٠. (*)

(١٤٧)

عليما بتوبتهم إن تابوا، وإصرارهم إن أصروا، حكيما في مؤاخذتهم إن لم يتوبوا. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: لما هبط إبليس قال: وعزتك وعظمتك، لأفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده، فقال الله: وعزتي وعظمتي لأحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغو.

قوله تعالى:

(وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما) (١٨) - آية واحدة -.

المعنى: أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يقبل التوبة من الذي يعمل المعاصي حتى إذا حضره الموت قال: إني تبت الآن، وأجمع أهل التأويل على أن الآية تناولت عصاة أهل الصلاة، إلا ما حكي عن الربيع أنه قال: إنها في المنافقين، وهذا غلط لأن المنافقين كفار، وقد بين الله الكفار بقوله: (ولا الذين يموتون وهم كفار)

وقال الربيع أيضا: إن الآية منسوخة بقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١). وهذا خطأ لأن النسخ لا يدخل في الخبر الذي يجري هذا المجرى، ومن جوز العفو بالتوبة يمكنه أن يقول: إن التوبة التي وعد الله بأسقاط العقاب عندها قطعا متى حصلت في هذا الوقت لا يسقط العقاب، ولا يمنع ذلك من أن يتفضل الله بأسقاط العقاب ابتداء بالتوبة، كما لو خرج من دار الدنيا من غير توبة أصلا، لم يمنع ذلك من جواز العفو عنه، فليس في

الآية ماينافي القول بجواز العفو من غير توبة. وقال جميع المفسرين، كابن عباس، وابن عمر، وإبراهيم، وابن زيد، وغيرهم: إن الذين يحتضرون لانتقبل لهم توبة، غير إن الذين يحضرون الميت لايعرفون تلك الحال معرفة يمكن

(١) سورة النساء: آية ٤٧. (*)

(١٤٨)

بها الاشارة إليها. فان قيل: فلم لم تقبل التوبة في الآخرة؟ قيل: لرفع التكليف، وحصول الاجاء إلى فعل الحسن دون القبيح، والملجأ لايستحق بفعله ثوابا ولا عقابا، لانه يجري مجرى الاضطرار. وحكي الرماني عن قوم أنهم قالوا بتكليف أهل الآخرة، وان التوبة إنالم يجب قبولها، لان صاحبها هناك في مثل حال المتعوذ بها، لاالمخلص فيها، وهذا خطأ، لان الله تعالى يعلم أسرارهم كما يعلم إعلانهم. وقوله: (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) معناه أعددنا، وقال قوم:

التاء بدل من الدال، وقال آخرون هو أفلنا من العتاد، ومعناه اعددنا، وعتاد الرجل: عدته، وهو الاصل. والشئ العتيد هوالمعد، والعتيدة: طلبة معدة للطيب، ومعنى إعداد العذاب لهم، إنما هو بخلق النار التي هي مصيرهم. والاليم بمعنى المؤلم. وليس في الآية مايمنع من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر بلا توبة، لان قوله: (أولئك) يحتمل أن يكون راجعا إلى الكفار لانه جرى ذكر الكفار وهم أقرب إلى أولئك من ذكر الفساق، ويحتمل أن يكون التقدير: أعتدنا لهم عذابا، إن لم نشأ العفو عنهم، وتكون الفائدة فيه إعلامهم ما يستحقونه من العذاب، وألا يأمنوا أن يفعل بهم ذلك، وإن كان تعالى يعلم هل يعفو أو لايعفو. قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لايلح لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (١٩) - آية بلاخلاف - .
القراءة واللغة:

قرأ (بفاحشة مبينة) بفتح الياء، ابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم.
الباقون بالكسر، وهو الاقوى، لانه لايقصد إلى إظهارها. وقرأحمزة والكسائي

(١٤٩)

" كرها " بضم الكاف هنا وفي التوبة والاحقاف، وافقهما في الاحقاف عاصم، وابن عامر، إلا الحلواني، ويعقوب.

الكره والكره لغتان، مثل الشهد والشهد، والضعف والضعف، والفقير والفقير.
المعنى:

هذا الخطاب متوجه إلى المؤمنين، نهاهم الله أن يرثوا النساء كرها، واختلفوا في معنى ذلك، فقال الزهري، والجبائي، وغيرهما، وروي ذلك عن أبي جعفر (ع):
هو أن يحبس الرجل المرأة عنده، لأحاجة له إليها، وينتظر موتها حتى يرثها، فنهى الله (تعالى) عن ذلك. وقال الحسن، ومجاهد: معناه ما كان يعمله أهل الجاهلية، من أن الرجل إذا مات، وترك امرأته قال وليه: ورثت امرأته، كما ورثت ماله، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول، ولا يعطيها شيئا، وإن شاء زوجها وأخذ صداقها، وروي ذلك أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع). وقال مجاهد: إذا لم يكن الولي ابنها قال أبو مجلز: وكان أولى بالميراث أولى بها من ولي نفسها. وقوله:

(ولا تعضلوهن) قيل فيمن عني بهذا النهي أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الزوج أمره الله بتخلية السبيل إذا لم يكن له فيها حاجة، ولا يمسكها إضرارا بها، حتى تفتدي ببعض مالها.
والثاني - قال الحسن: هو الوارث، نهى عن منع المرأة من التزويج، كما يفعل أهل الجاهلية على ما بيناه.

والثالث قال مجاهد: المراد الولي.

الرابع - قال ابن زيد: المطلق يمنعها من التزويج، كما كانت تفعل قريش في الجاهلية، ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة، فإذا لم توافقه فارقها، على أن لا تتزوج إلا بأذنه، فيشهد عليها بذلك، ويكتب كتابا، فإذا خطبها خاطب، فإن أعطته

(١٥٠)

وأرضته، أذن لها وإن لم تعطه عضلها، فنهى الله عن ذلك. والاول أظهر الاقويل.
اللغة:

والعضل هو التصبيق بالمنع من التزويج، وأصله الامتناع، يقال: عضلت الدجاجة ببيضتها: إذا عسرت عليها، ومنه العضلة: لصلابتها، ومنه الداء العضال إذا لم يبرء، وعضل الفضا بالجيش الكثير إذا لم يمكن سلوكه لضيقه.
المعنى:

وقوله: (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قيل فيه قولان: أحدهما - قال الحسن، وأبو قلابه، والسدي: يعني الزنا، وقالوا إذا أطلع منها على زنية فله أخذ الفدية.

والثاني - قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة: هو النشوز، والاولى حمل الآية على كل معصية، لان العموم يقتضي ذلك، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) واختاره الطبري. وقوله: (وعاشروهن بالمعروف) قال السدي: معناه خالطوهن، وخالقوهن، من العشرة التي هي المصاحبة بما أمركم الله به من المصاحبة، بأداء حقوقهن التي أوجبها على الرجال، أو تسريح باحسان. وقوله: (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) يعني في إمساكنهن على كره منكم " خيرا كثيرا " من ولد يرزقكم، أو عطفكم عليهن بعد الكراهية، وبه قال ابن عباس، ومجاهد.
الاعراب:

والهاء في فيه، يحتمل أن ترجع إلى الشيء في قوله: (أن تكرهوا شيئا) ويحتمل أن تكون راجعة إلى الذي يكرهونه. وقوله: (ولاتعضلوهن) يحتمل أن يكون جزمًا بالنهي، ويحتمل أن يكون نصبا بالعطف على قوله: (لايحل لكم

(١٥١)

أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن) وفي قراءة عبدالله: (ولا أن تعضلوهن) باثبات أن.

النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أباقيس بن الاسلت لما مات عن زوجته كبشة بنت معن بن عاصم، أراد ابنه أن يتزوجها، فجاءت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقالت: يانبي الله: لأنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية، ذكره أبو جعفر (عليه السلام)، وغيره.

قوله تعالى:

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) (٢٠) - آية - .

المعنى:

أخذ مال المرأة، وإن كان محرماً على كل حال من غير أمرها، فانما خص الله تعالى الاستبدال بالنهي، لأن مع الاستبدال قد يتوهم جواز الاسترجاع، من حيث أن الثانية تقوم مقام الأولى، فيكون لها ما أعطيته الأولى، فبين الله تعالى أن ذلك لا يجوز. والمعنى: إن أردتم تخليئة المرأة سواء استبدل مكانها أولم يستبدل. وقوله: (وآتيتم إحداهن قنطاراً) معناه: ليس ما آتيتموهن موقوفاً على التمسك بهن، دون تخليتهن، فيكون إذا أردتم الاستبدال جاز لكم أخذه، بل هو تمليك صحيح، لا يجوز الرجوع فيه. والمراد بذلك ما أعطى المرأة مهراً لها، ويكون دخل بها، فأما إذا لم يدخل بها، وطلقها، جاز له أن يسترجع نصف ما أعطاها، فأما ما أعطاهما على وجه الهبة، فظاهر الآية يقتضي أنه لا يجوز له الرجوع في شيء منه. لكن علمنا بالسنة أن ذلك سائغ له، وإن كان مكروهاً.

(١٥٢)

اللغة:

والقنطار المال الكثير، واختلفوا في مقداره، فقال بعضهم هو ملء جلد ثور ذهباً، وقال آخرون: هودية الإنسان، وغير ذلك من الأقوال التي قدمنا ذكرها فيما مضى. وأصل ذلك مأخوذ من القنطرة، ومنه القنطر الداهية، لأنها كالقنطرة في عظم الصورة، وإحكام البنية. ويقال: قنطر في الأمر يقنطر إذا عظمه، بتكثير الكلام فيه، من غير حاجة إليه. وقوله: "أتأخذونه بهتاناً" قيل في معناه قولان:

أحدهما - يعني بهتاناً ظلماً كالظلم بالبهتان، وقيل بطلاناً كبطلان البهتان.

الثاني - بهتاناً أي بأن تبهتوا أنكم ملكتموه فتسترجعوه (١) وأصل البهتان الكذب الذي يواجه به صاحبه على وجه المكابرة، وأصله التحير، ومنه قوله: "فبهت الذي كفر" (٢) أي تحير عند انقطاع حجته، فالبهتان كذب يحير صاحبه. ونصب بهتاناً على أنه حال في موضع المصدر، والمعنى أتأخذونه مباهتين وآثمين. وقوله "مبيناً" أي ظاهراً لا شك فيه.

قوله تعالى:

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) (٢١) - آية - .
بلاخلاف - .

المعنى:

قيل في نسخ هذه الآية، والتي قبلها، ثلاثة أقوال:
أحدها - أنها محكمة ليست منسوخة، لكن للزوج ان يأخذ الفدية من المختلعة، لان النشوز
منها، فالزوج في حكم المكره لا المختار للاستبدال، ولا

في المطبوعة (لتستوجبوه).

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨. (*)

(١٥٣)

يتنافى حكم الآيتين، فلا يحتاج إلى نسخ احدهما بالآخرى.
الثاني - قال بكرين عبدالله المري: هي محكمة، وليس للزوج لاجل ظاهرها أن يأخذ من
المختلعة شيئاً، ولا من غيرها.

الثالث - قال ابن زيد، والسدي: هي منسوخة بقوله: (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم
ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) (١)
وقيل في معنى الافضاء قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو كناية عن الجماع.
الثاني - انه الخلوة، وإن لم يجامع، فليس له أن يسترجع نصف المهر، وإنما يجوز ذلك فيمن
لم يدخل بها بالخلوة معها. وكلاهما قد رواه أصحابنا، واختلفوا فيه، والاول هو الاقوى.
اللغة والمعنى:

والافضاء إلى الشيء هو الوصول إليه بالملابسة له، قال الشاعر:
بلى وثاي أفضى إلى كل كئبة * بدا سيرها من ظاهر بعد باطن (٢)
أي وصل البلى والفساد إلى الحرز، والفضاء السعة، فضا يفضو فضوا وفضاء إذا تسع،
ومنه: تمر فضا، مقصور أي مختلط، وقوله: (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قيل في معناه أربعة
أقوال:

أحدهما - قال الحسن، وابن سيرين، والضحاك، وقتادة، والسدي، والفراء، وهو المروي عن
أبي جعفر (ع) أنه قوله: (إمساك بمعروف أو تسريح باحسان) (٣) وقال مجاهد، وابن زيد،
هو كلمة نكاح، التي يستحل بها الفرج.

الثالث - قول النبي (صلى الله عليه وآله): (أخذ تموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٩.

(٢) لم يعرف قائله. وقو في تفسير الطبري، ٨ - ١٢٤ مشوه محرف ولم نجده في مصادرنا.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٢٩.

بكلمة الله).

الرابع - قال قتادة. كان يقال للناكح في الاسلام الله عليك لتمكن بمعروف أو لتسرحن باحسان، وهذا الكلام وإن كان ظاهره للاستفهام، فالمراد به التوبيخ، والتهديد، كما يقول القائل لغيره: كيف تفعل هذا وأنا غير راض به، على وجه التهديد.

قوله تعالى:

(ولاتتکحوا ما نکح آباؤکم من النساء إلا ماقد سلف إنه کان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) (٢٢) - آية -

المعنى:

قبل في معنى الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وقتادة، وعطاء، وعكرمة: إنه حرم عليهم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الأب.

والثاني - أن يكون " ما نكح " بمنزلة المصدر، والتقدير: ولاتتکحوا نکاح آباؤکم، أي مثل نکاح آباؤکم، فعلى هذا يدخل فيه النهي عن حلائل الأباء، وكل نکاح كان لهم فاسدا، وهو اختيار الطبري وقال: إن هذا الوجه أجود، لأنه لو أراد حلائل الأباء لقال:

لاتتکحوا من نکح آباؤکم، وهذا ليس بطعن، لأنه ذهب به مذهب الجنس، كما يقول القائل: لاتأخذ مأخذ أبوک من الاماء، فيذهب به مذهب الجنس ثم يفسره.

ب (من). وقوله: (إلا ماقد سلف) معنى إلا لکن، وكذلك كل استثناء منقطع، كقول القائل: لاتتبع من متاعي إلا ما بعت، أي لکن ما بعت فلا جناح عليك فيه، وقيل في معنى الآية قولان: أحدهما - " إلا ماقد سلف " فانکم لاتؤخذون به.

الثاني - حكاه بعضهم: " إلا ماقدسلف " فدعوه، فهو جائز لکم، قال

البلخي: وهذا لا يجوز بالاجماع. والهاء في قوله: " إنه كان فاحشة " يحتمل أن تكون عائدة إلى النكاح بعد النهي، ويحتمل أن تكون عائدة على النكاح الذي كان عليه أهل الجاهلية قبل، ولا يكون ذلك إلا وقد قامت عليهم الحجة بتحريمه، من جهة الرسل، فالاول اختاره الجبائي، وهو الاقوى، وتكون " إلا ماقد سلف " فالسلامة منه الاقلاع عنه بالتوبة والانابة، قال البلخي: وليس كل نکاح حرمه الله زنا، لان الزنا هو فعل مخصوص، لايجري على طريقة لازمة،

وسنة جارية، ولذلك لا يقال للمشركين في الجاهلية: أولاد زنا، ولا أولاد أهل الذمة والمعاهدين: أولاد زنا، إذا كان ذلك عقدا بينهم يتعارفونه.

اللغة، والاعراب، والمعنى:

والمقت، هو بغض عن أمر قبيح ركبه صاحبه، وهو مقيت، وقد مقت إلى الناس مقاتة، ومقته الناس مقتا، فهو ممقوت. وقيل إن ولد الرجل من امرأة أبيه كان يسمى المقتي، قال المبرد: كان زائدة، والتقدير: إنه فاحشة. وقال الزجاج: هذا ليس بصحيح، لأنها لو كانت زائدة مل تعمل، كما قال الشاعر:

فكيف إذحللت ديار قوم * وجيران لنا كانوا كرام

لما كانت زائدة لم تعمل في الخبر. قال الرماني: هي كقوله " وكان الله غفورا رحيمًا " فدخلت كان لتدل على أنه قبل تلك الحال كذا، وقال الجبائي:

معناه أنه كان فيما مضى أيضا فاحشة ومقتا، وكان قد قامت الحجة عليهم بذلك. وكل من عقد عليها الاب من النساء تحرم على الابن، دخل بها الاب، أولم يدخل، بلاخلاف، فان دخل بها الاب على وجه السفاح فهل تحرم على الابن ففيه خلاف، وعموم الآية يقضي بأنها تحرم عليه، لان النكاح يعبر به عن الوطي، كما يعبر به عن العقد، فيجب أن يحمل عليهما، وأمرأة الاب وإن علا تحرم على الابن وإن نزل، بلاخلاف. وقوله: " وساء سييلا " أي قبح ذلك السبيل الذي سلوه سييلا، وهو نصب على التمييز.

(١٥٦)

قوله تعالى:

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف إن الله غفورا رحيمًا) (٢٣) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

في الناس من اعتقد أن هذه الآية وما يجري مجراها، كقوله: " حرمت عليكم الميتة " (١) مجملة لا يمكن التعلق بظاهرها في تحريم شيء، وإنما يحتاج إلى بيان قالوا: لان الاعيان لاتحرم ولا تحل، وإنما يحرم التصرف فيها، والتصرف يختلف، فيحتاج إلى بيان التصرف المحرم، دون التصرف المباح، والاقوى أنها ليست مجملة، لان المجمل هو مالا يفهم المراد بعينه بظاهره، وليست هذه الآية كذلك لان المفهوم من ظاهرها تحريم العقد عليهن، والوطي،

دون غيرهما من أنواع الفعل، فلا يحتاج إلى البيان مع ذلك، وكذلك قوله: " حرمت عليكم الميتة " المفهوم الاكل، والبيع، دون النظر إليها، وأورميتها، وما جرى مجراها كيف وقد تقدم هذه الآية مايكشف عن أن المراد ما بيناه من قوله: " ولا تتكحوا ما نكح آبؤكم " فلما قال بعده: " حرمت عليكم أمهاتكم " كان المفهوم

(١) سورة المائدة: آية ٤. (*)

(١٥٧)

أيضا تحريم نكاحهن، وقد استوفينا ذلك في العدة في أصول الفقه، فلا نطول بذكره ههنا. قال ابن عباس: حرم الله في هذه الآية سبعا بالنسب، وسبعا بالسبب، فالمحرمات من النسب الامهات، ويدخل في ذلك أمهات الامهات وإن علون، وأمهات الآباء مثل ذلك، والبنات، ويدخل في ذلك بنات الاولاد وأولاد البنين وأولاد البنات وإن نزلن، والاخوات، سواء كن لآب وأم أو لآب أو لام، وبنات الاخ، وبنات الاخت وإن نزلن. والمحرمات بالسبب الامهات من الرضاعة، والاخوات أيضا من الرضاعة، وكل من يحرم بالسبب يحرم مثله بالرضاع، لقوله (صلى الله عليه وآله): " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " وأمهات النساء يحرم من نفس العقد، وإن لم يدخل بالبنات، على قول أكثر الفقهاء، وبه قال ابن عباس، والحسن، وعطاء، وقالوا: هي مبهمة، وخصوا التقييد بقوله: " وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " ورووا عن علي (ع)، وزيد بن ثابت، أنه يجوز العقد على الام مالم يدخل بالبنات، وجعلوا قوله: " من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " راجعا إلى جميع من تقدم من أمهات النساء، والربائب. اللغة:

والربائب: جمع ربيبة، وهي بنت الزوجة من غيره، ويدخل فيه أولادها وإن نزلن، وسميت بذلك لتربيته إياها، ومعناها مربوبة، نحو قتيلة في موضع: مقتولة، ويجوز أن تسمى ربيبة سواء تولى تربيتها وكانت في حجره، أو لم تكن، لأنه إذا تزوج بأماها سمي هو رابها، وهي ربيبتها، والعرب تسمى الفاعلين والمفعولين بما يقع بهم، ويوقعونه، يقولون: هذا مقتول، وهذا ذبيح، وإن لم يقتل بعد ولم يذبح، إذا كان يراد قتله أو ذبحه، وكذلك يقولون: هذه

(١٥٨)

أضحية لما أعد للتضحية، وكذلك: هذه قتبوة، وحلوبة، أي مما يقتب، ويحلب فمن قال: إنه لا تحرم بنت الزوجة إلا إذا تربت في حجره فقد أخطأ على ما قلناه ويقال لزواج المرأة: ربيب

ابن امرأته، يعنى به، رابه، نحو: شهيد، بمعنى شاهد، وخبير، بمعنى خابر، وعليم، بمعنى عالم.

الاعراب:

وقوله: (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) قال المبرد: " اللاتي دخلتم بهن " نعت للنساء اللواتي من أمهات الربائب لاغير قال: لاجماع الناس على أن الربيبة تحل إذا لم يدخل بامها، وإن من أجاز أن يكون قوله: (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)

هو لامهات نسائكم فيكون معناه: أمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فيخرج أن يكون اللاتي دخلتم بهن لامهات الربائب، قال الزجاج: لان الخبرين إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحدا، لايجز النحويون: مررت بنسائك، وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن يكون (الظريفات) نعتا لهؤلاء النساء، وهؤلاء النساء. وقال:

من اعتبر الدخول بالنساء، لتحريم أمهاتهن يحتاج أن يقدر: أعني، فيكون التقدير: وأمهات نسائكم أعني اللاتي دخلتم بهن، وليس بناإلى ذلك حاجة.
المعنى:

والدخول المذكور في الآية قيل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: هو الجماع، واختاره الطبري.

الثاني - قال عطاء: وما جرى مجراه من المسيس، وهو مذهبا، وفيه خلاف بين الفقهاء. وقوله: " وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم " يعني نساء البنين للصلب، دخل بهن البنون أولم يدخلوا، ويدخل في ذلك أولاد الاولاد من البنين والبنات، وإنما قال " من أصلابكم " لئلا يظن أن امرأة من يتبنى به تحرم عليه.

وقال عطاء: نزلت الآية حين نكح النبي (صلى الله عليه وآله) امرأة زيد بن حارثة، فقال

(١٥٩)

المشركون في ذلك، فنزلت: " وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم " وقال: " وما جعل أديانكم أبناءكم " (١) وقال: " ماكان محمد أبا أحد من رجالكم " (٢) فأما حلائل الابناء من الرضاة فمحرمات بقوله (صلى الله عليه وآله): " يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب ".

وإنما سميت المرأة حليلة لامرين:

أحدهما - لأنها تحل معه في فراش.

الثاني - لانه يحل له وطؤها. وقوله: " وأن تجمعوا بين الاختين " فيه تحريم الجمع بينهما في عقد واحد، وتحريم الجمع بينهما في الوطي بملك المين، فاذا وطأ إحداهما لم تحل له الاخرى

حتى يخرج تلك من ملكه، وهو قول الحسن، وأكثر المفسرين والفقهاء. وروي عن ابن عباس أنه أجاز الجمع بينهما بملك اليمين، وتوقف فيهما علي وعثمان، وباقي الصحابة حرموا الجمع بينهما. وروي عن علي (ع) أنه قال:

حرمتهما آية، وأحلتهما أخرى، وأنا أنهى عنهما نفسي، وولدي، فغلب التحريم. ومن أجاز الجمع بينهما في الوطي بملك اليمين - على ما يذهب إليه داود وقوم من أهل الظاهر - فقد أخطأ في الاختين، وكذلك في الربيبة وأم الزوجة، لان قوله: " وأمها نساءكم " يدخل فيه المملوكة، والمعقود عليها، وكذلك قوله: " من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " يتناول الجميع، وكذلك قوله: " وأن تجمعوا بين الاختين " عام في الجميع على كل حال، في العقد والوطي، وإنما أخرجنا جواز ملكهما بدلالة الاجماع، ولا يعارض ذلك قوله: " أو ما ملكت أيمانكم " لان الغرض بهذه الآية مدح من حفظ فرجه إلا عن الأزواج، أو ملك الايمان، فاما كيفية ذلك فليس فيه، ويمكن الجمع بينهما بأن يقال: " أو ما ملكت أيمانكم " إلا على وجه الجمع بين الام والبنات، أو الاختين والسابعة قوله: (ولاتكحوا ما نكح آبؤكم) وهي امرأة الاب، سواء

سورة الاحزاب: آية ٤. (٢) سورة الاحزاب: آية ٤٠. (*)

(١٦٠)

دخل بها أو لم يدخل، ويدخل في ذلك نساء الاجداد وإن علوا، من قبل الاب والام بلاخلاف. وقوله: " إلا ما قد سلف " استثناء منقطع، وتقديره: لكن ما سلف لا يؤخذكم الله به، وليس المراد أن ما سلف حال النهي تجوز استدামته، بلاخلاف. وقيل إن إلا بمعنى سوى. وقوله: " وأن تجمعوا " (أن) في موضع الرفع، والتقدير: حرمت عليكم هذه الاشياء، والجمع بين الاختين، وكل من حرمه الله في هذه الآية فانما هو على وجه التأييد، مجتمعات ومنفردات، إلا الاختين فانهما حرمان على وجه الجمع دون الانفراد. ويمكن أن يستدل بهذه الآية على أنه لا يصح أن يملك واحدة من ذوات الانساب المحرمات، لان التحريم عام، وبقوله (صلى الله عليه وآله) " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " على أنه لا يصح ملكهن من جهة الرضاع، وإن كان فيه خلاف. وأما المرأة التي وطؤها بلاتزويج، ولاملك، فليس في الآية ما يدل على أنه يحرم وطئ أمها وبناتها، ولان قوله: " وأمها نساءكم " وقوله: " من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " يتضمن إضافة الملك، إما بالعقد أو بملك المين، فلا يدخل فيه من وطأ من لا يملك وطأها، غير أن قوما من أصحابنا ألحقوا ذلك بالموطوءة بالعقد والملك بالسنة والاحبار المروية في ذلك، وفيه خلاف بين الفقهاء.

وأما الرضاع فلا يحرم عندنا إلا ما كان خمس عشرة رضة متواليات، لا يفصل بينهن برضاع امرأة أخرى، أو رضاع يوم وليلة، أو ما أنبت اللحم وشد العظم. وفي أصحابنا من حرم بعشر رضعات. ومتى دخل بين الرضاع رضاع امرأة أخرى، بطل حكم ما تقدم. وحرم الشافعي بخمس رضعات، ولم يعتبر التوالي. وحرم أبو حنيفة بقليله وكثيره، وهو اختيار البلخي. وفي أصحابنا من ذهب إليه. واللبن عندنا للفحل، ومعناه إذا أرضعت امرأة بلبن فحل لها صبيانا كثيرين، من أمهات شتى، فانهم جميعهم يصيرون أولاد الفحل، ويحرمون على جميع أولاده الذين ينتسبون إليه ولادة ورضاعا، ويحرمون على أولاد المرضعة الذين ولدتهم، فأما

(١٦١)

من أرضعته بلبن غير هذا الفحل، فانهم لا يحرمون عليهم، وكذلك إن كان للرجل امرأتان، فأرضعتا صبيين لأجنبيين، حرم التناكح بين الصبيين، وخالف في هذه ابن علية. ولا يحرم من الرضاع عندنا إلا ما وصل إلى الجوف من الثدي من المجرى المعتاد الذي هو الفم، فاما ما يوجر به، أو يسعط، أو ينشق، أو يحقن به، أو يحلب في عينه، فلا يحرم بحال. ولبن الميتة لأحرمة له في التحريم، وفي جميع ذلك خلاف. ولا يحرم من الرضاع إلا ما كان في مدة الحولين، فاما ما كان بعده فلا يحرم بحال.

فاما الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فحرم بالسنة، ويجوز عندنا نكاح العممة والخالة على المرأة، ونكاح المرأة على العممة والخالة لا يجوز إلا برضاء العممة والخالة، وخالف فيه جميع الفقهاء. والمحرمات بالنسب ومن يحرم بالسبب على وجه التأييد يسمون مبهمات، لأنه يحرم من جميع الجهات، ماخوذ من البهيم الذي لا يخالط معظم لونه لون آخر، يقال: فرس بهيم لاشية فيه، وبقرة بهيم، والجمع بهم.

وقوله: (إن الله كان عفورا رحيفا) اخبار أنه كان عفورا حيث لم يؤأخذهم بما فعلوه من نكاح المحرمات، وأنه عفى لهم عما سلف، ولا يدل على أنه ليس بغفور فيما بعد، لان ذلك معلوم بدلالة أخرى، وفي الناس من قال: كان زائدة، وقد بينا أن هذا ضعيف، لانها تكون عبثا ولغوا، وذلك لا يجوز.

قوله تعالى:

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم

(١٦٢)

فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيمًا (٢٤)

- آية بلاخلاف -.

القراءة:

قرأ الكسائي: " المحصنات " (ومحصنات)، بكسر الصاد حيث وقع، إلا قوله: " والمحصنات

من النساء " ههنا فانه فتح الصاد. وقرأ أهل الكوفة إلا أبوبكر، وأبوجعفر: " وأحل لكم " -

بضم الهمزة، وكسر الحاء - الباقيون:

بفتحها. وقرأ أهل الكوفة لإحفاصا: " أحسن " بفتح الهمزة والصاد، الباقيون

بضم الهمزة وكسر الصاد.

المعنى:

قيل في معنى قوله: " والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكم " ثلاثة أقوال:

أحدها - وهو الأقوى - ما قاله علي (ع)، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو قلابة، وابن زيد،

عن أبيه، ومكحول، والزهرى، والجبائي: أن المراد به نوات الأزواج إلا ما ملكت أيماكم، من

سبي من كان لهزوج. وقال بعضهم، مستدلا على ذلك بخبر أبي سعيد الخدري، أن الآية

نزلت في سبي أوطاس، ومن خالفهم ضعف هذا الخبر بأن سبي أوطاس كانوا عبدة الاوثان،

دخلوا في الاسلام.

الثاني - قال أبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وابن مسعود - في رواية

أخرى عنه - وسعيد بن المسيب، والحسن، وابراهيم: إن المراد به نوات الأزواج إلا ما ملكت

أيماكم ممن قد كان لها زوج، لان بيعها طلاقها.

وقال ابن عباس: طلاق الامة ست: سببها طلاقها، وبيعها، وعتقها، وهبتها، وميراثها،

وطلاقها. وحكي عن علي (ع)، وعمر، وعبدالرحمن بن عوف: أن السبي خاصة طلاقها،

قالوا لان النبي (صلى الله عليه وآله) خير بريرة بعد أن أعتقها عائشة،

(١٦٣)

ولو بانث بالعتق لماصح. وزعم هؤلاء أن طلاقها كطلاق الحرة.

الثالث - قال أبو العالية. وعبيدة، وسعيد بن جبير، وعطاء، واختاره الطبري: ان المحصنات

العفائف، إلا ما ملكت أيماكم بالنكاح، أو بالثمن ملك استمتاع بالمهر والبينة، أو ملك استخدام

بثمن الامة.

اللغة والاعراب:

وأصل الاحصان المنع. وسمي الحصن حصنا لمنعه من أراده من أعدائه، والدرع الحصينة أي المنيعة، والحصان الفحل من الإفراس لمنعه صاحبه من الهلاك، والحصان العفيفة من النساء، لمنعها فرجها من الفساد. ومنه قوله: " التي أحصنت فرجها " (١) وكذلك أحصنها الزوج، وبناء حصين ممتنع، وحصنت المرأة تحصن حصانة، والحاصن: العفيفة، قال العجاج:

وحاصن من حاصنات ملس * من الأذى ومن قراف الوقس (٢)

وقال أبو علي الفارسي، قال سيبويه: حصنت المرأة حصنا وهي حصان، مثل: جنبنت جنبنا فهي جبان، وقالوا حصنا، كما قالوا: علما قال الأزهري: يقال للرجل إذا تزوج: أحصن فهو محصن، كقولهم: أفلج فهو ملفج إذا أعدم وافتقر، وأسهب فهو مسهب، إذا أكثر الكلام. وكلام العرب كله على أفعال فهو مفعول، بكسر العين، مثل أسمع فهو مسمع، وأعرب فهو معرب، وأفصح فهو مفصح، إلا ما ذكرناه والاحصان على أربعة أقسام: أحدها - يكون بالزوجة، كقوله: " والمحصنات من النساء ". والثاني - بالاسلام، كقوله: " فاذا أحصن فان أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات " (٣).

(١) سورة التحريم: آية / ١٢ (٢) ديوانه ٧٨، واللسان (قنس)، (وقس)، (حصن) ومجاز القرآن ١: ١٢٢ ورواية اللسان (عن) بدل (من) في العجز في الموضوعين.
(٣) سورة النساء: آية ٢٥.

(١٦٤)

والثالث - بالعفة كقوله: " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء " (١). الرابع - يكون بالحرية، كقوله: " والمصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم " (٢) وقوله: " كتاب الله عليكم " يحتمل نصبه وجهين:

أحدهما - أن يكون مصدرا جرى على غير فعله وفيه معناه، كأنه قال:

حرم الله ذلك كتابا من الله، أو كتب كتابا، كما قال: " صنع الله الذي أتقن كل شيء " (٣) فنصبه بقوله: " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " (٤) فكان ذلك دلالة على أنه قد صنعها فنصب على أنه مصدر، وقال الشاعر:

ورضت فذلت صعبة أي اذلال (٥)

لأن معنى رضت أذلت، قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوبا على جهة الامر، ويكون " عليكم " مفسرا، والمعنى: الزموا كتاب الله.

الثاني - على الاغراء، والعامل محذوف، لان عليكم لايعمل فيما قبله:
وأنشد:

يأيتها المائح دلوى دونكا * إني رأيت الناس يحمدونكا (٦)
والمعنى هذا دلوي دونكا، وهو معنى قول الزجاج.
المعنى:

وقوله: (وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا باموالكم) قيل في معناه أربعة أقوال:

(١) سورة النور: آية ٤. (٢) سورة المائدة: آية ٦.

(٣، ٤) سورة النمل: آية ٨٨.

(٥) قائله امرؤ القيس. ديوانه: ١٦١. وصدده:

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا (٦) البيت لجاهلي من بني أسيد بن عمر بن تميم. معاني القرآن ١: ٢٦٠، وخزانة
الادب ٣: ١٧.

(١٦٥)

أحدها - قال عبيدة السلماني، والسدي: أحل لكم مادون الخمس، أن تبتغوا باموالكم على وجه
النكاح.

الثاني - قال عطاء أحل لكم ماوراء ذوات المحارم من أقاربكم.

الثالث - قال قتادة: (ماوراء ذلكم) مما ملكت أيماكم.

الرابع - ماوراء ذوات المحارم إلى الرابع، أن تبتغوا باموالكم نكاحا، أو بملك يمين، وهذا
الوجه أولى، لانه حمل الآية على عمومها في جميع ماذكر الله، ولاتتافي بين هذه الاقوال.

ومن فتح الهمزة حمله على أقرب المذكورين في قوله: (كتاب الله عليكم)

ومن ضم حمله على (حرمت) وموضع (أن تبتغوا) نصب، ويحتمل نصبه على وجهين:

أحدهما - على البذل من ما.

والثاني - على حذف اللام من " لان تبتغوا "، ومن قرأ بالضم جاز عنده الرفع والنصب،

وقوله: " محصنين " أي عاقدين التزويج، غير مسافحين: عاقين للفروج، فال مجاهد، والسدي:

معناه غير زانين وأصله: صب الماء، تقول:

سفع الدمع إذا صبه، وسفع الجبل أسفله، لانه مصب الماء منه، وسافح إذا زنا نصبه الماء

باطلا. وقال الزجاج: المسافح والمسافحة الزانيان غير ممتنعين من أحد، فاذا كانت تزني

بواحد فهي ذات خدن، فحرم الله الزنا على كل حال، على السفاح واتخاذ الصديق. وقوله: (فما

استمتعتم به منهن) قال الحسن، ومجاهد، وابن زيد:

هو النكاح، وقال ابن عباس، والسدي: هو المتعة إلى أجل مسمى، وهو مذهبنا، لان لفظ الاستمتاع إذا أطلق لا يستفاد به في الشرع إلا العقد المؤجل، ألا ترى أنهم يقولون: فلان يقول بالمتعة، وفلان لا يقول بها، ولا يريدون إلا العقد المخصوص، ولا ينافي ذلك قوله: " والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم " (١) لانا نقول: إن هذه زوجة، ولا يلزم أن يلحقها

(١) سورة المؤمنون: آية ٥ - ٦ وسورة المعارج آية ٢٩ - ٣.

(١٦٦)

جميع أحكام الزوجات، من الميراث، والطلاق، والايلاء، والظهار، واللعان، لان احكام الزوجات تختلف، ألا ترى أن المرتدة تبين بغير طلاق، وكذلك المرتد عندنا، والكتابية لا ترث، وأما العدة فانها تلحقها عندنا، ويلحق بها أيضا الولد، فلا شناعة بذلك، ولولم تكن زوجة لجاز أن يضم ما ذكر في هذه السورة إلى ما في تلك الآية، لانه لا تنافي بينهما، ويكون التقدير: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم أو ما استمتعتم به منهن وقد استقام الكلام. وروي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب وسعيد بن جبير: أنهم قرأوا " فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى " وذلك صريح بما قلناه، على أنه لو كان المراد به عقد النكاح الدائم لوجب لها جميع المهر بنفس العقد، لانه قال: (فأتوهن أجورهن) يعني مهورهن، عند أكثر المفسرين، وذلك غير واجب بلاخلاف، وإنما يجب الاجر بكماله في عقد المتعة. وفي أصحابنا من قال: قوله: (أجورهن) يدل على أنه أراد المتعة، لان المهر لا يسمى أجرا، بل سماه الله صدقة ونحلة، وهذا ضعيف، لان الله سمي المهر أجرا في قوله (فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن) (١)

وقال: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) (٢)

ومن حمل ذلك كله على المتعة كان مرتكبا لما يعلم خلافه، ومن حمل لفظ الاستمتاع على الانتفاع فقد أبعد، لانه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم من لا ينتفع بها شئ من المهر، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزمه نصف المهر، وإن خلا بها خلوة تامة لزمه جميع المهر عند كثير من الفقهاء، وإن لم يلتذ ولم ينتفع.

وأما الخبر الذي يروونه أن النبي (صلى الله عليه وآله) نهى عن المتعة، فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته فتارة يروون أنه نهى عنها في عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها في عام الفتح، وقد طعن أيضا في طريقه بما هو معروف، وأدل دليل

على ضعفه قول عمر: (متعنتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما) فاخبر أن هذه المتعة كانت على

(١) سورة النساء: آية ٢٥. (٢) سورة المائدة: آية ٦. (*)

(١٦٧)

عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأنه الذي نهى عنهما، لضرب من الرأي. فان قالوا. إنما نهى لان النبي (صلى الله عليه وآله) كان نهى عنهما، قلنا: لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنهى عنهما، وأنا أنهى عنهما أيضا، فكان يكون أكد في باب المنع، فلما لم يقل ذلك دل على أن التحريم لم يكن صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وصح ماقلناه. وقال الحكم بن عتيبة، قال علي (ع) لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنا إلا شقي. وذكر البلخي، عن وكيع، عن اسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عبدالله بن مسعود: قال كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله) ونحن شباب، فقلنا يارسول الله ألا نستخصي، قال: لا، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، إلى أجل. وقوله: (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) قال الحسن، وابن زيد: أي تراضيتم به من حط بعض الصداق أو تأخيرها، أو هبة جميعه. وقال السدي وقوم من أصحابنا: معناه: لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة التي تراضيتم عليها، فتزويدها في الاجر وتزويدها في المدة. وفي الآية دلالة على جواز نكاح المرأة على عمتها وخالتها، لان قوله: (وأحل لكم ما وراء ذلكم) عام في جميعهن، ومن ادعى نسخه فعليه الدلالة، وما يروى من قوله (صلى الله عليه وآله): (لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها) خبر واحد لا ينسخ به القرآن، ولو كان معلوما لما جاز أن ينسخ به القرآن عند أكثر الفقهاء، لان نسخ القرآن لا يجوز عندهم بالسنة، وادعائهم الاجماع على الخبر غير مسلم، لانا نخالف فيه. وقوله: (إن الله كان عليما حكيما) معناه عليما بما يصلح أمر الخلق، حكيما فيما فرض لهم من عقد النكاح الذي به حفظت الاموال، والانساب. قال البلخي: والآية دالة على أن نكاح المشركين ليس بزنا. لان قوله: (والمحصنات من النساء) المراد به ذوات الازواج من أهل الحرب، بدلالة قوله: (إلا ما ملكت أيمانكم) بسببهن ولاخلاف أنه لايجوز وطى المسبية إلا بعد استبرائها بحيضة.

(١٦٨)

قوله تعالى:

(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن

بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان فاذا أحسن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم (٢٥)

- آية بلاخلاف -

القرأة، واللغة:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (فاذا أحسن) - بضم الهمزة وكسر الصاد - الباقون بفتحهما، وقرأ " المحصنات " - بكسر الصاد - الكسائي وحده، قوله: (ومن لم يستطع منكم طولا) معناه: من لم يجد منكم طولا وقيل في معنى الطول قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد: هو الغنى، وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

والثاني - قال ربيعة، وجابر، وعطاء، وإبراهيم: أنه الهوى، قال: إذا هوي الأمة فله أن يتزوجها وإن كان ذا يسار. وقال الحسن، والشعبي: لا يجوز ذلك، والقول الأول هو الصحيح، وعليه أكثر الفقهاء. والطول الغنى، وهو ماخوذ من الطول خلاف القصر، فشبه الغنى به، لأنه ينال به معالي الأمور، وقولهم ليس فيه طائل. أي: لا ينال به شيء من الفوائد، والتطول الافضال

(١٦٩)

بالمال، والتطول على الناس الترفع عليهم، وكذلك الاستطالة، وتقول: طلا فلان طولا، أي كأنه فضل عليه في القدرة، وقد طالت طولك وطيلك أي طالت مدتك، قال الشاعر:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل * وإن بليت وإن طالت بك الطيل (١)

والطول الحبل.

المعنى:

وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، لأنه قيد جواز العقد على الاماء إذا كن مؤمنات، وهو قول مالك بن أنس، ومجاهد، وسعيد بن عبدالعزيز، وأبي بكر بن عبدالله بن أبي مريم، والحسن، والطبري، وقال أبو ميسرة، وأبو حنيفة، وأصحابه: يجوز ذلك، لان التقيد هو على جهة الندب دون التحريم، والاول أقوى، لأنه الظاهر، وما قالوه عدول عنه. ومنهم من قال:

لان التأويل: من فتياتكم المؤمنات دون المشركات من عبدة الاوثان، بدلالة الآية التي في المائدة، وهي قوله تعالى: " والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم " (٢) وهذا ليس بشيء، لان الكتابية لاتسمى مؤمنة. ومن أجاز العقد على الكتابية له أن يقول: آية المائدة

مخصوصة بالحرائر منهن دون الاماء، وظاهر الآية يقتضي أن من وجد الطول من مهر الحرة ونفقتها، ولا يخاف من العنت. وهو مذهب الشافعي، غير أن أكثر أصحابنا قالوا: ذلك على وجه الافضل، لا أنه لو عقد عليها وهو غني كان العقد باطلا، وبه قال أبو حنيفة، وقووا ذلك بقوله:

" ولامة مؤمنة خير من مشركة " (٣) إلا أن من شرط صحة العقد على الامة عند أكثر الفقهاء، أن لاتكون عنده حرة، وهكذا عندنا، إلا أن ترضى الحرة

(١) قائله القطامي ديوانه: ٣٢ وجمهرة الاشعار: ٣١٣ والطيل جمع طيلة وهي الدهر.

(٢) سورة المائدة: آية ٦. (٣) سورة البقرة: آية ٢٢١.

(١٧٠)

بأن يتزوج عليها أمة، فان أذنت كان العقد صحيحا عندنا، ومتى عقد عليها بغير إذن الحرة كان العقد على الامة باطلا. وروى أصحابنا أن الحرة تكون بالخيار بين أن تفسخ عقد الامة، أو تفسخ عقد نفسها، والاول أظهر، لانه إذا كان العقد باطلا لا يحتاج إلى فسخه، فاما تزويج الحرة على الامة، فجائز، وبه قال الجبائي. وفي الفقهاء من منع منه، غير أن عندنا لا يجوز ذلك إلا باذن الحرة، فان لم تعلم الحرة بذلك كان لها أن تفسخ نكاحها، أو نكاح الامة، وفي الناس من قال: في عقده على الحرة طلاق الامة. وقوله: " من فتياكم المؤمنات " فالفتى الشاب، والفتاة الشابة، والفتاة الامة، وإن كانت عجوزا لانها كالصغيرة في أنها لاتوقر توقير الكبيرة، والفتوة حال الحدائث، ومنه الفتيا، تقول: أفتى الفقيه. يفتي لانه يسأله مسألة في حادثة. وقوله: " والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض " قيل في معناه قولان:

أحدهما - كلكم ولد آدم.

والثاني - كلكم على الايمان. ويجوز أن تكون الامة أفضل من الحرة، وأكثر ثوابا عندالله، وفي ذلك تسلية لمن يعقد على الامة، إذا جوز أن تكون أكثر ثوابا عندالله، مع اشتراكهم بأنهم ولد آدم، وفي ذلك صرف عن التغاير بالانساب. ومن كره نكاح الامة قال: لان الولد عندنا يلحق بالحرية في كلا الطرفين.

وقوله: " فانكحوهن باذن أهلهن " أي اعدوا عليهن باذن أهلهن، وفيه دلالة واضحة على أنه لايجوز نكاح الامة بغير اذن وليها الذي هو مالكها.

وقوله: " وآتوهن أجورهن " معناه: اعطوا مالكنهن مهورهن، لان مهر الامة لسيدها، " بالمعروف " وهو ما وقع عليه العقد وتراضي. وقوله:

" محصنات غير مسافحات " يعني بالعقد عليهن، دون السفاح معهن، " ولامتخذات أخدان " وقد بينا الفرق بين الخدن والسفاح فيما مضى، والخذن هو الصديق يكون للمرأة، بزني بها سرا، كذا كان في الجاهلية، والسفاح ماظهر منه، وكان

(١٧١)

فيهم من يحرم ما ظهر من الزنا، ولايحرم ماخفي منه، ذكر ذلك ابن عباس، وغيره من المفسرين. وخذن الرجل وخذينه صديقه.

وقوله: (فاذا أحصن) من قرأ بالضم، قال: معناه تزوجن، ذكر ذلك ابن عباس، وسعيد بن جببر، ومجاهد، وقتادة. ومن فتح الهمزة قال: معناه أسلمن، روي ذلك عن عمر، وابن مسعود، والشعبي، وابراهيم، والسدي. وقال الحسن: يحصنها الزوج، ويحصنها الاسلام، وهو الاولى، لانه لاخلاف أنه يجب عليها نصف الحد إذا زنت، وإن لم تكن ذات زوج، كما أن عليها ذلك وان كان لها زوج، لانه وإن كان لها زوج لايجب عليها الرجم، لانه لايتبعض، فكان عليها نصف الحد خمسين جلدة. على أن قوله: " فعليهن نصف ما على المحصنات " يعني نصف ما على الحرائر، وليس المراد به ذوات الازواج، فالاحصان المذكور للامة التزويج، والمذكور للمحصنات الحرية، وبيننا أنه يعبر به عن الامرين.

وقال بعضهم: إذا زنت الامة قبل أن تتزوج، فلا حد عليها، وإنما عليها نصف الحد إذا تزوجت بظاهر الآية.

وقوله: (ذلك لمن خشي العنت منكم)، فالعنت معناه ههنا الزنا في قول ابن عباس، وسعيد بن جببر، وعطية العوفي، والضحاك، وابن زيد. وقال قوم:

هو الضرر الشديد في الدين أو الدنيا، مأخوذ من قوله: " ودوا ما عنتم " (١) والاول أقوى، وقوله: " وإن تصبروا خير لكم " يعني: عن نكاح الاماء، في قول ابن عباس، وسعيد بن جببر، ومجاهد، وقتادة، وعطية. وأكمة عنوت صعبة المرتقى. ومتى اجتمع عند الرجل حرة وأمة كان للحره يومان وللامة يوم، وعندنا أن بيع الامة طلاقها، إلا أن يشاء المشتري إمضاء العقد، وكذلك الهبة، وكل ماينتقل به الملك من الميراث، والسبي، وغيره. فاما عتقها فانه يثبت به لها الخيار، كما ثبت لبريره، ومتى كانت تحت الزوج الحر أو عبد لغيره، لم يكن للمولى التفرقة بينهما، فان كانا جميعا له كان التفرقة إلى المولى.

(١) سورة آل عمران: ١١٨. (*)

(١٧٢)

واستدلّت الخوارج على بطلان الرجم بهذه الآية، قالوا: لما قال الله تعالى: (فعلّيهن نصف ما على المحصنات من العذاب)، وكان الرجم لا يمكن تبويضه، دل على أنه لأصل له، وعلى ما بيناه من أن المراد فعلّيهن نصف ما على الحرائر، دون ذوات الأزواج، يسقط هذا السؤال. ويدل على أن الاحصان يعبر به عن الحرية زائداً على ما تقدم، قوله في أول الآية: (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم) ولا شك أنه أراد الحرة أو العفائف، لأن التي لها زوج لا يمكن العقد عليها، وجد طولها أولم يجد، وقوله:

(والذين يرمون المحصنات) يدل عليه أيضا، لأن المراد به المسلمة الحرة، سواء كانت ذات زوج أولم تكن، بلاخلاف. والرجم معلوم من دين المسلمين بالتواتر فانهم لا يختلفون أنه (صلى الله عليه وآله) رجم معاذ بن مالك الأسلمي، ورجم يهوديا ويهودية، وعليه جميع الفقهاء من عهد الصحابة إلى يومنا هذا، فخلاف الخوارج لا يلتفت إليه. وفي الناس من قال: إن قوله: " أن ينكح المحصنات " المراد به الحرائر دون أن نكون مختصا بالعفائف، لأنه لو كان مختصا بالعفائف لما جاز العقد على من ليس كذلك، لأن قوله: " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة " إلى قوله: " وحرّم ذلك على المؤمنين " (١) منسوخ بالاجماع، وبقوله: " فانكحوا ما طاب " (٢)

وبقوله: " وانكحوا الإيامي " (٣) ويمكن أن يخص بالعفائف على الأفضل دون الوجوب، وقوله: " فعلّيهن " معناه لازم لهن نصف ما يلزم المحصنات، دون أن يكون ذلك واجبا عليهن، وقوله: " وان تصبروا " في موضع رفع، والتقدير والصبر عن نكاح الأمة خير لكم. وفي الآية تقديم وتأخير، لأن التقدير: " ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم " أي فلينكح مما ملكت أيمانكم (من فتياتكم المؤمنات بعضكم من بعض والله أعلم بايمانكم) ذكره الطبري وهو جيد مليح.

(١) سورة النور: آية ٣. (٢) سورة النساء: آية ٣. (٣) سورة النور: آية ٣.

(١٧٣)

قوله تعالى: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) (٢٦) - آية بلاخلاف.

الاعراب:

اللام في قوله: (ليبين لكم) للنحويين فيه ثلاثة أقوال:

أولها - قال الكسائي، والفراء، والكوفيون: إن معناها (أن)، وإنما لايجوز ذلك في أردت وأمرت لأنها تطلب الاستقبال، لايجوز أردت أن قمت، ولا أمرت أن قمت فلما كانت (أن) في سائر الافعال تطلب الاستقبال، استوثقوا له باللام، وربما جمعوا بين اللام وكي لتأكيد الاستقبال، قال الشاعر:

أردت لكيما لاترى لي عثرة * ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل (١)
وقال الفراء: ربما جاء مع غير الارادة والامر، أنشدني بن الجراح:
أحاول إنا اتي بما قال أم رجا * ليضحك مني أو ليضحك صاحبه (٢)
ومعناه: رجا أن يضحك، ومثله: (وأمرنا لنسلم) (٣) وفي موضع آخر. (أمرت أن أكون أول من أسلم) (٤) وربما جمعوا بين اللام وكي وأن، قال الشاعر:
أردت لكيما أن تطير بقربتي * ففتركها شنا ببببلاء بلقع (٥)

(١) معاني القرآن ١: ٢٦٢ أنشده أبوتروان. وفي شواهد الهمع ٢: ٥ روايته (تراني عشيرتي) بدل (تري لي عثرة).

(٢) معاني القرآن ١: ٢٦٢ قائله أبو الجراح الانفي من بني انف الناقية. وكان في المخطوطة والمطبوعة هكذا
أحاول اعدائي بما قال أم رجا * فيضحك مني أو ليضحك صاحبه
(٣) سورة الانعام: آية ٧١ (٤) سورة الانعام: آية ١٤.
(٥) لم يعرف قائله. معاني القرآن ١: ٢٦٢ والانصاف: ٢٤٢ والخزانة ٣: ٥٨٥.
والعيني (هامش الخزانة) ٤: ٤٠٥، وحاشية الصبان ٣: ٢٨٠. قوله (أن تطير) كناية عن الهرب، والشن: الخلق البالي، والبببلاء: المغازة المهلكة، والبلقع: الارض الفقراء.

(١٧٤)

ولايجوز في الظن أن تقع اللام بمعنى أن، لان الظن يصلح معه الماضي والمستقبل، نحو: ظننت أن قمت، وظننت أن تقوم، ولايجوز: ظننت لتقوم بمعنى: ظننت أن تقوم.
الثاني - قال الزجاج لايجوز أن تقع اللام بمعنى أن، واستشهد بقول الشاعر:
أردت لكيما يعلم الناس إنها * سراويل سعد والوفود شهود
فلو كانت بمعنى أن لم تدخل على كي، كما لا تدخل أن على كي، قال: الرماني:
ولقائل أن يقول: إن هذه لام الاضافة مردودة إلى أصلها، فلا يجب وقوع أن موقعها، ومذهب سيبويه وأصحابه أن اللام دخلت في هذا على تقدير المصدر، أي: ارادة للبيان لكم، نحو قوله:
(إن كنتم للرؤيا تعبرون) (١) (وردف لكم بعض الذي تستعجلون) (٢) ومعناه: إن كنتم تعبرون الرؤيا، قال كثير:

أريد لانسى ذكرها فكأنما * تمثل لي ليلي بكل سبيل

أي: إرادتي لهذا.

الثالث - ضعف هذين الوجهين بعض النحويين، بأن جعل اللام بمعنى (أن) لم تقم به حجة قاطعة، وحمله على المصدر يقتضي جواز ضربت لزيد بمعنى ضربت زيدا، وهذا لا يجوز، ولكن يجوز في التقديم، نحو لزيد ضربت وللرؤيا تعبرون، لان عمل الفعل في التقديم يضعف، كعمل المصدر في التأخير، ولذلك لم يجز إلا في المتصرف، فاما " ردف لكم " فعلى تأويل: ردف ما ردف لكم، وعلى ذلك يريد ما يريد لكم، وكذلك قوله: " وأمرنا لنسلم " (٣) أي أمرنا بما أمرنا لنسلم، فهي تجري بهذا على أصولها، وقياس بابها. وقال قوم معناه: يريد الله هذا من أجل أن يبين لكم، كما قال: " وأمرت لأعدل بينكم " (٤) معناه: وأمرت بهذا من أجل ذلك، وإنما لم يجز أن يراد الماضي لامرين: أحدهما - أن الإرادة لاستدعاء الفعل، ومحال أن يستدعي ما قد فعل، كما

(١) سورة يوسف: آية ٤٣. (٢) سورة النمل: آية ٧٢.

(٣) سورة الانعام: آية ٧١. (٤) سورة الشورى: ١٥.

(١٧٥)

أنه محال أن يؤمر بما قد وقع، لانه لا يحسن أن يقول: إفعل أمس، أو أريد أمس. والثاني - أن بالارادة يقع الفعل على وجه دون وجه، من حسن أو قبح، أو طاعة أو معصية، وذلك محال فيما مضى.

المعنى:

وقوله: " ويهديكم سنن الذين من قبلكم " قيل فيه قولان:

أحدهما - " يهديكم سنن الذين من قبلكم " من أهل الحق، لتكونوا على الاقتداء بهم في اتباعه لما لكم فيه من المصلحة.

الثاني - (سنن الذين من قبلكم) من أهل الحق، لتكونوا على بصيرة فيما تفعلون أو تجتنبون من طرائقهم، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لان الله تعالى بين أنه يريد أن يتوب على العباد، وهم يزعمون أنه يريد منهم الاصرار على المعاصي. وقال أبو علي الجبائي: في الآية دلالة على أن ما ذكر في الآيتين من تحريم النكاح أو تحليله، قد كان على من قبلنا من الامم، لقوله تعالى: " ويهديكم سنن الذين من قبلكم " أي في الحلال والحرام. قال الرماني:

لا يدل ذلك على اتفاق الشريعة، وإن كنا على طريقتهم في الحلال والحرام، كما لا يدل عليه وإن كنا على طريقتهم في الاسلام، وهذا هو الاقوى.

قوله تعالى:

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) - آية - .
المعنى:

معنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه يريد من المواجهين بها، أن يتوب

(١٧٦)

عليهم، بمعنى أن يقبل توبتهم، عما سلف من آثامهم، ويتجاوز عما كان منهم في الجاهلية، من استحلالهم ما هو حرام عليهم من حلائل الآباء والابناء، وغير ذلك مما كانوا يستحلونه، وهو حرام عليهم. إن قيل: لم كرر قوله: " والله يريد أن يتوب عليكم "؟ مع ما تقدم من قوله: " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم " قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه لما في الاول، وتقديره: يريد الله ليتوب عليكم أنى في الثاني ب (أن) ليزول الإيهام أنه يريد ليتوب، ولا يريد (٣) أن يتوب علينا.

والآخر - أن يبين أن إرادته منا خلاف إرادة أصحاب الأهواء لنا، لنكون على بصيرة من أمرنا، وجاء الثاني على التقابل، بأن الله يريد شيئا ويريدون خلافه.

والمعنى: بقوله: " ويريد الذين يتبعون الشهوات " قيل فيه أربعة أقوال:

الاول - قال ابن زيد: كل مبطل، لانه يتبع شهوة نفسه في باطله.

الثاني - قال مجاهد: يعني به: الزناة.

الثالث - قال السدي: هم اليهود والنصارى.

الرابع - اليهود خاصة، لانهم يحلون نكاح الاخت من الاب، والاول أقوى، لانه أعم فائدة، وأوفق لظاهر اللفظ. وقوله: " أن تميلوا ميلا عظيما " معناه أن تعدلوا عن الاستقامة بالاستكثار من المعصية، وذلك أن الاستقامة هي المؤدية إلى الثواب، والفوز بالسلامة من العقاب، وأما الميل عن الاستقامة فيؤدي إلى الهلاك واستحقاق العقاب. فان قيل: ما معنى إرادتهم الميل بهم؟ قيل قد يكون ذلك لعداوتهم، وقد يكون لتمام الانس بهم في المعصية، فبين الله أن إرادته لهم خلاف إرادتهم منهم، وليس في الآية ما يدل على أنه لايجوز اتباع داعي الشهوة في شئ البتة، لانه لاخلاف أن اتباع الشهوة فيما أباحه الله تعالى جائز، وإنما المحذور من

(١) في المخطوطة (ولانه يريد) بدل (ولا يريد).

(١٧٧)

ذلك ما يدعو إلى ما حرمه، لكن لا يطلق - على - (١) صاحبه بانه متبع للشهوة، لان إطلاقه يفيد اتباع الشهوة فيما حرم عليه.

قوله تعالى:

(يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) (٢٨)

- آية بلاخلاف -.

المعنى واللغة:

معنى قوله: " يريد الله أن يخفف عنكم " ههنا أي في نكاح الاماء، لان الانسان خلق ضعيفا في أمر النساء، هذا قول مجاهد، وطاووس، وزيد. وأصل التخفيف خفة الوزن، والتخفيف على النفس بالتييسير، كخفة الحمل بخفة الوزن، ومنه الخفافة النعامة السريعة، لانها تسرع أسراع الخفيف الحركة، والخفوف السرعة، ومنه الخف الملبوس لانه يخف به التصرف، ومنه خف البعير. والمراد بالتخفيف ههنا تسهل التكليف، بخلاف التصعب فيه، فتحليل نكاح الاماء تيسير بدلا من تصعيب، وكذلك جميع ما يسره الله لنا إحسانا منه إلينا، ولطفا بنا.

فان قيل: هل يجوز التثقيل في التكليف، مع خلق الانسان ضعيفا عن القيام به بدلا من التخفيف؟ قيل: نعم إذا أمكنه القيام به، وإن كان فيه مشقة، كما ثقل التكليف على بني اسرائيل في قتل أنفسهم، غير أن الله لطف بنا فكلما ما يقع به صلاحنا، بدلا من فسادنا. وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: ان الله يكلف عباده ما لا يطيقون، لان ذلك مناف لارادة التخفيف عنهم في التكليف، من حيث أنه غاية التثقيل. وقوله: " وخلق الانسان ضعيفا " أي يستميله هو اه.

قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا

(١) في المخطوطة والمطبوعة (لصاحبه) يدل (على صاحبه).

(١٧٨)

أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا) (٢٩) - آية واحدة بلاخلاف -.

القراءة، والاعراب:

قرأ أهل الكوفة: " تجارة " نصبا، الباقيون: بالرفع، فمن رفع ذهب إلى أن معناه: إلا أن تقع تجارة، ومن نصب فمعناه: إلا أن تكون الاموال تجارة، أو أموال تجارة، وحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، ويكون الاستثناء منقطعاً، ويجوز أن يكون التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، كما قال الشاعر:

إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا (١)

وتقديره: إذا كان اليوم يوما ذا كواكب، ذكره أبو علي النحوي. وقال الرماني التقدير: إلا أن تكون الاموال تجارة، ولم يبين. والقول ما قال أبو علي، لان الاموال ليست تجارة. ومن شأن خبر كان أن يكون هو إسمها في المعنى.

وقيل: الرفع إقوى، لانه أدل في الاستثناء على الانقطاع، فان التحريم لاكل المال بالباطل على الاطلاق. وفي الناس من زعم أن نصبه على قول الشاعر:

إذا كان طعنا بينهم وعناقا (٢)

أي إذا كان الطعن طعنا. قال الرماني: وهذا ليس بقوي، لان الاضمار قبل الذكر ليس يكثر في مثل هذا، وإن كان جائزا، فالرفع يغني عن الاضمار فيه. المعنى:

وفي معنى قوله: " لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " قولان:

أحدهما - قال السدي: بالربا، والقمار، والبخس، والظلم، وهو المروي عن

(١) لم يعرف قائله معاني القرآن للفراء ١: ١٨٦ وسيبويه ١: ٢٢ وصدده:

ولله قومي أي قوم لحره (٢) لم يعرف قائله معاني القرآن ١: ١٨٦ وصدده: أعني هلا تبيكان عفاقا. وعفاق: اسم رجل.

(١٧٩)

أبي جعفر (ع).

الثاني - قال الحسن: بغير استحقاق من طريق الاعواض. وكان الرجل يتخرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، إلى أن نسخ ذلك بقوله في سورة النور: " ولاعلى أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم.. " إلى قوله: " جميعا أو أشتاتا " (١) والاول أقوى، لان ما أكل على وجه مكارم الاخلاق فليس هو أكل بالباطل. وقيل: معناه التخاون، ولذلك قال: " بينكم " .

وقوله: " إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " فيه دلالة على بطلان قول من حرم المكاسب، لانه تعالى حرم أكل الاموال بالباطل، وأحله بالتجارة على طريق المكاسب. ومثل قوله: " وأحل الله البيع وحرم الربا " (٢) وقيل في معنى التراضي بالتجارة قولان:

أحدهما - إمضاء البيع بالتفرق، أو بالتخاير بعد العقد في قول شريح، وابن سيرين، والشعبي، لقوله (صلى الله عليه وآله): البيعان بالخيار مالم يتفرقا أو يكون بيع خيار. وربما قالوا: أو يقول أحدهما للآخر اختر، وهو مذهبنا.

الثاني - إمضاء البيع بالعقد - على قول مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، - ومحمد - بعله رده إلى عقد النكاح، ولاخلاف أنه لاخيار فيه بعد الافتراق، وقيل: معناه إذا تغابنوا فيه مع التراضي فانه جائز.

وقوله: " ولا تقتلوا أنفسكم " قيل فيه: ثلاثة أقوال:
أحدها - قال عطاء، والسدي، وأبو علي الجبائي، والزجاج: لا يقتل بعضهم بعضا من حيث كانوا أهل دين واحد، فهم كالنفس الواحدة، كما يقول القائل: قتلنا ورب الكعبة، ومعناه قتل بعضنا، لأنه صار كالقتل لهم، ومثله قوله: " فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم " (٣).
الثاني - قال البلخي: فيه نهي عن قتل نفسه في حال غضب، أو زجر، (١) سورة النور: آية ٦١. (٢) سورة البقرة: آية ٢٧٥.
(٣) سورة النور: آية ٦١.

(١٨٠)

والاول أقوى، لأنه أكثر وأغلب، وأيضا فإنه إذا حرم عليه قتل غيره من أهل دينه، لأنه بمنزلة قتل نفسه، فقد حرم عليه قتل نفسه.
الثالث - قال قوم: معناه: لا تقتلوا أنفسكم، بان تهلكوها بارتكاب الآثام، والعدوان في أكل المال بالباطل، وغيره من ارتكاب المعاصي، التي تستحقون بها العقاب. وروي عن أبي عبد الله (ع): أن معناه لاتخاطروا بنفوسكم في القتال، فتقاتلون من لاتطيقونه.
وقوله: " إن الله كان بكم رحيمًا " قال ابن عباس: كان صلة، والمعنى إن الله غفور رحيم، ويحتمل أن يكون المراد: " إن الله كان بكم رحيمًا " حيث كلفكم الامتناع من أكل المال بالباطل الذي يؤدي إلى العقاب، وحرّم عليكم قتل نفوسكم التي حرّمها عليكم، ويعلم انه رحيم فيما بعد بدليل آخر.
قوله تعالى:
(ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) (٣٠) - آية
بلاخلاف -
المعنى:

قيل في تعليق الوعيد والاشارة بقوله: " ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما... " الآية، أربعة أقوال:
أولها - وهو أقواها - انه على أكل الاموال بالباطل، وقتل النفس بغير حق، والوعيد بكل واحدة من الخصلتين، لان الوعيد ذكر عقيب ذكر النهي عن الامرين، وهو اختيار الطبري.
الثاني - قال عطاء: هو على قتل النفس المحرمة خاصة.
الثالث - على فعل كلما نهى الله عنه، من أول السورة.
الرابع - أنه راجع إلى قوله: " يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا

(١٨١)

النساء كرها " (١) لان ما قبله مقرون بالوعيد.
وقوله: (وكان ذلك على الله يسيرا) معناه: أنه قادر على إنجاز الوعيد، لا يمكن صاحبه الامتناع منه، ولا الهرب منه، فيتعذر الايقاع به، فيجب أن تنزلوا الوعيد منزلته، وتكونوا على بصيرة فيه، غير مغترين بأمر يصرف عنه، وإنما قيد قوله: " ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما " لان من وقع منه قتل النفس على وجه السهو والخطأ في خلاف المراد، لم يتناوله الوعيد، وكذلك إذا أكل من أموال الناس على وجه مباح، لم يتوجه إليه الوعيد. والعدوان تجاوز ما أمر الله به، والظلم أن يأخذه على غير وجه الاستحقاق، وأصله وضع الشيء في غير موضعه، وفي المرجئة من قال: إنما قيد بذلك لان المراد من استحل أكل المال بالباطل، واستحل أيضا قتل النفوس، وذلك لا يكون إلا كافرا، فلذلك هدده بالوعيد المخصوص، فأما إذا فعل ذلك محرما له، فإنه يجوز أن يعفو الله عفو، فلا يتناوله الوعيد قطعا على كمال حال، ولو لم تحمل الآية على المستحلين، لامكننا أن نخص الآية بمن لا يعفو الله عنه، كما أنهم لابد لهم أن يخصوها بمن لم يتب من ذلك ولا تكون معصية صغيرة، فليس في الآية ما يمنع من القول بجواز العفو.

وإنما قال: (وكان ذلك على الله يسيرا) وإن كان يسيرا عليه الآن وفي مستقبل الاوقات، ليعلم أن الاوقات متساوية في ذلك على كل حال، ولايجوز أن يقال قياسا على ذلك وكان الله قديما، لان قولنا قديم أغنى عن كان، إذ لم يختص بالحال بل أفاد الوجود في الازل، فلا معنى لادخال كان فيه. واليسير السهل، يقال: يسر الشيء إذا سهل فهو يسير، وعسر فهو عسير، إذا لم يتسهل.

قوله تعالى:

(إن تجتربوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) (٣١) - آية -.

(١) سورة النساء: آية ١٩. (*)

(١٨٢)

القراءة، والحجة:

قرأ نافع، وأبو بكر، عن عاصم: مدخلا - بفتح الميم - الباقون بضمها، وهو الأقوى، لانه من ادخلوا والآخر جائز، لان فيه معنى: فيدخلون، وليس كقول الشاعر:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا * بالخير صبحنا ربي ومسانا (١)

ويروى بفتح الميم فيهما، أنشده البلخي في البيت، لأنه ليس فيه فعل، ولكن قد حكي بالفتح على التشبيه بالاول، ويحتمل أن يكون من قرأ بفتح الميم أراد: مكانا كريما، كما قال: " ومقام كريم " (٢) وقرأ المفضل، عن عاصم " يكفر " " ويدخلكم " بالياء فيهما، الباقر بالنون، وهو الاجود، لأنه وعد على وجه الاستئناف، فالاحسن ألا يعلق بالاول من جهة ضمير الغائب، واختاره الاخفش، ومن قرأ بالياء رده إلى ذكر الله في قوله: " إن الله كان بكم رحيمًا ".
المعنى:

والمعاصي وإن كانت كلها عندنا كبائر، من حيث كانت معصية الله تعالى، فإنا نقول: إن بعضها أكبر من بعض، ففيها إذا كبير بالإضافة إلى ما هو أصغر منه. وقال ابن عباس: كلما نهى الله عنه فهو كبير. وقال سعيد بن جبیر: كلما أوعد الله عليه النار فهو كبير، ومثله قال أبو العالية، ومجاهد، والضحاك. وعند المعتزلة أن كل معصية توعد الله تعالى عليها بالعقاب، أو ثبت ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) أو كان بمنزلة ذلك، أو أكبر منه، فهو كبير، وما ليس ذلك حكمه فإنه يجوز أن يكون صغيرا، ويجوز أن يكون كبيرا، ولا يجوز أن يعين الله الصغائر، لأن في تعيينها الاغراء بفعلها، فمن المعاصي المقطوع على كونها كبائر: قذف المحصنات:

(١) قائله أمية بن أبي الصلت. ديوانه: ٦٢ ومعاني القرآن للقراء ١: ٢٦٤ والخزائفة ١: ١٢٠، واللسان (إمسي).

(٢) سورة الشعراء: آية ٥٩. وسورة الدخان: آية ٢٦

(١٨٣)

وقتل النفس التي حرم الله، والزنا، والربا، والفرار من الزحف في قول ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك، ومثله عن أبي عبد الله (ع)، وزاد: وعقوق الوالدين، والشرك، وإنكار الولاية. وقال ابن مسعود: كلما نهى الله عنه، من أول السورة إلى رأس الثلاثين، فهو كبير. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: عقوق الوالدين، وشهادة الزور، كبير.

فعلى مذهب المعتزلة: من اجتنب الكبائر، وواقع الصغائر، فإن الله يكفر الصغائر عنه، ولا يحسن مع اجتتاب الكبائر عندهم المؤأخذة بالصغائر، ومتى أخذ بها كان ظالما. وعندنا أنه يحسن من الله تعالى ان يؤأخذ العاصي بأي معصية فعلها، ولا يجب عليه إسقاط عقاب معصية لمكان اجتتاب ما هو أكبر منها، غير أننا نقول: إنه تعالى وعد تفضلا منه أن من اجتنب الكبائر فإنه يكفر عنه ماسواها، بان يسقط عقابها عنه تفضلا، ولو أخذ بها لم يكن ظالما، ولم يعين

الكبائر التي إذا اجتنبها كفر ما عداها، لانه لو فعل ذلك لكان فيه إغراء بما عداها، وذلك لايجوز في حكمته تعالى. وقوله: " إن تجتنبوا كبائر " معناه من تركها جانبا والمدخل الكريم: هو الطيب الحسن المكرم بنفي الآفات والعاهات عنه. وقوله تعالى:

(ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شئ عليما) (٣٢) - آية بلاخلاف - . القراءة: قرأ ابن كثير، والكسائي " وسلوا " بغير همزة، وكذلك كلما كان أمر للمواجه في جميع القرآن، الباقرن بالهمزة، ولم يختلفوا في: " وليسألوا ما انفقوا " (١)

(١) سورة الممتحنة: آية ١٠. (*)

(١٨٤)

لانه أمر لغائب. قال أبو علي الفارسي. كلاهما جيد، إن ترك الهمزة واثباتها. النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت: (يارسول الله لانغزو مع الرجال، ولنا نصف الميراث، ياليت كنا رجالا، فكنا نقاتل معهم) فنزلت هذه الآية، في قول مجاهد. وقال الزجاج: قال الرجال: ليتنا كنا فضلنا في الآخرة على النساء، كما فضلنا عليهن في الدنيا، وبه قال السدي.

اللغة:

والتمني هو قول القائل: ليت كان كذا لم يكن، وليت لم يكن كذا لما كان. وفي الناس من قال: هو معنى في القلب. وقال الرماني: هو ما يجب على جهة الاستمتاع به، ومن قال: هو معنى في القلب قال: ليس هو من قبيل الشهوة، ولا من قبيل الارادة، لان الارادة لاتتعلق إلا بما يصح حدوثه، والتمني قد يتعلق بما مضى، والشهوة أيضا كالارادة في أنها لاتتعلق بما مضى.

المعنى:

وظاهر الخطاب يقتضي تحريم تمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض وقال الفراء: هو على جهة الندب والاستحباب، والاول هو حقيقة التمني، والذي قلناه هو قول أكثر المفسرين، ووجه تحريم ذلك أنه يدعو إلى الحسد، وأيضا فهو من دنايا الاخلاق، وأيضا فان تمنى الانسان لحال غيره قد يؤدي إلى تسخط ما قسم الله له، ولايجوز لاحد أن يقول ليت مال فلان لي، وإنما يحسن أن يقول: ليت مثله لي.

وقال البلخي: لايجوز للرجل أن يتمنى أن كان امرأة، وللمرأة أن تتمنى لو كانت رجلا، بخلاف ما فعل الله، لان الله لايفعل من الاشياء إلا ما هو أصلح، فيكون قد تمنى ما ليس بأصلح، أو ما يكون مفسدة. ويمكن أن يقال: إن ذلك يحسن بشرط أن لا يكون مفسدة، كما يقول في حسن السؤال سواء.

(١٨٥)

وقوله: (وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) قيل في معناه أقوال: أحدها - أن لكل واحد حظا من الثواب على حسب ما كلفه الله من الطاعات بحسن تدبيره، فمتى فعل ذلك استحق به علو المنزلة، فلاتتمنوا خلاف هذا التدبير، لما فيه من حرمان الحظ الجزيل.

الثاني - أن كل أحد إنما له جزء ما اكتسب، فلا يضيعه بتمني ما لغيره، مما يؤدي إلى إبطال عمله، فكأنه قيل: لاتضيع ما هو لك، بتمني ما لغيرك.

والثالث - أن لكل فريق من الرجال والنساء نصيبا مما اكتسب من نعيم الدنيا، بالتجارات والزراعات وغير ذلك من أنواع المكاسب، فينبغي أن يقنع ويرضى بما قسم له. وروي عن ابن عباس أنه قال: ذلك في الميراث، للرجال نصيب منه، وللنساء نصيب منه. والاجوبة الاولى أقرب، لان الميراث ليس مما يكتسبه الرجال والنساء، وإنما هو شئ يورثهم الله تعالى، والآية تضمنت أن لهم نصيبا مما اكتسبوا، وذلك لايليق إلا بما تقدم.

وقوله: (واسألوا الله من فضله) معناه: إن احتجتم إلى ما لغيركم، فاسألوا الله أن يعطيكم مثل ذلك من فضله، بشرط أن لا يكون فيه مفسدة لكم ولا لغيركم، لان المسألة لاتحسن إلا كذلك، وقال سعيد بن جبير: واسألوا الله العباد، وبه قال السدي،، ومجاهد.

وقوله: (إن الله كان بكل شئ عليما) معناه: إنه قسم الارزاق على ما علمه من الصلاح للعباد، بدلا من الفساد، فينبغي أن ترضوا بما قسمه، وتسألوه من فضله، غير منافسين لغيركم في عطيته.

قوله تعالى:

(ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والا قربون والذين

(١٨٦)

عقدت أيمانكم فاتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شئ شهيدا)

(٣٣) - آية بلاخلاف - .

القراءة، والاعراب، والحجة قرأ أهل الكوفة " عقدت " بغير ألف، الباقون بألف، فمن قرأ باثبات الالف، قال: لان المعاقدة تدل على عقد الحلف باليمين من الفريقين، وقال بعضهم إنه يعني عن ذلك جميع الايمان، قال الرماني: هذا خطأ، لانها قد تجمع لردّها على أحد الفريقين الحالف بها، قال أبو علي الفارسي: الذكر الذي يعود من الصلة إلى الموصول ينبغي أن يكون منصوباً، فالتقدير: والذين عاقدتم أيمانكم، فجعل الايمان في اللفظ هي المعاقدة، والمعنى على الحالفين الذين هم أصحاب الايمان، فالمعنى: والذين عاقدت حلفهم أيمانكم، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فعاقدت أشبه بهذا المعنى، لان لكل نفس من المعاقدين يمينا على المحالفة. ومن قال: " عقدت أيمانكم " كل المعنى: عقدت حلفهم أيمانكم، فحذف الحلف، وأقام المضاف إليه مقامه، والاولون حملوا الكلام على المعنى، حيث كان من كل واحد من الفريقين يمين، ومن قال: " عقدت " حمل على اللفظ، لفظ الايمان، لان الفعل لم يسند إلى أصحاب الايمان في اللفظ، وإنما أسند إلى الايمان.

المعنى واللغة:

ومعنى الآية جعلنا الميراث لكل من هو مولى الميت، والموالي المذكورون في الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: هم العصابة، وقال السدي: هم الورثة: وهو أقواها، والتقدير ولكلكم جعلنا ورثة مما ترك الوالدان والاقربون، ثم استأنف: والذين وأصل المولى من ولي الشئ يليه ولاية، وهو الاتصال للشئ بالشئ، من غير فاصل، والمولى على وجوه: فالمولى المعتق، والمولى المعتق، والمولى العصابة،

(١٨٧)

والمولى ابن العم، والمولى الحليف، والمولى الولي، والمولى الاولي بالشئ واللاحق. فالمعتق مولى النعمة بالعنق، والمعتق لانه مولى النعمة، والمولى الورثة، لانهم أولى بالميراث، والمولى الحليف، لانه يلي المحالف أمره بعقد اليمين، والمولى ابن العم، لانه يلي النصره لتلك القرابة، والمولى الولي، لانه يلي بالنصرة. وفي التنزيل: (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم) (١) أي لاناصرلهم، وهو ناصر المؤمنين، والمولى السيد. لانه أولى بمن يسوده. قال الاخطل:

فاصبحت مولاها من الناس كلهم * وأحرى قريش أن تهاب وتحمدا

والمولى الاولى واللاحق، ومنه قوله (ع): (أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل) أي بغير إذن من هو أولى بها وأحق. وقال الفضل ابن العباس في المولى بمعنى ابن العم:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا * لاتظهرون لنا ما كان مدفونا (٢)

والمراد بقوله: (والذين عاقدت أيمانكم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سعيد بن جبير، وقتادة، وعامر، والضحاك: إنهم الحلفاء.
الثاني - قال الحسن، وسعيد بن المسيب: هم رجال كانوا يتبنون، على عادة الجاهلية. ليجعل لهم نصيب من الوصية، ثم هلكوا، فذهب نصيبهم بهلاكهم.
الثالث - في رواية أخرى عن ابن عباس، وابن زيد أنهم قوم آخى بينهم رسول الله (صلى الله عليه وآله). والاول أقوى وأظهر في أقوال المفسرين.
وقال أبو مسلم: أراد بذلك عقد المصاهرة والمناكحة. وقال أبو علي:
الحليف لم يؤمر له بشئ أصلاً، لأنه عطف على قوله "ترك الوالدان والاقربون" أي: وترك الذين عاقدت أيمانكم، فأتوا كلا نصيبه من الميراث. وهذا ضعيف لأنه

(١) سورة محمد: آية ١١.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٢٥ والكامل للمبرد ٢: ٢٧٩ والحامسة للبحري ١: ١٢١ واللسان (ولي) وقد روي:

لا تبتشوا بيننا ما كان مدفونا

(١٨٨)

يفيد التكرار، لان قوله: "الوالدان والاقربون" عام في كل أحد. وعلى ما قال المفسرون، يكون قوله: (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان) إذا كانوا مناسبين له، ثم استأنف حكم الحلفاء، فقال: "فأتوهم نصيبهم". فان قيل: بم يتصل قوله:
"مما ترك الوالدان" وما العامل فيه؟ قيل فيه قولان:
أحدهما - يتصل ب (موالى) على جهة الصفة، والعامل الاستقرار، كأنه قال:
موالى مما خلف الوالدان والاقربون، والذين عاقدت أيمانكم من الورثة.
الثاني - يتصل بمحذوف، والتقدير: موالى يعطون مما ترك الوالدان والاقربون، والذين عاقدت أيمانكم من الميراث. وقال أبو علي الجبائي تقديره:
ولكل شئ مما ترك الوالدان والاقربون وارث من الميراث. قال الرمانى: وهذا لا يجوز، لأنه فصل بين الصفة والموصوف بما عمل في الموصوف، نحو: لكل رجل - جعلت درهما - فقير.

والنصيب الذي أمر به للحليف قيل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعامر، والضحاك: انه نصيب على ما كانوا يتوارثون بالحلف في الجاهلية، ثم نسخ ذلك بقوله: "وألوا الارحام بعضهم أولى ببعض".

الثاني - في رواية أخرى عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والسدي: انه النصيب من النصره والنصيحة دون الموارثة، فعلى هذا الآية غير منسوخة.
وروي عنه أنه قال: لالحلف في الاسلام، فأما ما كان في الجاهلية فلم يزد الاسلام إلا شدة.
وقوله: (إن الله كان على كل شئ شهيدا) أي: شاهدا، وذلك دال على أنه عالم به، لانه لا يشهد إلا بما علم.
قوله تعالى:

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع

(١٨٩)

واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا) (٣٤) - آية بلاخلاف -.

القراءة والنزول:

قرأ أبو جعفر المدني: " بما حفظ الله " - بالنصب - ومعناه: بالذي حفظ الله، ويحتمل أن يكون معناه: بحفظ الله وهو ضعيف، لانه يكون حذف الفاعل وهو ضعيف.
وسبب نزول هذه الآية ما قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج، والسدي:
أن رجلا لطم امرأته فجاءت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) تلتمس القصاص، فنزلت الآية:
" الرجال قوامون على النساء " .

المعنى واللغة:

والمعنى: (الرجال قوامون على النساء) بالتأديب والتدبير لما " فضل الله " الرجال على النساء في العقل والرأي. وكان الزهري يقول: ليس بين الرجل وامرأته قصاص فيما دون النفس.
ويقال: رجل قيم، وقوام، وقيام. ومعناه:

إنهم يقومون بأمر المرأة بالطاعة لله ولهم. وقوله: (فالصالحات قانتات) قال قتادة: وسفيان: معنى (قانتات) مطيعات لله ولازواجهن. وأصل القنوت دوام الطاعة، ومنه القنوت في الوتر لطول القيام. وقوله: " حافظات للغيب بما حفظ الله " معناه، قال قتادة، وعطاء، وسفيان: حافظات لما غاب عنه أزواجهن من ماله، وما يجب من رعايته وحاله، وما يلزم من صيانتها نفسها له، " وبما حفظ الله " قال عطاء، والزجاج: أي بما حفظهن الله في مهورهن، وألزم الزوج النفقة عليهن. وقال بعضهم: معناه، والله أعلم: بالشئ الذي يحفظ أمر الله، ودين الله.
وقوله: " واللاتي تخافون " قيل فيه قولان:

أحدهما - تعلمون، لان خوف النشز للعلم بموقعه، فلذلك جاز أن توضع

(١٩٠)

مكان تعلم، كما قال الشاعر:

ولاتفني بالفلاة فاني * أخاف إذامت ألا أدوقها (١)

وقال آخر:

أتاني كلام عن نصيب يقوله * وماخفت ياسلام انك عائي (٢)

وقال الفراء: معناه: ماظنت، ومنه قوله (صلى الله عليه وآله): أمرت بالسواك حتى خفت أن أورد.

الثاني - الخوف الذي هو خلاف الامن، كأنه قال: تخافون نشوزهن لعلمكم بالاحوال المؤذنة به، ذكره محمد بن كعب. ومعنى النشوز ههنا: قال ابن عباس، والسدي، وعطاء، وابن زيد: انه معصية الزوج، وأصله الترفع على الزوج بخلافه، مأخوذاً من قولهم: هو على نشز من الارض، أي ارتفاع، يقال:

نشزت المرأة تنتشر وتنتشر، قرئ بهما: " وإذا قيل انشزوا فانشزوا " (٣) فالنشوز يكون من قبل المرأة خاصة، والشقاق منهما. وقوله: " فهظوهن " أي خوفوهن بالله، فان رجعن وإلا فاهجروهن في المضاجع. وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسدي: هجر الكلام.

وقال سعيد بن جبير: هو هجر الجماع. وقال مجاهد، والشعبي، وابراهيم: هو هجر المضاجعة، وهو قول أبي جعفر (ع). وقال: يحول ظهره إليها. وقال بعضهم:

" اهجروهن " اربطوهن بالهजार، من قولهم: هجر الرجل البعير إذا ربطه بالهजार، وقال امرؤ القيس:

رأت هلكا بنجاف الغبيط * فكادت تجد لذاك الهجارا (٤)

(١) انظر ٢: تعليقة ٢.

(٢) انظر ٢: ١٨٩، ٢٤٤.

(٣) سورة المجادلة: آية ١١.

(٤) ديوانه: ١١١ واللسان (هلك). الهلك الفراغ. نجاف الغبيط: مدرعة البرذعة.

الهجار: حبل يسوى له عروتان في طرفيه ثم تشد احدهما في رسغ رجل الفرس وتزر وكذلك الاخرى.

(١٩١)

وهذا تعسف في التأويل، ويضعفه قوله: " في المضاجع " ولا يكون الرباط في المضجع. وأما الضرب فإنه غير مبرح بلاخلاف قال أبو جعفر (ع):

هو بالسواك. والمضاجع جمع مضجع، وأصله الاستلقاء، يقال: ضجع ضجوعا واضطجع اضطجاعا إذا استلقى للنوم، وأضجعتة إذا وضعت جنبه بالارض، فكل شئ أملتة فقد أضجعتة. وقوله: (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن) أي لاتطلبوا، تقول: بغيت الضالة إذا طلبتها، قال الشاعر يصف الموت:

بغاك وما تبغيه حتى وجدته * كأنك قد واعدته أمس موعدا (١)

وأصل الهجر الترك عن قلى، تقول: هجرت فلانا أي تركت كلامه عن قلى، والهجر القبيح من الكلام، لأنه مهجور، والهجار حبل يشد به البعير، لأنه يهجر به التصرف، والهجرة نصف النهار، لأنه وقت يهجر فيه العمل. وقوله:

" إن الله كان عليا كبيرا " أي متعاليا عن أن يكلف إلا بالحق، ومقدار الطاقة، وقد قيل: معناه إنه قادر عليه، قاهر له، وليس المراد به علو المكان، لان ذلك يستحيل عليه تعالى. والكبير السيد، يقال: لسيد القوم كبيرهم، والمعنى: فان استقمتم لكم فلاتطلبوا العلل في ضربهن، وسوء معاشرتهن، فان الله تعالى قادر على الانتصاف لهن. قوله تعالى:

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا)

(٣٥) - آية بلاخلاف - .

المعنى واللغة قوله: (وإن خفتم) في معناه قولان:

(١) قائله سحيم بن الحساس ديوانه: ٤١ وروايته (الا وجدته) بدل (حتى وجدته). (*)

(١٩٢)

أحدهما - إن علمتم.

الثاني - الخوف الذي هو خلاف الامن، وهو الاصح، لانه لو علم الشقاق يقينا لم يحتج إلى الحكمين، فان أريد به الظن كان قريبا مما قلناه. والشقاق الخلاف، والعداوة، واشتقاقه من الشق، وهو الجزء البائن، ومنه إسم المتشاقين، لان كل واحد منهما في شق أي في ناحية، ومنه المشقة في الامر، لانه يشق على النفس، فأمر الله متى خيف ذلك بين الزوجين أن يبعثوا حكما من أهله وحكامن أهلها، والحكم القيم بما يسند إليه.

والمأمور ببعث الحكمين قيل فيه قولان:

أحدهما - قال سعيد بن جبير، والضحاك، وأكثر الفقهاء، وهو الظاهر في اخبارنا: انه السلطان الذي يترافعان إليه.

والثاني - قال السدي: انه الرجل والمرأة، وقيل: أيهما كان ناب عن الآخر، وهو اختيار الطبري. واختلف الفقهاء في الحكمين هل هما وكيلان، أو هما حكمان، فعندنا أنهما حكمان، وقال قوم: هما وكيلان، واختلفوا هل للحكمين أن يفرقا بالطلاق إن رأياه أم لا؟ فعندنا ليس لهما ذلك إلا بعد أن يستأمرهما، أو كان اذن لهما في الاصل في ذلك، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد، عن أبيه. ومن قال: هما وكيلان، قال: لهما ذلك، ذهب إليه سعيد بن جبير، والشعبي، والسدي، وابراهيم، وشريح، ورووه عن علي (ع).

وقوله: (إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما) معناه يوفق الله بينهما، والضمير في بينهما عائداً على الحكمين، والمعنى: إن أرادا إصلاحاً في أمر الزوجين يوفق الله بينهما. وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والسدي. وأصل التوفيق الموافقة، وهي المساواة في أمر من الامور. والتوفيق هو اللطف الذي يتفق عنده فعل الطاعة، والتوفيق بين نفسيين هو الاصلاح بينهما، والاتفاق في الجنس والمذهب المساواة بينهما، والاتفاق في الوقوع كريمة من غير رام لمساواتهما نادرا.

وقوله: (إن الله كان عليماً خبيراً) يعني بما يريد الحكمان من الاصلاح.

(١٩٣)

أو الافساد. وقيل معناه أنه عالم بما تعبدكم به، لعلمه بما فيه صلاحكم ودينكم وديناكم. " وشقاق بينهما " إنما أضافه إلى البين لان البين قد يكون اسماً كما قال: " لقد تقطع بينكم " (١) ممن قرأ بالرفع. قوله تعالى:

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) (٣٦) - آية - . المعنى:

هذا خطاب لجميع المكلفين، أمرهم الله بأن يعبدوه وحده، ولا يشركوا بعبادته شيئاً سواه " وبالوالدين إحساناً " نصب على المصدر، وتقديره: وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، ويحتمل أن يكون نصبا على تقدير: واستوصوا بالوالدين إحساناً، لان قوله: " اعبدوا الله " بمنزلة استوصوا بعبادة الله، وأن تحسنوا إلى ذي قرباكم، وإلى اليتامى الذين لأب لهم، والمساكين وهم الفقراء، والجار ذي القربى، يعني الجار القريب.

اللغة:

وأصل الجار العدول، جاوره مجاورة وجوارا، فهو مجاور له وجارله، لعدوله إلى ناحيته في مسكنه، والجور الظلم، لانه عدول عن الحق، ومنه جار السهم إذا عدل عن قصده، وجار عن الطريق إذا عدل عنه، واستجار بالله، لانه

(١) سورة الانعام: آية ٩٤. (*)

(١٩٤)

يسأله العدول به عن النار، وجواز الذمة، لانه عدول بها إلى ناحية صاحبها. " والجار الجنب " أصل الجنب التحية، جنبت فلانا عن كذا فتجنب أي نحيت، ومنه قوله: " واجنبي وبني أن نعبد الاصنام " (١) والجانبان الناحيتان، لتحي كل واحدة عن الاخرى، ومنه جنب الانسان وكل حيوان، والاجتنب الترك للشئ، والجار الجنب معناه الغريب الاجنبي، لتحيه عن القرابة، قال علقمة بن عبدة:

فلاتحرمني نائلا عن جنابة * فاني امرؤ وسط القباب غريب (٢)

أي عن غربة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد:

الجار ذي القربى القريب في النسب، والجار الجنب: الغريب، أي عن غربة.

وروي عن النبي (ص) أنه قال: الجيران ثلاثة، جارله ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الاسلام. وجار له حقان: حق الجوار، وحق الاسلام.

وجار له حق الجوار، المشرك من أهل الكتاب.

المعنى واللغة:

" والصاحب بالجنب " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الرفيق.

الثاني - قال عبدالله بن مسعود، وعلي (ع) وابراهيم، وابن أبي ليلى: الزوجة.

الثالث - قال ابن زيد، وابن عباس،، في رواية أخرى عنه: إنه المنقطع اليك رجاء رفقك. وقيل إنه جميع هؤلاء، وهو أعم فائدة.

وقال الزجاج. الجار ذي القربى الذي يقاربك ويعرفك وتعرفه، والجار

(١) سورة ابراهيم: آية ٣٥.

(٢) ديوانه: ١٠٧ والمفضليات ٧٨٩ والكامل للمبرد ٤٣٧، واللسان (جنب). (*)

(١٩٥)

الجنب البعيد. وروي أن حد الجوار إلى أربعين داراً. وروي إلى أربعين ذراعاً.

(وابن السبيل) معناه صاحب الطريق، وقيل في المراد به ههنا قولان:

أحدهما - قال مجاهد، والربيع: إنه المسافر.

الثاني - قال قتادة، والضحاك: انه الضيف، وقال أصحابنا: يدخل فيه الفريقان. " ومما ملكت

أيمانكم " يعني المماليك من العبيد والاماء، أمر الله بالاحسان إلى هؤلاء أجمع. وقوله: " إن الله

لا يحب من كان مختالاً " فالمختال الصلف التياه، والاختيال هو التطاول، وإنما ذكره الله ههنا

وذمه، لانه أراد بذلك من يختال فيأنف من قراباته وجيرانه إذا كانوا فقراء، لكبره وتطاوله،

فأما الاختيال في الحرب فممدوح، لان في ذلك تطاولاً على العدو واستخفافاً به.

وأصل المختال من التخيل، وهو التصور، فالمختال لانه يتخيل بحاله مرح البطر، ومنه

الخيال، لانها تختال في مشيها، إي تتبختر، والخيال، لانه يتخيل به صاحبه، والاخليل الشقراق،

لانه يتخيل في لونه الخضرة من غير خلوصها، والخول الحشم، وخلته راكبا خيلانا أي

تخيلته، والخال المختال، والخال أخ الام، " والفخور " هو الذي يعدد مناقبه كبرا وتطاولاً، وأما

الذي يعددها اعترافاً بالنعم فيها فهو شكور غير فخور. وروي عن المفضل عن عاصم أنه

قرأ:

" والجار جنب " - بفتح الجيم - قال أبو الحسن: هولغة في الجنب، قال الراجز:

الناس جنب والامير جنب يعني ناحية: قال أبو علي الفارسي: يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يريد الناحية، والتقدير: ذي الجنب، فحذف المضاف، لان المعنى مفهوم، لان

الناحية لا تكون هي الجار.

والثاني - أن يكون وصفاً، مثل: ضرب وندب وفسل، فهذا وصف جرى على موصوف.

قوله تعالى:

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم

(١٩٦)

الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) (٣٧) - آية -.

القرآءة:

قرأ حمزة، والكسائي ههنا وفي الحديد: " بالبخل " بفتح الباء والحاء.

الباقون بضم الباء وتسكين الخاء. فمن نصب قال: لانه مصدر بخل يبخل بخلا، الباب كله هكذا، ومن اختار الضم وتسكين الخاء فلانه نقيض الجود فحمل على وزنه، فهما لغتان. وحكي لغة ثالثة " بالبخل " - بفتح الباء وسكون الخاء. الاعراب:

وقوله: " الذين " يحتمل أن يكون موضعه نصبا من وجهين، ورفعاً من وجهين، فأحد وجهي النصب أن يكون بدلا من " من " في قوله: " لا يجب من كان ". والثاني - على النزم. وأحد وجهي الرفع - على الاستئناف بالذم، ويكون خبره " إن الله لا يظلم " (١) والآية الثانية عفا عليها. والوجه الثاني على البذل من الضمير في " فخور ". والبذل أصله مشقة الاعطاء. المعنى واللغة:

وقالوا في معناه ههنا قولان:

أحدهما - أنه منع الواجب، لانه اسم ذم لا يطلق إلا على مرتكب كبيرة. والثاني - هو منع ما لا ينفع منعه، ولا يضر بذله، ومثله الشح، وضده الجود، والاول أليق بالآية، لانه تعالى نفى محبته عن كان بهذه الصفة، وذلك لا يليق إلا بمنع الواجب. قال الرماني: معناه منع الاحسان لمشقة الطباع، ونقيضه الجود وهو بذل الاحسان لانتفاء مشقة الطباع، وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد: إن الآية نزلت في اليهود، إذ بخلوا باظهار ما علموه وكنموه من صفة محمد (ص). وقال الجبائي، والبلخي: الآية في كل من كان بهذه الصفة،

(١) سورة النساء: آية ٤. (*)

(١٩٧)

وإنما ذكروا بالكفر لكتمانهم نعمة الله عليهم. والأمر بالبخل يتناوله الوعيد، كما أن من فعل البخل يتناوله الوعيد. وقيل: معنى " يكتمون ما آتاهم الله من فضله " يجحدون اليسار والثروة اعتذارا في البخل، وقوله: " وأعتدنا " قدفسرناه فيما مضى وهو أن معناه أعددناه، وجعلناه ثابتا لهم " وللكافرين " يعني الجاحدين ما أنعم الله عليهم " عذابا مهينا " أي يهينهم ويذلهم. قوله تعالى:

(والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) (٣٨)

- آية بلاخلاف -.

الاعراب:

قوله: " والذين " عطف على " الذين " في الآية الاولى. واعرابه يحتمل ما قلناه في الآية الاولى سواء. وقال الزجاج وغيره: المعني بهذه الآية المنافقون.
وقال مجاهد: المعني بها اليهود، والاول اقوى وأظهر، لان الرياء ضرب من النفاق ووو العطف يقوي ذلك، لانه لو أراد الموصوفين في الآية الاولى لقال:
" الذين ينفقون أموالهم رياء الناس "، مع أنه قد ورد عطف الصفات بالواو لموصوف واحد على ما بيناه فيما مضى، غير أن الاجود ما قلناه.
المعنى واللغة:

فدم الله تعالى بهذه الآية من ينفق ماله رياء الناس دون أن ينفقه لوجهه وطلب رضاه، ولا يؤمن بالله أي لا يصدق به، " ولا باليوم الآخر " الذي فيه الثواب والعقاب. ثم قال: " ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا " معناه من قبل من الشيطان، وأطاعه فيما يدعوه إليه فبئس القرين قرينه. والقرين أصله

(١٩٨)

الاقتران، ومنه قرن الثور لاقتران بعض ببعض، والقرن أهل العصر من الناس، وقرنة الشيء حرفه، والقرن المقاوم في الحرب، " وما كنا له مقرنين " (١) أي مطيقين، والقرين صاحب المؤلف. قال عدي بن زيد:

عن المرء لاتسأل وأبصر قرينه * فان القرين بالمقارن يقتدي (٢)

ويمكن الانسان الانفكاك من مقارنة الشيطان بالمخالفة له، فلا يعتد بالمقارنة.

وقال أبو علي: لا يمكن ذلك، لانه يقرن به الشيطان في النار فلا يمكنه الانفكاك منه، وقوله: " فساء قرينا " نصب على التفسير، كقوله: " ساء مثلا " وتقديره:

ساء مثلا مثل الذين، وتقول: نعم رجلا، وتقديره نعم الرجل رجلا.

قوله تعالى:

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما) (٣٩) -
آية واحدة بلاخلاف -.

المعنى والاعراب:

معنى قوله: " وماذا عليهم. " الآية الاحتجاج على المتخلفين عن الايمان بالله واليوم الآخر بما عليهم فيه ولهم، وذلك أنه يجب على الانسان أن يحاسب نفسه فيما عليه وله، فاذا ظهر له ما عليه في فعل المعصية من استحقاق العقاب اجتنبها، وماله في تركها من استحقاق الثواب عمل في ذلك من الاختيار له، أو الانصراف عنه. وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة في أن الكافر لا يقدر على الايمان، لان الآية نزلت على أنه لا عذر للكفار في ترك الايمان، ولو كانوا غير قادرين لكان فيه أوضح العذر لهم، ولما جاز أن يقال: " وماذا عليهم لو آمنوا بالله " لانهم لا يقدرون عليه، كما لا يجوز أن يقال لاهل النار: ماذا عليهم لو خرجوا منها

(١) سورة الزخرف: آية ١٣.

(٢) ديوانه في شعراء الجاهلية: ٤٦٦، وقد شاعت روايته على ألسن الناس:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

(١٩٩)

إلى الجنة، من حيث لا يقدرون عليه، ولا يجدون السبيل إليه، ولذلك لا يجوز أن يقال للعاجز: ماذا عليه لو كان صحيحا، ولا للفقير: ماذا عليه لو كان غنيا.

وموضع " ذا " يحتمل من الاعراب وجهين:

أحدهما - أن يكون رفعا، لانه في موضع الذي، وتقديره: ما الذي عليهم لو آمنوا.

الثاني - لاموضع له، لانه مع (ما) بمنزلة اسم واحد، وتقديره: وأي شئ عليهم لو آمنوا بالله، ففي الآية تفرير على ترك الايمان بالله واليوم الآخر، وتوبيخ على الانفاق مما رزقهم الله في غير أبواب البر وسبيل الخير على وجه الاخلاص، دون الرياء. وقوله: (وكان الله بهم عليما) معناه ههنا ان الله بهم عليم، يجازيهم بما يسرون من قليل أو كثير، فلا ينفعم ما ينفقونه على جهة الرياء.

قوله تعالى:

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) (٤٠) - آية بلاخلاف -.

القراءة، والحجة، والاعراب:

قرأ: (وإن تك حسنة) بالرفع ابن كثير، ونافع. الباقون بالنصب، فمن نصب معناه: وإن تك زنة الذرة حسنة، أو: وإن فعلته حسنة، ومن رفع ذهب إلى أن كان تامة، وتقديره: وإن تحدث حسنة. وأصل (تك) تكون، فحذفت الضمة للجزم، والواو لسكونها وسكون النون، لكثرة الاستعمال، وقد ورد القرآن بآثباتها، قال الله تعالى: (إن يكن غنيا أو فقيرا) (١) فاجتمع في النون أنها ساكنة وأنها تشبه حروف اللين، فحذفت لكثرة الاستعمال، كما قالوا لا أدر، ولم ابل، والاجود: لم أبال، ولا أدري " ويؤت " بغير ياء، سقطت الياء

(١) سورة النساء: ١٣٤. (*)

(٢٠٠)

للجزم بالعطف على (يضاعفها). ولدن في موضع خفض. وفيها لغات، يقال:

لد ولدن ولدا ولدا، والمعنى واحد، ومعناه من قبله، ولدن لما يليك، وعند يكون لما يليك ولما بعد منك، تقول: عندي مال وإن كان بينك وبينه بعد، فاذا أضفته إلى نفسك فقلت: من لدني ومن لدنا زدت فيها نونا أخرى، وأدغموا الأولى منهما ليسلم سكون النون ومثله قالوا في (من)، إذا أضافوه قالوا: مني ومنا. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: (يضعفها) مشدده، الباقون: (يضاعفها)

من المضاعفة. والظلم هو الالم الذي لانفع فيه يوفي عليه، ولادفع مضرة أعظم منه عاجلا ولاأجلا، ولاهو مستحق، ولا هو واقع على وجه المدافعة.

اللغة: وأصله وضع الشئ في غير موضعه، وقيل: أصله الانتقاص، من قوله:

(ولم تظلم منه شيئا) (١) أي لم ينقص. والظلم انتقاص الحق، والظلمة انتقاص النور بذهابه، والظلم الثلج، لانتقاصه بالجمود، وشبه به ماء الاسنان، وفي المثل (من أشبه أباه فما ظلم)،

وسقاء مظلوم إذا شرب منه قيل أن يدرك، والظلم ذكر النعام، لأنه يضع الشيء في غير موضعه من حيث (٢) يحضن غير بيضه. وأصل المتقال الثقل، فالمتقال مقدار الشيء في الثقل، والثقل ماثقل من متاع السفر، والمتقل الذي أثقله المرض، والثقل البطيء في عمله (فمتقال ذرة): مقدار ذرة في الزنة. والذرة النملة الحمراء في قول ابن عباس، وابن زيد، وهي أصغر النمل، وهي من ذررت الشيء أنه ذرا إذابددته سحوقا.

المعنى:

وفي الآية دلالة على أن منع الثواب ظلم لأنه لو لم يكن ذلك ظلما لما كان لهذا الكلام معنى على هذا الترتيب. وفيه أيضا دلالة على أنه قادر على الظلم، لأنها

(١) سورة الكهف: آية ٣٢.

(٢) (من حيث) ساقطة من المطبوعة. (*)

(٢٠١)

صفة تعظيم وتنزيه عن فعل ما يقدر عليه من الظلم، ولو لم يكن قادر عليه لما كان فيه مدحة، غير أنه وإن كان قادرا عليه فإنه لا يفعل له لعلمه بقبحة، وبأنه غني عنه، ولأنه لو فعل لكان ظالما، لان الاشتقاق يوجب ذلك وذلك منزه عنه تعالى.

قوله تعالى:

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (٤١) - آية - .

الاعراب:

" كيف " لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها ههنا التوبيخ، والتقدير فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، وحذف لدلالة الكلام عليه. والعامل في " كيف " الابتداء المحذوف، لان التقدير: كيف حالهم، على ما بيناه. وإنما جاز خروج كيف عن الاستفهام إلى التوبيخ لأنه يقتضي إقرار العبد على نفسه بما كان من قبيل عمله، كما يقتضي الجواب في الاستفهام، ولا يجوز أن يكون العامل في

" كيف " " جئنا " لاضافة " إذا " إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله كما لاتعمل الصلة فيما قبل الموصول، لأنه من تمام الاسم.

المعنى:

والشهادة تقع يوم القيامة من كل نبي بأنه بلغ قومه ما تقوم به عليهم الحجة، وأنه أدى ما تقوم به الحجة عليها من مراد الله، هذا قول عبدالله، وابن جريج، والسدي. وقال الجبائي: يشهد عليهم باعمالهم. وقال الزجاج، والطبري: يشهد لهم وعليهم بما عملوه، ووجه حسن الشهادة ما

في ذلك من اقامة الحجة عليهم، فيستجيون عندتصور تلك الحال من خزي ذلك المقام، وفي ذلك أكبر الاعتاظ.

وروي عن ابن مسعود أنه قرأ على النبي (صلى الله عليه وآله) سورة النساء فلما بلغ " فكيف

(٢٠٢)

إذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيدا " فاضت عيناه وقوله:

" وجننا بك " يعني محمدا (صلى الله عليه وآله) " على هؤلاء " يعني على أمته. وقال السدي:

إن أمة نبينا تشهد للانبياء بالاداء والتبليغ، ويشهد النبي لامته بتصديقهم في تلك الشهادة، كما قال: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١). قوله تعالى:

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض ولايكتمون الله حديثا) (٤٢) - آية بلاخلاف -.

القراءة، والحجة:

قرأ حمزة، والكسائي: " تسوى " مفتوحة التاء خفيفة السين. وقرأ نافع وابن عامر - بفتح التاء وتشديد السين - الباقون بضم التاء وتخفيف السين. وقال الطبري: الاختيار فتح التاء، لموافقته لقوله: " ياليتني كنت ترابا " (٢) ولم يقل: كونت. وقال الرماني هذا ليس بشئ، لان التمني فيه معنى الفعل، وبضم التاء أبين وليس كذلك الآخر، لانه بمنزلة التمني لان يكون معدوما لم يوجد قط.

قال أبو علي: من قرأ بضم التاء أراد: لوجعل هووالارض سواء، ومن فتح التاء أراد: تتسوى، وإنما أدغم التاء في السين، قال: وفي هذا تجوز، لان الفعل مسند إلى الارض وليس ذلك المراد، لانه لافائدة لهم أن تصير الارض مثلهم. وإنما ودوا أن يتستوا وهم بما لايتسوى بهم، ومن فتح التاء وخفض السين أراد هذا، غير أنه حذف إحدى التائين وهي الاصلية دون التي للمضارعة.

المعنى:

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أن الكفار يوم القيامة يودون - لعلمهم

(١) سورة البقرة: آية ١٤٣. (٢) سورة النبا: آية ٤٠. (*)

(٢٠٣)

بما يصيرون إليه من العذاب والخلود في النار - أنهم لن يبعثوا أو أنهم كانوا والارض سواء. وروي في التفسير أن البهائم يوم القيامة تصير ترابا، فيتمنى عند ذلك الكفار أنهم صاروا

كذلك ترابا، وهذا لا يجيزه إلا من قال: إن العوض منقطع، فأما من قال: هو دائم لم يصح هذا الخبر. وقوله: "وعصوا الرسول" ضموا الواو لأنها واو الجمع، وحركت لالتقاء الساكنين. وقوله: "لو استطعنا" كسرت على أصل الحركة، لالتقاء الساكنين. وإنما وجب لواو الجمع الضم لأنها لما منعت مالها من ضم ما قبلها، جعلت الضمة عند الحاجة إلى حركتها فيها. والعامل في

"يومئذ" (يود الذين) وإنما عمل في (يومئذ) مابعد (إذا) ولم يجز مثل ذلك في (إذا جئنا من كل أمة) لأنه لما أضيف (يوم) إلى (إذ) بطلت إضافته إلى الجملة، وجاء التنوين ليبدل على تمام الاسم. يبين ذلك قوله: (من عذاب يومئذ بينه) (١).

وقوله: (ولا يكتُمون الله حديثا) لا ينافي قوله: (والله ربنا ما كنا مشركين) (٢) لأنه قيل في معنى الآية سبعة أقوال:

أحدها - قال الحسن إن الآخرة مواطن، فمواطن (لاتسمع إلا همسا) (٣)

أي صوتا خفيا، ومواطن يكذبون فيقولون: (ما كنا نعمل من سوء) (٤)

(والله ربنا ما كنا مشركين) ومواطن يعترفون بالخطأ بأن يسألوا الله أن يردهم إلى دار الدنيا.

الثاني - قال ابن عباس: إن قوله: (ولا يكتُمون الله حديثا) داخل في التمني بعد ما نطقت

جوارحهم بفضيحتهم، فكأنهم لمارأوا المؤمنين دخلوا الجنة كتموا فقالوا: (والله ربنا ما كنا

مشركين) فحتم الله أفواههم، وأنطق جوارحهم بما فعلوه، فحينئذ تمنوا أن يكونوا (تسوى بهم

الارض ولا يكتُمون الله حديثا) فتمنوا الامرين وقال الفراء: تقديره: (يومئذ يود الذين كفروا

(١) سورة المعارج: آية ١٢. (٢) سورة الانعام: آية ٢٣.

(٣) سورة طه: آية ١٠٨. (٤) سورة النمل: آية ٢٨. (*)

(٢٠٤)

وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض) ويودون لا يكتُمون حديثا.

الثالث - قال أبو علي: انه لا يعتد بكتمانهم، لانه ظاهر عندالله لا يخفى عليه شئ منه.

الرابع - لم يقصدوا الكتمان، لانهم إنما أخبروا على ماتوهموا، ولا يخرجهم من أن يكونوا كذبا.

والخامس - قال بعضهم: إن قوله: (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) (١)

انما معناه: أوجبوا العذاب بمثل حال الكاذب في الاقرار، كما يقال: كذب عليك الحج، قال

الشاعر:

كذب العتيق وماء شن بارد * إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي

وقال الرماني: هذا التأويل ضعيف، لأنه يجري مجرى اللغز.
والسادس: قال الحسين بن علي المغربي: تمنوا أن يكونوا عدما، وتم الكلام ثم استأنف فقال:
(ولا يكتمون الله حديثا) أي لا تكتمه جوارحهم وإن كتموه هم.
السابع - قال البلخي: (ولا يكتمون الله حديثا) على ظاهره لا يكتمون الله شيئا، لانهم ملجأون
إلى ترك القبائح والكذب. وقوله: (ما كنا مشركين)
أي عند أنفسنا، لانهم كانوا يظنون في الدنيا أن ذلك ليس بشرك من حيث يقربهم إلى الله
تعالى.
قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولاجنبا إلا عابري
سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم
النساء

(١) سورة الانعام: ٢٤. (*)

(٢٠٥)

فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا (٤٣)
- آية بلاخلاف -

القراءة والمعنى:

قرأ حمزة، والكسائي: " أو لمستم النساء " بغير ألف، الباقون " لامستم " بالف، فمن قرأ "
لامستم " بالف قال: معناه الجماع: وهو قول علي (ع)، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة،
وأبو علي الجبائي، واختاره أبوحنيفة. ومن قرأ بلا الف أراد اللمس باليد وغيرها بما دون
الجماع، ذهب إليه ابن مسعود، وعبيدة، وابن عمر، والشعبي، وإبراهيم، وعطاء، واختاره
الشافعي. والصحيح عندنا هو الاول، وهو اختيار الجبائي، والبلخي، والطبري، وغيرهم.
واللامسة واللمس معناهما واحد، لأنه لايلمسها إلا وهي تلمسه، وقيل: ان الملامسة بمعنى
اللمس، كما قيل: عافاه الله، وعاقبت اللص.

النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال إبراهيم: إنها نزلت في قوم من الصحابة أصابهم جراح.

والثاني - قالت عائشة نزلت في قوم من الصحابة أعوزهم الماء.

المعنى واللغة:

وظاهر الخطاب متوجه إلى المؤمنين كلهم بأن لايقربوا الصلاة وهم سكارى، يعني في حال سكرهم، يقال: قرب يقرب متعد، وقرب يقرب لازم، وقرب الماء يقربه إذا ورد. وقيل في معنى السكر المذكور في الآية قولان: أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم: إنه السكر من الشراب، وقال مجاهد، والحسن، وقتادة نسخها تحريم الخمر.

(٢٠٦)

الثاني - قال الضحاك هوسكر النوم خاصة. وأصل السكر من السكر، وهو سد مجرى الماء يقال سكره يسكره، وإسم الموضع السكر والسكر، لانسداد طريق المعرفة به. سكر يسكر سكرًا وأسكره إسكارًا، وسكرة الموت غشيته. فان قيل: كيف يجوز نهي السكران في حال سكره مع زوال عقله، وكونه بمنزلة الصبي والمجنون؟ قلنا عنه جوابان: أحدهما - إنه قد يكون سكران من غير أن يخرج من نقص العقل إلى ما لا يحتمل الأمر والنهي.

الثاني - إيمانها عن التعرض للسكر مع أن عليهم صلاة يجب أن يؤديها في حال الصحو. وقال أبو علي: فيه جواب ثالث وهو أن النهي إنمادل على أن عليهم أن يعيدوها إن صلوا في حال السكر.

فان قيل: كيف يسوغ تاويل من ذهب إلى أن السكران مكلف أن ينتهي عن الصلاة في حال سكره؟ مع أن عمل المسلمين على خلافه، لان من كان مكلفا تلزمه الصلاة، قلنا عنه جوابان: أحدهما - أنه منسوخ.

والآخر - إنه نهي عن الصلاة مع الرسول (صلى الله عليه وآله) في جماعة. وقوله: (ولاجنبا إلا عابري سبيل) يقال: رجل جنب إذا أجنب، ورجل جنب أي غريب، ولايشئ ولايجمع، ويجمع أجنبًا أي غرباء، وإنما نصب لانه عطف على قوله: " وأنتم سكارى " وهي جملة في موضع الحال. وقيل في معناه قولان.

أحدهما - قال علي (ع)، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحكم، وابن كثير، وابن زيد: إلا مسافرين فلكم أن تتيمموا.

الثاني - قال ابن عباس في رواية أخرى، وجابر، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والزهرري، وعطاء، والجبائي: ان معناه لاتقربوا مواضع الصلاة من المساجد إلا مجتازين، وهو قول أبي جعفر (ع)، وحذف لدلالة الكلام عليه،

(٢٠٧)

وهو الأقوى، لأنه تعالى بين حكم الجنب في آخر هذه الآية إذا عدم الماء، فلو حملناه على ذلك لكان تكراراً، وإنما أراد أن يبين حكم الجنب في دخول المساجد في أول الآية، وحكمه إذا أراد الصلاة مع عدم الماء في آخرها.

وقوله: (وإن كنتم مرضى أو على سفر) فالمرض الذي يجوز معه التيمم مرض الجراح، والكسير، وصاحب القروح، إذا خاف من مس الماء في قول ابن مسعود، والضحاك، والسدي، وإبراهيم، ومجاهد وقتادة. وقال الحسن، وابن جبير: هو المرض الذي لا يستطيع معه تناول الماء، ولا يكون هناك من يناوله. وكان الحسن لا يرخص للجريح التيمم، والمروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) جواز التيمم عند جميع ذلك. وقوله: "أعلى سفر أو جاء أحد منكم من الغائط" يعني الحدث المخصوص، وأصله المطمئن من الأرض، يقال:

غائط وغيطان، والتغوط كناية عن الحدث في الغائط، والغوطة موضع كثير الماء والشجر بدمشق، وقوله: "أو لامستم النساء" قد فسرناه، وعندنا المراد به الجماع. وقوله: "فتيمموا صعيدا طيبا" فالتيمم التعمد، ومثله التأمم قال الاعشى:

تيممت قيسا وكم دونه * من الأرض من مهمه ذي شزن (١)

يعني تعمدت، وقال سفيان: معنى تيمموا تعمدوا وتحروا، والصعيد وجه الأرض من غير نبات ولاشجر، في قول ابن زيد قال ذو الرمة:

كأنه بالضحى ترمي الصعيد به * دبابه في عظام الراس خرطوم (٢)

ومنه قوله: (فتصبح صعيدا زلقا) (٣) فبين أن الصعيد قد يكون زلقا. والصعدات الطرقات، قال الزجاج: لأعلم خلافا بين أهل اللغة بأن الصعيد وجه الأرض، سواء كان عليه تراب أو لم يكن، وهذا يدل على ما نقوله من أن التيمم يجوز بالحجارة سواء كان عليها تراب أو لم يكن (وطيبا) أي طاهرا،

(١) ديوانه: ١٩ القصيدة: ٢. (٢) ديوانه: ٥٧١.

(٣) سورة الكهف آية ٤١. (*)

(٢٠٨)

وقال سفيان: يعني حلالا. وأصل الصعيد من الصعود، وهو ما تصعد على وجه الأرض من ترابها، والأصعاد في الماء بخلاف الانحدار، والصعود عقبه يشق صعودها، ومنه قوله: "سأرهقه صعودا" (١) وقيل: انه جبل في النار يؤخذ بصعوده، والصعدة هي القناة التي نبتت مستوية، لأنها تصعد في نباتها على استقامة، والصعداء تنفس بتوجع.

وقوله: (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) قيل في صفة التيمم ثلاثة أقوال:
أحدها - ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين، ذهب إليه بن عمر، والحسن، والشعبي،
والجبائي، وأكثر الفقهاء، وبه قال قوم من أصحابنا.
الثاني - ضربة للوجه وضربة لليدين إلى الزندين، ذهب إليه عمار بن ياسر، ومكحول،
واختاره الطبري، وهو مذهبنا إذا كان التيمم بدلا من الجنابة، وإن كان بدلا من الوضوء
فيكفيه ضربة واحدة يمسح بها الوجه إلى طرف أنفه واليدين إلى الزندين.
الثالث - قال أبو اليقظان، والزهري: انه إلى الابطين، وقال قوم انه جائز أن يضرب بيديه
على الرمل فيمسح بهما وجهه، وإن لم يعلق بهما شيء، وبه نقول.
ويجوز للجنب أن يتيمم عندنا، وعند أكثر الفقهاء وأهل العلم. وبه قال عمار بن ياسر ورواه
عن النبي (صلى الله عليه وآله). وروي عن عمر، وابن مسعود، وإبراهيم: أنه لايجوز للجنب أن
يتيمم، لقوله: (ولا جنبا إلا عابري سبيل) وقدينا نحن أن المراد بذلك النهي عن دخول
المساجد، فكأنه قال: ولا تقربوا المساجد للصلاة وأنتم سكارى
" ولا جنبا إلا عابري سبيل " لان من لم يكن له طريق غير المسجد، أو أصابه الاحتلام في
المسجد جاز له أن يجتاز فيه، ولا يلبث فيه.
والسكران الذي زال عقله لاتصح صلاته، ويجب عليه قضاؤها، ولايصح منه شيء من العقود
ولارفعها، كالنكاح، والطلاق، والعتق، والبيع، والشراء، وغير ذلك. وقضاء الصلاة يلزمه
إجماعا، وأما مايلزم به الحدود والقصاص فعندنا أن

(١) سورة المدثر: آية ١٧.

(٢٠٩)

جميع ذلك يلزمه، إن سرق قطع، وإن قذف جلد، وإن زنا حد، وغير ذلك، لاجتماع الفرقة
المحقة على ذلك، ولعموم الآية المتأولة لذلك، ولايلزم على ذلك تكليف من قطع رجل نفسه
الصلاة قائما، لان ذلك تكليف مالايطاق، وإيجاب قضاء الصلاة على السكران ليس كذلك،
وكذلك إقامة الحدود، لان ذلك تابع للشرع، وفيه خلاف.
ويجوز إن يصلي صلوات الليل والنهار عندنا بتيمم واحد، وهو كوا وضوء في هذا الباب، ما لم
يحدث، أو يتمكن من استعمال الماء، وبه قال الحسن، وعطاء، وأبو حنيفة وأصحابه، وقال ابن
عمر، والشعبي، وقتادة، وإبراهيم، والشافعي يجب التيمم لكل صلاة، ورووا ذلك عن علي
(ع)، وذلك عندنا محمول على الاستحباب.

ولايجوز التيمم عندنا إلا عند تضيق الوقت، والخوف من فوته، واختار ذلك البخاري. وقال الشافعي: لايجوز إلا بعد دخول الوقت، وقال أبو حنيفة: يتيمم أي وقت شاء، وإن كان قبل الوقت فهو كالوضوء. ومسائل التيمم استوفيناها في المبسوط، والنهاية، ولا نطول بذكرها هنا. وقوله: (إن الله عفوا غفورا) أي يقبل منكم العفو، ويغفر لكم، لأن قبوله التيمم بدلا من الوضوء تسهيل علينا. وقيل: يعفو بمعنى يصفح عنكم الذنوب، ويغفرها أي يسترها عليكم. قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) (٤٥) - آيتان -.

(٢١٠)

القراءة والنزول:

في الكوفي جعلوا (السبيل) آخر الاولي، وآية واحدة في غير الكوفي. ذكر ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: أن الآية نزلت في قوم من اليهود، وكانوا يستبدلون الضلالة بالهدى، لتكذيبهم بالنبي (صلى الله عليه وآله) بدلا من التصديق به، مع قيام الحجة عليهم بما ثبت من صفته عندهم، فكأنهم اشتروا الضلالة بالهدى. وقال أبو علي الجبائي، وغيره: كانت اليهود تعطي أحبارها كثيرا من أموالهم على ما كانوا يصفونه لهم، فجعل ذلك اشتراء منهم. وقال الزجاج: كانوا يأخذون الرشا. المعنى:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها التأكيد للاحكام التي يجب العمل بها، بالتحذير ممن يدعوا إلى خلافها، ويكذب بها. وقوله: (ألم تر) قال الزجاج، معناه: ألم تخبر في جميع القرآن؟ وقال غيره: ألم تعلم؟ وقال الرماني، معناه: رؤية البصر، والمرئي هو الدين، وإنما دخلت (إلى)، لأن الكلام يتضمن معنى التعجب، كقولك: ألم تر إلى زيد ما أكرمه؟ تقديره: ألم تر عجبا بانتهاء رؤيتك إلى زيد؟ ثم بين ذلك بقوله: ما أكرمه، ومثله قوله: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) (١).

كأنه قال: ألم تر عجبا بانتهاء رؤيتك إلى تدبير ربك كيف مد الظل؟ قال: ومن فسره على: ألم تخبر، ألم تعلم، فانما ذهب إلى ما يؤول المعنى إليه، لأن الخبر والعلم لا يصلح فيهما (إلى) كما يصلح مع الرؤية. وقوله: (ويريدون أن تضلوا السبيل)

معناه: يريد هؤلاء اليهود أن تضلوا، معشر المؤمنين، أي تزلوا عن قصد الطريق، ومحجة الحق، فتكذبوا بمحمد فتكونون ضلالا، وفي ذلك تحذير للمؤمنين أن يستنصحو أخدامن أعداء الاسلام في شئ من أمورهم لدينهم ودنياهم، ثم

(١) سورة الفرقان: آية ٤٥. (*)

(٢١١)

بين تعالى أنه أعلم منكم بعبادة اليهود لكم أيها المؤمنون، فانتهاوا إلى طاعتي، وامتنثال أوامري فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فاني أعلم بباطنهم منكم، وماهم عليه من الغش، والحسد، والعداوة. وقيل معناه: والله يجازيهم على عداوتهم، كقولك: إني أعلم ما تفعل أي اجازيك عليه.

وقوله: (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) معناه: إن ولاية الله لكم، ونصرته إياكم، تغنيكم عن غيره من هؤلاء اليهود ومن جرى مجراهم، ممن تطمعون في نصرته. ودخلت الباء في قوله: " بالله " لآحد أمرين:

أحدهما - للتأكيد، لان الاسم في " كفى الله " كان يتصل اتصال الفاعل، فلما دخلت الباء صار يتصل اتصال المضاف واتصال الفاعل، ليعلم أن الكفاية منه ليست كالكفاية من غيره في المرتبة، وعظم المنزلة، فضوعف لفظها لمضاعفة معناها.

الثاني - لانه دخله معنى: اكتفوا بالله، ذكره الزجاج، وموضعه رفع بلاخلاف.
اللغة:

والعداوة الابعاد من حال النصره، وضدها الولاية، وهي التقرب من حال النصره، وأما البغض فهو إرادة الاستخفاف والاهانة، وضده المحبة وهي إرادة الاعظام والكرامة. والكفاية بلوغ الغاية في مقدار الحاجة، كفى يكفي كفاية فهو كاف، والاكنتفاء الاجتزاء بشئ دون شئ، ومثله الاستغناء، والنصرة الزيادة في القوة للغلبة، ومثلها المعونة، وضدها الخذلان، ولا يكون ذلك إلا عقوبة، لان منع المعونة مع الحاجة عقوبة.
قوله تعالى:

(من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين

(٢١٢)

ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٤٦) - آية.

بلاخلاف - .

المعنى والاعراب:

قيل في معنى قوله: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)
قولان:

أحدهما - قال الفراء، والزجاج، والرماني: ان يكون تبيينا للذين " أوتوا نصيبا من الكتاب " ويكون العامل فيه " أوتوا " وهو في صلة الذين، ويجوز ألا يكون في الصلة، كما تقول: انظر إلى نفر من قومك ما صنعوا.

الثاني - أن يكون على الاستئناف، والتقدير: " من الذين هادوا " فريق (يحرفون الكلم) كما قال ذو الرمة:

فضلوا ومنهم دمعه سابق له * وآخر يثني دمعة العين بالمهل (١)
وأنشد سيبويه:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح
وقال آخر:

لو قلت ما في قومها لم تيثم * يفضلها في حسب وميسم (٢)
أي أحد يفضلها وقال النابغة:

كانك من جمال بني أقيش * يققع خلف رجليه بشن (٣) يريد كأنك جمل من جمال بني أقيش.

(١) ديوانه: ٤٨٥، وروايته (عبرة) بدل (دمعة). (بالهمل) بدل (بالمهل).

(٢) قاتله حكيم بن معية انظر الخزاعة ٢: ٣١١.

(٣) ديوانه: ٥٨، وسيبويه ١: ٣٧٥، ومجاز القرآن ١: ١٠١. الشن: القرية البالية. (*)

(٢١٣)

قال الفراء: المحذوف (من) والتقدير: من الذين هادوا من يحرفون الكلم كما يقولون: منا يقول ذلك ومنا لايقوله، قال: والعرب تضم (من) في مبتدأ الكلام بمن، لان من بعض لما هي منه، كما قال: (ومامنا إلا له مقام معلوم) (١) وقال: (وان منكم إلا واردها) (٢) وأنشد بيت ذي الرمة الذي قدمناه، قال: ولايجوز إضمار (من) في شئ من الصفات على هذا المعنى إلا في من لما قلناه، وضعف البيت الذي أنشدناه: (لو قلت ما في قومها لم تيثم) وهي لغة هوازن، وتأثم رواية أخرى. وقال انما جاز في (في) لانك تجد (في) تضارع معنى (من) لانه بعض ما أضيف، لانك تقول: فينا الصالحون وفينادون ذلك، كأنك قلت: منا، ولايجوز: في الدار يقول

ذلك، وتريد: من يقول ذلك، لانه إنما يجوز إذا أضفت (في) إلى جنس المتروك. وقال أبو العباس، والزجاج ما قاله الفراء لا يجوز، لان (من) تحتاج إلى صلة أو صفة تقوم مقام الصلة، فلا يحسن حذف الموصول مع بقاء الصلة، كما لا يحسن حذف بعض الكلمة، وإنما قال:

(من الذين هادوا) لانه ليس جميع اليهود حرفوا، وإنما حرف أحبارهم وعلماؤهم. وقوله: (يحرّفون الكلم عن مواضعه) يعني يغيرونها عن تأويلها، والكلم جمع كلمة. وقال مجاهد: يعني بالكلم التوراة.

وقوله: (سمعنا وعصينا) يعني اليهود يقولون: سمعنا قولك يا محمد، ويقولون سرا عصينا. وقوله: (واسمع غير مسمع) اخبار من الله تعالى عن اليهود الذين كانوا حوالي المدينة في عصره، لانهم كانوا يسبون رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كما يقول القائل لغيره إذا سبه بالقبيح: اسمع لا أسمعك الله، ذكره ابن عباس، وابن زيد. وقال مجاهد، والحسن: ان تأويل ذلك اسمع غير مقبول منك، أي غير مجاب.

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤. (١) سورة مريم: آية: ٧١. (*)

(٢١٤)

وقوله: (وراعنا ليا بالسنتهم) قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها - أن هذه اللفظة كانت سبا في لغتهم، فاعلم الله نبيه ذلك ونهاهم عنها. الثاني - انها كانت تجري منهم على وجه الاستهزاء والسخرية. الثالث - انها كانت تجري منهم على حد الكبر، كما يقول القائل: انصت لكلامنا، وتفهم عنا. وإنما راعنا من المراعاة التي هي المراقبة. وقوله: " ليا بالسنتهم " يعني تحريكا منهم ألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه. اللغة:

وأصل اللي القتل، تقول: لويت العود ألويه ليا، ولويت الغريم إذا مطلته، واللوى من الرمل - مقصور - مسترقه، ولواء الجيش ممدود، واللوية ما تتحف به المرأة ضيفها لتلوي بقلبه إليها، وألوى بهم الدهر إذا أفناهم، ولوي البقل إذا اصفر ولم يستحكم بيبسه. واللسان آلة الكلام، واللسان اللغة، ومنه قوله: " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " (١) ولسن فلان فلانا بلسنه إذا أخذه بلسانه، ورجل لسن:

بين اللسان. ولسان الميزان، ولسان القوم: متكلمهم، وشئ ملسن إذا كان طرفه كطرف اللسان. وقوله: " وطعنا في الدين " فالاصل الطعن بالرمح ونحوه.

والطعن باللسان كالطعن بالرمح. ومنه تطاعنوا في الحرب. وأطعنوا مطاعنة وطعانا، وطعن يطعن ويطعن طعنا. وقوله: " ولو أنهم قالوا " يعني هؤلاء اليهود " سمعنا " يامحمد قولك " وأطعنا " أمرك، وقبلنا ما جئتنا به " واسمع " منا " وانظرنا " بمعنى انتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا " لكان خيرا لهم وأقوم " يعني أعدل وأصوب في القول، مأخوذا من الاستقامة، ومنه قوله: " وأقوم قبيلا " (٢)

بمعنى وأصوب. وقوله: " ولكن لعنهم الله بكفرهم " يعني أبعدهم الله من ثوابه. ثم أخبر تعالى، فقال: " فلا يؤمنون " في المستقبل " إلا قليلا " منهم فانهم آمنوا.

سورة ابراهيم: آية ٤. (٢) سورة المزمّل: آية ٦.

(٢١٥)

وقال البلخي: معناه لا يؤمنون إلا ايمانا قليلا كما قال الشاعر:

فالفية غير مستعتب * ولا ذاك الله إلا قليلا (١)

يريد إلا ذكر قليلا. وسقط التتوين من ذاك لاجتماع الساكنين. وقال أبووروق: إلا قليلا ايمانهم قولهم: الله خالقنا ورازقنا، وليس لعن الله لهم بمانع لهم من الايمان، وقدرتهم عليه، لانه إنما لعنهم الله لما كفروا فاستحقوا ذلك، ولو تركوا الكفر وآمنوا، لزال عنهم استحقاق اللعن. قوله تعالى:

(يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أونلعنهم كمالعنا أصحاب السبب وكان امر الله مفعولا) (٤٧) - آية - .

المعنى:

هذه الآية خطاب لاهل الكتاب: اليهود، والنصارى أمرهم الله بان يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) وما أنزل عليه من القرآن، وغيره من الاحكام مصدقا لما معهم من التوراة والانجيل اللذين تضمننا صفة النبى (صلى الله عليه وآله) وصحة ما جاء به. وقوله:

(من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس وعطية العوفي وقتادة: معناه نمحو آثارها حتى تصير كالقفا. ونجعل عيونها في قفاها، فتمشي القهقري.

الثاني - قال الحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن أبي نجيح، والسدي، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع): أن معناه نظمها عن الهدى، فرددتها على أدبارها في ضلالتها ذما لها (٢) بأنها لاتصلح أبدا، وهم وإن كانوا في

(١) انظر ٢، ٧٦ تعليقة ٢، ٣.

(٢) في المخطوطة (ومآبها).

(٢١٦)

الضلالة في الحال فتوعدهم بأنهم متى لم يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) ازدادوا بذلك ضلالا إلى ضلالتهم وإياسالهم أن يؤمنوا فيما بعد.

الثالث - قال الفراء، واختاره البلخي، والحسين بن علي المغربي: إن معناه نجعل في وجوههم الشعر كوجه القروء.

الرابع - قال قوم: معناه أن يردهم إلى الشام من الحجاز الذي هو مسكنهم، وهو أضعف الوجوه، لأنه ترك للظاهر، وخلاف أقوال المفسرين: والادبار: جمع دير.

فان قيل: كيف يجوز تاويل من قال نجعلها كالاقفاء وهذا لم يجز على ماتوعد به؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما - لأنه آمن جماعة من أولئك الكفار كعبدالله بن سلام وثعلبة بن شعبة وأسد بن ربيعة، وأسد بن عبيد، ومخبرق (١)، وغيرهم. وأسلم كعب في أيام عمر حين سمع هذه الآية، فاما من لم يؤمن منهم فانه يفعل به ذلك في الآخرة على أنه تعالى قال: أو نلعنهم، والمعنى أنه يفعل أحدهما، ولقد لعنهم الله بذلك. وقوله: " كما لعنا أصحاب السبت " يعني المسخ الذي جرى عليهم، ذكره البلخي.

والجواب الثاني - أن الوعيد يقع بهم في الآخرة، لان الله تعالى لم يذكر أنه يفعل بهم ذلك في الدنيا تعجيلا للعقوبة ذكره البلخي ايضا، والجبائي.

اللغة:

والطمس هو الدثر، وهو عفو الاثر، والطماس، والدائر، والدارس بمعنى واحد. وطمست أعلام الطريق تطمس طموسا: إذا دثرت، قال كعب بن زهير:

من كل نضاحة الذفرى إذا غرق عرضتها طامس الاعلام مجهول (٢)

(١) في المطبوعة: (وثعلبة بن سعنه)، (وأحد بن عبيد)، (ومخبريق).

(٢) ديوانه: ٩ نضح الرجل العرق سال منه. الذفرى: الموضوع الذي يعرق من البعير خلف الاذن، والاعلام: أعلام الطريق.

(٢١٧)

والعين التي هي الجارحة عبارة عن الشق بين الجفنين. والادبار جمع دبر، وأصله من الدبر يقولون دببره يدبره دببرا فهو دابر: إذا صار خلفه. والدبر: خلاف القبل. والدابر: التابع. ومنه قوله: "والليل إذا أدبر" (١) أي تبع النهار. فاما أدبر فمعناه ولى. والدبور: الريح، لأنها تدبر الكعبة إلى جهة المشرق. والدبار الهلاك. ودابرة الطائر: الاصبغ التي من خلف. والدبر: النحل. والدبر: المال الكثير، والتدبير، لأنه احكام ادبار الامور، وهي عواقبها. المعنى:

وقوله: (أو نلنهم كما لعنا أصحاب السبت) قال السدي، وقتادة، والحسن: معناه نمسخهم قرده وإنما كنى عنهم بقوله: "أو نلنهم" بعد أن خاطبهم بقوله: "ياأيها الذين لا امرين: أحدهما - التصرف في الخطاب، والانتقال من مواجهة إلى كناية كما قال: "حتى إذا كنتم في الفلك" فخاطب ثم قال: "وجرين بهم" (٢) فكنى.

والثاني - أن يعود الضمير على أصحاب الوجوه، لأنه بمنزلة المذكور. وقوله: "وكان أمر الله مفعولا" قيل في معناه قولان: أحدهما - ان كل أمر من أمور الله من وعد أو وعيد أو مخبر خبر فانه يكون على ما أخبر به، ذكره الجبائي.

والثاني - ان معناه "وكان أمر الله مفعولا" أي الذين يأمر به بقوله: "كن" وذلك يدل على أن كلامه محدث. وقال البلخي: معناه أنه إذا أراد شيئاً من طريق الاجبار. والاضطرار كان واقعا لامحالة. لا يدفعه دافع، كقبض الارواح، وقلب الارض وارسال الحجارة، والمسح وغير ذلك، فاما ما يأمر به على وجه الاختيار، فقد يقع، وقد لا يقع. ولا يكون في ذلك مغالبة له لأنه تعالى لو أراد إلقاءه إلى ما أمره به لقدّر عليه.

(١) سورة المدثر: آية ٣٣. (٢) سورة يونس: آية ٢٢. (*)

(٢١٨)

قوله تعالى:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (٤٨)

- آية واحدة بلاخلاف -.

قال الفراء قوله: " أن يشرك " في موضع نصب، وتقديره " إن الله لا يغفر " الشرك قال: ويحتمل أن يكون موضعه الجر وتقديره لا يغفر الذنب مع الشرك. وقال قوم: الفرق بين قوله: " إن الله لا يغفر أن يشرك به "، وبين قوله: " إن الله لا يغفر " الشرك به من وجهين: أحدهما - أن (أن) تدل على الاستقبال.

والآخر - ذكره الرماني أنه تدل على وجه الفعل في الإرادة، ونحوها. إذ كان قد يريد الإنسان الكفر مع ظنه أنه إيمان، كما يريد النصارى عبادة المسيح.

ولا يجوز ارادته أن يكفر مع التوهم انه إيمان وكذلك لا يريد الضرمع التوهم أنه نفع، ولا يجوز ارادته أن يضر مع التوهم أنه نفع، وكذلك أمره بالخطأ مع التوهم أنه صواب، ولا يجوز أمره أن يخطئ مع التوهم أنه صواب، وهذا عندي ليس بصحيح، لأن الشرك مذموم على كل حال سواء علمه فاعله كذلك، أو لم يعلم. ألا ترى أن النصارى يستحقون اللعنة والبراءة على ما يعتقدونه من التثليث وإن اعتقدوا هم صحته، فالفرق الأول هو الجيد وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى لا يغفر الشرك أصلاً، لكن أجمعت الامه على أنه لا يغفره مع عدم التوبة، فاما إذا تاب منه فانه يغفره، وإن كان عندنا غفران الشرك مع التوبة تفضلاً، وعند المعتزلة هو واجب، وهذه الآية من أكد ما دل على إن الله تعالى يعفو عن المذنبين من غير توبة ووجه الدلالة منها أنه نفى أن يغفر الشرك إلا مع التوبة وأثبت أنه يغفر ما دونه، فيجب أن يكون مع عدم التوبة، لانه إن كان ما دونه، لا يغفره إلا مع التوبة، فقد صار ما دون الشرك مثل الشرك، فلا معنى

(٢١٩)

للنفي، والاثبات. وكان ينبغي أن يقول: " إن الله لا يغفر " المعاصي إلا بالتوبة ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الحكيم أنا لأعطي الكثير من مالي تفضلاً، وأعطي القليل إذا استحق علي، لانه كان يجب أن يقول: أنا لا أعطي شيئاً من مالي إلا إذا استحق علي كيف وفي الآية ذكر العظيم الذي هو الشرك، وذكر ما هو دونه؟ والفرق بينهما بالنفي والاثبات، فلا يجوز ألا يكون بينهما فرق من جهة المعنى. فان قيل: نحن نقول: إنه يغفر ما دون الشرك من الصغائر من غير توبة. قلنا: هذا فاسد من وجهين.

أحدهما - انه تخصيص، لان ما دون الشرك يقع على الكبير والصغير. والله تعالى أطلق أنه يغفر ما دونه، فلا يجوز تخصيصه من غير دليل.

الثاني - ان الصغائر تقع محبطة فلا يجوز المؤاخذة بها عند الخصم وما هذا حكمه لا يجوز تعليقة بالمشيئة وقد علق الله تعالى غفران ما دون الشرك بالمشيئة، لانه قال: " لمن يشاء " فان قيل: تعليقة بالمشيئة يدل على أنه لا يغفر مادون الشرك قطعاً. قلنا: المشيئة دخلت في المغفور له لافيما يغفر، بل الظاهر يقتضي انه يغفر ما دون الشرك قطعاً، لكن لمن يشاء من عبادته، وبذلك تسقط شبهة من قال القطع على غفران مادون الشرك من غير توبة، اغراء بالقبيح الذي هو دون الشرك، لانه إنما يكون اغراء لو قطع على أنه يغفر ذلك لكل أحد. فاما إذا علق غفرانه لمن يشاء، فلا اغراء لانه لأحد إلا وهو يجوز أن يغفر له، كما يجوز أن يؤاخذ به فالزجر حاصل على كل حال، ومتى عارضوا هذه الآية بآيات الوعيد كقوله:

" ومن يظلم منكم ندقه عذاباً كبيراً " (١) وقوله: " ومن يعص الله ورسوله " ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها " (٢) وقوله: " إن الفجار لفي جحيم " (٣) كان لنا أن نقول: العموم لاصيغة له، فمن أين لكم أن المراد به جميع العصاة ثم نقول نحن نخص آياتكم بهذه الآية ونحملها على الكفار. فمتى قالوا لنا: بل نحن نحمل

(١) سورة الفرقان: آية ١٩. (٢) سورة النساء: آية ١٣.

(٣) سورة الانفطار: آية ١٤. (*)

(٢٢٠)

آياتكم على أصحاب الصغائر. فقد تعارضت الآيات ووقفنا وجوزنا العفو بمجرد العقل، وهو غرضنا وقد استوفينا ما في ذلك في الاصول في باب الوعيد من اراده وقف عليه من هناك. وقوله: " ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً " معناه من يشرك بالله، فقد كذب، لانه يقول: إن عبادته يستحقها غير الله. وذلك افتراء، وكذب. وقوله: " إثماً عظيماً " نصب على المصدر فكأنه قال: افترى، وأثم " اثماً عظيماً " لان افترى بمعنى أثم، فلذلك نصب المصدر به. وقال ابن عمر:

لما نزل قوله: " إن الله يغفر الذنوب جميعاً " ظن أنه تعالى يغفر الشرك أيضاً، فانزل الله هذه الآية. وقال ابن عمر: ما كنا نشك معشر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قاتل المؤمن، وأكل مال اليتيم وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية فامسكنا عن هذه الشهادة. وهذا يدل على أن الصحابة كانت تقول بما نذهب إليه من جواز العفو عن فساق أهل الملة من غير توبة، بخلاف ما يذهب إليه أصحاب الوعيد من المعتزلة، والخوارج، وغيرهم. قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا) (٤٩) - آية
بلاخلاف - .

المعنى:

قد فسرنا معنى " ألم تر إلى الذين " فيما مضى، وأن معناه ألم تعلم في قول أكثر أهل العلم،
واللغة وقال بعضهم: معناه ألم تخبر وفيه سؤال على وجه الاعلام.

وتأويله اعلم قصتهم ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين يزكون أنفسهم؟ وقيل في معناه قولان:
أحدهما - قال الحسن، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع): انهم
اليهود، والنصارى في قوله: " نحن ابناء الله وأحباؤه " (١)

(١) سورة المائدة: آية ٢٠. (*)

(٢٢١)

" وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيتهم " (١) قال الزجاج: اليهود
جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بأولادهم الاطفال، فقالوا يا محمد أعلى هؤلاء ذنوب؟ فقال
(صلى الله عليه وآله): لا، فقالوا: كذلك نحن ما نعمل بالليل يغفر بالنهار، وما نعمل بالنهار يغفر
بالليل، فقال الله تعالى: " بل الله يزكي من يشاء " وقال:

مجاهد، وأبو مالك: كانوا يقدمونهم في الصلاة ويقولون: هؤلاء لا ذنب لهم.

وقال ابن عباس: كانوا يقولون: أطفالنا يشفعون لنا عند الله.

الثاني - روي عن عبدالله بن مسعود انه تزكية الناس بعضهم بعضا لينالوا بذلك ما لا من مال
الدنيا، فاخبر الله تعالى أنه الذي يزكي من يشاء. وتزكيتهم أنفسهم هو أن يقولوا: نحن أذكاء.
اللغة والاعراب والنظم:

والزكا النمو يقال زكا الزرع يزكو وزكا الشيء: إذا نما في الصلاح وقوله:

" ولا يظلمون فتيلا " قال الزجاج: لا يظلمون مقدار فتيل. فيكون نصبه على أنه مفعول ثان:
كقولك: ظلمته حقه أي انتقصته حقه. قال الرماني: ويحتمل أن يكون نصبا على التمييز
كقولك: تصببت عرقا. وقيل في معنى القتيل ههنا قولان:

أحدهما - هو قول ابن عباس في رواية وقول عطاء ابن أبي رباح، ومجاهد، وقتادة،
والضحاك، وعطية: إنه الذي شق النواة. وقال الحسن: الفتيل ما في بطن النواة، والنقير:
ما في ظهرها، والقمطير قشرها.

الثاني - ما فتلت بين اصبعيك من الوسخ. في رواية أخرى عن ابن عباس، وأبي مالك، والسدي: والفتل: لي الشئ يقال. فتلت الحبل أفنتله فتلا، وانفتل فلان في صلاته. والفتيلة معروفة. واقة فتلاء. إذا كان في ذراعيها فتل عن الجنب. والفتيل في معنى المفتول.

(١) سورة البقرة: آية ١١١. (*)

(٢٢٢)

ووجه اتصال قوله: " ولا يظلمون فتيلًا " بما قبله أنه لما قال: " بل الله يزكي من يشاء " نفى عن نفسه الظلم لئلا يظن أن الامر بخلافه. قوله تعالى:

" أنظر كيف يفترون على الله الكذب وفي به إثما مبينا " (٥٠) - آية بلاخلاف. اللغة:

النظر هو الاقبال على الشئ بالبصر ومن ذلك النظر بالقلب، لانه إقبال على الشئ بالقلب، فكذلك النظر بالرحمة، ونظر الدهر إلى الشئ: إذا أهلكه، والنظر إلى الشئ تلمسه والنظر إليه بالتأميل له. والانتظار: الاقبال على الشئ بالتوقع له. والانتظار التأخير إلى وقت. والاستتظار سؤال الانتظار. والمناظرة: اقبال كل واحد على الآخر بالمحاجة. والنظير مثل الشئ لاقباله على نظيره بالمماثلة:

والفرق بين النظر بالعين، وبين الرؤية أن الرؤية هي إدراك المرئي، والنظر إنما هو الاقبال بالبصر نحو المرئي، ولذلك قد تنتظر ولا نراه، كما يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أراه، ولذلك يجوز أن يقال في الله أنه رائي. ولا يجوز أن يقال ناظر.

وقوله: " كيف يفترون " فالافتراء والاختلاق متقاربان، والفرق بينهما أن الافتراء هو القطع على كذب أخبر به، واختلق قدر كذبا أخبر به، لأن الفري القطع، والخلق التقدير. المعنى:

وافترأؤهم الكذب على الله ههنا المراد به تزكيتهم لأنفسهم بانا " أبناء الله وأحباؤه " وأنه " لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى " ذكره ابن جريج وقوله: " وكفى به إثمًا مبينا " معناه تعظيم ائمه وإنما يقال كفى به في العظم على جهة المدح أو الذم، كقولك: كفى بحال المؤمن نبلا وكفى بحال الكافر إثمًا

(٢٢٣)

كأنه قيل: ليس يحتاج إلى حال أعظم منه في المدح أو الذم. كما يقال ليس يحتاج إلى أكثر مما به. ويحتمل أن يكون معناه كفى هذا إثما أي ليس يقصر عن منزلة الاثم.
قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (٥١) - آية بلاخلاف -
المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وقتادة: هم جماعة من اليهود منهم: حي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق، والربيع بن الربيع (١). قالوا لقريش: أنتم أهدى سبيلا ممن آمن بمحمد.

الثاني - قال عكرمة إن المعنى به كعب بن الأشرف، لأنه قال هذا القول، وسجد لصنمين كانا لقريش. وقيل في معنى الجبت، والطاغوت خمسة أقوال:

أحدها - قال عكرمة: إنهما صنمان. وقال أبو علي: هؤلاء جماعة من اليهود آمنوا بالاصنام التي كانت تعبدها قريش، والعرب مقاربة لهم ليعينوهم على محمد (صلى الله عليه وآله).
الثاني - قال ابن عباس: الجبت الاصنام. والطاغوت: تراجمة الاصنام الذين يتكلمون بالتكذب عنها.

الثالث - إن الجبت الساحر. والطاغوت الشيطان، قاله ابن زيد. وقال مجاهد: الجبت: السحر.

(١) في المخطوطة (الربيع) بالنقاط (ابن الربيع) وفي مجمع البيان (أبورافع). (*)

(٢٢٤)

الرابع - قال سعيد بن جبير، وأبو العالية: الجبت: الساحر. والطاغوت: الكاهن.

والخامس - في رواية عن ابن عباس والضحاك: إن الجبت حي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف، لأنهما جاء إلى مكة، فقال لهما أهل مكة: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم، فاخبرونا عنا وعن محمد (صلى الله عليه وآله)، فقالا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحن ننصر الكوماء ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناة، ونصل الارحام، ونسقى الحجيج. ومحمد منبوز قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار فقالا: أنتم خير منه، وأهدى سبيلا فانزل الله هذه الآية. وقال الزجاج، والفراء، والبلخي: هما كل معبود من دون الله تعالى.

اللغة:

ووزن طاغوت فعلوت على وزن رهبوت. قال الخليل: هومن طغا وقلبت اللام إلى موضع العين كما قيل: لاث في لايث. وشاك في شايك. وهذا تغيير لايقاس عليه، لكنه يحمل على النظر. والجبت لاتصريف له في اللغة العربية.

وقيل: هو الساحر بلغة حبش عن سعيد بن جبير: والسبيل المذكور في الآية هو الدين. وإنما سمي سبيلا، لانه كالسبيل الذي هو الطريق في الاستمرار عليه ليؤدي إلى الغرض المطلوب. ونصبه على التمييز كقولك هو أحسن منك وجها وأجود منك ثوبا لانك في قولك: هذا أجود منك قد أبهمت الشيء الذي فضلته به إلا أن تريد ان جملته أجود من جملتك فتقول هذا أجود منك وتمسك.

قوله تعالى: (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (٥٢) - آية بلاخلاف.

(٢٢٥)

النزول:

قوله: " أولئك " اشارة إلى الذين ذكرهم في الآية الاولى. وقال قتادة: لما قال كعب بن الاشرف، وحي بن أخطب " هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا " وهما يعلمان أنهما كاذبان. أنزل الله هذه الآية " أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) فالوعيد فيها على ما تقدم من القول على جهة العناد، لانها اشارة إلى ما تقدم من صفتهم الدالة على عنادهم.

اللغة والمعنى:

(أولئك) لفظ جمع، وواحد ذافي المعنى كما قالوا: نسوة في جماعة النساء. وللواحدة امرأة. وغلب على أولاء (ها) التي للتنبيه. وليس ذلك في أولئك، لان في حرف الخطاب تنبيهها للمخاطب إذ كان الكاف انما هو حرف لحق، لتنبيه المخاطب، فصار معاقبا للهاء التي للتنبيه في أكثر الاستعمال. واللعنة: الابعاد من رحمة الله عقابا على معصيته، فلذلك لايجوز لعن البهائم، ولامن ليس بعاقل من المجانين، والاطفال، لانه سؤال العقوبة لمن لايستحقها. فمن لعن حية أو عقربا أو نحو ذلك مما لامعصية له فقد اخطأ، لانه سأل الله عزوجل ما لايجوز في حكمته.

فان قصد بذلك الابعاد لاعلى وجه العقوبة، كان ذلك جائزا. فان قيل: كيف قال: " فلن تجد له نصيرا " مع تناصر أهل الباطل على باطلهم؟ قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - " فلن تجد له نصيرا " ينصره من عقاب الله الذي يحله به مما قد أعده له، لانه الذي يحصل عليه وماسواه يضمحل عنه.

الثاني - " فلن تجد له نصيرا " ، لانه لايعتد بنصرة ناصرله مع خذلان الله اياه.
قوله تعالى:

(أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا)
(٥٣) - آية - .

(٢٢٦)

النظم والاعراب:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال الصفة بالبخل، والصفة بالحسد والجهل، لان قوله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) يدل على أنهم حسدوا المؤمنين وأنهم يعملون أعمال الجاهلين، إلا أن الكلام خرج مخرج الاستفهام، للتوبيخ، والتفريع بتلك الحال. وجاءت أم ههنا غير معادلة للالف لتدل على اتصال الثاني بالاول. والمعنى بل ألهم نصيب من الملك؟ وتسمى أم هذه المنقطة عن الالف لانها بخلاف المتصلة بها على المعادلة. ومثله " الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه " (١) وقال بعضهم: إن الالف محذوفة، لان أم لاتجئ مبتدأة على تقدير أهم أولى بالنبوة " أم لهم نصيب من من الملك " فيلزم الناس طاعتهم. وهذا ضعيف، لان حذف الالف إنما يجوز في ضرورة الشعر بالاجماع ولا ضرورة في القرآن. " وإذا " لم تعمل في يؤتون لانها إذا وقعت بين الفاء، والفعل، جاز أن تقدر متوسطة فتلغى كما تلغى (أرى) (٢)

إذا توسطت أو تأخرت، لان النية به التأخير. والتقدير أم لهم نصيب من الملك فلا يؤتون الناس نقيرا اذا، وكذلك إذا كان معها واو، نحو " وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا " (٣) ويجوز أن تقدر مستأنفة، فتعمل مع حرف العطف.
و (اذن) لاتعمل إلا بشروط أربعة: أن تكون جوابا لكلام، وأن تكون مبتدأة في اللفظ، ولا يكون ما بعدها متعلقا بما قبلها، ويكون الفعل بعدها مستقبلا.
ومتى نقص واحد من هذه الشروط لم تعمل.
المعنى واللغة:

وقوله: (لا يؤتون الناس نقيرا) اخبار من الله تعالى عن لومهم، وبخلهم

(١) سورة ألم السحدة: آية ١، ٢، ٣. (٢) أي (أرى) القلبية.

(٣) سورة الاسرى: آية ٧٦. (*)

(٢٢٧)

أي لا يؤتونهم نقيرا. وقيل في معنى النكير ههنا ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وعطاء، والضحاك، وابن زيد: إنه النقطة التي في ظهر النواة. وقال مجاهد: هو الحبة التي في بطن النواة. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن النكير ما نقر الرجل بأصبعه، كما ينقر الدرهم. والنقر: النكت ومنه المنقار، لأنه ينقر به. والناقور: الصور، لأن الملك ينقر فيه بالنفخ المصوت. والنقرة: حفرة في الأرض أو غيرها، والنكير:

خشبة تنقر وينبذ فيها. والمناقرة: مراجعة الكلام. وانتقر: اختص كما يختص بالنقر واحدا واحدا. والمنقر: المقلع عن الشيء، لأنه كما يقلع في النقر، ثم يعود إليه. ومعنى (أم لهم نصيب من الملك) ما يدعيه اليهود أن الملك يعود إليهم. وقوله: "فاذا لا يؤتون الناس" يعني العرب. وذكر الزجاج في معناه وجهين: أحدهما - بل لهم نصيب، لأنهم كانوا أصحاب بساتين وأموال، وكانوا في غاية البخل. والثاني - أنهم لو أعطوا الملك، ما أعطوا الناس نقيرا من بخلهم اختاره البلخي وبه قال السدي، وابن جريج.

قوله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) (٥٤) - آية - المعنى: المعنى بقوله: (أم يحسدون الناس) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وعكرمة: إنه النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو قول أبي جعفر (ع)، وزاد فيه وآله. (*)

(٢٢٨)

الثاني - قال قتادة: هم العرب (١): محمد (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله: "يقولون للذين هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا" ذكره الجبائي. والفضل المذكور في الآية قيل فيه قولان:

أحدهما - قال الحسن، وقتادة، وابن جريج: النبوة. وهو قول أبي جعفر (ع) قال وفي آله الامامة.

الثاني - قال ابن عباس: والضحاك والسدي ما أباحه الله للنبي من نكاح تسعة. اللغة: والحسد تمنى زوال النعمة عن صاحبها لما يلحق من المشقة في نيلا لها، والغبطة: تمنى مثل النعمة، لاجل السرور بها لصاحبها، ولهذا كان الحسد مذموما والغبطة غير مذمومة. وقيل: إن الحسد من افراط البخل، لأن البخل مع النعمة، لمشقة بذلها. والحسد تمنى زوالها لمشقة نيلا

صاحبها لها بالعمل فيها على المشقة بنيل النعمة. ثم قال " فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما " فما حسدوهم على ذلك فكيف حسدوا محمدا وآله ما أعطاهم الله إياه.
المعنى:

والملك المذكور في الآية ههنا قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس: هو ملك سليمان، وبه قال عطية العوفي.

الثاني - قال السدي: هو ما أحل لداود من النساء تسع وتسعون امرأة، ولسليمان مئة لان اليهود عابت النبي (صلى الله عليه وآله) بكثرة النساء فبين الله ان ذلك وأكثر منه كان في آل ابراهيم.

الثالث - قال مجاهد، والحسن: إنه النبوة. وقال أبو جعفر (ع): انه الخلافة، من أطاعهم، أطاع الله ومن عصاهم عصى الله.

(١) في المخطوطة (الذين هم محمد..). (*)

(٢٢٩)

قوله تعالى:

(فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنهم سعيرا) (٥٥) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

الضمير في قوله: (فمنهم من آمن) يحتمل أن يكون عائدا إلى أحد أمرين:

أحدهما - قال مجاهد، والزجاج، والجبائي: إن من أهل الكتاب من آمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) لتقدم الذكر في " يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم " (١).

الثاني - فمن أمة ابراهيم من آمن بابراهيم، ومنهم من صد عنه. كما أنكم في أمر محمد (صلى الله عليه وآله) كذلك. وليس في ذلك توهين لامره كما ليس فيه توهين لامر ابراهيم. واتصال الكلام على هذا الوجه ظاهر وعلى الوجه الاول تقديره وقع (٢) هذا كله " فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه " وقال قوم:

" فمنهم من آمن " بداود وسليمان " ومنهم من صد عنه " وليس في الآية دلالة على أن ما تقدم من الوعيد إنما صرف عنهم لايمان هذا الفريق، لانه قال في الآخرة " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " (٣) وقال بعضهم: فيه دلالة على ذلك، ولذلك قال: " وكفى بجهنم سعيرا " أي ان كان صرف بعض العقاب، فكفى بجهنم استغرافا بالعذاب.

اللغة:

وسعير بمعنى مسعورة وترك - لاجل الصرف - التأنيث للمبالغة في الصفة كما قالوا: كف خضيب ولحية دهين. وتركت علامة التأنيث، لأنها لما كان دخولها فيما

(١) سورة النساء: آية ٤٦.

(٢) في المخطوطة (ومع) بدل (وقع).

(٣) سورة آل عمران: آية ١٠٦. (*)

(٢٣٠)

ليست له، للمبالغة نحو رجل علامة كان سقوطها فيما بقي له للمبالغة فحسن هذا التقابل في الدلالة. والسعر: إيقاد النار ومنه قوله: " وإذا الجحيم سعرت " (١) واستعرت النار والحرب والشر استعاراً. وأسعرتها اسعاراً. وسعرتها تسعيراً. والسعر: سعر المتاع وسعروه تسعيراً وذلك لاستعار السوق بحماها في البيع. الساعور كالتنور في الأرض. والمسعور: الذي قد ضربته السموم، والعطش. وزيدت الباء في قوله: " وكفى جهنم " لتأكيد الاختصاص، لأنه يتعلق به من وجهين: وجه الفعل في كفى جهنم كقولك: كفى الله، ووجه الإضافة في الكفاية بجهنم. وعلى ذلك قيل: كفى بالله للدلالة على أن الكفاية تضاف إليه من أوكد الوجوه، وهو وجه الفعل، ووجه المصدر. قوله تعالى:

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما) (٥٦) - آية بلاخلاف - .
المعنى واللغة:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من حجد معرفته وكذب أنبياءه، ودفع الآيات التي تدل على توحيده، وصدق نبيه أنه سوف يصليه نارا لتدل على أن ذلك يفعله به في المستقبل، ولم يكن دخولها لشك، لأنه تعالى عالم بالأشياء لا يخفى عليه أمر من الأمور. ومعنى نصليه نارا: نلزمه إياها نقول: أصليته النار: إذا القيته فيها، وصليته صليا: إذا شويته: وشاة مصالية أي مشوية. والصلا الشواء.

وصلي فلان بشر فلان. وصلي برجل سوء.

وقوله: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) قيل فيه ثلاثة أقوال:

(١) سورة التكويد: آية ١٢. (*)

(٢٣١)

أحدها - قال الرماني: إن الله يجدد لهم جلودا غير الجلود التي احترقت وتعدم المحترقة على ظاهر القرآن من أنها غيرها، لأنها ليست بعض الانسان. قال قوم هذا لايجوز، لأنه يكون عذب من لا يستحق العذاب. قال الرماني: لا يؤدي إلى ذلك، لان ما يزداد لا يألم، ولا هو بعض لما يألم، وإنما هو شئ يصل به الالم إلى المستحق له. وقال الجبائي: لايجوز أن يكون المراد ان يزداد جلدا على جلده، كلما نضجت لأنه لو كان كذلك لوجب أن يملأ جسد كل واحد من الكفار جهنم إذا أدام الله العقاب، لأنه كلما نضجت تلك الجلود زاد الله جلدا آخر، فلا بد أن ينتهي إلى ذلك.

والجواب الثاني - اختاره البلخي والجبائي، والزجاج: ان الله تعالى يجدها بان يردها إلى الحالة التي كانت عليها غير محترقة، كما يقال جئنتي بغير ذلك الوجه وكذلك، إذا جعل قميصه قباء جاز إن يقال جاء بغير ذلك اللباس أو غير خاتمه فصاغه خاتما آخر جاز أن يقال هذا غير ذلك الخاتم، وهذا هو المعتمد عليه.

والثالث - قال قوم: إن التبديل إنما هو للسراييل التي ذكرها التي ذكرها الله في قوله: " سراييلهم من قطران " (١) فاما الجلود فلو عذبت ثم إوجدت، لكان فيه تفتير عنهم، وهذا بعيد، لأنه ترك للظاهر وعدول بالجلود إلى السراييل، ولانقول إن الله تعالى يعدم الجلود، بل على ما قلناه يجدها ويطريها بما يفعل فيها من المعاني التي تعود إلى حالتها، فاما من قال: إن الانسان غير هذه الجملة، وأنه هو المعذب، فقد تخلص من هذا السؤال. ويقوي ما قلناه ان أهل اللغة يقولون: أبدلت الشئ بالشئ إذا أزلت عينا بعين، كما قال الراجز:

عزل الامير بالامير المبدل وبدلت - بالتشديد - إذا غيرت هيئة، والعين واحدة. يقولون: بدلت جتي قميصا: إذا جعلتها قميصا ذكره المغربي، وقال البلخي: ويحتمل وجها آخر وهو أن يخلق الله لهم جلدا آخر فوق جلودهم، فاذا احترق التحناني أعاده الله.

(١) سورة ابراهيم: آية ٥٠. (*)

(٢٣٢)

وهكذا يتعقب الواحد الآخر قال: ويحتمل أن يخلق الله لهم جلدا لا يألم يعذبهم فيه، كما يعذبهم في سراييل القطران.

فان قيل: كيف قال: (ليذوقوا العذاب) مع أنه دائم لازم؟ قيل: لان احساسهم في كل حال كاحساس الذائق في تجدد الوجدان من غير نقصان، لان من استمر على الاكل، لا يجد الطعم، كما يجد الطعم من يذوقه. وقوله: " إن الله كان عزيزا حكيما " معناه أنه قادر قاهر لا يمتنع عليه انجاز ما توعد به أو وعد، وحكيم في فعله لا يخلف وعيده، ولا يفعل إلا قدر المستحق به

فينبغي للعاقل أن يتدبره، ويكون حذره منه على حسب علمه به ولا يغتر بطول الامهال، والسلامة من تعجيل العقوبة.

قوله تعالى:

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) (٥٧) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

لما ذكر الله تعالى في الآية الاولى ما توعد به الكفار والجاحدين لآياته تعالى، وعدفي هذه الآية المصدقين به تعالى، والعاملين الاعمال الصالحات، وهي الحسنات التي هي طاعات الله، وصالح يجري على وجهين:

أحدهما - على من يعمل الطاعة.

الثاني - على نفس العمل ويقال: رجل صالح، ومعناه ذو عمل صالح، ويقال:

عمل صالح، فيجري عليه الوصف بأنه صالح. وعدهم بأن سيدخلهم جنات وهي جمع جنة وهي البستان التي يجنها الشجر " تجري من تحتها الأنهار " وفيه محذوف، لان التقدير تجري من تحتها مياه الأنهار، لان الماء هو الجاري دون الأنهار

(٢٣٣)

غير أنه يعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز، كما سقط في قولهم: هذا شعر امرئ القيس وان كان المراد انه حكاية عنه، فاما قوله: " واسأل القرية " مجاز لامحالة، لانه لا بد فيه من تقدير أهلها، وقوله: " خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة " يعني من النفاس والحبيض ومن جميع الاقدار، والادناس.

اللغة:

والطهارة نقيض النجاسة. والنجاسة في الاصل هي ماكان نتنا نحو الجيف، وغيرها، وشبه بذلك نجاسة الحكم تبعا للشريعة كما يقال في الخمر: إنها نجسة.

وقوله: " ويدخلهم ظلا ظليلا " فالظل أصله الستر من الشمس قال رؤبة: كل موضع يكون فيه الشمس، فتزول عنه، فهو ظل وفي. وماسوى ذلك فظل، لا يقال فيه في. والظل: الليل، لانه كالستر من الشمس. والظلة: السترة، وظل يفعل كذا: إذا فعله نهارا، لانه في الوقت الذي يكون للشمس ظل. والاضلال الدنو، لان الشئ بدنوه، كأنه قد ألقى عليك ظله. والاضل: باطن منسم البعير، لان المنسم يستره. والظليل: هو الكنين، لانه لاشمس فيه ولاسموم. قال الحسن:

ربما كان ظل ليس بظليل، لانه يدخله الحر والسموم، فلذلك وصف ظل الجنة بأنه ظليل. ومنه قوله: " وظل ممدود " (١) لانه ليس كل ظل ممدودا. وروي أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها وهي شجرة الخلد. وقيل: إنما قال " ظلا ظليلا " فرقا بينه وبين " ظل ذي ثلاث شعب لاطليل ولا يغني من اللهب " (٢) وقيل يدخلهم ظلا ظليلا في الموقف حيث لا ظل إلا ظل عرشه. قوله تعالى:

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم

(١) سورة الواقعة: آية ٣١.

(٢) سورة المرسلات آية ٣١ - ٣٢. (*)

(٢٣٤)

بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) (٥٨) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية ثلاثة أقوال:

أولها - ما قال ابن عباس، وأبي بن كعب، والحسن، وقتادة، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، وأبي عبدالله (ع): إن كل مؤتمن على شئ يلزمه رده.

الثاني - قال زيد بن أسلم، ومكحول، وشهر بن حوشب: إن المراد به ولاة الامر وهو اختيار الجبائي، وروي ذلك عن أبي جعفر أيضا وأبي عبدالله (ع)

وقالوا: أمر الله الأئمة كل واحد منهم أن يسلم الامر إلى من بعده، وعلى الوجه الاول يدخل هذا فيه، لان ذلك من جملة ما ائتمنه الله عليه. ولذلك قال أبو جعفر (ع):

إن اداء الصلاة والزكاة والصوم والحج من الامانة، ويكون الامر للامر باداء الامانة من الغنائم والصدقات، وغير ذلك مما يتعلق به حق الرعية.

الثالث - قال ابن جريج: نزلت في عثمان بن طلحة. أمر الله تعالى نبيه أن يرد إليه مفاتيح الكعبة، والمعتمد هو الاول، وإن كان الاخير روي أنه سبب نزول الآية، غير أنه لا يقصر عليه.

اللغة والمعنى:

تقول: أديت الشئ أو ديه تأدية، وهو المصدر الحقيقي، ولو قلت: أديت أداء كان جائزا يقام الاسم المصدر. ويقال: أدوات للصيد أدوله ادوا:

إذا خنته، لتصيده. وأدى اللبن يؤدي: إذا حمض. وقوله: " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " أمر الله تعالى الحكام بين الناس أن يحكموا بالعدل لا بالجور " ان الله نعمًا يعظكم به " معناه نعم الشيء شيئًا يعظكم الله به من أداء الامانة وكتبت (ما) في (نعمًا) موصولة، لانها بمنزلة الكافي في (إنما)، و (ربما)، غير انها في نعمًا

(٢٣٥)

اسم يعود إليه الضمير في (به) فتقديره نعم شيئًا يعظكم به أونعم وعظا يعظكم به، ولا يجوز إسكان العين مع الميم في نعمًا لانه جمع بين ساكنين، ولكن يجوز اختلاس الحركة من غير اشباع الكسرة، كالاختلاس في " يأمركم " وبارئكم " وعلى هذا تحمل قراءة أبي عمر. وقال الزجاج: اجتماع الساكنين فيه ينكره جميع البصريين.

والسميع: هو من كان على صفة يجب لاجلها أن يسمع المسموعات إذا وجدت والبصير من كان على صفة يجب لاجلها أن يبصر المبصرات إذا وجدت. والسامع هو المدرك للمسموعات. والمبصر هو المدرك للمبصرات. ولذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع بصير، ولا يوصف بأنه سامع مبصر إلا بعد وجود المبصرات والمسموعات.

وقوله: (إن الله سميعا بصيرا) اخبار بانه كان سميعا بصيرا فيما مضى.

وذلك يرجع إلى كونه حيا لآفة به فاذا كان لايجوز خروجه عن كونه حيا، فلا يجوز خروجه عن كونه سميعا بصيرا.

قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) (٥٩)

- آية بلاخلاف -.

المعنى:

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يأمرهم أن يطيعوه ويطيعوا رسوله ويطيعوا أولي الامر منهم، فالطاعة هي امتثال الامر. فطاعة الله هي امتثال أوامره والانتهاة عن نواهيه. وطاعة الرسول كذلك امتثال أوامره وطاعة الرسول أيضا هي طاعة الله، لانه تعالى أمر بطاعة رسوله، فمن أطاع الرسول، فقد أطاع

(٢٣٦)

الله كما قال " من يطع الرسول فقد أطاع الله " (١) فأما المعرفة بأنه رسول، فمعرفة بالرسالة ولايتم ذلك إلا بعد المعرفة بالله، وليست احدهما هو الاخرى، وطاعة الرسول واجبة في حياته

وبعد وفاته، لان بعد وفاته يلزم اتباع سنته، لانه دعا إليها جميع المكلفين إلى يوم القيامة، كما أنه رسول إليهم أجمعين. فاما أولو الامر، فللمفسرين فيه تاويلان: أحدهما - قال أبوهريرة، وفي رواية عن ابن عباس، وميمون بن مهران، والسدي، والجبائي، والبلخي، والطبري: إنهم الامراء.

الثاني - قال جابر بن عبدالله، وفي رواية أخرى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعطاء، وأبي العالية: انهم العلماء. وروى أصحابنا عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أنهم الائمة من آل محمد (صلى الله عليه وآله) فذلك أوجب الله تعالى طاعتهم بالاطلاق، كما أوجب طاعة رسوله وطاعة نفسه كذلك. ولايجوز ايجاب طاعة أحد مطلقا إلا من كان معصوما مأمونا منه السهو والغلط، وليس ذلك بحاصل في الامراء، ولا العلماء، وإنما هو واجب في الائمة الذين دلت الادلة على عصمتهم وطهارتهم، فاما من قال المراد به العلماء، فقله بعيد، لان قوله (وأولي الامر) معناه أطيعوا من له الامر، وليس ذلك للعلماء، فان قالوا: يجب علينا طاعتهم إذا كانوا محقين، فاذا عدلوا عن الحق فلا طاعة لهم علينا. قلنا: هذا تخصيص لعموم ايجاب الطاعة لم يدل عليه دليل. وحمل الآية على العموم، فيمن يضح ذلك فيه أولى من تخصيص الطاعة بشئ دون شئ كما لايجوز تخصيص وجوب طاعة الرسول وطاعة الله في شئ دون شئ. وقوله: (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) فمعنى الرد إلى الله هو إلى كتابه والرد إلى رسوله هو الرد إلى

سنته. وقول مجاهد، وقتادة، وميمون بن مهران، والسدي: والرد إلى الائمة يجري مجرى الرد إلى الله والرسول، ولذلك قال في آية أخرى " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٢) ولانه إذا كان

(١) سورة النساء: آية ث ٧٩. (٢) سورة النساء: آية ٨٢. (*)

(٢٣٧)

قولهم حجة من حيث كانوا معصومين حافظين للشرع جروا مجرى الرسول في هذا الباب. وقوله: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أي تصدقون بهما. (ذلك خير وأحسن تاويلا) ذلك اشارة إلى الرد إلى الله وإلى الرسول (وأحسن تاويلا) قال قتادة، والسدي، وابن زيد: أحمد عاقبة. وقال مجاهد: معناه أحسن جزاء.

وهومن آل يؤول إذا رجع والمآل المرجع والعاقبة مآل، لانها بمنزلة ما تفرقت عنه الاشياء ثم رجعت إليه. وتقول: إلى هذا يؤول الامر أي يرجع. وقال الزجاج:

أحسن من تأويلكم أنتم إياه من غير رد إلى أصل من كتاب الله وسنة نبيه، وهذا هو الأقوى، لان الرد إلى الله والرسول والائمة المعصومين أحسن من تأويل بغير حجة. واستدل جماعة بهذه الآية على أن الاجماع حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع، لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا هو حجة، وهذا إن استدل به مع فرض أن في الامة معصوما حافظا للشرع كان صحيحا، وإن فرضوا مع عدم المعصوم كان باطلا، لان ذلك استدلال بدليل خطاب، لا تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ماعداء بخلافه عند أكثر المحصلين، فكيف يعتمد عليه ههنا، على أنهم لا يجمعون على شئ إلا عن كتاب أو سنة، فكيف يقال: إذا أجمعوا لا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة، وهم قد ردوا إليها على أن ذلك يلزم في كل جماعة، وإن لم يكونوا جميع الامة إذا اتفقوا على شئ إلا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة، لان قوله: (فان تنازعتم) يتناول جماعة ولا يستغرق جميع الامة، فعلم بذلك فساد الاستدلال بما قالوه. وقد بينا الكلام على ذلك مستوفى في العدة في أصول الفقه.

قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما

(٢٣٨)

أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (٦٠) - آية بلاخلاف -.

المعنى واللغة:

عجب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) في هذه الآية ممن يزعم أنه آمن بما أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله)، وما أنزل من قبله بان قال ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين ذكرنا وصفهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرهم الله أن يكفروا به. وقال الحسن، والجبائي: نزلت الآية في قوم منافقين احتكموا إلى الاوثان بضرب القداح. وقد بينا معنى الطاغوت فيما تقدم. وقيل في معناه ههنا قولان:

أحدهما - أنه كاهن تحاكم إليه رجل من المنافقين، ورجل من اليهود هذا قول الشعبي، وقتادة. وقال السدي اسمه أبو بردة.

الثاني - قال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والضحاك: إنه كعب ابن الاشرف رجل من اليهود، فاخترت المنافق التحاكم إلى الطاغوت، وهو رجل يهودى.

وقيل: كعب بن الاشرف، لانه يقبل الرشوة، واختار اليهودي التحاكم إلى محمد نبينا (صلى الله عليه وآله) لانه لايقبل الرشوة. ومعنى الطاغوت ذو الطغيان - على جهة المبالغة في الصفة - فكل من يعبد من دون الله فهو طاغوت، وقد تسمى به الاوثان كما تسمى بأنها رجز من عمل الشيطان، ويوصف به كل من طغى، بان حكم بخلاف حكم الله تعالى غير راض بحكمه تعالى. وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أن الآية في كل من يتحاكم إلى من يحكم بخلاف الحق، و (زعم)، يحتاج إلى اسم، وخبر، " وانهم " في الآية نائب عن الاسم، والخبر، لانها على معنى الجملة، ومخرج المفرد، وليس بمنزلة ظننت ذلك، لانه على معنى المفرد ومخرج المفرد، لان قولك: زعمت أنه قائم يفيد ما يفيد هو قائم، وكذلك ظننت ذاك، لانه

(٢٣٩)

يدل دلالة الاشارة إلى ما تقدر علمه عند المخاطب.

وقوله: (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) يدل على بطلان قول المجبرة: إن الله تعالى يفعل المعاصي ويريدها، لان الله تعالى نسب إضلالهم إلى أنه بارادة الشيطان على وجه الذم لهم، فلو أراد تعالى أن يضلهم بخلق الضلال فيهم، لكان ذلك أوكد وجوه الذم في إضلالهم. وأصل الضلال الهلاك بالعدول عن الطريق المؤدي إلى البغية، لانه ضد الهدى الذي هو الدلالة على الطريق المؤدي إلى البغية، وله تصرف كثير يرجع إلى هذه النكتة ذكرناه فيما مضى. وأضله الله معناه: سماه الله ضالا أو حكم عليه به، كما يقال أكفره بمعنى سماه بالكفر، ولايجوز أن يقال أكفره الله بمعنى أنه دعاه إلى الكفر، لانه منزه عن ذلك، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى:

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) (٦١) - آية -.

قال ابن جريج: الداعي إلى حكم الرسول هو المسلم الذي يدعو المنافق إلى حكم الرسول (صلى الله عليه وآله) وقال قتادة: هو يهودي دعا المنافق إلى حكم الرسول، لعلمه أنه لايجوز في الحكم " وتعالوا " أصله من العلو وهو تفاعلوا، منه كقولك: توافقوا، فاذا قلت لغيرك:

تعال، فمعناه ارتفع علي - وان كان في اتخفاض من الارض - لانه جعله كالرفيع بكونه فيه، ويجوز أن يكون أصله للمكان العالي حتى صار لكل مكان. وقوله:

(يصدون عنك صدودا) قيل في سبب صد المنافقين عن النبي (صلى الله عليه وآله) قولان:

أحدهما - لعلمهم بأنه لا يأخذ الرشا على الحكم وأنه يحكم بمر الحق.

والثاني - لعداوتهم للدين.

وصدّدت الاصل فيه ألايتعدى، لانك تقول: صدّدت عن فلان أصد

(٢٤٠)

بمعنى أعرضت عنه، ويجوز صدّدت فلانا عن فلان - بالتعدي - لانه دخله معنى منعته عنه. ومثله رجعت أنا ورجعت غيري، لانه دخله معنى رددته، فلذلك جاز رجعته، " وصدودا " نصب على المصدر على وجه التأكيد للفعل، كقوله:

" وكلم الله موسى تكليما " (١) ومعنى ذلك أنه ليس ذلك على بيان كالكلام بل كلمه في الحقيقة. وقيل في معنى " تكليما " أنه كلمه تكليما شريفا عظيما ويمكن مثله في الآية. ولا يكون تقديره رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا عظيما.

قوله تعالى:

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) (٦٢) - آية - .

الاعراب:

قيل في موضع كيف من الاعراب قولان:

أحدهما - انه رفع بتقدير: فكيف صنيعهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، كأنه قال الاساءة صنيعهم بالجرأة في كذبهم أم الاحسان بالتوبة من جرمهم.

والثاني - انه نصب وتقديره: كيف يكونون أمصريين أم تائبين يكونون؟ ويجوز الرفع على معنى كيف بك. كأنه قال أصلح أم فساد؟ المعنى:

وقيل في معنى المصيبة في الآية قولان:

أحدهما - ذكره الزجاج: ان بعض المنافقين أظهر أنه لايرضى بحكم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقتله عمر، ثم جاء إخوانه من المنافقين يطالبون بدمه " يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا " كذبا وزورا.

(٣) سورة الانفطار: آية ١٤. (*)

(٢٤١)

الثاني - ان أصابتهم نقمة من الله لم ينيبوا تائبين من المعصية بل يزدادون جرأة بحلفهم كاذبين بالله عزوجل. وقال الحسين بن علي المغربي: الآية نزلت في عبدالله بن أبي وما أصابه من النذل عند مرجعهم من غزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع حين نزلت سورة المنافقين، فاضطر إلى الخشوع والاعتذار، وذلك المذكور في تفسير سورة المنافقين أو مصيبة

الموت لما تضرع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الاقالة والاستغفار واستوهبه ثوبه، ليتقي به النار يقولون: ما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أي بكلامه بين الفريقين المتازعين في غزوة بني المصطلق. وقوله: (فاعرض عنهم) يأسا منهم (وعظهم) ايجابا للحجة عليهم " وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً " فيه دلالة على فضل البلاغة وحث على اعتمادها. وقوله: " إن أردنا إلا إحسانا أردنا وتوفيقاً " معناه قيل فيه قولان:

أحدهما - أي ما أردنا بالمطالبة بدم صاحبنا إلا إحسانا إلينا، وما وافق الحق في أمرنا.
الثاني - ما أردنا بالعدول عنك في المحاكمة توفيقاً بين الخصوم، وإحساناً بالتقريب في الحكم دون الحمل على مر الحق. كل ذلك كذب منهم وافك.

ان قيل كيف يقتضي الانتقام منهم الاعتذار لما سلف من جرمهم؟ قلنا:
عنه جوابان:

أحدهما - للتقريع بتعجيل العقاب على ما ارتكبوا من الآثام.
الثاني - ان الانتقام قد يكون اقضاء النبي (صلى الله عليه وآله) واذلاله إياهم، وتخويله بالنفي أو القتل ان لم ينتهوا عن قبائحهم - هذا قول الجبائي - والحلف: القسم.
ومنه الحلف، لتحالفهم فيه على الامر. وحليف الجود ونحوه، لانه كالحلف في اللزوم، أو حلف الغلام إذاقارب البلوغ.
قوله تعالى:

(أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) (٦٣)
- آية - .

(٢٤٢)

المعنى:

(أولئك) اشارة إلى المنافقين الذين تقدم وصفهم، وإنما قال: يعلم ما في قلوبهم وإن كان معلوماً ذلك بدلالة العقل لأميرين:

أحدهما - تأكيداً لما علمناه.

والثاني - انه يفيد أنه لا يغنى عنهم كتمان ما يضمرونه شيئاً من العقاب، لان الله يعلم ما في قلوبهم من النفاق. وكذلك كل ما ذكره الله مما هو معلوم عند المخاطب. إنما الفائدة في مقارنته بما ليس بمعلوم على جهة الاحتجاج به، أو غيره من الوجوه. وقوله: (فاعرض عنهم وعظهم) جمع بين معنى الاعراض والاقبال.

وقيل في معناه ثلاثة أوجه:

أحدها - فاعرض عنهم بعداوتك لهم، وعظهم.

الثاني - فاعرض عن عقابهم وعظهم.

الثالث - قال الجبائي: أعرض عن قبول الاعتذار منهم. وقوله: " وقل لهم في أنفسهم قوالا بليغا " قال الحسن: القول البليغ الذي أمر به في الآية أن يقول إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلنكم، فهذا يبلغ من نفوسهم كل مبلغ. وقال الجبائي: خوفهم بمكاره تنزل بهم في أنفسهم إن عادوا لمثل ما فعلوه. ويجوز أن يكون المراد ازجرهم عما هم عليه بأبلغ الزجر.
اللغة:

وأصل البلاغة البلوغ، تقول: بلغ الرجل بالقول بليغ بلاغة، فهو بليغ: إذا كان بعبارة يبلغ كثير ما في قلبه. ويقال: أحقق بليغ، وبلغ ومعناه. أنه أحقق يبلغ حيث يريد. وقيل: معناه قد بلغ في الحماسة. وفي الآية دلالة على فضل البلاغة، وأنها أحد أقسام الحكمة، لما فيها من بلوغ المعنى الذي يحتاج إلى التفسير باللفظ الوجيز مع حسن الترتيب.

(٢٤٣)

قوله تعالى:

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) (٦٤) - آية بلاخلاف - .
المعنى:

" ما " في قوله: " وما أرسلنا " نافية فلذلك قال: " من رسول "، لان (من) لاتزاد في الايجاب، وزيادتها تؤذن باستغراق الكلام كقولك: ما جاءني من أحد.
والتقدير في الآية: وما أرسلنا رسولا إلا ليطاع، فيمتثل ما نأمره به. والذي اقتضى ذكر طاعة الرسول إعراض هؤلاء المنافقين - الذين تحاكموا إلى الطاغوت - عن طاعته، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به حتى كأنه قد قيل لهم: من الايمان أن لاتطيعوه في كل ما يدعوا إليه، فبين الله تعالى أنه كغيره من الرسل الذي ما أرسل إلا ليطاع. وقوله: " بأذن الله " معناه بأمر الله الذي دل على وجوب طاعتهم، والاذن على وجوه: يكون بمعنى اللطف، كقوله: " وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله " (١) ومنها الامر مثل هذه الآية. ومنها التخليية نحو " وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله " (٢) وقوله: " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم " معناه إذ بخسوها حقها بادخال الضرر عليها بفعل المعصية من استحقاق العقاب، وتقويت الثواب بفعل الطاعة.
الاعراب والمعنى:

وموضع " أنهم " رفع. والمعنى لو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم " لوجدوا الله توابا رحيمًا " و (لو) موضوعة للفعل، لما فيها من معنى الجزاء تقول: لو كان كذا، لكان كذا. ولا يقع بعدها إلا (أن). وإنما اجيز في (أن)

(١) سورة يونس: آية ١٠٠. (٢) سورة البقرة: آية ١٠٢. (*)

(٢٤٤)

خاصة أن تقع بعدها، لأنها كالفعل في إفادة معنى الجملة. وفتحت (ان) لأنها مبنية على (لو) بترتيبها على نحو ترتيبها بعد العامل فيها. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة: من أن الله تعالى يريد أن يعصي الانبياء قوم ويطيعهم آخرون، لأنه تعالى بين أنه ما أرسلهم إلا ليطاعوا، واللام لام الغرض ومعناه إلا وأراد من المبعوث إليهم أن يطيعوا. وذلك خلاف مذهبهم. وفيها أيضا دلالة على أن من كان مرتكبا لكبيرة يجب أن يستغفر الله فان الله سيتوب عليه ويقبل توبته، ولا ينبغي لاحد أن يستغفر مع كونه مصرا على المعصية بل ينبغي أن يتوب ويندم على ما فعل ويعزم على أن لا يعود إلى مثله ثم يستغفر باللسان ليتوب الله عليه. وقوله: " لوجدوا الله " يحتمل أمرين: أحدهما - لوجدوا مغفرة الله لذنوبهم ورحمته إياهم.

والثاني - لعلموا الله توابا رحيمًا. والوجدان قد يكون بمعنى الإدراك، فلا يجوز عليه تعالى أنه تعالى غير مدرك في نفسه. وذكر الحسن في هذه الآية: أن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق واثتمروا به فيما بينهم، فآخبره الله بذلك، وقد دخلوا على رسول الله، فقال رسول الله: إن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق، واثتمروا به فيما بينهم، فليقم أولئك فليستغفروا ربهم، وليعترفوا بذنوبهم حتى اشفع لهم. فلم يقم أحد. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا تقومون؟ مرارا - . ثم قال: قم يافلان وأنت يافلان، فقالوا يارسول الله نحن نستغفر الله ونتوب إليه، فاشفع لنا. قال الآن أنا كنت في أول أمركم أطيب نفسا بالشفاعة، وكان الله تعالى أسرع إلى الاجابة أخرجوا عني، فخرجوا عنه حتى لم يرههم.

قوله تعالى:

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (٦٥) - آية - .

(٢٤٥)

قيل في معنى دخول (لا) في أول الكلام قولان:

أحدهما - أنها رد لكلام. كأنه قيل لا الأمر كما يزعمون من الايمان وهم على تلك الحال من الخلاف، ثم استؤنف قوله: " وربك لا يؤمنون حتى.. ".

الثاني - انها توطئة للنفي الذي يأتي فيما بعد، لانه إذا ذكر في أول الكلام وآخره كان أوكد وأحسن، لان النفي له صدر الكلام. وقد اقتضى القسم أن يذكر في الجواب.
النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - أنها نزلت في الزبير ورجل من الانصار تخاصهما إلى النبي (صلى الله عليه وآله) في سراح من الحرّة كانا يسقيان منه نخلا لهما، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) اسق يازبير ثم ارسل إلى جارك، فغضب الانصاري، وقال: يارسول الله ان كان ابن عمك؟! ! فتلون وجه رسول الله حتى عرف ان قد ساءه، ثم قال يازبير احبس الماء إلى الجدد (١)
أو إلى الكعبين، ثم خل سبيل الماء، فنزلت الآية. وقال أبو جعفر (ع) كانت الخصوصية بين الزبير، وحاطب بن أبي بلتعة روي ذلك عن الزبير وأم سلمة. وذهب إليه عمر بن شبة، والواقدي. وقال قوم وهو اختيار الطبري: إنها نزلت في المنافق واليهودي اللذين احتكما إلى الطاغوت. قال: لان سياق الكلام بهذا أشبه.

اللغة والمعنى:

وقوله: (فيما شجر بينهم) معناه فيما وقع بينهم من الاختلاف. تقول شجر يشجر شجرا وشجورا وشاجره في الامر: إذا نازعه فيه مشجرة، وشجارا وتشاجروا فيه: تشاحوا. وكل ذلك لتداخل كلام بعضهم في بعض كتداخل الشجر بالتفافه. وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة، لانه إذا وجب الرضى بفعل النبي (صلى الله عليه وآله) فالرضا بفعل الله تعالى أولى، ولو كان خلق الكفر والمعاصي لوجب على الخلق الرضابه وذلك خلاف الاجماع. وقيل في معنى الحرج قولان:

(١) أراد مرفع من اعضاء المزرعة لتمسك الماء كالجدار. وفي رواية، قال له: " احبس الماء حتى يبلغ الجدى - بضم الميم وتشديد الدال - " وهي المسناة - عن لسان العرب: (جدد) - .

(٢٤٦)

أحدهما - قال مجاهد هو الشك. وقال الضحاك: الاثم. وأصل الحرج الضيق فكأنه قال ضيق شك أو اثم وكلاهما يضيق الصدر. ومعنى الآية أن هؤلاء المنافقين لا يؤمنون حتى يحكموا النبي (صلى الله عليه وآله) فيما وقع بينهم من الاختلاف، ثم لا يجدوا حرجا مما قضى به أي لاتضيق صدورهم به، ويسلموا لما يحكم به لايعارضونه بشئ فحينئذ يكونون مؤمنين. و " تسليمًا " مصدر مؤكد والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكرك للفعل ثانيا كأنك قلت: سلمت تسليمًا ومن حق التوكيد أن يكون محققا لما تذكره في صدر كلامك، فاذا قلت: ضربت ضربا، فمعناه

أحدثت ضرباً احقه حقا ولا أشك فيه. ومثله في الآية انهم يسلمون من غير شك يدخلهم فيه. وقال أبو جعفر (ع): لما حكم النبي (صلى الله عليه وآله) للزبير على خصمه، لوى شذقه وقال لمن سأله عن حكم له، فقال: لمن يقضي؟ لابن عمته. فتعجب اليهودي وقال: إنا آما بموسى فاذنبنا ذنبا فامرنا الله تعالى بان نقتل أنفسنا، فقتلناها فاجلت عن سبعين ألف قتيل. وهؤلاء يقرن بمحمد (صلى الله عليه وآله) ويطؤون عقبه ولا يرضون بقضيته، فقال ثابت بن الشماس لو أمرني الله أن أقتل نفسي لقتلتها فانزل الله " ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم.. " إلى قوله: " إلا قليل منهم " يعني ابن الشماس ذكره السدي.

قوله تعالى:

(ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً) (٦٦) - آية بلاخلاف - .
القراءة، والحجة:

قرأ ابن عامر وحده " إلا قليلا " بالنصب، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. الباقر بالرفع. وقيل: إن النصب قراءة أبي، فمن رفع فعلى البدل من

(٢٤٧)

المضر كأنه قال: ما فعله إلا قليل منهم. وهذا يجوز في النفي دون الاثبات، لانه لا يجوز أن يقول فعله إلا قليل منهم، لان الفعل ليس للقليل في الاثبات كما هو لهم في النفي. وقال الكسائي: ارتفع بالتكرار. والمعنى ما فعلوه ما فعله إلا قليل.

ومن نصب فانه قال: الاستثناء بعد تمام الكلام، لان قوله: " ما فعلوه " كلام تام كما أن قولك فعل القوم كلام تام. فاستثنى بعده، ولم يجعل ما بعد إلا عليه الاعتماد. والوجه الرفع، لان الفعل لهم. فهو أدل على المعنى. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي " إن اقتلوا " بضم النون وبضم الواو في قوله: " أو اخرجوا " وقرأ عاصم وحزمة بكسرهما وكسر النون. وضم الواو أبو عمرو. فمن ضمهما فلان الثالث مضموم أتبع الضمة. ومن كسرهما فعلى أصل الحركة لانتقاء الساكنين.

وأبو عمرو ضم الواو تشبيهاً بواو " اشتروا الضلالة " (١). " ولا تتسوا الفضل بينكم " (٢).
المعنى:

ومعنى قوله: (ولو أنا كتبنا عليهم) أي لو أنا ألزمناهم وأوجبنا عليهم " أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم " أي لو كتبنا عليهم ذلك - كما أوجبنا على قوم موسى وقتلوا أنفسهم وأخرجهم إلى التيه - ما فعله هؤلاء للمشقة التي فيه مع أنه كان ينبغي أن يفعلوه، لمالهم فيه من الحظ، لانا لم نكن لنأمرهم به إلا لما تقضيه الحكمة، وما فيه من المصلحة مع تسهيلنا

تكليفهم وتيسيرنا عليهم، فمايقعدهم عنه مع تكامل أسباب الخير فيه وسهولة طريقة؟ ولو فعلوا ما يوعظون به أي ما يؤمرون به، لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وقيل في معناه قولان: أحدهما - ان البصيرة أثبت من اعتقاد الجهالة لما يعتري فيها من الحيرة واضطراب النفس الذي يتميز من حال المعرفة بسكون النفس إليه. الثاني - ان اتباع الحق إثبت منفعة لان الانتفاع بالباطل يضمحل بمايعقب

(١) سورة البقرة: آية ١٦، ١٧٥.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٧. (*)

(٢٤٨)

من المضرة وعظيم الحسرة. وفالاول لاجل البصيرة. والثاني لاجل دوام المنفعة. وقال البلخي معنى الآية أنه لو فرض الله عليهم قتل أنفسهم كما فرض على قوم موسى عندما التمسوا أن يتوب عليهم أو الخروج من ديارهم ما فعلوه. فاذا لم يفرض عليهم ذلك، فليفعلوا ما أمروا به مما هو أسهل عليهم منه، فان ذلك خير لهم وأشد تثبيتا لهم على الايمان. وفي الدعاء اللهم ثبتنا على ملة رسولك. ومعناه اللهم الطف لنا ما نثبت معه على التمسك بطاعة رسولك والمقام على ملته.

قوله تعالى:

(وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (٦٨) - آيتان بلاخلاف

.-

قيل: ان " إذا " دخلت ههنا لتدل على معنى الجزاء، كأنه قال ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما جزاء على فعلهم - ومعنى - " إذا " جواب وجزاء وهي تقع متقدمة ومتأخرة ومتوسطة وإنما تعمل متقدمة خاصة إلا أن يكون الفعل بعدها للحال نحو إذا أظنك خارجا. وتلغى اذا عن العمل من بين أخواتها لأنها تشبه أظن في الاستدراك بها تقول: زيد في الدار أظن فتستدرك بها بعد ما مضى صدر الكلام على اليقين. وكذلك يقول القائل: أنا أجيئك فتقول:

وأنا أكرمك اذن. أردت أن تقول: وأنا أكرمك ثم استدركته باذن. ولدن مبنية ولم تبين عند، لأنها أشد إبهاما إذا كانت تقع في الجواب نحو أين زيد، فتقول: عند عمرو، فلايقع لدن هذا الموقع، فجرت لشدة الإبهام مجرى الحروف.

ومعنى (لدنا) ههنا من عندنا. وإنما ذكر " من لدنا " تأكيدا للاختصاص، بأنه مالا يقدر عليه إلا الله، لانه قديوتي بما يجريه على يد غيره. وقد يؤتي بمايختص بفعله. وذلك أشرف له وأعظم في النعمة ولانه متحف بما لايقدر عليه غيره.

وقوله: " ولهديناهم " معناه ولفعلنا من اللطف بهم ما يثبتون معه على الطاعة، ولزوم الاستقامة وإنما لم يفعل بهم هذا اللطف مع الحال التي هم عليها، لانه يخرجهم

(٢٤٩)

من معنى اللطف حتى يصيروا بمنزلة من لالطف له على وجه. ومثله " اهدنا الصراط المستقيم " أي ثبتنا بلطفك على الصراط المستقيم. وقال أبوعلي: معناه الاخذبهم على طريق الجنة في الآخرة. قال: ولايجوز أن يكون المراد بالهداية ههنا الارشاد إلى الدين لانه تعالى وعد بهذا من يكون مؤمنا مطيعا. ولايكون كذلك إلا وقد اهتدى، فان قيل: لم جاز أن يمنعوا

اللفظ لسوء فعلهم. ولم يجز أن يمنعوا لسوء فعل غيرهم إذ قد صاروا بمنزلة من لالطف لهم؟ قلنا: لانهم يؤتون في معاصيهم من قبل أنفسهم ولايجوز أن يؤتوا فيها من قبل غيرهم ولو جاز ذلك لجاز أن يقتطعوا عن التوبة بالقتل فيكونوا قد أوتوا في معاصيهم من قبل المتقطع لهم وتكون التخلية فيه بمنزلة الاماتة. والواجب في هذا ان يمنع غير هذا المكلف من سوء الفعل الذي فيه ارتفاع اللطف. فان كان لطف هذا المكلف متعلقا بفعل غيره، وقد علم انه لايفعله، لم يحسن تكليف هذا المكلف لانه ان منع هذا من الايمان، فسد، وان ترك وسوء الفعل فسد. واللام في قوله: " ولهديناهم صراطا مستقيما " لام الجواب التي تقع في جواب (لو) كما تقع في جواب القسم. كما قال امرؤ القيس:

حلفت لها بالله حلفة فاجر * لناموا فما ان من حديث ولاصال (١)

والفرق بين لام الجواب ولام الابتداء ان لام الابتداء لاتدخل إلا على الاسم المبتدأ إلا في باب (ان) خاصة فانها تدخل على الفعل لمضارعه الاسم. يبين ذلك قولك: قد علمت ان زيدا ليقوم. وقد علمت ان زيدا ليقوم فتكسر (ان) الاولى وتفتح الثانية. وقوله: (صراطا) نصب على أنه مفعول ثان، لانه في معنى مفعول كسوته ثوبا، أي فاكتسى ثوبا. فكذلك ولهديناهم فاهتدوا صراطا. قوله تعالى:

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله

(١) ديوانه: ١٦١ حلفة فاجر: قسم فاسق. صال: مستدفئ بالنار. في المطبوعة (حديث) بدل (حديث).

(٢٥٠)

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما (٧٠) - آيتان.

المعنى واللغة والنزول:

لما جرى ذكر الطاعة فيما تقدم والحض عليها اقتضى ذكر طاعة الله، وطاعة الرسول، والوعد عليها. وقيل: إنه وعدبامر مخصوص على الطاعة من مرافقة النبيين ومن ذكر معهم وهو أعم فائدة. ومعنى قوله: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين " انه يستمتع برؤية النبيين وزيارتهم، والحضور معهم. فلا ينبغي أن يتوهم من أجل أنهم في أعلى عليين انه لايراهم. وقال الحسن، وسعيد بن جبير، ومسروق، وقتادة، والربيع، والسدي، وعامر: إن سبب نزول هذه الآية ان بعض الناس توهم ذلك، فحزن له، وسأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك، فانزل الله الآية.

وقيل في معنى الصديق قولان:

أحدهما - المداوم على ما يوجبه التصديق بالحق.

الثاني - ان الصديق هو المتصدق بما يخلص له من عمل البر. والاول أظهر.

والشهداء جمع شهيد. وهو المقتول في سبيل الله. وفي تسميته شهيدا قولان:

أحدهما - لانه قام بشهادة الحق حتى قتل في سبيل الله.

والآخر - انه من شهداء الآخرة بما ختم له من القتل في سبيل الله. وليست الشهادة هي القتل،

لانها معصية، ولكنها حال المقتول في اخلاص القيام بالحق لله مقرا به، وداعيا إليه. وقيل:

الشهادة هي الصبر على ما أمره الله به من قتال عدوه والانقياد له. فاما الصبر على الالم

بترك الانين فليس بممنوع، بل هو مباح إذا لم يقل ما يكرهه الله. وقال الجبائي: الشهداء جمع

شهيد. وهم الذين جعلهم الله شهداء في الآخرة. فهم عدول الآخرة. وهذا على مذهبه بعيد، لان

أهل الجنة

(٢٥١)

كلهم عدول عنده، لان من ليس يعدل لا يدخل الجنة. والله تعالى وعدمن يطيعه ويطيع رسوله

بأنه يحشره مع هؤلاء. فينبغي أن يكونوا غير الموعود لهم.

وإلا يصير تقديره إنهم مع نفوسهم.

والصالح: من استقامت نفسه بحسن عمله. والمصلح المقوم لعمل يحسنه.

ويقال: الله يصلح في تدبير عباده. بمعنى أنه يحسن تدبير عباده. ولا يوصف بانه صالح.

الاعراب وقوله: (وحسن أولئك رفيقا) نصب على التميز. ولذلك لا يجمع. وهو في موضع

رفقاء وقيل إنه لم يجمع، لان المعنى، حسن كل واحد منهم رفيقا كما قال: " يخرجكم طفلا "

(١) وقال الشاعر:

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا * باسهم أعداء وهن صديق (٢)

ومن قال: " رفيقا " نصب على التمييز، قال: لانه قد سمع حسن أولئك من رفقاء، وكرم زيد

من رجل. وقال قوم: هونصب على الحال، فانه قد تدخل (من)

في مثله. فاذا سقطت (من) فالحال هو الاختيار، لانه من أسماء الصفات كاسماء الاجناس.

ويكون التوحيد لما دخله من معنى حسن كل واحد منهم مرافقا.

ونظيره: لله درهم فارسا، أي حال الفروسية.

اللغة:

والرفيق: مشتق من الرفق في العمل. وهو الارتفاق فيه. ومنه الترفق في

(١) سورة الحج: آية ٥، وسورة المؤمن: آية ٦٨.

(٢) قائله جرير. ديوانه ٢: ٢٠ الطبعة الاولى. المطبعة العلمية بمصر وروايته (دعون)

بدل (نصبن) وفي المطبوعة (باعين) بدل (بأسهم) وأثبتناها كما في جميع المصادر طبقات فحول الشعراء: ٣٥١،
واللسان (صدق) والعقد الفريد ٧: ٤٨ وروايته (بعثن) بدل (نصبن) وما بعده.

وما نقت طعم العيش منذنايتم * وما ساغ لي بين الجوانح ريق

(٢٥٢)

السير، ونحوه. ومنه المرافقة. والمرفق من اليد - بكسر الميم - لانه يرتفق به.

ويقال أيضا في العمل نحو قوله: " ويهيئ لكم من أمركم مرفقا " (١) أي رفقا يصلح به
أمركم. والمرفق: بفتح الميم - من مرافق الدار. والرفقة: الجماعة في السفر، لارتفاق بعضهم
ببعض. وقوله: " ذلك الفضل " اشارة إلى الثواب بالكون مع النبيين، والصديقين. والتقدير ذلك
هو الفضل من الله. وهو وإن كان مستحقا، فلم يخرج من أن يكون تفضلا، لان سببه الذي هو
التكليف، تفضل. والفضل:

هو الزائد على المقدار إلا أنه قد كثر على ما زاد من الانتفاع. وكل ما يفعله تعالى فهو فضل،
وتفضل، وافضال، لانه زائد على مقدار الاستحقاق الذي يجري على طريق المساواة. وقوله:
" وكفى بالله عليما " انما ذكر، ليعلم انه لا يضيع عنده شئ من جزاء الاعمال. من حيث كان
تعالى: عالما به، وبما يستحق عليه.

وتقديره، وكفى بالله عليما بكنه الجزاء على حقه، وتوفير الحظ فيه. ودخلت الباء في اسم الله
زائدة للتوكيد. والمعنى كفى الله ووجه التأكيد أن اتصال الاسم بالفعل من جهة بنائه عليه وجه
من وجوه الاتصال واتصاله بالباءوجه آخر من وجوه الاتصال، فاذا اجتمعا كان أوكد. ووجه
آخر هو أن معناه اكتفى العباد بالله. ووجه ثالث وهو أنه توطئة لباب سير بزيد وأكرم بزيد
من جهة أن موضعه رفع، وفيه حرف من حروف الجر. والكفاية مقدار مقاوم للحاجة.
ولا يخلو المقدار من أن يكون فاضلا أو مقصرا أو كافيا، فهذه الاقسام الثلاثة متقابلة.

قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (٧١) - آية -.

المعنى واللغة:

هذا خطاب للمؤمنين الذين صدقوا بالله، وبرسوله. ومعناه أيقنوا بالله،

(١) سورة الكهف: آية ١٦. (*)

(٢٥٣)

ورسوله. أمرهم الله أن يأخذوا حذرهم. وقيل في معناه: قولان:

أحدهما - قال أبو جعفر (ع) وغيره: خذوا سلاحكم، فسمي السلاح حذرا لان به يقى الحذر. الثاني - احذروا عدوكم باخذ السلاح، كما يقال للانسان خذ حذرك. بمعنى احذر. والحذر والحذر لغتان. مثل الاذن والاذن. والمثل المثل. ثم أمرهم بان ينفروا. والنفور: الفرع نفر ينفى نفورا: إذا فرغ. ونفر إليه: إذا فرغ من أمر إليه. والمعنى انفروا إلى قتال عدوكم. ومنه النفور: جماعة تفرغ إلى مثلها.

والنفير إلى قتال العدو. ونفر الحاج يوم الثاني والثالث من التشريق، لانهم يفرعون إلى الاجتماع للرجوع إلى الاوطان. والمنافرة: المحاكمة للفرع إليها فيما يختلف فيه وقيل: إنما كانت، لانهم يسألون الحاكم أيضا أعز نفرا. ونفراه تنفيرا. ونافراه منافرة. وتنافروا تنافرا. واستنفره استنفرارا. وقوله: " ثبات " قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إن معناه انفروا فرقة بعد فرقة، أو فرقة في جهة وفرقة في جهة. أو انفروا جميعا من غير تفرق بالاوقات، والجهات.

والثبات جمع ثبة وهي جماعات في تفرقة أي يأتون متفرقين. وقال أبو جعفر: الثبات: السرايا والجميع العسكر. قال أبو ذؤيب:

فلما اجتلاها بالايام تحيرت * ثبات عليها ذلها واكتئابها (١)

يصف العاسل، وتدخينه على النحل. والايام - بكسر الهمزة على وزن لجام - الدخان ويجمع ثبة على ثبتين، أيضا. قال زهير:

وقد اغدوا على ثبة كرام نشاوى واجدين لما نشاء (٢)

وانما جاز أن يجمع ثبة ثبون - وان كان هذا الجمع يختص ما يعقل - للعوض من النقص الذي لحقه، لان أصله ثبوة. ومثله عضين وسنين وعرين. فان صغرت

(١) - اللسان (جلا). البيت لابي ذؤيب يصف النحل والعاسل. وفي رواية (اجتلاها)

بدن جلاها. يعني جلا العاسل النحل عن مواضعها بالايام وهو الدخان.

(٢) - ديوانه: ٧٢. مجاز القرآن لابي عبيدة: ١٣٢ واللسان: (ثبا)، (نشو). (*)

(٢٥٤)

قلت ثبيات (١) وسنيات، لان النقص قد زال. وقيل: ان الثبة عصابة منفردة من (عصب). وتقول ثبيت على الرجل اثبي تثبية: إذا تثبت عليه. وذكرت محاسنه في حال حياته. وتصغير ثبة ثبية. فاما ثبة الحوض، فهي وسطه. الذي يثوب إليه الماء. وهي من ثاب يثوب، لان تصغيرها ثوية. - وقوله: " أو انفروا جميعا " وقد مضى معناه - (٢).

قوله تعالى:

(وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أُنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا) (٧٢) - آية.

قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يبطئون الناس عن الجهاد. فإذا أصابتهم مصيبة فيه، من قتل أو هزيمة، قالوا قول الشامت بهم في تلك الحال: قد أُنعم الله علينا إذ لم نكن معهم شهداء أي حضورا. وقال أبو جعفر (ع): من يتمنى التأخر عن جماعة المسلمين، لا يكون إلا كافرا. فقوله: " وإن منكم لمن ليبطئن " خطاب للمؤمنين.

وانما أضاف المنافقين إليهم لامرين:

أحدهما - ان من عداكم ودخلائكم.

الثاني - أي منكم في الحال الظاهرة، أو حكم الشريعة من حقن الدم، ونحو ذلك من الموارثة، والمناكحة. واللام الأولى لام الابتداء بدلالة دخولها على الاسم، والثانية لام القسم بدلالة دخولها على الفعل مع نون التأكيد. وتقديره إن منكم لمن حلف بالله ليبطئن. وانما جاز صلة " من " بالقسم، ولم يجز بالامر والنهي لان القسم خبر يوضح الموصول، كما يوضح الموصوف في قولك: مررت برجل لتكرمنه، لانه خصه بوقوع الاكرام به في المستقبل من كل رجل غيره. وليس كذلك

(١) - في المخطوطة زيادة: " على الاصل انثى ثبية " - في هذا الموضع.

(٢) - ما بين القوسين ساقط من المطبوعة وهو موجود في المخطوطة. (*)

(٢٥٥)

الامر في قولك: مررت برجل أضربه، لانه لايتخصص بالضرب في الامر كما، تخصص في الخبر. قال: الفراء تدخل اللام في النكرات وفي من وما والذى. فاذا جئت بالمعرفة الموقته، لم يجز ادخال اللام فيها. لاتقول إن عبدالله ليقومن وان زيدا ليذهبن، لان زيدا، وعبدالله، لا يحتاجان إلى صلة، والابطاء: اطالة مدة العمل لقلّة الانبعاث.. ضده الاسراع. وهو قصر مدة العمل، للتدبير فيه.

والاناة: اطالة الاحكام الذي لاسبيل إليه إلا بالتثبت فيه. وضدها العجلة وهي قصر المدة من غير إحكام الصنعة تقول: بطؤ في مشيه يبطؤ بطاء: إذانقل وتباطأ وتباطأ وبطأ تبطيا واستبطأ استبطاء وأبطأ إبطاء: إذا تأخر.

قوله تعالى:

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٧٣)
آية بلاخلاف - .

المعنى بهذه الآية المنافقون الذين وصفهم الله بأنهم يفرحون بتأخرهم عن المؤمنين إذا أصيبوا، وانهزموا. فاخبر عنهم انه إذا أصاب المؤمنين فضل من الله بان يظفروا أو يقهروا العدو، بانهم يتمنون الكون معهم، فيفوزوا فوزا عظيما.
وانما ذمهم الله بهذا التمني لاحد أمرين:

أحدهما - لانهم قالوه على وجه ايثار الغنيمة لاعلى حال المثوبة من جهة الله لشكهم في الجزاء من الله.

الثاني - قال قتادة وابن جريج انهم قالوا: ذلك على جهة الحسد للمؤمنين.
والاصابة. ملامسة المرمي لما وقعت به الرمية. فاذا قيل: أصاب - مطلقا - فمعناه أصاب الغرض. ويجوز أن ينفي فيقال: لم يصب، يعني الغرض، وان أصاب غيره.
وقوله: " كان لم تكن بينكم وبينه مودة " قيل فيه ثلاثة أقوال:

(٢٥٦)

أحدها - انه اعتراض بين القول، والتمني، ولا يكون له موضع من الاعراب.
وتقديره ليقولن: ياليتني كنت معهم، فافوز فوزا عظيما. كأن لم يكن بينكم وبينه مودة.
الثاني - أن يكون اعتراضا وموضعه التقديم. وتقديره فان أصابتم مصيبة، قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا كأن لم يكن بينكم، وبينه مودة. واختار هذا الوجه أبو علي النحوي.
الثالث - أن يكون في موضعه على موضع الحال. كما تقول: مررت بزيد كأن لم يكن بينك وبينه معرفة فضلا عن مودة. والزجاج أجاز الوجوه الثلاثة.
المعنى:

وفي معنى الآية قولان:

أحدهما - قال الجبائي: المعنى ليقولن لهؤلاء الذين أقعدهم عن الجهاد، كأن لم يكن بينكم وبينه أي وبين محمد (صلى الله عليه وآله) مودة، فيخرجكم لتأخذوا من الغنيمة، ليغضوا إليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الثاني - انه يقول قول الممنوع بالعداوة. وانما أنى من جهله بتلك الحال.
وهو الاظهر. والمعنى كأنه لم يعاقدكم على الايمان ولم يظهر لكم مودة على حال يخاطبون بذلك من أقعدوه عن الخروج، ثم يقول من قبل نفسه: ياليتني كنت معهم. وقال الحسين بن

علي المغربي: المعنى ليس الكون معهم في الخير، والشر، كأهل المودات، وانما يتمنون ذلك عند الغنيمة كالبعداء يذمهم بسوء العهد مع سوء الدين.
وانما نصب جواب التمني بالفاء، لانه مصروف عن العطف محمول على تأويل المصدر.
وتقديره ياليتني كان لي حضور، معهم ففوز. ولو كان على العطف، لكان ياليتني كنت معهم ففزت. وقرأ أبو جعفر المدني، وحفص، ورويس، والبرجمي:
" كان لم تكن " - بالتاء - لان لفظة المودة مؤنثة. ومن قرأ بالياء، فلان التأنيث

(٢٥٧)

ليس بحقيقي، ومع ذلك قد وقع فصل بين الفعل، والفاعل.
قوله تعالى: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (٧٤) - آية - .
لما أخبر الله تعالى في الآية الاولى ان قوما من المنافقين يثبطون المؤمنين عن جهاد العدو والقتال في سبيل الله، حث في هذه الآية على الجهاد، بأن قال:
لا تلتفتوا إلى تثبيط المنافقين، وقاتلوا في سبيل الله بائعين للدنيا بالآخرة، إذ لكم بذلك أعظم الاجر وأكبر الحظ. وقال الزجاج: فليكن من الذين يقاتلون في سبيل الله أو عمن كان بينه وبينكم عقد مودة. ومعنى (يشرون الحياة الدنيا بالآخرة)
يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة. وبيعهم إياها بالآخرة هو استبدالهم إياها بالآخرة ببذلهم أنفسهم، وأمواهم في سبيل الله، وتوطين أنفسهم على الجهاد في طاعة الله.
يقال: شريت بمعنى بعت. واشتريت: ابتعت. ويشرون: يبيعون - في قول الحسن، والسدي، وابن زيد، وجميع أهل اللغة - . قال يزيد بن مفرغ:
وشريت بردا ليتني * من بعد برد كنت هامة
وبرد اسم غلامه. وشريته بمعنى بعته. وفي الآية حذف. والتقدير يشرون الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. كأنه قال: يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية.
ويجوز يبيعون الحياة الدنيا بنعيم الآخرة، ثم قال: (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب).
فالوعد على القتال، لاعلى القتل، والغلبة. وقوله: " فيقتل " عطف على يقاتل. ولذلك جزمه والجواب قوله: " فسوف نؤتيه " وإنما قال: أو يغلب، لان الوعد على القتال حتى ينتهي إلى تلك الحال، لانه أعظم الجهاد. وعليه أعظم الاجر.

(٢٥٨)

والاجر العظيم هو أعلى أثمان العمل. وذلك أن ثمن العمل على ثلاثة أوجه. ثمن أعلى، وثنم أدنى، وثنم أوسط بينهما فالله تعالى يثامن عليه بالثمن الاعظم الاعلى، فلذلك حسن وصف الاجر بالاعظم من غير تقييد له، إذ كان لا ثمن أعظم مما يثامن الله عليه في ذلك العمل. قوله تعالى:

(وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) (٧٥) - آية -

المعنى والاعراب:

معنى قوله: " ومالكم " أي شئ لكم. و " لاتقاتلون " في موضع الحال كأنه قال: أي شئ لكم تاركين، أي في حال القتال مع هذه الامور التي تقتضي الحرص على الجهاد، أي لا عذر لكم ألا تقاتلوا في سبيل الله، ومثله قوله: " فما لهم عن التذكرة معرضين " (١) وقوله: " والمستضعفين " خفض بالعطف على ما عملت فيه (في) وتقديره في المستضعفين. وقيل في معناه قولان:

أحدهما - وعن المستضعفين، فوقع (في) موقع (عن) فاذا ذكرت (عن) فلصرف الاذى عنهم إذ كانت لما عدا الشئ وإذا ذكرت (في) فلان القتال مضمن بهم، لخالصهم، إذا كانت في اللوعاء.

الثاني - ان يكون على محذوف، وتقديره وفي اعزاز المستضعفين، وقد قال المبرد: هو عطف على اسم الله بتقدير، وسبيل المستضعفين " من الرجاء والنساء والوالدان ".

(١) سورة المدثر: آية ٥٠ (*)

(٢٥٩)

اللغة والمعنى:

والوالدان جمع ولد على مثال خرب وخربان، وبرق وبرقان، وورل وورلان، مثل ولد وولدان، وهو من ابنية الكثير، والاعلى على بابه فعال نحو جبال وجمال.

وقوله: " الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها " قال ابن عباس والحسن وابن أبي نجيح، والسدي ومجاهد وابن زيد: إنها مكة، لان أهل مكة كانوا قد اجتهدوا أن يفتنوا قوما من المؤمنين عن دينهم، والاذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم. وقال تعالى " مالكم " لاتسعون في خلاصهم. وهم يسمون كل مدينة قرية، وإنما جاز أن يجري صفة ظالم على الاول وهو في المعنى للثاني، لانها قوية في العمل لقربها من الفعل متمكنة من الوصف بأنها

تصرف تصرفه في التأنيث والتذكير والتنثية، والجمع، خلاف باب أفعل منك، فلذلك جاز مررت برجل ظالم أبوه، ولم يجر مررت برجل خير منه أبوه. والولي القيم بالامر حتى يستقدهم من أمر أعدائهم، لانه يتولى الامر بنفسه، ولا يكله إلى غيره. وحكى أبو علي ان منهم سلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة وأبوجندل بن سهيل، وانما قال: (يقولون.. الظالم أهلها) وان كان فيهم ولدان لا ينطقون تغليبا للاكثر، كقولك قال أهل البصرة، وإن كان قولاً لبعضهم. قوله تعالى:

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٧٦) - آية بلاخلاف - . المعنى:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين صدقوا بالله، ورسوله يقاتلون في سبيل الله، وفي معنى سبيل الله قولان:

(٢٦٠)

أحدهما - طاعة الله، لانه تؤدي إلى ثواب الله في جنته التي أعدها لأوليائه. الثاني - قال أبو علي: إنه دين الله الذي شرعه الذي يؤدي إلى ثوابه ورحمته. وتقديره في نصره دين الله، ثم قال: " والذين كفروا " يعني الذين جحدوا آيات الله الدالة على توحده، ونبوة نبيه. وقوله: " يقاتلون في سبيل الطاغوت " قد فسرناه فيما مضى. فقال قوم: هو الشيطان. وقال آخرون: هو ما عبد من دون الله. والاول قول الحسن والشعبي. والثاني حكاة الزجاج.

وقال أبو العالية: هو الكاهن. وهو يؤنث ويذكر قال الله تعالى: " يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به " (١)

فذكره وقال: " والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها " (٢) فانث قال أبو عبيدة هو ههنا في موضع جماعة، كما قال: " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير " (٣)

وكان المراد به الجنس. وقوله: " فقاتلوا أولياء الشيطان " يقوي قول من قال:

المراد بالطاغوت الشيطان. وقوله: " إن كيد الشيطان كان ضعيفا " إنما دخلت (كان) ههنا مؤكدة لتدل على ان الضعف لكيد الشيطان لازم في جميع الاوقات فيما مضى، والحال، والمستقبل. وليس هو عارضا في حال دون حال.

والكيد السعي في فساد الحال على وجه الاحتيال تقول كاده يكيد كيدا، فهو كائد له. إذا عمل في ايقاع الضرر به على وجه الحيلة عليه. وانما وصف تعالى كيد الشيطان، بالضعف لأميرين:

أحدهما - لضعف نصرته، لأوليائه بالاضافة إلى نصره الله المؤمنين - ذكره الجبائي - وقال الحسن: أخبرهم أنهم سيظهرون عليهم، فذلك كان ضعيفا.
الثاني - لضعف دواعي أوليائه إلى القتال بانها من جهة الباطل إذ لانصير لهم. وانما يقاتلون بما تدعو إليه الشبهة. والمؤمنون يقاتلون بما تدعو إليه الحجة.

(١) سورة النساء: آية ٥٩. (٢) سورة الزمر: آية ١٧.

(٣) سورة المائدة: آية ٤.

(٢٦١)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا) (٧٧) - آية بلاخلاف -

القراءة، والحجة:

قرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وخلف، والحلواني عن هشام ولا يظلمون بالياء. الباقر بالتاء. فمن قرأ بالياء حمل الكلام على لفظ الغيبة ومن قرأ بالتاء فعلى المواجهة.
النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والسدي: انها نزلت في ناس من الصحابة استأذنوا النبي (صلى الله عليه وآله) قال ابن عباس: منهم عبدالرحمن ابن عوف. وهم بمكة في قتال المشركين. فلم ياذن لهم: فلما كتب عليهم القتال.

وهم بالمدينة قال فريق منهم ما حكاه الله في الآية. فان قيل: كيف. وز ذلك، والله تعالى يقول: " كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " فامرهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة، ولم تكن الزكاة فرضت بمكة؟ قيل: قد قال البلخي في ذلك:

إنه يجوز أن يكون قوم من المنافقين عرضوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذلك والاقوى عندي أن يكون الله قال ذلك على وجه الندب، والاستحباب دون الزكاة المقدره على وجه مخصوص.

(٢٦٢)

الثاني - قال مجاهد: نزلت في اليهود. نهى الله هذه الامة أن يصنعوا مثل صنيعهم.
المعنى:

قوله: (ألم تر) معناه ألم ينته علمك إلى هؤلاء تعجبيا من ذلك. ولو قال:
ألم تر هؤلاء أو ألم تعلم هؤلاء علم يظهر فيه معنى التعجب منهم كما يظهر ب (إلى)، لأنها تؤذن
بحال بعيدة قد لا ينتهي إليها، لبعدها، لما فيها من العجب الذي يقع بها. وقوله: (الذين قيل لهم
كفوا أيديكم) يعني حين طلبوا القتال وقيل لهم:
اقتصروا على اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (فلما كتب عليهم القتال) يعني الجهاد (إذا فريق
منهم) يعني جماعة (يخشون الناس كخشية الله) قال الحسن: هو من صفة المؤمنين لما طبعوا
عليه من البشرية والخوف، لاعلى وجه كراهة المخالفة.
وقال أبو علي: هو من صفة المنافقين، لانهم كانوا كذلك حرصا منهم على الدنيا والبقاء فيها
والاستكثار منها وقال يخشون القتل من قبل المشركين كما يخشون الموت من قبل الله. وقوله:
(أو أشد خشية) ليس معنى (أو) ههنا الشك، لان ذلك لا يجوز عليه تعالى. وقيل في معناها
قولان:

أحدهما - أنها دخلت للابهام على المخاطب. والمعنى أنهم على إحدى الصفتين.
وهذا أصل (أو) وهو معنى واحد على الإبهام.

الثاني - على طريق الإباحة نحو قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.
ومعناه إن قلت يخشون الناس كخشية الله فانت مصيب، وان قلت يخشونهم أشد من ذلك فأنت
مصيب لانه قد حصل لهم مثل تلك الخشية وزيادة. وقولهم:
" لم كتبت علينا القتال " معناه ألزمتنا وأوجبت علينا.

وقوله: (لولا أخرتنا) معناه هلا أخرتنا " إلى أجل قريب وهو إلى أن نموت بأجالنا فأعلمهم الله
تعالى أنه متاع الدنيا قليل، وأن الآخرة خير لاهل التقى وأعلمهم أن آجالهم لا تخطئهم "
ولا يظلمون فتىلا " أي لا يبخسون هذا

(٢٦٣)

القدر، وكيف ما زاد عليه. والفتيل: ماتقتله بيدك من الوسخ ثم تلقيه في قول ابن عباس. وقيل:
هو مافي شق، النواة، لانه كالخيط المفتول في شق النواة.
قوله تعالى:

أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً (٧٨) - آية بلاخلاف - .

اللغة والمعنى:

أعلمهم الله تعالى في هذه الآية أن الأجل لا تخطفهم، ولا تنفعهم الخشية من القتل ولو كانوا في بروج مشيدة، وأيما كانوا من المواضع أدركهم الموت بمعنى أصابهم. " وأيما " كتبت موصولة. وفي قوله: " ان ماتوعدون " مفضولة، لان الاولى زائدة.

والثاني - بمعنى الذي فصلت هذه كما تفصل الاسماء، ووصلت تلك كما توصل الحروف. وقيل في معنى البروج ثلاثة أقوال:

أحدها - قال مجاهد، وابن جريج: هي القصور.

الثاني - قال السدي، والربيع: هي قصور في السماء، باعيانها. وقال الجبائي:

هي البيوت التي تكون فوق الحصون. وأصل البروج الظهور. يقال تبرجت المرأة:

إذا أظهرت محاسنها. والبرج - في العين - اتساعها لظهورها بالاتساع. والمشيدة:

المزينة بالجص. وهو الشيد. قال الجبائي: معناه المجصصة. وقال الزجاج، وغيره:

معناه المطولة في ارتفاع. وقال قوم: المشدد، والمخفف سواء إلا من جهة تكثير الفعل. وقال

آخرون: المشيدة بالتشديد - المطولة. والمشيدة بالتخفيف - المطلية بالجص والنورة. والشيد

رفع البناء. تقول شاد بناء يشيده شيدا: إذا رفعه.

(٢٦٤)

والشيد: الجص، لانه مما يرفع به البناء. ويجوز أشاد الرجل بناءه. فأما بالذكر فنقول أشاد بذكره لاغير: إذا رفع منه.

وقوله: (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك)

حكاية عن المنافقين، وصفة لهم. في قول الحسن، وأبي علي وأبي القاسم. وقال الزجاج: قيل:

هو في صفة اليهود. وبه قال الفراء. وذلك أن اليهود، لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة،

فكانوا إذا زكت ثمارهم، واخصبوا، قالوا هذا من عند الله، فاذا أجدبوا، وخاست ثمارهم، قالوا

هذا لشؤم محمد (صلى الله عليه وآله). وفي معنى الحسنه، والسيئة ههنا قولان:

قال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية: هو السراء والضراء واليؤس.

والرخاء، والنعمة والمصيبة، والخصب، والجذب. وقال الحسن، وابن زيد:

هو النصر، والهزيمة. وقوله: (من عندك) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن زيد: معناه بسوء تدبيرك.

والثاني - قال الجبائي، والبلخي، والزجاج. أي بشؤمك الذي لحقنا كما حكي عن قوم موسى (وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فامر الله تعالى نبيه أن يقول: إن جميع ذلك من عند الله، ثم قال: " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً " قال الفراء: (مال) كثرت في الكلام حتى توهموا أن اللام متصلة بما، وانها حرف واحد، ففصلوا اللام بماخفضت في بعض المواضع، ووصلوها في بعض المواضع. والاتصال الوجه. والوقف على اللام، لا يجوز، لانها لام الخفض.

والمعنى أي شئ لهؤلاء القوم، لا يفقهون حديثاً، أي لا يفهمون معناه. تقول: فقه الرجل يفقه فقها والاسم الفقيه: وصار يعرف الاستعمال علماً على علم الفقهاء من علوم الدين. وفقه الرجل يفقه فقها: إذا صار فقيهاً. وأفقهته: أفهمته والتفقه:

تعلم الفقه وتفاهه: إذا تعاطى ليرى انه فقيه. وليس هو كذلك. ومثله تعالم وقيل:

معنى الحديث ههنا القرآن. وقوله: (لايكادون) معناه لا يقربون فيه معنى الحديث الذي هو القرآن، لانهم بعيدون منه باعراضهم عنه، وكفرهم به ولا

(٢٦٥)

يفهمون ان ما ذكرناه من السراء، والضراء، والشدة والرخاء على ما وصفناه. قوله تعالى:

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) (٧٩) - آية بالاخلاف - .

المعنى:

قال الزجاج: هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله). والمراد به الامة. كما قال (ياأيها النبي إذا طلقتم النساء) (١) فان المراد به الامة. وقال قوم: المخاطب به الانسان، كأنه قال: ما أصابك أيها الانسان - في قول قتادة، والجبائي - . وقيل في معنى الحسنه والسيئة ههنا قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن: الحسنه ما أصابه يوم بدر من الظفر، والغنيمه. والسيئة ما أصابه يوم أحد من كسر ربايعته (صلى الله عليه وآله)، والهزيمة. وقال الجبائي: معناهما النعمة، والمصيبة. ويدخل في النعمة نعمة الدنيا، والدين. وفي المصيبة مصائب الدنيا، والدين إلا أن أحدهما من عمل العبد للطاعة، وماجر إليه ذلك العمل.

والآخر - من عمل العبد للمعصية وما جر إليه عمله لها. وهذا يوافق الاول الذي حكيناها عن تقدم.

والثاني - ان الحسنه، والسيئة: الطاعة، والمعصية - ذكره أبو العالية، وأبو القاسم - ويكون المعنى ان الحسنه التي هي الطاعة باقدار الله، وترغيبه فيها، ولطفه لها. والسيئة بخذلانه على

وجه العقوبة له على المعاصي المقدمة. وسماه سيئة كما قال: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (٢) والتقدير ما أصابك من ثواب حسنة

(١) - سورة الطلاق: آية / ١ (٢) - سورة الشورى: آية ٤٠. (*)

(٢٦٦)

فمن الله، لانه الذي عرضك للثواب، وأعانك عليها. وما أصابك من عقاب سيئة فمن نفسك، لانه تعالى نهاك عنها، وزجرك عن فعلها. فلما ارتكبتها كنت الجاني على نفسك. وانما احتاج إلى التقدير، لان ما أصابك ليس هو ما أصبت. ويجوز أن يكون المراد بالسيئة ما يصيبهم في دار الدنيا من المصائب، لانه لايجوز أن يكون ذلك عقابا أو بعض ما يستحقونه. وقوله: " فمن نفسك " معناه فبذنبك في قول الحسن، وقتادة، والسدي، وابن جريج، والضحاك. قال البخاري: مصيبة هي كفارة ذنب صغير، أو عقوبة ذنب كبير. ويحتمل أن يكون المراد أو تأديب وقع لاجل تفريط. فان قيل: كيف عاب قول المنافقين في الآية الاولى، لما قالوا إذا أصابتهم حسنة انها من عند الله، وإذا إصابتهم سيئة، قالوا هذه من عندك.

وقد اثبت مثله في هذه الآية؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - ان ذلك على وجه الحكاية. والتقدير يقولون: ما أصابك من حسنة، فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك. ويكون (يقولون) محذوفا، لدلالة سياق الكلام عليه.

الثاني - ان معناهما مختلف، فالاول عند أكثر أهل العلم ان المراد به النعمة، والمصيبة من الله تعالى. وفي الآية الثانية المراد به الطاعة، والمعصية. فلما اختلف معناهما، لم يتناقضا. ويكون وجه ذكر هذه الآية عقيب الاولى ألا يظن ظان ان الطاعات والمعاصي من فعل الله، لما قال في الآية الاولى: (قل كل من عند الله)

وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة، لانه تعالى قال: " فمن نفسك " فاضاف المعصية إلى العبد ونفاها عن نفسه تعالى. ولو كانت من خلقه، لكانت منه على أوكد الوجوه. ولا ينافي ذلك قوله في الآية الاولى " كل من عند الله " لانا بينا وجه التأويل فيه. قال الرماني: وفي الآية دلالة على أنه تعالى، لايفعل الالم إلا على وجه اللطف، أو العقاب دون العوض فقط، لان المصائب إذا كانت كلها من قبل ذنب العبد، فهي اما عقوبة، واما من قبل تأديب المصلحة.

وقوله: (وأرسلناك للناس رسولا) معناه من الحسنه ارسالك يا محمد (صلى

(٢٦٧)

الله عليه وآله) ومن السيئة خلافك يا محمد (صلى الله عليه وآله) وكفى بالله شهيدا لك وعليك.

والمعنى وكفى الله. وقوله: (ما أصابك من حسنة) معنى " من " هنا للتبيين ولو قال: إن أصابك من حسنة كانت زائدة لامعنى لها.
الاعراب والحجة:

(ورسولا) نصب بارسلناك، وانما ذكره تأكيدا لان أرسلناك دل على أنه رسول، " وشهدا " نصب على التمييز، لانك إذا قلت كفى الله ولم تبين في أي شئ الكفاية كنت مبهما. وقوله: " وما أصابك من سيئة فمن نفسك " دخلت الفاء في الجواب لان معنى (ما) من وادخل من على السيئة، لان ما نفي و (من) يحسن ان تتراد في النفي مثل ما جاءني من أحد.
قوله تعالى:

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) (٨٠) - آية - .
بين الله تعالى بهذه الآية أن طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله) طاعة الله. وانما كان كذلك، لان طاعة الرسول بامر الله، فهي طاعة الله على الحقيقة، وبارادته وان كانت أيضا طاعة للنبي من حيث وافقت ارادته المستدعية للفعل. فاما الامر الواحد، فلايكون من أمرين كما لا يكون فعل واحد من فاعلين.

وقوله: (ومن تولى) أي اعرض ولم يطع " فما أرسلناك عليهم حفيظا " وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن زيد: حافظا لهم من التولي حتى يسلموا.
والثاني - حافظا لاعمالهم التي يقع الجزاء عليها، لان الله تعالى هوالمجازي عليها.
الثالث - قال أبوعلي: حافظا لهم من المعاصي حتى لاتقع. قال ابن زيد:

(٢٦٨)

هذا أول مابعث، كما قيل له: " ان عليك إلا البلاغ " (١) ثم أمر فيما بعد بالجهاد ووجه جواب الجزاء في قوله: " فما أرسلناك عليهم حفيظا " من المعاصي حتى لاتقع - في قول أبي علي - وعلى القول الآخر لانك لم ترسل عليهم حفيظا لاعمالهم التي يقع الجزاء عليها، فتخاف أن لاتقوم بها. وفي الآية دلالة على ان الرسول لايمر بالخطأ، لان الله تعالى جعل طاعته طاعة نفسه. والله لايمر بالخطأ بلا خلاف.
النظم:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انه لما ذكر الحسنة التي هي نعمة من الله، بين أن منها ارسال نبي الله ثم بين أن منها طاعة الرسول التي هي طاعة الله. فهو في ذكر نعم الله مجملة،

ومفصلة. وفيها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) في تولي الناس عنه وعن الحق الذي جاء به، مع تضمنها تعظيم شأنه بكون طاعته طاعة الله.
قوله تعالى:

(ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) (٨١) - آية بلاخلاف - .
قرأ أبو عمر بادغام التاء في الطاء. وبه قرأ حمزة: والباقون بالاظهار والفتح.
وفرق الكسائي بين بيت طائفة فاطهر في الفعل وادغم في الاسم إذا قال بيتت طائفة. قال المبرد، والزجاج: لوجه لذلك، بل هما سواء. وانما حسن ادغام التاء في الطاء، لقرب مخرجهما. ولم يجز إدغام الطاء في التاء، لما فيها من الاطباق.
وكذلك يجوز إدغام الباء في الميم في " تكتب ما يبيتون " ولا يجوز ادغام الميم في الباء نحو " لا قسم بهذا البلد " لانه يخل باذهاب الغنة في ذلك، ولا يخل

(١) سورة الشورى: آية ٤٨. (*)

(٢٦٩)

بها في الاول. ويحتمل رفع طاعة وجهين:
أحدهما - أمرنا طاعة.

والثاني - منا طاعة. قال الزجاج: الاول أحسن، لانه أجمع. ويجوز طاعة
" نصبا " على معنى نطيع طاعة. ولم يقرأ به. ومن القائلون لهذا القول؟ قيل فيه قولان:
- أحدهما - قال الحسن، والسدي، والضحاك: هم المنافقون

الثاني - انهم الذين حكى عنهم انهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقوله: (فاذا برزوا من عندك) يعني خرجوا من عندك بيت طائفة منهم يعني دبر جماعة منهم ليلا. قال المبرد: التبييت كل شئ دبر ليلا. وقال الجبائي معناه دبروه في بيوتهم وهذا بعيد لوجه له في اللغة. قال الرماني: وفيه معنى الاخفاء في النفس، وكذلك لا يوصف تعالى به. قال عبيدة بن همام:
(١)

أتوني فلم أرض ما بيتوا * وكانوا أتوني بشئ نكر

لانكح أيمهم منذرا * وهل ينكح العبد حر لحر؟! (٢)

ومعنى " بيت طائفة منهم غير الذي تقول " - أي غير ما تقول بأن اضمروا الخلاف فيما أمرتهم به أو نهيتهم عنه - هذا قول ابن عباس، وقتادة:
والسدي. وقال الحسن: قدرت طائفة منهم - (٣) غير الذي تقول على جهة التكذيب.

وقوله: (والله يكتب ما يبيتون) فيه قولان:

الاول - نكتبه في اللوح المحفوظ ليجازوا به.

التاني - قال الزجاج: يكتب بان ينزله اليك في الكتاب. ثم أمر الله نبيه

-
- (١) قيل هو أخويني العدوية من بني مالك بن حنظلة من بني تيم وقيل: عبيد بن همام التغلبي وقيل غير ذلك.
(٢) مجاز القرآن ١: ١٣٣، الحيوان ٤: ٣٧٦ الكامل للمبرد ٢: ٣٥، ١٠٦، الازمنة والامكنة للمرزوقي ١: ٢٦٣، ديوان الاسود بن يعفر النهشلي: أعشى بني نهشل في ديوان الاعشيين: ٢٩٨، واللسان (تكر).
(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة. وهوفي المخطوطة. (*)

(٢٧٠)

بالاعراض عنهم، وألتسميهم باعيانهم ابقاء عليهم، وبستر أمورهم إلى أن يستقر أمر الاسلام. وأمره بان يتوكل عليه " وكفى بالله وكيلًا " يعني حفيظًا، لما يجب تفويضه إليه من التدبير. وأصل الوكيل القائم بما فوض إليه من التدبير. ومعنى بيت اضمر. وأصله إحكام الامر ليلا من البيات. قوله تعالى:

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا) (٨٢) - آية -
المعنى:

هذا الآية تدل على أربعة أشياء:

أحدها - على بطلان التقليد، وصحة الاستدلال في اصول الدين، لانه حث ودعا إلى التدبير. وذلك لا يكون إلا بالفكر والنظر.
والثاني - يدل على فساد مذهب من زعم ان القرآن، لايفهم معناه إلا بتفسير الرسول له من الحشوية، والمجبرة، لانه تعالى حث على تدبره، ليعلموا به.
الثالث - يدل على أنه لو كان من عند غير الله، لكان على قياس كلام العباد من وجود الاختلاف فيه.

الرابع - تدل على أن المتناقض من الكلام ليس من فعل الله، لانه لو كان من فعله، لكان من عنده، لامن عند غيره.

اللغة:

والتدبر: هو النظر في عواقب الامور. وأصله الدبر. والتدابير: التقاطع، لان كل واحد يولي الآخر دبره، بعداوته له. ودبر القوم يدبرون دبارا: إذا هلكوا، لانهم يذهبون في جهة الادبار عن الغرض. وادبر القوم: إذا ولى أمرهم

(٢٧١)

عن الرشد. والدبر: النحل. والدبر: المال الكثير. والتدبير: اصلاح الامر لعاقبة. وفي الحديث " لاتدابروا " أي لاتكونوا أعداء. والفرق بين التدبر والتفكران التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف للقلب بالنظر في الدلائل. والاختلاف: هو امتناع أحد الشئيين أن يسد مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته كالسواد الذي لايسد مسد البياض، وكذلك الذهاب في الجهات المختلفة جهة الخلف، والقدام واليمين، والشمال. وقيل في معنى الاختلاف ههنا ثلاثة أقوال: أحدها - قال أبوعلي من جهة بليغ، ومرذول. وقال الزجاج: الاختلاف في الاخبار بما يسرون.

الثالث - قال قتادة، وابن زيد: اختلاف تناقض من جهة حق، وباطل. والاختلاف على ثلاثة اضرب: اختلاف تناقض، واختلاف تفاوت، واختلاف تلاوة. وليس في القرآن اختلاف تناقض، ولااختلاف تفاوت، لأن اختلاف التفاوت هو في الحسن والقبح، واخطأ والصواب، ونحو ذلك مما تدعو إليه الحكمة أويصرف عنه. وأما اختلاف التلاوة، فهو ماتلاءم في الحسن، فكله صواب، وكله حق. وهو اختلاف وجوه القراءات واختلاف مقادير الآيات والسور واختلاف الاحكام في الناسخ والمنسوخ. ومن اختلاف التناقض ما يدعو فيه أحد الشئيين إلى فساد الآخر. وكلاهما باطل. نحو مقدارين وصف أحدهما بأنه أكبر من الآخر ووصف الآخر بأنه أصغر منه، فكلاهما باطل إذ هو مساو له. وفي الناس من قال: انتفاء التناقض عن القرآن إنما يعلم انه دلالة على أنه من فعل الله، لما أخبرنا الله تعالى بذلك. ولو لأنه تعالى أخبر بذلك كان لقاتل أن يقول (١): إنه يمكن أن يتفحظ متفحظ في كلامه ويهذبته تهذيباً، لا يوجد فيه شئ من التناقض وعلى هذا لايمكن أن يجعل ذلك جهة اعجاز القرآن قبل أن يعلم صحة السمع، وصدق النبي (صلى الله عليه وآله).

في المطبوعة (يكون) بدل (يقول). (*)

(٢٧٢)

قوله تعالى:

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) (٨٣) - آية - .

أخبر الله تعالى عن المنافقين، الذين تقدم وصفهم بأنهم إذا جاءهم " أمر من الامن أو الخوف " وهو ما كان يرجف به من الاخبار في المدينة: اما من قبل عدو يقصدهم أو يظهر المؤمنين على عدوهم، أو هلاك بعض أعدائهم وهو الامن.

والاول: الخوف اذاعوا به، وتحدثوا به من غير أن يعلموا صحته، فكره تعالى ذلك، لان من فعل هذا لا يخلو كلامه من الكذب. ولما يدخل على المؤمنين به من الخوف ومعنى اذاعوا به: أعلنوه، وأفشوه في قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن حريج وأصله اشاعة الخبر في الجماعة.

اللغة:

يقال: اذاعه اذاعة واذاعوا به قال الشاعر:

اذاع به في الناس حتى كأنه * بعلياء نار أوقدت بتقوب (١)

وأصل الاذاعة التفريق. قال تبع: لما ورد المدينة:

ولقد شربت على براجم شربة * كادت بباقية الحياة تذيب (٢)

أي تفرق. وبراجم: ماء بالمدينة كان يشرب منه، فنسبت (٣) بحلقه

(١) قائله أبو الاسود الدؤلي. اللسان (ذيع) ومجاز القرآن ١: ١٣٣ والاعاني ١٢: ٣٠٥. (٢) لم نجده في مصادرنا.
(٣) في المطبوعة (فشبت) وفي مجمع البيان (فتشبت). وقد أثبتنا ما في المخطوطة. (*)

(٢٧٣)

علقة. وذاع الخبر ذيعا. ورجل مذيع: لا يستطيع كتمان خبر. واذاع الناس بما في الحوض: إذا شربوه. وكذلك اذاعوا بالمتاع: إذا ذهبوا به. واذاعة السر: اظهاره. والاذاعة، والاشاعة، والافشاء، والاعلان، والاظهار، نظائر وضده الكتمان، والاسرار، والاخفاء.

المعنى:

ثم قال: (ولو ردوه إلى الرسول) بمعنى لو ردوه إلى سنته " وإلى أولي الامر منهم ". قال أبو جعفر (ع): هم الائمة المعصومون. وقال ابن زيد، والسدي، وأبو علي: هم امراء السرايا، والولادة، وكانوا يسمعون باخبار السرايا ولا يتحققونه فيشيعونه ولا يسألون أولي الامر. وقال الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن أبي نجیح، والزجاج: هم أهل العلم، والفقهاء الملازمين للنبي (صلى الله عليه وآله)، لانهم لو سألوهم عن حقيقة ما أرجفوا به، لعلموا به. قال الجبائي: هذا لا يجوز، لان أولي الامر من لهم الامر على الناس بولاية والاول أقوى، لانه تعالى بين أنهم متى ردوه إلى أولي العلم علموه. والرد إلى من ليس بمعصوم، لا يوجب العلم لجواز الخطأ

عليه بلاخلاف سواء كانوا امرء السرايا، أو العلماء. وقوله: "يستنبطونه" قال ابن عباس، وأبو العالية: معناه يتحسسونه. وقال الزجاج: يستخرجونه.
اللغة والاعراب والمعنى:

والاستنباط، والاستخراج، والاستدلال، والاستعلام، نظائر، وأصل الاستنباط الاستخراج. يقال لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العين، أو معرفة القلب: قد استنبط. والنبط الماء يخرج من البئر أول ماتحفر. وانبط فلان أي استنبط الماء من طين حر. ومنه اشتقاق النبط، لاستنباطهم العيون.

والضمير في قوله: "منهم" يحتمل أن يعود إلى أحد أمرين: أحدهما - وهو الاظهرانه عائد إلى أولي الامر.

(٢٧٤)

والآخر - إلى الفرقة المذكورة من المنافقين، أو الضعفة.
وقوله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) معناه لولا اتصال مواد اللطاف من جهة الله، "لاتبعتم الشيطان إلا قليلا" وقيل فيما وقع الاستثناء منه: أربعة أقوال:
أحدها - "لاتبعتم الشيطان إلا قليلا" منكم، فانه لم يكن يتبع الشيطان.
ويكون الفضل ههنا بالنبي (صلى الله عليه وآله)، والقرآن - في قول الضحاك -، وهو اختيار الجبائي.

الثاني - لاتبعتم الشيطان إلا قليلا من الاتباع. ويكون الفضل على جملة اللطف، لان ذلك لم يكن يزكو به أحد منهم.

الثالث - قال الحسن، وقتادة. وذكره الفراء، لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا.

الرابع - قال ابن عباس، وابن زيد: اذاعوا به إلا قليلا هو اختيار الكسائي والفراء والمبرد والبلخي والطبري. وتقديره يستنبطونه منهم إلا قليلا.

قال المبرد: لان العلم بالاستنباط في الناس أقل. وليس كذلك الاذاعة. وغلط الزجاج النحويين في ذلك. وقال: كل هذه الاقوال جائزة. وقال قوم حكاه الطبري:

ان مخرجه الاستثناء. وهو دليل الجمع، والاحاطة. والمعنى انه لولا فضل الله لم ينج أحد من الضلالة. فجعل قوله: "إلا قليلا" دليلا على الاحاطة كما قال الطرماح يمدح بزيد بن المهلب:

قليل المثالب والقادحة (١)

والمعنى انه لامثالب.

أشم كثير يدي النوال يدي - بضم الياء وكسر الدال وتشديد الياء - أو - بفتح الياء وكسر الدال وتشديد الياء - جمع (يد). (*)

(٢٧٥)

قوله تعالى: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) (٨٤) - آية بلاخلاف -.

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة أمره الله أن يقاتل في سبيل الله وحده بنفسه. وقوله: " لا تكلف إلا نفسك " ومعناه لا تكلف إلا فعل نفسك، لانه لا ضرر عليك في فعل غيرك فلاتهتم بتخلف المنافقين عن الجهاد فعليهم ضرر ذلك، وليس المراد لا يأمر أحدا بالجهاد. وانما أراد ما قلناه ألا ترى أنه قال " وحرض المؤمنين " على القتال يعني حثهم على الجهاد. وفي ذلك دلالة على أنه لا يجوز أن يؤاخذ الله الاطفال بكفر آبائهم ويؤيده قوله: " ولا تزر وازرة وزر أخرى " لان مفهوم هذا الكلام أنه لا يجوز أن تؤخذ بذنب غيرك. والفاء في قوله: " فقاتل في سبيل الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أن يكون جوابا لقوله: (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (١) هكذا ذكره الزجاج، لانه محمول على المعنى من حيث دل على معنى إن أردت الفوز، فقاتل.

الثاني - أن يكون متصلا بقوله: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) (٢) فقال في سبيل الله. كذا ذكره الزجاج ووجهه لاحظ لك في ترك القتال فنتركه، ثم وضع فقاتل موضع فنتركه. وقوله: " وحرض المؤمنين " معناه حثهم " عسى الله أن يكف " قال الحسن، والبلخي، والزجاج: إن (عسى) من الله واجب ووجه ذلك ان اطماع الكريم انجاز وانما الاطماع تقوية أحد الامرين على الآخر دون قيام الدليل على التكافؤ في الجواز. وخرج (عسى) في هذا من معنى الشك

(١) سورة النساء آية: ٧٤. (٢) سورة النساء آية: ٧٥. (*)

(٢٧٦)

كخروجها في قول القائل: أطع ربك في كل ما أمرك به، ونهاك عنه عسى (١) ان تغلح بطاعتك. ومعنى " أن يكف بأس الذين كفروا " ان يمنع شدة الكفار، ثم قال: " والله أشد بأسا وأشد تنكيلا " فالبأس: الشدة (٢) في كل شئ ومعنى التنكيل قال الحسن، وقتادة: هو العقوبة. وقال أبو علي الجبائي: هو الشدة بالامور الفاضحة (٣) ونكل به، وشوه به، وندد به نظائر.

وأصله النكول: وهو الامتناع للخوف. نكل عن اليمين، وغيرها ينكل نكولا. والنكال: ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب. والنكل القيد.
قوله تعالى:

(من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقبنا)
(٨٥) - آية - .
المعنى واللغة:

قيل في معنى الشفاعة ههنا قولان:

أحدهما - قال أبو علي: الشفاعة الحسنة: الدعاء للمؤمنين. والشفاعة السيئة: الدعاء عليهم، لان اليهود كانت تفعل ذلك فتوعدهم الله تعالى عليه. وقال الحسن، ومجاهد، وابن زيد: الشفاعة هي مسألة الانسان في صاحبه أن يناله خير بمسألته.
وقال الازهري معنى " من يشفع شفاعه حسنة " من يزد عملا إلى عمل. والشفع: الزيادة. سئل تغلب عن اشتقاق الشفاعة، فقال: الزيادة وهو أن يشفعك في ماتطلبه حتى تضمه إلى ما عندك، فتشفعه أي تزيده بها إن كان واحدا، فضمت إليه ما زاد صار شفعا.

(١) (عسى) ساقط من المطبوعة.

(٢) في المطبوعة (الشهرة) بدل (الشدة) وهو تحريف.

(٣) في المخطوطة (بالامر الفاصم). (*)

(٢٧٧)

وعندنا ان حقيقة الشفاعة هي المسألة في اسقاط الضرر. وانما تستعمل في مسألة المنافع مجازا، لان أحدا لايقول: إنا نشفع في النبي (صلى الله عليه وآله) إذا سألنا الله أن نزيد في كراماته، ولو كان الامر على ما قاله الحسن، ومجاهد، لكنا شافعين فيه. ووجه اتصال هذا الكلام بما تقدم، انه لما قيل " لا تكلف إلا نفسك " عقب ذلك بان لك مع هذا في دعاء المؤمنين إلى الحق ما للانسان في شفاعة صاحبه بخير يصل إليه، لئلا يتوهم ان العبد من أجل انه لا يؤخذ بعمل غيره، لا يتردد فعله بعمل غيره.

الثاني - ان الشفاعة تصير الانسان شفعا لصاحبه في جهاد عدوه من الكفار.

والكفل: قال الحسن، وقتادة: هو الوزر، وهو قول أبي جعفر (ع). وقال السدي، والربيع، وابن زيد: هو النصيب. ومنه قوله: " يؤتكم كفلين من رحمته " وأصل الكفل (١): المركب الذي يهيا كالسرج للبعير من كسا، أخرج أو نحوه حول السنام. وانما قيل كفل، واكتفل البعير، لانه لم يستعمل الظهر كله. وانما استعمل نصيب منه. وقال الازهري: الكفل الذي لا يحسن ركوب

الفرس. وأصله الكفل: وهو ردف العجز. ومنه الكفاية بالنفس، وبالمال. والكفل المثل.
والمقيت: قيل في معناه خمسة أقوال:
قال السدي، وابن زيد، والكسائي: هو المقتدر.
والثاني - قال ابن عباس، واختاره الزجاج: إنه الحفيظ.
والثالث - قال مجاهد: هو الشهيد.
والرابع - المقيت: الحسيب عنه.
والخامس - قال الجبائي: هو المجازي كأنه قال: وكان الله على كل شئ من الحسنات،
والسيئات مجازيا. وأصل المقيت: القوت، قاته يقوته قوتا: إذا أعطاه ما يمسك رمقه. والمقيت:
المقتدر لاقتداره على ما يمسك رمقه. يقال منها قات الرجل يقيت اقاة حكاه الكسائي وينشد
للزبير بن عبدالمطلب عم النبي (صلى الله عليه وآله):

(١) في المطبوعة (وأهله) بدل (وأصل). (*)

(٢٧٨)

وذى ضغن كفتت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا (١)
فهذه لغة قريش. وقال كثير:
وماذاك عنها عن نوال اناله * ولانني منها مقيت على ود
أي مقتدر فاما قول اليهودي:
ألي الفضل أم علي إذاحو * سبت اني على الحساب مقيت (٢)
قيل: ومعناه موقوف. أي كما ان من يحتاج إلى القوت موقوف على سد خلته. ويحتمل معنى
مقيت أي مقتدر على الحساب بتوجيه إلى انه لي أو علي بحسب عملي. وقال ابن كثير: المقيت
الواصب وهو القائم على كل شئ بالتدبير.
وأقوى الوجوه معنى المقتدر بدلالة البيت الذي للزبير بن عبدالمطلب.
قوله تعالى:

" وإذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شئ حسيبا " (٨٦) - آية
بلاخلاف -.

هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلفين، يأمرهم إذا دعى لهم انسان بطول الحياة، والبقاء
والسلامة، ان يحيوهم باحسن من ذلك أو يردوا عليهم مثله. قال النحويون: أحسن ههنا صفة
لاينصرف، لانه على وزن افعل وهو صفة لاتنصرف والمعنى حيوا بتحية أحسن منها.
والتحية: مفعلة من حييت. ومعناها ههنا السلام قال السدي: وابن جريج وعطاء، وإبراهيم: إنه

إذا سلم عليك واحد من المسلمين، فسلم عليه باحسن مما سلم عليك. أورد عليه مثل ما قال. وذلك إذا قال السلام عليك، فقل أنت وعليك السلام ورحمة الله أو تقول كما قال لك. وقال قتادة، وابن عباس، ووهب: فحيوا باحسن منها أهل الاسلام، أو ردوها على أهل الكفر

(١) البيت مختلف في نسبه فقبل انه لابي قيس بن رفاعه. وقيل لاحيحة بن الجلات الانصاري. اللسان (قوت) وطبقات فحول الشعراء: ٢٤٢ - ٢٤٣ والدر المنتور ٢: ١٨٨.
(٢) ديوانه: ١٤ والاصمعيات: ٨٥ ومجاز القرآن ١: ١٣٥ وطبقات فحول الشعراء ٢٣٧. واللسان (قوت). (*)

(٢٧٩)

والاول أقوى، لانه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله)، انه قال: إذا سلم عليك أهل الكتاب، فقولوا وعليكم. وقال الحسن، وجماعة من متقدمي المفسرين: إن السلام تطوع. والرد فرض، لقوله: (وإذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها) وذلك أمر يقتضي الايجاب.

وقوله: (إن الله كان على كل شئ حسيبا) قيل في معنى الحسيب قولان: أحدهما - قال مجاهد:، وابن أبي نجيح: معنى حسيب حفيظ وقال قوم: معناه ههنا من قولهم: احسبني الشئ يحسبني احسابا بمعنى كفاني. ومنه قولهم: حسبي كذا وكذا أي كفاني. وقال بعضهم: الحسيب في هذا الموضع فعيل من الحساب الذي هو بمعنى الاحصاء يقال منه: حاسبت فلانا على كذا وكذا وهو حسيبه وذلك إذا كان صاحب حسابه. قال الزجاج: معناه يعطي كل شئ من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يحسبه أي يكفيه. ومنه قوله: " عطاء حسابا " (١)

أي كافيًا. وسمي الحساب حسابا، لانه يعلم به ما فيه الكفاية وذكر الحسن: انه دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) رجل، فقال: السلام عليكم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): وعليك السلام ورحمة الله، ثم دخل آخر فقال. السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبي (ص):

وعليك السلام ورحمة الله، وبركاته، ثم دخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، وبركاته، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. قال بعضهم يارسول الله كيف هذا فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الاولان بقيامن التحية بقية فرددتها. وهذا لم يبق منها شيئاً فرددت عليه ما قال (٢).

قوله تعالى:

(الله لاآله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثا) (٨٧) - آية بلاخلاف -.

(١) سورة النبأ: آية ٣٦.

(٢) في المطبوعة سقط فظيع في هذا الحديث وقد أثبتنا ما في المخطوطة. (*)

(٢٨٠)

قد بينا فيما تقدم معنى الله. وهو الذي تحقق له العبادة. وانه من كان قادرا على خلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة. وليس هو عبارة عن يستحق العبادة، لانه لو كان كذلك، لما كان تعالى إليها فيما لم يزل. وإذا ثبت انه موصوف به فيما لم يزل، دل على ان المراد ما قلناه. وإذا ثبت ذلك، فقد بين تعالى بهذه الآية انه لا يستحق العبادة سواه. وقوله: " ليجمعنكم إلى يوم القيامة " اللام في ليجمعنكم لام القسم كقولك: والله ليجمعنكم. وقيل في معناه قولان: أحدهما - ليعتثكنم من بعد مماتكنم، ويحشرنكنم جميعا إلى موقف الحساب الذي يجازي فيه كلا بعمله، ويقضي فيه بين أهل طاعته، ومعصيته.

الثاني - قال الزجاج: معناه ليجمعنكم في الموت وفي قبوركم. وقوله:

" لاريب فيه " معناه لاشك فيما أخبركم به. من قوله: اني جامعكم يوم القيامة.

وقيل في تسمية ذلك اليوم بالقيامة قولان:

أحدهما - لان الناس يقومون من قبورهم.

الثاني - انهم يقومون للحساب. قال الله تعالى " يوم يقوم الناس لرب العالمين " (٣) وقوله: " ومن أصدق من الله حديثا " تقرير في صورة الاستفهام ومعناه لأحد أصدق من الله في الخبر الذي يخبر به من حيث لا يجوز عليه الكذب في شئ من الاشياء، لانه لا يكذب إلا محتاج يجتنب به نفعا، أو يدفع به ضررا.

وهما يستحيلان عليه تعالى. فاذا استحيل عليه الكذب. وانما يجوز ذلك على من سواه. فلذلك كان تعالى أصدق القائلين. ونصب حديثا على التمييز كما تقول: من أحسن من زيد فهما أو خلقا؟ قوله تعالى:

(فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون

(١) سورة المطففين: آية ٦. (*)

(٢٨١)

أن تهودوا من أضل الله ومن يظلل الله فلن تجد له سبيلا) (٨٨)

- آية بلاخلاف -.

المعنى والنزول:

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين. فقال: ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فرقتين مختلفتين " والله أركسهم بما كسبوا " يعني بذلك والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك في اباحة دمائهم، وسبي ذراريهم " بما كسبوا " يعني بما كذبوا الله ورسوله، وكفروا بعد إسلامهم. والاركاس. الرد. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فاركسوا في حميم النار انهم * كانوا عصاة وقالوا الافك والزورا (١)

قال الفراء: يقال منه أركسهم، وركسهم وقد ذكر أنها في قراءة عبدالله وأبي (والله ركسهم) بغير الف. وفيمن نزلت هذه الآية قيل فيه خمسة أقوال:

أحدها - قال قوم نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الذين تخلفوا عن رسول الله يوم أحد، وانصرفوا إلى المدينة. وقالوا لرسول الله وأصحابه لو نعلم قتالا لاتبعناكم. ذكر ذلك زيد بن ثابت.

والثاني - قال مجاهد، وأبو جعفر (ع)، والفراء: إنها نزلت في اختلاف كان بين أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قوم كانوا قدموا المدينة من مكة، وظهروا للمسلمين أنهم مسلمون، ثم رجعوا إلى مكة، لأنهم استوخموا المدينة، وظهروا لهم الشرك، ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة. فاراد المسلمون أن يأخذوهم وما معهم فاختلفوا. وقال قوم: لانفعل ذلك (٢) لأنهم مؤمنون. وقال آخرون:

هم مرتدون. فانزل الله فيهم الآية:

الثالث - قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: بل كان اختلافهم في قوم

(١) ديوانه: ٣٦، وهو هكذا:

اركسوا في جهنم أنهم كانوا * عتاة تقول افكا وزورا

وهو في الدر المنثور ٢: ١٩١ هكذا:

اركسوا في جهنم أنهم كانوا عتاة * يقولوا مينا وكذبا وزورا

(٢) في المطبوعة (ذلك) ساقطة.

(٢٨٢)

من أهل الشرك كانوا أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فقال قوم: دماؤهم، وأموالهم حلال وقال آخرون: لابل هو حرام.

الرابع - قال السدي نزلت في قوم كانوا بالمدينة أرادوا الخروج عنهم نفاقا.

وقالوا للمؤمنين أصابنا جذب وخصاصة نخرج إلى الظهر حتى نتماءل، ونرجع، فقال قوم: هو منافقون. وقال آخرون: هم مؤمنون.

والخامس - قال ابن زيد: بل نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله في قصة أهل الافك
عبدالله بن أبي، وأصحابه، لما تكلموا في عائشة.
الاعراب:

وقوله: (فتنين) يحتمل نصبه أمرين:

أحدهما - قال بعض البصريين هو نصب على الحال كقولك: مالك قائما.

ومعناه مالك في حال القيام. وقال الفراء: هو نصب على فعل مالكم ولاينافي (١)
كان المنصوب في مالك: معرفة، أو نكرة. ويجوز أن تقول مالك السائر معنا، لانه كالفعل
الذي ينصب بكل، وأظن، وما أشبهما قال: وكل موضع صلحت فيه فعل ويفعل من
المنصوب، جازنصب المعرفة، والنكرة. كما تنصب كان وأظن، لانهما نواقص في المعنى.
وان ظننت انهن تامات. واختلفوا في معنى اركسهم، فقال ابن عباس: معناه ردهم. وفي رواية
أخرى عنه: أوقعهم. وقال قتادة:

اهلكهم - وقال السدي: معناه أضلهم بما كسبوا. ومعناه أيضا اهلكهم - (٢)

وقوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يظلل الله فلن تجد له سبيلا)

معناه أتريدون أيها المؤمنون أن تهدوا إلى الاسلام من أضله الله. ويحتمل معنيين:

أحدهما - أن من وجده الله ضالاً، وسماه بانه ضال، وحكم به من حيث ضل بسوء اختياره.

(١) في المطبوعة (تبالي) بدل (ينافي). (٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة. (*)

(٢٨٣)

الثاني - أضله الله بمعنى خذله. ولم يوفقه كما وفق المؤمنين، لانهم لما عصوا وخالفوا
استحقوا هذا الخذلان عقوبة لهم على معصيتهم، فيريدون الدفاع عن قتالهم مع ما حكم الله
بضلالهم وخذلانهم. وقال الجبائي: المعنى ومن يعاقبه الله على معاصيه، فلاتجد له طريقاً إلى
الجنة. وطعن على الاول من قول البغداديين ان المراد به التسمية، والحكم بأن قال: لو أراد
ذلك، لقال: ومن ضلل الله وهذا ليس بشئ، لانهم يقولون: أكفرته وكفرته، وأكرمته وكرمته:
إذاسميته بالكفر أو الكرم قال الكمي:

فطائفة قد أكفروني بحبكم * وطائفة قالوا مسيئاً ومذنب (١)

ويحتمل أن يكون المراد وجدهم ضلالاً، كما قال الشاعر:

هبوني امرأ منكم أضل بعيره أي وجده ضالاً، ثم قال لهم أليس الله قال: ويريد الشيطان أن
يضلهم ضلالاً بعيداً " (٢) أنرى أراد أن الشيطان يخلق فيهم الضلالة؟ بل انما أراد يدعوهم
إليها ولاخلاف أن الله تعالى لايدعو إلى الضلالة، ويقوي قول من قال: المراد به التسمية.

قوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) وانما أراد ان تسموهم مهتدين لانهم كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فحينئذ رد الله عليهم، فقال: لا تختلّفوا في هؤلاء، وقولوا باجمعكم: إنهم منافقون. ولم يكونوا يدعونهم إلى الايمان، فخالفهم أصحابهم، فعلم ان الصحيح ما قلناه، ثم أخبر الله تعالى فقال: "ومن يضل الله يعني من خذله " فلن تجد له سبيلا " يامحمد ولاطريقا. ومن قال من المجرّة: إن قوله: " أركسهم بما كسبوا " يدل على أنه أوقعهم في النفاق. فقولهم باطل، لانه قال: بما كسبوا، فبين انه فعل بهم ذلك على وجه الاستحقاق. وذلك لايليق إلا بما قدمناه، لانه لو أوقعهم في النفاق (٣) لمعصية تقدمت، لكان يجب أن

(١) خزنة الادب: ٢٣٦. (٢) سورة النساء: آية ٥٩. (٣) (في النفاق) ساقط من المطبوعة.

(٢٨٤)

يكون أوقعهم فيها لمعصية أخرى. وذلك يؤدي إلى مالا يتناهى أو ينتهي إلى معصية ابتدأهم بها وذلك ينافي قوله: " بما كسبوا " والفئة الفرقة من الناس. مأخوذ من فأيت رأسه إذاشققته. الفأو: الشعب من شعاب الجبل. والركس: الرد إلى الحالة الاولى. ومنه قيل للعدرة، والروث: ركس، قوله تعالى: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولوا ولا نصيرا) (٨٩) - آية - . أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء المنافقين أنهم يودون ويتمنون أن تكفروا أي تجحدوا وحدانية الله تعالى وتصديق نبيكم كما جحدوا، هم " فتكونون سواء " يعني مثلهم كفارا تستتون أنتم، وهم في الكفر بالله، ثم نهاهم أن يتخذوا منهم أولياء، ويستصحوهم، بل ينبغي أن يتهموهم، ولا ينتصحوهم، ولا يستصروهم، ولا يتخذوا منهم ولياناصرا، ولا خليلا مصافيا " حتى يهاجروا في سبيل الله " ومعناه حتى يخرجوا من دار الشرك. ويفارقوا أهلها المشركين " في سبيل الله " يعني في ابتغاء دين الله. وهو سبيله، فيصيروا عند ذلك مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم - وهو قول ابن عباس - ثم قال: " فان تولوا " يعني هؤلاء المنافقين عن الاقرار بالله، ورسوله، وعن الهجرة من دار الشرك، ومفارقة أهله " فخذوهم " أيها المؤمنون " واقتلوهم حيث وجدتموهم " أي أصبتموهم من أرض الله. (ولا تتخذوا منهم ولوا ولا نصيرا) يعني ولا تتخذوا منهم خليلا ولا ولا ناصرا ينصركم على أعدائكم - وهو قول ابن عباس والسدي - .

(٢٨٥)

قوله تعالى:

(إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (٩٠) - آية بلاخلاف.

لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الذين لا يهاجرون عن بلاد الشرك حيث وجدوهم، وألا يتخذوا منهم ولية ولا نصيرا استثنى من جملتهم من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مودة، وعهد وميثاق، فدخلوا فيهم وصاروا منهم. ورضوا بحكمهم فان لمن وصل إليهم ودخل فيهم راضيا بحكمهم حكمهم في حق دمائهم بدخوله فيهم. والمعنى بقوله: " إلا الذين يصلون " بنو مدلج، كان سراقه بن مالك بن جعشم (١) المدلجي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعد أحد، فقال له: أنشدك الله والنعمة.

وأخذ منه ألا يغزوا قومه، فان أسلمت قريش أسلموا، لانهم كانوا في عقد قريش، فحكم الله فيهم ما حكم في قريش، وحرّم منهم ما حرّم منهم، ففيهم نزلت هذه الآية - على ما ذكره بن شبة - . وقال أبو جعفر (ع) قوله تعالى: " إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق " قال: هو هلال بن عويمر السلمي. واثق عن قومه ألا تخفيف يامحمد من أتك ولانخيف من أتنا. وبمثل هذا التأويل قال السدي، وابن زيد، وعكرمة وقال أبو عبيدة " يصلون " بمعنى ينتسبون إليهم. والعرب تقول قد اتصل الرجل: إذا انتمى إلى قوم وقال الاعشى يذكر امرأة انتسبت إلى قومها:

إذا اتصلت قالت: ابكر بن وائل * وبكر سبتها والانوف رواغم (٢)
وقدضعف هذا الجواب، لان تعيين الانتساب لو أوجب إن يكون حكم

(١) في المخطوطة (ابن جعشم) وفي مجمع البيان (ابن خثعم) وقد اثبتنا ما في المطبوعة والطبري واكثر التفاسير، وكتب الرجال. (٢) ديوانه: ٨١ رقم القصيدة ٩. ومجاز القرآن ١: ١٣٦، واللسان (وصل). (*)

(٢٨٦)

المنتسب حكم من انتسب إليه ممن بينهم وبينهم ميثاق، لوجب ألا يقاتل النبي (صلى الله عليه وآله) قريشا، لما بينهم وبين المؤمنين من الانتساب. وحرمة الايمان أعظم من حرمة المودة. فان قيل: هذه الآية منسوخة قيل: لعمرى إنها منسوخة لكن لاخلاف أنها نسخت بقوله في سورة براءة " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وبراءة نزلت بعد فتح مكة، فكان يجب ألا يقاتل قريشا على دخول مكة وقد علمنا خلافه وقوله: " أو جاؤكم حصرت صدورهم " قال عمر بن شبة يعني به أشجع فانهم قدموا المدينة في سبعمائة يقودهم مسعود بن دخيلة فاخرج إليهم

النبي (صلى الله عليه وآله) احمال التمر ضيافة. وقال: نعم الشئ الهدية أمام الحاجة. وقال لهم: ما جاءكم؟ قالوا:

قربت دارنا منك، وكرها جربك، وحرب قومنا، يعنون بني ضمرة الذين بينهم وبينهم عهد لقلتنا فيهم، فنزلت الآية. وقوله: " جاؤكم حصرت صدورهم " معناه قد حصرت، لانه في موضع الحال والماضي إذا كان المراد به الحال قدر معه قد، كما يقولون: جاء فلان، وذهب عقله. والمعنى قد ذهب عقله. وسمع الكسائي من العرب من يقول: أصبحت نظرت إلى ذات التنانير بمعنى قد نظرت.

وانما جاز ذلك، لان قد تدني الفعل من الحال. وقرأ الحسن، ويعقوب " حصرة صدورهم " منصوبا على الحال. وأجاز يعقوب الوقف بالهاء. وهو صحيح في المعنى وقراءة القراءة بخلافه. ومعنى " حصرت صدورهم " ضاقت عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم وكل من ضاقت نفسه عن شئ من فعل أو كلام يقال: قد حصر. ومنه الحصر في القراءة وما قلناه معنى قول السدي وغيره.

وقوله: " ولو شاء الله لسلطهم عليكم " مثل قوله: " ولو شاء الله لاعتكم " (١) ومعناه الاخبار عن قدرته على ذلك لو شاء لكنه لايشاء ذلك، بل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يفرعوا، ويطلبوا المودعة، والمسالمة، ويدخل بعضهم في حلف من بينكم وبينهم ميثاق وفي ذمتهم، ثم قال: " فان اعتزلوكم " يعني هؤلاء الذين أمرنا بالكف عن قتالهم من المنافقين بدخولهم في أهل عهدكم أو بمصيرهم إليكم " حصرت

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٠. (*)

(٢٨٧)

صدورهم "، فلم يقاتلوكم " والقوا اليكم السلم " يعني صالحوكم، واستسلموا، كما يقول القائل: أعطيتك قيادي والقيت إليك خطامي إذا استسلم له وانقاد لامره، فكذلك قوله: " والقوا اليكم السلم " يريد به الصلح وقال أكثر المفسرين: البلخي والطبري والجبائي، وغيرهم: ان المراد به الاسلام. قال الطرماح:

وذلك ان تمينا غادرت سلما * للاسد كل حصان وعثة اللبد (١)

يعني استسلاما. وقال: " فما جعل الله لكم عليهم سبيلا " يعني إذا استسلموا لكم فلا طريقلكم على نفوسهم، وأموالهم. قال الربيع: السلم هاهنا الصلح، ثم نسخ ذلك بقوله: " فاذا انسوخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (٢) الآية. وبه قال عكرمة والحسن قالا. نسخت هذه الآية إلى قوله: " سلطانا مبينا " وقوله: في الممتحنة: " لاينهاكم الله عن الذين لم

يقاتلوكم " إلى قوله: " الظالمون " (٣) نسخت هذه الاربعة آيات بقوله: في براءة الآية التي تلونها، وبه قال قتادة وابن زيد:

قوله تعالى: (ستبدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) (٩١) - آية بلاخلاف - .
النزول قيل في الذين نزلت فيهم هذه الآية ثلاثة أقوال:

(١) ديوانه: ١٤٥ من قصيدته التي هجا بها الفرزدق الحصان: المرأة العفيفة. وعثة:

كثيرة اللحم لينة - بكسر فسكون - كساء يفرش للجلوس عليه.

(٢) سورة التوبة: آية ٦. (٣): آية ٨.

(٢٨٨)

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في ناس كانوا يأتون النبي (صلى الله عليه وآله) فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش، ويرتكسون في الاوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر الله بقاتلهم ان لم يعتزلوا، ويصلحوا.

الثاني - قال قتادة: نزلت في حي كانوا بنهامة قالوا: يا نبي الله لانقاتلك، ولانقاتل قومنا. وأرادوا ان يأمنوا قومهم ويأمنوا نبي الله فأبى الله عليهم ذلك.

فقال: " كلما ردوا إلى الفتنة " يعني إلى الكفر " اركسوا فيها " يعني وقعوا فيها.

الثالث - قال السدي: نزلت في نعيم بن مسعود الاشجعي، وكان يأمن في المسلمين بنقل الحديث بين النبي (صلى الله عليه وآله)، والمشركين، فنزلت هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في أسد وغطفان.

المعنى:

وقال أبو العالية معنى قوله: " كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها " يعني كلما ابتلوا بها عموا فيها. وقال قتادة: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه. والفتنة في اللغة هي الاختبار. والاركاس: الرجوع. فمعنى الكلام كلما ردوا إلى الاختبار، ليرجعوا إلى الكفر والشرك رجعوا إليه. وقوله: " فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم " معناه وان لم يعتزلوكم أيها المؤمنون هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم وهم كلما دعوا إلى الشرك أجابوا إليه (ويلقوا اليكم السلم) يعني ولم يستسلموا لكم فيعطوكم المقادة ويصالحوكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم) يعني حيث أصبتموهم. ثم قال: " وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا " يعني حجة ظاهرة. وقال السدي، وعكرمة: السلطان الحجة وقال أبو علي:

نزلت في قوم كانوا يظهرون الاسلام، فاذا اجتمعوا مع قريش اظهروا لهم الكفر. وهو قوله:
(كلما ردوا إلى الفتنة) يعني الكفر (اركسوا فيها) بمعنى وقعوا فيها، فما داموا مظهرين
للاسلام وكافين عن قتال المسلمين، فلا

(٢٨٩)

يتعرض لهم. ومتى لم يظهروا الاسلام، وجب قتالهم على ما ذكره الله، ثم قال قوم:
الآية منسوخة وان من لم يحارب مع المؤمنين، وجب قتاله. واختاره هو أنها غير منسوخة.
قال: لانه لادليل على ذلك.
قوله تعالى:

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة
إلى أهله إلا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من
قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين
متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً (٩٢) - آية بلاخلاف - .
المعنى والاعراب:

قوله: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) معناه لم يأذن الله، ولا أباح لمؤمن أن يقتل
مؤمناً فيما عهده إليه، لانه لو أباحه وأذن فيه ما كان خطأ.
والتقدير إلا أن يقتله خطأ، فان حكمه هكذا على ما ذكر. فذهب إلى هذا قتادة وغيره.
وقوله: (إلا خطأ) استثناء منقطع - في قول أكثر المفسرين - وتقديره إلا أن المؤمن قد يقتل
المؤمن خطأ، وليس ذلك مما جعل الله له، ومثله قول الشاعر:
من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ * على الارض إلا ريط برد مرجل (١)
والمعنى لم تطأ على الارض إلا أن تطأ ذيل البرد، وليس ذيل البرد من الارض.

(١) قاتله جرير ديوانه: ٤٥٨، والنقائض: ٧٠٦، ومجاز القرآن ١: ١٣٧. (*)

(٢٩٠)

وقد ذكرنا لذلك نظائر فيما مضى، ولانطول باعادتها. وتقدير الآية: إلا أن المؤمن قد يقتل
المؤمن خطأ وليس ذلك مما جعل الله له. وقال قوم: الاستثناء متصل والمعنى: لم يكن للمؤمن
أن يقتل متعمداً مؤمناً. ومتى قتله متعمداً لم يكن مؤمناً فان ذلك يخرج من الايمان، ثم قال: "
إلا خطأ" ومعناه إن قتله له خطأ لا يخرج من الايمان. ثم أخبر تعالى بحكم من قتل من
المؤمنين مؤمناً خطأ، فقال: "ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة". ومعناه فعليه تحرير

رقبة مؤمنة. يعني مظهرة للايمان وظاهر ذلك يفتضي أن تكون بالغة ليحكم لها بالايمان وذلك في ماله خاصة.

" ودية مسلمة إلى أهله " تؤديها عنه عاقلته إلى أولياء المقتول إلا أن يصدق أولياء المقتول حينئذ تسقط عنهم. وموضع (أن) من قوله: " إلا أن يصدقوا " نصب، لان المعنى فعليه ذلك إلا أن يصدقوا النزول:

وقيل: إن الآية نزلت في عياش ابن أبي ربيعة المخزومي: أخي أبي جهل، لانه كان أسلم، وكان قد قتل رجلا مسلما بعد اسلامه، وهو لايعلم باسلامه. وهذا قول مجاهد، وابن جريج، وعكرمة، والسدي. وقالوا: المقتول هو الحارث بن يزيد بن أبي نبشية العامري. ولم يعلم أنه أسلم، وكان أحدمن رده عن الهجرة، وكان يعذب عياشا مع أبي جهل، قتله بالحره بعد الهجرة. وقيل: قتله بعد الفتح وقد خرج من مكة وهو لايعلم باسلامه. ورواه أبوالجارود عن أبي جعفر (ع).

وقال ابن زيد: نزلت في رجل قتله أبوالدرءاء، كان في سرية فعدل أبوالدرءاء إلى شعب يريد حاجة، فوجد رجلا من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف فقال:

لاإله إلا الله ! فبدر فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم ثم وجد في نفسه شيئا فأتى رسول الله (ص) فذكر ذلك له، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): ألا شققت عن قلبه فقال: ما عسيت أن أجد ! هل هو إلا دم أو ماء؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله) فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه قال كيف بي يارسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ ! قال فكيف بي

(٢٩١)

يارسول الله؟ قال: وكيف بلا إله إلا الله؟ ! حتى تمنيت أن يكون ذلك اليوم مبتدأ إيماني، ثم نزلت هذه الآية والذي ينبغي أن يعول عليه ان ما تضمنته الآية حكم من قتل خطأ ويجوز في سبب نزول الآية كل واحد مما قبل.

المعنى:

وقال ابن عباس، والشعبي، وابراهيم، والحسن، وقتادة: الرقبة المؤمنة لاتكون إلا بالغة قد أمنت وصامت وصلت. فاما الطفل فانه لايجزي ولاالكافر.

وقال عطاء: كل رقبة ولدت في الاسلام فهي تجزي. والاول أقوى، لان المؤمن على الحقيقة لايطلق إلا على بالغ مظهر للايمان ملتزم لوجوب الصوم والصلاة، إلا أنه لاخلاف أن المولود بين مؤمنين يحكم له بالايمان، فبهذا الاجماع ينبغي أن يجزي في كفارة قتل الخطأ. وأما الكافرة والمولود بين كافرين فانه لايجزي بحال.

والدية المسلمة إلى أهل القتل هي المدفوعة إليهم موفرة غير منتقصة حقوق أهلها منها " إلا أن يصدقوا " معناه يتصدقوا فادغمت التاء في الصاد لقرب مخرجها وفي قراءة أبي " إلا ان يتصدقوا " .

وقوله: (فان كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) يعني إن كان هذا القتل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم هم أعداء لكم مشركون وهو مؤمن، فعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة. واختلفوا في معناه، فقال قوم: إذا كان القتل في عداد قوم أعداء وهو مؤمن بين أظهرهم لم يهاجر، فمن قتله فلا دية له. وعليه تحرير رقبة مؤمنة، لان الدية ميراث، وأهله كفار لا يرثونه. هذا قول ابراهيم، وابن عباس، والسدي، وقتادة، وابن زيد، وابن عياض. وقال آخرون: بل عنى به أهل الحرب من يقدم دار الاسلام فيسلم ثم يرجع إلى دار الحرب إذا مربهم جيش من أهل الاسلام فهرب قومه وأقام ذلك المسلم فيهم فقتله المسلمون،

(٢٩٢)

وهم يحسبونه كافرا. ذكر ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى. وقوله: (فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) ومعناه إن كان القتل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم بينكم وبينهم أيها المؤمنون ميثاق أي عهد و ذمة وليسوا أهل حرب لكم " فدية مسلمة إلى أهله " تلزم عاقلة قاتله. وتحرير رقبة على القاتل كفارة لقتله. واختلفوا في صفة هذا القتل الذي هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق أهو مؤمن أم كافر؟ فقال قوم: هو كافر إلا أنه يلزم قاتله دية، لان له ولقومه عهدا. ذهب إليه ابن عباس، والزهري، والشعبي، و ابراهيم النخعي، وقتادة، وابن زيد. وقال آخرون: بل هو مؤمن، فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين، لانهم أهل ذمة. روي ذلك أيضا عن ابراهيم والحسن. وهو المروي في أخبارنا. إلا أنهم قالوا: يعطي ديته ورثته المسلمين دون الكفار. والميثاق هو العهد. وقد بيناه فيما مضى. والمراد ههنا الذمة، وغيرها من اليهود وبه قال السدي والزهري، وابن عباس والخطأ هو ان تريد شيئا فتصيب غيره. وهو قول ابراهيم، وأكثر الفقهاء.

والدية الواجبة في قتل الخطأ مئة من الابل ان كانت العاقلة من أهل الابل - بلا خلاف - وان اختلفوا في أسنانها فقاتل يقول. هي أربع: خمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون جذعة، وخمس وعشرون ابنة مخاض، وخمس وعشرون بنت لبون.

روي ذلك عن علي (ع). وقال آخرون: هي أخماس: عشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت لبون، وعشرون بنو لبون، وعشرون بنت مخاض.

وينسب ذلك إلى ابن مسعود. وروى الامرين معا أصحابنا. وقال قوم: هي أرباع غير أنها ثلاثون حقة، وثلاثون بنت لبون، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون. روي ذلك عن عثمان وزيد بن ثابت. قال الطبري: هذه الروايات متكئة. والاولى التخيير. ولا يحمل على العاقلة صلح، ولا اقرار، ولا ما كان دون الموضحة. وأما الدية من الذهب فالف دينار، ومن الورق عشرة آلاف درهم.

وقال بعضهم: اثني عشر ألفا والاول عندنا هو الاصح. ودية عمد الخطأ مئة من

(٢٩٣)

الابل مغلظة اثلاثا - وروي أرباعا - ثلث بنت لبون، وثلث حقة، وثلث جذعة. وتسنأدى في سنين. ودية الخطأ في ثلاث سنين. ودية العمد إذا تراضوا بها في سنة. وأما دية أهل الذمة فقال قوم: هي دية المسلم سواء. ذهب إليه ابوبكر، وعثمان، وابن مسعود، وابراهيم، ومجاهد، والزهرري، وعامر الشعبي، واختاره الطبري، وأبوحنيفة وأصحابه. وقال قوم: على النصف من دية المسلم. ذهب إليه عمرو بن شعيب رواه عن عمر بن الخطاب وبه قال عمر بن عبد العزيز. وقال قوم:

هي على الثلث من دية المسلم ذهب إليه سعيد بن المسيب، والشافعي غير أنها اربعة آلاف واختلاف الفقهاء قد ذكرناه في الخلاف. واما دية المجوسي فلا خلاف أنها ثمانمئة وكذلك عندنا نادية اليهودي والنصراني. (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما) يعني فمن لم يجد الرقبة المؤمنة كفارة عن قتله المؤمن لاعتباره فعليه صيام شهرين متتابعين. واختلفوا في معناه: فقال قوم:

مثل ما قلناه ذهب إليه مجاهد. وقال آخرون: " فمن لم يجد " الدية فعليه. صوم الشهرين عن الدية والرقبة. وتأويل الآية فمن لم يجد رقبة مؤمنة ولادية يسلمها إلى أهلها فعليه صوم شهرين متتابعين، ذهب إليه مسروق والاول هو الصحيح، لان دية قتل الخطأ على العاقلة، والكفارة على القاتل باجماع الامة على ذلك. وصفة التتابع في الصوم أن يتابع الشهرين لايفصل بينهما بافطار يوم. وقال أصحابنا: إذا صام شهرا وزيادة ثم أفطر خطأ وجاز له البناء.

وقوله: (توبة من الله) نصب على القطع. ومعناه رجعة من الله لكم إلى التيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة بايجاب صوم الشهرين المتتابعين توبة " وكان الله عليما حكيما " معناه لم يزل الله عليما بما يصلح عباده فيما يكلفهم من فرائضه حكيما بما يقضي فيهم. ويدبره. وقال الجبائي:

انما قال: (توبة من الله) تعالى بهذه الكفارة التي يلتزمها بدره عقاب القاتل.

وذمه لانه يجوز أن يكون عاصيا في السبب، وان لم يكن عاصيا في القتل من حيث أنه رمى في موضع هو منهي عنه بأن يكون رجمة، وان لم يقصد القتل وهذا

(٢٩٤)

ليس بشئ لان الآية عامة في كل قاتل خطأ، وما ذكره ربما اتفق في الأحاد. والزام دية قتل الخطأ العاقلة ليس هو مؤاخذة البرئ بالسقيم، لان ذلك ليس بعقوبة بل هو حكم شرعي تابع للمصلحة. ولو خلينا والعقل ما أوجبناه. وقيل: ان ذلك على وجه المواساة والمعونة قوله تعالى:

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها و غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (٩٣) - آية بلاخلاف -.

المعنى: أخبر الله تعالى في هذه الآية ان من يقتل مؤمنا متعمدا يعني قاصدا إلى قتله ان جزاؤه جهنم خالدا فيها أي مؤيدا في جهنم و غضب الله عليه. وقد بينا ان غضب الله هو ارادة عقابه، والاستخفاف به. " ولعنه " معناه أبعد من ثوابه ورحمته " واعدله عذابا عظيما " يعني لا يعلمون قدر مبلغه لكثرتة واختلفوا في صفة قتل العمد، فعندنا أن من قصد قتل غيره بما يقتل مثله في غالب العادة سواء كان بحديدة حادة كالسلاح أو مثقلة من حديد أو خنق أو سم أو إحراق أو تفريق أو موالات ضرب بالعصا حتى يموت أو بحجارة ثقيلة فان جميع ذلك عمد يوجب القود، وبه قال ابراهيم، وعبيد بن عمير، والشافعي، وأصحابه، واختاره الطبري. وقال قوم: لا يكون قتل العمد إلا ما كان بحديد. ذهب اليه سعيد ابن المسيب، و ابراهيم، والشافعي في رواية أخرى، وطاووس وأبوحنيفة وأصحابه غير أن عندنا أنه إذا قتله بغير حديدة فلا يستقاد منه إلا بحديدة. وقال الشافعي يستقاد منه بمثل ماقتل به فأما القتل شبيهه العمد فهو ان يضربه بعضا أو غيرها مما لم تجر العادة بحصول الموت عنده، فاذا مات منه، كان شبيهه العمد، وفيه الدية مغلظة في مال القاتل خاصة لايلزم العاقلة. وقد بينا اختلاف الفقهاء في مسائل

(٢٩٥)

الخلافة في هذه المسألة. واستدللت المعتزلة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد في نار جهنم. وأنه اذا قتل مؤمنا، فانه يستحق الخلود، ولايعفى عنه بظاهر اللفظ. ولنا أن نقول: ما انكرتم ان يكون المراد بالآية للكفار ومن لاثواب له أصلا. فأما من هو مستحق للشواب، فلا يجوز ان يكون مرادا بالخلود اصلا، لما بيناه فيما مضى من نظائره. وقد روى اصحابنا ان الآية متوجهة إلى من يقتل المؤمن لايمانته، وذلك لا يكون إلا كافرا. وقال عكرمة، وابن جريج: ان الآية نزلت في انسان بعينه ارتد ثم قتل مسلما، فانزل الله تعالى فيه الآية، لانه كان

مستحلا لقتله، على أنه قد قيل: إن قوله: " خالدا فيها " لا يفهم من الخلود في اللغة الا طول اللبث، فأما البقاء ببقاء الله، فلا يعرف في اللغة، ثم لاخلاف أن الآية مخصوصة بمن لا يتوب، لانه ان تاب فلا بد من العفو عنه اجماعا، وبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: لا توبة له ولا إذا قتله في حال الشرك ثم اسلم وتاب.

وبه قال ابن مسعود، وزيد بن ثابت والضحاك. ولا يعترض على ما قلناه قول من يقول ان قاتل العمد لا يوفق للتوبة، لان هذا القول إن صح فانما يدل على أنه لا يختار التوبة. ولا ينافي ذلك القول بأنها لو حصلت، لازالت العقاب. وإذا كان لا بد من تخصيص الآية واخراج التائبين عنها، جاز لنا ان نخرج منها من يتفضل الله عليه بالعفو على ان ظاهر الآية يتضمن ان جزاءه جهنم فمن أين أن ذلك لا بد من حصوله، وان العفو لا يجوز حصوله؟ وهذا قول أبي مجلز وأبي صالح.

ولا يدفع ذلك قوله: " وغضب الله عليه ولعنه واعدله عذابا عظيما " لان ذلك اخبار عن انه مستحق لذلك، فمن اين حصوله لامحالة؟ وقال الجبائي: الجزاء عبارة عما يفعل، وما لا يفعل لا يسمى جزاء. ألا ترى ان الاجير اذا استحق الاجرة على من استأجره، لا يقال في الدراهم التي مع المستأجر انها جزاء عمله؟ ! وانما يسمى بذلك اذا أعطاه إياها. وهذا ليس بشيء، لان الجزاء عبارة عن المستحق سواء فعل، ولم يفعل الا ترى انا نقول: جزاء من فعل الجميل ان يقابل عليه بمثله، وان كان ما فعل بعد؟ وانما يراد انه ينبغي ان يقابل بذلك. ونقول:

(٢٩٦)

من استحق عليه القود، أو حد من الحدود إن جزاء هذا ان يقتل، أو يقام عليه الحد. ولو كان الامر على ما قالوه، لوجب ألا يكون الخلود في النار جزاء للكفار، لانه لم يقع بعد، ولا يصح ان يقع، لان ما يوجد منه لا يكون إلا متاهيا وانما لم يقل في الدراهم، انها جزاء لعمله، لان ما يستحقه الاجير في الذمة لا يتعين في دراهم معينة. وللمستأجر أن يعطيه منها، ومن غيرها. فلذلك لم توصف هذه المعينة بانها جزاء للعمل، ثم لنا أن نعارض بآيات الغفران، كقوله: " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (١) وقوله: " ان الله يغفر الذنوب جميعا " (٢) وقوله: " ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " (٣).

وإذا تعارضا، وقفنا وبقينا على جواز العفو عقلا. وقال الجبائي والبلخي: الآية نزلت في اهل الصلاة. لانه تعالى بين في الآية الاولى حكم قتل الخطأ من الذية، والكفارة. وذلك يختص أهل الصلاة، ثم عقب ذلك بذكر قتل العمد منهم. وهذا ليس بصحيح، لان لزوم الذية في الخطأ يتناول المسلم، والمعاهد. وأما الكفارات فان عندنا تلزمهم أيضا لانهم متعبدون بالشرائع. ولو سلمنا ان الآية الاولى تختص المسلمين، لم يلزم ان تختص الثانية بهم، بل لا يمتنع ان يراد بها

الكفار على وجه الخصوص أو الكفار، والمسلمين على وجه العموم. غير اننا قد علمنا انه لايجوز ان يراد بها من هو مستحق الثواب، لان الثواب دائم. ولايجوز مع ذلك أن يستحق العقاب الدائم مع ثبوت بطلان الاحباط، لاجماع الآية على خلافه.
قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا

-
- (١) سورة النساء: آية ٤٧ - ١١٥. (٢) - سورة الزمر: آية ٥٣.
(٣) - سورة الرعد: آية ٧ وسورة حم السجدة: آية ٤٣. (*)

(٢٩٧)

فعندالله مغنم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً)
(٩٤) - آية - .
القراءة، والحجة:

قرأ أهل المدينة، وابن عباس، وخلف (السلم) بغير الف. الباقرن بالف.
وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما فتثبتوا (بالثاء) من الثبوت في الموضعين ههنا وفي الحجرات الباقرن (فتبينوا) من التبين. وقرئ من طريق النهرواني لست مؤمنا - بفتح الميم الثانية - الباقرن بكسرهما وبه قرأ أبو جعفر محمد بن علي (ع) على ما حكاه البلخي. فمن قرأ بالثاء من الثبوت. فانما اراد التثبت الذي هو خلاف العجلة.

ومن قرأ بالياء والنون، اراد من التبين الذي هو النظر، والكشف عنه حتى يصح.
والمعنيان متقاربان، لان المثبت متبين، والمتبين مثبت. ومن قرأ (السلم) بلالالف اراد الاستسلام. ومنه قوله: " والقوا إلى الله يومئذ السلم " (١) أي استسلموا.
وقوله: " ورجلا سلما " أي مستسلما. وروى أبان عن عاصم بكسر السين. والمعنى خلاف الحرب. ومن قرأ بالف ذهب إلى التحية. ويحتمل أن يكون المراد لا تقولوا لمن اعتزلكم وكف عن قتالكم: لست مؤمنا. قال أبو الحسن: يقولون: انما فلان سلام إذا كان لا يخالط أحدا.
المعنى:

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين الذين إذا ضربوا في الارض بمعنى ساروا فيها للجهاد وأن يتأنوا في قتال من لا يعلمون كفره، ولا ايمانه، وعن قتل من يظهر الايمان وان ظن به الكفر باطنا. ولا يعجلوا حتى يبين لهم أمرهم فانهم ان بادروا ربما أقدموا على قتل مؤمن.

ولا يقتلوا من استسلم لهم، وكف عن قتالهم، واطهر انه اسلم. والا يقولوا لمن هذه صورته:
لست مؤمنا، فيقتلوه طلب عرض

(١) سورة النحل: آية ٨٧. (*)

(٢٩٨)

" الحياة الدنيا " يعني متاع الحياة الدنيا الذي لابقاء له. فان عند الله مغانم كثيرة وفواضل
جسيمة فهو خير لكم ان أطعتم الله فيما أمركم به، وانتهيتم عما نهاكم عنه.
النزول:

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال عمر بن شبة: نزلت في مرداس رجل من غطفان،
غشيتهم خيل المسلمين، فاستعصم قومه في الجبل، وأسهل هو مسلما مستسلما، فاطهر لهم
اسلامه، فقتلوه، وأخذوا ما معه. وقال أبو عمر والواقدي، وابن اسحاق. نزلت في عامر بن
الاضبط الاشجعي لقيته سرية لابي قتادة فسلم عليه فشد محلم بن جثامة فقتله لاحنة كانت
بينهم، ثم جاء النبي (صلى الله عليه وآله) وسأل ان يستغفر له فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لاغفر
الله لك. وانصرف باكيا فما مضت عليه سبعة ايام حتى هلك فدفن، ثم لفظته الارض فجاءوا
إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأخبروه فقال (ع): إن الارض تقبل من هو شر من محلم
صاحبكم، لكن الله اراد أن يعظم من حرمتكم، ثم طرحوه بين صد في جبل، والقوا عليه
الحجارة، فنزلت الآية. وقال ابن عباس: لحق ناس رجلا في غنيمة له، فقال السلام عليكم،
فقتلوه وأخذوا غنمه. فنزلت الآية. قال ابن عباس: فكان الرجل يسلم في قومه، فاذا غزاهم
أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)، وهرب أصحابه وقف، وأظهر تحية الاسلام (السلام عليكم)
فيكفون عنه، فلما خالف بعضهم، وقتل من أظهر ذلك نزلت فيه الآية وبه قال السدي: وقال
الرجل السلام عليكم، أشهد ان لاإله إلا الله، وان محمدا رسول الله. فشد عليه أسامة بن زيد
وكان أمير القوم، فقتله، فنزلت الآية. وقال قوم: كان صاحب السرية المقداد. وقال آخرون:
ابن مسعود. وكل واحد من هذه الاسباب يجوز أن يكون صحيحا، ولايقطع بواحد منها بعينه.
والذي يستفاد من ذلك أن من اظهر الشهادتين لايجوز لمؤمن أن يقدم على قتله، ولا إذا أظهر
ما يقوم مقامها من تحية الاسلام.

(٢٩٩)

المعنى:

وقوله. (كذلك كنتم من قبل) اختلفوا في معناه، فقال قوم: كما كان هذا الذي قتلتموه بعدما القى
إليكم السلام مستخفيا من قومه بدينه خوفا على نفسه منهم، كنتم أنتم مستخفين بايديانكم من

قومكم حذرا على أنفسكم فمن الله عليكم، ذهب إليه سعيد بن جبير وقال ابن زيد معناه كما كان هذا المقتول كافرا فهداه الله، كذلك كنتم كفارا، فهداكم الله. وبه قال الجبائي. وقال المغربي: معناه كذلك كنتم أذلاء أحادا إذا صار الرجل منكم وحده، خاف أن يختطف. وقوله: (فمن الله عليكم) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال سعيد بن جبير: فمن الله عليكم باظهار دينه، واعزاز أهله حتى أظهرتم الاسلام بعد ما كنتم تكتُمونه من اهل الشرك. وقال السدي: معناه تاب الله عليكم " فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا " معناه انه كان عليما بما تعملونه قبل أن تعملوه. قال البلخي في الآية دلالة على أن المجتهد لا يضل، لان النبي (صلى الله عليه وآله) لم يضل مقادا ولا بترأ منه. ومن قرأ " لست مؤمنا " بفتح الميم الثانية، قال: معناه لا تقولوا لمن استسلم لكم لسنا نؤمنا. وهو وجه حسن.

قوله تعالى:

(لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله باموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) (٩٦) - آيتان - .

(٣٠٠)

القراءة، والحجة: قرأ أهل المدينة وابن كثير غير أولي الضرر - نصبا - الباقون بالرفع. فمن رفع جعله نعتا للقاعدين. ومن نصبه فعلى الاستثناء. وهو اختيار أبي الحسن الاخفش. المعنى:

بين الله بهذه الآية انه " لايستوي " ومعناه لايعتدل " القاعدون " يعني المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الايمان بالله وبرسوله. المؤثرون الدعة والرفاهية على مقاساة الحر والمشقة بلقاء العدو، والجهاد في سبيله إلا أهل الضرر منهم بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التي لاسبيل لاهلها إلى الجهاد للضرار الذي بهم " والمجاهدون في سبيل الله " ومنهاج دينه لتكون كلمة الله هي العليا والسفراغون وسعهم في قتال أعداء الله، وأعداء دينهم " باموالهم " انفاقا لها فيما يوهن كيدأعداء أهل الايمان. وقال قوم: إن قوله: " غير أولي الضرر " نزل بعد قوله: " لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله " فجاء عمر بن أم مكتوم، وكان أعمى فقال: يارسول الله كيف وأنا أعمى، فما برح حتى نزل قوله: " غير أولي الضرر ". ذكر ذلك البراء بن عازب، وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت. وهو يقوي قراءة من قرأ بالنصب. الاعراب والمعنى:

" والقاعدون " رفع بيستوي ويستوي ههنا يقتضي فاعلين، فصاعدا وقوله: " والمجاهدون " معطوف عليه. والتقدير لايستوي القاعدون إلا أولي الضرر والمجاهدون. وقال الفراء: الرفع أجود لاتصال " غير " بقوله: " القاعدون " والاستثناء كان يجب أن يكون بعد تمام الكلام بقوله: " لايستوي القاعدون... "

والمجاهدون غير أولي الضرر " قال ويجوز خفضه نعتا للمؤمنين وماقريء به.

(٣٠١)

والاول أقوى. ويحتمل النصب على الحال كقولك: جاء زيد غير مريب. فان قيل: أيجوز أن يساوي أهل الضرر المجاهدين على وجه، فان قلت: لا، فقد صاروا مثل من ليس من أولي الضرر؟ قلنا: يجوز أن يساؤوهم بأن يفعلوا طاعات أخر تقوم مقام الجهاد، فيكون ثوابهم عليهم مثل ثواب الجهاد. وليس كذلك من ليس بأولي الضرر، لانه قعد عن الجهاد، بلاعذر. وظاهر الآية يمنع من مساواته على وجه.

وقال ابن عباس لايستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجين إلى بدر ثم قال: (وفضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) قال ابن جريج وغيره معناه فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم درجة على القاعدين من أهل الضرر ثم قال: (وكلا وعد الله الحسنى) يعني وعد الله الحسنى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم والقاعدين أولي الضرر. والمراد بالحسنى ههنا الجنة في قول قتادة وغيره من المفسرين. وبه قال السدي. وقوله: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) معناه فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي الضرر أجرا عظيما. وقوله: (درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا)

قال قتادة هو كما يقال: الاسلام درجة، والفقه درجة، والهجرة درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وقال عبدالله بن زيد: معنى الدرجات هي التسع درجات التي درجها في سورة براءة. وهي قوله: (ماكان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله **صلى الله عليه وآله**) ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيض الكفار ولا ينالون من عدو نيلا) إلى قوله: (ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون) (١) قال: هذه التسع درجات. وقال قوم: المراد بالدرجات ههنا الجنة. واختاره الطبري. (ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا) معناه لم يزل الله غفارا للذنوب صافحا لعبيده عن العقوبة. رحيمًا بهم متفضلا عليهم. فان

(١): آية ١٢٠، ١٢١. (*)

(٣٠٢)

قيل: كيف قال في أول الآية (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) ثم قال في آخرها (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات) وهذا ظاهر التناقض؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما - ان في اول الآية فضل الله المجاهدين على القاعدين أولي الضرر درجة وفي آخرها فضلهم على القاعدين غير أولي الضرر درجات ولا تتناقض في ذلك، لان قوله: (وكلا وعد الله الحسنى) يدل على ان القاعدين لم يكونوا عاصين مستخفين. وان كانوا تاركين للفضل.

والثاني - قال أبو علي الجبائي: أراد بالدرجة الاولى علو المنزلة وارتفاع القدر على وجه المدح لهم كما يقال: فلان أعلى درجة عند الخليفة من فلان يريدون بذلك أنه أعظم منزلة. وبالثنائية أراد الدرجات في الجنة التي تتفاضل بها المؤمنون بعضهم على بعض على قدر استحقاقهم، ولاتنافي بينهما. وقال الحسين بن علي المغربي انما كرر لفظ التفضيل، لان الاول أراد تفضيلهم في الدنيا على القاعدين والثاني أراد تفضيلهم في الآخرة بدرجات النعيم. قوله تعالى:

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا) (٩٩) - ثلاث آيات -.

هذه الآية نزلت في قوم أظهروا للنبي (صلى الله عليه وآله) الاسلام بمكة، فلما هاجر

(٣٠٣)

النبي (صلى الله عليه وآله) وهاجر أصحابه فنتوهم آباؤهم عن دينهم فافتتوا وخرجوا مع المشركين يوم بدر فقتلوا كلهم. وقيل: انهم كانوا خمسة نفر. قال عكرمة: هم قيس بن الفاكهة بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الاسود بن أسد، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن ميثمة بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف. وذكر أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) مثله، فانزل الله فيهم الآيات. وقال (ع):

ان الذين توفاهم الملائكة يعني قبض أرواحهم " ظالمي أنفسهم " نصب على الحال يعني في حال هم فيها ظالموا نفوسهم بمعنى بخسوها حقها من الثواب وادخلوا عليها العقاب بفعل الكفر. وقالت لهم الملائكة " فيم كنتم " أي في أي شئ كنتم من دينكم على وجه التقرير لهم والتوبيخ لفعالهم (قالوا كنا مستضعفين في الارض)

يستضعفنا أهل الشرك بالله في ارضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، ويمنعونا من الايمان بالله واتباع رسوله على جهة الاعتذار فقالت لهم الملائكة " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " يعني فخرجوا من ارضكم وداركم وتفارقوا من يمنعكم من الايمان بالله وبرسوله إلى ارض يمنعكم أهلها من أهل الشرك، فتوحدوه وتعبدوه وتتبعوا نبيه ثم قال تعالى " فأولئك مأواهم جهنم " يعني مسكنهم جهنم

" وساءت " يعني جهنم لاهلها الذين صاروا اليها " مصرا " وسكنا ثم استثنى من ذلك المستضعفين الذين استضعفهم المشركون (من الرجال والنساء والولدان) وهم الذين يعجزون عن الهجرة لاعسارهم وقلة حيلتهم " ولايهتدون سبيلا " يعني في الخلاص من مكة. وقيل معناه لايهتدون لسوء معرفتهم بالطريق من أرض الاسلام استثنوا من جملة من أخبر أن مأواهم جهنم للعدر الذي هم فيه.

ونصب المستضعفين بالاستثناء من الهاء والميم في قوله: " مأواهم جهنم " فقال تعالى: " فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم " يعني لعل الله أن يعفو عنهم لما هم عليه من الفقر ويتفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة من حيث لم يتركوها اختيارا " وكان الله عفوا غفورا " ومعناه لم يزل الله ذا صفح بفضلته عن ذنوب عباده بترك عقوبتهم على معاصيهم " غفورا " ساترا عليهم ذنوبهم بعفوه

(٣٠٤)

لهم عنها. قال ابن عباس كنت أنا وأمي من المستضعفين. قال عكرمة وكان العباس منهم وكان النبي (صلى الله عليه وآله) يدعو في دبر صلاة الظهر اللهم خلص الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن ربيعة وضعفة المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا. وبالجملة التي ذكرناها قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك، وابن وهب، وابن جبير.

وقوله: (توفاهم) يحتمل ان يكون فعلا ماضيا ويكون موضعه الفتح لان الماضي مبني على الفتح. والثاني ان يكون رفعا والمعنى تتوفاهم وقد حذف أحد التائين وقد بينا فيما مضى أن (عسى) من الله معناه الوجوب قال المغربي: ذكر (عسى) ههنا تضعيف لامر غيرهم كمايقول القائل ليت من أطاع الله سلم، فكيف من عصاه. ومثله قول الشاعر:

ولم تر كافر نعى نجا * من السوء ليت نجا الشاكر
والتوفي هو الاحصاء قال الشاعر:

إن بني أدرد ليسوا من أحد * ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد
ولاتوفاهم قریش في العدد بمعنى أحصاهم. والملائكة تتوفى. وملك الموت يتوفى. والله يتوفى. ومايفعله ملك الموت والملائكة يجوز أن يضاف إلى الله إذا فعلوه بأمره وما تفعله الملائكة جاز أن يضاف إلى ملك الموت، إذا فعلوه بأمره.

قوله تعالى:

(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيمًا) (١٠٠) - آية - .

(٣٠٥)

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان من يفارق وطنه، ويخرج من أرض الشرك وأهله هربا بدينه إلى أرض الاسلام وأهلها والمهاجر في سبيل الله يعني مهاجرا دين الله وطريقه الذي شرعه لخلقه يجد في الأرض مراغما كثيرا (يجد) مجزوم، لانه جواب الشرط.
اللغة:

والمراغم المضطرب في البلاد والمذهب يقال منه: راغم فلان قومه مراغما ومراغمة قال الفراء: هما مصدران ومنه قول النابغة الجعدي:

كطود يلاذ بأركانها * عزيز المراغم والمهرب (١)

وقال الشاعر: إلى بلد غير داني المحل * بعيد المراغم والمضطرب
والمراغم مأخوذ من الرغام وهو التراب ومعنى راغمت فلانا هجرته. ولم أبال رغم أنفه أي وان لصق بالتراب أنفه.

المعنى:

واختلف أهل التأويل في معناه، فقال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض وبه قال الضحاك، والربيع، والحسن، وقتادة، ومجاهد. وقال السدي يعني معيشة. وقال ابن زيد يعني مهاجرا. وقال ابن عباس يعني سعة في الرزق.

وبه قال الربيع بن أنس والضحاك. وقال قتادة: سعة من الضلالة إلى الهدى. وقال يزيد بن أبي حبيب: ان أهل المدينة يقولون من خرج فاصلا من أهله يريد الغزو وجب سهمه لقوله: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) وقوله:

" وسعة " يحتمل أمرين: أحدهما - السعة في الرزق. الثاني - السعة مما كان فيه من تضيق المشركين عليهم في أمر دينهم بمكة. ثم أخبر تعالى أن من خرج مهاجرا

(١) ديوانه: ٢٢ ومجاز القرآن ١: ١٣٨ واللسان (رغم).

(٣٠٦)

من أرض الشرك فارا بدينه إلى الله ورسوله وأدركه الموت قبل بلوغه دار الهجرة وأرض الاسلام " فقد وقع أجره على الله " يعني ثواب عمله وجزاء هجرته عليه تعالى " وكان الله غفورا " يعني ساترا على عبادته ذنوبهم بالعفو عنهم " رحيمًا " بهم رفيقا.

النزول:

وقيل في سبب نزول الآية ان الله لما أنزل ان الذين " توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم " كتب المسلمون بالآيات وبعثوها إلى أخوانهم من أهل مكة فخرج حينئذ منها جماعة، فقالوا: لم يبق لنا عذر فهاجروا. وقال سعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والسدي وابن زيد وابن عباس ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) انها نزلت في ضمرة بن العيص بن ضمرة بن زنباع أو العيص بن ضمرة وكان مريضا فأمر أهله ان يفرشوا له على سريره ويحملوه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال ففعلوا فأتاه الموت بالتعظيم، فنزلت فيه الآية. وبه قال قتادة وقال: قال ضمرة وأنا أعرف الطريق ولي سعة في المال أخرجوني فأخرج، فمات. وقال عمر بن شبة: هو أبو أمية ضمرة بن حندب الخزاعي. وقال الزبير بن بكار: هو خالد بن حزام أخو حكيم بن حزام خرج مهاجرا فمات في الطريق. قال عكرمة وخرج جماعة من مكة مهاجرين فلحقهم المشركون وفتنهم عن دينهم فافتتوا، فانزل الله فيهم " ومن الناس من يقول أمنا بالله فاذا أودي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله " (١) وكتب بها المسلمون من المدينة إليهم ثم نزل فيهم " ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم. " قوله تعالى:

(وإذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم

(١) سورة العنكبوت: آية ١٠ (*)

(٣٠٧)

عدوا مبينا) - (١٠١) - آية بلاخلاف -.

معنى قوله:

(وإذا ضربتم في الارض) إذا سرتم فيها فليس عليكم جناح يعني حرج ولاثم ان تقصروا من الصلاة يعني من عددها فتصلوا الرباعيات ركعتين.

وظاهر الآية يقتضي أن التقصير لايجوز إلا إذا خاف المسافر، لانه قال " ان خفتم أن يفتنكم " ولاخلاف اليوم أن الخوف ليس بشرط، لان السفر المخصوص بانفراده سبب للتقصير. والظاهر يقتضي ان التقصير جائز لاثم فيه. ويقتضي ذلك انه يجوز الاتمام، وعندنا وعندكثير من الفقهاء ان فرض المسافر مخالف لفرض المقيم، وليس ذلك قصرا، لاجماع اصحابنا على ذلك. ولما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: فرض المسافر ركعتان غير قصر. واما الخوف بانفراده فعندنا يوجب القصر.

وفيه خلاف وقد روي عن ابن عباس أن صلاة الخائف قصر من صلاة المسافر. وانها ركعة ركعة. وقال قوم: معنى قوله: " ليس عليكم جناح أن تقصروا " يعني من حدود الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا. وهو الذي رواه أصحابنا في صلاة شدة الخوف. وأنه يصلي إيماء والسجود اخفض من الركوع. فان لم يقدر فان التسبيح المخصوص يكفي عن كل ركعة. ثم أخبر تعالى أن الكافرين يعني الجاحدين لتوحيد الله ونبوة نبيه فقد أبانوا عداوتهم لكم بماصبتهم لكم الحرب على عبادتكم الله، وترككم عبادة الاوثان.

وفي قصر الصلاة ثلاث لغات تقول: قصرت الصلاة أقصرها وهي لغة القرآن. وقصرتها تقصيرا، واقصرتها إقصارا.

واختلف أهل التأويل في قصر الصلاة فقال قوم: هي قصر من صلاة الحاضر ما كان يصلي أربع ركعات أذن له في قصرها، فيصلها ركعتين. ذهب إليه يعلى ابن أمية، وعمر بن الخطاب. وان يعلى قال لعمر كيف نقصر الصلاة وقد أمنا فقال عمر: عجبت ما عجبت منه، فسألت النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك فقال: صدقة تصديق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. وبه قال ابن جريج وقتادة. وفي قراءة أبي " وإذا ضربتم

(٣٠٨)

في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا " ولا يقرأ " إن خفتم " ومعنى هذه القراءة الا يفتنكم الذين كفروا وحذف (لا)

كما حذف في قوله: " يبين الله لكم أن تضلوا " (١) ومعناه ألا تضلوا. وقال قوم: القصر لا يجوز إلا مع الخوف روي ذلك عن عائشة، وسعد بن أبي وقاص.

وقال قوم: عنى بهذه الآية قصر صلاة الخوف في غير حال المسابقة، وفيها نزلت.

ذهب اليه مجاهد وغيره. وقال آخرون: عنى بها قصر الصلاة صلاة الخوف في حال غير شدة الخوف. وعنى به قصر الصلاة من صلاة السفر لامن صلاة الإقامة، لان صلاة السفر عندهم ركعتان تمام غير قصر، كما قلناه - ذهب إليه السدي، وابن عمر، وسعيد بن جبير، وجابر بن عبدالله، وكعب - وكان من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) قطعت يده يوم اليمامة وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وثعلبة ابن زهدم اليربوعي وكان من الصحابة - وأبوهريرة. وروي عن ابن عباس في رواية اخرى إن القصر المراد به صلاة شدة الخوف تقصر من حدودها وتصلها إيماء وهو مذهبنا. وأما حد السفر الذي يجب فيه التقصير فعندنا انه ثمانية فراسخ.

وقال ابوحنيفة، واصحابه: مسيرة ثلاثة أيام. وقال الشافعي ستة عشر فرسخا ثمانية واربعين ميلا. وقال قوم: يجب في قليل السفر وكثيره. بينا الخلاف فيه في كتاب الخلاف.

وانما قال في الاخبار عن الكافرين انهم عدو، ولم يقل أعداء لان لفظة فعول وفعل تقع على الواحد والجماعة، وفتنت الرجل أفتته فهو مفتون لغة أهل الحجاز وتميم وربيعه. وأهل نجد كلهم وأسد يقولون: أفتنت الرجل فهو فاتن.

وقد فتن فتونا: إذا دخل في الفتنة.

قوله تعالى:

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك

(١) سورة النساء: آية ١٧٥. (*)

(٣٠٩)

ولياخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعنكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله اعد للكافرين عذاباً مهيناً) (١٠٢) - آية واحدة بلاخلاف - .

قوله (إذا كنت فيهم) معناه في الضاربين في الارض من أصحابك يا محمد

الخائفين عدوهم أن يفتوهم، فأقمت لهم الصلاة يعني أتممت لهم الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها، ولم تقصرها القصر الذي يجب في صلاة شدة الخوف من الاقتصار على الائمة. فلتقم طائفة من اصحابك الذين كنت فيهم معك في صلاتك وليكن سائرهم في وجه العدو. ولم يذكر ما ينبغي ان تفعله الطائفة غير المصلية لدلالة الكلام عليه " وليأخذوا أسلحتهم " قال قوم: الفرقة المأمورة بأخذ السلاح هي المصلية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) والسلاح مثل السيف يتقلد به والخنجر يشده إلى درعه وكذلك السكين ونحو ذلك من سلاحه وهو الصحيح. وقال ابن عباس الطائفة المأمورة بأخذ السلاح هي التي بازاء العدو دون المصلية، فاذا سجدوا يعني الطائفة التي قامت معك مصلية بصلاتك، وفرغت من سجودها فليكونوا من ورائكم يعني فليصيروا بعد فراغهم من سجودهم مصافين للعدو. وعندنا انهم يحتاجون أن يتموا صلاتهم ركعتين، والامام قائم في الثانية ثم ينصرفون إلى موضع اصحابهم ويجيء الآخرون فيستفتحون الصلاة فيصلي بهم الامام الركعة الثانية، وبطيل تشهد حتى يقوموا فيصلوا بقية صلاتهم ثم يسلم بهم الامام. ومن قال: إن صلاة الخائف ركعة، قال: الاولون إذا صلوا ركعة فقد فرغوا. وكذلك الفرقة الثانية.

(٣١٠)

وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع). ورواه مسلمة عن ابي عبدالله (ع)

وهذا عندنا انما يجوز في صلاة شدة الخوف. وفي الناس من قال: ان النبي (صلى الله عليه وآله) يسلم بهم ثم يقومون فيصلون تمام صلاتهم. وقد بينا اختلاف الفقهاء في مسائل الخلاف في صلاة الخوف. وقوله: "ولياخذوا حذرهم وأسلحتهم" يعني الطائفة الثانية يأخذون السلاح والحذر في حال الصلاة. وذلك يبين ان المأمورة بأخذ السلاح في الاول هم المصلون دون غيرهم. وقوله: "ود الذين كفروا لوتغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم" معناه تمنى الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم وتشتغلون عن أخذها تأهباً للقتال وعن أمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتنهون عنها (فيميلون عليكم ميلاً واحدة) معناه يحملون عليكم، وأنتم متشاغلون بصلاتكم عن أسلحتكم، وأمتعتكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم، ويستبيحون عسكريكم، وما معكم. والمعنى لا تشاغلوا باجمعكم بالصلاة عند مواقفة العدو، فتمكنوا عدوكم من أنفسكم، وأسلحتكم، ولكن اقيموها على ما بينت. وخذوا حذركم بأخذ السلاح. ومن عادة العرب أن يقولوا: ملنا عليهم بمعنى حملنا عليهم. قال العباس بن عباد بن نضلة الانصاري لرسول الله (ص)

ليلة العقبة الثانية: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غدا على اهل منى باسيافنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم نؤمر بذلك يعني في ذلك الوقت وقوله: "ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم" معناه لاجرم عليكم ولا اثم ان كان بكم أذى من مطر يعني إن نالكم من مطر، وأنتم مواقفو عدوكم، او كنتم مرضى يعني أعلاء، أو جرحى ان تضعوا اسلحتكم إذا ضعفتكم عن حملها، لكن إذا وضعتموها، فخذوا حذركم.

يعني احترسوا منهم أن يميلوا عليكم وأنتم غافلون غارون، ثم قال: "إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا" يعني عذابا مذلا يبقون فيها أبدا. وقيل "وان كنتم مرضى" نزلت في عبدالرحمن بن عوف وكان جريحا. ذكره ابن عباس.

واللام في قوله: "فلنقم" لام الامر وهي تجزم الفعل. ومن حقها أن

(٣١١)

تكون مكسورة إذا ابتدئ بها. وبنو سليم يفتحونها. يقولون: ليقم زيد. كما تميم لام كي يقولون جئت لأخذ حقي. فاذا اتصلت بما قبلها من الواو والفاء جاز تسكينها وكسرها. ذكره الفراء. وقال: "طائفة أخرى" ولم يقل: آخرون، ثم قال: "لم يصلوا فليصلوا معك" ولم يقل: فلتنصل معك حملا للكلام تارة على اللفظ وأخرى على المعنى كما قال: "وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا" (١) ولو قال: اقتتلنا لكان جائزا ومثله

" فريفا هدى وفريفا حق عليهم الضلالة " (٢) وفي قراءة أبي: حق عليه الضلالة ومثله " نحن جميع منتصر " (٣) ولم يقل منتصرون ومثله كثير. وفي الآية دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله). وذلك ان الآية نزلت والنبي (صلى الله عليه وآله) بعسفان والمشركون بضحجان، فتوافقوا فصلى النبي (صلى الله عليه وآله) بأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع، والسجود فهم بهم المشركون ان يغيروا عليهم، فقال بعضهم: لهم صلاة أخرى أحب إليهم من هذه يعنون العصر، فأنزل الله عليه الآية فصلى بهم العصر صلاة الخوف، ويقال: إنه كان ذلك سبب اسلام خالد بن الوليد، لانه كان هم بذلك فعلم أنه ما أطلع النبي (صلى الله عليه وآله) على ما هموا به غير الله تعالى فاسلم وفي الناس من قال: من حكم صلاة الخوف اختص به النبي (صلى الله عليه وآله) وقال آخرون - وهو الصحيح - انه يجوز لغيره.

قوله تعالى:

(فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) (١٠٣) - آية - .

المعنى:

معنى الآية انكم أيها المؤمنون إذا فرغتم من صلاتكم - وأنتم واقفون

(١) سورة الحجرات: آية ٩. (٢) سورة الاعراف: آية ٢٩.

(٣) سورة القمر: آية ٤٤. (*)

(٣١٢)

عدوكم - التي بينها لكم (فاذكروا الله قياما وقعودا) أي في حال قيامكم وفي حال قعودكم، ومضطجعين على جنوبكم. والجنب: الجانب تقول نزلت جنبه أي جانبه بالتعظيم له والدعاء لانفسكم بالظفر على عدوكم لعل الله أن يظفركم بهم.

وينصركم عليهم. وذلك مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (١). وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين. وقوله: (فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة " اختلفوا في تأويله، فقال قوم معناه اذا استقررتم في أوطانكم وأقمتم في سفركم وضربكم في الارض. ذهب إليه مجاهد، وقتادة وقال آخرون معناه إذا استقررتم بزوال الخوف من عدوكم، وحدث الامن لكم، فاقيموا الصلاة أي فأنتموا حدودها بركوعها، وسجودها. ذهب اليه السدي، وابن زيد، ومجاهد في رواية أخرى. وهو اختيار الجبائي، والبلخي الطبري. وأقوى التأويلين قول من قال: إذا زال خوفكم من عدوكم، وأمنتم فأنتموا

الصلاة بحدودها غير قاصرين لها عن شئ من حدودها، لانه تعالى عرف عباده الواجب عليهم من فرض صلاتهم بهاتين الآيتين في حالين:
احدهما - حال شدة الخوف أذن لهم فيها بقصر الصلاة على ما بيناه من قصر حدودها، والاقتصار على الايماء.

والثانية - حال غير شدة الخوف امرهم فيها باقامة حدودها وإتمامها على مامضى من معاقبة بعضهم بعضا في الصلاة خلف أئمتها، لانه قال: " وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة " فلما قال: " فاذا اطمأننتم فاقموا الصلاة " كان معلوما انه يريد إذا اطمأننتم من الحال التي لم تكونوا فيها مقيمين صلاتكم فاقموا الصلاة بجميع حدودها غير قاصرين لها.
وقال ابن مسعود نزلت الآية في صلاة المرضى. والظاهر بغيره أشبه. وقوله:
(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) اختلفوا في تأويله، فقال قوم:

(١) سورة الانفال: آية ٤٦. (*)

(٣١٣)

معناه ان الصلاة كانت على المؤمنين فريضة مفروضة، ذهب إليه عطية العوفي، وابن عباس، وابن زيد، والسدي، ومجاهد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)
وأبي عبدالله (ع). وقال آخرون: كانت على المؤمنين فرضا واجبا. ذهب اليه الحسن، ومجاهد، في رواية، وابن عباس في رواية وأبو جعفر في رواية أخرى عنه، والمعنيان متقاربان بل هما واحد. وقال آخرون: معناه كانت على المؤمنين كتابا موقوتا يعني منجما يؤديونها في انجمها ذهب اليه ابن مسعود وزيد بن أسلم وقتادة. وهذه الاقوال متقاربة، لان ما كان مفروضا فهو واجب وما كان واجبا ادائه في وقت بعد وقت فمفروض منجم. واختار الجبائي والطبري القول الاخير قال: لان موقوتا مشتق من الوقت فكانه قال: هي عليهم فرض في وقت وجوب أدائها.
قوله تعالى:

(ولاتهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤) - آية بلاخلاف - .
المعنى:

معنى قوله: (ولاتهنوا) لاتضعفوا يقال وهن فلان في الامر يهن وهنا وهونا. وقوله في ابتغاء القوم يعني في طلب القوم. والقوم هم أعداء الله وأعداء المؤمنين من أهل الشرك " إن تكونوا " أيها المؤمنون " تألمون " مما ينالكم من الجراح منهم في الدنيا " فانهم " يعني المشركين "

يألمون " أيضا مما ينالهم منكم من الجراح والاذى مثل ما تألمون انتم من جراحهم واذاهم " وترجون " أنتم أيها المؤمنون " من الله " الظفر عاجلا والثواب آجلا على ماينالكم منهم " مالا يرجون " هم على ما ينالهم منكم يقول: فأنتم إن كنتم مؤمنين من ثواب الله لكم

(٣١٤)

على ما يصيبكم منهم بما هم مكذبون به فأولى وأحرى ان تصبروا على حربهم وقتالهم منهم على قتالكم وحربكم. وهو قول قتادة، والسدي، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، وابن عباس، وابن جريج.

النزول: وقال ابن عباس، وعكرمة: الآية نزلت في أهل أحد لما أصاب المسلمين ما أصابهم وصعد النبي (صلى الله عليه وآله) الجبل وجاء أبو سفيان وقال يا محمد (صلى الله عليه وآله) يوم لنا ويوم لكم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) أجيبوه، فقال المسلمون لاسواء لاسواء قتالنا في الجنة وقتالكم في النار، فقال أبو سفيان عزي لنا ولاعزى لكم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) قولوا: الله مولانا ولامولى لكم. قال أبو سفيان اعل هبل، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) قولوا له: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان موعدنا وموعدكم بدر الصغرى، ونام المسلمون وبهم الكلوم وفيهم نزلت " ان يمسسكم قرح فقد.. " الآية. وفيهم نزلت " إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون " لان الله تعالى أمرهم على ما بهم من الجراح ان يتبعوهم وأراد بذلك ارهاب المشركين فخرجوا إلى بعض الطريق وبلغ المشركين ذلك فاسرعوا حتى دخلوا مكة. المعنى واللغة:

وقال بعضهم معنى " وترجون من الله مالايرجون " أي تخافون من جهته مالا يخافون كما قال: " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله " (١) بمعنى لا يخافون. وقال قوم لايعرف في كلام العرب الرجاء بمعنى الخوف إلا إذا كان في الكلام جحد سابق كما قال: " مالكم لاترجون لله وقارا " (٢) بمعنى لاتخافون لله عظيمة. وقال الشاعر:

(١) سورة الجاثية: آية ١٣. (٢) سورة نوح: آية ١٣. (*)

(٣١٥)

لاترجى حين تلاقي الزائدا * أسبعة لاقت معا أو واحد (١)
وقال أبو ذؤيب الهذلي:
إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وحالفها في بيت نوب عوامل (٢)

قال: الفراء: نوب ونوب، وهو النحل. ولا يجوز أن نقول رجوتك بمعنى خفتك. وإنما استعمل الرجاء بمعنى الخوف لأن الرجاء أمل قد يخاف ألا يتم. وهي لغة حجازية. قال الكسائي: لم أسمعها إلا بتهامة ويذهبون معناها إلى قولهم: ما أبالي وما أحفل قال الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلماً * على أي جنب كان الله مصرعي
أي ما أبالي. وقوله: " كان الله عليماً " يعني بمصالح خلقه حكيماً في تدبيره أيهم وتقديره أحوالهم.

قوله تعالى:

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيماً (١٠٥)
واستغفر الله كان غفوراً رحيماً) (١٠٦) - آيتان - .
المعنى:

خاطب الله بهذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله)، فقال: " إنا أنزلنا إليك " يامحمد (صلى الله عليه وآله)

" الكتاب " يعني القرآن " بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " يعني بما أعلمك الله في كتابه " ولاتكن للخائنين خصيماً " نهاه أن يكون لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله خصيماً يخاصم عنه، ويدفع من طالبه عنه بحقه الذي خانه فيه.

ثم أمره بأن يستغفر الله في مخاصمته عن الخائن مال غيره " إن الله كان غفوراً

(١) معاني القرآن ١: ٢٨٦ واللسان (رجا). (٢) ديوانه ١٤٣، ومعاني القرآن ١: ٢٨٦، والصاحح الجوهري (رجا) ويروى (عوامل). (*)

(٣١٦)

رحيماً " يصفح عن ذنوب عباده ويستترها عليهم، ويترك مؤآخذتهم بها. وعندنا أن الخطاب وإن توجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) من حيث خاصم من رآه على ظاهر الإيمان والعدالة، وكان في الباطن بخلافه فلم يكن ذلك معصية، لأنه (ع) منزّه عن القبائح فانما ذكر على وجه التأديب له في أن لا يبادر فيخاصم ويدفع عن خصم إلا بعد أن يبين الحق منه. والمراد بذلك امته (عليه السلام). على أنا لانعلم أن ماروي في هذا الباب وقع من النبي (صلى الله عليه وآله)، لأن طريقه الأحاد، وليس توجه النهي إليه بدال على أنه وقع منه ذلك المنهي قال " لئن أشركت ليحبطن عملك " (١) ولا يدل ذلك على وقوع الشرك منه. وقال قوم من المفسرين: انه لم يخاصم عن الخصم وإنما هم به فعاتبه الله على ذلك.

القصة والنزول:

والآية نزلت في بني أبيرق كانوا ثلاثة أخوة بشر وبشير ومبشر وكان بشر يكنى أبا طعمة فغلبوا على عم قتادة بن النعمان وأخذوا له طعاما وسيفا، ودرعا فشكى ذلك إلى ابن أخيه قتادة وكان قتادة بدرىافجاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فذكر له القصة، وكان معهم في الدار رجل يقال له لبيد بن سهل وكان فقيرا شجاعا مؤمنا، فقال بنو ابيرق لقتادة هذا عمل لبيد بن سهل، فبلغ لبيدا ذلك، فاخذ سيفه وخرج إليهم. وقال يابني ابيرق أترموني بالسرقة وأنتم أولى به مني، وانتم المنافقون تهجون رسول الله وتنسبون إلى قريش لتبنيين ذلك أو لاضعن سيفي فيكم فداروه. وقالوا: ارجع رحمك الله فانك بريء من ذلك. وبلغهم ان قتادة مضى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمشوا إلى رجل من رهطهم يقال له أسير بن عروة، وكان منطيقا لسنا فأخبروه، فمشى أسير إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جماعة، فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن قتادة بن النعمان رمى جماعة من أهل الحسب منا بالسرقة واتهمهم بما ليس فيهم وجاء قتادة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فاقبل

(١) سورة الزمر: آية ٦٥. (*)

(٣١٧)

عليه النبي (صلى الله عليه وآله)، وقال عمدت إلى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرقة وعاتبه فاغتم قتادة ورجع إلى عمه، فقال: ليتني مت ولم أكن كلمت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد قال لي ما كرهت، فقال عمه الله المستعان، فنزلت هذه الآية (ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرمي به بريئا) (١) يعني لبيد بن سهل حين رماه بنو ابيرق بالسرقة " فقد احتمل بهتاننا واثما مبينا " إلى قوله: (وكان فضل الله عليك عظيما) (٢) فبلغ ذلك بني ابيرق فخرجوا من المدينة، ولحقوا بمكة وارتدوا لهم يزلوا بمكة مع قريش فلما فتح مكة هربوا إلى الشام فانزل الله فيهم (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) (٣) إلى آخر الآيات. ولما مضى إلى مكة نزل على سلامة بنت سعد ابن شهيد امرأة من الانصار كانت ناكحا في بني عبدالدار بمكة فهجاها حسان، فقال:

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت * ينازعها جلد استنها وتنازعه

ظننتم بأن يخفي الذي قد صنعت * وفينا نبي عنده الوحي واضعه (٤)

فحملت رحله على رأسها وألقته بالابطح وقالت. ما كنت تأتيني بخير أهديت إلي شعر حسان. ونزل فيه قوله: (ومن يشاقق الرسول) (٥) هذا قول مجاهد، وقتادة بن النعمان، وابن زيد، وعكرمة، إلا أن قتادة، وابن زيد، وعكرمة قالوا: إن بني ابيرق طرحوا ذلك على يهودي يقال له زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبمثله قال ابن عباس.

وقال ابن جريج: هذه الآيات كلها نزلت في أبي طعمة بن أبي ابيرق إلى قوله: (إن الله لا يغفران يشرك به. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٦) وقال: رمى بالدرع في دار أبي مليك ابن عبد الله الخزرجي فلما نزل القرآن لحق بقريش، وقال الضحاك: نزلت في

(١، ٢) سورة النساء: آية ١١١.

(٣، ٥) سورة النساء: آية ١١٤.

(٤) ديوانه: ٢٧١.

(٦) سورة النساء: آية ٤٧، ١١٥. (*)

(٣١٨)

رجل من الانصار استودع درعا فجدد صاحبها فخونه رجال من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) فغضب له قوم فاتوا نبي الله، فقالوا: أخونوا صاحباً، وهو أمين مسلم؟ فعذره النبي (صلى الله عليه وآله) وكذب عنه. وهو يرى أنه يرى مكذوب عليه، فانزل الله فيه الآيات. واختار الطبري هذا الوجه وقال: لان الخيانة إنما تكون في الوديعة فأما السارق فلا يسمى خائناً فحملة عليه أولى وكل ذلك جائز.

قوله تعالى:

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) (١٠٧) - آية - .
نهى الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بمعنى يخونون أنفسهم فيجعلونها خونة بخيانتهم ماخانوا من الاموال. وهم الذين تقدم ذكرهم من بني بريق فقال: لاتخاصم عنهم فيما خانوا فيه ثم أخبر (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) يعني من كان صنعته خيانة الناس في أموالهم (أثيماً) يعني مأثوماً وبمثله قال من تقدم من المفسرين قال قتادة: وفيهم نزلت الآيات إلى قوله:

(ومن يشاقق الرسول).

قوله تعالى:

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما تعملون محيطاً)

(١٠٨) - آية - .

معنى يستخفون يكتُمون فأخبر الله تعالى ان هؤلاء الخائنين يكتُمون خيانتهم من الناس الذين لا يقدرّون لهم على شيء إلا الذكر لهم بقبيح ما أتوه من فعلهم وتشنيع ما ركبوه إذا اطلعوا منهم على ذلك حياء منهم وحذراً من قبح

(٣١٩)

الاحدوثة ولايستخفون من الله الذي هو معهم بمعنى أنه مطلع عليهم لا يخفى عليه شئ من أمرهم وببده العقاب. والنكال وتعجيل العذاب فهو أحق بأن يستحيا منه وأولى بأن يعظم من أن يراهم حيث يكرهه إذ يبيتون ما لا يرضى من القول معناه حين يسرون ليلا ما لا يرضى من القول فيغيرونه عن وجهه. ويكونون فيه.

والتببيت هو كل كلام أو أمر أصلح ليلا وأصله من فكرهم فيه ليلا. وقال الشاعر:

أتوني فلم أرض ما بيتوا * وكانوا أتوني بشئ نكر (١)

وحكي عن بعض طئ ان التببيت في لغتهم التبديل. وأنشد الاسود بن عامر بن جوين الطائي في معاتبة رجل:

وبيت قولي عبد الملوك * قاتلك الله عبدا كنودا (٢)

يعني بدلت قولي. وروي عن الاعمش عن أبي رزين: ان معنى " يبيتون ما لا يرضى " يؤلفون ما لا يرضى يعني في رمي البرئ بجرم السقيم. والمعنى متقارب، لان التأليف والتشويه والتغيير عما هو عليه وتحويله عن معناه إلى غيره واحد والمعنى بالآية الرهط الذين مشوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مسألة المدافعة عن بني ابيرق، والجدال عنه " وكان الله بما تعملون محيطا " يعني يعلم ما يعلمه هؤلاء المستخفون من الناس وتببيتهم ما لا يرضى من القول وغيره من أفعالهم " محيطا " بمعنى عالما محصيا لا يخفى عليه شئ منه حافظا لجميعه ليجازيهم عليه ما يستخفونه قال الزجاج: الذي بيتوه قولهم إن اليهودي سارق الدرع وعزمهم على أن يحلفوا انهم ما سرقوا وان يمينهم تقبل دون يمين اليهودي، لانه مخالف الاسلام. قوله تعالى:

(ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله

(١) مرتخرجه في ٣: ٢٩. ٢. (٢) لم نجده في مصادرنا. (*)

(٣٢٠)

عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) (١٠٩) - آية بلا خلاف - .

ها أنتم (ها) للتببيه واعيدت مع (أولاء) والمعنى ها أنتم الذين جادلتم، لان (هؤلاء، وهذا) يكون في الإشارة للمخاطبين التي أنفسهم بمنزلة الذين.

وقد يكون لغير المخاطبين بمنزلة الذين، قال يزيد بن مفرغ:

نجوت وهذا تحمليين طليق (١)

أي والذي تحملين طليق. قال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين، لان المخاطب المواجه لايجناج إلى الاشارة إلى نفسه. وقال المغربي: هؤلاء كناية عن اللصوص الذين يجادل عنهم. وهو غير أنتم ولذلك حسن التكرير. ومعنى الآية ها أنتم الذين جادلتم. والجدال أشد الخصومة مأخوذ من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله. ورجل مجدول شديد. والاجدل الصقر، لانه أشد الطيور. والمعنى يامعاشر من جادل عن بني أبيرق في الحياة الدنيا. والهاء والميم في عنهم كناية عن الخائنين، فمن يجادل الله عنهم. معناه من ذاياخصم الله عنهم يوم تقوم الساعة يوم يقوم الناس من قبورهم إلى محشرهم فيدافع عنهم ماالله فاعل بهم. والمعنى إنكم إن دافعتم في عاجل الدنيا فانهم سيصيرون في الآخرة إلى من لايدافع عنده عنهم أحد فيما يفعل بهم من العذاب وأليم النكال.

وقوله: (أم من يكون عليهم وكيلا) معناه ومن ذا الذي يكون وكيلا على هؤلاء الخائنين يوم القيامة يتوكل عنهم في خصومة الله عنهم يوم القيامة. وقد بينا أن الوكالة هي القيام بأمر من يوكل له.

(١) قائله يزيد بن مفرغ الحميري. حاشية الصبان ١: ١٦٠ قطر الندى ١٠٦، وأكثر كتب النحو وصدرة: عدس ما لعباد عليك امارة وهو من قصيدة هجا بها عباد بن زياد بن أبي سفيان فسجنه وأطال سجنه فكلم فيه معاوية فوجه بريدا يقال له حمحام فأخرجه وقدمت له فرس (وقيل بغلة) فنفرت فقال: عدس.. الخ وعدس صوت يزجر به البغل. (*)

(٣٢١)

قوله تعالى:

(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا) (١١٠) - آية - .

المعنى:

المعنى من يعمل ذنبا، وهو السوء، أو يظلم نفسه باكتساب المعاصي التي يستحق بها العقوبة " ثم يستغفر الله " يعني يتوب اليه مما عمل من المعاصي، ويراجعه " يجد الله غفورا رحيمًا " ومعناه يعلمه ساترا عليه ذنبه بصفحه له عن عقوبة جرمه " رحيمًا " به.

واختلفوا فيمن عنى بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها الخائنين الذين وصفهم في الآية الالى. وقال آخرون: عنى الذين كانوا يجادلون عن الخائنين. قال لهم: " ها أنتم جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ". والاولى حمل الآية على عمومها في كل من عمل سوا او ظلم نفسه، وان كان سبب نزولها فيمن تقدم ذكره من الخائنين أو المجادلين.

وبه قال أكثر المفسرين: الطبري، والبلخي، والجبائي، وابن عباس، وعبدالله ابن معقل، وابووائل، وغيرهم.

قوله تعالى:

(ومن يكسب إثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً) (١١١).

(المعنى -)

المعنى من يأت ذنباً على عمد منه ومعرفة فانما يجترح وبال ذلك الذنب،

(٣٢٢)

وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره من سائر خلق الله.

والمعنى ولاتجادلوا أيها الناس الذين يجادلون عن هؤلاء الخونة - فانكم وإن كنتم لهم عشيرة وقراة - فيما أتوه من الذنب، ومن التبعة التي يتبعون بها، فانكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتم بسببهم كنتم مثلهم، فلا تدافعوا عنهم ولاتخاصموا

" وكان الله عليماً حليماً " يعني عالماً بما تفعلون أيها المجادلون عن الخائنين أنفسهم، وغير ذلك من أفعالهم وافعال غيرهم " حكيماً " في أفعاله من سياستكم وتدبيركم، وتدبير جميع خلقه. وقيل: إنها نزلت في أبريق. وفي الآية دلالة على أنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره، ولا يعاقب الاولاد بذنوب الآباء على ما يذهب اليه قوم من أهل الحشو. ومثله قوله: " ولاتزر وازرة وزر أخرى " (١).

قوله تعالى:

(ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) (١١٢) - آية بلاخلاف -.

- اللغة، والمعنى -

الخطيئة، والخطي: الاثم العمد، تقول: خطئ يخطأ: إذا تعمد الذنب، وأخطأ يخطأ: إذا لم يتعمد. قال الزجاج: لما سمى الله تعالى المعاصي بانها خطيئة ووصفها دفعة أخرى بانها إثم، فصل بينهما ههنا حتى يدخل الجنسان فيه. وقال غيره: المعنى من يعمل خطيئة، وهي الذنب، أو إثم، وهو ما لا يحل من المعصية، وفرق بين الخطيئة والاثم، لان الخطيئة قد تكون عمداً وغير عمد، والاثم لا يكون إلا عمداً. فبين تعالى أن من يفعل خطيئة على غير عمد منه لها مما يلزمه

(٣٢٣)

فيه الغرامة، وان لم يكن إثم فيه، أو آثما فيه على عمد منه، وهو ما يستحق به العقاب " ثم رمى به بريئا " يعني أضافه إلى من هو بريء منه " فقد احتمل بهتاننا " يعني فقد تحمل بفعله ذلك فرية وكذبا " وإثما مبينا " يعني وجرما عظيما.

والبهتان: الكذب الذي تتحير فيه من عظمه وبيانه. يقال: بهت فلان:

إذا كذب، وبهت يبهت: إذا تحير، قال الله تعالى: " فبهت الذي كفر " (١) وإنما قال " به " وقد ذكر الخطيئة والاثم قال الفراء: لأنه يجوز أن يكنى عن الفعلين أحدهما مؤنث والآخر مذكر بلفظ التذكير والتوحيد ولوكثر لجازت الكناية بالتوحيد، لان (الافاعيل) تقع على فعل واحد، فكذلك جاز، فان شئت جعلتها لواحد، وإن شئت جعلت الهاء للآثم خاصة كما قال: " وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها " (٢) فجعله للتجارة. وفي قراءة عبدالله " وإذا رأوا لهوا أو تجارة " فجعله للتجارة في تقديمها وتأخيرها. ولو ذكر على نية الله لجاز وقد جاء مثني، قال تعالى: " إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما " (٣) وفي قراءة أبي " إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهم ". وفي قراءة عبدالله بن مسعود مثله، لأنه في مذهب الجمع كما يقول: أصبح الناس صائما ومفطرا، فأدى اثنان عن الجمع. وقال الزجاج:

المعنى ثم يرمي بذلك بريئا. قال رؤبة:

فيه خطوط من سواد وبلق * كأنه في الجلد توليع البهق (٤)

أي كأن ذلك. واختلفوا فيمن عنى به بقوله: " بريئا " بعد إجماعهم على أن الرامي ابن أبيرق، فقال قوم: البرئ رجل مسلم يقال له: لبيد بن سهل. وقال آخرون: بل هو رجل يهودي يقال له زيد بن السمين. وقد ذكرناه فيما مضى.

وبالآخر قال ابن سيرين، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع).

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧. (٢) سورة الجمعة، آية ١١. (٣) سورة النساء، آية ١٣٤. (٤) انظر ١: ٢٩٦. (*)

(٣٢٤)

قوله تعالى:

(ولولا فضل الله ورحمته لهمت عليك طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) (١١٣) - آية - .

معنى الآية لولا أنه تعالى تفضل عليك يا محمد فعصمك بتوفيقه وبيانه لك أمر هذا الخائن حتى كفتت عن الجدل عنه " لهمت طائفة " ومعناه لقد همت فرقة منهم، بتقدير (قد) ذكره الفراء. ويعني بالفرقة التي همت من الخائنين أنفسهم " أن يضلوك " بمعنى يزلوك عن الحق، ويخطئوك. وقيل: يهلكوك بتلبيسهم أمر الخائن عليك وشهادتهم عندك بانه برئ مما ادعي عليه، ثم قال تعالى: " وما يضلون " هؤلاء الذين هموا باضلالك عن الواجب في أمر هذا الخائن " إلا انفسهم ". واضلالهم انفسهم كان بأن الله لما كان قد بين لهم ما ينبغي أن يعملوا عليه من المعاونة على البر والتقوى، والا يتعاونوا على الاثم والعدوان، فلما عدلوا عن ذلك وتعاونوا على الاثم والعدوان، فكانوا بذلك مضلين انفسهم عن طريق الحق. وقوله: " وما يضررونك من شئ " يعني هؤلاء الذين هموا باضلالك، لا يضررونك، لان الله قديمتك ويسددك في أمورك، ويبين لك أمر المحق والمبطل. " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة " معناه ومن فضل الله عليك يا محمد، ما تفضل به عليك، انزاله عليك الكتاب الذي هو القرآن، وفيه تبيان كل شئ وهدى وموعظة وانزل عليك الحكمة مضافة إلى الكتاب، وهي بيان ما ذكره في الكتاب مجملا من أحكام الكتاب: من الحلال والحرام، والامر والنهي " وعلمك

(٣٢٥)

مالم تكن تعلم " من خبر الاولين والآخرين وما كان وما هو كائن. وكل ذلك من فضل الله. وقوله: " وكان فضل الله عليك عظيما " يعني لم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما، فاشكره على ما أولاك من نعمه واحسانه. قال الجبائي: وفي الآية دلالة على ان التسمية بالضلال تسمى اضلالا، لانه لو كان ذلك صحيحا، لكانوا قد اضلوا النبي (صلى الله عليه وآله) حيث نسبوه إلى الضلال وقد نفى الله عنه ذلك. وهذا ليس بصحيح لامرين: أحدهما - انهم ما سموه بهذا الفعل ضالا، وانما قصدوا التمويه، والتلبيس عليه، فلما كشف الله تعالى ذلك بطل غرضهم.

والثاني - ان من قال: إن الضلال يكون بمعنى التسمية لم يقل: إنه لا يكون الا كذلك، لان الاضلال على وجوه مختلفة: بمعنى التسمية، وغير ذلك مما بيناه فيما تقدم. والاضلال يكون بمعنى الدفن قال النابغة:

وآب مضلوه بغير جلية * وغودر بالجولان جرم ونائل (١)

يعني دافنوه.

قوله تعالى:

(لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (١١٤) - آية بلاخلاف - .

(القرآنة والحجة):

قرأ " فسوف يؤتية " - بالياء - ابو عمر، وحمزة، وقتيبة، وخلف.

(١) انظر ١: ١٩٤. (*)

(٣٢٦)

الباقون بالنون من قرأ بالياء حمله على قوله: " ومن يفعل ". ومن قرأ بالنون حمله على المعنى.

أخبر الله تعالى: أنه لاخير في كثير من نجوى الناس جميعا. والنجوى هو ما ينفرد به الاثنان أو الجماعة سرا كان أو جهرا. ويقال: نجوت الشيء: إذا خلصته والقيته. يقال: نجوت الجلد: إذا القيته عن البعير، وغيره قال الشاعر:

فقلت انجوا عنها نجا الجلد إنه * سيرضيكما منها سنام وغاربه (١)

ونجوت فلانا: إذا استنكته قال الشاعر:

نجوت مجالدا فوجدت منه * كريح الكلب مات حديث عهد (٢)

ونجوت الوتر واستنجيته إذا خلصته كما قال الشاعر:

فتبازت فتبازخت لها * جلسة الاعسر يستنجي الوتر (٣)

وأصله كله من النجوة، وهو ما ارتفع من الارض، قال الشاعر يصف سيلا:

فمن بنجوته كمن بعقوته * والمستكن كمن يمشي بقرواح (٤)

ويقول: ما أنجا فلان شيئا ومانجا شيئا منذ أيام إذا لم يتغوط. والتقدير في الآية " لاخير في كثير " مما يديرونه بينهم من الكلام " إلا " كلام " من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس " .

- الاعراب -

قال الزجاج يحتمل موضع من نصبا وأن يكون خفضا، فالخفض على إلا في نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح. والنصب على أن يكون إستثناء منقطعا بمعنى لكن كأنه قال: لكن من أمر بصدقة أو معروف ففي نجواه خير.

وطعن بعضهم على الوجه الاول بأن قال لايجوز أن يعطف بالاعلى الهاء والميم في مثل هذاالموضع من أجل أنه لم ينله الجحد. وقال الفراء: يحتمل الخفض على

-
- (١) لسان العرب: (نجا) (٢) انظر: ٢١٨، اللسان (بجا)
(٣) اللسان "نجا" ويروى. جلسة الجازر. قاتله عبدالرحمن بن حسان.
(٤) قاتله عبيد بن الابرص. مرفي ١: ٢١٨. اللسان نجا (*).

(٣٢٧)

تقدير لاخيرفي كثير من نجواهم إلا فيمن أمر بصدقة فيكون النجوى على هذا هم الرجال المتناجون كما قال: (مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) (١) وكما قال: " واذهم نجوى " (٢) والنصب على أن يجعل النجوى فعلا فيكون نصبا، لانه حينئذ يكون استثناء منقطعاً، لان (من) خلاف النجوى ومثله قول الشاعر:

وقفت فيها أصيلاً أسألتها * أعيت جواباً وما بالدار من أحد (٣)
إلا الاواري لا ياما ابينها * والنوي كالحوض بالمظلومة الجلد
ويحتمل وجها ثالثاً أن يكون رفعا كما قال الشاعر:
وبلدة ليس بها أنيس * إلا اليعافير والالعيس (٤)

واقوى الوجوه أن تجعل (من) في موضع خفض بالرد النجوى، ويكون بمعنى المتناجين، خرج مخرج السكرى والجرحى، ويكون التقدير لاخير في كثير من نجواهم يعني من المتناجين يامحمد إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس، فان أولئك فيهم الخير.

وقوله: " ومن يفعل ذلك " اشارة إلى ماتقدم من الامر بالصدقة والمعروف والاصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يعني طلب مرضاة الله ونصب ابتغاء على أنه مفعول له وتقديره لا ابتغاء مرضاة الله، وهو في معنى المصدر، لان التقدير ومن يتبع ذلك ابتغاء مرضاة الله، وقوله: " فسوف نؤتيه اجرا عظيما " يعني ثوابا جزيلا في المستقبل.

قوله تعالى

" ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم

-
- (١) سورة المجادلة، آية / ٧ (٢) سورة الاسرى، آية ٤٧.
(٣) أنظر ١: ٤٤ (وأصيلاً) فيها روايتان أخريان: أصيلاً وأصيلاكي. والبيتان للنايعة من معلقته المشهورة. (٤) أنظر ١: ١٥١ ومعاني الفراء ١: ٢٨٨. (*).

(٣٢٨)

وساعت مصبرا " (١١٥) آية بلاخلاف.

المعنى:

معنى يشاقق الرسول يباين الرسول معاديا له، فيفارقه على العداوة، لان المشاققة هي المباينة على وجه العداوة، من بعد ما تبين له الهدى " معناه من بعد ما تبين له وظهر أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله حق، وهدى موصل إلى الصراط المستقيم بمامعه من الآيات والمعجزات مثل القرآن وغيره. وقوله:

" ويتبع غير سبيل المؤمنين " معناه ويتبع غير سبيل من صدقه وسلك منهاجا غير منهاجهم " نوله ما تولى " معناه نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الاوثان والاصنام وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئا " ونصله جهنم " أي ونجعله صلى نار جهنم معناه نحرقه بها وقد بينا معنى الصلى فيما تقدم " وساءت مصيرا " يعني موضعا يصير إليه من صار اليه.

- القراءة -

وقرأ ابو عمرو وحمزة وابوبكر الالبرجمي، والداجوى عن هشام، وابوجعفر من طريق النهرواني قوله " ونصله، ونوده " " ولا يؤده " حيث وقع بسكون الهاء فيهن، قال الزجاج يقول في ذلك كسر الهاء، واثبات الياء وضم الهاء، واشباعها بالواو وبكسر الهاء بلاياء. ولا يجوز اسكان الهاء بلاكسر، لان الهاء من حقها أن تكون معها ياء فحذف الياء. واثبات الياء وضم الهاء ضعيف، ولا يجوز حذف الياء إلا اذا كان هناك كسرة يدل عليها النزول والمعنى. ونزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله:

" ولاتكن للخائنين خصيما " لما أبى التوبة أبو طعمة بن الالبيرق ولحق بالمشركين من عبدة الاوثان بمكة مرتدا مفارقا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو قول مجاهد وقتادة، وأكثر المفسرين. وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام).

وقد استدل خلق من المتكلمين، والفقهاء بهذه الآية على أن الاجماع حجة،

(٣٢٩)

بأن قالوا: توعد الله على اتباع غير سبيل المؤمنين كما توعد على مشاققة الرسول (صلى الله عليه وآله) فلولا أن اتباعهم واجب لم يجز ذلك، وهذا ليس بصحيح من وجوه:

أحدها - أن الآية نزلت في من تقدم ذكره وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فيجب أن يتناوله ويتناول كل من يجري مجراه من المرتدين ومخالفى الاسلام.

والثاني - أن من أصحابنا من قال: لانسلم أنه أزد ب (من) في هذه الآية الاستغراق، ولابلظة (سبيل) جميع السبل، ولا ب (المؤمنين) جميع المؤمنين، فمن أين لهم وجوب الاستغراق. وإذا احتل التخصيص، جاز لنا أن نحمل على سبيل الايمان الذي من خالفه كان

كافرا، أو المؤمنين أراد به الأئمة المعصومين، ولو جاز حملها على العموم، لوجب حملها على أهل جميع الاعصار على وجه الجمع دون أهل كل عصر، لان العموم يقتضي ذلك، فاذا خصوا بأهل كل عصر، خصصنا ببعض أهل العصر على أنه إنما حرم اتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين وجوب اتباع سبيلهم، ولم لا يجوز أن يكون اتباع غير سبيلهم محصورا. واتباع سبيلهم موقوفا على الدليل، ويجوز أن يكون أيضا محظورا مثله أو مباحا أو مندوبا، فمن أين الوجوب مع احتمال جميع ذلك على أنه لو سلم جميع ذلك، لكان يجب علينا اتباع إذا كانوا مؤمنين، لانه هكذا أوجب، فمن أين انهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين. ووجوب الاتباع تابع لكونهم مؤمنين، فيحتاجون إلى دليل آخر في أنهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين غير الآية على أن ظاهر الآية يتضمن أن من شاق الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين يتناولوه الوعيد، فمن أين أنه إذا انفرد احدهما عن الآخر يتناولوه الوعيد. ونحن إنما نعلم تتناول الوعيد على مشاققة الرسول (صلى الله عليه وآله) بانفرادها بدليل غير الآية، فعلى من خالف أن يقول: إن اتباع غير سبيل المؤمنين يتناولوه الوعيد بدليل غير الآية. وقد استوفينا ما في هذه الآية في أصول الفقه، وغيره من كتبنا مشروحا لانطول بذكره ها هنا.

(٣٣٠)

قوله تعالى:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) (١١٦) آية بلاخلاف اخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغفر الشرك، وأنه يغفر ما دونه، وقد بينا الاستدلال بذلك على ما نذهب اليه من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة، وإن لم يتوبوا فما مضى، فلاوجه لاعادته وقيل أنه عنى بهذه الآية أباطعة الخائن حين أشرك ومات على شركه بالله، غير أن الآية وإن نزلت بسببه، فعندنا وعند جميع الاممة أن الله لا يغفر لمن أشرك به بالتوبة: لتناول العموم لهم، فان قيل: فعلى هذا من لم يشرك بالله بان لا يعبد معه سواه، وإن كان كافرا بالنبي (صلى الله عليه وآله) من اليهود النصارى ينبغى أن يكون داخلا تحت المشيئة، لانه مما دون الشرك ! قلنا: ليس الامر على ذلك لان كل كافر مشرك، لانه إذا جحد نبوة النبي اعتقد أن ما ظهر على يده من المعجزات - ليست من فعل الله، ونسبها إلى غيره، وان الذي صدقه بها ليس هو الله، ويكون ذلك اشراكا معه على أن الله تعالى أخبر عنهم بأنهم قالوا:

- يعني النصارى - " المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزيز بن الله " (١) وذلك هو الشرك بالله تعالى على أنه لو لم يكونوا داخلين في الشرك لخصصناهم من جملة من تناولتهم المشيئة لاجماع الامة على أن الله تعالى لا يغفر الكفر على وجه الابتوبة.

وقوله: " ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا " يعني من يجعل في عبادته مع الله شريكا، فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل ذهابا بعيدا، لانه باشراكه مع الله في عبادته فقد أطاع الشيطان، وسلك طريقه وترك طاعة ربه.

سورة التوبة، آية ٣١. (*)

(٣٣١)

قوله تعالى:

(إن يدعون من دونه إلا إناثاوان يدعون الا شيطانا مريدا) (١١٧) آية - اختلفوا في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

فقال أبومالك، والسدي، وابن زيد، والزجاج: ان المراد بذلك ألهمهم، واللات، والعزى، ومنات، وساف، ونائله سماهن إناثا بتسمية المشركين اياها باسماء الاناث.

الثاني - قال ابن عباس، وقتادة، والحسن: معناه ان يدعون من دونه الا اناثا يقول ميتا ليس فيه روح، قال الحسن: الاناث كل شئ ميت ليس فيه روح، مثل خشبة يابسة أو حجر يابس. وقال الزجاج لان الموات يخبر عنها بلفظ التأنيث كما يعبر عن المؤنث تقول: الاحجار تعجبني ولاتقول يعجبوني.

الثالث - قال الحسن في رواية أخرى: إن أهل الاوثان كانوا يسمون أوثانهم أناثا، وكان لكل حي صنم يسمونها أنثى.

الرابع - قال مجاهد: الاناث هي الاوثان. وروي عن عروة عن أبيه أن في مصحف عائشة الأوثان وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأها إلا وثنا جمع وثن كأنه جمع وثنا، وثناء، ثم قلب الواو همزة مضمومة مثل وجوه وأوجه وقتت واقتت، وقرأ بعضهم أنثا جمع أناث مثل ثمار وثمر والقراءة المشهورة أناثا، وعليه القراء من أهل الامصار.

الخامس - قال الحسين بن علي المغربي: إلا اناثا معناه ضعافا عاجزين لاقدرة لهم يقولون: سيف أنيث ومينائة بالهاء وميناث أي غير قاطع. قال صخر الغي:

فتخبره بأن العقل عندي * جراز لأفل ولأنيث

وأنت في أمره: اذالان، وضعف والانيث المخنث، وقال الكميت:

وشذبت عنهم شوك كل قتادة * بفارس يخشاها الانيث المغمز

(٣٣٢)

قال الازهري: والاناث الموات. وقوله: (وان يدعون الا شيطانا مريدا)

المعنى إن هؤلاء الذين يعبدون غير الله ليس يعبدون الا الجمادات، والا الشيطان المرید وهو المتمرد على الله في خلافه فيما أمر به ونهى عنه وهو ابليس، وبه قال قتادة واكثر المفسرين " ويدعون " معناه يعبدون، لانهم، إذا دعوا الله مخلصين، فقد عبدوه، ومثله قوله: " ادعوني استجب لكم " (١) اي اعبدوني بدلالة قوله:

" ان الذين يستكبرون عن عبادتي " (١) قال الزجاج: المرید هو الخارج عن الطاعة يقال حائظ ممرد أي مملس وشجرة مرداء إذا تناثر ورقها ومنه سمي أمرد ومن لالحية له أي أملس موضع اللحية، ويقال مرد الرجل يمرد مرودا ومرادة: إذا عتا وخرج عن الطاعة. قوله تعالى:

(لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) (١١٨) آية.

معنى لعنه الله ابعده الله من ثوابه، واخزاه واقصاه والهاه في (لعنه) الله كناية عن الشيطان والتقدير، وان يدعون إلا شيطانا مریدا قد لعنه الله وابعده من كل خير.

وقوله: " وقال لاتخذن " يعني بذلك ان الشيطان المرید قال لربه (عزوجل)

اذ لعنه: لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا يعني قسما معلوما وبه قال الضحاك. واتخاذ الشيطان النصيب من عباد الله يكون باغوائه اياهم عن قصد السبيل، ودعائه اياهم إلى طاعته، وتزيينه لهم الضلال والكفر، فمن أجاب دعاءه واتبعه، فهو من نصيبه المعلوم، وحظه المقسوم، وانما اخبر بذلك ليعلم الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين له الهدى انهم من نصيب الشيطان الذي لعنه الله. والمفروض: الموقت. والمعنى هاهنا

(١) سورة المؤمن، آية ٦٠. (*)

(٣٣٣)

ما افترضه عليهم من طاعتي والفرض: القطع والفريضة التلثة تكون في النهر والفريضة: كل ما أمر الله به والزمه وقوله: " وقد فرضتم لهن فريضة " (١) أي قطعة من المال وفرضت للرجل: إذا جعلت له قطعة من مال الفئ والفرض النمر قال الشاعر:

إذا اكلت سمكا وفرضا * ذهبت طولا وذهبت عرضا (٢)

وإنما سمي النمر فرضا لانه يؤخذ في فرائض الصدقة يقال: سقاها بالفراض والفرض والفرض الحز يكون في المسواك يشد فيه الخيط، والفرض في القوس: الحز يشد فيه الوتر. قوله تعالى:

(ولا ضلنهم ولا منينهم ولا مرنهم فليبتكن اذان الانعام ولا مرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) ثلاث آيات.

- المعنى -

قوله: " ولا ضلنهم " إخبار عن الشيطان المرید الذي وصف صفته في الآية الأولى انه قال لربه: " لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولا ضلنهم " ومعناه ولا صدن النصيب المفروض الذي اتخذه من عبادك عن محجة الهدى إلى الضلال ومن الاسلام إلى الكفر " ولا منينهم " ومعناه أو همهم انهم ينالون في الآخرة حظا لا يزيغهم بما أجعل في أنفسهم من الاماني عن طاعتك وتوحيدك إلى طاعتي والشرك بي " ولا مرنهم فليبتكن اذان الانعام " يعني لا مرن النصيب المفروض من

(١) سورة البقرة، آية ٢٧٧. (٢) لسان العرب (فرض). (*)

(٣٣٤)

عبادك بعبادة غيرك من الانداد والاثوان ينسكوا له ويحرموا يخللوا ويشرعوا غير الذي شرعه الله لهم فيتبعوني ويخالفوك.

- اللغة -

والتبتيك: القطع تقول بئكت الشيء ابتكته تبتيكاً: إذا قطعته. وبتكته وبتك مثل قطعه وقطع وسيف باتك: قاطع والمراد في هذا الموضع قطع اذن البحيرة، ليعلم انها بحيرة. و اراد الشيطان بذلك دعاءهم إلى البحيرة فيستجيبون له، ويعملون بها طاعة له. قال قتادة: البتك قطع اذان البحيرة والسائبة لطواغيتهم وقال السدي:

كانوا يشقونها. وبه قال عكرمة وقوله: " ولا مرنهم فليغيرن خلق الله " اختلفوا في معناه فقال ابن عباس، والربيع بن انس عن انس: انه الاخضاء وكرهوا الاخضاء في البهائم وبه قال سفيان، وشهر بن حوشب، وعكرمة وابوصالح وفي رواية أخرى عن ابن عباس فليغيرن دين الله وبه قال إبراهيم ومجاهد وروي ذلك عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهم السلام) قال مجاهد: كذب العبد يعني عكرمة في قوله: إنه الاخضاء وإنما هو تغيير دين الله الذي فطر الناس عليه في قوله:

" فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " (١) وهو قول قتادة، والحسن والسدي، والضحاك، وابن زيد. وقال قوم: هو الوشم. روي ذلك عن الحسن والضحاك

وابراهيم ايضا وعبدالله. وقال عبدالله: لعن الله الواشحات والمونثلمات والمتفلجات المغيررات خلق الله وقال الزجاج: خلق الله تعالى الانعام ليأكلوها، فحرموها على انفسهم وخلق الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس ينتفعون بها، فعبدها (٢) المشركون وأقوى الاقوال من قال: فليغيرن خلق الله بمعنى دين الله بدلالة قوله: " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " ويدخل في ذلك جميع ماقاله المفسرون، لانه إذا كان ذلك خلاف الدين فالآية تتناوله، ثم اخبر تعالى عن حال نصيب الشيطان المفروض الذين شاقوا

(١) سورة الروم: آية ٣. (٢) في الاصل (فعبدوها) (*)

(٣٣٥)

" الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى " (١) فقال ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف امره " فقد خسر خسرا مبينا " معناه هلك هلكا ظاهرا، وبخس نفسه حظها خسرا مبينا عن عطيه وهلاكه، لان الشيطان لايملك له نصيرا من الله إذا أراد عقابه، ثم اخبر تعالى الشيطان أنه يعد من يتبعه ويمنيهم فيعدهم النصر ممن ارادهم، ويمنيهم الظفر على من ارادهم بمكره، ثم قال تعالى:

" ومايعدهم الشيطان إلا غرورا " يعني باطلا وسماء غرورا، لانهم كانوا يظنون أن ذلك حق، فلما بان لهم انه باطل، كان غرورا وقوله: " اولئك ماواهم جهنم " إشارة إلى هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله مأواهم يعني مصيرهم الذين يصيرهم اليه جهنم ولايجدون عنها محيصا يعني لايجدون عنها معدلا إذا حصلوا فيها.

— اللغة -: يقول حاص فلان عن هذا الامر يحيص حيصا وحوصا: اذا عدل عنه ومنه حديث ابن عمر) (بعثارسول الله (صلى الله عليه وآله) سرية، كنت فيهم فلقينا المشركون فحصنا حيصة) وقال بعضهم: فجاضوا جوضة وهما بمعنى واحد، غير انه لايقراً لإبالصاد والحاء وحصت احوص حوصا وحياصا إذا خطت يقال حص عين صقرك، اي خط عينه والحوص في العين مؤخرها. والحوص غورها.

قوله تعالى:

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن اصدق من الله قيلا) (١٢٢).

(١) سورة النساء آية: ١١٤. (*)

(٣٣٦)

آية - لما ذكر الله تعالى حكم من يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، وذكر ان من يشرك به لا يغفر له وبين حكم من يتبع الشيطان ويكون من نصيبه، ذكر في هذه الآية حكم من يؤمن به ويوحده، ويقر بنبيه ويصدقه ويضيف إلى ذلك عمل الصالحات، وانه سيدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا على اعمالهم، وجزاء إيمانهم، ويخلدهم فيها " وخالدين " نصب على الحال والمعنى ان هذه الحال ستدوم لهم، وتتأبد، وان ذلك وعد حق من الله لهم وقوله: " ومن اصدق من الله قيلا " صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير والانكار والمعنى لأحد اصدق من الله قيلا أي قولا ووعدا، لانه لا يجوز عليه خلف الميعاد ولا الاخلال بما يجب عليه من الثواب. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى: (ليس بامانيكم ولااماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولايجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) (١٢٣). آية المعنى:

في (ليس) ضمير والتقدير ليس الثواب بامانيكم، ولاأماني أهل الكتاب والاماني يخفف ويتقل فيقال باماني واماني على وزن افاعيل وفعالل كقراير وقراقر.

واختلفوا في من عنى بهذه الآية فقال مسروق تفاخر المسلمون، وأهل الكتاب، فقال المسلمون نحن اهدى منكم. وقال أهل الكتاب: نحن اهدى منكم. فانزل الله تعالى: " ليس بامانيكم ولاأماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه " فقال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فانزل الله تعالى " ومن يعمل من الصالحات من ذكر وانثى وهو مؤمن " (١) ففلح المسلمون. ذهب إلى ذلك قتادة والسدي، والضحاك وابو

(١) في المطبوعة (ففتح). (*)

(٣٣٧)

صالح. وقال مجاهد معناه ليس بامانيكم يعني أهل الشرك من قريش، لانهم قالوا: لانبعث ولانعذب، ولااماني أهل الكتاب انهم خير من المسلمين، ولايدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ذهب اليه ابن زيد وهذا الوجه أقوى لانه لم يجر لاماني المسلمين ذكر وقد جرى ذكر اماني الكفار في قوله: " ولامنينهم " يعني الذي يتخذهم الشيطان نصيبا مفروضا " ويقوي ذلك أن الله تعالى قد وعد المؤمنين بقوله: " والذين آمنوا وعملوا الصالحات " بادخال الجنة والخلود فيها.

وتلك غاية أماني المسلمين، فكيف ينفي بعد ذلك امانيهم؟.

وقوله: " ومن يعمل سوء يجزبه " اختلفوا في تأويله فقال قوم: إنه يريد بذلك جميع المعاصي صغائرهما وكبائرها وإن من ارتكب شيئا منها، فان الله يجازيه عليها. اما في الدنيا أو في

الآخرة ذهب اليه قتادة وعائشة، ومجاهد. وقال آخرون: من يعمل سوء من أهل الكتاب، نجزيه ذهب اليه، الحسن. قال:

كقوله: " وهل نجزي الالكفور " (١) وبه قال ابن زيد والضحاك وهو الذي يليق بمذهبنا، لانا نقطع على ان الكفار لا يغفر لهم على حال والمسلمون يجوز أن يغفر لهم ما يستحقونه من العقاب، فلايمكننا القطع على أنه لابد أن يجازي بكل سوء. وقال قوم: معنى السوء هاهنا الشرك فمعنى الآية من يعمل الشرك يجزبه (٢)

ذهب اليه ابن عباس وسعيد بن جبير. وروى أبوهريرة انه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين، فشكلوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال (صلى الله عليه وآله): فادفعوا وتشددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها او الشوكة يشاكها. وقيل لبعض الصحابة: أليس بمرض، ليست تصيب اللاواء؟. قال: بلى فهو ما تجزون به.

وقوله: " ولاتجد له من دون الله وليا ولا نصيرا " معناه ولا يجد الذي يعمل سوء من معاصي الله، وخلاف امره وليا يلي أمره وينصره ويحامي عنه، ويدفع عنه ماينزل به من عقوبة الله، " ولانصيرا " يعني ناصرا ينصره مما يحل به من عقاب الله، واليم عذابه. واستدل المعترلة على المنع من غفران معاصي أهل

(١) سورة سبأ، آية ١٧ (٢) في المطبوعة (ينجزبه). (*)

(٣٣٨)

الصلاة بهذه الآية. قالوا: لانه تعالى بين أنه يجازي على كل سيئة، وذلك يمنع من جواز العفو قلنا: قد تكلمنا على نظير ذلك فيما مضى بما يمكن اعتماده هاهنا منها انا لانسلم انها تستغرق جميع من فعل السوء، بل في أهل التأويل من قال: المراد به الشرك. وهو ابن عباس وقد قدمناه، ثم لاختلاف ان الآية مخصوصة، لان التائب ومن كانت معصيته صغيرة، لايتناولها العموم، فاذا جاز لهم تخصيص الفريقين، جاز لنا أن نخص من يتفضل الله عليه بالعفو. وهذا واضح وقد بينا الجواب عما يزداد على ذلك من الاسئلة بما فيه كفاية فيما مضى وفي كتاب شرح الجمل، لانطول بذكره هاهنا. قوله تعالى:

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا) (١٢٤) آية.

— القراءة —

قرأين كثير وابوعمر، وابوبكر، الالكسائي وابوجعفر وروم

" يدخلون " بضم الياء وفتح الخاء هاهنا وفي مريم والمؤمن. وافقه رويس الافي هذه السورة.

- المعنى -

وعد الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من الذكور والاناث إذا عملوا الاعمال الصالحات، وهم مؤمنون مقرون بتوحيد الله وعدله، مصدقون بنبيه (صلى الله عليه وآله)، عاملون لما اتى به بأنه يدخلهم الجنة وينيبهم فيها، ولا يبخسهم شيئاً مما يستحقونه من الثواب، وان كان مقدار نقير في الصغر، وهي النقطة التي في ظهر النواة، وقيل منها تنبت النخلة.

(٣٣٩)

ومن ضم الياء وفتح الخاء، فلانه قال: " ولا يظلمون " فضم الياء، ليزدوج الكلام، ولانهم لا يدخلونها حتى يدخلوها. ومن فتح الياء، فلانهم إذا ادخلوا الجنة، فقد دخلوها. فان قيل ظاهر الآية يقتضي انه لا يثيب الا من آمن وعمل الصالحات فمن انفرد بالايمان، لا يستحق الثواب، وكذلك من فعل بعض الصالحات قلنا: ظاهر العموم مخصوص بلاخلاف لانه لو آمن بالله واليوم الآخر واحترم عقبيه، لاخلاف انه يدخل الجنة، فكذلك إذا اخل ببعض الصالحات أو ارتكب معصية، فانا نعلم دخوله الجنة بدليل آخر على أن (من) في قوله: " من الصالحات " يقتضي انه لو فعل بعض الصالحات لادخل الجنة، لانها للتبعيض. وانما تقتضي الاستغراق إذا حملت على ان معناها بيان الصفة، فاذا احتمل الظاهر ما قلناه، سقطت المعارضة فاما من قال: ان (من) زائدة فلا يعول على قوله، لانه إذا امكن حمل الكلام على فائدة، لم يجز أن يحمل على الزيادة. وبما قلناه في معنى النقير، قال مجاهد وعطية والسدي وغيرهم. قوله تعالى:

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) (١٢٥) آية:

قضى الله تعالى في هذه الآية للاسلام بالفضل على سائر الملل بقوله: ومن أحسن ديناً ايها الناس وهو في صورة الاستفهام. والمراد به التقرير. والمعنى من احسن ديناً وأصوب طريقاً، واهدى سبيلاً ممن اسلم وجهه الله يعني استسلم وجهه لله. والوجه يراد به هاهنا نفسه وذاته كما قال: " كل شئ هالك الاوجهه " (١) فانقاده بالطاعة ولنبيه (صلى الله عليه وآله) بالتصديق " وهو محسن " بمعنى وهو فاعل للفعل الحسن مما امره الله به " واتبع ملة ابراهيم حنيفاً " يعني واتبع الذي كان عليه (ابراهيم)،

(٣٤٠)

وامر به نبيه من بعده، وأوصاهم به من الإقرار بتوحيده، توعده وتزيهه عماليليق به " حنيفا " يعني مستقيما على منهاجه وسبيله. وقد بينا فيما مضى معنى الحنيف، فلافائدة في إعادته، وبمثل ذلك قال الضحاك، وغيره من المفسرين.

وقوله: " واتخذالله ابراهيم خليلا " ومعنى الخليل يحتمل أمرين:

احدهما - المحبة، مشتقا من الخلطة بضم الخاء والمعنى اتخذ الله ابراهيم محبا وتكون خلطة ابراهيم: موالاته لاولياء الله ومعاداته لاعدائه. وخلطة الله له نصرته على من اراده بسوء مثل ما اراد نمرود من احراقه بالنار، فانقذه الله منها، وأعلى حجته عليه. وكما فعل بملك مصر حين راوده عن اهله، وجعله اماما لمن بعده من عباده، وقدوة لهم.

والثاني - ان يكون ذلك مشتقا من الخلطة التي هي الفقر بفتح الخاء - كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

وان أتاه خليل يوم مسألة * يقول لاغائب مالي ولاحرم (١)

ويروى يوم مسغبة وهو الاظهر وانما انشد البلخي يوم مسألة، وهو بخلاف الروايات. وقال آخر:

واني وان لم تسعفاني بحاجة * إلى آل ليلي مرة لخليلي (٢)

أي لمحتاج. وقيل: انه أصاب أهل ناحية ابراهيم (ع) جذب، فارتحل إلى خليل له من أهل مصر يلتمس طعاما لاهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته، فلما قرب من أهله مريمفازة ذات رمل لينة فملا غرائره (٣) من ذلك الرمل لئلا يغم أهله برجوعه بغير ميرة (٤)، فيظنوا ان معه طعاما فحول الله تعالى غرائره دقيقا، فلما وصل إلى اهله قام أهله، ففتحو الغرائر فوجدوا دقيقا، فعجنوا منه، فخبزوا فاستيقظ

(١) اللسان: (حرم) و (واخل). رفع (يقول) مع انه جواب الحزاء، لى التقديم كأنه قال: ان اتاه خليل. أجاز ذلك سيبويه.

(٢) لم أجد البيت في مصادرنا.

(٣) الغرائر جمع غرارة - بكسر الغين - وهي الجوالق التي يوضع فيها الدخن والقمح.

(٤) الميرة الطعام أو جلبه. (*)

(٣٤١)

ابراهيم فسألهم من اين خبزوا؟ فقالوا من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك (١) المصري فقال: لابل من عند خليلي الله (عزوجل) فسماه الله خليلا. فهذا ما روي وهو من آيات الانبياء (صلى الله عليه وآله) فاما الاشتقاق فالخلطة بضم الخاء: الصداقة.

والخلة بفتح الخاء: الحاجة، للاختلال الذي يلحق الفقير فيما يحتاج اليه. والخلة بمعنى الصداقة، فلان كل واحد منهما يسد خلل صاحبه في المودة، والحاجة. وقيل: لانه يطلعه على اسراره فكانه في خلل قلبه والخلل: كل فرجه تقع في شئ والخلال: هو ما يتخلل به لانه يتبع به الخلل بين الاسنان.

قال الشاعر:

ونظرن من خلل الستور باعين * مرضى مخالطها السقام صحاح
يعني نظرن من الفرج التي في الستور وقولهم: لك خلة من خلال. تأويله إني أخلّي لك من رأيي، او مما عندي عن خلة من خلال ومعنى أخلّي أخلل. فابدل من إحدى اللامين ياء. ويجوز أن يكون أخلّي من الخلوة، والخلوة والخلل يرجعان إلى معنى واحد. والخل: الطريق في الرمل إذا انفرجت منه فرجة فصارت طريقا.

والخل ما يؤكل معروف. واختار الفراء والبلخي أن يكون من الخلة التي هي الفقر قال: ويخالف المحبة، لان المحبة من الله لعبده هي الثناء عليه ومدحه له، ولانه يحب الانسان ما ليس من جنسه، ولا يخاف إلاماهو من جنسه. وعلى ما بيناه، لا يمنع ذلك وإن كان فيه بعض التجوز. وقال الازهري: الخليل الذي خص بالمحبة يقال: دعا فلان فخلل أي خص. واختار الجبائي هذا الوجه وقال: كل نبي فهو خليل الله، لانه خصه بما لم يخص به غيره والخلة: الخصلة، وجمعها خلال. وانما خص الله تعالى ابراهيم فأنه خليله من الفقر، وان كان الخلق كلهم فقراء إلى رحمته تشريفا له بالنسبة اليه واختصاصه به من حيث انه فقير اليه لايرجو لسدخلته سواه.

وخص ابراهيم من بين سائر الانبياء بانه خليل الله على المعنيين، كما خص موسى بانه كلّم الله ومحمد (صلى الله عليه وآله) بانه حبيب الله، وعيسى بانه روح الله ولايلزم على ذلك

(١) في المطبوعة (خليك) (*)

(٣٤٢)

تسمية عيسى بانه ابن الله، لان هذه اللفظة لاتستعمل حقيقتها إلا في من خلق من مائه أو ولد على فراشه، ومجازها في من يجوز ذلك فيه. ولذلك لايجوز أن يتخذ الشاب شيئا ابنا، وان جاز ان يتبنى بصبي، ولايجوز ان يتخذ البهيمة ابنا، لما لم يجز ان تكون مخلوقة من مائه على وجه.

والحنيفية التي امرالله نبيه بأن يتبع ابراهيم فيها عشرة اشياء: خمسة في الرأس وخمسة في الجسد. فالتى في الرأس: المضمضة. والاستنشاق، والسواك، وقص الشارب، والفرق لمن

يكون طويل الشعر، والتي في الجسد: فالاستتجاء، والختان، وحلق العانة، ومنتف الابط وقص الاظفار وجميع ذلك مستحب الا الختان والاستتجاء، فانهما واجبان. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف. وقال الجبائي كلما كان تعبد الله به ابراهيم، فانه تعبد به النبي (صلى الله عليه وآله) وأمتة وزاده اشياء لم يتعبد بها ابراهيم (ع) وعموم الآية يقتضي ماقاله، وإن كان ذلك شرعا لنبينا من حيث اعلمه الله ذلك، وتعبد به بوحى من جهته.
قوله تعالى:

(و الله ما في السماوات وما في الارض وكان الله بكل شئ محيطا) (١٢٦). آية لما ذكر الله تعالى انه اتخذ ابراهيم خليلا لطاعته ربه واخلاصه له العبادة، ومسارعة الى رضاه، بين ذلك بفضل لامن حاجة الى خلته فقال: وكيف يحتاج الى خلته من له مافى السماوات والارض من قليل وكثير ملكا، ومع ذلك مستغن عن جميع خلقه. وجميع الخلق يحتاجون اليه فكيف يحتاج الى خلة ابراهيم، لكنه اتخذ خليلا لمسارعة الى رضاه وامتناله ما يأمره به.
" وكان الله بكل شئ محيطا " يعني لم يزل الله عالما بجميع ما فعل عباده ان كان محسنا اثاره، وان كان مسيئا عاقبه ان شاء.

(٣٤٣)

قوله تعالى:

(ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تتكوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) (١٢٧) آية بلاخلاف.
— المعنى — يسألك يا محمد، اصحابك ان تفتيهم في امر النساء، والواجب لهن وعليهن واكتفى بذكر النساء من ذكر شأنهن لدلالة الكلام على المراد " قل الله يفتيكم فيهن " يعني قل يا محمد، انه يفتيكم فيهن يعني في النساء وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن.

— الاعراب —

واختلفوا في اعراب (ما يتلى). قال الزجاج والفراء معا: يحتمل ان يكون موضع (ما) رفعا والتقدير في قول الزجاج، والذي يتلى عليكم في الكتاب أيضا يفتيكم فيه. وقال الفراء تقديره الله يوصيكم فيهن وما يتلى عليكم. وقال جميعا يجوز ان يكون موضع (ما) خفضا بالعطف على فيهن إلا ان الزجاج ضعف هذا وقال:

هذا بعيد لان عطف المظهر على المضممر لايجوز. وقال الفراء: يجوز على تقدير فيهن وما يتلى عليكم.

واختلفوا في تأويل " وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن " فقال قوم: الذي يتلى عليكم هو آيات الفرائض التي في أول السورة. روى ذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان اهل الجاهلية

(٣٤٤)

لايورثون المولود حتى يكبر، ولايورثون المرأة، فانزل الله آية الميراث أول السورة، وهو معنى " اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن ". وبه قال مجاهد: وروي ذلك عن ابي جعفر (ع). وقال قوم: كان الرجل تكون في حجره اليتيمة بها ذمامة، ولها مال، فكان يرغب عنها ان يتزوجها ويحبسها لما لها طمعا أن تموت فيرثها، فنزلت الآية. ذهب اليه عائشة، وقيادة والسدي وابومالك وابراهيم قال السدي: كان جابر بن عبدالله الانصاري ثم السلمي له بنت عم عمياء ذميمة قد ورثت عن أبيها مالا، فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولاينكحها مخافة ان يذهب الروح بما لها فسأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك وقال: اترث إذا كانت عمياء؟ فقال (صلى الله عليه وآله): نعم فانزل الله فيه هذه الآية. وقال قوم: معناه يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في آخر السورة من قوله: " يستفتونك قل الله يفتيكم " في الكلاله ذهب اليه ابن جبير وقالت عائشة: كان الرجل تكون في حجره اليتيمة تشاركه في ماله فيعجبه ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها، فنهى الله عن ذلك في قوله: " وإن خفتم الاتقسطوا في اليتامى فانكحوا " من غيرهن " ما طاب لكم " قالت: وقوله " وما يتلى عليكم " هو ما ذكره في أول السورة من قوله: " وإن خفتم الاتقسطوا ". فعلى هذه الأقوال (ما) في موضع خفض بالعطف على الهاء والنون في قوله: " فيهن " والتقدير قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم، وعلى ما قال الفراء: قل الله يفتيكم فيهن ما يتلى عليكم في الكتاب وقال آخرون: نزلت الآية في قوم من اصحابه (صلى الله عليه وآله) سألوه عن أشياء من أمر النساء، وتركوا المسألة عن أشياء أخر كانوا يفعلونها، فافتاهم الله فيما سألوه عنه، وفيما تركوا المسألة عنه ذهب اليه محمد بن أبي موسى. ويكون معنى قوله: وما يتلى عليكم في الآية التي بعدها وقيل: هم اليتامى الصغار من الذكور والاناث. وما بعدها قوله: " وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا " والذي سألوا عنه، فاجيبوا ما كتب الله لهن من الميراث في آية الميراث. واختار الطبري أن يكون المراد به آيات الفرائض قال: لان الصداق ليس مما كتب الله للنساء الا بالنكاح، فما لم تنكح فلا صداق

لها عند احد.

وقوله: " والمستضعفين من ولدان " في موضع جر وتقديره وفي المستضعفين من ولدان. وقيل هم اليتامى الصغار من من الذكور والاناث، لانهم كانوا لا يورثون الصغار من الذكور حتى يبلغ.

" وان تقوموا لليتامى " والمعنى وفي ان تقوموا لليتامى بالقسط على ما قاله في قوله: " وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى ": فامرهم أن يؤتوا المستضعفين من ولدان حقوقهم من الميراث، ويعدلوا فيهم، ويعطونهم ما فرضه الله لهم في كتابه. وبه قال السدي، وابن زيد، ومجاهد، وابن عباس.

وقوله: " وترغبون ان تتكوهن " معناه ترغبون عن أن تتكوهن.

وقال الحسن في قوله: " والمستضعفين من ولدان " قال: يعني في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن أي الا يأكلوا اموالهم إلا بالقسط، يعني بالعدل. وقال عبيدة السلماني فيما رواه ابن سيرين عنه ان معنى " وترغبون ان تتكوهن " ترغبون فيهن. وفي رواية ابن عون عن ابن شيرين يرغبون عنهن. وقال الحسن: يرغبون عنهن وكان عبيدة بن حرض يقول: يا محمد أتعطي الوالدان المال؟ وانما يأخذ المال من يقاتل ويجوز الغنيمة، فنزل قوله: " والمستضعفين من ولدان ".

وقوله: " وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما " المعنى مهما فعلتم، أيها المؤمنون من عدل في أمر اليتامى التي أمركم الله أن تقوموا، فيهن بالقسط، وأنتهيتم فيه إلى أمره وإلى طاعته، فان الله كان به عالما لم يزل وقيل معانين الله سيجازيكم عليه كما يقول القائل أنا أعرف لك ما تفعله بمعنى اجازيك عليه.

قوله تعالى:

(وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الانفس

الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) (١٢٨) آية.

— القراءة والحجة —

قرأ أهل الكوفة ان يصلحا بضم الياء وكسر اللام وبسكون الصاد. الباقون يصلحا بتشديد الصاد فمن شدد الصاد، قال معناه يتصلحا ويكون قوله: (صلحا)

اسما لامصدرا ومن قرأ بخلافه قال: هو مصدر.

— المعنى —

يقول الله تعالى: " وان امرأة خافت " ومعناه علمت " من بعلمها "، أي زوجها " نشوزا " يعني استعلاء بنفسه عنها إلى غيرها. وارتفعا بها عنها: إما لبغضه، وإما لكراهة منه شيئا منها إما ذمامتها، وإماسنها وكبرها، أو غير ذلك " او اعراضا " يعني انصرفا بوجهه او ببعض منافعه التي كانت لها منه " فلاجناح عليهما " أي لاجرح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا بان تترك المرأة له يومها، او تضع عنه بعض ما يجب لها. من نفقة او كسوة، وغير ذلك تستعطفه بذلك، وتستديم المقام في حباله، والتمسك بالعقد الذي بينهما وبينه من النكاح، ثم قال:

" والصلح " بترك بعض الحق استدامة للخدمة، وتمسكا بعقد النكاح خير من طلب الفرقة، وقال بعضهم: الصلح خير من النشوز، والاعراض والاول أشبه. هذا إذا كان بطيبة من نفسها، فان لم يكن كذلك، فلا يجوز له الا ما يسوغ في الشرع من القيام بالكسوة والنفقة، والقسمة والإطلاق. وبهذه الجملة قال علي (عليه السلام)، وعمر وابن عباس، وسعد بن جبير وعائشة وعبيدة السلماني، وابراهيم والحكم وقتادة، ومجاهد وعامر الشعبي والسدي، وابن زيد قال ابن عباس: خشيت سودة بنت زمعة ان يطلقها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالت لا تطلقني واجلسني مع نسائك ولا تقسم لي، فنزلت " وان امرأة خافت من بعلمها نشوزا او اعراضا " وقال سعيد بن المسيب عن سليمان بن يسار. ان رافع بن خديج كانت تحته امرأة قد علا من سنها، قال

(٣٤٧)

أبوجعفر (ع) هي بنت محمد بن مسلمة، فتزوج عليها شابة فآثر الشابة عليها، فابت الاولى أن تقر على ذلك، فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسيرا قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الاثرة، وان شئت تركتك حتى يخلو أجلك، ثم طلقها الثانية، وفعل فيها ما فعل اولاً، قالت: بل راجعني واصبر على الاثرة، فراجعها. فذلك الصلح الذي بلغنا ان الله أنزل فيه " وان امرأة خافت. الآية ".

وقوله: " واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً " واختلفوا في تأويله فقال بعضهم واحضرت الانفس النساء الشح على انصباهن من انفس ازواجهن واموالهم وإيامهن منهم. ذهب اليه ابن عباس وسعد بن جبير وعطا، وابن جريج والسدي. ويزعم انها في سورة بنت زمعة، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) لانها كانت كبرت، فاراد

رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان يطلقها، فاصطلحا على ان يمسكها ويجعل يومها لعائشة، فشحت بمكانها من رسول الله (صلى الله عليه وآله). وقال آخرون: واحضرت انفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قبل صاحبه.

وهو اعم فيكون شح المرأة بترك حقها من النفقة والقسمة وغير ذلك وشح الرجل إنفاقه على التي لايريدها، وبذلك قال ابن وهب، وابن زيد. والشح: افراط في الحرص على الشئ ويكون بالمال وبغيره من الاعراض يقال: هو شحيح بمودتك اي حريص على دوامها ولايقال في ذلك بخيل والبخل يكون بالمال خاصة.

قال الشاعر:

لقد كنت في قوم عليك اشحة * بفقدك إلا ان من طاح طائح
يودون لوخطوا عليك جلودهم * وهل يدفع الموت النفوس الشحائح (١)
فان قيل: قوله: " وإن امرأة خافت " ليس فيه ان الرجل نشز على امرأة والخوف ليس معه يقين قلنا: عنه جوابان:
احدهما - إن الخوف في الآية بمعنى العلم وتقديره، وإن امرأة علمت.

(١) مجمع البيان ٢: ١١٩ - طبع صيدا - العقد الفريد ٣: ٢٤٧ - ٢٤٨. (*)

(٣٤٨)

والثاني - انها لاتخاف النشوز من الرجل إلا وقد بدأ منه ما يدل على النشوز والاعراض من أمارات ذلك ودلائله. وقوله: " وإن امرأة خافت " ارتفعت المرأة بفعل مضمر دل عليه ما بعد الاسم، وتقديره وإن خافت امرأة خافت والتفرقة بين ان التي للجزء (١) والفعل الماضي قال الزجاج هو جيد، ولايجوز ذلك في الفعل المستقبل.

لاتقول: ان امرأة تخف، (ان) لاتفصل بينهما وبين ما يجزم ويجوز ذلك في ضرورة الشعر قال الشاعر:

فمتى واغل بينهم يحيوه * ويعطف عليه كاس الساقى (٢)

وانما جاز في الماضي مع الاختيار، لان (ان) غير عاملة في لفظه وان لم تكن من (٣) حروف الجزاء، فجاز أن يفرق بينهما وبين الفعل، وغير ان يقبح فيه الفصل مع الماضي والمستقبل لاتقول: متى زيد جاءنى اكرمته، ويجوز ان تقول: إن الله أمكنني فعلت.

وقوله: " وان تحسنوا " خطاب للرجال يعني ان تفعلوا الجميل بالصبر على من تكرهون من النساء، وتتقوا من الجور عليهن في النفقة والعشرة بالمعروف، فان الله عالم بذلك. وكان عالما بما تعملون فيما قبل فيجازيكم على ذلك.

قوله تعالى:

(ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان عفورا رحيمًا) (١٢٩) آية بلاخلاف.

(١) في المطبوعة (التي الجزاء). (٢) لسان العرب: (وغل) ومجمع البيان ٢: ١١٩ الواغل: الداخلة على القوم في طعامهم - وقيل: في شراهم - دون أن يدعو أو نفق معهم: وفي رواية أخرى: وتعطف على كف الساقى.
(٣) في المطبوعة (وان أم حروف الجزاء).

(٣٤٩)

المعنى:

نفى الله تعالى في هذه الآية ان يقدر احد من عباده على التسوية بين النساء والازواج في حبهن والميل إليهن حتى لا يكون ميله إلى واحدة منهن الامثل ما يميل إلى الاخرى. لان ذلك تابع لما فيه من الشهوة، وميل الطبع. وذلك من فعل الله تعالى، ولاصنع للخلق فيه، وان حرص على ذلك كل الحرص. وليس يريد بذلك نفي القدرة على التسوية بينهن في النفقة، والكسوة والقسمة، لانه لو كان كذلك لما امر الله تعالى بالتسوية في جميع ذلك، لانه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه. كما قال: " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " (١) وقال: " لا يكلف الله نفسا الا ما اتاها " (٢) ولا تجوز المناقضة في كلامه تعالى. ولو حملنا على انه نفى الاستطاعة في التسوية بينهن في النفقة، جاز أن يكون المراد به ان ذلك لا يخف عليكم بل يثقل ويشق عليكم تسويتهم، لميلكم إلى بعضهن، فاباح الله تعالى حينئذ ورخص ان يفضل بعضهن على بعض في مازاد على الواجب من القسمة والنفقة، ولا يؤاخذ بذلك.

وقوله: " فلا تميلوا كل الميل " معناه فلا تعدلوا باهوائكم عن من لم تملكوا محبته منهن كل الميل حتى يحملكم ذلك على ان تجوروا على صواحبه في ترك اداء الواجب لهن عليكم من حق القسمة، والنفقة والكسوة، والعشرة بالمعروف،

" فتذروها كالمعلقة "، يعني تذورا التي لاتميلون اليها كالمعلقة يعني كالتى هي لاذات زوج، ولاهي ايم. وبه قال مجاهد وعبيدة، والحسن وابن عباس، وقتادة وابن زيد والضحاك وسفيان، والطبري والجبائي والبلخي وغيرهم. وهو المروي عن ابي جعفر (عليه السلام) وابى عبد الله (عليه السلام). وروى ابو ملكية أن الآية نزلت في عائشة وروى ابو قلابة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه كان يقسم بين نسائه ويقول: اللهم هذه قسمتي في ما املك فلا تلمنى فيما تملك، ولا املك وقوله:

" وان تصلحوا " يعني في القسمة بين الازواج والتسوية بينهن في النفقة،

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٦. (٢) سورة الطلاق، آية ٧. (*)

(٣٥٠)

والكسوة والعشرة بالمعروف، وتتركوا الميل (١) الذي نهاكم الله عنه، من تفضيل واحدة على الأخرى في ذلك، " فان الله كان عفورا رحيمًا " تستر عليكم ما مضى منكم من الحيف في ذلك إذا تبتم، ورجعتم إلى الاستقامة والتسوية بينهن، ويرحمكم بترك المؤاخذة على ذلك، وكذلك كان يفعل فيما مضى مع غيركم يعني في قبول التوبة من (٢) كل تائب مقلع نادم على ما فرط وروي عن علي (عليه السلام)

انه كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحدة لايتوضأ في بيت الأخرى.

وروي عن جعفر بن محمد عن ابيه عن ابيه (عليهم السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف — به — (٣) بينهن، وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتافي الطاعون أقرع بينهما ايهما تدفن قبل الأخرى؟.

قوله تعالى:

(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما) (١٣٠) آية.

— المعنى —

إن الزوجين اللذين تقدم ذكرهما، متى أبى كل واحد منها مصالحة الآخر فإن تطالب المرأة بنصيبها من القسمة والنفقة والكسوة ويمتنع الزوج من اجابتها التي ذلك، لميله إلى الأخرى ومحبتة لها، أو لصغر سنها أو جمالها ويتفرقا حينئذ بالطلاق، فان الله يغني كل واحد منهما من سعته يعني من فضله ورزقه

" وكان الله واسعا حكيما " يعني كان لم يزل هكذا واسع الفضل على عباده، رحيمًا بهم في ما يدبرهم به وفي الآية دليل على ان الارزاق كلها بيد الله وهو الذي يتولاها

(١) المطبوعة (وكل) (٢) من ساقطة المطبوعة (٣). (به) ساقطة من المطبوعة والتصحيح عن مجمع البيان والسياق يقتضي ذلك أيضا. (*)

(٣٥١)

لعباده وإن كان ربما أجراها على يدي من يشاء من عباده وقال ابن عباس: " كلامن سعته " يعني من رزقة وهذه الجملة بها قال مجاهد وجميع المفسرين.
قوله تعالى:

(ولله ما في السموات وما في الارض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ان اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الارض وكان الله غنيا حميدا (١٣١) والله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيفا (١٣٢) ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت باخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعا بصيرا) (١٣٤) اربع آيات.

لما ذكر الله قوله: وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته بين في هذه الآية بان له ملك ما في السموات وما في الارض، لايتعذر عليه إغناء كل واحد من الزوجين عند التفرق، وإيناسه من وحشته ثم رجع إلى توبيخ من سعى في أمر بني أبيرق وتعنيفهم، ووعيد من فعل فعل المرتد منهم، فقال: ولقد وصينا أهل التوراة والانجيل وهم الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أي وأمرناكم أيضا أيها الخلق " ان اتقوا الله " والتقدير بان اتقوا الله وأحذروا أن تعصوه، وتخالفوا أمره ونهيه " وإن تكفروا " يعني تجحدوا وصيته إياكم أيها المؤمنون، فتخالفوها، " فان لله ما في السموات وما في الارض " يعني له ملك ما فيهما، فلايستحضر بخلافكم وصيته ولان تكونوا أمثال اليهود والنصارى، بل تضرون انفسكم بما يحل بكم من عقابه، وغضبه " وكان الله غنيا " لم يزل، غير محتاج إلى خلقه وإن الخلق

(٣٥٢)

هم المحتاجون إليه " حميدا " يعني مستوجب الحمد عليكم بصنائه الحميدة إليكم، والائه الجميلة، فاستدعوا ذلك باتقاء معاصيه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وهذه الجملة مروية عن علي (عليه السلام) وهو قول جميع المفسرين، ثم قال: " والله ما في السموات وما في الارض " بمعنى له ملك ما فيهما، وهو القيم بجميعه والحافظه لايعرب عنه علم شئ ولايؤوده حفظه وتدبيره " وكفى بالله وكيفا " يعني كفى الله حافظا. فان قيل لم كرر قوله: " والله ما في السموات وما في الارض " الآيتين، احدهما عقيب الاخرى؟ قلنا: لاختلاف الخبرين: الاول في الآية الاولى عن حاجة الخلق إلى بارئه، وغناه تعالى عن خلقه، وفي الثانية حفظ الله تعالى إياهم وعلمه بهم، وتدبيره لهم فان قيل: هلا قال: وكان الله غنيا حميدا أو كفى به وكيفا؟ قيل: ما ذكره في الآية الاولى يصلح ان يختم به وصف الله تعالى بالغناء وأنه محمود، ولم يذكر فيها ما يقتضي وصفه بالحفظ والتدبير، فلذلك كرر قوله: " والله ما في السموات " .

وقوله: " ان يشأ يذهبكم " معناه، ان يشأ الله ايها الناس ان يهلككم، ويفنيكم ويأت بقوم آخرين غيركم ينصرون نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ويؤازرونه، كان الله تعالى على ذلك قديرا،

فويخ تعالى بهذه الآيات الخائنين الذين خانوا الدرع (١) وساعدوهم على ذلك، ودافعوا عنهم وحذر أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) أن يكونوا مثلهم وان يفعلوا فعل المرتد منهم في ارتداده ولحاقه بالمشركين وبين أن من فعل ذلك لا يضر إلا نفسه، لانه المحتاج إليه (تعالى) وغناه عنه (عزوجل) وعن جميع الخلق وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه لما نزلت هذه الآية ضرب بيده علي ظهر سلمان، فقال: هم قوم هذا رواه ابوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله)، ثم أخبر (تعالى) من كان ممن أظهر الايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) من أهل النفاق الذين يبطنون الكفر، ويظهرون الايمان. يريد ثواب الدنيا يعني عرض الدنيا باظهاره بلسانه في الايمان، " فعندالله ثواب الدنيا " يعني جزاؤه في الدنيا منها، وثوابه فيها هو ما يأخذ من الفئ والغنيمة إذا شهد مع

(١) - انظر تفسير آية (١٠٥) من سورة النساء. (*)

(٣٥٣)

المسلمين الحرب، وأمنه على نفسه وماله وذريته. وأما ثوابه في الآخرة فنار جهنم. " وكان الله سميعا بصيرا " يعني انه كان لم يزل على صفة يجب ان يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت. وهذه الصفة هي كونه حيا لآفة فيه والصفة حاصلة له في الازل والافات مستحيلة عليه، فوجب وصفه بانه سميع بصير وانما ذكر هاهنا ذلك، ليبين ان مايقوله المنافقون اذالقوا المؤمنين فان الله يسمعه ويعلمه وهو قولهم: إنا مؤمنون بصيرابما يضمرونه وينطون عليه من النفاق. وموضع كان في قوله: " من كان " جزم، لانه شرط والجواب الفاء. وارتفعت (يريد) لانه ليس فيها حرف عطف كما قال: " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها " (١) وقال: " من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها " (٢) جزم، لانه جواب الشرط. قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او ترضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) (١٣٥) آية.

— القراءة والحجة —

قرأين عامر وحمزه (وإن تلووا) بضم اللام، بعدها واو واحدة ساكنة.

الباقون يسكنون اللام بواوين بعدها أولهما مضمومة. حجة من قرأواوا واحدة أن قال: إن ولاية الشئ اقبال عليه وخلاف الاعراض عنه. والمعنى ان تقبلوا أو تعرضوا فإن الله بما تعملون خبيراً فيجازي المحسن المقبل باحسانه، والمسيء المعرض

(١) سورة هود، آية ١٠. (٢) سورة الشورى، آية ٢٠. (*)

(٣٥٤)

باعراضه وتركه الاقبال على مايلزمه ان يقبل عليه قال: ولو قرأت بالواوين، لكان فيه تكرار، لان اللي كالأعراض الأتري ان قوله: " لووا رؤسهم ورايتهم يصدون " (١) معناه أعراض منهم، وترك الانقياد للحق ومثله " ليا بالسنتهم " (٢) معناه أنحرف وأخذ فيما لاينبغي ان يأخذوا به. وحجة من قرأ بالواوين من لووا ان تقول لايمتتع ان تتكرر اللفظتان المختلفتان بمعنى واحد على وجه التأكيد، كقوله: " فسجد الملائكة كلهم اجمعون " وكقول الشاعر:

وهنداتي من دونها * النأي والبعد (٣)

وقول آخر:

والفي قولها كذبا ومينا وقالوا: أيضا يجوز ان يكون تلوا كان أصله تلواوا، وان الواو التي هي عين همزت لانضمامها، كما همزت في قوله: (أدروا) والقيت حركة الهمزة على اللام التي هي فاء، فصار تلوا اجاز ذلك الزجاج والفراء وأبو علي الفارسي.

(المعنى واللغة)

ومعنى الآية ان الله تعالى لما حكى عن الذين سعوا إلى رسول الله في امر بني أبيرق وقيامهم لهم بالعدو، وذبحهم عنهم من حيث كانوا أهل فقر وفاقة، أمر الله المؤمنين ان يكونوا " قوامين بالقسط " يعني بالعدل والقسط، والاقساط: العدل يقال: أقسط الرجل إقساطا إذا عدل وأتى بالقسط وقسط ويقسط قسوطا: إذا أجاز وقسط البعير يقسط قسطا إذا يبست يده ويد قسط، أي يابسة " شهد الله " وهو جمع شهيد ونصب شهداء على الحال من الضمير في قوله: (قوامين) وهو ضمير الذين آمنوا وقوله: " ولو على انفسكم " يعني ولو كانت شهادتك على انفسكم أو على والديكم أو على أقرب الناس اليكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموا على صحتها، وقولوا فيها الحق، ولاتميلوا فيها لغنى غني، ولافقر فقير، فتجوروا، فان الله قد سوى بين الغني والفقير فيما ألزمكم من أقامه الشهادة لكل واحد منهما بالعدل، وهو

(١) سورة المنافقون آية ٥. (٢) سورة النساء، آية ٤٥.

(٣) قائله الحطيئة صدر البيت: الا حبذا هند وأرض بها هند (*)

(٣٥٥)

تعالى أولى بهما وأحق، لانه مالكهما والههما دونكم وهو علم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك، وفي ذلك، وفي غيره من الامور كلها منكم، فلا تتبعوا الهوى في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها لغني وفقير إلى احدهما، فتعدلوا عن الحق أي تجوزوا عنه وتضلوا ولكن قوموا بالقسط، وأدوا الشهادة على ما امركم الله عزوجل بادائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله، فان قيل كيف تكون شهادة الانسان على نفسه حتى يامر الله تعالى بذلك، قلنا: بان يكون عليه حق لغيره، فيقر له ولايجده، فادب الله تعالى المؤمنين ان يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني أبيرق في سرقتهم ما سرقوا، وخيانتهم ما خانوا وازافتهم ذلك إلى غيرهم فهذا اختيار الطبري. وقال السدي: انها نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وقد اختصم اليه رجلان غني وفقير، فكان ضلعه (١) مع الفقير، لظنه أن الفقير لا يظلم الغني، فابى الله تعالى إلا القيام بالقسط في أمر الغني والفقير قال: " ان تكن غنيا او فقيرا فانه أولى بهما " وهذا الوجه فيه بعد، لانه لايجوز على النبي (صلى الله عليه وآله) في الحكم ان يميل إلى احد الخصمين سواء كان غنيا أو فقيرا فان ذلك ينافي عصمته وقال ابن عباس: أمرالله سبحانه المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على انفسهم، او ابنائهم، ولايجابوا غنيا لغناه، ولامسكينا لمسكنته وهذا هو الاولى، لانه أليق بالظاهر من غير عدول عنه.

وفي الآية دلالة على جواز شهادة الوالد لولده والولد لوالده، وكل ذي قرابة لمن يقرب منه، فقال ابن شهاب: كان سلف المسلمين على ذلك حتى دخل الناس فيما بعدتهم، وظهرت فيهم امور حملت الولاية على اتهامهم، فتركت شهادة من يتم إذا كان من اقربائهم وجاز ذلك من الولد والوالد والاخ والزوج والمرأة وبمعنى قول ابن عباس، قال قتادة، وابن زيد. وقوله: " فالله أولى بهما " إنما ثنى، ولم يقل به لانه أراد " فالله أولى بغناء الغني وفقير الفقير) لان ذلك منه تعالى وقال قوم: لم يقصد غنيا بعينه، ولافقيرا بعينه

(٣٥٦)

وهومجهول وما ذلك حكمه جاز الرد عليه التوحيد والتنثية والجميع. وفي قراءة ابي " فالله أولى بهم " وقال قوم: (او) بمعنى الواو في هذا الموضع، فلذلك ثنى وقال آخرون: جاز تنثية قوله " بهما "، لانهما قدذكرا، كما قيل: وله اخ أو أخت فلكل واحد منهما وقيل جاز ذلك، لانه أضر فيه (من) كانه قال: وله أخ او أخت إن يكون من خاصم غنيا او فقيرا، بمعنى غنيين أو فقيرين " فالله أولى بهما ".
وقوله: " فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا " يحتمل ثلاثة اوجه:

أحدها - لا تتبعوا الهوى في ان تعدلوا عن الحق، فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق.
والثاني - ان يكون التقدير لا تتبعوا أهواء أنفسكم هرباً من ان تعدلوا في إقامة الشهادة.
والثالث - فلا تتبعوا الهوى، لتعدلوا، كما يقال: لا تتبع هواك لترضي ربك، بمعنى انهاك عنه
كيما ترضى ربك بتركه. ذكره الفراء والزجاج.
وقوله: " وإن تلووا أو تعرضوا " اختلفوا في تأويله فقال قوم: معناه وان تلووا أيها الحكام في
الحكم لآحد الخصمين على الآخر، او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً وحملوا الآية
على انها نزلت في الحكام ذهب اليه السدي على ما قال:
إنها نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وروي عن ابن عباس انه قال: هما الرجلان يجلسان
بين يدي القاضي، فيكون لي القاضي واعراضه لآحدهما على الآخر وقال آخرون:
معناه وان تلووا أيها الشهداء في شهادتكم، فتحرفوها، فلا تقيموها أو تعرضوا عنها، فتتركوها
ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وقال مجاهد: معنى تلووا تبدلوا الشهادة أو تعرضوا أي تكتموها
وهو قول ابي جعفر (ع) وبه قال ابن زيد والضحاك وأولى التأويلين قول من قال: إنه لي
الشهادة لمن شهد له أو عليه بان يحرفها بلسانه أو يتركها، فلا يقيمها، ليبطل بذلك شهادته
وأعراضه عنها فلو ترك اقامتها فلا يشهد بها. وسياق الآية يدل على ما قال ابن عباس وقوله:
" فان الله كان بما تعملون خبيراً " معناه انه كان عالماً بها يكون منهم من اقامة الشهادة،
وتحريفها والاعراض عنها، واللي

(٣٥٧)

هو المطل لما يجب من الحق قال الاعشى:

يلويني ديني النهار واقتضي * ديني إذا رقد النعاس الرقدا (١)

قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا امنوا بالله ورسوله والكتاب الذي انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته
وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) (١٣٦) آية.

(القراءة والحجة -)

قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر والكسائي عن أبي بكر " الكتاب الذي نزل والكتاب الذي
أنزل " بضم النون، والهمزة وكسر الزاء الباقيون بفتحهما، فمن فتحهما حمله على قوله: " أنا
نحن نزلنا الذكر " وقوله: " وانزلنا اليك الذكر " ومن ضمها حملها على قوله: " ولنبين للناس
ما نزل اليهم " وقوله: " يعلمون انه منزل " وكل جيد سايع.

قبل في تأويل أمر من آمن - آمن يؤمن - بالله ورسوله ثلاثة اقوال:

أحدها - وهو المعتمد عليه عندنا واللايق بمذهبنا ان المعنى يأيها الذين آمنوا في الظاهر بالاقرار بالله ورسوله، وصدقوهما، آمنوا بالله ورسوله في الباطن، ليطابق باطنكم ظاهرهم ويكون الخطاب خاصا بالمنافقين الذين كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون. والكتاب الذي نزل على رسوله هو القرآن امرهم بالتصديق به والكتاب الذي انزل من قبل، يعنى التوراة والانجيل امرهم بالتصديق بهما، وانهما من عند الله.

والثاني - ما اختاره الجبائي والزجاج والبلخي ان يكون ذلك خطابا لجميع المؤمنين

(١) ديوانه من قصيدة قالها لكسرى حين اراد منهم رهائن لما أغار الحارث بن وعة على بعض السواد ورقمها: ٣٤. يلويني: يملنني. (*)

(٣٥٨)

الذين هم مؤمنون على الحقيقة ظاهرا او باطنا أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا به في المستقبل بان يستديموا الايمان، ولا ينتقلوا عنه، لان الايمان الذي هو التصديق لا يبقى وانما يستمر بان يجده الانسان حالا بعد حال وهذا أيضا وجه جيد.

الثالث - ما اختاره الطبري من ان ذلك خطاب لاهل الكتاب اليهود والنصارى امرهم الله (تعالى) بان يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله)، والكتاب الذي أنزل عليه كما آمنوا بما معهم من الكتب: التوراة والانجيل ويكون قوله: " والكتاب الذي نزل من قبل " اشارة إلى مامعهم من الانجيل والتوراة ويكون وجه أمرهم بالتصديق لهما وان كانوا مصدقين بهما، لاحد امرين:

أحدهما - ان التوراة والانجيل اذا كان فيهما صفات النبى (صلى الله عليه وآله)، وما ينبئ عن صدقوله وصحة نبوته فمن لم يصدق النبى (صلى الله عليه وآله)، ولم يصدق الكتاب الذي أنزل معه، لا يكون مصدقا بما معه، لان في تكذيبه، تكذيب مامعه من التوراة والانجيل، فيجب عليه أن يصدق النبى (صلى الله عليه وآله) ويقر بما انزل عليه، ليكون مصدقا بما معه، ومعترفا به. والثاني - أن يكون متوجها إلى اليهود الذين آمنوا بالتوراة دون الانجيل والقران، فيكون الله أمرهم بالاقرار بمحمد (صلى الله عليه وآله) وبما انزل من قبل يعنى الانجيل. وذلك لا يصح الا بالاقرار بعيسى (عليه السلام) أيضا وانه نبى من قبل الله وقوله: " ومن يكفر بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر " معناه ان من كفر بمحمد (صلى الله عليه وآله) فيجدد نبوته ويجحد ما انزله الله عليه، فكانه جحد جميع ذلك، لانه لا يصح ايمان احد من الخلق الا بالايمان بما امره الله بالايمان به، والكفر بشئ منه كفر بجميعه خطابا لاهل الكتاب وامره اياهم بالايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) تهديدا لهم، وان كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى والملائكة والكتب والرسول، واليوم الآخر سوى محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من القران فبين لهم ان من جحد

محمدًا بنبوته لاينفعه الايمان بشئ سواه، ويكون وجوده وعدمه سواء وقوله: " فقد ضل ضلالا بعيدا " معناه فقد ذهب عن قصد السبيل وجاز

(٣٥٩)

عن محجة الطريق ألى المهالك ضلالا ذهابا، وجورا بعيدا.
قوله تعالى:

(ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهود سبيلا)
(١٣٧) آية واحدة.

(المعنى -: قيل في المعني بهذه الآية ثلاثة اقوال) (الاول - قال قتادة عنى بذلك الذين امنوا بموسى، ثم كفروا بان عبدوا العجل، ثم آمنوا يعني النصراني)بعيسى، ثم كفروا به، ثم ازدادوا كفرا بنبوته محمد (صلى الله عليه وآله) وقال الزجاج والفراء: آمنوا بموسى، وكفروا بعزير، ثم امنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بمحمد (صلى الله عليه وآله).

والثاني - قال مجاهد وابن زيد يعني بذلك اهل النفاق انهم آمنوا، ثم ارتدوا ثم آمنوا، ثم ارتدوا، ثم ازدادوا كفرا بموتهم على كفرهم.

والثالث - قال ابوالعالية: هم اليهود والنصارى اذنبوا ذنبا في شركهم، ثم تابوا فلم تقبل توبتهم، ولو تابوا من الشرك لقبل منهم واقوى الاقوال عندنا قول مجاهد، لان المؤمن على الحقيقة عندنا لايجوز ان يكفر، لان الايمان يستحق عليه الثواب الدائم والكفر يستحق عليه العقاب الدائم بلاخلاف فيهما والاحتياط عندنا باطل، فلو اجزنا الارتداد بعد الايمان الحقيقي لادى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم والاجماع بخلافه واختار الطبري الوجه الاول وقال الجبائي والبلخي يجوز ان تكون الآية نزلت في قوم كانوا آمنوا ثم ارتدوا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفرا وقوله:

" لم يكن الله ليغفر " معناه لم يكن الله ليغفر لهم الايمان الثاني الكفر

(٣٦٠)

المتقدم، لانه لما ارتد فيما بعد، دل على ان ما تقدم، لم يكن ايمانا فلايستحق به
غفران عقاب الكفر المتقدم وهو الذي اختاره الزجاج وقال البلخي والزجاج: لم يكن الله ليغفر
لهم إذا لم يتوبوا منه وهذا الذي ذكروه لا يصح، لان الكفر على كل حال ولومرة واحدة،
لا يغفر الله الا بالتوبة، فلامعنى لنفي الغفران عن كفر بعد ايمان تقدمه كفر تقدمه ايمان.
وقوله: " ولا يهديهم سبيلا " معناه لا يهديهم سبيل الجنة والثواب فيها، لانهم غير مستحقين له
ويحتمل ان يكون المراد بذلك أنه لا يلفظ لهم فيما بعد بل يخذلهم عقوبة لهم على كفرهم
المتقدم. ولا يجوز ان يكون المراد به أنه لا ينصب لهم الدلالة، لان نصب الادلة قد تقدم في
الكليف الاول والمرتد عندنا على ضربين:

احدهما - لا يستتاب ويقتل على كل حال وهو من ولد على فطرة الاسلام بين مسلمين متى كفر
فانه يقتل على كل حال. والآخر وهو من كان كافرا فاسلم، ثم ارتد فانه يستتاب ثلاثا فان تاب
والاقتل، ولا يستتاب اكثر من ذلك. وبه قال علي (عليه السلام) وابن عمر. وقال قوم: يستتاب
ابدا. ذهب اليه ابراهيم وغيره. واختاره الطبري. والمرأة تستتاب على كل حال فان تابت،
والا خلدت في السجن ولا تقتل بحال وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.
قوله تعالى:

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
ايبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا) (١٣٩) ايتان بلاخلاف.
المعنى:

معنى قوله " بشر المنافقين " جعل موضع بشارتهم لهم العذاب والعرب تقول:
تحيتك الضرب وعقابك السيف، أي بدلا من ذلك. قال الشاعر:

(٣٦١)

وخيل قد دلفت لها بخيل * تحية بينهم ضرب وجميع
امر الله (تعالى نبيه) ان يبشر المنافقين بان لهم عذابا أليما وهو المؤلم الموجه.
على نفاقهم، ثم وصف هؤلاء المنافقين فقال: " الذين يتخذون " أهل الكفر بالله ونبيه اولياء
يعني انصارا وأحلافا من دون المؤمنين يعني من غيرهم، ثم قال:
" يبتغون عندهم العزة " معناه يطلبون عندهم المنفعة والقوة باتخاذهم اولياء من دون اهل
الايمان به (تعالى)، ثم أخبر ان العزة باجمعها له (تعالى) وان هؤلاء الذين يطلبون من جهنم
العزة. المنعة، لامنعة عندهم، بل النصر والمنعة من عند الله الذي له العزة والمنعة الذي يعز
من يشاء، ويذل من يشاء. واصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الصلبة الشديدة: عزاز ويقال:

استعز المريض اذا اشتد مرضه وتعزز اللحم: إذا اشتد منه قيل: عز علي ان يكون كذا، اي اشتد علي ومنه قولهم: " من عزيز أي من غلب سلب. وقولهم: عز الشيء معناه صعب وجوده واشتد حصوله.

قوله تعالى:

(وقد نزل عليكم في الكتاب ان إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) (١٤) آية.

قرأ عاصم ويعقوب " وقدنزل " بفتح النون والزاي وتشديده. الباقون بضم النون وكسر الزاي والمنزل في الكتاب.

(٣٦٢)

قوله تعالى:

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره إلى قوله.. الظالمين).

اعلم الله تعالى في هذه الآية المؤمنين ان المنافقين يهزءون بكتاب الله الذي هو القرآن، وأمرهم ان لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا، يعني يأخذوا في حديث غير القرآن، ثم قال: انكم ان جالستموهم على الخوض في كتاب الله والهزاء به، فانتم مثلهم، وانما حكم بانهم مثلهم متى رضوا بما هم فيه، ولم ينكروا عليهم مع القدرة على الانكار، ولم يظهروا كراهية، فانهم متى كانوا راضين بالكفر، كانوا كفاراً، لان الرضاء بالكفر كفر. وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر مع القدرة على ذلك، وزوال العذر عنه. وإن من ترك ذلك مع القدرة عليه كان مخطئاً أثماً. وكذلك فيها دلالة على انه لا يجوز مجالسة الفساق، والمبتدعين من اي نوع كان. وبه قال جماعة من المفسرين. ذهب اليه ابوائل، وابراهيم وعبدالله. وقال ابراهيم: من ذلك إذا تكلم الرجل في مجلس بكذب، يضحك منه جلساؤه، فسخط الله عليهم. وبه قال عمر بن عبدالعزيز وقيل: إنه ضرب صائماً كان قاعداً مع قوم يشربون الخمر. وقال ابن عباس: امر الله بذلك الانفاق، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، والمرء والخصومة وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وجماعة من المفسرين.

قال ابو علي الجبائي: اما الكون بالقرب منهم بحيث يسمع صوتهم ولا يقدر على انكاره، فليس محذور، وانما المحذور مجالستهم من غير اظهار كراهية ماسمعه أو يراه. وقوله: " إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً " ومعناه ان الله يجمع الفريقين من اهل الكفر، والنفاق في القيامة في النار. والعقوبة فيها كما اتفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين،

والمؤازرة عليهم. قال الجبائي: في الآية دلالة على بطلان قول الاصم، ونفاة الاعراض وقولهم: انه ليس ها هنا غير الاجسام، لانه

(٣٦٣)

قال: " حتى يخوضوا في حديث غيره " فاثبت غيرا لما كانوا فيه. وذلك هو العرض. قوله تعالى:

(الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (١٤١) آية بلاخلاف. (الذين) في موضع خفض صفة للمنافقين والكافرين في قوله: " إن الله جامع المنافقين والكافرين "

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين اي ينتظرون بهم فان فتح الله على المؤمنين فتحا من عدوهم، فاقاء عليهم فيئا من الغنائم، قالوا لهم الم نكن معكم نجاهد عدوكم ونغزوهم معكم، فاعطونا نصيبنا من الغنيمة، فانا شهدنا القتال وان كان للكافرين نصيب أي حظ باصابتهم من الغنيمة، فانا شهدنا القتال وان كان للكافرين نصيب أي حظ باصابتهم من المؤمنين، وليس المراد بذلك ان لهم نصيبا من الله، لانه (تعالى) لم يجعل لهم غلبة المسلمين، ولا اباح لهم شيئا من اموالهم، بل حظر ذلك عليهم. وقوله: " قالوا " يعني قال المنافقين للكافرين:

الم نستحوذ عليكم بمعنى الم نغلب عليكم؟ في قول السدي. وقال ابن جريج: معناه ألم نبين لكم انا على ما انتم عليه والاستحواذ الغلبة ومنه قوله: " استحوذ عليهم فأنسأهم ذكر الله " ومعناه غلب عليهم. يقال منه: حاذ عليه يحوذ. واستحاذ يستحاذ. وحاذ يحيد. قال العجاج يصف ثورا وكلاما:

يحوذهن وله حوذي (١)

وانشده ابو عبيد والاصمعي بالزاي يحوزهن وله حوزي والمعنيان

(١) اللسان (حوذ). ديوانه: ٧١ ومجاز القرآن لابي عبيده ١: ١٤١ وبده:
خوف الخلاط فهو اجنبي كما يحوذ الفئة الكمي (*)

(٣٦٤)

متقاربان. وقال لبيد في صفة عيرواتن على احاذ.

إذا اجتمعت واحوذ جانبها * واوردها على عوج طوال (١)

العوج الطوال القوائم. وقيل: هي النخيل الطوال. فمعنى احوذ جانبيها لم يشذ منها شيء. والاحوذ: الجاد المنكش الخفيف في اموره كلها. وكان القياس يقتضي ان يقول: استحاذ، لان الواو إذا كانت عين الفعل وكانت محركة بالفتح، وما قبلها ساكن تقلب حركتها إلى فاء الفعل، وقلبوها الفا اتباعا لحركة ما قبلها.

كقولهم: استحاذ واستبان واستنار واستعاذ بالله وهاهنا تركت على الاصل وهي لغة القرآن. وقوله: " ونمنعكم من المؤمنين " يعني يقول المنافقين الكافرون منعنا المؤمنين منكم بتخذيلنا اياهم، واطلاعنا اياكم على اخبارهم، وكوننا عيوننا لكم حتى انصرفوا عنكم وغلبتموهم. وقوله: " فانه يحكم بينكم يوم القيامة " اخبار منه (تعالى)

انه الذي يحكم بين الخلائق يوم القيامة ويفصل بينهم بالحق، وينصر المؤمنين " ولا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا " اي بالغلبة والقهر. وان حملناه على دار الدنيا يمكن حمله على انه لا يجعل لهم عليهم سبيلا بالحجة، وان جاز ان يغلبوهم بالقوة، لكن المؤمنين منصورون بالحجة والدلالة. وبالتأويل الاول قال علي (عليه السلام):

والسدى وابومالك وابن عباس. قال السدي: السبيل - هاهنا - الحجة. وباللثاني قال: الزجاج والجبائي والبلخي. وقال الجبائي: ولوحملنا ذلك على الغلبة، كان أيضا صحيحا، لان غلبة الكفار للمؤمنين ليس مما فعله الله، لان ذلك قبيح، والله لا يفعل القبيح. وليس كذلك غلبة المؤمنين للكفار، لانه حسن وطاعة، فكان ذلك منسوبا إلى الله (تعالى).
قوله تعالى:

(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى

(١) اللسان (حوذ). القصيدة: ١٧ وبعده:

رفعن سرادقا يوم ربح * يصفق بين ميل واعتدال (*)

(٣٦٥)

الصلاة قاموا كسالى يراون الناس ولا يذكرون الله قليلا (١٤٢)

مذبذبين بين ذلك لالى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) آيتان.

- قدينا - في اول البقرة معنى الخداع من المنافقين، ومن الله (تعالى)

وجملته ان الخداع من المنافقين اظهارهم الايمان الذي حقنوا به دماءهم واموالهم، كما حقن المؤمنون على الحقيقة. وقال: الحسن والزجاج والازهري ان معناه يخادعون نبي الله فسماه خداعا لله للاختصاص، كما قال: إن الذين يبائعونك انما يبائعون الله فسمى مبايعة النبي (صلى الله عليه وآله) مبايعة الله، للاختصاص، لانه بأمره. ومعنى الخداع من الله يحتمل امرين:

أحدهما - ان يجازيهم على خداعهم فسمى الجزاء باسم الشئ، للازدواج، كما قال: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " والجزاء ليس بسيئة. وقال: " ومكروا ومكر الله " والله لا يمكر، غير انه يجازي عليه.

والثاني - ما حكم الله فيهم من منع دمائهم بما اظهروه من الايمان بلسانهم مع علمه بباطنهم، واعتقادهم الكفر استدراجا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه يوم القيامة، فيوردهم بما ابطنواهم نار جهنم. وقال السدي: يعطيهم الله نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، كما كانوا في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور، ويضرب بينهم بسور، فذلك هو الخداع منه (تعالى). وبه قال ابن جريج، والحسن وغيرهم من المفسرين:

على ما بيناه فيما مضى. وقوله: " وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس " يعني ان المنافقين لا يعملون شيئا من اعمال العبادات التي اوجبها على المؤمنين على وجه القرابة إلى الله، لانهم غير موقنين بها، ولان لهم عليها ثوبا أو عقابا وانما يفعلون ذلك إبقاء على انفسهم، وحذرا من المؤمنين ان يقتلوهم، ويسلبوا اموالهم، فهم إذا قاموا إلى الصلاة، قاموا كسالى اليها رياء للمؤمنين،

(٣٦٦)

ليحسبواهم المؤمنون منهم، وليسوا منهم، لانهم لا يعتقدون فرضها. وبه قال قتادة وابن زيد. وقوله: " ولا يذكر الله إلا قليلا " إنما وصف ما استثناه من ذكرهم الله بالقلّة من حيث انهم لا يقصدون به وجه الله، ولا التقرب اليه، لا ان شيئا من ذكر الله يوصف بانه قليل، بل يوصف جميعه بانه كثير، قال الحسن: وصفه بالقلّة، لانه كان لغير الله. وقال قتادة: لانه لم يقبله الله وكلما رده الله، فهو قليل، وماقبله فهو كثير. وقال الجبائي: لانهم. إذا قاموا إلى الصلاة، لم يذكرها غير تكبيرة الاحرام.

وقوله: " مذنبين " في موضع نصب على الحال. ومعناه انهم يقومون إلى الصلاة يعني المنافقين مترددين، لالي هؤلاء يعني المؤمنين فيفعلونه، فيستحقون به الثواب ولا إلى هؤلاء يعني الكفار فيجاهرون بالكفر، بل بين ذلك يظهر ايمان، فيجري عليهم حكم أهله، ويبطنون الكفر فيستحقون به عقاب أهله. واصل التذبذب التحرك والاضطراب. قال النابغة:

الم تر ان الله اعطاك سورة * يرى كل ملك دونها يتذبذب (١)

وقال الحسن بن علي المغربي: مذنبين مطرودين من هؤلاء، ومن هؤلاء، من الذب الذي هو الطرد. وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بالحيرة في دينهم، وانهم لا يرجعون إلى صحة فيه، لامع المؤمنين على بصيرة، ولامع الكفار على جهالة. وقال ابن عمر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان مثلهم مثل الشاة العائرة بين الغنمين تتحير، فتتظر إلى هذه والى هذه،

لاتدري ايهما تتبع. وبهذه الجملة قال السدي وقتادة ومجاهد وابن جريج وابن زيد وغيرهم من المفسرين. وقوله: " ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا " يحتمل امرين: احدهما - من يضل الله عن طريق الجنة، فلن تجد له سبيلا إلى طريق الجنة. والثاني - من يجد له عقوبة على معاصيه عن طريق الرشاد والاسلام، ولم

(١) - مرفي ١: ١٩ (*)

(٣٦٧)

يوقفه، لحرمانه نفسه التوفيق بسوء اختياره، فلن تجد له سبيلا يعني طريقا إلى الحق يفضيه اليه.

قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا) (١٤٤) آية.

هذا خطاب للمؤمنين نهاهم الله ان يتخذوا الكافرين اولياء وانصارا من دون المؤمنين، فيكونون مثلهم في ركوب مانهاهم الله عنه من موالة اعدائه " اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا " يعني حجة ظاهرة. قال عكرمة، كل ما في القرآن من ذكر سلطان، فمعناه حجة. وبه قال مجاهد والزجاج. وهو يذكر ويؤنث وقيل للامير سلطان، لان معناه ذو الحجة ومعنى الآية النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين. فمن فعل ذلك، فقد جعل الله على نفسه الحجة، وتعرض لغضبه وعقابه وفي الآية دلالة على أنه لايجوز أن يبتدئ، الله الخلق بالعذاب، ولايعاقب الاطفال بذنوب الآباء، لانه لوكان ذلك شائعا، لما قال للمؤمنين: " تجعلون لله عليكم سلطانا مبينا " يعني باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين، لان ذلك دلالة على انه لم يكن له ذلك، وانه لاكان له حجة على الخلق لولا معاصيهم ومخالفتهم له تعالى.

قوله تعالى:

(ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) (١٤٥) الاالذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين اجرا عظيما) (١٤٦) آيتان بلاخلاف.

(٣٦٨)

— القراءة والحجة —

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر، إلا العلمي (الدرك) بسكون الراء الباقيون بفتحها وهما الغتان مثل نهر ونهر وشمع وشمع فمن فتح الراء قال في الجمع: إدراك في القلة والكثرة ومن سكنها قال إدراك وفي الكثير الدرك والتسكين لغة وليس يسكن من المفتوح، لان مثل ذلك لا يجوز تسكينه، فلا يسكن جمل وجبل وإنما هما لغتان مثل شمع وشمع ونهر ونهر. قالوا بفتح الراء أفصح، سمع من العرب من يقول:
أعطني دركا اصل به حبلي، يعني ما يصل به حبله الذي عجز عن بلوغ الركة.

— المعنى —

ومعنى الآية الاخبار من الله أن المنافقين في الطبقة الاسفل من النار. قال عبدالله: المنافقون في توابيت من حديد مغلقة عليهم في النار وبه قال ابو هريرة، وابن عباس. قال ابن جريج: قال عبدالله بن كثير وأبو عبيدة، سمعنا ان جهنم إدراك منازل. وليس يمتنع ان يجعل الله قوما من الكفار في الدرك الاسفل، كفرعون وهامان وأبى جهل، فان هؤلاء اعظم كفرا من المنافقين وليس في اخبار الله ان المنافقين هناك ما يمنع أن يكون غيرهم فيه أيضا، وان تفاضلوا في العقاب قال ابن جريج: هذه الايات نزلت في عبدالله بن ابي واصحابه. قال البلخي يجوز ان يكون الادراك منازل بعضها أسفل من بعض بالمسافة، ويجوز أن يكون ذلك اخبارا عن بلوغ الغاية في العقاب والاهانة، كما يقال بلغ فلانا السلطان الحضيض، وبلغ فلانا العرش. ويريدون بذلك علو المنزلة وانحطاطها لا المسافة.

وقوله: " ولن تجد له نصيرا " معناه لا تجد يا محمد، لهؤلاء المنافقين إذا جعلهم الله في اسفل طبقة من النار ناصرنا ينصرهم، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليم عقابه، ثم استثنى فقال: " الا الذين تابوا " فاستثنى منهم التائبين من نفاقهم إذا اصلحوا نباتهم، واصلحوا الدين لله، وتبرؤا من الآلهة والانداد، واعتصموا يعني تمسكوا بكتاب الله وصدقوا رسله، فانهم إذا فعلوا ذلك فانهم

(٣٦٩)

يكونون مع المؤمنين في الجنة، ومحل الكرامة، ويسكنهم مساكنهم وما وعدهم من الجزاء على توبتهم، وسوف يؤتي الله المؤمنين اجرا عظيما. فكان تقدير الآية إن الذين راجعوا الحق، واقروا بوحدانية الله، وتصديق رسوله، وما جاء به من عند الله، واصلحوا اعمالهم فعملوا بما امرهم الله به وادوا فرضه وانتهوا عما نهاهم، وانزجروا عن معاصيه، وتمسكوا بعهد الله وميثاقه، فقطع حينئذانه تعالى يؤتي المؤمنين، أي يعطيهم اجرا، يعني عظيما، ودرجات في

الجنة كما اعطى من مات على النفاق منازل في النار في اسفل طبقة منها. وهذه الجملة معنى قول حذيفة بن اليمان، وجميع المفسرين.

" وسوف يؤت الله " كتبت في المصحف بلاياء تخفيفا ومثله " يوم يأت لا تكلم " وقوله: " ما كنا نبغ " وغير ذلك. وكان الكسائي يثبت الياء في الوصل دون الوقف، ثم رجع عنه. وابوعمر و يثبتها في الوصل واهل المدينة يثبتونها في الحالين قوله تعالى:

(ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وامنتم وكان الله شاكرا عليما) (١٤٧) آية.

خاطب الله (تعالى) بهذه الآية المنافقين الذين تابوا وآمنوا، واصلحوا اعمالهم، فقال: إن انتم تبتم إلى الله وراجعت الحق الواجب لله عليكم، وشكرتمه على نعمه واخلصتم عبادته، واعتصمتم به وتركتم رياء الناس، وآمنتم برسوله محمد (صلى الله عليه وآله) وصدقتم به، وأقررتم بما جاء به من عند الله ما يصنع. بعذابكم، أي لاجابة بالله إلى عذابكم، وجعلكم في الدرك الاسفل من جهنم، لانه لا يجتلب بعذابكم نفعا، ولا يدفع عن نفسه ضررا، لانهما مستحيلان عليه.

" وكان الله شاكرا " يعني لم يزل الله مجازيا للشاكر على شكره في جميع

(٣٧٠)

عباده عليما بما يستحقونه على طاعاته من الثواب، ولا يضيع عنده شئ منه، ولا يفوته شئ من معاصي من عصاه، فيجازي بذلك من يشاء منهم على سوء أفعالهم جزاء بما كسبوه. وبه قال قتادة وغيره من المفسرين. والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من تعظيم المنعم، وذلك لا يجوز الشكر منه بمعنى الجزاء عليه كما قال: " ومكروا و مكر الله " " وجزاء سيئة سيئة مثلها " والجزاء ليست سيئة ولكن اطلق ذلك لازدواج الكلام.

قوله تعالى:

(لا يجب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما) (١٤٨) آية بلاخلاف.

- القراءة والحجة -

الفراء ضم الظاء في قوله: " الامن ظلم " وكسر اللام. وقرأ زيد بن اسلم والضحاك بن مزاحم (ظلم) بفتح الظاء واللام. فمن ضم الظاء، اختلفوا في تأويله فقال قوم: معنى ذلك لا يجب الله ان يجهر احد بالدعاء على احد، وهو الجهر بالسوء إلا من ظلم فيدعو على ظالمه، لا يكره ذلك وذلك انه رخص له فيه.

ذهب اليه ابن عباس وقتادة والحسن.

- الاعراب -

و (من) على قول ابن عباس في موضع رفع، لانه وجهه إلى ان الجهر بالسوء في معنى الدعاء. واستثنى المظلوم منه وقال الزجاج: وجه الرفع أن يكون بدلا من احد وتقديره لا يجب الله أن يجهر احد بالسوء إلا من ظلم وقال الفراء تقديره لا يجب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم، فلا حرج عليه في الجهر اما بان يدعو عليه، أو بان يخبر بما فعله به، ويذمه عليه. وبه قال الجبائي قال: ولا يجوز

(٣٧١)

لمن ليس بمظلوم ان يذكر احدا بسوء لان الله (تعالى) امره بالستر عليه والكتمان، وانما يجب عليه ان ينكر عليه فيما بينه وبينه على وجه لا يفضحه، وانما جاز ذلك للمظلوم، لانه خصم يجوز له ان يدعي على خصمه ما ظلمه فيه، فان أقام بذلك بينة استوفى له حقه، والابطل دعواه. وقال بعض النحويين: هذا خطأ في العربية، لان من لا يجوز أن يكون رفعا بالجد لانها في صلة ان، ولم ينله الجحد، فلا يجوز العطف عليه. لا يجوز ان يقول: لا يعجبني ان يقوم الازيد. ويحتمل أن يكون (من) نصبا في تأويل ابن عباس.

— المعنى —

وقوله: " لا يجب الله الجهر بالسوء من القول " يكون كلاما، ثم قال: " الامن ظلم فلا حرج عليه " فيكون (من) استثناء من الفعل، وان لم يكن قبل الاستثناء شئ ظاهر يستثنى منه، كما قال: " لست عليهم بمسيطر الامن تولى وكفر ". وكقولهم: اني لاكره الخصومة والمراء، اللهم إلا رجلا يريد الله بذلك. ولم يذكر فيه شئ من الاشياء ذكره الفراء. وقال آخرون: معناه لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم فيخبر بما ينل منه. ذهب اليه مجاهد قال مجاهد: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن اليه فقد رخص له أن يقول ذلك فيه وروي

عن أبي عبد الله انه قال: هو الضيف ينزل بالرجل، فلا يحسن ضيافته، جاز أن يقول ذلك فيه. وقال آخرون: الامن ظلم فانتصر من ظلمه، فان ذلك قد أذن له فيه، ذهب اليه السدي وهو المروي عن ابي جعفر (ع) و (من) على هذا يكون في موضع نصب على انقطاعه من الاول. ومن شأن العرب ان تنصب ما بعد الاقي الاستثناء المنقطع. فالمعنى على هذا القول سوى قول ابن عباس: لا يجب الله الجهر بالسوء من القول، لكن من ظلم فلا حرج عليه ان يخبر بما ينل منه، ينتصر ممن ظلمه. ومن فتح الظاء قال تأويله: لا يجب الله الجهر بالسوء من القول، الامن ظلم، فلا بأس ان يجهر له بالسوء من القول. ذهب اليه ابن زيد قال:

(٣٧٢)

يجهر له بالسوء حتى يفرع. (ومن) على هذا القول في موضع نصب والمعنى لا يحب الله الجهر أن يجهر احد لاحد من المنافقين بالسوء من القول إلا من ظلم منهم فاقام على نفاقه، فانه لا بأس بالجهر بالسوء من القول. قال الزجاج: وفيه وجه آخر لم يذكره النحويون وهو أن يكون الامن ظلم، لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول، وهو استثناء ليس من الاول. وهذا الذي ذكره هو قول ابن زيد بعينه. وقال الفراء: موضع (من) نصب في القراءتين معا. ويجوز الرفع على تقدير لا يحب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم. وقال البلخي: كان الضحاك يقول: فيه تقديم وتأخير والتقديم ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وامنتم إلا من ظلم بفتح الظاء ثم قال: لا يحب الله الجهر بالسوء من القوم على كل حال. قال البلخي: ويجوز ان يكون (إلا) بمعنى الواو، كانه قال: لا يحب الله الجهر بالسوء، ولا من ظلم، فانه لا يحب الجهر بالسوء منه. وقال قطرب: يجوز ان يكون المراد به المكره في قوله: " الامن ظلم " لانه إذا اكره على الجهر بالسوء من القول، فلا شئ عليه.

والقراءة المعروفة أولى بالصواب، لان هذه شاذة.

والتأويل فيه لا يحب الله ان يجهر احد لاحد بالسوء من القول إلا من ظلم، فلاحرج عليه أن يخبر بما اسئ اليه. وتكون (من) في موضع نصب لانقطاعها عما قبلها، فانه لا اسماء قبله يستثنى منها. وهو مثل قوله: " لست عليهم بمسيطر الامن تولى وكفر " وقوله: " وكان الله سميعا عليما " يعني سميعا لما يجهرون من سوء القول لمن يجهرون له، وغير ذلك من كلامكم واصواتكم عليما بما تخفون من سوء قولكم وكلامكم لمن يخفون له به فلا يجهرون يحصي ذلك كله عليكم فيجازي على ذلك كل المسئ باسائه. والمحسن باحسانه. قوله تعالى:

(ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا) (١٤٩) آية.

(٣٧٣)

— المعنى —

هذا خطاب لجميع المكلفين. يقول الله لهم: " ان تبدوا " بمعنى ان تظهروا (خيرا) اي حسنا جميلا من القول لمن احسن اليكم شكرا على إنعامه عليكم، أو تخفوه أي تتركوا اظهاره، فلا تبدوه، " أو تعفوا عن سوء " معناه أو تصفحوا عن اساء اليكم عن اساءته، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي أذنت لكم أن تظهروه، وتجهروا به " فان الله كان عفوا " يعني لم يزل كان صفوحا عن خلقه يصفح لهم عن معاصيه " قديرا " يعني قادرا على الانتقام منهم. وانما أراد بذلك انه مع صفحه قادرا على الانتقام، ليكون اعظم للمدح ليحث بذلك الخلق على العفو

عمن أساء إليهم. إذا قدروا على الانتقام منهم، والمكافات لهم. ولا يجهروا له بالسوء من القول مع القدرة عليه، ويتأدبوا في ذلك بأدب الله تعالى.

وروى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ان الله عفو يحب العفو). قوله تعالى:

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (١٥١) آيتان.

— المعنى —

معنى الآية الاخبار من الله تعالى " إن الذين يكفرون " ومعناه يجحدون بالله ورسله من اليهود والنصارى " ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله " أي

(٣٧٤)

يكذبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه وأوحى إليهم ويزعمون انهم كاذبون على الله. وذلك معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله " ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض " ومعناه أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود صدقوا موسى ومن تقدمه من الانبياء، وكذبوا عيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله) وكما فعلت النصارى صدقت عيسى ومن تقدمه من الانبياء، وكذبوا محمدا (صلى الله عليه وآله) " ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا " يعني يريد المفرقون بين الله ورسله الزاعمون انهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ان يتخذوا بين قولهم: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض سبيلا يعني طريقا إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها يدعون جهال الناس اليه، ثم اخبر عن حالهم فقال: " أولئك هم الكافرون حقا " أي هؤلاء الذين أخبر عنهم بانهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وتفريقهم بين الله ورسله هم الكافرون حقا فاستيقنوا ذلك ولا ترتابوا بدعواهم انهم يقرون بما زعموا انهم فيه مقرون من الكتب والرسل، فانهم يكذبون في دعواهم هذه، لانهم لو كانوا صادقين في ذلك، لصدقوا جميع رسل الله، لانه لا يصح ان يكونوا عارذفين بالله ورسوله مع جحودهم، لنبوة بعض الانبياء على ما يذهب اليه في الموافات. وعند من قال بالاحباط لا يمتنع ان يكونوا عارفين بالله، وبعض رسله فاذا كفروا ببعضهم، انحبط ما معهم من الثواب على ايمانهم وهذا لا يصح على مذهبنا في بطلان الاحباط فالصحيح إذا ما قلناه.

وقوله: " واعتدنا " معناه أعددنا للكافرين يعني الجاحدين الذين ذكرهم ولغيرهم من اصناف الكفار (عذابا) في الآخرة " مهينا " يهينهم ويذلهم مخلدون في ذلك وقال قتادة والسدي ومجاهد

نزلت في اليهود والنصارى وانما قال: إن هؤلاء هم الكافرون حقا، وإن كان غيرهم أيضا كافرا حقا على وجه التأكيد لئلا يظن انهم ليسوا كافرا لقولهم: نؤمن ببعض ونكفر ببعض وقيل إنه قال ذلك استعظاما لكفرهم، كما قال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إلى

(٣٧٥)

قوله: " أولئك هم المؤمنون حقا " وقد يكون مؤمنا حقا من لم يلحق هذه الخصال بلاخلاف.
قوله تعالى:

(والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين ائمتهم أولئك سوف نؤتيهم اجرهم وكان الله غفورا رحيمًا) (١٥٢)
آية بلاخلاف.

— القراءة والحجة —

قرأ يؤتيهم بالياء حفص الباقون بالنون حجة حفص قوله: " سوف يؤت الله المؤمنين " ومن
قرأ نؤتيهم - بالنون - فلقوله: " واتيناها اجره " وقوله: " أولئك سنؤتيهم اجرا " وغير ذلك من
الآي.

— المعنى —

لما ذكر الله تعالى حكم من فرق بين الله ورسوله، والايان ببعض دون بعض، وانهم الكافرون،
وانه أعد لهم العذاب المهين، اخبر عقيبه عن أمن بالله ورسوله، وصدقهم وأقر بنبوتهم، ولم
يفرقوا بين ائمتهم، بل آمنوا بجميعهم، فان الله (تعالى) سيؤتيهم اجرهم بمعنى سيعطيهم
ثوابهم الذي استحقوا على ايمانهم بالله ورسوله، والاقرار بهم، وإنه يعطيهم جزاءهم على ذلك.
" وكان الله غفورا رحيمًا " ومعناه يغفر لمن هذه صفته ما سلف له من المعاصي والآثام،
ويسيرها عليهم، ويترك العقوبة عليها، فانه لم يزل كان غفورا رحيمًا أي متفضلا عليهم
بالهداية إلى سبيل الحق موفا لهم لما فيه خلاص رقابهم من عقاب النار.

(٣٧٦)

قوله تعالى:

(يسلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سئلوا موسى اكبر من ذلك فقالوا:
ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن
ذلك واتينا موسى سلطانا مبينا) (١٥٣) آية بلاخلاف.

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يسألك يا محمد اهل الكتاب يعني اليهود ان تنزل عليهم كتابا من السماء، واختلفوا في الكتاب الذي سأل اليهود محمد (صلى الله عليه وآله) ان ينزل عليهم من السماء فقال قوم: سألو ان ينزل كتابا من السماء مكتوبا، كما جاء موسى بنى اسرائيل بالتوراة مكتوبة من عند الله في الالواح. ذهب اليه السدي ومحمد بن كعب القرظي، فانزل الله فيهم هذه الآية إلى قوله: " على مريم بهتاننا عظيما " وقال اخرون: بل سألوه ان ينزل عليهم كتابا خاصا لهم ذهب اليه قتادة.

وقال آخرون: بل يسألون أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كتابا بالامر بتصديقه، واتباعه ذكر ذلك ابن جريج، واختاره الطبري وقال الزجاج: ذلك حين سألو فقالوا: " لن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه " وقال الجبائي: كان سؤالهم على وجه التعنت والافكان فيما أنزله الله من القران دلالة واضحة على نبوته.

وقوله: " فقد سألو موسى اكبر من ذلك " فانه توبيخ من الله تعالى، سئل انزال الكتاب عليهم، وتقريع منه لهم بقوله لنبيه (صلى الله عليه وآله): يا محمد لا يعظن عليك مسألتهم، اياك ذلك فانهم من جهلهم بالله عزوجل وجرأتهم عليه، واغترارهم بحلمه، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوه لخالفوا امر الله، كما خالفوا بعد أحياء الله اوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العجل، واتخذوه آلهما فعبدوه من دون خالقهم وبارئهم الذي أراهم قدرته، وعظمته وسلطانه بما أراهم، ثم قص من قصتهم وقصة موسى

(٣٧٧)

ماقص، فقال: " فقد سالوا موسى اكبر من ذلك " يعني سأل اسلاف هؤلاء اليهود موسى (ع) اعظم مما سألوك فقالوا أرنا الله جهرة أي عيانا نماينه وننظر اليه.

وقد بينا معنى الجهرة فيما مضى. وحكي عن ابن عباس انه قال: فيه تقديم وتأخير، وتقديره إنما قالوا جهرة أرنا الله: وهو الذي اختاره ابو عبيدة. وقال غيره: أراد رؤية بالبصر ظاهرة منكشفة، لان من علم الله فقدر آه. وهو اختيار الزجاج لقوله تعالى: " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " وقول ابن عباس يدل على انه كان يذهب إلى استحالة الرؤية عليه تعالى، لان على تأويله بنفس سؤال الرؤية، اخذتهم الصاعقة دون رؤية مخصوصة على ما يذهب اليه من قال بالرؤية. وقوله: " فاخذتهم الصاعقة بظلمهم " يعني فصعقوا بظلمهم انفسهم عن سؤالهم موسى ان يريهم الله، لان ذلك مما هو مستحيل عليه (تعالى) وفي ذلك دلالة واضحة على استحالة الرؤية عليه (تعالى) واستعظام لتجويزها، لانهم كانوا يكفرون به ويجحدونه ولم ينزل عليهم الصاعقة، فلما سألو الرؤية أنزلها عليهم. وفي ذلك دلالة على أن اصل كل تشبيه تجويز الرؤية عليه تعالى على قوله ابي علي. وقد بينا معنى الصاعقة فيما مضى، فلا تطول باعادته.

وقوله: " ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البيئات " معناه، ثم اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ماسألوا من رؤية الله بعد ما احياهم وبعثهم من صعقتهم - العجل الذي كان السامري أضلهم به. وقد بينا فيما مضى السبب الذي من اجله اتخذوا العجل، وكيف كان أمرهم. وقوله: " من بعد ما جاءتهم البيئات " معناه من بعد ماجاءت هؤلاء الذين سألوا موسى البيئات من الله، ومن الدلالات الواضحات بان الرؤية مستحيلة عليه، ومنها اصعاق الله اياهم عند مسألتهم موسى يريدون ان يريهم ربهم جهرة، ثم احيأوه اياهم بعد مماتهم مع غيره من الآيات التي أراهم الله دلالة على ذلك، فقال الله مقبحا فعلهم، وموضحا عن جهلهم ونقص عقولهم باقرارهم للعجل بانه الههم، وهم يرونه عيانا، وينظرون اليه، فعكفوا على

(٣٧٨)

عبادته مصدقين بالآهيته ثم قال تعالى: " فففونا عن ذلك " ومعناه عفونا للذين عبدوا العجل عن عبادتهم بعد ان اراهم الله آية على أنهم لا يرون ربهم. وقوله: " واتينا موسى سلطانا مبينا " معناه اعطينا موسى حجة ظاهرة تبين عن صدقه وحقيقة نبوته، وتلك الحجة هي الآيات التي اتاه الله اياها. قوله تعالى:

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم لاتعدوا في السبت واخذنا منهم ميثاقا غليظا) (١٥٤) - آية اجماعا - .

— القراءة والحجة —

قرأ أهل المدينة (لاتعدوا) بتسكين العين وتشديد الدال والجمع بين ساكنين بمعنى لاتعدوا، ثم ادغم التاء في الدال فصارت دالا مشددة مضمومة، كما قرأ من قرأ (يهتدي) بتسكين الهاء - وقوا ذلك بقوله: " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت " فجاء في هذه القصة افتعلوا وقال: " لاتعدوا فان الله لا يحب المعتدين " وقرأ الباقر بتسكين العين - من عدوت في الامر: اذا تجاوزت الحق فيه أعدو عدوانا وعداء وعدوا قال ابوزيد: عدا على اللص: اشد العدو. والعدو والعداء والعدوان اي سرقك وظلمك. وعدت عينه عن ذلك اشد العدو وتعدو وحجتهم قوله: إذ يعدون في السبت في هذه القصة وقوله: فاولئك هم العادون.

— المعنى —

معنى قوله: " ورفعنا فوقهم الطور " يعني الجبل لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى بميثاقهم يعني بما اعطوا الله من الميثاق والعقد،

(٣٧٩)

ليعملن بما في التوراة. " وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا " يعني باب حطه حين امرهم الله ان يدخلوا فيه سجودا، فدخلوا على استاهم يزحفون. وقلنا لهم:
" لاتعدوا في السبت " اي لاتتجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم إلى ما حرم عليكم. قال قتادة:
امرهم الله ان لا يأكلوا الحيتان يوم السبت، ولا يعرضوا لها. واحل لهم ما عداه. وقوله: " واخذنا - منهم ميثاقا غليظا " يعني عهدا مؤكدا بأنهم يعملون ما أمرهم الله به وينتھون عما نهاهم الله عزوجل عنه. وقد بينا فيما مضى السبب الذي من أجله كانوا أمروا بدخول الباب سجدا، وما كان من أمرهم في ذلك. قال ابن عباس: رفع الله فوقهم الجبل، فقيل لهم: إما ان تأخذوا التوراة بما فيها، او يلقى عليكم الجبل. وقال ابو مسلم: رفع الله الجبل فوقهم ظللا لهم من الشمس بميثاقهم أي بعهدهم جزاء لهم على ذلك. والاول قول اكثر المفسرين.
قوله تعالى:

(فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما) (١٥٦) - آيتان - .

— المعنى —

المعنى في قوله: " بما نقضهم " قولان:
احدهما - قال الفراء والزجاج وغيرهما: " إن (ما) زائدة ". وتقديره فبنقضهم.
والثاني - انها بمعنى شئ. وتقديره فبشئ ونقضهم. بدل منه ومجرور به.

(٣٨٠)

مثله قوله: " مثلا ما بعوضة " (١) وفيه القولان. والتقدير فبنقض هؤلاء الذين وصفهم من اهل الكتاب وميثاقهم يعني عهودهم التي عاهدوا الله عليها أن يعملوا بما في التوراة " وكفرهم بآيات الله " يعني جحودهم بآيات الله. وهي اعلامه، وادلته التي احتج بها عليهم في صدق انبيائه، ورسله " وقتلهم الانبياء بغير حق " يعني وقتلهم الانبياء بعد قيام الحجة عليهم بصدقهم بغير حق يعني بغير استحقاق منهم، لكبيرة أتوها ولاخطيئة استوجبوا بها القتل. وقتل الانبياء، وان كان لا يكون إلا بغير حق، فانما اكده بقوله: " بغير حق " ومعناه ما قدمنا القول فيه أنه لا يكون ذلك إلا بغير حق، كما قال: " ومن يدع مع الله الها آخر لابرهان له به " والمعنى إن هذا لا يكون عليه برهان. ومثله قول الشاعر:

على لاحب لايهتدى بمناره (٢)

وانما اراد لا منارها هناك يهتدى به. وقد استوفينا ما في ذلك فيما مضى
” وقولهم قلوبنا غلف ” تقديره يقولون: قلوبنا عليها غشاوة وأغطية لانفقه ما تقول، ولانعلق
له، فاكذبهم الله في ذلك وقال الفراء والزجاج: معناه قلوبنا أوعية للعلم لانفقة ما تقول. وقد بينا
معنى الغلف فيما مضى. قوله: ” بل طبع الله عليها بكفرهم ” والمعنى كذبوا في قولهم قلوبنا
غلف ما هي بغلف، ولا عليها اغطية، بل طبع الله عليها بكفرهم. وقد بينا معنى الطبع فيما
مضى. وهو أنه السمة والعلامة وسم الله تعالى وعلم على قلوب قوم من الكفار الذين علم من
حالهم أنهم لا يؤمنون فيما بعد، وجعل ذلك عقوبة لهم على كفرهم الذي ارتكبه في الحال
تعرفه الملائكة. وقوله: ” فلا يؤمنون إلا قليلا ” معناه فلا يصدقون الا تصديقا قليلا. وإنما
وصفه بالقلّة لانهم لم يصدقوا على ما أمرهم الله به لكن صدقوا ببعض الانبياء، وبعض الكتب
وكذبوا بالبعض، فكان تصديقهم بما صدقوا به قليلا، لانهم، وان صدقوا به من وجه، فهم
يكذبون به من وجه آخر. ويجوز.

(١) سورة البقرة، آية ٢٦. (٢) انظرا: ١٨٩ - ٢٧٩ - ٤٤٤ (*)

(٣٨١)

أن يكون الاستثناء من الذين نفى الله عنهم الايمان فكانه علم انه يؤمن منهم جماعة قليلة فيما
بعد، فاستثناهم من جملة من اخبر عنهم انهم لا يؤمنون. وبهذه الجملة قال جماعة المفسرين:
قتادة وغيره. واختلفوا في قوله: ” فيما نقضهم ” هل هو متصل بما قبله من الكلام او منفصل
منه، فقال قتادة هو منفصل وقال لما ترك القوم أمر الله، وقتلوا رسله وكذبوا بآياته ونقضوا
ميثاقه طبع الله على قلوبهم بكفرهم، ولعنهم وقال قوم: بل هو متصل بما قبله. قالوا: معناه
فاخذتهم الصاعقة بظلمهم بنقضهم ميثاقهم، وبكفرهم بايات الله، وبقتلهم الانبياء بغير حق،
وبكذا وكذا أخذتهم الصاعقة، فتبع الكلام بعضه بعضا. ومعناه مردود على أوله، وجوابه قوله
” فبظلم ” من الذين قالوا الزجاج هو بدل من قوله: ” فيما نقضهم ” واختار الطبري الاول، وأنه
منفصل من معنى ما قبله والمعنى. فيما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بايات الله وبكذا وكذا لعناهم،
وغضبنا عليهم، فترك ذكر لعناهم لدلالة قوله: ” بل طبع الله عليها بكفرهم ” على معنى ذلك
من حيث كان من طبع على قلبه، فقد لعن وسخط عليه قال: وانما قلنا ذلك، لان الذين اخذتهم
الصاعقة كانوا على عهد موسى، الذين قتلوا الانبياء، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم،
وقالوا قتلنا عيسى، كانوا بعد موسى بدهر طويل، ومعلوم أن الذين اخذتهم الصاعقة لم تأخذهم
عقوبة على رميهم مريم بالبهتان، ولالقولهم: انا قتلنا المسيح فبان بذلك أن الذين قالوا هذه
المقالة غير الذين عوقبوا بالصاعقة.

وقوله: " وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً " معناه وبكفر هؤلاء الذين وصفهم، وقولهم على مريم بهتاناً يعني رميهم لها بالزنا، وهو البهتان وبفريتهم عليها، لانهم رموها وهي بريئة بغير بينه ولا برهان به بل هتوها بباطل القول.
وهو قول ابن عباس والسدي والضحاك.

(٣٨٢)

قوله تعالى:

(وقولهم اننا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً) (١٥٧) آية.

— المعنى —

هذه الآية عطف على ما قبلها وتقديره، فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بايات الله وقتلهم الانبياء بغير حق، وقولهم: قلوبنا غلف وقولهم اننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، أنزلنا من العذاب، وأوجبنا لهم من العقاب، لان اخبارهم انهم قتلوا المسيح يقينا، وما قتلوه، كفر من حيث هو جرأة على الله في قتل انبيائه، ومن دلت المعجزات على صدقه، ثم كذبهم الله في قولهم: اننا قتلناه فقال: " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ".

اختلفوا في كيفية التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى فقال وهب بن منبه: أنى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فاحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحر تمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لاصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة، فقال رجل منهم: انا، فخرج اليهم فقال: انا عيسى، وقد صيره الله على صورة عيسى، فاخذوه وقتلوه، وصلبوه. فمن ثم شبه لهم، وظنوا انهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وبه قال قتادة والسدي وابن اسحاق ومجاهد وابن جريج، وان اختلفوا في عدد الحواريين، ولم يذكر احد غير وهب ان شبهه ألقى على جميعهم، بل قالوا: ألقى شبهه على

(٣٨٣)

واحد، ورفع عيسى من بينهم قال ابن اسحاق: وكان اسم الذي القي عليه شبهه سرجس، وكان احد الحواريين، ويقال: ان الذي دلهم عليه وقال هذا عيسى أحد الحواريين أخذ على ذلك ثلاثين درهماً، وكان منافقاً، ثم انه ندم على ذلك فاختنق حتى قتل نفسه، وكان اسمه بودس زكريابوطا، وهو ملعون في النصارى، وبعض النصارى يقول: ان بودس زكريا بوطاهو

الذي شبه لهم فصوله، وهو يقول: لست بصاحبكم الذي دلتكم عليه. قال الطبري: الاقوى قول ابن المنبه، وهوان سبعة عشر القي على جماعتهم شبه عيسى، لانه لو كان ألقى على واحدمنهم مع قول عيسى ايكم يلقى عليه شبي له الجنة، ثم رأوا عيسى قد رفع من بين ايديهم لما اشتبه عليهم، وما اختلفوا فيه، وان جاز ان يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين لم يكونوا يعرفونه، لكن لما ألقى شبهه على جميعهم، فكان يرى كل واحد بصورة عيسى، فلما قتل واحد منهم اشتبه الحال عليهم. وهذا الذي ذكره قريب. وقال الجبائي: وجه التشبيه ان رؤساء اليهود اخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال، ولم يمكنوا احدا من الدنو منه فتغيرت طبيته وتكررت صورته.

وقالوا: قتلنا عيسى، ليوهموا بذلك على عوامهم، لانهم كانوا احاطوا بالبيت الذي فيه عيسى فلما دخلوه كان رفع عيسى من بينهم، فخافوا أن يكون ذلك سبب إيمان اليهود به، ففعلوا ذلك. والذين اختلفوا غير الذين صلبوا من صلبيه، وهم باقي اليهود، فان قيل: هل يجوز ان يلقى الله شبه زيد على عمر حتى لايفصل الناظر اليهما بينهما، كما كان يفصل قبل القاء الشبه؟ قيل: ذلك مقدور لله بلاخلاف، ويجوز ان يفعله عندنا تغليظا للمحنة، وتشديدا للتكليف، وان كان ذلك خارقا للعادة، يجوز أن يجعل ذلك معجزة أو كرامة، لبعض اوليائه الصالحين، أو الائمة المعصومين (ع). وعند المعتزلة لايجوز ذلك الا على يدي الانبياء أو في وقتهم، لانه لايجوز خرق العادة عنهم إلا على يده. وقد قيل: إن اصحاب عيسى (ع) تفرقوا عنه حتى لم يبق غير عيسى، وغير الذي القي شبهه عليه، فلذلك

(٣٨٤)

اشتبه على النصارى، فان قيل: كيف يجوز من الخلق العظيم ان يخبروا بالشئ على خلاف ما هو به، وقد علمنا كثرة اليهود والنصارى، ومع كثرتهم اخبروا ان عيسى صلب وقتل، فكيف يجوز ان يكونوا مع كثرتهم كذابين؟ ولئن جاز هذا لم نتق بشئ من الاخبار اصلا ويؤدي ذلك إلى قول السنمية! قلنا: هؤلاء القوم دخلت عليهم الشبهة، لان اليهود لم يكونوا يعرفون عيسى، وانما اخبروا انهم قتلوا واحدا، وقيل لهم انه عيسى، فهم في ذلك صادقون، وان لم يكن المقتول عيسى. وأما النصارى فاشتبه عليهم، لانه كان ألقى شبهه على غيره، فلما رأوا من هو في صورته مقتولا، ظنوا انه عيسى، فلم يخبر احد من الفريقين بما ظن ان الامر على ما اخبر به، فلايؤدي ذلك إلى بطلان الاخبار بحال.

وقوله: " وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا " يعني به الذين احاطوا بعيسى واصحابه حيث أرادوا قتله لانهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحدا منهم، فالتبس عليهم امر عيسى بفقدهم واحدا من العدة،

وقتلوا من قتلوا على شك منهم في امر عيسى. هذا على قول من قال: لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود واما من قال تفرقوا عنه، فانه يقول: اختلافهم كان بأن عيسى هل كان في من بقي في البيت أو كان في الذين خرجوا. فاشتبه الامر عليهم. قال الزجاج: وجه اختلاف النصرى أن: منهم من ادعى انه له لا يقتل، ومنهم من قال قتل، فكذب الله الجميع. وقوله: " إلا اتباع الظن " استثناء منقطع. وتقديره لم يكن لهم بمن قتلوه علم لكنهم اتبعوه ظنا منهم انه عيسى، ولم يكن به.

وقوله: " وما قتلوه يقينا " معناه " وما قتلوا ظنهم الذي اتبعوا المقتول الذي قتلوه، وهم يحسبونه عيسى يقينا إنه عيسى، ولانه غيره، لكنهم كانوا منه على ظن وشبهة، كما يقول القائل: ما قتلت هذا الامر علما، وما قتلته يقينا: إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين. فالهاء في (قتلوه) عائدة على الظن. وقال ابن عباس وجوبير

(٣٨٥)

وما قتلوا ظنهم يقينا. وحكى الزجاج عن قومهم: أن الهاء. راجعة إلى عيسى (ع). نفى الله عنه القتل على وجه التحقيق واليقين. وقال السدي: وما قتلوا أمره يقينا إن الرجل هو عيسى (ع) وقوله: " بل رفعه الله اليه " يعني بل رفع الله المسيح اليه، ولم يقتلوه، ولم يصلبوه، لكن الله رفعه وطهره من الذين كفروا وقوله: " كان الله عزيزا حكيما " معناه " لم يزل الله عزيزا منتقما من اعدائه كانتقامه من الذين اخذتهم الصاعقة بظلمهم، وكلعنه من نقض ميثاقه وفعل ما قصه الله، حكيما في افعاله وتدابيراته وتصريفه خلقه في قضائه، واحذروا أيها السائلون محمدا ان ينزل عليكم كتابا من السماء - حلول عقوبته بكم، كما حل باوائلكم الذين فعلوا فعلكم في تكذيبهم رسلي وأقترائهم على اوليائي. وبه قال ابن عباس. وقوله: " بل رفعه الله ".

— القراءة والحجة —

في القراء من ادغم اللام في الراء وعليه الاكثر. وهو الاقوى لقرب مخرج اللام من مخرج الراء. وهو أقوى من ادغام الراء في اللام، لان في الراء تكويرا فهو يجري مجرى الحرفين. ومن لم يدغم قال: لانه من كلمتين. وقال الفراء: لا يجوز غير الادغام. وقال سيبويه: الادغام اجود وتركه جائز وهي لغة حجازية.

وقوله: " بل رفعه الله اليه " معناه انه رفعه إلى الموضع الذي يختص الله (تعالى) بالملك، ولم يملك احدا منه شيئا. وهو السماء، لانه لا يجوز ان يكون المراد انه رفعه إلى مكان هو

(تعالى)، فيه لان ذلك من صفات الاجسام (تعالى الله عن ذلك) وعلى هذا يحمل قوله حكاية عن ابراهيم " إني ذاهب إلى ربي " يعني إلى الموضع الذي امرني به وربي ومثل قوله: " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله " يعني مهاجرا إلى الموضع الذي أمره الله بالهجرة اليه.

(٣٨٦)

قوله تعالى:

(وان من اهل الكتاب الاليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) (١٥٨) آية.
معنى (ان) معنى (ما) النافية وموضعها الرفع وهي مثل قوله: " وإن منكم إلا واردها " أي ما منكم احد إلا واردها. ومعنى الآية الاخبار منه (تعالى)
بانه إلا ليؤمنن به يعني بعيسى قبل موته واختلفوا في الهاء إلى من ترجع فقال قوم: هي كناية عن عيسى، كانه قال: لا يبقى احد من اليهود الا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى بأن ينزله الله إلى الارض إذا اخرج المهدي (عج) وانزله الله لقتل الدجال، فتصير الملل كلها ملة واحدة، وهي ملة الاسلام الحنيفية دين ابراهيم (ع). ذهب اليه ابن عباس وأبومالك والحسن وقتادة، وابن زيد وذلك حين لا ينفعم الايمان. واختاره الطبري. قال: والآية خاصة لمن يكون في ذلك الزمان وهو الذي ذكره علي بن ابراهيم في تفسير أصحابنا. وروى شهر بن حوشب عن محمد بن علي بن الحنفية ان الحجاج سأله عن هذه الآية وقال: نرى اليهود تضرب رقبتهم، فلا يتكلم بشئ فقال: حدثني محمد بن علي أن الله يبعث اليه ملكا يفضه ويضرب رأسه ودبره، ويقول له: كذبت عيسى، فيؤمن حينئذ ويقول: كذبت عيسى ويعترف به. فقال الحجاج: عمن؟ فقال: عن محمد بن علي فقال له، جئت بها من عين صافية. فقيل لشهرما أردت بذلك؟ قال: اردت ان اغيظه وذكره البلخي مثل ذلك وضعف هذا الوجه الزجاج وقال: الذين يبقون إلى زمن نزول عيسى (ع)
من أهل الكتاب قليل. والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب أجمع قال: إلا ان تحمل على ان جميعهم يقول: ان عيسى الذي ينزل لقتل الدجال نحن نؤمن به فعلى هذا يجوز. واختار الوجه الثاني وقال قوم: الهاء كناية عن الكتابي، وتقديره أنه لا يكون احد من أهل الكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى عند

(٣٨٧)

موته إذا زال تكليفه، وتحقق الموت، ولكن لا ينفعه الايمان حينئذ ذهب اليه ابن عباس في رواية أخرى، ومجاهد قال ابن عباس: لو ضربت رقبتهم لم تخرج نفسه حتى يؤمن وبه قال

عكرمة والضحاك. وفي رواية عن الحسن وقتادة وقال قوم: الهاء كناية عن محمد (صلى الله عليه وآله) والتقدير وليس من أهل الكتاب إلا من يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) قبل موت الكتابي ذهب إليه عكرمة وطعن الطبري على هذا الوجه بل قال: لو كان ذلك صحيحا لما جاز اجزاء احكام الكفار عليهم إذا ماتوا من ترك الصلاة عليهم. ومنع المدافنة والموراثه. وغير ذلك. ووجب اجراء حكم الاسلام عليهم. وهذا الذي ذكره ليس بشئ لان ايمانهم بمحمد (صلى الله عليه وآله) انما يكون في حال زوال التكليف، فلا حكم لذلك الايمان. وذلك مثل ايمان فرعون حين غرق وقال:

" امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل " فقال الله تعالى له: " الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين " فكذاك ايمان هؤلاء لايعتد به، وانما يضعف هذا الجواب من حيث انه لم يجز لمحمد (صلى الله عليه وآله) ذكر فيما تقدم، ولا هاهنا ضرورة موجبة لرد الكناية عليه. وما هذه صورته لا تجوز الكناية عنه. وانما قلناه في قوله: حتى توارت بالحجاب إنها كناية عن الشمس للضرورة، لانه يتحمل سواها.

وقد جرى ذكر عيسى والكتابي فامكن ان يكون كناية عن كل واحد منهما، فلا يجوز العدل عنه وقوله " ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " قال قتادة وابن جريح: يكون عيسى عليهم شهيدا على أنه قد بلغ رسالة ربه، وافر على نفسه بالعبودية مكذبا من كذبه ومصدقا من صدقه. قوله تعالى:

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ما احل لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٥٩) واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا

(٣٨٨)

اليمان) (١٦٠) آيتان - هاتان الآيتان معطوفتان على ما تقدم. قال الزجاج: قوله: " فبظلم " بدل من قوله: " فبما نقضهم ميثاقهم " والعامل في الياء قوله: " حرمنا عليهم طيبات " لما طال الكلام أجمل (تعالى) ما ذكره هاهنا في قوله: فبظلم واخبر انه حرم على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذين واتقوا الله عليه، وكفروا باياته، وقتلوا أنبياءه، وقالوا، البهتان على مريم وفعلوا ما فعلوا مما وصفه الله في كتابه طيبات من المأكل وغيرها، وكانت لهم حلالا، عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه لانهم لما فعلوا ما فعلوا، اقتضت المصلحة تحريم هذه الاشياء عليهم. وهو قول مجاهد واكثر المفسرين. وقوله: " وبصدهم عن سبيل الله كثيرا " يعنى بمنعهم عباد الله عن دينه وسبيله التي شرعها لعباده صدا كثيرا، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل، وادعائهم ان ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله وتحريفهم معانيه عن وجوهه. ومن أعظم ذلك جردهم نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وتركهم

بيان ما قد عملوا من امره من جهل امره من الناس، وهو قول مجاهد وغيره. وقوله: " وأخذهم الربا " يعني على رؤوس أموالهم بتأخيرهم له عن محله إلي محل آخر وقد نهوا عنه يعني عن الربا، وأكلهم اموال الناس بالباطل يعني بخير استحقاق، ولا استيجاب. وهو ما كانوا يأخذونه من الرشا على الاحكام، كما قال تعالى: " واكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون " ومنه ما كانوا يأخذونه من اثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ويقولون هذا من عندالله، وما اشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله تعالى على جميع ذلك بتحريم ما حرم عليهم من الطيبات. وقوله: " واعتدنا للكافرين منهم عذابا " معناه وجعلنا للظالمين أنفسهم بكفرهم بالله، وجددهم رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) من هؤلاء اليهود العذاب الاليم. وهوالمؤلم الموجه يصلونها في الاخرة عدة لهم. قال ابوعلي: حرم الله (تعالى) هذه الطيبات على الظالمين منهم عقوبة لهم على ظلمهم ومن لم يكن ظالما منهم نسخه منهم اما على لسان عيسى أو علي لسان محمد (صلى الله عليه وآله)

(٣٨٩)

نبينا وهوما حرمه من كل ذي ناب من السباع ومخالب من الطير، وغير ذلك مما ذكره في قوله: " وعلى الذين هاد واحرمانا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمانا عليهم شحومهما إلي قوله.. ذلك خزيناهم ببغيهم " فهذا البغي هوالظلم الذي ذكره هاهنا. قوله تعالى:

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما) (١٦١) آية. استثنى الله تعالى من اليهود الذين وصف صفتهم فيما مضى من الآيات في قوله: يسألك اهل الكتاب إلى هاهنا من هداه الله لدينه، ووفقه لرشده فقال:

" لكن الراسخون " وهم الذين رسخوا في العلم وثبتوا فيه. وقد مضى معنى الرسوخ فيما مضى في العلم الذي جاء به الانبياء، واحكام الله التي ادوها إلى عباده، والمؤمنون بالله. ورسوله منهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزله الله اليك يامحمد (صلى الله عليه وآله) وبالكتب التي انزلها على من قبلك من الانبياء، والرسل، ولا يسألونك ما يسأل هؤلاء الجهال من انزال كتاب من السماء، ولانهم قد علموا صدق قولك بما قرأوا من الكتب التي انزلها على الانبياء، ووصفك فيها وأنه يجب عليهم اتباعك، فلا حاجة بهم إلى ان يسألوك معجزة اخرى، ولادلالة غير ما علموا من امرك بالعلم الراسخ في قلوبهم وهو قول قتادة والمفسرين. وقوله: " والمقيمين الصلاة " اختلفوا هل هم الراسخون في العلم أو غيرهم؟ فقال قوم: هم هم. واختلف هؤلاء في إعرابه ومخالفته لاعراب الراسخين فقال قوم منهم: هو غلط من الكتب وانما هو،

لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون والمقيمون الصلاة ذكر ذلك حماد بن سلمة عن الزبير. قال: قلت لابان بن عثمان بن عفان. ما شأنها كتبت لكن الراسخون في العلم

(٣٩٠)

منهم والمؤمنون والمقيمون الصلاة فقال: قال: إن الكاتب لما كتب لكن الراسخون في العلم منهم إلى قوله: من قبلك قال: ما اكتب؟ قيل له: اكتب والمقيمون الصلاة.

وروى عروة بن الزبير قال: سألت عائشة عن قوله: " والمقيمون الصلاة "، وعن قوله: " والصابئون " وعن قوله: " ان هذان " فقالت: يابن اخي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتابة وفي مصحف ابن مسعود (والمقيمون الصلوة) وقال الفراء أو الزجاج وغيرهما من النحويين: هو من صفة الراسخين، لكن لما طال، واعترض بينهما كلام نصب المقيمون على المدح وذلك سائغ في اللغة كما قال في الآيات التي تلونها، وفي قوله: " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء " وقال اخرون: هو من صفة الراسخين في العلم هاهنا، وان كان الراسخون في العلم من المقيمون. قالوا: وموضع (المقيمون) خفض عطا على ما في قوله: يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك، ويؤمنون بالمقيمون الصلاة.

والمعنى يؤمنون باقام الصلاة وقوله: والمؤتون الزكاة. قالوا: عطف على قوله: " والمؤمنون " وقال اخرون المقيمون الصلاة هم الملائكة. واقامتهم للصلاة تسبيحهم ربهم، واستغفارهم لمن في الارض. ومعنى الكلام والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزله من قبلك، وبالملائكة. واختاره الطبري. قال لانه في قراءة أبي كذلك، وكذلك هو في مصحفه. فلما وافق مصحفه لمصحفنا ذلك على انه ليس بغلط. وقال اخرون: المعنى المؤمنون يؤمنون بما انزل اليك، وما انزل من قبلك، ويؤمنون بالمقيمون الصلاة، وهم الائمة المعصومون، والمؤتون الزكاة، كما قال: يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين. وانكروا النصب على المدح. قالوا: وانما يجوز ذلك بعد تمام خبره قالوا وخبر الراسخين قوله: " اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما " فلايجوز نصب المؤمنين على المدح في وسط الكلام قبل تمام الخبر. واختار الزجاج ذلك. قال:

يجوز ان تقول مررت بزيد كريم. بالجر والنصب والرفع: النصب على المدح، والخفض على الصفة، والرفع على تقدير هو الكريم. وانشد في النصب على المدح

(٣٩١)

يت خرناق:

لايبعدن قومي الذين * هم سم العداة وافة الجزر

النازليين بكل معتزك * والطيبون معاقدا الازر

على معنى اذكر النازليين وهم الطيبون. ولو نصب لكان جائزا. وقال قوم

المعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة قالوا فموضعه خفض. وقال:

قوم: المعنى يؤمنون بما أنزل. اليك وإلى المقيمين الصلاة وهذا الوجهان الاخيران ضعيفان عند النحويين، لانه لا يكاد يعطف ظاهر على مكنى.

قوله: " اولئك سنوتيتهم اجرا عظيما " إشارة إلى هؤلاء الذين وصفهم الله فاخبر أنه سيعطيهم اجرا أي ثوابا، وجزآء على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره من الخلود في الجنة. وقيل من جملة الراسخين: عبدالله بن سلام وابن يامين وابن سوريا، واسد وثعلبة، وسلام وغيرهم من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله).

قوله تعالى:

(إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داود زبوراً) (١٦٢) آية.

القراءة والحجة

قرأ حمزة وخلف (زبوراً) بضم الزاي. الباقرن بفتحها حيث وقعت من ضم الزاي احتمل ذلك وجهين: احدهما أن يكون جمع زبر، فوقع على المزبور الزبر.

كما قيل: ضرب الامير ونسج اليمن. كما يسمى المكتوب الكتاب، ثم جمع الزبر على زبور لوقوعه موقع الاسماء التي ليست مصادر، كما يجمع الكتاب كتب، فلما استعمل استعمال الاسماء، قالوا: زبور والوجه الآخر ان يكون جمع زبور يحذف الزيادة على زبور، كما قالوا: ظريف وظروف، وكروان وكروان، وورشان

(٣٩٢)

ورشان ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة يدل على قوة هذا ان التكسير مثل التصغير. وقد اطردها هذا الحذف في ترخيم التصغير نحو ازهر وزهير، وحارث وحريث وثابت وثبيت والجمع مثله في القياس، وإن كان اقل منه في الاستعمال، ومن فتح الزاي أراد الكتاب المنزل على داود (ع) كما سمي المنزل على موسى التوراة، والمنزل على عيسى الانجيل، والمنزل على محمد (صلى الله عليه وآله) الفرقان.

— المعنى —

قال الحسين بن علي المغربي: زبور جمع زبور ومثله تخوم وتخوم وعذوب وعذوب قال: ولا يجمع فعول - بفتح الفاء - على فعول - بضم الفاء - إلا هذه الثلاثة فيما عرفنا. والزبر

احكام العمل في البئر خاصة يقال: بئر مزبورة: اذا كانت مطوية بالحجارة. ويقال: ما لفلان زبراي عقل. وزبر الحديد: قطعة واحدها زبرة.
ويقول زبرت الكتاب ازبره زبرا مثل اذبره ذبرا - بالذال المعجمة -.

— المعنى —

هذا خطاب من الله للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله: إنا اوحينا اليك يا محمد أي ارسلنا اليك رسلنا بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح وسائر الانبياء الذين سميناهم لك من بعد والذين لم نسّمهم لك. وقيل: إن هذه الآية نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) لان بعض اليهود لما فضحهم الله بالآيات - التي انزلها على رسوله (صلى الله عليه وآله) من عند قوله:
" يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء، وما بعده " فتلا ذلك عليهم رسول الله، قالوا: ما انزل الله على بشر من شيء بعد موسى، فانزل الله هذه الآيات تكذيبا لهم، واخبر نبيه والمؤمنين بها انه قد انزل على من بعد موسى من الذين سماهم في هذه الآية وعلى من لم يسمهم وهو قول ابن عباس. وقال آخرون بل قالوا لما انزل الله الايات التي قبل هذه في ذكرهم: ما انزل الله على بشر من

(٣٩٣)

شيء، ولاعلى عيسى. ذهب اليه محمد بن كعب القرطبي وفيه نزل قوله: " وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء " والاسباط في ولد اسحاق كالثبائل في اولاد اسماعيل. وقد بعث منهم عدة رسل: كيوسف وداود وسليمان، وموسى وعيسى، فيجوز ان يكون اراد بالوحي اليهم الوحي إلى الانبياء منهم، كما تقول: ارسلت إلى بني تميم، وإن ارسلت إلى وجوههم وليس يصح عندنا ان الاسباط الذين هم اخوة يوسف، كانوا انبياء.
قوله تعالى:

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) (١٦٤)
آية بلاخلاف.

— الاعراب والمعنى —

يحتمل نصب (ورسلا) امرين:

احدهما - على قول الفراء - انا اوحينا اليك كما اوحينا إلى نوح، والى رسل قد قصصناهم عليك، ورسلا لم نقصصهم عليك. فلما حذف إلى نصب رسلا. وقال الزجاج: تقديره انه لما قال: " إنا اوحينا " كان معناه ارسلناك رسولا عطف على ذلك، فقال: ورسلا. وتقديره وارسلنا رسلا، فعطف الرسل على معنى الاسماء قبلها في الاعراب كما قال الشاعر:

أوحيت بالخبز له ميسرا * والبيض مطبوخا معا والسكر
لم يرضه ذلك حتى يشكرا والوجه الثاني - أن يكون نصبا بفعل يفسره ما بعده، ويتلوه، وهو
اختيار الزجاج. وتقديره وقصصنا عليك رسلا قد قصصناهم عليك، كما قال: " والظالمين
اعدلهم " والتقدير واعد للظالمين اعدلهم عذابا اليما.
وقرأ ابي ورسل - بالرفع - لما كان في الفعل عائد اليهم، وهو قوله:

(٣٩٤)

" وقد قصصناهم عليك " وقوله:

" وكلم الله موسى تكليما " نصب تكليما على المصدر وفائدة وكلم الله موسى بلا واسطة
خصوصا من بين سائر الانبياء كلمهم الله بواسطة الوحي وقيل: إنما قال ذلك، ليعلم، ان كلام
الله من جنس هذا المعقول الذي يشقق من التكلم على خلاف مايقول المبطلون. وقيل انما اتى
بالمصدر تأكيدا. وقيل: انما أراد بذلك تعظيم كلامه، كانه قال: كلم الله موسى تكليما شريفا كما
قال: " فغشيه من اليم ما غشيه " يريد بذلك تعظيم ما غشيه من الالهال فاما قول من قال:
ان الله كلم موسى باللغات كلها التي لم يفهمها. فلما كان آخر شئ كلمه بكلام فهمه، فان ذلك
لايجوز عليه تعالى، لان خطاب من لايفهم خطابه عبث يجري مجرى قبج خطاب العربي
بالزنجية، والله (يتعالى عن ذلك) قال البلخي: وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث من
حيث انه كلم موسى خاصة دون غيره من الانبياء، وكلمه في وقت دون وقت، ولو كان الكلام
قدما ومن صفات ذاته لم يكن في ذلك اختصاص ومن فصل بين الكليم والتكلم، فقد ابعد لان
المكلم لغيره لا يكون الامتكلم، وان كان يجوز ان يكون متكلما وان لم يكن مكلما فالمتكلم
يجمع الامرين.

قوله تعالى:

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة، بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)
(١٦٥) آية بلاخلاف.

نصب (رسلا) على القطع من اسماء الانبياء الذين ذكر اسماءهم (مبشرين)
نصب على الحال. والتقدير أرسلت هؤلاء الانبياء رسلا إلى خلقي وعبادي مبشرين بثوابي من
اطاعني وصدق رسلي (ومنذرين) يعني مخوفين من عقابي من عصاني وخالف أمري، وكذب
رسلي " لئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل " وقال

(٣٩٥)

ابوعلي: ذلك مخصوص بمن علم الله من حاله أن له في بعثه الانبياء لطفًا، لانه إذا كان كذلك متى لم يبعث اليهم نبيا يعرفهم ما فيه لطفهم، كان في ذلك اتم الحجة عليه (تعالى) وذلك يفسد قول من قال: في مقدوره من اللطف ما لو فعله بالكافر لآمن به، لانه لو كان الامر على ما قالوه، لكانت لهم الحجة بذلك على الله (تعالى)

قائمة. فاما من لم يعلم من حاله ان له في انفاذ الرسل اليه لطفًا، فالحجة قائمة عليه بالعقل، وأدلته على توحيده، وصفاته وعدله، ولولم تقم الحجة بالعقل ولاقامت إلا بانفاذ الرسل، نفسد ذلك من وجهين:

أحدهما - ان صدق الرسل لايمكن العلم به الابعد تقدم العلم بالتوحيد والعدل فان كانت الحجة، لم تقم عليه بالعقل فكيف الطريق له إلى معرفة النبي (صلى الله عليه وآله) وصدقه.

والثاني - انه لوكانت الحجة لاتقوم الابالرسول لاحتاج الرسول أيضا إلى رسول آخر حتى تقوم عليه الحجة. والكلام في رسوله كالكلام في هذا الرسول ويؤدي ذلك إلى مالا يتناهى. وذلك فاسد فمن استدل بهذه الآية على ان التكليف، لايصح بحال الابعد انفاذ الرسل، فقد ابعد على ما قلناه. وقوله: " وكان الله عزيزا حكيما " معناه انه مقتدر على الانتقام ممن يعصيه ويكفر به لايمنعه منه مانع لعزته حكيم فيما امر به خلقه وفي جميع افعاله.

قوله تعالى:

(كن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) (١٦٦) آية.
قال الزجاج: الرفع مع تخفيف (لكن) والنصب مع تشديده جائز، لكن لم يقرأ بالتشديد احد.
ومعنى " لكن الله يشهد " أي يبين ما تشهد به ويعلم مع ابانته انه حق.

(٣٩٦)

" والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا " دخلت الباء مؤكدة. والمعنى اکتفوا بالله في شهادته والمعنى في الآية ان هؤلاء اليهود الذين سألوك ان ينزل عليهم كتابا من السماء وقالوا لك ما أنزل الله على بشر من شيء، قد كذبوا ليس الامر كما قالوا، لكن الله يشهد بتنزيل ما انزله اليك من كتابه ووحيه انزل ذلك اليك، وهو عالم بانك خيرته من خلقه، وصفوته من عباده يشهد لك بذلك ملائكته، فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك " وكفاك بالله شهيدا " أي حسبك بالله شاهدا على صدقك، دون ما سواه. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كان النبي (صلى الله عليه وآله) دعاهم إلى اتباعه، واخبرهم أنهم يعلمون حقيقته نبوته فجدوا نبوته، وانكروا معرفته، فانزل الله فيهم هذه الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتعزية له عن تكذيب من كذبه. ومن استدل بهذه الآية على انه تعالى عالم بعلم، فقد اخطأ لان، قوله بعلمه معناه، وهو عالم به. ولو كان المراد بذلك ذاتا اخرى، لوجب ان يكون العلم

آلة في الانزال، كما يقولون كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، ونجرت بالفاس. ولاخلاف ان العلم ليس بآلة في الانزال. وقال الزجاج معناه إنزال القرآن الذي علمه فيه. وهو اختيار الازهري. قوله تعالى:

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) (١٦٧) آية المعنى:
ان الذين جحدوا نبوتك بعد علمهم بها من أهل الكتاب الذين ذكر قصتهم، وانكروا ان الله تعالى أوحى اليك وانزل كتابه عليك، وصدوا عن سبيل الله يعني عن الدين بعثك به الي خلقه. وهو الاسلام بقولهم للذين يسألونهم

(٣٩٧)

عن صحة نبوتك ما نجد صفة محمد (صلى الله عليه وآله) في كتبنا، وادعأؤهم عهد إليهم ان النبوة لاتكون إلا في ولد هارون. ومن ذرية داود، وماشبه ذلك فقد ضلوا ضلالا بعيدا يعني جاروا عن قصد الطريق جورا شديدا، وزالوا عن المحجة التي هي دين الله الذي ارتضاه لعباده وبعثك به الي خلقه زوالا بعيدا، ابعدوا من الرشاد. قوله تعالى:

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) (١٦٩) آيتان.

هذا خبر من الله تعالى بان الذين جحدوا رسالة محمد (صلى الله عليه وآله) كفروا بالله، وجحدوه بجحودهم رسالة نبيه وظلموا نبيه بتكذيبهم اياه، ومقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم عباد الله، وحسدا للعرب، وبغيا على رسوله " لم يكن ليغفر لهم " يعني لم يكن الله ليغفو عن ذنوبهم بترك عقابهم عليها، لكنه تعالى يفضحهم بها (جل ثأؤه) بعقوبته إياهم عليه، ولاليهديهم طريقا يعني لاليهديهم لطريق الجنة، لان الهداية إلى طريق الايمان قد سبقت، وقد عم الله ايضا بها جميع المكلفين. ويحتمل ان يكون المراد لم يكون الله يفعل بهم ما يؤمنون عنده في المستقبل عقوبة لهم على كفرهم الماضي، واستحقاقهم حرمان ذلك، وانه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم، ويكون المعنى لم يكن الله ليوفقهم للاسلام، لكنه يخذلهم عنه إلى طريق جهنم جزاء لهم على ما فعلوه من الكفر خالدين فيها مقيمين ابدا " وكان ذلك على الله يسيرا " المعنى وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم على الله يسيرا، لانه تعالى إذا أراد ذلك به لم يقدر على الامتناع منه، ولايصعب عليه عقاب من يعصيه، فذلك كان يسيرا عليه.

(٣٩٨)

قوله تعالى:

(ياايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فأمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان الله ما في السماوات والارض وكان الله عليما حكيما) (١٧٠) آية بلاخلاف.

خاطب الله بهذه الآية جميع الكفار الذين لم يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) من مشركي العرب، وجميع اصناف الكفار، وبين انه قد جاءهم الرسول - يعني محمد (صلى الله عليه وآله) - بالحق من ربكم - يعني بالاسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديننا من ربكم. يعني من عند ربكم " فامنوا خيرا لكم " معناه صدقوه وصدقوا ما جاءكم به من عند ربكم من الدين فان الايمان بذلك خير لكم من الكفر " وان تكفروا " اي تجحدوا نبوته وتكذبوا رسالته وبما جاء به من عند الله فان ضرر ذلك يعود عليكم دون الله تعالى الذي له ملك السماوات، لاينقص كفركم بما كفرتم به من امره، وعصيانكم فيما عصيتموه فيه من ملكه وسلطانه شيئا. " وكان الله عليما " بما انتم صائرون اليه من طاعته أو معصيته " حكيما " في امره اياكم ونهيه عما نهاكم عنه وفي غير ذلك من تدبيره فيكم، وفي غيركم من خلقه.

الاعراب -: واختلفوا في نصب " خيرا لكم " فقال الخليل، وجميع البصريين: إن ذلك محمول على المعنى، لانك إذا قلت: انته خيرا لك، فانت تدفعه عن امر، وتدخله في غيره، كانك قلت: انته وات خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك وانشد الخليل وسيبويه قول عمر بن ابي ربيعة:

فواعديه سرحتي مالك * او الربا بينهما اسهلا

وتقديره وأني مكانا اسهلا وقال الكسائي: انتصب يخرجوه من الكلام. قال:

(٣٩٩)

وهذا تفعله العرب في الكلام التام، نحو قولك لتقو من خيرا لك، وانته خيرا لك، فاذا كان الكلام ناقصا، لم يخبر غير الرفع تقول: ان تنته خير لك، وان تصبروا خير لكم. وقال الفراء انتصب ذلك لانه متصل بالامر وهو من صفته. الا ترى انك، تقول: انته هو خير لك؟ فما اسقطت هو اتصل بما قبله، وهو معرفة فانتصب وقال ابو عبيدة: انتصب ذلك على اضمار كان، كانه قال: فامنوا يكن الايمان خيرا لكم. قال: وكذلك كل امر ونهي قال الفراء: يلزم على ذلك ما يبطله. ألا ترى انك تقول: اتق الله تكن محسنا، ولا يجوز ان تقول: اتق الله محسنا باضمار كان، ولا يصلح ان تقول: انصرنا اخانا، وانت تريد تكن اخانا. وقال قوم. انتصب ذلك بفعل مضمر اكتفى في ذلك المضمر بقوله: لاتفعل ذلك وافعل صلاحا لك.

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلًا) (١٧١) آية واحدة.

هذا خطاب من الله تعالى لاهل الكتاب الذي هو الانجيل وهم النصارى نهاهم الله (تعالى) ان يغلوا في دينهم بان يجاوزوا الحق فيه، ويفرطوا في دينهم، ولا يقولوا في عيسى غير الحق، فان قولهم في عيسى انه ابن الله قول بغير الحق، لانه (تعالى) لم يتخذ ولدا فيكون عيسى أو غيره من خلقه ابناله، ونهاهم ان يقولوا على الله. الاالحق، وهو الاقرار بتوحيده، وانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد.

واصل الغلو في كل شئ تجاوز حده يقال: غلا فلان الدين يغلو غلوا. وغلا

(٤٠٠)

بالجارية عظمها ولحمها: إذا انسرعت الشباب، وتجاوزت لذاتها. يغلو بها غلوا وغلاء قال الحارث بن خالد المخزومي:

خمصانة فلق موشحها * رود الشباب غلابها عظم (١)

وقوله: انما المسيح عيسى بن مريم، فأصل المسيح المموح - نقل من مفعول إلى فاعيل. سماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب، وقيل مسح من الذنوب والادناس التي تكون في الادميين كما يمسح الشئ من الأذى الذي يكون فيه. وهو قول مجاهد. وقال ابو عبيدة: هذه الكلمة عبرانية أو سريانية مشيحا، فعربت فقيل المسيح، كما عرب سائر أسماء الانبياء في القرآن، نحو اسماعيل واسحاق وموسى وعيسى. وقال قوم ليس هذا مثل ذلك، لان اسماعيل واسحاق وما اشبههما اسماء، لاصفات. والمسيح صفة ولا يجوز ان يخطب العرب وغيرها من اجناس الخلق في صفة شئ إلا بما يفهم، فعلم بذلك انها كلمة عربية وقال ابراهيم: المسيح المسيح الصديق واما المسيح الدجال فانه ايضا بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فاعيل فمعنى المسيح في عيسى (ع) الممسوح البدن من الادناس والآثام. ومعنى المسيح في الدجال الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك، وقوله:

رسول الله اخباره منه (تعالى) ان المسيح أرسله الله وجعله نبيا. وقوله: (كلمته القاها إلى مريم) فانه يعني بالكلمة الرسالة التي امر الله ملائكته أن يأتي بها بشارة من الله (تعالى) لها التي ذكرت في قوله: " قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه " يعني برسالة منه وبشارة من عنده وقال قتادة والحسن: هو قوله: " كن فكان " واختار الطبري الاول وقال

الجبائي: ذلك مجاز، وانما اراد بالكلمة انهم يهتدون بعيسى، كما يهتدون بكلامه. وكذلك يحيون به في دينهم كما يحيى الحي بالروح، فلذلك سماه روحا.

(١) - اللسان (علا) - مجاز القرآن ١: ١٤٣ وفي الاغاثي (علا) بدل (فلا).
خصماتة بفتح الحاء وضعا - ضامرة البطن. رُود الشباب شابة حسنة. (*).

(٤٠١)

وقوله: " القاها إلى مريم " فمعناه اعلمها بها واخبرها كما يقال القيت اليك كلمة حسنة بمعنى اخبرتك بها. وقال الجبائي: معنى القاها إلى مريم خلقه في رحمها.
وقوله: " وروح منه " اختلفوا فيه على ستة اقوال:
فقال، قوم: معناه ونفحة منه وسماء روحا، لانه حدث عن نفحة جبرائيل في درع مريم بامر الله له بذلك، ونسب إلى الله، لانه كان بامرهم. وانما سمي النفخ روحا، لانها ريح تخرج من الروح. واستشهدوا على ذلك قول ذي الرمة - واسمه غيلان - في صفة نار نفثها.
فلما بدت كنفنتها وهي طفلة * بطلساء لم تكمل ذراعا ولاشبرا.
وقلت له: ارفعها اليك واحيها * بروحك واقتتها لها قبيلة قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت، واستعن * عليها الصبا واجعل يديك لهاسترا (٢).
معنى احياها بروحك اي بنفخك. وقال بعضهم: معناه انه كان انسانا باحياء الله اياه بتكوينه بلاواسطة من جماع، ونطفة على مجرى العادة.
وقال قوم: قوله: " وروح منه " معناه ورحمة منه. كما قال في موضع:
" وايدهم بروح منه " ومعناه ورحمة منه. قال: فجعل الله عيسى رحمة على من اتبعه، وأمن به وصدقه، لانه هداهم إلى سبيل الرشاد.
وقال آخرون: معنى ذلك وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم، فدخلت في فيها فصيرها الله تعالى روح عيسى ذهب اليه ابو العالية عن أبي ابن كعب.

(١) - ديوانه. واللسان (روح) يصف نارا طلساء خرقة اقتتها...: (نفخ بها برفق) الشحت: الدقيق من كل شئ. (*).

(٤٠٢)

وقال بعضهم: ان معنى الروح - هاهنا - القوة التي كان بها يحيى الموتى قال الراجز:
اذعرج الليل بروح الشمس وقال قوم: معنى الروح هاهنا جبرائيل. قالوا: والروح معطوفة به على ما في قوله من ذكر الله تعالى. والمعنى ان القاء الكلمة إلى مريم كان من الله تعالى.

ثم من جبرائيل. وقوله: " فامنوا بالله ورسله " امر من الله اياهم بتصديق الله تعالى، والاقرار بوحدانيته، وتصديق رسله فيما جاؤا به من عندالله، وفيما اخبرهم به أن الله لا شريك له، ولاصاحبة ولاولدا.

وقوله: " ولاتقولوا ثلاثة انتهوا " نهى لهم عن أن يقولوا الارباب ثلاثة، وانما رفع ثلاثة بمحذوف دل عليه ظاهر الكلام. وتقديره ولاتقولوا: هم ثلاثة.

وانما جاز ذلك، لان القول حكاية ومثل ذلك قوله: " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم " (١) وكذلك كلما ورد من مرفوع بعد القول لارافع معه ففيه اضمار اسم رافع لذلك الاسم، ثم قال متوعدا لهم على عظيم قولهم الذي قالوه في الله: انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عما تقولون من الزوج والشرك بالله، والانتهاء عن ذلك خير لكم من قولكم لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قولكم ذلك ان أقمتم عليه، ولم ترجعوا إلى الحق.

ووجه النصب في " انتهوا خيرلكم " ما قلناه في قوله آمنوا خيرا لكم، فلا وجه لاعادته.

وقوله: " انما الله اله واحد " معناه الاخبار من الله (تعالى) ان الذي يحق له العبادة واحد، لان من كل له ولد، لا يكون آلهها وكذلك من كان له صاحبة لايجوز ان يكون إلهها معبودا، ولكن الله الذي له الالهوية والعبادة إله واحد، ومعبود واحد لاولد له، ولاوالد، ولاصاحبة، ولاشريك، ثم نزه تعالى نفسه وعظمتها ورفعها عما قاله المبطلون الكافرون فقال: " سبحانه ان يكون

(١) سورة الكهف، آية ٢٣.

(٤٠٣)

له ولد " ولفظة سبحان تفيد الممتزيه عما لايليق به من الولد والصاحبة، لان من يملك ما في السماوات والارض وما بينهما وله التصرف فيهما، وفيهم عيسى وامه، وهم عبيده، وهو رازقهم وخالقهم، وهم أهل الحاجة إليه والفاقة، فكيف يكون المسيح ابناله، وهو إما في الاض أو في السماء. وهو تعالى يملك جميع ذلك، ويحتمل ان يكون في موضع نصب لانه يصلح ان يقال عن ان يكون او من ان يكون، فاذا حذف حرف الجر كانت في موضع نصب. وكان الكسائي يقول هو في موضع خفض. والاول قول الفراء وغيره.

وقوله: " وكفى بالله وكيفا " معناه حسب ما في السموات وما في الارض بالله قيما ومدبرا، ورازقا من الحاجة معه إلى غيره ومعنى كفى بالله اكتفوا بالله.

وقد شبهت النصارى قولها: انه ثلاثة اقانيم جوهر واحد بقولنا: سراج واحد، ثم نقول. انه ثلاثة اشياء دهن وقطن ونار وللشمس انها شمس واحدة، ثم نقول انها جسم وضوء وشعاع. قال البلخي، وهذا غلط، لانا وان قلنا إنه سراج واحد، لانقول هوشى واحد، ولاالشمس انها

شئ واحد بل نقول هو أشياء على الحقيقة، كما نقول عشرة واحدة، وانسان واحد، ودار واحدة، وشهر واحد، وهي اشياء متغايرة. فان قالوا: إن الله شئ واحد حقيقة كما انه إله واحد، فقولهم بعد ذلك انه ثلاثة مناقضه لايشبه ما قلناه. وان قالوا: هو اشياء، وليس بشئ واحد دخلوا في قول المشبهة، وتركوا القول بالتوحيد. والعجب انهم يقولون: إن الاب له ابن والابن لآب له، ثم يزعمون ان الذي له ابن هو الذي لآب له، ويقولون إن من عبد الانسان، فقد اخطأ وضل، ثم يزعمون ان المسيح إله انسان، وانهم يعبدون المسيح. وقد تكلمنا على ما نعقل من مذاهبهم في الاقانيم والاتحاد والنبوة في كتاب شرح الجمل بما لامزيد عليه لانطول بذكره هاهنا.

(٤٠٤)

قوله تعالى:

(لن يستتكف المسيح ان يكون عبدا لله والملائكة المقربون ومن يستتكف عن عبادته ويستكبر فيسحشروهم اليه جميعا) (١٧١) آية.

معنى " لن يستتكف المسيح " لم يأنف. وأصله في اللغة من نكفت الدمع: إذا نحيت به باصبعك من خدك. قال الشاعر:

فباتوا فلولاً ما تذكر منهم * من الخلف لم ينكف لعينيك مدمع

فتأويل " لن يستتكف " لن ينقبض ولن يمتنع. فمعنى الآية " لن يستكبر المسيح ان يكون عبدا " بمعنى من ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون. ومعناه ولا يستتكف الملائكة أيضا، ولا يأنفون، ولا يستكبرون من الاقرار لله بالعبودية، والاذعان له بذلك " المقربون " الذين قربهم ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه.

وقال الضحاك: المقربون معناه انه قربهم إلى السماء الثانية. وقوله: " ومن يستتكف عن عبادته ويستكبر " معناه من يأنف من عبادة الله، ويتعظم عن التذلل والخضوع له، والطاعة له من جميع خلقه " فسحشروهم ". ومعناه فسبيعتهم يوم القيام جميعا يجمعهم لموعدهم عنده. ومعنى إليه إلى الموضع الذي لا يملك التصرف فيه سواه، كما يقال صار أمر فلان إلي القاضي أي لا يملكه غير القاضي، ولا يراد بذلك المكان الذي فيه القاضي. واستدل قوم بهذه الآية على ان الملائكة أفضل من الانبياء، قالوا: لا يجوز ان يقول القائل: لا يأنف الامير أن يركب الي ولا غلامه. وانما

يجوز أن يقال: لا يأنف الوزير أن يركب الي ولا الامير، فيعطف بعالي الرتبة على الادون، ولا يعطف بالادون على الاعلى. وهذا الذي ذكروه لادلالة فيه من وجوه:

احدها - ان يكون هذا القول متوجها إلى قوم اعتقدوا أن الملائكة أفضل من الانبياء، فاجرى الكلام على اعتقادهم، كما يقول القائل لغيره: لا يستكف ابي من

(٤٠٥)

من كذا، ولا ابوك. وإن كان القائل يعتقد ان اياه أفضل.
الثاني - انه لاتفاوت بين الانبياء والملائكة التفاوت البعيد كتفاوت الامير والحارس، وما يجري مجرى ذلك. ويجوز أن يقدم الفاضل ويؤخر المفضل. ألا ترى أنك تقول: لا يستكف الامير فلان من كذا، ولا الامير فلان؟ وان كان الاول افضل.
والثالث - انه اورد ذكر الملائكة، لان جميع الملائكة اكثر ثوابا لا محالة من المسيح منفردا فمن اين ان كل واحد منهم افضل من المسيح، او غيره من الانبياء؟ قوله تعالى:
(فاما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم اجرهم ويزيدهم من فضله واما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (١٧٢) آية.
أخبر الله تعالى في هذه الآية و وعد ان الذين يقرون بوحدانيته تعالى، ويعترفون بربوبيته، ويخضعون لعبادته، ويعملون الاعمال الصالحات التي أمر الله بها، وبعث بها رسله انه يوفيهم اجرهم. ومعناه يؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافية تاما، ويزيدهم من فضله يعني يزيدهم ما كان وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل، والزيادة هو ما لم يعرفهم مبلغه لانه (تعالى) وعد على الحسنة عشر أمثالها من الثواب، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله إلى عباده. وقد روي ان الزيادة إلى سبعين ضعفا وإلى سبعمائة وإلى الفين وكل ذلك جائز على ما يختاره الله ويفعله.
وقوله " وأما الذين استكفوا واستكبروا " معناه أن الذين يأنفون عن الاقرار بتوحيد الله، ويتعظمون عن الاعتراف بعبوديته، والاذعان له بالطاعة،

(٤٠٦)

واستكبروا عن التذلل له، وتسليم ربوبيته يعذبهم عذابا اليما أي مؤلما موجعا، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. وانما رفع ولا يجدون بالعطف على ما بعد فيعذبهم ولو جزم على موضع ما بعد الفاء، كان جائزا يعني ولا يجد المستكفون والمستكبرون لانفسهم وليا ينجيهم من عذابه، وناصرين ينقذهم من عقابه.
قوله تعالى:

(ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا) (١٧٣) آية بلاخلاف -.

هذا خطاب من الله (تعالى) لجميع الخلق من الناس المكلفين من سائر اصناف الملل الذين قص قصصهم في هذه السورة من اليهود والنصارى والمشركين " قد جاءكم " يعني أتاكم حجة من الله تبرهن لكم عن صحة ما أمركم به، وهو محمد (صلى الله عليه وآله) جعله الله حجة عليكم، وقطع به عذركم، " وانزلنا إليكم نورا مبينا " يعني وانزلنا اليكم معه نورا مبينا يعني بين لكم المحجة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله واليم عقابه، وذلك النور هو القرآن الذي أنزله الله على محمد (صلى الله عليه وآله) وهو قول مجاهد، وقتادة والسدي وابن جريج، وجميع المفسرين. وانما سماه نورا لنا فيه من الدلالة على ما امر الله به ونهى عنه والاهتداء به تشبها بالنور الذي يهتدي به في الظلمات وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث، لانه وصفه بالانزال فلو كان قديما، لما جاز ذلك عليه.

قوله تعالى:

(فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) (١٧٤) آية.

(٤٠٧)

هذا اخبار من الله ووعده لمن صدق الله وأقر بوحدانيته، واعترف بما بعث به نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) من أهل الملل، واعتصم به وتمسك بالنور الذي أنزله إلى نبيه. قال ابن جريج الهاء في (به) كناية عن القرآن، فسيدخلهم في رحمة منه معناه ستألفهم رحمة التي تتجهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه، وجنته، ويلحقهم مالحق أهل الايمان به، والتصديق لرسله، " ويهديهم اليه صراطا مستقيما " يعني يوفقهم لاصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته واقتفاء اثارهم واتباع دينهم. وذلك هو الصراط المستقيم.

وهو الاسلام الذي ارتضاه الله ديننا لعباده.

ونصب " صراطا مستقيما " على القطع من الهاء في قوله (إليه) ويحتمل أن يكون المراد بقوله: " ويهديهم اليه " يعني إلى ثوابه.

قوله تعالى:

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شئ عليم) (١٧٥) آية آخر السورة.

– النزول –

روى البراء بن عازب قال: آخر سورة نزلت كاملة براءة. وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله " وقال جابر بن عبدالله: نزلت في المدينة وقال ابن سيرين: نزلت في مسير كان فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(٤٠٨)

واصحابه. واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال سعيد بن المسيب: سأل عمر النبي (صلى الله عليه وآله) عن الكلاله، فقال: ليس قد بين الله ذلك؟ قال: فنزلت " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله " وقال جابر بن عبدالله: اشتكيت وعندي تسع اخوات لي أوسبع، فدخل علي النبي (صلى الله عليه وآله) فنفخ في وجهي، فافقت. فقلت: يا رسول الله ألا أوصي لآخواتي بالثلثين؟ قال: أحسن. قلت: الشطر. قال: احسن، ثم خرج وتركني، ورجع الي فقال: يا جابر اني لاراك ميتا من وجعك هذا، وان الله عزوجل قد أنزل في الذي لآخواتك فجعل لهن الثلثين. قال: وكان جابر يقول:

نزلت هذه الآية في. وقال قتادة: ان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) همهم شأن الكلاله، فانزل الله (عزوجل)، فيها هذه الآية.

– المعنى –

معنى يستفتونك يسألونك يا محمد ان تفتيهم في الكلاله. وحذف اقتصارا لما دل الجواب عليه. والاستفتاء والاستقضاء واحديقال: قاضيته وفاتيته.

قال الشاعر:

تعالوا نفاتيكم أعياء وفقعس * إلى المجد أدنى ام عشيرة حاتم
هكذا انشده الحسين بن علي المغربي. وقد فسرنا معنى الكلاله وذكرنا اختلاف العلماء في ذلك فأغنى عن الاعادة. وقوله: " أن امروء هلك ليس له ولد " قال السدي: معناه مات ليس له ولد ذكر وانثى، (وله اخت) يعني وللميت اخت لآبيه وامه، فلها نصف ما ترك، فان لم يكن أخت لآب وأم، وكانت اخنا لآب قامت مقامها، والباقي عندنا رد على الاخت سواء كان هناك عصبه، اولم يكن. وقال جميع الفقهاء: إن الباقي للعصبه، وإن لم يكن هناك عصبه، وهم العم وبنو العم، واولاد الاخ. قال فمن قال: الرد على ذوي الارحام، رد على الاخت الباقي وهو اختيار الجبائي، وأكثر اهل العلم. وقال زيد بن ثابت، والشافعي وجماعة: إن الباقي لبيت المال يرثه جميع المسلمين. وقوله: " وهو يرثها إن لم يكن لها ولد " يعني إن كانت الاخت هي

(٤٠٩)

الميتة، ولها أخ من أب وأم، أو من اب فالمال كله له بلاخلاف إذا لم يكن هناك ولد، سواء كان ولدها ذكراً، أو انثى، فان كان ولدها ذكراً، فالمال له بلاخلاف ويسقط الاخ، وإن كانت بنتا كان لها النصف بالتسمية بلاخلاف والباقي رد عليها، لانها اقرب دون الاخ، ولان الله (تعالى) انما قال: " وهو يرثها " يعني الاخ إذا لم يكن لها ولد. والبنت - ولد - (١) بلاخلاف ومن خالف في تسمية البنت ولدا فقد اخطأ. ذكر ذلك البلخي واستدل على ذلك بان قال: لو مات وخلف بنياً وأبوين إن للابوين الثلث، مع قوله: " ولابويه لكل واحد منهما السدس ان كان له ولد " وإنما أراد الولد الذكر. وهذا الذي ذكره خطأ، لانه خلاف لاهل اللغة. لانه لاخلاف في تسمية البنت بانها ولد، ولانه قال: " يوصيكم الله في أولادكم " ثم فسر الاولاد فقال: " للذكر مثل حظ الانثيين " فلو كان الولد لايقع على الانثى، لكان المال بينهم بالسوية، وذلك خلاف القرآن. على انا نخالف في المسألة التي ذكرها، فنقول للابوين السدسان، وللبنات النصف والباقي رد عليهم على قدر سهامهم، فنجعل الفريضة من خمسة ومن رد الباقي على الاب فانما يرده بالتعصيب، لالان البنت لاتسمى ولداً، فبان بطلان ماقاله. ومن خالفنا من الفقهاء في مسألة الاخ والبنت، يقول: الباقي للاخ، لقوله (ع): (ما ابققت الفرائض فلاولي عصبته)

ذكر هذا الخبر عندنا ضعيف، لانه أولاً خير واحد. وقد طعن على صحته. ضعفه أصحاب الحديث بما ذكرناه في مسائل الخلاف، وتهذيب الاحكام، وغير ذلك من كتبنا. وما هذه صفته لايتترك له ظاهر القرآن. وقوله: " فان كانتا اثنتين " يعني ان كانت الاختان اثنتين، فلهما الثلثان. وهذا لاخلاف فيه والباقي على مابيناه من الخلاف في الاخت الواحدة. عندنا، رد عليها دون عصبته، ودون ذوي الارحام، وإذاكان هناك عصبه، رد الفقهاء الباقي عليهم، وإن لم يكن رد على ذوي الارحام.

من قال بذلك فرد على الاختين، لانهما أقرب، ومن لم يقل بذلك رد على بيت المال. فان كانت احدى الاختين لاب وام، والاخرى لاب، فللاخت للاب والام النصف،

(١) - ساقطة من المطبوعة. (*)

(٤١٠)

بلاخلاف. والباقي ردعليها عندنا، لانها تجمع السببين ولاشئ للاخت للاب، لانها انفردت بسبب واحد وعند الفقهاء لها السدس تكملة الثلثين والباقي على ما بيناه من الخلاف، وإن كانوا أخوة رجالاً ونساء يعني يكون الورثة أخوة رجالاً ونساء للاب، والام، أو للاب فللذكر مثل

حظ الانثيين. بلاخلاف فان كان الذكور منهم للاب والام والاناث للاب، انفرد الذكور بجميع المال بلاخلاف. وإن كان الاناث للاب والام والذكور للاب كان للاناث الثلثان ما سمي بلاخلاف والباقي عندنا، رد عليهن لما بيناه من اجتماع السببين لهن. وعند جميع الفقهاء ان الباقي للاخوة من الاب، لانهم عصبه. وقد قلنا ما عندنا في خبر العصبه ويمكن ان يحمل خبر العصبه مع تسليمه على من مات، وخلف زوجا أو زوجة وأخالاب وأم، وأخا للاب أو ابن اخ لاب وأم، أو ابن أخ لاب أو ابن عم لاب وام، وابن عم لاب فان للزوج سهمه المسمى والباقي لمن يجمع كلاله الاب والام دون من يتفرد بكلاله الاب.

وقوله: " يبين الله لكم أن تضلوا " قال الفراء: معناه لئلا تضلوا.
قال القطامي:

رأينا ما رأى البصراء فيها * فآلينا عليها ان تباعا (١)

والمعنى الاتباعا. وقال الزجاج والبصريون: لايجوز إضمار لا. والمعنى يبين الله لكم كراهة أن تضلوا. وحذف كراهة، لدلالة الكلام عليه. قالوا: وانما جاز الحذف في قوله: " وسل القرية " والمعنى وسل اهل القرية، لانه بقي المضاف فدل على المحذوف. فاما حذف (لا) وهى حرف جاء لمعنى النفي، فلايجوز، لكن قد تدخل في الكلام مؤكدة وهى لغو كقوله: " لئلا يعلم أهل الكتاب " والمراد لئن يعلم. ومثله قول الشاعر:

وما الوم البيض الا تسخرا * إذا راين الشمط القفندرا (٢)

(١) - ديوانه: ٤٣ يصف ناقته. (٢) - أنظرا: ٥٥؛ (*)

(٤١١)

والمعنى وما الووم البيض ان تسخر ومثله قوله: " لااقسم بهذا البلد " (١)
" ولااقسم بيوم القيامة " (٢) والمعنى أقسم. ولايجوز على القياس على ذلك أن تقول: لأخلف عليك وتريد أخلف عليك، لان (لا) إنما تلغى إذا مضى صدر الكلام على غير النفي، فاذا بنيت الكلام على النفي، فقد نقضت الايجاب وانما جاز الغاء (لا) في اول السورة، لان القرآن كله كالسورة الواحدة ألا ترى أن جواب الشئ فيه يقع وبينهما سور؟ كما قال تعالى جوابا لقوله: " وقالوا ياايها الذين نزل عليه الذكر انك لمجنون " (٣) فقال: " نون والقلم وما يسطرون. ما انت بنعمة ربك بمجنون " (٤) وبينهما سور كثيرة. ذكره الزجاج. وقوله: " إن امرؤ هلك " قال الفراء (هلك) في موضع جزم. ومثله قوله: " وان احد من المشركين استجارك " (٥) ولوكان موضعها يفعل كان جزما. وقال الزجاج: جاز مع ان تقديم الاسم قبل الفعل، لان (ان) لاتعمل في الماضي، ولانها (ام) في الجزاء قال: والتقدير ان هلك امرؤ هلك. وانشد الفراء:

صعدة قد نبتت في حائر * اينما الريح تميلها تمل

فجزم تميلها. وقدحال بينها وبين اينما بالاسم وهو الريح. وقال عمر: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الكلاله، فقال: ألم تسمع الآية التي انزلت في الصيف. وفي خبر آخر - تكفيك آية الصيف.

وقوله: " امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك " يمنع أن يكون الاخت ترث مع البنت، لانه شرط في ميراثها عدم الولد. والبنت ولد بلا حلاف بين أهل اللغة. وما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الاخوات مع البنات عصبه خبر واحد، لايلتفت اليه، لانه يخالف نص القرآن. وبما قلناه قال ابن عباس، لانه لم يجعل الاخوات مع البنات عصبه.

(١) - سورة البلد، آية ١. (٢) - سورة القيامة، آية ١. (٣) - سورة الحجر، آية ٦. (٤) - سورة القلم، آية ١ - (٥) سورة التوبة، آية ٧. (*)

(٤١٢)

وموضع (ان) في قوله (ان تضلوا) نصب في قول الاكثر، لاتصالها بالفعل وفي قول الكسائي: خفض، لان تقديره عنده لئلا تتولوا، فان قيل:
ما وجه قوله: " اثنتين " مع أن قوله: " فان كانتا " قد دل على الثنتين؟ قيل:
يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون ذلك تأكيدا للمضمم يقول القائل: فعلت أنا.

والثاني - ان يبين بذلك ان المطلوب في ذلك العدد، لاغيره من الصفات من صغر او كبير أو عقل أو عدمه، وغير ذلك من الصفات، بل متى جعل العدد ثبت مذكوره من الميراث. وقوله:

والله بكل شي عليم " معناه عالم بكل شئ من مصالح عباده في قسمته مواريتهم، وغيرها من جميع الاشياء، لا يخفى عليه شئ من جميعه.

(٤١٣)

سورة المائدة هي مدنية في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال جعفر بن مبشر: هي - مدينة إلا آية منهما نزلت في حجة الوداع وهي قوله: " اليوم اكملت لكم دينكم " وهي كلها مدنية بمعنى انها نزلت بعد الهجرة. وقال الشعبي: نزل قوله: " اليوم اكملت " والنبي (صلى الله عليه وآله) واقف على راحلته في حجة الوداع. وقال عبدالله بن عمر آخر سورة نزلت المائدة. وهي مائة وعشرون آية كوفي واثنان وعشرون في المدينتين. وثلاثة وعشرون بصرى. بسم الله الرحمن الرحيم. قوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الامايتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد) (١) آية بلاخلاف.

(٤١٤)

هذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين المعترفين بوحدانيته تعالى المقرين له بالعبودية المصدقين لرسوله (صلى الله عليه وآله) في نبوته، وفيما جاء به من عند الله من شريعة الاسلام، أمرهم الله بايفاء العقود وهي العهود التي عاهدوها مع الله وأوجبوا على انفسهم حقوقا، والزموا نفوسهم بها فروضاً أمرهم الله تعالى بالاتمام بالوفاء والكمال لما لزمهم يقال: أوفى بالعهد ووفى به وأوفى به لغة أهل الحجاز. وهي لغة القرآن، واختلف اهل التأويل في العقود التي امر الله " تعالى " بالوفاء بها في هذه الآية بعد اجماعهم على ان المراد بالعقود العهود، فقال قوم: هي العقود التي كان اهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصره والمؤازرة. والمظاهرة على من حاول ظلمهم اوبغاهم سوء وذلك هو معنى الحلف. ذهب اليه ابن عباس ومجاهد، والربيع ابن أنس والضحاك وقتادة والسدي وسفيان الثوري.

والعقود جمع عقد. وأصله عقد الشيء بغيره. وهو وصله به، كما يعقد الحبل إذا وصل به شيئاً. يقال منه: عقد فلان بينه وبين فلان عقداً فهو يعقده. قال الحطيئة:
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم * شدوا العنّاج وشدوا فوقه الكرباً (١)
وذلك إذا واثقه على أمر عاهده على عهد بالوفاء له بما عاقده عليه من أمان، أو ذمّة أو نصرّة، أو نكاح أو غيره ذلك. قال قتادة: هي عقود الجاهلية الحلف.
ويقال: اعتدت العسل فهو عقيد ومعقد وروى بعضهم عقدت، العسل والكلام وأعتدت. وقال آخرون: هي العهود التي أخذ الله على عباده بالآبان به، وطاعته فيما أحل لهم أو حرم عليهم. روي ذلك عن ابن عباس وقال: هو ما أحل وحرّم وما فرض، وما حد في القرآن كله، فلا تعدوا أو لا تنكثوا، ثم سدد فقال:

(١) ديوانه: ٦ القرآن لابي عبيدة ١: ١٤٥ اللسان (كرب) من قصيدته التي قالها في الزبرقان بن بدر وبغيض بن عامر من بني أنف الناقة. العنّاج: خيط يشد في أسفل الدلو. الكرب: الحبل. (*)

(٤١٥)

"والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه إلى قوله: سوء الدار". وبه قال أيضاً مجاهد: وقال قوم: بل العقود التي يتعاقدها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الأيمان، وعقد النكاح، وعقد العهد، وعقد البيع، وعقد الحلف.
ذهب إليه عبدالله بن عبيدة وابن زيد، وهو عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه.
وقال آخرون: ذلك أمر من الله لأهل الكتاب بالوفاء بما أخذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة والإنجيل في تصديق محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من عند الله.
ذكر ذلك ابن جريج وأبو صالح. وقال الجبائي: أراد به الوفاء بالأيمان فيما يجوز الوفاء به. فإما ما كان يمينا بالمعصية، فعليه حنثه وعليه الكفارة. وعندنا إن اليمين في معصية لا تنعقد، ولا كفارة في خلافها. وأقوى هذه الأقوال ما حكيناه عن ابن عباس أن معناه أوفوا بعقود الله التي أوجبها عليكم، وعقدها فيما أحل لكم وحرّم، وألزمكم فرضه. وبين لكم حدوده. ويدخل في جميع ذلك ما قالوه إلا ما كان عقداً على المعاونة على أمر قبيح. فإن ذلك محظور بلاخلاف.

وقوله: "أحلت لكم بهيمة الأنعام" اختلفوا في تأويل بهيمة الأنعام في هذه الآية فقال قوم: هي الأنعام كلها: الأبل والبقر، والغنم. ذهب إليه الحسن وقاتدة والسدي والربيع والضحاك، وقال آخرون: أراد بذلك أجنة الأنعام التي توجد في بطون أمهاتها إذا ذكيت الأمهات. وهي ميتة.

ذهب اليه ابن عمر وابن عباس. وهو المروي عن ابي عبدالله. والاولى حمل الآية على عمومها في الجميع.

والانعام جمع نعم، وهو اسم للابل، والبقر والغنم خاصة عند العرب كما قال تعالى: " والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون " ثم قال: " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " ففضل جنس النعم من غيرها من اجناس الحيوان وأما بهائمها فانها أولادها. وقال الفراء بهيمة الانعام: وحشها كالظباء، وبقر الوحش، والحرر الوحشية. وانما سميت بهيمة الانعام، لان كل حي لايميز، فهو بهيمة الانعام، لانه ابهم عن ان يميز.

(٤١٦)

وقوله: " الاما يتلى عليكم " اختلفوا في المراد بقوله " الاما يتلى عليكم " فقال بعضهم: أراد بذلك أحلت لكم أولاد الابل، والبقر والغنم إلا ما بين الله تعالى فيما يتلى عليكم بقوله: " حرمت عليكم الميتة والدم... الآية " ذهب اليه مجاهد وقتادة وقال: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. وبه قال السدي وابن عباس. وقال اخرون: استثنى من ذلك الخنزير روي ذلك أيضا عن ابن عباس، والضحاك. والاول أقوى، لان قوله: " إلا ما يتلى عليكم " يجب حمله على عمومها في جميع ما حرم الله (تعالى) في كتابه. والذي حرمه هو ما ذكره في قوله:

" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به... إلى آخر الآية " والخنزير وإن كان محرما، فليس من بهيمة الانعام، فمتى حملناه عليه كان الاستثناء منقطعاً، ومتى خصصنا بالميتة والدم، كان الاستثناء متصلاً. وإن حملناه على الكل نكون غلينا حكم الميتة وما ذكر بعده، فيكون الاستثناء أيضا حقيقة ومتصلاً. واختار الطبري تخصيصه بالميتة والدم، وما أهل لغير الله به. قال الحسين ابن علي المغربي إلا ما يتلى معناه من البحيرة والسائبة والوصيلة فلا تكون المحرم، واستثنى هاهنا ما حرمه (تعالى) فلا يليق بذلك.

وقوله: " غير محلي الصيد وانتم حرم " اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معناه أوفوا بالعقود غير محلين الصيد وانتم حرم أحلت لكم بهيمة الانعام. ويكون فيه التقديم والتأخير، فغير يكون منصوبا على هذا الحال مما في قوله: " اوفوا بالعقود " من ذكر الذين آمنوا. وتقدير الكلام أوفوا أيها الذين آمنوا بعقود الله التي عقدها عليكم في كتابه لامحليين الصيد، وانتم حرم. وقال اخرون: معنى ذلك أحلت لكم بهيمة الانعام الوحشية من الظباء، والبقر والحرر غير محلي الصيد غير مستحليين اصطيادهم، وانتم حرم، وإلا ما يتلى عليكم (فغير) على هذا منصوب على الحال من الكاف، والميم اللين في قوله: " أحلت لكم بهيمة الانعام " والتقدير أحلت لكم يأيها الذين آمنوا بهيمة الانعام، لامستحلي اصطيادها في حال إحرامكم وقال اخرون: معناه أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما يتلى عليكم. بمعنى إلا

(٤١٧)

ما كان منها وحشياً، فانه صيد، ولايحل لكم وانتم حرم. والتقدير على هذا أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما بين لكم من وحشها غير مستحلي اصطياها في حال إحرامكم، فتكون (غير) منصوبة علي الحال في الكاف والميم في قوله: إلا ما يتلى عليكم. ذهب إلى ذلك الربيع، والحرم جمع حرام. وهو المحرم قال الشاعر:
فقلت لها حثي اليك فاني * حرام واني بعد ذاك لبيب
أي واني ملب.

وقوله: " إن الله يحكم ما يريد " معناه إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما يريد تحليله، وتحريم ما يريد تحريمه، وإيجاب ما يريد إيجابه. وغير ذلك من احكامه وقضاياه، فافعلوا ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه.

— الاعراب —: (وما) في قوله: " إلا ما يتلى عليكم " في موضع نصب بالاستثناء. وقال الفراء يجوز ان يكون موضعها الرفع. كما تقول جاعني القوم، إلا زيدا وإلا زيد قال الزجاج: وهذا لايجوز إلا أن تكون إلا بمعنى غير، فتكون صفة. فاما بمعنى الاستثناء، فلايجوز. وقوله (عليه السلام): (زكاة الجنين زكاة امه عندنا) معناه انه إذا ذكيت الام وخرج الولد ميتاً، قد اشعرا واوربر، جاز أكله. وبه قال الشافعي وأهل المدينة وقال ابوحنيفة: معناه انه يذكى كما تذكى امه وهو اختيار البلخي.
قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولاالشهر الحرام ولا الهدى ولاالقلائد ولاأمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولايجرمكم شأن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا

(٤١٨)

تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) (٢)
آية.

— القراءة —

قرأأبو بكر عن عاصم، وابوجعفر واسماعيل المسيبي (شئناً) بسكون النون الاولى في الموضوعين. الباقرن بفتحها وقرأ ابن كثير وأبو عمر (وان صدوكم) بكسر الهمزة الباقرن بفتحها.

— المعنى —

هذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين ينهاهم ان يحلوا شعائر الله. واختلفوا في معنى شعائر الله على سبعة اقوال:

فقال بعضهم: معناه لاتحلوا حرمان الله، ولاتعدوا حدوده، وحملوا الشعائر على المعالم. وارادوا بذلك معالم حدود الله وأمره ونهيه، وفرائضه ذهب اليه عطا وغيره. وقال قوم: معناه لاتحلوا حرم الله وحملوا شعائر الله على معالم حرم الله من البلاد. ذهب اليه السدي.

وقال اخرون: معنى شعائر الله مناسك الحج. والمعنى لاتحلوا مناسك الحج، فتضيعوها. ذهب اليه ابن جريج، ورواه عن ابن عباس.

وقال ابن عباس: كان المشركون يحجون البيت، ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، ويتجرون في حججهم، فاراد المسلمون ان يغيروا عليهم، فنهاهم الله عن ذلك. وقال مجاهد: شعائر الله الصفا والمروة والهدي من البدن، وغيرها. كل هذا من شعائر الله.

(٤١٩)

وقال الفراء كانت عامة العرب لاترى الصفا والمروة من الشعائر، ولايطوفون بهما، فنهاهم الله عن ذلك وهو قول ابي جعفر (عليه السلام).

وقال قوم: معناه لاتحلوا ما حرم الله عليكم في إحرامكم. روي ذلك عن ابن عباس في رواية اخرى.

وقال الجبائي الشعائر: العلامات المنصوبة للفرق بين الحل، والحرم نهاهم الله أن يتجاوزوها إلى مكة بغير إحرام. وقال الحسين بن علي المغربي: المعنى لاتحلوا الهدايا المشعرة. وهو قول الزجاج واختاره البلخي. وأقوى الاقوال قول عطا من أن معناه، لاتحلوا حرمان الله، ولاتضيعوا فرائضه لان الشعائر جمع شعيرة وهي.

على وزن فعيلة، واشتقاقها من قولهم: شعر فلان بهذا الامر: إذا علم به، فالشعائر المعالم من ذلك، وإذا كان كذلك، وجب حمل الآية على عمومها، فيدخل فيه مناسك الحج، وتحريم ما حرم في الاحرام، وتضييع ما نهى عن تضييعه واستحلال حرمان الله، وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه، لان كل ذلك من معالمه، فكان حمل الآية على العموم اولى.

وقوله: " ولاالشهر الحرام " معناه ولاتستحلوا الشهر الحرام بقتالكم فيه اعداءكم من المشركين، كما قال: " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير " وهو قول ابن عباس وقتادة.

والشهر الحرام الذي عناه الله هاهنا قال قوم:

هو رجب، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال. وقال قوم: هو ذو العقدة. ذكره عكرمة.
وقال ابو علي الجبائي: هو اشهر الحرام كلها، نهاهم الله عن القتال فيها.
وهو البق بالعموم. وبه قال البلخي.

وقوله: " ولا الهدي ولا القلائد " فالهدي جمع واحده هدية واصله هدية وهو ما هداه الانسان من
بعير او بقرة أو شاة أو غير ذلك إلى بيت الله تقربا به إلى الله (تعالى) وطلبا لثوابه يقول الله:
لا تستحلوا ذلك فتغصبوه أهله عليه، ولا تحولوا بينهم وبين ما اهدوا من ذلك إلى بيت الله ان
يبلغوه محله من الحرم، ولكن

(٤٢٠)

خلوهم حتى يبلغوا به المحل الذي جعله عزوجل له. وهو كعبته. قال ابن عباس:
والهدي يكون هديا قبل ان يقلد ما جعله على نفسه أن يهديه ويقلده. وقوله: " ولا القلائد "
معناه ولا تحلوا القلائد. واختلفوا في معناه فقال بعضهم: عنى بالقلائد الهدي. وانما كرر، لانه
أراد المنع من حل الهدي الذي لم يقلد، والهدي الذي قلده. وهو قول ابن عباس. وقال آخرون:
يعني بذلك القلائد التي كان المشركون يتقلدونها إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة من لحاء
السمر، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها إلى المشعر. ذهب إليه قتادة وقال كان
في الجاهلية إذا خرج الرجل من أهله يريد الحج تقلد من السمر، فلا يعرض له أحد وإذا رجع
تقلد قلادة شعر، فلا يعرض له احد. وقال عطا: كانوا يتقلدون من لحاء شجر الحرم يأمنون به
إذا خرجوا من الحرم. وقال الفراء: كان اهل الحرم يتقلدون بلحاء الشجر، واهل غير الحرم
يتقلدون بالصوف والشعر وغيرهما، فنزلت " لاتحلوا شعائر الله.. " وقال مجاهد: وهو اللحافي
رقاب الناس. والبهائم امن لهم. وهو قول السدي.

وقال ابن زيد: إنما عنى بالمؤمنين نهاهم أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم يتقلدون به، كما كان
المشركون يفعلونه في جاهليتهم. ذهب إليه عطا في رواية والربيع بن أنس. وقال ابو علي
الجبائي: القلائد هوما قلده الهدي، نهاهم عن حلها، لانه كان يحب أن يتصدق بها. قال:
ويحتمل أن تكون عبارة عن الهدي المقلد. والاقوى ان يكون المراد بذلك النهي عن حل
القلائد، فيدخل فيه الانسان والبهيمة إذ هو نهى عن استحلال حرمة المقلد، هو هديا كان ذلك
أو انسانا.

قوله: " ولاأمين البيت الحرام " معناه، ولا تحلوا قاصدين البيت الحرام.
يقال: أممت كذا: إذا قصدته وعمدته. وبعضهم يقول يممته قال الشاعر:

إنني كذاك إذا ما ساعني بلد * يممت صدر بعيري غيره بلدا (١)

والبيت الحرام بيت الله بمكة، وهو الكعبة.

(٤٢١)

وقوله: " يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا " معناه يلتمسون أرباحا في تجارتهم من الله " ورضوانا " يعني وان ترضى عنهم منسكهم. نهى الله تعالى أن يحل ويمنع من هذه صورته. فاما من قصد البيت ظلما لاهله، وجب منعه ودفعه عنهم.

— النزول —

وقال ابوجعفر (عليه السلام): نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له: الحطم. قال السدي: أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي (صلى الله عليه وآله) وحده، وخلف خيله خارجة من المدينة، فدعاه فقال: الام تدعو فاخبره وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: لأصحابه: يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان، فلما أخبره النبي (صلى الله عليه وآله) قال: انظروا لعلي اسلم ولي من اشاوره، فخرج من عنده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله

لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر، فمر بسرج من سرج المدينة فساقه وانطلق به، وهو يرتجز ويقول:

قد لفها الليل بسواق حطم * ليس براعي ابل ولاغنم

ولابجزار على ظهر وضم * باتوا نياما وابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم * خدلج الساقين ممسوح القدم (١)

ثم اقبل من عام قابل حاجا قد قلد هديا، فاراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يبعث اليه، فنزلت هذه الآية " ولآمين البيت الحرام " هذا قول ابن جريج، وعكرمة والسدي وقال ابن زيد: نزلت يوم الفتح في ناس يأمون البيت من

(١) البيان والتبيين ٢: ٣٠٨ الاغاني ١٤: ٤٤ اللسان (حطم) وقبل هذا الرجز قوله هذا أوان الشد فاشتدي زيم. حطم السائق الذي يسير بأقصى سرعة: الوضم: خشبة القصاب التي يقطع عليك اللحم الزلم: قدح الميسر. خدلج الساقين: ممتلئ الساقين. ممسوح القدم: قدمه مستو. وقد جاء في صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله): مسيح القدمين. (*)

(٤٢٢)

المشركين بهلون بعمره. فقال المسلمون: يارسول الله (صلى الله عليه وآله) إنما هؤلاء مشركون، مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم، فانزل الله تعالى الآية قال ابن عباس: ذلك في كل من توجه حاجا. وبه قال الضحاك والربيع بن انس.

— النسخ —

واجمعوا على انه نسخ من حكم هذه الآية شئ إلا ابن جريح فانه قال: لم ينسخ منها شئ، لانه لايجوز أن يبتدأ المشركون في أشهر الحرم بالقتال إلا إذا قاتلوا. وهو المروي عن ابي جعفر (ع) وقال الشعبي: لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية وقال أبو ميسرة: في المائدة ثمانية عشر فريضة ليس منها شئ منسوخ.

واختلفوا فيما نسخ منه فقال بعضهم: نسخ جميعها ذهب إليه الشعبي وقال: لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام، ولا الهدي، ولا القلائد. وبه قال مجاهد: قال: نسخها قوله: " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وبه قال قتادة والضحاك وحبيب بن ابي ثابت وابن زيد. وقال اخرون: نسخ منها قوله: " ولا الشهر الحرام، امين البيت الحرام " ذكر ذلك عن ابن ابي عروبة عن قتادة وقال: نسخها قوله: " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وقوله: " ماكان للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله " وقوله: " انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام... الآية " في السنة التي نادى علي (عليه السلام) فيها بالاذان.

وبه قال ابن عباس وقال قوم: لم ينسخ منه إلا القلائد. وروي ذلك عن ابن ابي بحيح عن مجاهد. وأقوى الأقوال قول من قال: نسخ منها " ولا الشهر الحرام ولا القلائد ولا امين البيت الحرام " لاجماع الامة على أنه (تعالى) احل قتال أهل الشرك في أشهر الحرم وغيرها من شهور السنة. واجمعوا ايضا على ان مشركا لو قلد لحا جميع اشجار الحرم عنقه او ذراعاه، لم يكن ذلك أمانا له من القتل إذا لم يتقدم له امان.

(٤٢٣)

— المعنى —

وقوله: " ولا أمين البيت " ظاهره يحتل المسلم والمشرك لعموم اللفظ، لكن خصصنا المشركين بقوله: " اقتلوا المشركين.. الآية " ويحتل أيضا أن يكون مخصوصا بأهل الشرك. وعليه اكثر المفسرين. فان كان مخصوصا بهم، فلا شك أيضا أنه منسوخ بما قدمناه من الآية والاجماع. وقوله: " يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا " معناه يلتمسون ويطلبون الزيادة، والارباح في التجارة ورضوان الله عنهم وألا يحل بهم ما حل بغيرهم من الامم بالعقوبة في

غالب دنياهم. وهو قول قتادة وقال: هي للمشركين يلتمسون فضل الله، ورضوانه بما يصلح لهم دنياهم.

وبه قال ابن عباس والربيع بن انس ومجاهد وفي الآية دلالة على جواز حمل المتاع للتجارة في الحج. وقوله: إذا حلتكم، فاصطادوا فأهل الحجاز يقولون: حلت من الاحرام أهل، والرجل حلال. وكذلك سعد بن بكر وكذا يقولون: حرم الرجل فهو حرام: إذا صار محرماً، وقوم حرم واسد وقيس وتميم يقولون: أهل من احرامه، فهو محل وأحرم فهو محرم. معناه إذا حلتكم من إحرامكم، فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم ان تلوه، وأنتم حرم. وهو بصورة الامر. ومعناه الاباحة.

وتقديره لاجرح عليكم في اصطاده فاصطادوه ان شئتم حينئذ لان السبب المحرم قد زال. وهو قول جميع المفسرين: مجاهد وعطاء، وابن جريج وغيرهم. وقوله: " ولايجرمكم " قال ابن عباس: ولايحملكم شأن قوم. وهو قول قتادة. واختلف اهل اللغة في تأويلها، فقال الاخفش، وجماعة من البصريين، لايقن لكم، مثل قوله: " لاجرم ان لهم النار " ومعناه حق ان لهم النار.

وقال الكسائي والزجاج معناه: لايحملكم وقال بعض: الكوفيين معناه لايحملكم. قال: يقال: جرمني فلان على ان صنعت كذا أي حملني عليه. وقال الفراء: معناه لايكسبكم شأن قوم. واستشهد الجميع بقول الشاعر:
ولقد طعنت ابا عبيدة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (١)

(١) قائله أبو اسمعيل الضريبي. مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٤٧ اللسان: (جرم) (*)

(٤٢٤)

فمنهم من حمل قوله: جرمت على ان معناه حملت. ومنهم من حمله على أن معناه أحقت الطعنة، لفزارة الغضب. ومنهم من قال: معناه كسبت فزارة أن يغضبوا وقال المغربي: معناه قطعت فزارة وليس من هذافي شئ. وسمع الفراء من العرب من يقول: فلان جريمة أهله أي كاسبهم. وخرج يجرمهم أي يكسبهم.

والاقاويل متقاربة المعاني. وقراءة القراء المعروفين " لايجرمكم " - بفتح الياء من جرمته. وقرأ يحيى بن وثاب، والاعمش " يجرمكم " بضم الياء من أجرمته فهو يجرمني. وقيل: هما لغتان. والاولى أفصح، وأعرف، وأجاز أبو علي الفارسي معنى جرم كسب. قال: وهو فعل يتعدى الي مفعولين مثل كسب يدل على ذلك قول الشاعر في صفة عقاب:

جريمة ناهض في رأسه نيق * يرى لعظام ماجمعت صليبا

معناه تكسب لفرخها. جريمة ناهض يحتمل تقريرين:

احدهما - جريمة قوت ناهض اي كاسب قوته، كما قالوا ضارب قداح، وضريب قداح وعريف وعارف.

والآخر - ان تقدر حذف المضاف، وتضيف جريمة إلى ناهض. والمعنى كاسب ناهض، فجرم يستعمل في الكسب وما يريد من سعي الانسان عليه.

واما جرم فمعناه اكتسب الاثم قال الله تعالى: " إنا من المجرمين منتقمون " وقال:

" فعلي إجرامي " ومعناه فعلي عقوبة إجرامي أو اثم إجرامي ومعنى " لايجرمنكم شئنآن قوم " لا تكتسبوا لبغض قوم عدوانا، ولاتفتنوه، فمن فتح أن أوقع النهي في اللفظ على الشئنآن. والمعنى بالنهي المخاطبون، كماقالوا: لأرئيتك هاهنا ولا تموتن إلا وانتم مسلمون. الاعراب:

وكذلك قوله: لايجرمنكم شقاقي يصيبكم المفعول الثاني واسماء المخاطبين المفعول الاول، كما أن المفعول الاول في الآية الاخرى المخاطبون. والثاني قوله: " أن

(٤٢٥)

تعدتوا " ولفظ النهي واقع على الشقاق. والمعنى بالنهي المخاطبون. قال الزجاج: موضع (ان) الاولى نصب بانه مفعول له.

وتقديره لايحملنكم بغض قوم لان صدودكم عن المسجد يعنى النبي (صلى الله عليه وآله) واصحابه، لما صدوهم عن مكة. وموضع ان الثانية مفعول به ومعناه لايكسبنكم بغض قوم أي بغضكم قوما الاعتداء عليهم، لصددهم عن المسجد الحرام.

وقوله: " شئنآن قوم " معناه بغض قوم في قول ابن عباس، وقتادة وابن زيد، وغيرهم يقول: شئنئت الرجل اشناه شئننا وشنأنا وشنا ومنشأة: إذا أبغضته وذهب سيبويه إلى أن ماكان من المصادر على فعلان لم يتعد فعله إلا أن يشد شئ نحو شنيته شناً ولايجوز أن يكون شنيته يراد به حذف الجر، كقول سيبويه في فرقته وحذرته أن اصله حذرت منه لان اسم الفاعل منه على فاعل، نحو شاني و " ان شانئك هو الابتر " وقال الشاعر:

بشانيك الضراعة والكلول قال ابو علي: هذا يقوي انه مثل علم يعلم، فهو عالم، ونحوه من المتعدي وأيضا، فان شنيته في المعنى بمنزلة أبغضت، فلما كان معناه عدي كماعدي أبغضت كما أن الرفث لما كان بمعنى الافضاء عدي بالجار، كما عدى الافضاء به. وقال سيبويه:

قالوا: لويته حقه ليانا على فعلان، فيجوز ان يكون شنان فيمن اسكن النون مصدرا كالليان فيكون المعنى لايحملنكم بغض قوم، لو فتح النون. قال ابو عبيدة: " شئنآن قوم " بغضاء وهي متحركة الحروف مصدر شنيته، وبعضهم يسكنون النون الاولى وانشد للاحوص:

وما العيش الاما تلذ وتشتهي * وان عاب فيه ذوالشنان وفندا
فحذف الهمزة قال أبوعلي: ويجوز ان يكون خفها. وقال أبوعبدة:
وشنيت أيضا بمعنى أقررت به، وبؤت به وانشد للعجاج.
زل بنو العوام عن آل الحكم * وشنؤا الملك لملك ذوقدم

(٤٢٦)

وقال الفرزدق:

ولو كان هذا الامر في جاهلية * شنئت به أوغص بالماء شاربه
قال ابوعلي: وقد جاء فعلا مصدرًا ووصفًا وهما جميعًا قليلان. فمما حل مصدرًا ما حكاه
سيبويه من قولهم: خصمان وندمان. وانشد ابوزيد ما ظاهره أن يكون فعلا منه صفة وهو:
لما استمر بها شيحان منبجح * بالبين عنك بها مولاك شنانا

— اللغة —

حكى أبوزيد في مؤنث شنان شنانى.

ويقرب أن يكون شيحان فعلا.

وفي الحديث (ثم اعرض وأشاح) قال ابوعلي: وترك صرف شيحان في البيت مع أنه لافعل
له. ويجوز ان يكون، لانه اسم علم. ويجوز ان يكون على قول من يجوز ترك صرف ما
يتصرف في الشعر. فاما الشنان قال ابوعلي: فعلا يجئ على ضربين:

احدهما - اسم، والآخر - صفة فالاسم على ضربين:

احدهما ان يكون مصدرًا، كالنقر ان والغليان، والطوفان والغثيان. وعامة ذلك يكون معناه
التحرك والتقلب. والاسم الذي ليس بمصدر نحو الورشان والعجان. وأما مجيئه فنحو الزفيان
والقطوان والصميان، وكبش اليان ونعجة اليانة، وكباش الي، ومثله حمار قطوان واتان
قطوانة من قطا يقطو قطا وقطا:

إذا قارب بين خطوه. ومن خفف النون ذهب إلى انه مصدر، مثل ليان. ومعنى الآية لا يحملنكم
بغض قوم أي بغضكم قوما لصددهم إياكم ومن اجل صددهم إياكم ان تعتدوا فاضيف المصدر
الي المفعول وحذف الفاعل كقوله: من دعاء الخير وسؤال نعجتك وقوله: ان صدوكم من كسر
الهمزة الي ان (ان) للجزاء يقوي ذلك ان في قراءة ابن مسعود ان يصدوكم فمتى؟ قيل كيف
تكون للجزاء والصد ماض، لانه كان سنة الحديدية من المشركين للمسلمين، وما يكون ماضيا
لا يكون شرطًا؟ قيل:

(٤٢٧)

ذكر ابو علي ان الماضي قد يقع في الجزاء لا ان المراد بالماضي الجزاء، لكن على انه إن كان مثل هذا الفعل، فيكون اللفظ على ما مضى والمعنى على مثله، كأنه يقول: إن وقع مثل هذا الفعل يقع منكم كذا. وعلى ذلك حمل قول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * ولم تجدي من أن تقري به بدا (١)

إن قد أغنى عنه ما تقدم من قوله: " لايجر منكم " والمعنى إن صدوكم قوم عن المسجد الحرام، فلا تكسبوا عدوانا. ومن فتح الهمزة، فلانه مفعول له والتقدير لايجرمنكم شأن قوم، لان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، فان الثانية في موضع نصب بانه المفعول الثاني. والاولى منصوبة، لانه مفعول له وقوله:

" ان تعتدوا " معناه إن تجاوزوا حكم الله فيهم إلى ما نهاكم عنه. وذكر انها نزلت في النهي عن الطلب بدخول الجاهلية. ذهب اليه مجاهد وقال: هذا غير منسوخ. وهو الاولى. وقال غيره هو منسوخ ذهب اليه ابن زيد. وإنما قلنا: إنه غير منسوخ، لان معناه لا تعتدوا الحق فيما امرتكم به. وإذا احتمل ذلك، لم يخبر أن يقال هو منسوخ إلا بحجة.

وقوله: وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ليس بعطف على أن تعتدوا، فيكون في موضع نصب، بل هو استئناف كلام أمر الله تعالى الخلق بان يعين بعضهم بعضا على البر وهو العمل بما امرهم الله به، واتقاء ما نهاهم عنه، ونهاهم ان يعين بعضهم بعضا على الاثم. وهو ترك ما أمرهم به، وارتكاب ما نهاهم عنه من العدوان، ونهاهم ان يجاوزوا ما حد الله لهم في دينهم، وفرض لهم في أنفسهم وبه قال ابن عباس وابوالعالية وغيرهما من المفسرين.

وقوله: " واتقوا الله ان الله شديد العقاب " أمر من الله، ووعيد وتهديد لمن اعتدى حدوده، وتجاوز أمره يقول الله: . ومعناه احذروا معاصيه وتعدي حدوده فيما امركم به ونهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه متى خالفتم وتستحقوا

(١) انظر ١: ٢٨٩ - ٣٥٢. (*)

(٤٢٨)

اليوم عقابه، ثم وصف عقابه بالشدة فقال: إن الله شديد العقاب لمن يعاقبه من خلقه، لانه نار لا يطفى حرها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهيبا (نعوذ بالله منها). قوله تعالى:

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخفة والموقودة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق

ان اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني اليوم اكملت لكم دينكم واتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله
غفور رحيم (٣) آية بلاخلاف.

— اللغة —

بين الله (تعالى) في هذا الآية ما استثناه في قوله: " احلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم " فهذا مما تلاه علينا فقال مخاطبا للمكلفين: " حرمت عليكم الميتة " وأصله الميتة مشدد غير انه خفف، ولو قرئ، على الاصل كان جائزا إلا انه لم يقرأ به احد هاهنا إلا أبا جعفر المدني يقال: ميت بمعنى واحد. وقال بعضهم الميت لما لم يموت والميت لما قد مات وهذا ليس بشيء لان ميت يصلح لما قد مات، ولما سيموت. قال الله (تعالى): " انك ميت وانهم ميتون " وقال الشاعر في الجمع بين اللغتين:

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

فجعل الميت مخففا من الميت وقال بعضهم: الميتة كلما له نفس سائلة من دواب

(٤٢٩)

البر، وطيره مما اباح الله اكلها أهلها ووحشها فارقتها روحها بغير تذكية. وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه سمى الجراد والسمك ميتا فقال: ميتتان مباحان: الجراد، والسمك. وقوله: " والدم " تقديره، وحرمة عليكم الدم. وقيل: إنهم كانوا يجعلون في المباعر يشوونها وياكلونها، فاعلم الله تعالى ان الدم المسفوح أي المصبوب حرام، فاما المتلخ باللحم، فهو كاللحم، وما كان منه كاللحم مثل الكبد فهو مباح.

وأما الطحال، فهو محرم عندنا. وقد روي كراهته عن " علي (عليه السلام)، وابن مسعود واصحابهما " وعند جميع الفقهاء أنه مباح. وانما شرطنا في الدم المحرم ما كان مسفوحا، لانه (تعالى) بين ذلك في أخرى فقال: " او دما مسفوحا ".

وقوله: " ولحم الخنزير " معناه وحرمة عليكم لحم الخنزير اهليه وبريه، فالميتة والدم مخرجهما في الظاهر مخرج العموم. والمراد بهما الخصوص. ولحم الخنزير على ظاهره في العموم. وكذلك كل ما كان من الخنزير حرام كلحمه من الشحم والجلد، وغير ذلك وقوله: " وما اهل لغير الله به " موضع ما رفع وتقديره وحرمة عليكم ما اهل لغير الله به. ومعنى اهل لغير الله به ما ذبح للاصنام والوثان أي ذكر اسم غير الله عليه، لان الاهلال رفع الصوت بالشئ. ومنه استهلال الصبي وهو صياحه إذا سقط من بطن امه. ومنه إهلال المحرم بالحج أو العمرة: إذا لي به. قال ابن احرر:

يهل بالفرد قد ركبانا * كما يهل الراكب المعتمر
فما تقرب به من الذبح لغير الله او ذكر عليه غير اسمه حرام، وكل ما حرم اكله مما عددها
يحرم بيعه وملكه، والتصرف فيه.
والخنزير يقع على الذكر والانثى. وفي الآية دلالة على ان ذبائح من خالف الاسلام، لايجوز
اكله، لانهم يذكرون عليه اسم غير الله لانهم يعنون بذلك من ابد شرع موسى، أو اتخذ عيسى
ابنا، وكذب محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) وذلك غير الله، فيجب ان لايجوزا أكل ذبيحته.
فاما من اظهر الاسلام، ودان بالتجسيم،

(٤٣٠)

والصورة وقال بالجبر والتشبيه أو خالف الحق، فعندنا لايجوز اكل ذبيحته. فاما الصلاة عليه
ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته، فانه يجري عليه، لان هذه الاحكام تابعة في الشرع
لاظهار الشهادتين. واما مناكحته فلا تجوز عندنا. وقال البلخي حاكيا عن قوم: إنه لايجوز
أجراء شئ من ذلك عليهم. وحكى عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم، لانهاتجري على
من اظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة، وكذلك أجريت على المجانين، والاطفال. فاما
التسمية على الذبيحة، فعندنا واجبة من تركها متعمدا، لايجوز اكل ذبيحته، وان تركها ناسيا،
لم يكن به يأس.

وكذلك إن ترك استقبال القبلة متعمدا لم يحل أكل ذبيحته، وان تركه ناسيا، لم يحرم.. وفي
ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.

والمخنقة قال السدي: هي التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق وتموت. وقال
الضحاك: هي التي تخنق وتموت. وقال قتادة: هي التي تموت في خناقها. وقال ابن عباس:
هي التي تختنق، فتموت. وحكي عن قتادة ان أهل الجاهلية كانوا يخنقونها، ثم يأكلونها.
والاولى حمل الآية على عمومها في جميع ذلك وهي التي تختنق حتى تموت، سواء كان في
وثاقها أو بادخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص أو غير ذلك، لان الله (تعالى) وصفها
بأنها المنخنقة، ولو كان الامر على ما حكي عن قتادة، لقال: " والمخنوقة " .

وقوله: " والموقودة " يعني التي تضرب حتى تموت: يقال: وقذتها أقذها وقذا وأوقذها يوقذها
إيقادا: إذا اثختها ضربا. قال الفرزدق:

شفارة تقذ الفصيل برجلها * فطارة لقوادم الابكار
وهو قول ابن عباس، وقاتادة والضحاك والسدي:

وقوله: " والمتردية يعني التي تقع من جبل، أو تقع في بئر أو من مكان عال، فتموت. وهو قول ابن عباس. وقتادة والسدي، والضحاك ومتى وقع في بئر ولا يقدر على موضع ذكاته، جاز أن يطعن ويضرب بالسكين في غير المذبح حتى

(٤٣١)

يبرد، ثم يؤكل. وقوله: " والنطيحة " يعني التي تنطح أو تنطح، فتموت والنطيحة بمعنى المنطوحة، فنقل من مفعول الي فعيل، فان قيل: كيف تثبت فيها الهاء، وفعيل إذا كان بمعنى مفعول مثل لحية دهين، وعين كحيل وكف خضيب، بلاهاء، التأنيث في شئ من ذلك؟ قيل: اختلف في ذلك فقال: بعض البصريين اثبت فيها الهاء أعني في النطيحة، لأنها جعلت كالاسم، مثل الطويلة والظريفة فوجه. هذا تأويل النطيحة الي معنى الناطحة. ويكون المعنى حرمت عليكم الناطحة التي تموت من نطاحها. وقال بعض الكوفيين: إنما يحذف الهاء من فعيلة بمعنى مفعولة إذا كانت صفة لاسم قد تقدمها، مثل كف خضيب، وعين كحيل، فاما إذا حذف الكف والعين والاسم الذي يكون فقيل نعتا له واجتزوا بفعيل أثبتوا فيه هاء التأنيث، ليعلم بثبوتها فيه أنها صفة للمؤنث دون المذكر فيقول: راينا كحيلة وخضيبة واكيلة السبع، فلذلك دخلت الهاء في النطيحة، لأنها صفة المؤنث. والقول بأن النطيحة بمعنى المنطوحة هو قول اكثر المفسرين: ابن عباس، وابوميسرة والضحاك، والسدي وقتادة، لانهم اجمعوا على تحريم الناطحة والمنطوحة إذاماتا.

وقوله: " وما اكل السبع " موضع (ما) رفع وتقديره وحرمت عليكم ما اكل السبع بمعنى ما قتله السبع. وهو قول ابن عباس، والضحاك وقتادة، وهو فريسة السبع. وقوله: " إلا ما ذكيتم " معناه إلا ما ادركتم ذكاته، فذكيتموه من هذه الاشياء التي وصفها. وموضع (ما) نصب بالاستثناء. واختلفوا في الاستثناء إلى ماذا يرجع فقال قوم: يرجع إلى جميع ما تقدم ذكره من قوله: " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع " الا ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم. وهو الاقوى. ذهب اليه علي (عليه السلام) وابن عباس قال: وهو أن تدركه تتحرك أذنه او ذنبه، أو تطرف عينه. وهو المروى عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) وبه قال الحسن وقتادة

(٤٣٢)

وإبراهيم وطاووس، وعبيد بن عمير والضحاك، وابن زيد وقال اخرون: هو استثناء من التحريم، لا من المحرمات، لان الميتة لا ذكاة لها، ولا الخنزير قالوا: والمعنى حرمت عليكم الميتة والدم وسائر ما ذكر إلا ما ذكيتم مما احله الله لكم بالتذكية، فانه حلال لكم. ذهب اليه مالك

وجماعة من أهل المدينة، والجبائي وسئل مالك من الشاة يخرق جوفها السبع حتى يخرج أمعاءها فقال لا أرى ان تذكى ولا يؤكل أي شئ يذكى منها. وقال كثير من الفقهاء إنه يراعى أن يلحق فيه حياة مستقرة، فيذكى ويجوز أن يؤكل وما يعلم أنه لاهية فيه مستقرة، فلا يجوز بحال. واختار الطبري الاقل. وقال: كل ما أدرك ذكاته مما ذكر من طير أو بهيمة قبل خروج نفسه ومفارقة روحه جسده، فحلال اكله إذا كان مما أحله الله لعباده واختار البلخي، والجبائي الاول، فان قيل: فما وجه تكرير قوله: " وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة " وجميع ما عدد تحريمه في هذه الآية وقد افتتح الآية بقوله: " حرمت عليكم الميتة " والميتة تعم جميع ذلك وان اختلفت أسباب موته من خنق أو ترد أو نطح أو اهلال لغير الله به أو كيل سبع. وانما يكون لذلك معنى على قول من يقول: إنها، وان كانت فيها حياة إذا كانت غير مستقرة، فلا يجوز أكلها. قيل:

الفائدة في ذلك ان الذين خوطبوا بذلك لم يكونوا يعدون الميت إلا مامات حنف انفه من دون شئ من هذه الاسباب، فاعلمهم الله ان حكم الجميع واحد، وان وجه الاستباحة هو التذكية المشروعة. وقال السدي إن ناسا من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك، ولا يعدونه ميتا. انما يعدون الميت الذي يموت من الوجع.

والتذكية: هوفري الوداج والحقوم إذا كانت فيه حياة، ولا يكون بحكم الميت. واصل الذكاء في اللغة تمام الشئ فمن ذلك الذكاء في السن، والفهم وهو تمام السن. قال الخليل: الذكاء أن تأتي في السن على قروحه، وهوسن في ذات الحافر، هي البزولة في ذات الخف، وهي الصلوجه في ذات الظلف. وذلك تمام استكمال القوة. قال الشاعر:

(٤٣٣)

يفضله اذا اجتهدا عليها * تمام السن منه والذكاء

وقيل جرى المذكيات غلاب اي جرى المسار التي قد أسنت ومعنى تمام السن النهاية في الشباب، فاذا نقص عن ذلك أوزاد، فلا يقال له الذكاء. والذكاء في الفهم أن يكون فهما تاما سريع القبول وذكيت النار إنما هو من هذا تأويله أتممت اشعالها فالمعنى على هذا ما ذكيتم أي ما ادركتم ذبحه على التمام.

وقوله: " وما ذبح على النصب " فالنصب: الحجارة التي كانوا يعبدونها وهي الاوثان. واحدها نصب، ويجوز أن يكون واحدا، وجمعه أنصاب. (وما)

موضعه رفع عطا على ما تقدم. وتقديره وحرم عليكم ما ذبح على النصب. وبه قال مجاهدو ابن جريج، وقتادة. وقال ابن جريج: النصب ليست اصناما الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تتصب ثلثمائة وستون حجرا. ومنهم من يقول ثلثمائة منها لخزاعه، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا

الدم على ما أقبل من البيت، وشرحوا اللحم، وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه، فانزل الله " لن ينال الله لحومها ولأدمائها...

الاية " وقوله: " وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق " موضع (ان) رفع. وتقديره. وحرّم عليكم الاستقسام بالازلام. وواحد الازلام زلم وزلم قال الراجز: بات يراعيها غلام كالزلم وهي سهام كانت للجاهلية مكتوب على بعضها أمرني ربي، وعلى بعضها نهاني ربي، فاذا أرادوا سفرا أو أمرأيتهم به. ضربوا تلك القداح فان خرج السهم الذي عليه أمرني ربي، مضى لحاجته وإن خرج الذي عليه نهاني ربي، لم يمض، وإن خرج مالميس عليه شئ أعادوها فبين الله (تعالى) أن ذلك حرام العمل به. والاستقسام الاستفعال من قسمت أمري أي قلبته ودبرته قال الراعي: وتركت قومي يقسمون أمورهم * اليك أم يتلثثون قليلا

(٤٣٤)

وقيل: معناه طلب قسم الارزاق بالقداح التي كانوا يتقاعلون بها في اسفارهم وابتداءات أمورهم قال الشاعر يفتخر بقوة عزيمته وانه لايلتفت إلى ذلك.

أولم اقسام فترثبني القسوم (١)

وبه قال ابن عباس، وقتادة وسعيد بن جبير، ومجاهد والسدي قال مجاهد:

هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم كانوا يتقاملون بها.

وقوله: " ذلكم فسق " معنى هذه الاشياء التي ذكرها فسق يعني خروج من طاعة الله إلى معصيته وهو قول ابن عباس، وأصله من فسقت الرطوبة: إذا خرجت من قشرها. قال الزجاج: ولوكان بعض هذه المرفوعات نصبا بتقدير وحرّم الله الدم ولحم الخنزير، لكان جائزا إلا انه لم يقرأ به احد والقراءة متبعة، لايجوز خلاف ما قرئ به.

وقوله: " اليوم يئس الذين كفروا من دينكم " نصب اليوم على الظرف.

والعامل فيه يئس ذو والفسق اليوم. وليس يراد به يوما بعينه ومعناه الآن يئس الذين كفروا من دينكم، كما يقول القائل: أنا اليوم قد كبرت، وهذا لا يصلح إلى اليوم يريد الآن.

وبئس على وزن فعل يئس على وزن يفعل - بفتح العين، وروي بكسرهما - وقيل: يئس على وزن لعب بكسر اللام، والعين - وذكر يئس.

والمعنى ان الله قد حول الخوف الذي كان يلحقكم منكم اليهم، ويئسوا من بطلان الاسلام، وجاء كم ما كنتم توعدون به من قوله، ليظهره على الدين كله.

والدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالقيام به. ومعنى يئس انقطع طمعهم من دينكم أن تتركوه، وترجعوا منه إلى الشرك. وبه قال ابن عباس والسدي وعطا.
وقيل: إن اليوم الذي ذكر هو يوم عرفة من حجة الوداع بعد دخول العرب كلها في الاسلام.
ذهب إليه مجاهد، وابن جريج وابن زيد. وقيل: يوم جمعة، لما نظر

(١) في المطبوعة "فتوئني" بدل "فترثني". الطبري ٩ - ٥١٠ مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٥٢. قسوم جمع قسم: الحظ الربث حبسك الانسان عن حاجته. (*)

(٤٣٥)

النبي (صلى الله عليه وآله) فلم ير الا مسلما موحدا، أو لم ير مشركا.
وقوله " فلا تخشوهم " هذا خطاب للمؤمنين نهاهم الله ان يخشوا ويخافوا من الكفار أن يظهروا على دين الاسلام، ويقهر والمسلمين ويرد وهم عن دينهم، ولكن اخشوني وخافوني إن خالفتم امري وارتكبتم معصيتي ان احل بكم عقابي وأنزل عليكم عذابي وهو قول ابن جريج، وغيره.
وقوله: " اليوم اكملت لكم دينكم " في تأويله ثلاثة اقوال:

احدها - قال ابن عباس، والسدي واكثر المفسرين إن معناه أكملت لكم فرائضي وحدودي وأمري ونهيي وحلالتي وحرامي بتزيلي ما انزلت، وتبياني ما بينت لكم، فلا زيادة في ذلك، ولانقضاء منه بالنسخ بعد هذا اليوم. وكان ذلك اليوم عام حجة الوداع قالوا: ولم ينزل بعد هذا على النبي (صلى الله عليه وآله) شئ من الفرائض في تحليل شئ، ولا تحريمه وأنه (عليه السلام) مضى بعد ذلك بأحدى وثمانين ليلة. وهو اختيار الجبائي والبلخي، فان قيل: أكان دين الله ناقصا في حال حتى أتمه ذلك اليوم؟ قيل: لم يكن دين الله ناقصا في حال، ولا كان إلا كاملا، لكن لما كان معرضا للنسخ، والزيادة فيه. وذلك يجري مجرى وصف العشرة بانها كاملة العدد، ولا يلزم أن توصيف بانها ناقصة، لما كان عدد المائة اكثر منها، واكمل.

فكذلك ما قلناه. وقال الحكم وسعيد بن جبير وقتادة معناه أكملت لكم حجكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجون دون المشركين، ولا يخالطكم مشرك وهو الذي اختاره الطبري قال لان الله قد انزل بعد ذلك قوله: " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله " وقال الفراء هي آخر آية نزلت. وهذا الذي ذكره لوصح لكان ترجيحا لكن فيه خلاف. وقال الزجاج: معنى اكملت لكم الدين كفتيكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم، كما تقول: الآن كمل لنا الملك. وكمل لنا ما نريد أي كفينا ما كنا تخافة. وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي (صلى الله عليه وآله) عليا علما للامة يوم غدير خم منصرفه عن حجة الوداع، فانزل

(٤٣٦)

الله يومئذ " اليوم اكملت لكم دينكم " .

وقوله: " واتممت عليكم نعمتي " خاطب الله (تعالى) جميع المؤمنين بأنه أتم نعمته عليهم باظهارهم على عدوهم المشركين، وفيهم اياهم عن بلادهم، وقطعه طمعهم من رجوع المؤمنين، وعودهم إلى ملة الكفر، وانفراد المؤمنين بالحج البلد الحرام. و: قال ابن عباس وقتادة والشعبي.

وقوله: " ورضيت لكم الاسلام دينا " معناه رضيت لكم الاستسلام لامري والانقياد لطاعتي على ما شرعت لكم من حدوده، وفرائضه ومعالمه دينا يعني بذلك طاعة منكم لي. فان قيل: أوما كان الله راضيا للاسلام دينا لعباده الايوم أنزلت هذه الآية؟ قيل: لم يزل الله راضيا لخلقه الاسلام دينا، لكنه لم يزل يصف نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) واصحابه في درجات الاسلام، ومراتبه درجة بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالا بعد حال حتى اكمل لهم شرائعه وبلغ بهم أقصى درجاته، ومراتبه، ثم قال: حين أنزلت هذه الآية " ورضيت لكم الاسلام دينا " فالصفة التي لها اليوم والحال التي انتم عليها، فالزموه، ولاتفارقوه. قال ابن عباس وعمر وعامر الشعبي وقتادة، كان ذلك يوم الجمعة. وقال الطاووس بن شهاب، وشهر ابن خوشب، واكثر المفسرين نزلت هذه الآية يوم عرفة حجة الوداع. وروى حنش عن ابن عباس، قال: ولد النبي (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت المائدة يوم الاثنين، وانزلت " اليوم اكملت لكم دينكم يوم الاثنين " ورفع الذكر يوم الاثنين. وقال الربيع بن أنس: نزلت في المسير من حجة الوداع. وقوله: " فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم " معناه من دعته الضرورة في مجاعة لان المخمصة شدة ضمور البطن. لاثم أي غير مائل إلى إثم.

والمخمصة مفعلة، مثل المجنبه والمنجلة من خمص البطن وهوطيه، واضطماره من الجوع، وشدة السغب هاهنا دون أن يكون مخلوقا كذلك. قال النابغة الدباني

(٤٣٧)

في صفة امرأة بخمص البطن:

والبطن ذوعكن خميص لين * والنحر ينفجه بندي مقعد (١)
ولم يرد بذلك وصفها بالجوع، لكن أراد وصفها بلطافة طي ما علا الاوراك والافخاذ من جسدها، لان ذلك المحمود من النساء. فاما الاضطمار من الضر فكقول أعشى ثعلبية:
تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غير تبن خماصا (٢)
يعني يبتن مضطرات البطن من الجوع. وقال بعض نحوي البصريين:

المخمصة المصدر من خمسه الجوع. وغيره يقول: هو اسم للمصدر، وكذلك تقع المفعلة اسما في المصادر للتأنيث، والتذكير: والذي قلناه هو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد. وقوله: " غير متجانف لاثم " نصب على الحال. والمتجانف المتمايل للاثم المنحرف اليه. ومعناه في هذا الموضع المعتمد له القاصد اليه من جنف القوم: إذا مالوا. وكل اعوج، فهو اجنف.

والمعنى فمن اضطر إلى أكل الميتة، وما عدد الله تحريمه عند المجاعة الشديدة غير متعمد إلى ذلك، ولا مختار له، ولا مستحل له على كل حال، فان الله أباحه له. تناول ذلك مقدار ما يمسك رمقه، لازيادة عليه. وهو قول أهل العراق. وقال أهل المدينة: يجوز أن يشبع منه عند الضرورة. وما قلناه قول ابن عباس، ومجاهد وقتادة. قال قتادة: " غير متجانف لاثم " أي غير عاص بان يكون باغيا أو محاربا أو خارجا في معصية. وقال ابن زيد: لا تأكل ذلك ابتغاء الاثم ولا جرأة عليه.

وقوله: " فان الله غفور رحيم " في الكلام متروك دل ما ذكر عليه، لان المعنى فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية غير متجانف لاثم، فأكله لدلالة الكلام عليه.

ومعنى " فان الله غفور رحيم " ان الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية

(١) - ديوانه: ٦٦ واللسان: (قعد). العكن: اطواء البطن. تنفجه: ترفعه.

(٢) ديوانه: ١٠٩. ومجاز القرآن ١: ١٥٣. (*)

(٤٣٨)

أكله في مخمصة متجانف، لاثم غفور لذنوبه أي ساتر عليه أكله، ويعفو عن مؤاخذته به، وليس يريد أن يغفر له عقاب ذلك، لانه اباحه له، فلا يستحق عليه العقاب وهو رحيم أي رقيق بعباده. لان رحمته ورفقه أنه أباح لهم أكل ما حرم عليهم في حال الخوف على النفس وروى المثني قال: قلنا يارسول الله (صلى الله عليه وآله) إنا بارض يصيبنا فيها مخمصة، فما يصلح لنا من الميتة؟ قال: اذا لم تصطبحوا أو تعتبقوا أو تختنقوا بها بقلًا، فشأنكم بها. وقال الحسن: يأكل منها مسكته.

وذكر في تختنقوا خمس لغات: تختنقوا بالهمزة وتختنقوا - بحذفها - وتختنقوا - بقلبها ياء - وتختنقوا وتخفوا - بالتخفيف - والخفأصل البردي كانوا يقشرونه ويأكلونه في المجاعة، فمع وجود ذلك لايجوز اكل الميتة.

وقوله: " فان الله غفور رحيم " عقيب قوله: " فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم " لا يدل على ان له أن يعاقبهم على فعل المباح، لان الوجه في ذلك أنه أراد أن يصف نفسه بمغفرة الذنوب وسترها، والصفح عنها لا يدل بذلك على أنه أحرى ألا يؤخذ بفعل المباحات التي ليست بذنوب، كما قال: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " فدل على أن ما يفعله من المغفرة أو العقوبة صواب وحكمة، ليكون أعم في الدلالة على استحقاقه الاوصاف المحمودة.

واجاز بعضهم أن يكون ذلك ثوابا لبعض المكلفين قدمه، كما انه يجوز ان تكون الحدود عقابا لهم قدمه فلا شبهة في ذلك.
قوله تعالى:

(يسئلونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب) (٥)
- آية بلاخلاف -.

(٤٣٩)

موضع (ما) رفع ويحتمل أن يكون وحدها اسما وخبرها قوله: (ذا) واحل من صلة ذا. وتقديره اي شئ الذي احل لهم؟ ويحتمل أن يكون ما وذا اسما واحدا، ورفع بالابتداء وتقديره أي شئ احل لهم؟ واحل لهم خبر الابتداء.
فمعنى الآية يسألك يا محمد اصحابك ما الذي احل لهم اكله من المطاعم، فقل لهم:
احل لكم الطيبات منها وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح على قول الطبري والجبائي، وغيرهما وقال البلخي: الطيبات هو ما يستنذبه. قال قوم:
واحل لكم ايضا مع ذلك صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكواسب من سباع الطير، والبهائم ولايجوز أن يستباح عندنا أكل شئ مما اصطاده الجوارح من السباع سوى الكلب إلا ما ادرك ذكاته. وسميت الطير جوارح، لجرحها أربابها وكسبها اياهم أفواتهم من الصيد يقال منه: جرح فلان أهله خيرا إذا كسبهم خيرا.

وفلان جارحة أهله يعني كاسبهم، ولجارحة لفلانة أي لاكاسب لها قال اعشى بني ثعلبة:
ذات خد منضج ميسمها * تذكر الجارح ما كان اجترح
يعني اكتسب. وقوله: " وما علمتم " تقديره وصيديما علمتم من الجوارح وحذف لدلالة الكلام عليه، لان القوم على ما روي كانوا سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أمرهم بقتل الكلاب عما يحل لهم اتخاذه منها، وصيده. فانزل الله (تعالى)

فيما سألوا عنه هذه الآية، فاستثنى (عليه السلام) مماكن حرم اتخاذه منها، وأمر بقتله كلاب الصيد، وكلات الماشية، وكلات الحرث وأذن في اتخاذا ذلك ذكرت ذلك سلمى ام رافع عن أبي رافع. قال جاء جبرائيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يستأذن عليه، فاذن له فقال: قدأنا لك يارسول الله فقال: اجل ولكننا لاندخل بيتا فيه كلب. قال ابورافع: فأمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبج عليها، فتركته رحمة لها. وجئت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاخبرته، فأمرني فرجعت، وقتلت الكلب، فجاؤا فقالوا:

يارسول الله ما يحل لنا من هذه الامة التي أمرت بقتلها، فسكت رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(٤٤٠)

فانزل الله " يسألونك ماذاحل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكليين " وبه قال عكرمة ومحمد بن كعب القرطي واختلفوا في الجوارح التي ذكر الي الاية: بقوله: " وما علمتم من الجوارح مكليين " فقال قوم: هو كل ما علم فصبد فيتعلمه بهيمة كانت او طائرا. ذهب ليه الحسن، ومجاهد وحنيفة بن عبدالرحمن. ورووه عن ابن عباس، وطاووس وعلي بن الحسين وابي جعفر (ع)

وقالوا: الفهد والبازي من الجوارح. وقال قوم: عنى بذلك الكلاب خاصة دون غيرها من السباع. ذهب اليه الضحاك والسدي وابن عمر وابن جريج. وهو الذي رواه أصحابنا عن ابي عبدالله (عليهما السلام) فاما ما عدا الكلاب، فما ادرك ذكاته، فهو مباح، وإلا فلايحل أكله. ويقوي قولنا قوله تعالى: " مكليين " وذلك مشتق من الكلب ومن صاد بالباز والصقر لايكون مكليا.

وقوله: " مكليين " نصب على الحال وتقديره وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح مكليين أي في هذه الحال. يقال: رجل مكلب وكلات إذا كان صاحب صيد بالكلاب. وفي ذلك دليل على أن صيد الكلب الذي لم يعلم، حرام إذا — لم — (١) تدرك ذكاته.

وقوله: " تعلمونهن مما علمكم الله " معناه تؤدبون الجوارح، فتعلمونهن طلب الصيد لكم بما علمكم الله من التأديب الذي أدبكم به. وقال بعضهم: معناه كما علمكم الله. ذهب اليه السدي. وهذا ضعيف لان من المعنى الكاف لايعرب في اللغة، ولايينهما تقارب، لان الكاف للتشبيه ومن للتبعيض واختلفوا في صفة التعليم للكلب فقال بعضهم: هو ان يستشلى لطلب الصيد إذا أرسله صاحبه، ويمسك عليه إذا أخذه، فلا يأكل منه ويستجيب له إذا دعاه. فاذا توالي منه ذلك كان معلما.

ذهب إليه ابن عباس وعط وابن عمرو الشعبي وطاووس وابراهيم والسدي. قال عطا: إذا أكل منه فهو ميتة. وقال ابن عباس: إذا اكل الكلب من الصيد، فلا تأكل منه فانما امسك على نفسه. وهو الذي دلت عليه أخبارنا. غير أنهم اعتبروا ان يكون

(١) - (لم) - ساقطة من المطبوعة. (*)

(٤٤١)

اكل الكلب للصيد دائما. فاما إذا كان نادرا، فلا بأس ما أكل منه. وقال ابو يوسف، ومحمد: حد التعليم أن يفعل ذلك ثلاث مرات. وقال قوم: لاحد لتعليم الكلاب، فاذا فعل ما قلناه، فهو معلم. وقد دل على ذلك رواية اصحابنا، لانهم رووا أنه إذا أخذ كلب مجوسي فعلمه في الحال، فاصطاد به، جاز أكل ما يقتله. وقد بينا أن صيد غير الكلب، لا يحل أكله الا ما أدرك ذكاته. فلا يحتاج أن تراعي كيف تعلمه، ولا اكله منه. ومن أجاز ذلك أجاز أكل ما اكل منه البازي والصقر. ذهب اليه عطا وابن عباس والشعبي وابراهيم، وقالوا: تعلم البازي هو أن يرجع إلى صاحبه. وقال قوم: جوارح الطير والسباع سواء في ذلك ما أكل منه، وما لا يؤكل. روي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) والشعبي وعكرمة، وابن جريج. وقال قوم: تعليم كل جارحة من البهائم والطير واحد وهو أن يشلى على الصيد، فيستشلى، ويأخذ الصيد، ويدعوه صاحبه، فيجيب، فاذا كان كذلك كان معلما اكل منه أو لم يأكل. روي ذلك عن سلمان رواه قتادة عن ابي وقاص. وقال لولم يبق إلا جذية، جاز أكلها وبه قال ابو هريرة، وابن عمر. وقد بينا مذهبنا في ذلك وهو الذي رواه عدي بن حاتم عن النبي (صلى الله عليه وآله).

وقوله: " فكلوا مما امسكن عليكم " يقوي قول من قال: ما أكل منه الكلب لا يجوز أكله، لانه أمسك على نفسه. ومن شرط استباحة ما يقتله الكلب ان يكون صاحبه سمي عند إرساله، فان لم يسم لم يجزله اكله إلا إذا ادرك ذكاته وحده أن يجده يتحرك: عينه أو أذنه أو ذنبه، فيذكيه حينئذ بفري الحقوم والوداج، واختلفوا في (من) - من - قوله: " مما امسكن عليكم " فقال قوم:

هي زائدة، لان جميع ما يمسه، فهو مباح. وتقديره فكلوا ما امسكن عليكم. وجرى ذلك مجرى قوله: " يكفر عنكم من سيئاتكم " وقوله: " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " وتقديره وينزل من السماء جبالا فيها برد. وقال بعضهم: وينزل من

(٤٤٢)

السماء من جبال فيها من برد أي من السماء من برد يجعل الجبال من برد في السماء ويجعل الانزال منها وانكر قوم ذلك وقالوا (من) للتبعيض ويقوي قولهم: قد كان من مطر وكان من

حديث. يقول هل كان من مطر، وهل كان من حديث عندكم ونكفر عنكم من سيئاتكم ما يشاؤه ويريده. وقوله: " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " يجيز حذف (من) برد ولايجيز حذفها من الجبال. ويقول:

المعنى وينزل من السماء من امثال جبال بردا، ثم أدخلت في من البرد مفسر عنده عن أمثال الجبال. وقد أقيمت الجبال مقام الامثال. والجبال هي جبال فلايجيز حذف (من) من الجبال، لانها دالة على أن في السماء الذي أنزل منه البرد أمثال جبال برد، لاجبال برد. واجاز حذف (من) من برد، لان البرد مفسر من الامثال، كما يقال: عندي رطلان زيتا، ومن زيت. وليس عندك الرطلان وانما عندك المقدار، فمن تدخل في المفسر وتخرج منه، وكذلك عند هذا القائل من السماء من امثال جبال، وليس بجبال. وقال: فان كان أنزل من جبال في السماء من برد جبالا، ثم حذف الجبال الثانية فالجبال الاولى في السماء جاز كما يقال: أكلت من الطعام يريدا كلت من الطعام طعاما، ثم يحذف الطعام، ولايحذف (من). والاقوى أن تكون من في الآية للتبعيض، لان مايمسكه الكلب من الصيد، لايجوز أكل جميعه لان في جملته ما هو حرام من الدم، والفرت والغدد، وغير ذلك مما لايجوز أكله، فاذا قال: فكلوا مما امسكن عليكم، أفاد ذلك بعض ما أمسكن، وهو الذي أباح الله أكله من اللحم، وغيره. وقوله: " ونكفر عنكم من سيئاتكم " قدبيننا الوجه فيه وسنبين الوجه في قوله: " من السماء جبال فيها من برد " إذا انتهينا اليه ان شاء الله.

وقوله: " واذكروا اسم الله عليه " صريح في وجوب التسمية عند الارسال. وهو قول ابن عباس والسدي وغيرهما. وقوله: " واتقوا الله " معناه واجتنبوا ما نهاكم عنه، فلا تقربوه، واحذروا معاصيه في ارتكاب ما نهاكم عنه في أن تأكلوا من صيد الكلب غير المعلم، أو مما لم يمسه عليكم، أو تأكلوا مما لم يسم

(٤٤٣)

الله عليه من الصيد، والذبايح مما صاده اهل الاوثان والاصنام " ان الله سريع الحساب " معناه التخويف بأنه سريع حسابه لمن حاسبه على نعمه، لایشغله حساب بعض عن بعض. ومتى غاب الكلب والصيد عن العين، ثم رآه ميتا لايجوز أن يأكله، لانه يجوز أن يكون مات من غير قتل الصيد. وفي الحديث: (كل ما أصميت ولا تأكل ما أنميت) فمعنى اصميت أن تصطاد بكلب أو غيره، فمات وأنت تراه مات بصيدك. واصل الصميان السرعة والخفة: ومعناه هاهنا ما أسرع فيه الموت وأنت تراه. ومعنى ما أنميت ما غاب عنك فلاتدري مات بصيدك أو بعارض آخر يقال نمت الرمية: إذا مضت والسهم فيها. وأنميت الرمية: إذا رميتها، فمضيت، والسهم فيها قال امرؤ القيس:

فهو لا تنمى رميته * ماله لاعد من نفره

وقال الحارث بن وعله الشيباني:

قالت سليمان فد غنيت فتى فالان لاتصمى ولا تنمى أي عشت ومتى اخذ الكلب الصيد ومات في يده من غير أن يجرحه، لم يجز أكله. واجاز قوم ذلك. والاول أحوط. وكل من لا تؤكل ذبيحته من أجناس الكفار، لا يؤكل صيده أيضا. فأما الاصطياد بكلابه المتعلمه فجاز إذا صاده المسلم. قوله تعالى:

(اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اتوا الكتاب من قبلكم إذا اتيمتوهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله

(٤٤٤)

وهو في الآخرة من الخاسرين) (٥) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أحل للمؤمنين الطيبات، وهي الحلال على ما بينا القول فيه في الآية الاولى، دون ما حرم في الآية المتقدمة. وقيل: معنى الطيبات ما يستلذ ويستطاب. وظاهر الآية على هذا يقتضي تحليل كل مستطاب إلا ما قال دليل على تحريمه.

وقوله: " وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم " رفع بالابتداء " وحل لكم " خبره وذلك يختص عند اكثر اصحابنا بالحبوب، لانها المباحة من أطعمة أهل الكتاب، فاما ذبائحهم وكل مائع يباشرونه بأيديهم فانه تحبس ولا يحل استعماله وتذكيبتهم لاتصح لان من شرط صحتها التسمية لقوله: ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وهؤلاء لا يذكرون اسم الله. وإذا ذكروه قصدوا بذلك اسم من ابد شرع موسى أو عيسى أو اتخذ عيسى ابنا. وكذب محمدا (صلى الله عليه وآله)

وذلك غير الله. وقد حرم الله ذلك بقوله: " وما اهل لخير الله به " على ما مضى القول فيه واكثر المفسرين على أن قوله: " وطعام الذين اوتوا الكتاب " المراد به ذبائحهم وبه قال قوم من اصحابنا: فمن ذهب اليه الطبري والبلخي والجبائي واكثر الفقهاء، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: أراد بذلك ذبائح كل كتابي ممن أنزل عليه التوراة والانجيل، أو ممن دخل في ملتهم ودان بدينهم، وحرم ما حرموا، وحل ما حللوا. ذهب اليه ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن المسيب، والشعبي وابن جريج، وعطا والحكم وقتادة. واجازوا ذبائح نصارى بني تغلب وقال آخرون:

إنما عنى به الذين أنزلت التوراة والانجيل عليهم، ومن كان دخيلا فيهم من سائر الامم، ودان بدينهم، فلاتحل ذبائحهم. حكى ذلك الربيع عن الشافعي من الفقهاء.

وروي تحريم ذبائح نصارى تغلب عن علي (عليه السلام) ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال مجاهد، وابراهيم وابن عباس وقتادة والسدي والضحاك، وابن زيد وابوالدرداء إن اطعام الذين اوتوا الكتاب ذبائحهم وغيرها من الاطعمة.

(٤٤٥)

وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وغيرهم. وقوله: " وطعامكم حل لهم " فيه بيان إن طعامنا ايضا حل لهم، فان قيل فما معنى ذلك، وهم لايستحلون طعامنا بتحليلنا لهم ذلك؟ قلنا عنه جوابان: احدهما - ان الله بين بذلك أنه حلال لهم ذلك سواء قبلوه، أو لم يقبلوه. والثاني - أن يكون حلال للمسلمين بذله لهم، ولو كان محرما عليهم، لما جاز لمسلم بذله اياه. وقوله: " والمحصنات من المؤمنات " معناه واحل لكم العقد على المحصنات يعني العفائف من المؤمنات. وقيل هن الحرائر منهن، ولايدل ذلك على تحريم من ليس بعفيفة، لان ذلك دليل خطاب يترك لدليل يقوم على خلافه، ولاخلاف أنه لو عقد على من ليس بعفيفة، ولا امة كان عقده صحيحا غير مفسوخ، وان كان الاولى تجنبه. وكذلك لو عقد على أمة بشرط جواز العقد على الامة على مامضى القول فيه. واختلف المفسرون في المحصنات التي عنا هن هاهنا فقال بعضهم عنى بذلك الحرائر خاصة: فاجرة كانت أو عفيفة وحرموا إماء اهل الكتاب بكل حال لقوله: " ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ". ذهب اليه مجاهد وطارق بن شهاب، وعامر الشعبي والحسن وقتادة. وقال اخرون: أراد بذلك العفائف من الفريقين: حرائر كن او إماء، وأجازوا العقد على الامة الكتابية. روى ذلك أيضا عن مجاهد، وعامر الشعبي وسفين وابراهيم والحسن بن ابي الحسن وقتادة في رواية، ثم اختلفوا في المحصنات من الذين اوتوا الكتاب، فقال قوم: هو عام في العفائف منهن: حرة كانت أو أمة، حربية كانت او ذمية. وهو قول من قال المراد بالمحصنات العفائف. وقال اخرون:

أراد الحرائر منهن: حرييات كن أو ذميات. وعلى قول الشافعي المراد بذلك من كان من نساء بني اسرائيل دون من دخل فيهن من سائر الملل. وقال قوم: أراد بذلك الذميات منهن. ذهب اليه ابن عباس. واختار الطبري أن يكون المراد بذلك الحرائر

(٤٤٦)

من المسلمات والكتايبات. وعندنا لايجوز العقد على الكتابية نكاح الدوام، لقوله تعالى: " ولاتنكح المشركات حتى يؤمن، " ولقوله: " ولاتمسكوا بعصم الكوافر " فاذا ثبت ذلك، قلنا في قوله: " والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب " تأويلان.

احدهما - ان يكون المراد بذلك اللاتي أسلمن منهن. والمراد بقوله: " والمحصنات من المؤمنات " من كن في الاصل مؤمنات. ولدن على الاسلام قيل: إن قوما كانوا يتخرجون من العقد على الكافرة إذا اسلمت فبين الله بذلك انه لاخرج في ذلك، فلذلك أفردهن بالذكر حكى ذلك البلخي.

والثاني - أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين، لانه يجوز عندنا وطؤها بعقد المتعة، وملك اليمين على أنه روى أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) أن ذلك منسوخ بقوله: " ولاتنكح المشركات حتى يؤمن " روى عن ابي عبدالله (ع)

انه قال: هو منسوخ بقوله: " ولاتمسكوا بعصم الكوافر " وقوله: " وإذا اتيتموهن اجورهن " يعني مهورهن. وهو عوض الاستمتاع بهن. وهو قول ابن عباس، وجميع المفسرين.

وقوله: " محصنين غير مسافحين ولامتخذي اخذ ان " نصب على الحال وتقديره أحل لكم المحصنات من الفريقيين، وانتم محصنون غير مسافحين، ولامتخذي أخذان يعني اعفاء غير مسافحين بكل فاجرة، وهو الزنا، ولامتخذي اخذ ان يعني اعنا غير مسافحين، ولامتخذي أخذان، ولامتفردين ببغية واحدة، خادنها وخادنته اتخذها لنفسه صديقة يفجر بها. وقد بينا معنى الاحصان ووجوهه، ومعنى السفاح والخدن في سورة النساء، فلوجه لاعادته وبذلك قال ابن عباس وقتادة والحسن.

وقوله: " ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين " يعني من يجدد ما أمر الله الاقرار به، والتصديق به من توحيد الله، ونبوة نبيه،

(٤٤٧)

والاقرار بما جاء به فقد حبط عمله يعني الاعمال التي يعملها، ويعتقدها قربات إلى الله، فانها تنحبط، ولايستحق عليها ثوابا، بل يستحق عليها العقاب، " وهو في الآخرة من الخاسرين " يعني الهالكين الذين غبنوا نفوسهم حظها من ثواب الله بكفرهم، واستحقاقهم العقاب على جدهم التوحيد، والاسلام. وقال قوم: إن قوله: " ومن يكفر بالايمان " عنى به اهل الكتاب، لان قوما تخرجوا من نكاح نساء أهل الكتاب، واكل طعامهم وما بين الله في هذه الآية. ذهب اليه قتادة وابن جريج ومجاهد وابن عباس. فان قيل ما معنى " ومن يكفر بالايمان " قيل:

الايمان هو الاقرار بتوحيد الله، وصفاته، وعدله، والاقرار بالنبى (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من عند الله. فمن جدد ذلك أو شيئاً منه كان كافراً بالايمان.

وقد حبط عمله الذي يرجو به الفوز والنجاة. وهو في الآخرة من الخاسرين. وقال مجاهد:
معناه من يكفر بالله. قال البلخي لا يعرف تأويل مجاهد في اللغة.
قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا
برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء
أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم
وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم
تشكرون) (٦) - آية بلاخلاف -

— القراءة —

قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب، والاعشى إلا النفار
" وأرجلكم " - بالنصب - الباقون بالجر وقرأ لمستم بلال حمزة والكسائي

(٤٤٨)

وخلف الباقون لامستم بالف هاهنا وفي النساء هذا خطاب للمؤمنين أمرهم الله إذا أرادوا القيام
إلى الصلاة، وهم على غير طهر، أن يغسلوا وجوههم، ويفعلوا ما أمرهم الله به فيها. وحذف
الارادة، لان في الكلام دلالة عليه، ومثله " فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله " ومعناه وإذا اردت
قراءة القرآن فاستعذ، وإذا قمت فيهم فاقمت لهم الصلاة ومعناه فاردت أن تقيم لهم الصلاة. ثم
اختلفوا هل يجب ذلك كلما أراد القيام إلى الصلاة أو بعضها أو في أي حال هي؟ فقال قوم:
المراد به إذا اراد القيام اليها، وهو على غير طهر. وهو الذي اختاره الطبري والبلخي
والجبائي والزجاج وغيرهم. وهو المروي عن ابن عباس، وسعد بن ابي وقاص، وابي موسى
الاشعري وأبي العالية، وسعيد بن المسيب وجابر بن عبدالله، وابراهيم والحسن والضحاك،
والاسود والسدي، وغيرهم. وقال آخرون: معناه إذا قمتم من نومكم إلي الصلاة ذهب اليه زيد
ابن اسلم والسدي وقال آخرون: المراد به كل حال قيام الانسان إلى الصلاة، فعليه ان يجدد
طهر الصلاة. ذهب اليه عكرمة. وقال: كان علي يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية. وقال
ابن سيرين إن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة، والاول هو الصحيح عندنا. وما روي عن
علي (عليه السلام)

في تجديد الوضوء عند كل صلاة محمول على الندب. وقال قوم: كان الفرض أن يتوضأ لكل
صلاة، ثم نسخ ذلك بالتخفيف، وهو المروي عن ابن عمر انه حدثته أسماء بنت زيد بن
الخطاب أن عبدالله بن حنظلة بن ابي عامر الغسيل حدثها أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر

بالوضوء عند كل صلاة، فشق ذلك عليه فأمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث، فكان عبدالله يرى أن فرضه عليه، فكان يتوضأ وروى سليمان بن بريدة عن ابيه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله)

يتوضأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال عمر: يارسول الله صنعت شيئاً ما كنت تصنعه ! قال: عمدا فعلته يا عمر. وقال الحسين بن علي المغربي: معنى إذا قمتم إذا عزمتم عليها وهممتم بها. قال الراجز للرشيد:

(٤٤٩)

ما قاسم دون الفتى ابن امه * وقد رضيناها فقم فسمه
فقال: يا أعرابي، ما رضيت ان تدعونا إلى عقد الامر له قعودا حتى أمرتنا بالقيام، فقال: قيام عزم لاقيام جسم. وقال حريم الهمداني:

فحدثت نفسي أنها أو خيالها * اتانا عشاء حين قمنا لنهجعاً
أي حين عزمنا للهجوع. وأقوى الأقوال ما حكيناه أولاً من ان الفرض بالوضوء يتوجه إلى من اراد الصلاة وهو على غير طهر، فاما من كان متطهراً، فعليه ذلك استحباباً. وما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) والصحابة في تجديد الوضوء، فهو محمول على الاستحباب في جميع الاحوال، لاجماع أهل العصر على أن الفرض في الوضوء كان في كل صلاة، ثم نسخ، فعلمنا بذلك أن ما روي من تجديد الوضوء، كان على وجه الاستحباب. وقال قوم: إن الله (تعالى) أنزل هذه الآية اعلماً للنبي (صلى الله عليه وآله) أنه لا وضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الاعمال، لانه كان إذا أحدث امتنع من الاعمال حتى يتوضأ فاباح الله له بهذه الآية أن يفعل ما بداله من الاعمال بعد الحدث إلى عمل الصلاة، توضأ أولم يتوضأ. وأمره بالوضوء للصلاة. روى ذلك عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن عبدالله بن علقمة عن ابيه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا بال لم يرد جواب السلام حتى يتطهر للصلاة، ثم يجيب حتى نزلت هذه الآية.

وقوله: " فاغسلوا وجوهكم " امر من الله بغسل الوجه واختلفوا في حد الوجه الذي يجب غسله، فحده عندنا من قصاص شعر الرأس إلى محاذي شعر الذقن طولاً وما دخل بين الوسطى والابهام عرضاً، وما خرج عن ذلك فلا يجب غسله.

وما نزل من الشعر عن المحادر، فلا يجب غسله. وقال بعضهم: ما ظهر من بشرة الانسان من قصاص شعر رأسه منحدرًا إلى منقطع ذقنه طولاً، وما بين الاذنين عرضاً. قالوا والاذنان وما بطن من داخل الفم والانف والعين، فليس من الوجه، ولا يجب غسل ذلك، ولا غسل شئ منه. واما ما غطاه الشعر كالذقن، والصدغين،

(٤٥٠)

فان امرار الماء على ما علا الشعر عليه يجزي من غسل ما بطن منه من بشرة الوجه، لان الوجه عندهم ما ظهر لعين الناظر من ذلك يقابلها دون غيره. وهذا بعينه مذهبنا. إلا ما خرج عن الابهام والوسطى إلى الاذن، فانه لايجب غسله. ذهب إلى ما حكيناه إبراهيم، ومغيرة والحسن وابن سيرين، وشعبة والزهري وربعية وقتادة، والقاسم بن محمد وابن عباس، وابن عمر. قال ابن عمر: الاذنان من الرأس. وبه قال قتادة والحسن، ورواه أبوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وقال آخرون:

الوجه كل ما دون منابت شعر الرأس إلى منقطع الذقن طولاً، ومن الاذن إلى الاذن الاخرى عرضاً ما ظهر من ذلك لعين الناظر، وما بطن منه من منابت شعر اللحية، والعارضين، وما كان منه داخل الفم والانف، وما أقبل من الاذنين على الوجه.

وقالوا: يجب غسل جميع ذلك ومن ترك شيئاً منه لم تجزه الصلاة. ذهب إليه ابن عمر في رواية نافع عنه، وابوموسى الأشعري. ومجاهد وعطا والحكم، وسعيد بن جبير وطاؤوس، وابن شيرين والضحاك، وانس بن مالك وام سلمة، وابوايوب وابوامامة، وعمار بن ياسر وقتادة كلهم قالوا بتخليل اللحية، فاما غسل باطن الفم، فذهب إليه مجاهد، وحماد وقتادة. واما من قال: ما أقبل من الاذنين يجب غسله، وما أدبر يجب مسحه فالشعبي. وقد بينا مذهبنا في ذلك. والذي يدل على صحة ذلك أن ما قلناه مجمع على انه من الوجه. ومن ادعى الزيادة فعليه الادلة. واستوفينا.

ذلك في مسائل الخلاف وتهذيب الاحكام.

وقوله: " وايديكم إلى المرافق " منصوب بالعطف على الوجوه الواجب غسلها.

ويجب عندنا غسل الايدي من المرافق، وغسل المرافق معها إلى رؤوس الاصابع، ولا يجوز غسلها من الاصابع إلى المرافق (وإلي) في الآية بمعنى مع كقوله: " تاكلوا اموالهم إلى اموالكم " وقوله: " من انصاري إلى الله " وأراد بذلك (مع) قال امرؤ القيس:
له كفل كالدعص لبدنه الندى * الي حارك مثل الرتاج المضيب

(٤٥١)

وقال النابغة الجعدي:

ولوح ذراعين في بركة * إلى جؤجؤ رهل المنكب

اراد مع حارك ومع رهل. وطعن الزجاج على ذلك فقال: لوكان المراد بالي مع، لوجب غسل اليد إلى الكتف، لتناول الاسم له. وانما المراد بالي الغاية والانتهاء، لكن المرافق يجب غسلها

مع اليدين. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لانالو خلينا وذلك، لقلنا بما قاله. لكن خرجنا بدليل. ودليلنا على صحة ما قلناه: اجماع الامة على أنه متى بدأ من المرافق كان وضوءه صحيحا وإذا جعلت غاية ففيه الخلاف. واختلف أهل التأويل في ذلك، فقال مالك بن أنس: يجب غسل اليدين إلى المرفقين، ولا يجب غسل المرفقين. وهو قول زفر. وقال الشافعي: لأعلم خلافا في ان المرافق يجب غسلها. وقال الطبري: غسل المرفقين، وما فوقهما مندوب اليه غير واجب. وانما. اعتبرنا غسل المرافق، لاجماع الامة على أن من غسلها صحت صلاته. ومن لم يغسلها، ففيه الخلاف. والمرافق جمع مرفق. وهو المكان الذي يرتفق به، ويتكأ عليه على المرفقة وغيرها.

وقوله: " وامسحوا برؤوسكم " اختلفوا في صفة المسح، فقال قوم: يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح، وهو مذهبنا. وبه قال ابن عمر، والقاسم بن محمد، وعبد الرحمن بن ابي ليلى، وابراهيم والشعبي وسفيان. واختاره الشافعي واصحابه والطبري. وذهب قوم إلى انه يجب مسح جميع الرأس ذهب اليه مالك. وقال ابو حنيفة، وابويوسف ومحمد: لايجوز مسح الرأس باقل من ثلاثة أصابع. وعنه روايتان فيهما خلاف، ذكرناهما في الخلاف. وعندنا لايجوز المسح إلا على مقدم الرأس. وهو المروي عن ابن عمر والقاسم بن محمد، واختاره الطبري. ولم يعتبر احد من الفقهاء ذلك. وقالوا: أي موضع مسح أجزاءه وإنما اعتبرنا المسح ببعض الرأس، لدخول الباء الموجبة، للتبويض لان دخولها في الموضع الذي يتعدى الفعل فيه بنفسه لوجه له غير التبعض والإكان لغوا. وحملها على الزيادة لايجوز مع

(٤٥٢)

إمكان حملها على فائدة مجددة، فان قيل: يلزم على ذلك المسح ببعض الوجه في التيمم قلنا كذلك نقول، لانانقول بمسح الوجه من قصاص الشعر إلى طرف الانف ومن غسل الرأس، فانه لايجزيه عن المسح عندنا وخالف جميع الفقهاء في ذلك، وقالوا يجزيه لانه يشتمل عليه. وهذا غير صحيح، لان حد المسح هو إمرار العضو الذي فيه نداوة على العضو الممسوح من غير أن يجري عليه الماء. والغسل لا يكون الا بجريان الماء عليه، فمعناها مختلف، وليس إذا دخل المسح في الغسل يسمى الغسل مسحا، كما أن العمامة لاتسمى خرقة، وان كانت تشتمل على خرق كثيرة.

وقوله: " وارجلكم إلى الكعبين " عطف على الرؤوس فمن قرأ بالجر ذهب إلى انه يجب مسحها كما وجب مسح الرأس، ومن نصبهما ذهب إلى انه معطوف على موضع الرؤوس، لان موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وانماجر الرؤوس لدخول الباء الموجبة للتبويض على ما بيناه فالقراءتان جميعا تفيدان المسح على ماذهب اليه. وممن قال بالمسح ابن عباس

والحسن البصري وابو علي الجبائي ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم ممن ذكرناهم في الخلاف، غير أنهم أوجبوا الجمع بين المسح والغسل بالمسح بالكتاب، والغسل بالسنة وخيرة الطبري في ذلك. وأوجبوا كلهم استيعاب جميع الرجل ظاهرا وباطنا. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رؤوس الاصابع إلى الكعبين. وهما الناتئان في وسط القدم على ما استدل عليه. وقال عكرمة عن ابن عباس: الرضوء غسلتان ومسحتان. وبه قال أنس بن مالك. وقال عكرمة ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح. وبه قال الشعبي: ألا ترى أن التيمم يمسخ ما كان غسلا ويلغي ما كان مسحا. وقال قتادة افترض الله مسحتين وغسلتين. روى أوس ابن أبي أوس قال: رأيت النبي (صلى الله عليه وآله) توضأ ومسح على نعليه، ثم قام فصلي. وروى حذيفة قال: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) سباطة قوم، فبال عليها قائما، ثم دعا بماء، فتوضأ ومسح على نعليه. وروى حبة الغربي قال: رأيت علي ابن ابي طالب (عليه السلام) شرب في الرحبة قائما، ثم توضأ ومسح علي نعليه.

وروي عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمسح

(٤٥٣)

على رجليه. وعنه أنه قال: إن كتاب الله المسح ويأبى الناس الا الغسل. وعن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال ما نزل القرآن إلا بالمسح. فان قيل: القراءة بالجر ليست على العطف على الرؤوس في المعنى. وانما عطف عليها على طريق المجاورة، كما قالوا: حجر ضب خرب، وخرب، من صفات الحجر لا الضب وكما قال الشاعر:

كان بثيرا في عرائين وبله * كبير اناس في بجاد مزمل

والمزمل من صفة الكبير لالبجاد. وقال الاعشى:

لقد كان في حول ثواء ثويته * تقضى لبانات ويسام سائم قلنا: هذا لايجوز من وجوه:

احدها - ما قال الزجاج أن الاعراب بالمجاورة، لايجوز في القرآن، وانما يجوز ذلك في ضرورة الكلام والشعر.

والثاني - أن الاعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف فاما قول الشاعر:

فهل انت ان ماتت اتانك راحل * إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذي هو الفاء، فانه يمكن أن يكون أراد الرفع وانما جر الراوي وهما. ويكون عطف على راحل يكون قد أقوى لان القصيدة مجرورة. وقال قوم: أراد بذلك

الامر وإنما جر لاطلاق الشعر.

والثالث - أن الاعراب بالمجاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس. فاما مع حصول اللبس، فلايجوز، ولايشتهبه على احد أن خرب من صفة حجر، لالضب.
وكذلك قوله: مزمل من صفة الكبير لالبجاد. وليس كذلك في الآية، لان الارجل يمكن أن تكون ممسوحة ومغسولة، فاما قول الشاعر: ثواء ثويته، فانما جره بالبدل من الحول والمعنى لقد كان في ثواء ثويته تقضى لبانات. وهو من بدل الاشتمال، كقوله: " قتل اصحاب الاخدود النار ". وقول الشاعر:

لم يبق الا اسير غير منفلت * وموثق في عقال الاسر مكبول
فليس خفض موثق على المجاورة، لان معنى البيت لم يبق غير اسير قالوا بمعنى

(٤٥٤)

غير وهي تعاقبها في الاستثناء. فقوله غير موثق عطف المعنى على موضع اسير.
وتقديره لم يبق غير اسير وغير منفلت. واما قوله: " وهورعين " في قراءة من جرهما، فليس بمجورور على المجاورة، بل يحتمل امرين:

احدهما - أن يكون عطفًا على قوله: " يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وباريق وكأس من معين " إلى قوله: " وهورعين " عطف على اكواب. وقولهم:
انه لايطاف إلا بالكاس غير مسلم، بل لايمتنع أن يطاف بالهور العين كما يطاف بالكاس وقدذكر في جملة ما يطاف به الفاكهة واللحم.

والثاني - أنه لما قال: " اولئك المقربون في جنات النعيم " عطف بحورعين على جنات النعيم فكانه قال: هم في جنات النعيم. وفي مقاربة أو معاشرة حورعين.

ذكره أبو علي الفارسي، فاما من قال: الرجلان ممسوحان ويراد بالمسح الغسل، فقوله: يبطل بما قلناه من أن المسح غير الغسل. واستشهداهم بقولهم: تمسحت للصلاة وأنهم سموا الغسل مسحا. وقوله: " فطفق مسحا بالسوق والاعناق "، وانه أراد غسلها باطل بما قدمناه، ولانه لوكان ذلك محتملا لغة، لما احتتمل شرعا، لان الشرع فرق بين الغسل والمسح، ولذلك قالوا بعض اعضاء الطهارة مغسولة، وبعضها ممسوحة. وفلان يرى غسل الرجلين، وفلان يرى مسحهما، ولانه لاخلاف أن الرأس ممسوح مسحا ليس بغسل، فلا بد ان يكون حكم الرجلين حكمه، لكونهما معطوفتين عليه، وقولهم: تمسحت للصلاة، فلانهم لما أرادوا أن يخبروا بلفظ مختصر عن جميع أفعال الصلاة، لم يخز أن يقولوا اغتسلت للصلاة، لان في الطهارة ما ليس بغسل. واستطالوا أن يقولوا اغتسلت وتمسحت للصلاة قالوا: بدلا من ذلك تمسحت توسعا، ومجازا. وقوله: " فطفق مسحا بالسوق " فاكثر المفسرين على ان المراد به فطفق ضربا. ذهب اليه الفراء وأبو عبيدة. وقال آخرون: أراد المسح في الحقيقة، وأنه كان مسح أعراقها

وسوقها. وانما حمل على الغسل شاذمنهم ومن قال القراءة تقتضي المسح غير أنه المسح على الخفين، فقوله باطل، لان الخف

(٤٥٥)

لايسمى رجلا في لغة ولاشرع. والله (تعالى) أمر بايقاع الفرض علي ما يسمى رجلا في الحقيقة. واما لقراءة بالنصب، فقد بينا أنها معطوفة علي موضع الرؤوس لان موضعها النصب، والحكم فيها المسح والعطف على الموضع جائز، لانهم يقولون: لست بقائم ولاقاعد. ويقولون حسبت بصدرة وصدر زيد وان زيدا في الدار وعمرو، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع. وقال الشاعر:
معاوي اننا بشر فاسجح * فلسنا بالجبال ولا الحديد
وقال اخر:

هل انت باعث دينار حاجتنا * او عبد رب اخعون بن مخراق
وانما نصب عبد رب، لان التقدير باعث ديناراً، فحمله على الموضع، وقد سوغوا العطف على المعنى، وان كان اللفظ لا يقتضيه قال الشاعر:
جنني بمثل بني عمرو لقومهم * أو مثل اسرة منظور بن سبار
لما كان معنى جنني هات مثلهم، أو اعطني مثلهم. قال: أو مثل بالنصب عطفاً على المعنى، وعطف الارجل على الايدي لايجوز، لان الكلام متى حصل فيه عاملان: قريب وبعيد لا يجوز أعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله، عليه.
لايجوز أن يقول القائل: ضربت زيدا وعمرا وأكرمت خالدا وبكرا. ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو المضروبين، لان ذلك خروج عن فصاحة الكلام، ودخول في معنى اللغو وبمثل ما قلناه ورد القران واكثر الشعر قال الله تعالى: " وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله احدا " ولو اعمل الاول، لقال:

كما ظنتموه. وقال " آتوني افرغ عليه قطرا " ولو أعمل الاول، لقال أفرغه.
وقال: " هاؤم اقرأوا كتابيه " ولو اعمل الاول لقال: هاؤم اقرأوه. وقال الشاعر:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه * وعزة ممطول معنى غريمها
ولو أعمل الاول، لقال: فوفاه غريمه. فاما قول امرئ القيس:
فلوانما أسعى لادنى معيشة * كفاني ولم اطلب قليل من المال

(٤٥٦)

فانما أعمل الاول للضرورة، لانه لم يجعل القليل مطلوباً وانما كان المطلوب عنده الملك. وجعل القليل كافياً. ولولم يرد هذا ونصب، لفسد المعنى. فاما من نصب بتقدير واغسلوا أرجلكم، كما قالوا:

متقلدا سيفاً ورمحاً وعلفها تبناً وماء بارداً فقد اخطأ، لان ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ. فاما إذا جاز حمله على ما في اللفظ، فلا يجوز هذا التقدير. ومن قال يجب غسل الرجلين، لانهما محدودتان كاليدين، فقوله ليس بصحيح، لانهما لانسلم ان العلة في كون اليدين مغسولتين كونهما محدودتين. وانما وجب غسلهما، لانهما عطفاً على عضو مغسول. وهو الوجه. فكذلك إذا عطف الرجلين على ممسوح هو الرأس، وجب أن يكونا ممسوحين. والكعبان عندنا هما النابتان في وسط القدم. وبه قال محمد بن الحسن وإن أوجب الغسل. وقال أكثر المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين يدل على ما قلناه أنه لو أراد ما قالوا، لقال إلى الكعب، لان في الرجلين منها أربعة. وايضا فكل من قال: يجب مسح الرجلين، ولا يجوز الغسل قال الكعب هو ما قلناه، لان من خالف في أن الكعب ما قلناه على قولين: قائل يقول بوجوب الغسل، وآخر يقول بالتخيير. قال الزجاج: كل مفصل للعظام فهو كعب.

وفي الآية دلالة على وجوب الترتيب في الوضوء من جهين:

احدهما - ان الواو يوجب الترتيب لغة على قول الفراء وأبي عبيد وشرعا على قول كثير من الفقهاء، ولقوله **(عليه السلام)**: ابدأوا بما بدأ الله به.

والثاني - ان الله أوجب على من يريد القيام إلى الصلاة إذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولاً، لقوله: " إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا " والفاء توجب التعقيب والترتيب بلاخلاف، فاذا ثبت أن البداءة بالوجه هو الواجب، ثبت في باقي الاعضاء، لان أحدا لا يفرق ويقويه قوله **(عليه السلام)** للاعرابي - حين علمه الوضوء، فقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، فان كان رتب فقد بين انه الواجب الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به، وان لم يرتب لزم أن يكون من رتب،

(٤٥٧)

لايجزيه وقد اجتمعت الامة على خلافه. وفي الآية دلالة على أن من مسح على العمامة أو الخفين لايجزيه، لان العمامة لاتسمى رأساً. والخف لايسمى رجلاً كما لا يسمى البرقع وما يستر اليدين وجهها ولا يدا. وما روي من المسح على الخفين أخبار احاد لا يترك لها ظاهر القرآن. على أنه روي عن علي **(عليه السلام)** أنه قال: نسخ ذلك بهذه الآية وكذلك قال لمن قال: اقبل المائدة أو بعدها. وفي الآية دلالة على وجوب النية في الوضوء، لانه قال: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا. وتقديره فاغسلوا للصلاة كما يقول القائل: إذا أردت لقاء عدوك، فخذ سلاحك بمعنى فخذ سلاحك للقائه ولا يمكن أن يكون غاسلاً هذه الاعضاء للصلاة إلا بنية. وقوله: "

ان كنتم جنباً فاطهروا " معناه وإن أصابنكم جنابة وأردتم القيام إلى الصلاة فاطهروا بالاعتسال.

والجنابة تكون بشيئين:

أحدهما - بانزال الماء الدافق في النوم أو اليقظة. وعلى كل حال بشهوة كان أو بغير شهوة. والآخر - بالتقاء الختانين وحده غيبوبة الحشفة أنزل أو لم ينزل، والجنب يقع على الواحد والجماعة والاثنتين، والمذكر والمؤنث مثل رجل عدل، وقوم عدل، ورجل زور وقوم زور، ونحو ذلك وهو بمنزلة المصدر قال الزجاج: تقديره ذو جنب. ويقال أجنب الرجل وجنب واجتنب والفعل الجنابة وقدحكي في جمعه أجناب والاول أظهر. واصل الجنابة البعد قال علقمة:

فلا تحرمني نائلاً عن جنابة * فاني امرؤ وسط القباب غريب

وقوله: " وان كنتم مرضى او على سفر أو جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء " معناه وان كنتم مرضى يعني ان كنتم جرحى أو مجدرين أو مرضى يضربكم استعمال الماء وكنتم جنباً أو على غير وضوء قدبينا ذلك في سورة النساء وقوله: " أو على سفر " معناه وإن كنتم مسافرين وأنتم جنباً وجاء أحد منكم من الغائط معناه أو جاء أحد منكم من الغائط قدقضى حاجته فيه، وهو مسافر أو لامستم النساء معناه أو جامعتم النساء، وانتم مسافرون. وقد بينا اختلاف الفقهاء في اللمس، وبيننا أصح الأقوال في ذلك، فلاوجه لاعادته، فان قيل: ما معنى

(٤٥٨)

تكرير قوله: لامستم النساء إن كان معنى اللمس الجماع مع انه قد تقدم ذكر الواجب عليه لقوله: " وان كنتم جنباً فاطهروا " قلنا وجه ذلك أن المعنى في قوله: " وان كنتم جنباً " غير المعنى الذي الزمه الله بقوله: او لامستم النساء، لانه (تعالى) بين الحكم بقوله: " وان كنتم جنباً فاطهروا " معناه إذا كنتم واجدين للماء ممكنين لاستعماله، ثم بين حكمه إذا عدم الماء، أو لايمكن من استعماله أو هو مسافر غير مريض مقيم، فاعلمه أن التيمم هو فرضه، وهو طهارته. وقد بينا حكم التيمم ومعناه وكيفية فيما مضى.

وقوله: " فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه " قد بينا جميع ذلك فيما مضى. جملة أنه يقول: أيها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة، وانتم على غير طهر، ولم تجدوا ماء، ولاتمكنون من استعماله، فأقصدوا وجه الارض طاهراً نظيفاً غير نجس، ولاقدر " فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه " يعني مما يعلق بايديكم منه يعني من الصعيد وقد بينا كيفية التيمم، وأنه من قصاص الشعر إلى طرف الانف، ومن الزند الي اطراف الاصابع في اليدين. وقد بينا اختلاف المفسرين والفقهاء في ذلك، فلا معنى لاعادته. وقوله: " ما يريد الله ليجعل

عليكم من حرج " معناه ما يريد الله مما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة والغسل من الجنابة والتيمم صعيدا طيبا عند عدم الماء أو تعذر استعماله، ليلزمكم في دينكم من ضيق، ولانفتحتكم فيه، وهو قول علي (عليه السلام)

ومجاهد وجميع المفسرين. وقوله: " ولكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " معناه لكن يريد الله ليظهركم بما فرض عليكم من الوضوء والغسل من الاحداث والجنابة أن ينظف بذلك اجسامكم من الذنوب. واللام في قوله:

" ليظهركم " دخلت لتبيين الارادة والمعنى ارادته لتظهيركم كما قال الشاعر:

اريد لانسى ذكرها فكانما * تمثل لي ليلي بكل سبيل

روي ما قلناه عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي امامة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إن الوضوء يكفر ما قبله وقوله: " وليتم نعمته

(٤٥٩)

عليكم " معناه ويريد الله مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم اياه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة مع وجود الماء، والتيمم مع عدمه، أن يتم نعمته باباحته لكم التيمم، وتصييره لكم الصعيد الطيب طهورا رخصة منه لكم في ذلك مع سوابغ نعمه التي أنتم بها عليكم " لعلكم تشكرون " معناه ولتشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم بطاعتكم اياه فيما امركم به ونهاكم عنه. قوله تعالى:

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا واطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) (٧) آية بلاخلاف.

في هذه الآية اذكار بنعم الله تعالى عليهم برسوله (صلى الله عليه وآله)

وميثاقه الذي واثقهم به عندما ضمنوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) السمع والطاعة، ثم حذرهم ان ينقضوا ذلك بقلوبهم، واعلمهم أنه عليم بذات الصدور.

والميثاق الذي واثقهم به قال البلخي: والجبائي هو ما أخذ عليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند اسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم. قال الجبائي: هو مبايعتهم له ليلة العقبة وبيعة الرضوان وهو قول ابن عباس وقال اخرون: هو ما اخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم (ع) واشهدهم على انفسهم الست بربكم؟ قالوا: بلى. ذهب اليه مجاهد. والصحيح قول ابن عباس لامرين:

احدهما - ان الخبر مروى في أخذ الميثاق على من استخرج من صلب ادم (ع) ضعيف تحيله العقول.

والثاني - أن الله (تعالى) ذكر بعقب تذكيره المؤمنين ميثاقه الذي واثق به اهل التوراة بعدما أنزل كتابه على نبيه موسى (ع) فيما أمرهم به ونهاهم عنه،

(٤٦٠)

فقال: " ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا " الايات بعدها منبها بذلك أصحاب رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله)

على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وتعريفهم سوء عاقبة هل الكتاب في تضييعهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه زاجرا لهم عن نكث عهده لئلا يحل بهم ما حل بمن تقدم من الناكثين عهده من اهل الكتاب. وقال ابو الجارود عن ابي جعفر (ع) - الميثاق هو ما بين لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ما ذكره الله وغير ذلك ونصب امير المؤمنين (عليه السلام) اماما للخلق وهذا داخل فيما حكيناه عن ابن عباس إذ هو بعض ما أمر الله به قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) (٨) آية - بلاخلاف - . هذا خطاب للمؤمنين امرهم الله تعالى ان يكونوا قوامين بالقسط أي قائمين بالعدل يقومون به، ويدومون عليه شهداء. لله أي مبينون عن دين الله، لان الشاهد يبين ما شهد عليه. و " قوامين " نصب بانه خبر كان (شهداء) نصب على الحال.

وقوله: " ولا يجرمنكم " قد فسرناه فيما مضى. قال الكسائي: وابوعبيدة معناه لا يجرمنكم بغض قوم على الا تعدلوا يقال: جرمني فلان على أن فعلت كذا أي حملني عليه وقال الفراء يجرمنكم يكسبنكم يقال: جرمت على أهلي أي كسبتهم. وفلان جريمة أهله أي كاسبهم قال الكسائي: وفيه لغتان جرمت اجرم جرما وأجرمت اجرم أجراما. وشنآن قال الكسائي: معناه البغض وفيه لغتان: فتح

(٤٦١)

النون الاولى وجزمها. وقد بينا اختلاف القراء فيه. قال الزجاج: من حرك النون اراد بغض قوم. ومن سكن اراد بغيض قوم. وحكى ايضا جرم واجرم لغتين وقيل اجرمته ادخلته في الجرم كما قيل أئمته ومعناه ادخلته في الاثم والمعنى لا يجرمنكم شنآن قوم اي بغض قوم ألا تعدلوا في حكمكم فيهم، وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم. وقال عبدالله بن كثير: نزلت هذه الآية في يهود حين مضى النبي (صلى الله عليه وآله) إلى حصن بني قريظة يستعينهم في دية فهموا أن يقتلوه، فنزلت هذه الآية، ثم أمرهم بعد النبي عن الجور أن يفعلوا العدل مع كل أحد

وليا كان أو عدوا، فان فعل العدل أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، ثم حذرهم تعالى فقال " واتقوا الله " أي خافوا عقابه باجتنب معاصيه وفعل طاعاته، فان الله خبير أي عالم باعمالكم والكناية في قوله: " هو أقرب للتقوى " كناية عن العدل أي العدل أقرب للتقوى، ولولم يكن هو في الكلام، لكان أقرب نصبا، كما قال: انتهوا خير لكم وكنى عن الفعل في هذا الموضع بهو. قوله تعالى:

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) (٩) - آية بلاخلاف - .
وعد الله تعالى في هذه الآية الذين صدقوا بوحداية الله واقروا بنبوته نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) وعملوا الصالحات ان لهم مغفرة او وعدهم مغفرة ووقعت الجملة موقع المفرد كما قال الشاعر:

وجدنا الصالحين لهم جزاء * وجنات وعينا سلسبيلا
وتكون الجملة التي هي لهم مغفرة في موضع النصب، ولذلك عطف في البيت وعينا، فنصب على الموضع، ويحتمل ان يكون موضع (لهم مغفرة) في موضع الرفع، ويكون الموعود به محذوفاً، ويكون التقدير لهم مغفرة وأجر عظيم فيما

(٤٦٢)

وعدهم أولهم مغفرة وأجر عظيم هو الجنة. وهو معنى قول الحسن والجبائي والوعد، هو الخبر الذي يتضمن النفع من المخبر. والوعيد: هو الخبر الذي يتضمن الضرر من المخبر. وتقول: وعدته خيرا وأوعدته شرا والايعاد مطلقا يكون في الشر. والوعد مطلقا في الخير، فاذا قيدته بذكر الخير او الشر، قلت فيهما معا وعدته وأوعدته معا فيما حكاه الزجاج. والمغفرة اصلها التغطية ومعناها تكفير السيئة. والتكفير ايضا: التغطية ومنه تكفر في السلاح: اذا تغطى به قال لبيد:
في ليلة كفر النجوم غمامها والاجر المذكور في الآية هو الثواب الذي وعد الله المؤمنين به على فعلهم الطاعات. والفرق بين الثواب والاجر في العرف أن الثواب هو الجزاء على الطاعات. والاجر قد يكون مثل ذلك وقد يكون في المعنى المعاوضة على المنافع بمعنى الاجر. قوله تعالى:

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب الجحيم)
(١٠) - آية - .

قوله: " والذين كفروا " معناه جحدوا توحيد الله، وصفاته وعدله، وانكروا نبوة نبيه، والاعتراف بما جاء به من عند الله، وكذبوا بآيات الله أخبر الله عنهم أنهم اصحاب الجحيم. وجحيم اسم من اسماء جهنم، فعلى هذا قوله،

” والذين ” في موضع رفع على الابتداء ” وكفروا ” في صلة الذين وكذبوا باياتنا عطف على ما في الصلة. وقوله: اولئك اصحاب الجحيم جملة في موضع خبر الذين. وحدالكفر عندنا كل معصية يستحق بها عقاب دائم، لان ما ليس بكفر من المعاصي لا يستحق عليه إلا عقاب منقطع، ثم ينقسم قسمين فان كان كفر ردة، تعلق عليه أحكام من منع الموارثة من المسلم والصلاة عليه، والدفن في مقابر المسلمين، وغير ذلك. وان كان كافر ملة بأن يكون مظهرا للشهادتين لم يجر عليه شئ من هذه الاحكام. وقال قوم: إن الكفر أعظم الاجرام، لانه جدد انعم الله،

(٤٦٣)

ونعمته أعظم النعم، ويستحق عليها أعظم الشكر، فيجب أن يكون كفرها وجدها أعظم الاجرام والمكذب بآيات الله، وان يعلمها آيات، فهو كافر إذا كان له سبيل إلى معرفتها. ومعنى أصحاب الجحيم أنهم يخلدون في النار، لان المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال اصحاب الصحراء بمعنى الملازمين لها. قوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١١) - آية بلاخلاف - . هذا خطاب للمؤمنين ذكرهم الله نعمته عليهم حين هم قوم أن يبسطوا اليهم أيديهم. واختلفوا في الباسطين أيديهم على خمسة اقوال:

فقال مجاهد وقتادة وابومالك: هم اليهود هموا بأن يقتلوا النبي (صلى الله عليه وآله) لما مضى إلى بني قريظة يستعين بهم على دية مقتولين من بني كلاب بعد بئر معونة كانا وفدا على النبي (صلى الله عليه وآله) فلقيهما عمرو بن أمية الضمري فقال: أمسلمين؟ فقالا: بل رافدين، فقتلهما، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله) قتلت قتيلين قبل أن يبلغا الماء والله لادينهما. ومضى إلى يهود بني قريظة يستعين بهم.

وقيل: كان يستقرض لاجل الدية لانه كل يحملها، فهتمت بنو قريظة بالفتك به وبقتله، فأعلم الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك فانصرف عنهم.

وقال الحسن: إنما بعثت قريش رجلا ليفتك بالنبي (صلى الله عليه وآله)

فاطلع الله نبيه على امره ومنعه الله منه، لانه دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) وسيفه مسلول فقال له: أرنيه فاعطاه اياه، فلما حصل في يده قال: ما الذي يمنعني من قتلك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الله يمنعك فرمى بالسيف وأسلم. واسم الرجل عمرو بن وهب الجمحي بعثه صفوان بن أمية ليغتاله (صلى الله عليه وآله) بعد بدر،

(٤٦٤)

فاعلمه الله ذلك. وكان ذلك سبب إسلام عمرو بن وهب.

وقال الواقدي. غزا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمعان بني ذبيان ومحارب بذى أمر فتحصنوا برؤوس الجبال، ونزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحيث يراهم، فذهب لحاجته فاصابه مطرفيل ثوبه، فشره على شجرة واضطجع تحته بعيدا من أصحابه، والاعراب ينظرون اليه فاخبروا سيدهم دعثور بن الحارث المحاربي فجاء حتى وقف على رأسه بالسيف مشهورا، فقال: يا محمد (صلى الله عليه وآله) من يمنعك منى اليوم؟ فقال: الله ودفع جبرائيل في صدره وقع السيف من يده، فاخذه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقام على رأسه وقال: من يمنعك منى اليوم؟ فقال: لا احد وانا اشهد ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزلت الآية.

وقال ابو علي الجبائي المعني بذلك ما لطف الله (تعالى) المسلمين من كف أعدائهم عنهم حين هموا باستئصالهم بأشياء شغلهم بها من الامراض والقحط، وموت الاكابر، وهلاك المواشي وغير ذلك من الاسباب التي انصرفوا عندها عن قتل المؤمنين:

وقال ابن عباس. كانت اليهود دعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى طعام لهم، وعزموا على الفتك به، فاعلم الله ذلك نبيه (صلى الله عليه وآله) فلم يحضر.

وقال اخرون: نزلت الآية فيما عزم المشركون على الايقاع بالنبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه يوم بطن النخلة إذا دخلوا في الصلاة، فاعلمه الله ذلك، فصلى بهم صلاة الخوف. وانما جعل الله تخلص النبي مما هموا به نعمة على المؤمنين من حيث كان إمامهم وسيدهم، وكان مبعوثا اليهم بما فيه مصالحهم، فمقامه بينهم نعمة على المؤمنين، فلذلك اعتد به عليهم. وقال قوم: هو مردود على قوله: " اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم " ومعناه جملة الظفر. — اللغة —:

والذكر هو حضور المعنى للنفس يقال: ذكر يذكر ذكرا. واذكره إكرا وتذاكروا تذاكرا. وذاكره مذاكرة. وذاكره تذكيرا. واستذكر استذكرا واذكر اذكرا.

وقد يستعمل الذكر بمعنى القول، لان من شأنه أن تذكر به المعنى. والتذكر هو طلب

(٤٦٥)

المعنى لاطلب القول. والفرق بين الذكر والعلم ان الذكر ضده الجهل. وقد يجمع الذكر للشئ والجهل به من وجه واحد. ومحال ان يجتمع العلم به والجهل به من وجه واحد والفرق بين الذكر والخاطر أن الخاطر مرور المعنى على القلب. والذكر حصول المعنى في النفس وايضا الذكر يجري على نقيض النسيان، لانه يستعمل بعدما نسيه. وليس كذلك الخاطر.

والهم بالامر هو حديث النفس بفعله. يقال: هم بالامريهم هما. ومنه الهم. وهو الفكر الذي يغم. وجمعه هموم واهتم اهتماما. وأهمه الامر إذ اعني به، فحدث نفسه به والفرق بين الهم بالشئ والقصد اليه انه قد يهم بالشئ قبل أن يريده ويقصده بان يحدث نفسه به وهو مع ذلك مميل في فعله ثم يعزم اليه ويقصد اليه. قوله تعالى:

(ولقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة وامنتم برسلى وعززتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) (١٢) - آية بلا خلاف -.

الميثاق: اليمين المؤكدة، لانه يستوثق بها من الامر، فاخذالله ميثاقهم باخلاص العبادة له، والايمان برسله. وما يأتون به من شرايع دينه. وقوله: " بعثنا منهم اثني عشر نقيبا " فالنقيب فيه أربعة أقوال: قال الحسن " هو الضمين وقال الربيع: هو الامين. وقال قتادة: هو الشهيد على قومه. وقال قوم: هو الرئيس من العرفاء.

— اللغة —

واصل النقيب في اللغة النقب وهو الثقب الواسع. وقال ابو مسلم: هو فعيل بمعنى مفعول كانه اختير ونقر عليه، فقيل نقيب، لانه ينقب عن احوال

(٤٦٦)

القوم، كما ينقب عن الاسرار. ومنه نقاب المرأة. ومنه المناقب وهي الفضائل. والنقب: الطريق في الجبل. ويقال نقب الرجل على القوم ينقب نقبا: إذا صار نقيبا. ونكب عليهم ينكب نكابة: إذا صار منكبا. وهو عون العريف. وقد نقب نقابة. والنقبة سراويل بغير رجلين لاتساع نقيه تلبسة المرأة. وأول الجرب النقبة وجمعها النقب. والنقب قال الشاعر: متبذلا تبدو محاسنه * يضع الهاء مواضع النقب ويقال: كلب نقيب إذا نقب حنجرته، لئلا يرتفع صوته في نباحه يفعل ذلك البخلاء، لئلا يطرقهم ضيف بسماع نباح الكلاب. ومنه نقت الحائط: إذا بلغت في النقب آخره. وفي معنى قوله: " اثني عشر نقيبا " قولان: احدهما - قال الحسن والجبائي: أنه اخذمن كل سبط منهم ضمينا بما عقد عليهم بالميثاق من امر دينهم.

الثاني قال مجاهد والسدي: إنهم بعثوا إلى الجبارين، ليقفوا على آثارهم ويرجعوا بذلك إلى موسى، فرجعوا يبهون قومهم عن قتالهم لمارأوا من شدة بأسهم، وعظم خلقهم إلى اثنين منهم. وقال البلخي: يجوز أن يكون النقباء رسلا ويجوز ان يكونوا قادة. وقوله: "بعثنا" لا يدل على أنهم رسل، كما اذا قال القائل: الخليفة بعث الامير أو القضاة لايفيد أنهم رسل، بل يفيد أنه ولاهم وقلدهم. والغرض بذلك إعلام النبي (صلى الله عليه وآله) أن هؤلاء الذين هموا بقتل النبي (صلى الله عليه وآله) صفاتهم وأخلاقهم أسلافهم الغدر، ونقض العهد. وقوله: "وقال الله اني معكم" معناه ناصركم على عدوكم وعدوي الذي أمرتكم بقتالهم إن قاتلتموهم، ووفيتم بعهدي وميثاقي الذي أخذته عليكم. وفي الكلام حذف، وتقديره وقال الله: إني معكم. وإنما حذف استغناء بقوله: "ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل" ثم ابتدأ تعالى قسما، لأن أقمتم الصلاة معشر بني إسرائيل

(٤٦٧)

"وآتيتم الزكاة" أي اعطيتموها "وآمنتكم برسلي" معناه وصدقتم بما اتاكم به رسلي من شرائع ديني وقال الربيع بن أنس: هذا الخطاب من الله للنقباء وقال غيره: هو خطاب لبني اسرائيل. والتقدير ان موسى (ع) قال لهم عن الله تعالى: إن الله ناصركم على عدوكم ما اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتكم برسلي "وعزز تموهم" قيل معناه قولان: احدهما - قال مجاهد والسدي: معناه نصرتموهم وهو اختيار الزجاج. الثاني - قال عبدالرحمن بن زيد: معناه ونصرتموهم وأطعتموهم. وبه قال أبو عبيدة. والعزز - في اللغة - الرد والمنع في قول الفراء تقول: عزرت فلانا: إذا أدبته، وفعلت به ما يردعه عن القبيح. وقال تعالى: "وتعزروه وتوقروه" ومعناه تنصروه. وإلا كان تكرارا. وهو اختيار الطبري وأشد أبو عبيدة في التعزيز بمعنى التوقير قول الشاعر: وكم من ما جدلهم كريم * ومن ليث يعزر في الندي (١) أي يعظم. وهو قول أبي علي. وقوله: "واقرضتم الله قرضا حسنا" معناه وانفقتم في سبيل الله، وجهاد عدوه وعدوكم قرضا حسنا. وقيل: معناه بطيبة نفس. وقيل معناه الا يتبعه من ولاذى. وقيل من الحلال دون الحرام. وإنما قال: قرضا، ولم يقل إقراضا، لأنه رده إلى قرض قرضا، كما قال: "انبتكم من الارض نباتا" (٢) ولم يقل إنباتا ويقال: اعطيته عطاء. وقال امرؤ القيس: ورضت فذلت صعبة اي إذلال (٢) لأن فيه معنى اذلت.

وقوله: " لاكفرن عنكم سيئاتكم " اللام جواب القسم. وهو قوله: " لئن اقمتم الصلاة " فالاولى لام القسم والثانية جوابه، وقال قوم: كل واحد منهما

(١) - مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٥٧ وتفسير الطبري ١٠: ١٢٠. الندي مجلس القوم ماداموا مجتمعين فيه.

(٢) سورة نوح، آية ١٧. (٣) ديوانه: ١٤١. راض الدابة علمها السير.

(٤٦٨)

قسم. وصحيح الاول، لان الكلام لم يتم في قوله: " لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة " ومعنى " لاكفرن " لاعطين بعفوي وصفحي عن عقوبتكم على ما مضى اجرامكم، ولادخلنكم مع ذلك جنات تجري من تحتها الانهار والجنات البساتين والكفر معناه الجحود، والتغطية والستر. قال لبيد:

في ليلة كفر النجوم غمامها (١)

وقوله تجري من تحتها يعني من تحت اشجار هذه الجنات الانهار.

وقوله: فمن كفر بعد ذلك منكم يعني من جحد منكم يامعشر بني اسرائيل ما امرته به، فتركه أو ركب ما نهيته عنه بعد اخذ الميثاق عليه، فقد ضل يعني أخطأ قصد الطريق الواضح، وزال عن منهاج السبيل القاصد. والضلال هو الركوب على غير هدى. وسواء السبيل يعني وسطه.

قوله تعالى:

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه نسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) (١٣) - آية بلاخلاف -.

— القراءة —

قرأ حمزه والكسائي قسية بلالاف - وقرأ الباقون قاسية - بالاف.

— المعنى —

المعنى بالآية تسليية النبي (صلى الله عليه وآله) فقال الله له: لاتعجبين من هؤلاء اليهود الذين هموا ان يبسطوا ايديهم اليك وإلى اصحابك ونكثوا العهد الذي بينك

(١) - انظر ١: ٦٠ (*)

(٤٦٩)

وبينهم، وغدروا بك، فان ذلك من عاداتهم، وعادات اسلافهم، لاني اخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على طاعتي، وبعثت منهم اثني عشر نقيبا، فنقضوا ميثاقي، ونكثوا عهدي، فلعنتمهم بنقضهم ميثاقهم. وفي الكلام محذوف اكتفى بدلالة الظاهر عليه. والمعنى فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضل سواء السبيل، فنقضوه، فلعنتمهم فيما نقضهم ذلك لعناهم فاكتفى بقوله: فيما نقضهم من ذكر فنقضوا.

(وما) زائدة والتقدير فبنقضهم (وما) مؤكدة. وهو قول قتادة وجميع المفسرين ومثله قول الشاعر:

لشيء ما يسود من يسود والهاء والميم كنايةان عن بني اسرائيل واللعن هو الطرد للسخط على العبد، وهو الابعاد من رحمة الله على جهة العقوبة. وقال الحسن: هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قرده، وخنزير. ومعنى جعلنا - هاهنا - قال البلخي: سميها بذلك عقوبة على كفرهم، ونقض ميثاقهم. قال: ويجوز أن يكون المراد ان الله بكفرهم لم يفعل بهم اللطف الذي تنتشر به صدورهم كما يفعل بالمؤمن. وذلك مثل قولهم: افسدت سيفك: إذا تركت تعاهده حتى صدئ. ويقولون: جعلت اظافيرك سلاحك: إذا لم تقصها. ويشهد للاول قوله تعالى: " وجعلوا لله شركاء الجن " وأراد بذلك انهم سموا لله شركاء. وقال ابو علي: هو البيان عن حالهم، وجفا قلوبهم عن الايمان بالله ورسوله، كما يقال: جعلته فاسقا مهتوكا: إذا أبان عن حاله للناس.

ومعنى قاسية. أي يابسة يقال للرحيم: لين القلب، ولغير الرحيم: قاسي القلب. والقاسي والقاسح - بالحاء - الشديد الصلابة. ويقال: قسا يقسو قسوة ومنه " فهي كالحجارة أو أشد قسوة " وقسوة أشد مبالغة. وقاسية أعرف وأكثر في الاستعمال. وقال ابو عبيدة: قاسية معناه فاسدة من قولهم: درهم قسي أي زائف قال أبو زيد:

(٤٧٠)

لها صواهل في صم السلام كما * صاح الفسيات في ايدي الصياريف
يصف وقع المساحي في الحجارة. وقال ابو عباس: الدرهم انما سمي قسيا اذا كان فاسدا لشدة صوته بالقس الذي فيه، فهو راجع إلى الاول. وقال الراجز:
وقد قسوت وقسا لداتي وقوله: " يحرفون الكلم " فالتحريف يكون بأمرين: بسوء التاويل، وبالتغيير والتبديل، كما قال تعالى: " ويقولون هومن عند الله وما هو من عند الله " بعد قوله: " وان منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب " والكلم جمع كلمة.

وقوله: " ونسوا حظا مما ذكروا به " معناه تركوا نصيبا مما ذكروا به يعني مما أنزل على موسى. وهو قول الحسين والسدي وابن عباس.

وقوله: " ولا تزال تطلع على خائنة منهم " معناه على خيانة منهم وفاعله في أسماء المصادر كثير، نحو عافاه الله عافية. " والمؤتفكات بالخائنة " و " اهلكوا بالطاغية " ويقال: قائلة بمعنى القيلولة. كل ذلك بمعنى المصدر وراغية الابل وثاغية الشاة. ويقال: رجل خائنة قال الشاعر:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن * للغدر خائنة مغل الاصبغ

فخائنة على وجه المبالغة، كما قالوا: رجل نسابة، لانه يخاطب رجلا.

ومعناه لاتخن، فتغلل اصبعك في المتاع أي تدخلها الخيانة، ومغل بدل من خائنة.

ويجوز أن يكون على خائنة معناه على فرقة خائنة.

وقوله: " الا قليلا منهم " نصب على الاستثناء من الهاء والميم في قوله:

" على خائنة منهم ".

وقوله: " فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين " قال قتادة: هو

(٤٧١)

منسوخ بقوله: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر " وقال ابو علي بقوله: " واماتخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء " وقال البلخي: يجوز أن يكون أمر بالعفو والصفح بشرط التوبة أو بذل الجزية، لانهم إذا بذلوا الجزية لا يؤاخذون بشئ من كفرهم. وهو قول الحسن، وجعفر بن مبشر. واختار الطبري هذا. فعلى هذا لا يكون منسوخا وقوله: " يحرفون الكلم " لا يدل على أنه جعل قلوبهم قاسية، ليحرفوا بل يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون كلاما مستأنفا ويكون التمام عند قوله: " قاسية " ثم أخبر عنهم بانهم يحرفون الكلام عن مواضعه.

الثاني - أن يكون ذلك حالا، لقوله: " فيما نقضهم ميثاقهم يحرفون " اي يحرفون الكلم ناسين لحظوظهم " لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية " .
قوله تعالى:

ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) (١٤) - آية بلا خلاف - .

وقوله: " ومن الذين قالوا انا نصارى " انما لم يقل: من النصارى لما قاله الحسن: من أنه اراد تعالى بذلك أن يدل على أنهم ابتدعوا النصرانية التي هم عليها اليوم، وتسموا بها.

وقوله: " اخذنا ميثاقهم " يعني بتوحيد الله عزوجل، والاقرار بنبوة المسيح، وجميع انبياء الله وانهم كلهم عبيد الله لا يذكر. وقال ابو علي: معناه تركوا العمل به، فكان كالذي لا يذكر.

وقوله: " مما ذكروا به " يعني فيما أنزله الله على موسى وعيسى في التوراة والانجيل،
والكتب المتقدمة.

(٤٧٢)

وقوله: " فاغرينا بينهم " قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي والجبائي:
معناه بين اليهود والنصارى. وقال الربيع والزجاج والطبري:
معناه بين النصارى. وهو ما وقع بينهم من الخلاف نحو الملكية، وهم الروم والنسطورية،
واليعقوبية من العداوة. وأصل الاغراء تسليط بعضهم على بعض.
وقيل: معناه التحريش. وأصله اللصوق. يقال: غريت بالرجل غرى - مقصور وممدود -
ومعناه لصقت به. قال كثير:

إذا قيل مهلا قالت العين بالبكا * غراء ومدتها حوافل تهمل
واغريت زبدا بكذا حتى غرى به. ومنه الغراء الذى يغرى به للصوص والاغراء بالشئ معناه
الاصاق من جهة التسليط. وانما أغرى بينهم بالاهواء المختلفة في الدين في قول إبراهيم.
وقيل. بالقاء البغضاء بينهم - عن الحسن وقتادة - وقيل:

يامر بعضهم أن يعادي بعضا في قول ابي علي فكأنه يذهب إلى ما تقدم من الامر لهم بمعادة
الكفار. والذي يقوله أن الوجه في اغراء الله فيما بينهم أنه امر النصارى بمعادة اليهود فيما
يفعله اليهود من القبيح في التكذيب بالمسيح، وشتم امه، والقذف لها والغرية عليها، واضافتها
اليه تعالى، ووصفها بما لا يليق، وامر اليهود بمعادة النصارى في اعتقادهم التثليث، وان
المسيح ابن الله وغير ذلك من اعتقاداتهم الفاسدة، نقضوا هذا الميثاق واعرضوا عنه حتى
صار بمنزلة المنسي فكان في ذلك أمر كل واحد منهما بالطاعة، فان قيل يمنع من ذلك قوله:
(فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء) فجعل اغراءه لهم بالعداوة جوابا
لقوله: (فنسوا حظا مما ذكروا به) لان الفاء تدل على الجواب. واذاكانت جوابا، وجب أن
يكون (تعالى) إنما أغرى بينهم، لاجل نسيانهم للحظ الذي ذكروا به، وانه عاقبهم بهذا
الاغراء، وليس في الامر والنهي والعبادات عقوبات - بلاخلاف - فدل جوابه بالفاء في قوله:
" فاغرينا " عقيب قوله: " فنسوا حظا " على أنه عاقب بالاغراء لاعلى ما قلتموه؟ قيل: قوله "
فنسوا حظا مما ذكروا به " جوابه وانه فعل هذا الاغراء، لاجل نسيانهم. غير أنه ليس بعقوبة،
وان كان جوابا. فكا

(٤٧٣)

لاجل نسيانهم. غير أنه ليس بعقوبة، وان كان جوابا. فكان الاغراء إنما وقع بينهم من أجل نسيانهم لحظهم من قبل أنهم نسوا ما ذكروا به من معرفة التوحيد، والتدين به، فصاروا إلى القول بالاتحاد والشرك والفربة عليه (تعالى) فلاجل ذلك أمر الله أصدادهم بمعاداتهم، واغرائهم بهم. فان قيل: فان الله (تعالى) ذكر النصارى في هذه الآية بنسيان حظهم ثم أجاب بالفاء في قوله: " فاغرينا بينهم " وليس يصح على هذا ان يكون أغرى بينهم من اجل ما فعله النصارى من الكفر، لانه إذا أمر اليهود بمعادة النصارى، لاجل نسيان النصارى وكفرهم فانما هذا عن امر الله اليهود بهم، وليس باغراء بعضهم ببعض، وقوله: " فاغرينا بينهم " يدل على ان الله بعث كل واحد من الفريقين على صاحبه، وهذا يوجب خلاف قولكم؟! قيل: الامر على ما قلتم من أن امر اليهود بمعادة النصارى هو إغراء لهم بهم، وليس باغراء بين النصارى، لكنه تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة، وتكذيبهم، وفريتهم على الله، ثم ذكر النصارى، فلما جمع بين الفريقين في الذكر في

هذه السورة، وان لم يجمعهم في هذه الآية، جاز ان يذكر انه اغرى بينهم العداوة بان امر كل واحد منهما بمعادة عدوه فيما عصى فيه. وصح الاغراء بينهم والقضاء العداوة والتباعد والمنافرة، وصح أن يجعل ذلك جوابا. وقد قال البلخي جوابا آخر: وهوان يكون الاغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية، وهو أن الله تعالى نصب الادلة على ابطال قول كل فرقة من فرق النصارى، فاذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الاخرى فيما نصب الله لها من الادلة، وان جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك، وسوء اختيارها، فجاز على هذا أن يضاف الاغراء في ذلك إلى الله من حيث انه امر كل فرقة منها بمعادة الاخرى على ما تعتقده، وان أمرها ايضا بأن تترك ما هي متمسكة به لفساده وهذا واضح بحمد الله، فان قيل: أيجوز على هذا ان يقال ان الله اغرى بين المؤمنين والكفار العداوة؟ قلنا: اما اغراء المؤمن بالكفر فصحيح، واما اغراء الكافر بالمؤمن، فليس بصحيح، لان ما عليه المؤمنون حق، وما عليه الكفار، باطل. وإنما يقال: إن الله اغرى بين

(٤٧٤)

قوم وقوم إذا كان على بطلان قول كل طائفة منهما دليل يدل على فساد قول من يخالفها فعلى هذا لا يصح إطلاق القول بما قالوه، ومتى قيد القول على ما بيناه، جاز، وأن لم يخبر مع الاطلاق.

وقوله: " وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " لما قال (تعالى) لنبيه:

" فاعف عنهم واصفح " بين انه من وراء الانتقام منهم، وانه سيجازيهم عند ورودهم عليه، بما كانوا يصنعون في الدنيا من نقض الميثاق، ونكث العهد ويعاقبهم على ذلك بحسب استحقاقهم.

قوله تعالى:

(يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين الله لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) ()

آيتان كوفي وثلاث بصري ومدني. هذا خطاب لاجل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عصوا الرسول فيما أمرهم به، ودعاهم اليه، فقال لهم. قد جاءكم رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله) يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب أي يبين للناس ما كنتم تخفونه. وقال ابن عباس وقتادة: إن مما بينه رجم الزانين، وأشياء كانوا يحرفونها بسوء التأويل. وإنما لم يقل: يا أهل الكتابين، لأن الكتاب اسم جنس. وفيه معنى العهد، وهو أو جزوا حسن في اللفظ من حيث كانوا، كأنهم أهل كتاب واحد. والوجه في تبين بعضه، وترك بعضه أنه يبين ما فيه دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) من صفاته، ونعته، وبشارته به، وما يحتاج إلى علمه من غير ذلك مما تنفق له الأسباب التي يحتاج معها إلى استعلام ذلك، كما اتفق في الرجم

(٤٧٥)

وما عداهذين مما ليس في تفصيله فائدة يكفي ذكره في الجملة. وقوله: " ويعفو عن كثير " معناه يترك كثيرا لا يأخذكم به، ولا يذكره لأنه لم يؤمر به على قول ابي علي وقال الحسن: ويصفح عن كثير بالتوبة منه.

ومعنى النور في الآية يحتمل امرين:

احدهما - أنه النبي (صلى الله عليه وآله) في قول الزجاج والآخر - هو القرآن على قول ابي علي وإنما سمي نورا، لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور، ويجب ان يتبع لأنه نور مبين عن الحق من الباطل في الدين. والاولى ان يكون كناية عن النبي، لان قوله: " وكتاب مبين " المراد به القرآن، وقوله: " يهدي به الله " يعني يفعل اللطف المؤدي إلى سلوك طريق الحق يعني بالنبي (صلى الله عليه وآله) او الكتاب " من اتبع رضوانه " يعني رضا الله والرضوان والرضا من الله ضد السخط. وهو اداة الثواب لمستحقه وقال قوم: هو المدح على الطاعة والثناء. وقال الرماني: هو جنس من الفعل يقتضي وقوع الطاعة الخالصة مما يبطلها، ويضاد الغضب. قال لان الرضا بما كان يصح، واردة ما كان لا يصح إذ قد يصح أن يرضى بما كان، ولا يصح أن يريد ما كان. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لان الرضا عبارة عن ارادة حدوث الشيء من الغير، غير انها لاتسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها، ولم يتخلها كراهة، فتسميتها بالرضا، موقوفة على وقوع المراد إلا أن بعد وقوع المراد بفعل ارادة هي رضالما كان فسقط ما قاله.

وقوله: " سبل السلام " السبل جمع سبيل. وفي السلام قولان:
احدهما - هو الله في قول الحسن والسدي - والمعنى دين الله. وقال:
" هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن " الثاني - قال الزجاج: إنه
السلامة من كل مخافة ومضرة إلا ما لا يعتد به، لأنه يؤول إلى نفع في العاقبة.
وقوله: " يخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه " معناه من الكفر إلى الايمان، لأن الكفر يتحير
فيه صاحبه كما يتحير في الظلام، ويهتدي بالايمان إلى النجاة كما

(٤٧٦)

يهتدي. بالنور وقوله: " باذنه " معناه بلطفه.
وقوله: " يهديهم إلى صراط مستقيم " معناه يرشدهم إلى طريق الحق. وهو دين الحق. وقال
الحسن: هو الذي يأخذ بصاحبه حتى يؤديه إلى الجنة. وبه قال أبو علي. ومعنى " صراط
مستقيم " طريق مستقيم وهو دين الله القويم الذي لا اعوجاج فيه.
قوله تعالى:

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن اراد ان يهلك
المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعا والله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق
ما يشاء والله على كل شئ قدير) (آية بلا - خلاف - اللام في قوله: " لقد كفر " جواب
للقسم وتقديره أقسم لقد كفر الذين قالوا. وانما كفروا بقولهم: إن الله هو المسيح بن مريم على
وجه التدين به، لانهم لوقالوه على وجه الحكاية منكرين لذلك لم يكفروا به. وانما كانوا بذلك
كافرين من وجهين:

احدهما - انهم كفروا بالنعمة من حيث أضافوها إلى غير الله ممن ادعوا الهيته.
والثاني - كفر صفة لانهم وصفوا المسيح وهو محدث بصفات الله تعالى، فقالوا:
هو إله واحد فكل جاهل بالله كافر، لأنه لما ضيع حق نعمة الله، كان بمنزلة من أضافها إلى
غيره ومعنى من يملك من الله شيئاً من يقدر ان يدفع من أمر الله شيئاً، من قولهم: ملكت على
فلان أمره: إذا اقتدرت عليه حتى لا يمكنه انفاذ شئ من امره الابك. وتقديره من يملك من امره
شيئاً. ووجه الاحتجاج بذلك انه لو كان المسيح إليها، لقدر على دفع أمر الله اذا اتى باهلاكه
واهلاك غيره، وليس

(٤٧٧)

بقادر عليه لاستحالة القدرة على مغالبة القديم (تعالى) إذا ذلك من صفات المحتاج الذليل.

وقوله: " والله ملك السموات والارض وما بينهما " انهالم يقل وما بينهن مع ذكر السموات على الجمع، لانه أراد به النوعين أو الصنفين كما قال الشاعر:
طرقا فتلك هما همى اقريهما * قلصا لواقح كالقسي وحولا
فقال: طرفا، ثم قال: فتلك هما همى. فان قيل: كيف حكى عنهم ان الله هو المسيح بن مريم. وعندهم هو ابن الله؟ قلنا: لانهم زعموا انه اله. وهذا الاسم انما هو للاله بمنزلة ذلك، كما لو قال الدهري: إن الجسم قديم لم يزل، وان لم يذكره بهذا الذكر.
قوله تعالى:

(وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير) ()
آية بلاخلاف -.

روي عن ابن عباس أن جماعة من اليهود قالوا للنبي حين حذرهم بنقمات الله وعقوباته، فقالوا: لاتخوفنا فاننا ابناء الله واحباؤه وقال السدي: إن اليهود تزعم ان الله عزوجل أوحى إلى بني اسرائيل إن ولدك بكر من الولد. وقال الحسن: انما قالوا ذلك على معنى قرب الولد من الوالد. واما قول النصارى، فقليل فيه: إنهم تأولوا ما في الانجيل من قول عيسى اذهب إلى ابي وأبيكم. وقال قوم: لما قالوا:

المسيح ابن الله أجرى ذلك على جميعهم، كما يقولون: هذيل شعراء أي منهم شعراء وكما قالوا في رهط مسيلمة قالوا: نحن انبياء أي قال قائلهم. وكما قال جرير:
ندسنا ابا مندوسة القين بالقنى

(٤٧٨)

فقال: ندسنا. وانما النادس رجل من قوم جرير.

وقوله: " واحباؤه " جمع حبيب، فقال الله لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله)

قل لهؤلاء المفترين على ربهم: " فلم يعذبكم بذنوبكم " فلاي شئ يعذبكم بذنوبكم إن كان الامر على ما زعمتم، فان الاب يشفق على ولده. والحبيب على حبيبه، لايعذبه وهم يقرون بأنهم معذبون، لانهم لو لم يقولوا به، كذبوا بكتبهم وأباحوا الناس ارتكاب فواحشهم. واليهود تقرر انهم يعذبون أربعين يوما. وهي عدد الايام التي عبدوا فيها العجل.

وقوله: " بل انتم بشر " معناه قل لهم: ليس الامر على ما زعمتم انكم ابناء الله واحباؤه، بل انتم بشر ممن خلق من بني آدم ان أحسنتم جوزيتم على إحسانكم مثلهم، وإن أسأتم، جوزيتم علي إساءتكم، كما يجازي غيركم. وليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه.

وقوله: " يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء " فانه وان علق العذاب بالمشيئة، فالمراد به المعصية، لانه تعالى لايشاء العقوبة إلا لمن كان عاصيا، فكان نكرها أوجز وأبلغ، لما في ذلك من رد الامر إلى الله الذي يجازي به على وجه الحكمة.

وانما هذا وعيد من الله لهؤلاء اليهود والنصارى المتكلمين على منازل أسلافهم في الجنان عندهم. فقال الله تعالى: لاتغثروا بذلك فانهم نالوا ما نالوا بطاعتي وايثار رضاي، لابالاماني. وقال السدي: معنى " يغفر لمن يشاء " يعني يهدي من يشاء في الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء على كفره، فيعذبه.

وقوله تعالى: " والله ملك السموات والارض " معناه انه يملك ذلك وحده لاشریک له يعارضه، فقد وجب اليأس مما قدروا من كل جهة، وأنه لامنجي لهم الا بالعمل بطاعة الله واجتتاب معاصيه. وقال أبو علي: ذلك بأنه يملك السموات، والارض وما بينهما على أنه لاولد له، لان المالك لذلك لاشبه له، ولان المالك لايملك ولده لخلق له.

وقوله: " واليه المصير " معناه انه يوئل اليه امر العباد في أنه لايملك ضرهم،

(١) - في المطبوعة (بجزئها). (*)

(٤٧٩)

ولانفعهم غيره - عزوجل -، لانه يبطل تمليكه لغيره ذلك اليوم كما ملكهم في دار الدنيا كما يقال: صار أمرنا إلى القاضي لاعلى معنى قرب المكان، وإنما يراد بذلك أنه المتصرف فينا والامر لنا دون غيره.

قوله تعالى:

(يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل تقولوا ما جاءنا من بشير
ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير) (٢١) - آية بلاخلاف - هذا خطاب
لليهود والنصارى ناداهم الله خصوصا لينبهم على ما يذكر لهم.

وقوله (قد جاءكم رسولنا يبين لكم) يدل على أنه اختصه من العلم بما ليس مع غيره " على
فترة من الرسل " يعني على انقطاع من الرسل. وفيه دلالة على أن زمان الفترة: لم يكن فيه
نبي. والفترة انقطاع ما بين النبيين عند جميع المفسرين. والاصل فيها الانقطاع عما كان عليه
من الجد فيه من العسل، يقال: فتر عن عمله وفترته عنه. وفتر الماء إذا انقطع عما كان عليه
من البرد إلى السخونة. وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر. وفتر البدن كفتور
الماء، والفتر ما بين السبابة والابهام إذا فتحا. وقال الحسن:

كانت هذه الفترة بين عيسى ومحمد (ص) ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وخمسين سنة.
وقال الضحاك أربعمائة سنة وبضعا وستين سنة.

وقوله (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير) يدل على بطلان مذهب

(٤٨٠)

المجبرة في القدرة، لان الحجة بمنع القدرة تؤكد من الحجة بمنع اللطف، وتكون الحجة في
ذلك لمن علم الله أن بعثة الانبياء مصلحة لهم، فاذا لم يبعث، تكون لهم الحجة، فاما من لا يعلم
ذلك فيهم، فلاحجة لهم، وان لم يبعث اليهم الرسل. ومعنى " أن تقولوا " ألا تقولوا " ما جاءنا
من بشير ولانذير " .

على قول الفراء وغيره من الكوفيين، كقوله تعالى: " يبين الله لكم أن تضلوا " ومعناه ألا
تضلوا. وقال البصريون: معناه كراهة أن تضلوا، وكراهة أن تقولوا، وحذفت كراهة. كما قال
" واسأل القرية " وإنما أراد أهلها. وأن

" تقولوا " في موضع نصب عند أكثر البصريين وقال الخليل والكسائي:

موضعه الجر وتقديره لئلا تقولوا. والبيان الذي أتاهم به النبي (صلى الله عليه وآله) هودين
الاسلام الذي ارتضاه الله. وهويان نفس الحق من الباطل، وما يجب.

والبشير هو المبشر لكل مطيع بالثواب. والنذير هو المنذر المخوف كل عاص لله بالعقاب
ليتمسك المطيع بطاعته، ويجتنب العاصي لمعصيته. والجملة التي ذكرناها قول ابن عباس
وقتادة وجميع المفسرين.

قوله تعالى:

(وإن قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم
مالم يؤت أحدا من العالمين (٢٢) آية بلاخلاف في هذه الآية اعلام من الله تعالى للنبي (صلى

الله عليه وآله) قديم تمادي هؤلاء اليهود في الغي وبعدهم من الحق وسوء اختيارهم لانفسهم
وشدة خلافهم لانبيائهم مع

(٤٨١)

كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلاله عليهم، مسلما بذلك نبيه (صلى الله عليه وآله) من مقاساتهم
في ذات الله. فقال: فاذا ذكر يا محمد إذ قال موسى لهم (يا قوم اذكروا).
نعمة الله عليكم) وأياديه لديكم وآلاله عليكم. وهو قول ابن عباس وابن عيينة.
وقوله (إذ جعل فيكم أنبياء) يعني ان موسى ذكر قومه بنعمه عليهم، وبلائه لديهم فقال لهم
(اذكروا نعمة الله عليكم) إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء يخبرونكم بأنباء لغيره، ولم يعط ذلك
غيركم في زمانكم هذا، وقيل ان الانبياء الذين ذكرهم الله أنهم جعلوا فيهم هم الذين اختارهم
موسى إلى الجبل: وهم السبعون الذين ذكرهم الله تعالى فقال (واختار موسى قومه سبعين
رجلا لميقاتنا) (١) وقال قوم: هم الانبياء الذين كانوا بعد موسى (ع).
وقوله (وجعلكم ملوكا) معناه سخر لكم من غيركم خدما يخدمونكم.
وقال قتادة: لانهم أول من سخر لهم الخدم من بني اسرائيل، وملكوا. قال قوم: كل من ملك
بيتا أو خادما أو امرأة ولا يدخل عليه إلا بأمره فهو ملك - كائنا من كان - ذهب إليه عمرو بن
العاص وزيد بن اسلم والحسن والفراء قال: هؤلاء إنما خاطبهم موسى بذلك لانهم كانوا
يملكون الدور والخدم ولهم نساء وأزواج. وبه قال الحسن وابن عباس ومجاهد. وروي عن
النبي (صلى الله عليه وآله).
وقال السدي جعلهم ملوكا يملك الرجل منهم نفسه وأهله وماله. وقال الزجاج: جعلكم الله
تملكون أمركم ولا يغلبكم عليه غالب. وقال البلخي:

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٤. (*)

(٤٨٢)

ليس ينكر أن يكون الله جعل لهم الملك والسلطان ووسع عليهم التوسعة التي يكون الانسان بها
ملكا. وقال المؤرج: معناه - بلغة كنانة وهذيل - جعلكم أحرارا. وقال أبو علي: الملك هو
الذي له ما يستغني به عن تكلف الاعمال وتحمل المشاق، والتسكع في المعاش. وقال ابن
عباس، ومجاهد: جعلوا ملوكا باليمن والسلوى والحجر والغمام. وزاد الجبائي: وبغير ذلك من
الاموال. وقال قوم: ملكوا أنفسهم بالتخلص من الغيظ.

وقوله: (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعني أعطاكم ما لم يعط أحدا من عالمي زمانهم. وهو قول الحسن والبلخي. وقال أبو علي: أعطاكم مالم يعط أحدا من العالمين أي من اجتماع هذه الامور وكثرة الانبياء فيهم، والآيات التي جاءتهم، إنزال المن والسلوى عليهم. وهو قول الفراء والزجاج.

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: هذا خطاب موسى لامته - وهو الاظهر - وقال سعيد بن جبير، وأبو مالك: هو خطاب من الله لامة محمد (صلى الله عليه وآله). وإنما قلنا: أن الاول أولى لان الله أخبر حاكيا عن موسى (ع) أنه قال لهم " اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) ثم عطف على ذلك قوله:

(وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) فالعدول عن ذلك من غير ضرورة لايجوز. وقوله: " أنبياء " لاينصرف في معرفة ولانكرة لان علامة التأنيث فيها لازمة مثل حمراء تأنيث أحمر. ويخالف ذلك علامة التأنيث في طلحة وقائمة تأنيث قائم فلذلك انصرف هذا في النكرة دون المعرفة.

(٤٨٣)

قوله تعالى:

(يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) (٢٣) آية بلاخلاف هذه حكاية عن موسى (ع) أنه خاطب قومه وأمرهم بالدخول إلى الارض المقدسة وهي: بيت المقدس على قول ابن عباس، وابن زيد، والسدي وأبي علي. وقال الزجاج والفراء: هي دمشق وفلسطين وبعض الاردن. قال الفراء بتشديد النون - وقال قتادة: هي الشام. وقال مجاهد هي أرض الطور.

والمقدسة في اللغة: المطهرة. وقيل: إنها طهرت من الشرك وجعلت مسكنا وقرارا للانبياء والمؤمنين، والاصل التقديس، وهو التطهير، ومنه قيل للسلطان الذي يتطهر منه: القدس. وقيل: بيت المقدس لانه يطهر من الذنوب. ومنه تسبيح الله وتقديسه سبوح قدوس، وهو تنزيهه عما لايجوز عليه من نحو الصحابة والولد والظلم والكذب.

وقوله: " كتب الله لكم " يعني في اللوح المحفوظ. فان قيل: كيف كتب الله لهم مع قوله " فانها محرمة عليهم "؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال ابن اسحاق: إنها كانت هبة من الله لهم ثم حرمهم إياها. والثاني - إن ظاهر ذلك يقتضي العموم بأن الله كتب لهم، فلما قال " إنها محرمة عليهم أربعين سنة " استثنى ذلك من جملته.

ويحتمل أن يكون المراد انها يدخلها قوم منهم. وقيل: ان القوم الذين كتب لهم دخولها غير الذين حرم عليهم، والذين كتب لهم دخولها مع يوشع بن

(٤٨٤)

نون بعد موت موسى بشهرين.

وقوله: " ولا تترتدوا على أدباركم " فيه قولان:

أحدهما - لا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته - في قول أبي علي.

الثاني - لا ترجعوا عن الارض التي أمرتم بدخولها.

وقوله " فتنقلبوا خاسرين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنه كان فرض عليهم دخولها كما فرضت الصلاة والصوم والزكاة والحج، فلما لم يفعلوا فقد خسروا الثواب. هذا قول قتادة والسدي.

والثاني - أنه أراد بذلك خسران حظهم كالخسران في البيع بذهاب رأس المال.

وخاسرين نصب على الحال، والعامل فيه " فتنقلبوا " دون قوله

" ولا تترتدوا ".

قوله تعالى:

قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فانما

داخلون (٢٤) آية بلاخلاف هذه حكاية من الله عن قوم موسى لما أمرهم بدخول الارض

المقدسة، انهم قالوا: إن في الارض قوما جبارين، ونصب (جبارين) ب (أن) و (فيها)

خبر (إن) قدم على الاسم. والجبار هو الذي لا ينال بالقهر وأصله - في النخل - ما فات اليد

طولا والجبار من الناس هو الذي يجبرهم على ما يريد.

وقال ابن عباس: بلغ من جبرية هؤلاء القوم أنه لما بعث موسى من قومه

(٤٨٥)

اثني عشر نقيبا ليخبروه خبرهم، رآهم رجل من الجبارين يقال له عوج فأخذهم في كفه مع

فاكهة كان حملها من بستانه وأتى بهم الملك فنثرهم بين يديه وقال معجبا للملك منهم: هؤلاء

يريدون قتالنا؟ فقال الملك: ارجعوا إلى صاحبكم فاخبروه خبرنا.

وقال قتادة ومجاهد مثله. قال مجاهد كانت فاكهتهم لا يقدر على حمل عنقود لهم خمسة رجال

بالخشب. ويدخل في قشر رمانة خمسة رجال.

وان موسى كان طوله عشرة أذرع وله عصا طولها مثل ذلك ونزا من الارض مثل ذلك، فبلغ

كعب عوج بن عوق فقتله. وقيل كان سريره مئة ذراع.

وأصل الجبار من الاجبار على الامر وهو الاكراه عليه. والجبر جبر العظم وهو كالاكراه على الصلاح. قال العجاج:

قدجبر الدين الاله فجبر * وعور الرحمن من ولى العور (١)

أي أصلحه ولامه كجبر العظم كرها. والجبار هدر الارش لان فيه معنى الكره. والجبار في صفات الله صفة التعظيم، لانه يفيد الاقتدار، وتقول: لم يزل الله جبارا بمعنى أن ذاته تدعو العارف بها إلى تعظيمها.

والفرق بين الجبار والقهار أن القهار هو الغالب لمن ناوأه أو كان في حكم المناوئ بمعصيته إياه، ولايوصف فيما لم يزل بأنه قهار. والجبار في صفة المخلوقين صفة ذم، لانه يتعظم بما ليس له من العظمة. فان العظمة لله تعالى.

وقوله (وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) يعني هؤلاء الجبارين " فان

(١) لسان العرب (جبر)، (عور)، والعور هنا بمعنى قبح الامر وفساده، تقول: عورت عليه أمره أي أفسدته عليه.

(٤٨٦)

يخرجوا منها فانا داخلون " تمام الحكاية عن قوم موسى.

قوله تعالى:

قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون (٢٥)

وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٦) آيتان في البصري وآية عند الباقرين.

هذا إخبار من الله تعالى عن رجلين من جملة النقباء الذين بعثهم موسى لتعرف خبر القوم. وقيل هما يوشع بن نون، وكالب، وقيل كلاب بن يوفنا، في قول ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة والربيع. وقال الضحاك: هما رجلان كانا في مدينة الجبارين وكانا على دين موسى

(ع). وقوله: " من الذين يخافون " قال قتادة: يخافون الله - عزوجل - وقال أبو علي يخافون

الجبارين أي لم يمنعهم الخوف من الجبارين أن قالوا الحق " أنعم الله عليهما " بالتوفيق

للطاعة. وقال الحسن: أنعم الله عليهما بالاسلام. وكان سعيد بن جبيرة يقرأ " يخافون " بضم

الياء. وروي تأويل ذلك عن ابن عباس: انهما كانا من الجبارين أنعم الله عليهما بالاسلام.

وقوله: " ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون " اخبار عن قول الرجلين انهما قالوا

ذلك. وإنما صار الظفر بدخول باب مدينة الجبارين لما رأوا من رعبهم وما ألقى الله في

قلوبهم من حكمة بأنه كتبها لهم، وما تقدم من وعد موسى (ع) إياهم بأنهم إن دخلوا الباب

غلبوا.

وقوله " وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " معناه فتوكلوا على الله في

(٤٨٧)

نصره إياكم على الجبارين إن كنتم مؤمنين بالله، وبما آتاكم به رسوله من عنده.
قوله تعالى:

قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون (٢٧)
آية بلاخلاف.

هذا إخبار عن قوم موسى أنهم قالوا: لاندخل هذه المدينة مادام الجبارون فيها، لانهم جنبوا
وخافوا من قتال الجبارين لعظم أجسامهم وشدة بطشهم، ولم يتقوا بوعد نبيهم بالنصر لهم
عليهم والغلبة لهم.

وقوله " فاذهب أنت وربك " إنما أبرز الضمير ليصح العطف عليه، لانه لايجوز العطف على
الضمير قبل أن يؤكد. وإنما جاز في قوله " فاجمعوا أمركم وشركاءكم " (١) ذلك، لان ذكر
المفعول صار عوضا عن المنفصل مثل (لا) في " لو شاء الله ما اشركنا ولاآبأؤنا " (٢) وإنما
لم يقرن قوله (اذهب أنت وربك فقاتلا) بالنكير - إذ الذهاب لايجوز عليه تعالى - لامرين:
أحدهما - لان الكلام كله يدل على الافكار عليهم والتعجب من جهلهم في تلقيهم أمر نبيهم
بالرد له والمخالفة عليه.

الثاني - لانهم قالوا ذلك على المجاز بمعنى وربك معين لك - على ما ذكره البلخي - والاول
أقوى لانه أظهر من أولئك الجهال. وإنما يتأول على ما قاله البلخي لوكانوا ممن لايجوز
عليهم مثل ذلك. وقال الحسن: هذا القول منهم يدل على أنهم كانوا مشبهة وأنهم كفروا بذلك
بالله. وقال أبو علي: إن كانوا قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر، لان

(١) سورة يونس آية ٧١ (٢) سورة الانعام آية ١٤٨ (*)

(٤٨٨)

ذلك جل بالله تعالى. وإن قالوه على وجه الخلاف فهو فسق.

فان قيل: هل يجوز وصفه تعالى بالقتال كما قال " قاتلهم الله أنى يؤفكون " (١)؟ قلنا: هذا
مجاز، والمعنى إن عداوته لهم عداوة المقاتل، وانه يحل بهم ما يحله بالمقاتل المستعلي
بالاقتدار وعظم السلطان، وليس كذلك قول هؤلاء الجهال.
قوله تعالى:

قال رب إني لأملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٨) آية بلاخلاف.

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما قاله موسى (ع) عقيب ما كان من قومه من الخلاف وقلة القبول على نبيهم، وخرج ذلك مخرج الغضب منه على قومه لما كان من عصيانهم إياه. ومثل ذلك لا يخرج إلا على غضب.

وقوله " لأملك إلهي وأخي " مجاز، لان الانسان لا يصح أن يملك نفسه، لان الاصل في الملك القدرة، والمالك هو القادر، ومحال أن يقدر الانسان على نفسه، ثم من حق المملوك أن يكون مقدورا عليه أو في حكم المقدور عليه في أن له أن يصرفه تصرف المقدور عليه كملك الانسان للمال والعبد ونحوه، فلا يجوز على هذا أن يملك نفسه. ومعنى الآية أنه لما ملك تصريف نفسه في طاعة الله جاز أن يصف نفسه بأنه يملكها، لانه مما يجوز أن يملكه. وقوله: " وأخي " لانه كان أيضا طائعا له فيما يأمره به، فكان كالقادر عليه. ويحتمل موضعه أربعة أوجه:

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ وسورة ٦٥ المنافقون آية ٤. (*).

(٤٨٩)

أحدها - الرفع على موضع (إن) وتقديره: إني لأملك إلهي وأخي لا يملك الا نفسه.
الثاني - الرفع أيضا بالعطف على الياء في (إني).
الثالث - النصب بالعطف على الياء في (إني).
الرابع - النصب بالعطف على نفسي.

وقوله " فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " قيل في الوجه الذي سأل الفرق بينه وبينهم قولان: أحدهما - أن يحكم ويقتضي بما يدل على بعدهم عن الحق وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان ولذلك القوا في التيه. هذا قول ابن عباس والضحاك.
الثاني - قال أبو علي إنما دعا بأن يفرق بينه وبينهم في الآخرة بأن يكون هؤلاء في النار، وأن يكون هؤلاء في الجنة. ولو دعا بالهلاك في الدنيا لاهلكهم الله.
وقال قوم: إنما سأل أن ينصره الله عليهم حتى يرجعوا إلى الحق. وقال البلخي معناه باعد، وافصل. وحكي عن المؤرج ان معناه: اقض - بلغة مدبن - والفرق الذي يدل على المباعدة مثل قول الراجز:

يارب فافرق بينه وبينني * أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله " الفاسقين " في الآية - لا يدل على ان ما وقع منهم كان فسقا لا كفرا، لان الكفر قد يوصف بالفسق، لان الفسق هو الخروج من الطاعة إلى المعصية على وجه التمرد، ويكون

ذلك في الكفر قال الله تعالى " إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " (١) وكان بذلك كافرا بلاخلاف.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٥١. (*)

(٤٩٠)

قوله تعالى:

قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٩) آية هذه الآية إخبار من الله، وخطاب لموسى (ع) أن قومه قد حرم عليهم دخول بلد الجبارين أربعين سنة، وفي كيفية التحريم قولان:

أحدهما - قول أكثر المفسرين: أنه تحريم منع كما قال الشاعر:

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري * اني امرؤ صرعي عليك محرم

يعني دابته التي هو راكبها ويريد بذلك إني فارس لايمكنك أن تصرعني. وقال أبوعلي: يجوز أن يكون المراد به تحريم تعبد - والاول هو الاظهر - وقال البلخي: يجوز أن يكونوا أمرؤا بأن يطوفوا فيه أربعين سنة يتيهون في الارض يعني في المسافة التي بينهم وبينها. وقال الربيع: وكان مقداره ستة فراسخ. وقال مجاهد، والحسن: كانوا يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا. وقال الحسن: لم يمتم موسى (ع) في التيه. وروي عن ابن عباس أنه مات في التيه على علم منه فيه. وأما هارون فإنه مات قبل موسى في التيه، وكان أكبر من موسى. واستخلف موسى يوشع بعده. وقال:

إن الله بعثه نبيا. وفي دخوله أيضا مدينة الجبارين خلاف.

وأصل التيه التحير الذي لايهتدى لاجله للخروج عن الطريق إلى الغرض المقصود. وأصله الحيرة. يقال: تاه يتيه تيهًا: إذا تحير. وتيهته، وتوهته، والياء أكثر. والتهيء - من الارض - هي التي لايهتدي فيها. يقال: أرض تيه وتيهاء. قال الشاعر:

تية أتاويه على السفاط

(٤٩١)

فان قيل: يجوز على جماعة - عقلا - كثيرين أن يسيروا في فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال أبوعلي: يكون ذلك بأن تحول الارض التي هم عليها إذا ناموا فيردهم إلى المكان الذي ابتدؤا منه.

الثاني - أن يكون بالاشتباه. والاسباب المانعة من الخروج عنها إما بأن يمحو العلامات التي يستدل بها أو بأن يلقى شبه بعضها على بعض، ويكون ذلك معجزة خارقة للعادة. وقيل: إن التيه كان عقوبة لهم بعدد الايام التي عبدوا فيها العجل عن كل يوم سنة. ومن قال هذا قال: لم يكن موسى وهارون فيها، أو كانا فيها غير متوهين، كما كان ابراهيم في نار نمرود غير متألم بها.

وقوله: (أربعين سنة) نصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - على قول الربيع ب " محرمة " حرمتها عليهم أربعين سنة.

والثاني - " يتيهون " على قول الحسن وقتادة، لانهما قالوا: إنه ما دخلها أحد منهم. وقيل: انه دخلها يوشع بن نون وكالب بن يوفنا بعد موت موسى بشهرين. قالوا لانه لاخلاف بين المفسرين أن دخولها كان محرم عليهم على طريق التأييد. وإنما دخلها أولادهم مع يوشع وكالب بن يوفنا. وقوله:

" فلاتأس على القوم الفاسقين " خطاب لموسى (ع) أمره الله أن لا يحزن على هلاكهم لفسقهم.

والاسى: الحزن يقال أسى يأسى أسى أي حزن قال امرؤ القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتجل

وقال الزجاج: هو خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله).

(٤٩٢)

قوله تعالى:

واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (٣٠) آية بلاخلاف وجه إتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى أراد أن يبين أن حال اليهود في الظلم ونقض العهد وارتكاب الفواحش من الامور كحال ابن آدم قابيل في قتله أخاه هابيل، وماعاد عليه من الوبال بتعديه. فأمر نبيه أن يتلو عليهم اخبارهما وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) لما ناله من جهلهم بالتكذيب في جوده وتبكييت اليهود.

وقوله: " إذ قربا قربانا " متعلق بنبأ، وتقديره: اقرأ عليهم خبر ابني آدم وما جرى منهما إذ قربا قربانا. والقربان يقصد به القرب من رحمة الله من أعمال البر وهو على وزن فعلان من القرب، كالفرقان من الفرق، والعدوان من العدو، والشكران من الشكر، والكفران من الكفر.

قال ابن عباس وعبدالله بن عمر، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين:

إن المتقربين كانا ولدي آدم لصلبه: قابيل، وهابيل. وقال الحسن، وأبو مسلم محمد بن بحر، والزجاج: هما من بني إسرائيل، لأن علامة تقبل القربان لم تكن قبل ذلك. وكان سبب قبول قربان أحدهما. ورد الآخر أحد أمرين:

أحدهما - أنه رد قربان أحدهما لأنه كان فاجرا فاسقا. وقبل قربان هابيل لأنه كان متقيا مطيعا، ولذلك قال الله (إنما يتقبل الله من المتقين).
الثاني - انه قرب بشر ماله وأخسه. وقرب الآخر بخير ماله، وأشرفه.

(٤٩٣)

فتقبل الأشرف، ورد الاخس.

وقال قوم ان سبب القربان أنه لم يكن هناك فقير فمن أراد القربان أخرج من ماله ما أحب، ففعلا ذلك، فأكلت النار قربان أحدهما دون الآخر، ولم يكن ذلك عن أمر الله. وقال أكثر المفسرين ورواه أبو جعفر وغيره من المفسرين:

أنه ولد لكل واحد من قابيل وهابيل اخت توأم له فأمر آدم كل واحد بتزويج اخت الآخر. وكانت اخت قابيل أحسن من الاخرى، فارادها، وحسد أخاه عليها، فقال آدم قريبا قربانا، فأيكما قبل قربانه فهي له، وكان قابيل صاحب زرع فعمد إلى اخبث طعام. وعمد هابيل إلى شاة سمينية ولبن وزبد، فصعدا به الجبل فأنتت النار فأكلت قربان هابيل، ولم تعرض لقربان قابيل. وكان آدم غائبا عنهما بمكة، فقال قابيل لاعشت يا هابيل في الدنيا، وقد تقبل قربانك ولم يتقبل قرباني. وتريد أن تأخذ اختي الحسنة. وآخذاختك القبيحة، فقال له هابيل: ما حكاه الله تعالى، فشدخه بحجر فقتله، ثم حمله على عاتقه وكان يضعه على الارض ساعة ويبيكي ويعود يحمله كذلك ثلاثة أيام إلى أن رأى الغرابين.

وقوله: " لاقتلنك " معناه قال الذي لم يتقبل قربانه: و " قال إنما يتقبل الله " يعني الذي تقبل قربانه، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل في علامة القبول قولان:

قال مجاهد كانت النار تأكل المرود. وقال غيره بل كانت العلامة في ذلك نارا تأتي فتأكل المتقبل ولاتأكل المرود.

وقال قوم في الآية دلالة على ان طاعة الفاسق غير متقبلة لكنها تسقط عقاب تركها. واما النافلة فيصل اليه ضرب من النفع بها. وتقبل الطاعة إيجاب الثواب عليها - وهذا الذي ذكره غير صحيح - لان قوله " إنما يتقبل الله

(٤٩٤)

من المتقين " : معناه إنما يستحق الثواب على الطاعات من يوقعها لكونها طاعة فاما إذا فعلها لغير ذلك فإنه لا يستحق عليها ثوابا. فاذا ثبت ذلك، فلا يمتنع أن تقع من الفاسق يوقعها على الوجه الذي يستحق عليها الثواب فيستحق الثواب ولا تحابط عندنا بين ثوابه وما يستحق عليه العقاب. والاتقاء يكون لكل شئ يمتنع منه غير أنه لا يطلق اسم المتقين إلا على المتقين للمعاصي خاصة بضرب من العرف، لانه أحق ما يجب أن يخاف منه كما لا يطلق خالق إلا على الله - عزوجل - لانه أحق بهذه الصفة من كل فاعل، لان جميع أفعاله تقع على تقدير وترتيب وقوله: " إنما يتقبل الله من المتقين " يعني القرابين إنما قوله تعالى:

لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (٣١) آية يتقبلها الله من الذين يتقون معاصي الله خوف عقابه دون من لا يتقيها. في هذه الآية إخبار عن ولد آدم المقتول، وهو هابيل أنه قال لأخيه حين هدده بالقتل لما تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، فقال " لئن بسطت إلي يدك " ومعناه لئن مددت إلي يدك. والبسط هو المد وهو ضد القبض

" لتقتلني " معناه لان تقتلني ما أنا باسط يدي اليك لان أقتلك.

فان قيل لم قال ذلك وقد وجب بحكم العقل الدفع عن النفس وإن أدى إلى قتل المدفوع؟ ! قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - أن معناه لئن بدأتني بقتل لم أبداك لأعلى أنني لا ادفعك عن نفسي إذا قصدت قتلي هذا قول ابن عباس وجماعة، وقيل: إنه قتله غيلة بأن ألقى عليه وهونائم صخرة شدخه بها.

(٤٩٥)

الثاني - قال الحسن، ومجاهد، والجبائي: إنه كان كتب عليهم إذا أراد الرجل قتل رجل تركه ولم يمتنع منه. وكان عمرو بن عبيد يجيز الوجهين وهو الاقوى لان كلا الامرين جائز. فان قيل كيف يجوز الوجه الاخير وفيه اطماع في النفس؟ ! قلنا: ليس فيه شئ من ذلك لانه يجري مجرى قول القائل لغيره لئن ظلمتني لم أظلمك، ولئن قبحت في أمري لم أقبح في أمرك بل في ذلك غاية الزجر والردع عن القبيح، لان القبيح منفر عن نفسه صارف عن فعله.

وقوله: " إني أخاف الله رب العالمين " يعني أخاف الله في ابتداء مدي اليك يدي لتقتلك " رب العالمين " يعني رب الخلائق.

واللام في قوله " لئن " لام القسم وتقديره أقسم " لئن بسطت إلي يدك " وجوابه " ما أنا بباسط " ولا تقع (ما) جوابا للشرط والفرق بينهما أن ل (ما) صدر الكلام والقسم لا يخرجها عن ذلك كما جاز ان يكون جواب القسم ب (أن) ولام الابتداء، ولم يجز بالفاء لان المقسم عليه ليس يجب

بوجوب القسم وإنما القسم يؤكد، وجواب الشرط يجب بوجوبه، وإذا اجتمع القسم والجزاء كان جواب القسم أولى من جواب الجزاء، لأنه لما تقدم وصار الجزاء في حشو الكلام غلبه على الجواب فصار له واكتفى به من جواب الجزاء لدلالته عليه.

وروى غياث بن ابراهيم عن ابي اسحق الهمداني عن علي (ع) أنه قال:
لما قتل ابن آدم (ع) اخاه بكا وقال:

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح

(٤٩٦)

فأجاب آدم (ع) أيا هابيل قد قتلا جميعا * وصار الحي بالموت الذبيح
وجاء بشرة قد كان فيه * على خوف فجاء بها يصيح
قوله تعالى:

إني أريد أن تبوء بأثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٣٢)
في هذه الآية إخبار عن ابن آدم (ع) المقتول أنه قال: لأبدأك بالقتل لاني " أريد أن تبوء بأثمي " ومعناه أن ترجع، وأصله الرجوع إلى المنزل يقال: باء إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل " وبأءوا بغضب من الله " (١) أي رجعوا. والبواء الرجوع بالقود، وهم في هذا الامر بواء أي سواء، لانهم يرجعون فيه إلى معنى واحد. وقال الشاعر:

ألا تنتهي عنا ملوك وتنتقي * محارمنا لايبؤؤالدم بالدم (٢)

أي لا يرجع الدم بالدم. وقوله " بأثمي وإثمك " معناه اثم قتلي ان قتلتني، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي - هذا قول ابن عباس، وابن مسعود والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد - وقال مجاهد معناه خطيأتي ودمي، ذهب إلى ان المعنى مثل إثمى. وقال الجبائي، والزجاج. وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك. ويجوز أن يريد بأثمي الاول اثم قتلي ان قتلتني

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢.

(٢) اللسان (بوء) وفيه روايتان: لايبأء، لايبؤء. (*)

(٤٩٧)

وإثمك الذي قتلتني، فاضافه تارة إلى المفعول واخرى إلى الفاعل، لانه مصدر يصح ذلك فيه، كما تقول ضرب زيد عمرا وضرب عمرو زيد فتضيفه تارة إلى الفاعل واخرى إلى المفعول. فان قيل: كيف جاز أن يريد منه الاثم وهو قبيح؟ قلنا: المراد بذلك عقاب الاثم، لان الرجوع بالاثم رجوع بعقابه، لانه لايجوز لاحد أن يريد معصية الله من غيره كما لايجوز. أن يريدها

من نفسه، وهو قول أبي علي وغيره. وقال قوم: التقدير إني أريد أن لا تبوء باثمي كما قال " يبين الله لكم أن تضلوا " ومعناه ألا تضلوا. وهذا وجه يحتمله الكلام لكن الظاهر خلافه، وإنما يحمل على ذلك إذا دل الدليل على أنه لا يجوز أن يريد من غيره الاثم. وليس ههنا ما يدل عليه والكلام يدل على أنه أراد العقاب لامحالة لو أراد الاثم. وقوله " فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين " لا يدل على فساد القول بالارجاء، لأن ظاهره يقتضي أنه يستحق بذلك النار والعذاب، وان ذلك جزاءه وليس في ذلك ما يمنع من جواز اسقاطه بغير توبة فينبغي أن لا يمنع منه.

وفي الآية دلالة على أن الوعيد بالنار قد كان في زمن آدم بخلاف ما يدعيه جماعة من اليهود والنصارى. قوله تعالى:

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٣) آية بلاخلاف

(٤٩٨)

قيل في معنى " طوعت له نفسه " ثلاثة أقوال:

أحدها - شجعتة نفسه على قتل أخيه في قول مجاهد. وقال قتادة زينت له نفسه قتل أخيه. وقال قوم: معناه ساعدته نفسه على قتل أخيه، فلما حذف حرف الجر نصب قوله " قتل أخيه ". ومن قال معناه زينت نصبه كأنه مفعول به. يقال طاع لهذه الطيبة اصول الشجرة، وطاع لفلان كذا أي أتاه طوعا، ويقال أيضا انطاع. ولا يقال اطاعته نفسه، لان (أطاع) يدل على قصد لموافقة معنى الامر، وليس كذلك طوع، لانه بمنزلة انطاع له اصول الشجرة. وفي الفعل ما يتعدى إلى نفس الفاعل نحو حرك نفسه، وقتل نفسه. وفيه ما لا يتعدى نحو أمر ونهى، لان الامر والنهي لا يكون إلا ممن هو أعلى لمن هودونه.

وقال ابن عباس وابن مسعود وأبو مالك وأبو جعفر (عليه السلام):

إنه قتله بصخرة شدخ رأسه بها، وقال مجاهد: لم يدر كيف يقتله حتى ظهر له ابليس فعلمه ذلك، ظهر في صورة طير، فأخذ طيرا آخر وترك رأسه بين حجرين فشدخه. وقابيل ينظر اليه ففعل مثله. وقيل هو أول قتل كان في الناس. وقوله: " فأصبح من الخاسرين " لا يدل على أنه قتله ليلا، لان معناه صار من الخاسرين بقتله ليلا أو نهارا، لانه يحسن في هذا أن يقال: أصبح، لانه بمنزلة الامر الذي بيت ليلا، فكانت ثمرته الوبال والخسران، والمعنى - ههنا - ذهاب رأس المال بهلاك نفسه. وذلك أعظم الخسران كما قال تعالى " خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة " فمعنى الآية أصبح من الذين باعوا الآخرة بالدنيا، فخسروا في ذلك وخابت صفقتهم.

قوله تعالى:

فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين (٣٤)

آية بلاخلاف قرأ الحسن (ياويلتي) مضاف، وهما لغتان يقال ياويلتا وياويلتي ذكره الازهري. قيل: إنه كان أول ميت من الناس فلذلك لم يدر كيف يواريه وكيف يدفنه حتى بعث الله غرابين أحدهما حي والآخر ميت، وقيل كانا حيين فقتل أحدهما صاحبه ثم بحث الحي الارض فدفن فيه الغراب الميت، ففعل به مثل ذلك قابيل، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وابن مالك ومجاهد والضحاك وقتادة. وفي ذلك دلالة على فساد ما قال الحسن وأبو علي وأبو مسلم إنهما كانا من بني اسرائيل، لانه لم يكن الناس إلى زمان بني اسرائيل، لا يدرن كيف يدفنون ميتهم، قال الرمانى ولا يجوز أن يكون الغراب مكلفا، لان المعلوم من دعوة الرسول أن المكلفين هم الملائكة والانس والجن، والمعلوم ضرورة أنه لامطيع لله أحد إلا من هذه الثلاثة أصناف، وأيضا فقد بعث الله النبي (صلى الله عليه وآله) إلى كل مكلف سوى الملائكة ولا يقول أحد: إنه مبعوث إلى الغربان. ومعنى " فبعث الله غرابا " ألهمها ذلك. وقال الزجاج أكرم الله

المقتول بأن بعث غرابا حثا عليه التراب ليريه كيف يواري سوءة أخيه. وقال قوم: كان ملكا في صورة الغراب. وقال أبو علي يجوز أن يكون الغراب قد زاد الله في عقله ماعقل أمر الله لاعلى وجه التكليف كما نأمر صبياننا وأولادنا فيفهمون عنا.

ومعنى " سوءة أخيه " قيل فيه قولان: أحدهما - قال أبو علي: إنه جيفة أخيه، لانه كان تركه حتى أنتن فقبل لجيفته سوءة. وقال غيره: معناه عورة أخيه والظاهر يحتمل الامرين. وأصل السوء التكررة تقول ساءه يسوءه إذا أتاه بما يكرهه.

وروى الحسن عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الله ضرب لكم مثلا ابني آدم فخذوا من خيرهما ودعوا شرهما).

وقوله " قال وياويلتا " فيه حذف لان تقديره ليريه كيف يواري سوءة أخيه فواراه قال والقائل أخاه ياويلتاه. وقال الزجاج الوقف في غير القران عليها ياويلتاه، والنداء لغير الأدميين نحو " يااحسرتا على العباد " (١).

و " ياويلتا ألد وأنا عجوز " (٢). وقال ياويلتا وإنما وقع في كلام العرب.

على تنبيه المخاطب وان الوقت الذي يدعي هذه الاشياء هو وقتها. والمعنى ياويلتنا تعالي فانه من ابانك أي قوله: مني الويل وكذلك ياعجبا: المعنى ياأيها العجب هذا وقتك. وقال سيبيويه: الويل كلمة تقال عند الهلكة.

وقيل الويل واد في جهنم وقوله " أعجزت " يقال عجزت عن الامر أعجز عجزا ومعجزة.

(١) سورة يس آية ٣٠. (٢) سورة هود آية ٧٢ (*)

(٥٠١)

وقوله " فأصبح من النادمين " قيل كانت توبته غير صحيحة، لأنها لو كانت صحيحة لاستحق عليها الثواب. وقال أبو علي: ندم على قتله على غير الوجه الذي يكون الندم توبة لأنه ندم لأنه لم ينتفع به وناله ضرر بسببه من أبيه واخوته. ولو كان على الوجه الصحيح لقبل الله توبته. وعلى مذهبنا كان يستحق الثواب لو كانت صحيحة، وإن لم يسقط العقاب. قوله تعالى:

من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون (٣٥) آية عند الجميع. قرأ أبو جعفر والزيبر (من أجل) ذلك بفتح النون واسكان الهمزة ومثله (قد أفلح) وما أشبهه. الباقيون يقطعون الهمزة بفتح النون بنقل الحركة من الهمزة إلى ما قبلها. ومن اسكنها تركها على أصلها.

ومعنى (من أجل) من جراء ذلك وجريته. وقال الزجاج: معناه من جنابة ذلك. يقال أجلت الشيء أجلا إذا اجنيته. قال الخواني:

وأهل خباء صالح ذات بينهم * قد احتربوا في عاجل أنا آجله (١)

(١) اللسان (أجل) وروايته كنت بينهم) بدل (ذات بينهم) وفي الصحاح مثل هنا وقائله خوات بن جبير. (*)

(٥٠٢)

أي جانيه وقيل جاره عليهم. وقال عدي بن زيد:

أجل ان الله قد فضلكم * فوق من احكأ صلبا بارزا (١)

وأصله الجر. ومنه الاجل الوقت الذي يجر اليه العقد الاول ومنه الأجل نقيض العاجل. ومنه (أجل) بمعنى نعم، لأنه انقياد إلى ما يجر اليه ومنه الاجال القطيع من بقر الوحش، لان بعضها ينجر إلى بعض.

و " ذلك " اشارة إلى قتل أحد ابني آدم أخاه ظلما. حكمناالى بني اسرائيل أنه من قتل منهم نفسا بغير نفس أو فساد كان منها في الارض فاستحقت بذلك قتلها. وفسادها في الارض إنما يكون بالحرب لله ولسوله واخافة - السبيل - على ما سنبينه فيما بعد - وهو قول الضحاك وجميع المفسرين. واختلفوا في تأويل قوله (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض، فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا) على ستة أقوال:

أحدها - قال الزجاج: معناه إنه بمنزلة من قتل الناس جميعا في أنهم خصومه من قبل ذلك الانسان.

والثاني - قال أبوعلي: إن عليه مثل مآثم كل قاتل من الناس لأنه سن القتل وسهله لغيره، فكان بمنزلة المشارك فيه. ومثله قوله (ع): (من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها).

الثالث - قال الحسن وقتادة ومجاهد: إن معناه تعظيم الوزر والمآثم

(١) اللسان (أجل). (*)

(٥٠٣)

وتقديره ياابن آدم انك لو قتلت الناس جميعا كان لك من عمالك ماتقوز به وتتجو من النار؟! - والله - كذبتك نفسك والشيطان، فكذلك قتلك ظلما الانسان أي كنت تستحق الخلود في النار كما كنت تستحقه بقتل الناس جميعا.

الرابع - قال ابن عباس: معناه من شد على عضد نبي أو امام عدل.

فكأنما أحيها الناس جميعا. ومن قتل نبيا أو إماما عدلا، فكأنما قتل الناس جميعا.

الخامس - قال ابن مسعود وغيره من الصحابة: معناه (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا) عند المقتول " ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا " عند المستنقذ.

السادس - قال ابن زيد معناه انه عليه من القود والقتل مثل مايجب عليه لو قتل الناس جميعا. وقوله: (ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا)

قال مجاهد معناه من نجاها من الهلاك مثل الخرق والحرق. وقال الحسن وابن زيد معناه من عفا عن دمها وقد وجب القود عليها. وقال أبوعلي معناه من زجر عن قتلها بمافيه حياتها على وجه يقتدى به فيها بأن يقتدى به فيها بأن يعظم تحريم قتلها كماحرمه الله. فلم يقدم عليه فقد حي الناس بسلامتهم منه وذلك احياءه إياها. وهو اختيار الطبري والله تعالى هو المحيي للخلق

لايقدر على ذلك غيره تعالى. وإنما قال: (أحياها) على وجه المجاز بمعنى نجاها من الهلاك كما حكى عن نمرود ابراهيم " أنا أحبي وأميت " فاستبقا واحدا وقتل الاخر. قوله (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) قسم من الله تعالى أن رسله أتت بني اسرائيل الذين ذكر قصصهم وأخبارهم بالآيات الواضحة والحجج الدالة على صدق رسله وصحة ما أتوا به ثم أخبر أن

(٥٠٤)

كثيرا منهم يعني من بني اسرائيل لمسرفون بعد مجيئ رسل الله اليهم ومعنى (لمسرفون) لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمره ونهيه باتباعهم غير رسل الله. والاسراف الخروج عن التقصير والاقتصاد وضده التقطير. والاقتصاد هو التعديل بلا إسراف ولا اقتار وقد يمدح بالاقتصاد. وقال أبو جعفر (ع):

المسرفون هم الذين يستحلون المحارم ويسفكون الدماء.

قوله تعالى:

إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٦) آية بلاخلاف.

المحارب عندنا هو الذي أشهر السلاح وأخاف السبيل سواء كان في المصر أو خارج المصر، فان اللص المحارب في المصر وغير المصر سواء. وبه قال الاوزاعي ومالك والليث بن سعد وابن لهيعة والشافعي والطبري. وقال قوم: هو قاطع الطريق في غير المصر ذهب اليه أبو حنيفة وأصحابه وهو المروي عن عطاء الخراساني. ومعنى (يحاربون الله) يحاربون أولياء الله ويحاربون رسوله (ويسعون في الارض فسادا) وهو ما ذكرناه من أشهر السيف واخافة السبيل. وجزاءهم على قدر الاستحقاق إن قتل قتل وان أخذ المال وقتل قتل وصلب وان أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف. وان اخاف السبيل فقط فانما عليه النفي لاغير هذا مذهبا. وهو المروي عن أبي جعفر

(٥٠٥)

(عليه السلام) وأبي عبدالله (ع) وهو قول ابن عباس وابي مجلز وسعيد بن جبير، والسدي، وقتادة، والربيع و ابراهيم على خلاف عنه - وبه قال أبو علي الجبائي والطبري وحكي عن الشافعي أنه إن أخذ المال جهرا كان للامام صلبه حيا وان لم يقتل.

" وان يقتلوا " في موضع رفع وتقديره إنما جزاؤهم القتل، والصلب أو القطع من موضع الخلاف، ومعنى (إنما) ليس جزاؤهم الا هذا قال الزجاج: اذاقال جزاؤك عندي درهم جاز أن يكون معه غيره، فاذا قال انما جزاؤك درهم كان معناه ماجزاؤك إلا درهم. واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس والضحاك، نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله) مودعة فنقضوا العهد، وأفسدوا في الارض، فخير الله نبيه في ما ذكر في الآية، وقال الحسن وعكرمة نزلت في أهل الشرك. وقال قتادة، وأنس وسعيد بن جبير والسدي: انها نزلت في العرنيين والعكليين حين ارتدوا وأفسدوا في الارض فأخذهم النبي (صلى الله عليه وآله) وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم (١) وفي بعض الاخبار أحرقتهم بالنار. ثم اختلفوا في نسخ هذا الحكم الذي فعله بالعرنيين، فقال البلخي وغيره نسخ ذلك بنهيته عن المثلة. ومنهم من قال: حكمه ثابت في نظرائهم لم ينسخ. وقال آخرون لم يسمل النبي (صلى الله عليه وآله) أعينهم وإنما أراد أن يسمل فأنزل الله آية المحاربة، والذي نقوله: إن عندنا ان كان فيهم طليعة لهم حتى يقتلوا قوما

(١) سمل أعينهم أي فقأها بحديدة محماة. (*)

(٥٠٦)

سملت عين الربيفة (١) وأجري على الباقيين ماذكرناه. وقال قوم: الامام مخير فيه ذهب اليه ابن عباس في رواية ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيب، وعطا وابراهيم في رواية عنه. فمن قال بالاول، ذهب إلى أن (أو) في الآية تقتضي التفصيل ومن قال بالثاني ذهب إلى انها للتخيير.

ومعنى قوله: " وأرجلهم من خلاف " معناه أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى. ولو كان موضع (من) (على) أو (الباء) لكان المعنى واحدا. وقوله " أو ينفوا من الارض " في معناه ثلاثة أقوال: أحدها - أنه يخرج من بلاد الاسلام ينفي من بلد إلى إلا أن يتوب ويرجع وهو الذي نذهب اليه. وبه قال ابن عباس، وأنس بن مالك، ومالك ابن أنس، والحسن والسدي والضحاك، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع ابن انس، والزهري. وقال أصحابنا لايمكن أيضا من دخول بلاد الشرك، ويقاتل المشركون على تمكينهم من ذلك حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الحق. وقال الفراء النفي أن يقال: من قتله قدمه هدر.

والثاني - انه ينفى من بلد إلى بلد غيره ذهب اليه سعيد بن جبير في رواية أخرى، وعمربن عبدالعزيز .

الثالث ان النفي هو الحبس ذهب اليه أبوحنيفة وأصحابه.
أصل النفي الاهلاك ومنه النفي الاعدام، فالنفي الاهلاك بالاعدام.
ومنه النفاية لردئ المتاع. ومنه النفي، وهو ما تطاير من الماء عن الدلو، قال الراجز:

(١) ربيئة القوم عنهم الذي يطلعهم على أخبار العدو. يقف على مرتفع عال ويرقب حركات العدو. (*)

(٥٠٧)

كأن متنيه من النفي * مواقع الطير على الصفي (١)
والنفي الطرد قال أوس بن حجر:
ينفون عن طرق الكرام * كما ينفي المطارق مايلي الفرد
وقوله " ذلك لهم خزي في الدنيا " معناه أن فعل ماذكرناه من الاحكام خزي في الدنيا، والخزي
الفضيحة يقال خزي يخزي خزيا إذا افتضح وخزي يخزي خزاية إذا استحيا وخزوته اخزوه
خزوا إذا سسته ومنه قول لبيد:
واخزها بالبر لله الاجل (٢)
" ولهم في الآخرة عذاب عظيم " معناه زيادة على ذلك وهذا يبطل قول من قال اقامة الحدود
تكفير للمعاصي لانه يقال مع اقامة الحدود عليهم بين ان لهم في الآخرة عذابا عظيما ومعنى
ان لهم في الآخرة عذابا عظيما انهم يستحقون ذلك ولايدل على انه يفعل بهم ذلك لامحالة لانه
يجوز أن يعفو الله عنهم ويتفضل عليهم باسقاط عقابهم.

(١) اللسان (نفي) وروايته:

كأن متنيه من النفي.

من طول اشرافي على الطوي مواقع الطير على الصفي (٢) اللسان (خزا) وقيله:

أكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزدي بالامل

غير أن لاتكذبها في التقى * واخزها بالبر لله الاجل (*)

(٥٠٨)

قوله تعالى:

إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (٣٧) آية بلاخلاف.

قال الزجاج يحتمل الذين ان يكون في موضع الرفع بالابتداء وخبره فاعلموا ان الله غفور رحيم والمعنى غفور رحيم لهم والمعنى لكن التائبون من قبل القدرة عليهم فالله غفور رحيم. ويجوز أن يكون في موضع نصب بالاستثناء من قوله (فاعلموا أن الله غفور رحيم). لما بين الله حكم المحارب - على ما فصلناه - استثنا من جملتهم من يتوب مما ارتكبه قبل أن يؤخذ، ويقدر عليه لان توبته بعد حصوله في قبضة الامام، وقيام البيعة عليه بذلك لاينفعه، ووجب اقامة الحد عليه.

واختلفوا فيمن تدرأ عنه التوبة الحدود: هل هو المشرك أو من كان مسلما من أهل الصلوة؟ فقال الحسن، وقتادة، ومجاهد والضحاك: هو المشرك دون من كان مسلما. فأما من أسلم، فانه لم يؤخذ بما جناه إلا أن يكون معه عين مال قائمة فانه يجب عليه ردها وماعدها يسقط. وأما علي (ع)

فانه حكم بذلك فيمن كان مسلما وهو حارثة بن بدر، لانه كان قد خرج محاربا ثم تاب فقبل علي (ع) توبته. وجعل له أمانا على يد سعيد بن قيس. وحكم به أبو موسى الأشعري في فلان المرادي جاء تائبا بعدكونه محاربا فقبل توبته. وأبو هريرة في علي الاسدي وبه قال السدي ومالك بن أنس إلا أن مالكا قال يؤخذ بالدم اذا طالب به وليه. وقال الليث بن سعيد لا يؤخذ به وقال الشافعي تضع توبته عنه حد الله الذي وجب لمحاربتة، ولا يسقط عنه

(٥٠٩)

حقوق بني آدم وهو مذهبا، فعلى هذا إن أسقط الآدمي حق نفسه ويكون ظهرت منه التوبة قبل ذلك لايقاص عليه الحد، وإن لم يكن ظهرت منه التوبة أقيم الحد، لانه محارب فيتاحتم عليه الحد. وهو قول أبي علي.

ولاخلاف أنه إذا اصيب المال بعينه في يده أنه يرد إلى أهله. فاما المشرك المحارب فمتى أسلم وتاب سقطت عنه الحدود، سواء كان ذلك منه قبل القدرة عليه أو بعدها بلاخلاف. فاما السارق إذا قدر عليه بعد التوبة وتكون التوبة منه بعد قيام البيعة فانه لايسقط عنه الحد. وإن كان قبل قيام البيعة اسقطت عنه. وقال قوم:

لاتسقط التوبة الحد عن السارق - ولم يفصل. وادعي في ذلك الاجماع.

قالوا لان الله جعل هذا الحكم للمحارب بالاستثناء بقوله: " فاعلموا أن الله غفور رحيم " ولم يكن غير المحارب في معناه فيقاص عليه، لان ظاهر هذا التفرد وليس كذلك هو في المحارب الممتنع بفئة وفي الآية حجة على من قال لاتصح التوبة مع الاقامة على معصية أخرى يعلم

صاحبها أنها معصية، لانه تعالى علق بالتوبة حكما لا يخل به الاقامة على معصية هي السكر أو شرب نبيذ التمر على غير التأويل باجماع المسلمين.
قوله تعالى:

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٣٨) آية بلاخلاف.

خاطب الله في هذه الآية المؤمنين وأمرهم أن يتقوه ومعناه أن يتقوا معاصيه ويجتنبوها وابتغوا إليه معناه يطلبون إليه الوسيلة وهي القربة في

(٥١٠)

قول الحسن ومجاهد وقتادة وعطا والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير وأبي وابل. وهي على وزن (فعيلة) من قولهم توسلت اليك أي تقربت قال عنتره ابن شداد:
إن الرجال لهم اليك وسيلة * أن يأخذوك فلججي وتخضبي
وقال الآخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافي بيننا والوسائل
يقال منه سلت أسأل أي طلبت وهما يتساولان أي يطلب كل واحد منهما من صاحبه. والاصل
الطلب والوسيلة التي ينبغي أن يطلب مثلها.

فان قيل كيف قال تعالى " اتقوا الله " وهو غاية التحذير مع أنه تعالى رغب في الدعاء اليه
وهما كالمتنافرين؟ قيل إنما قال ذلك لئلا يكون المكلف على غرور من أمره بكثرة نعم الله عليه
فيظن أنها موجبة للرضاء عنه فحقيقة.

الدعاء اليه باتقائه من جهة اجتناب معاصيه والعمل بطاعته. فان قيل هل يجوز أن يتقى
المعاقب من أجل عقابه كما يحمد المحسن من أجل إحسانه.

قلنا: لا لان أصل الاتقاء الحجز بين الشئيين لئلا يصل أحدهما إلى الآخر من قولهم اتقاه
بالترس. ومنه اتقاه بحقه، فالطاعة له تعالى حازمة بين العقاب وبين العبد أن يصل إليه. وأما
حمد الانسان، فمجاز لان المحمود في الحقيقة يستحق الولاية والكرامة.

وقوله: " وجاهدوا في سبيله " أمر منه تعالى بالجهاد في دين الله، لانه وصلة وطريق إلى
ثوابه. ويقال لكل شئ وسيلة إلى غيره هو طريق إليه فمن ذلك طاعة الله فهي طريق إلى
ثوابه. والدليل على الشئ طريق إلى العلم به والتعرض للشئ طريق إلى الوقوع فيه واللفظ
طريق إلى طاعة الله والجهاد

(٥١١)

في سبيل الله فديكون باللسان واليد والقلب والسيف والقول والكتاب.

وقوله: (لعلكم تفلحون) يحتمل أمرين:

أحدهما - اعملوا لتفلحوا ومعناه ويكون غرضكم الصلاح فهذا يصح مع اليقين.

الثاني - اعملوه على رجاء الصلاح به فهذا مع الشك في خلوصه مما يحبطه وهذا الوجه لا يصح إلا على مذهب من قال بالاحباط. فاما من لا يقول به فلا يصح ذلك فيه غير أنه يمكن أن يقال الشك فيه يجوز أن يكون في هل أوقعه على الوجه المأمور به أم لا؟ لأنه لاحال إلا وهو يجوز أن يكون فرط فيما أمر به " والمفلحون " هم الفائزون بما فيه غاية صلاح أحوالهم.

قوله تعالى:

إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب اليم (٣٩) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (٤٠) آيتان بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية " ان الذين كفروا لو أن لهم مافي الارض جميعا ومثله معه " وافتدوا بجميع ذلك من العذاب الذي يستحقونه على كفرهم " ماتقبل منهم " .

والذين في موضع نصب بان وخبر (ان) الجملة في (لو) وجوابها.

وقوله: " ولهم عذاب اليم " يحتمل أمرين:

(٥١٢)

أحدهما - أن يكون في موضع الحال.

والثاني - أن يكون عطفًا على الخبر، ولايجوز أن يكون خيرا من

" يريدون " أن يخرجوا من النار، وماهم بخارجين منها " . و (لو) في موضع الحال كما تقول مررت بزيد لو رآه عدوه لرحمه، لأنه في موضع معتمد الفائدة مع أن الثاني في استئناف (إنه) ولايحكم بقطع الخبر، وإنما اجبيت (لو) ب (ما) ولم يجز أن يجاب (أن) ب (ما) لان (ما) لها صدر الكلام وجواب (لو) لا يخرجها من هذا المعنى كما لا يخرجها جواب القسم، لأنه غير عامل. و (أن) عاملة فلذلك صلح أن يجاب ب (لا) ولم يصلح ب (ما)

كقولك إن تأتي لايحققك سوء، ولايجوز (ما) لان (لا) تنفي عما بعدها ماوجب لما قبلها في أصل موضوعها كقولك قام زيد لاعمر و (ما) تنفي عما بعدها مالم يجب لغيرها، فلذلك كان لها صدر الكلام. وإنما نفى الله أن يقبل منهم فدية من غير تقييد بالتوبة، لامرين:

أحدهما لانهم لا يستحقون هذه الصفة لو وقعت منهم التوبة مع البيان عن أن الآخرة لاتقبل فيها توبة.

الثاني ان ذلك مقيد بدليل العقل والسمع الذي دل على وجوب اسقاط العقاب عند التوبة كقوله " غافر الذنب وقابل التوب " (١) وعندنا أنه لم يقيد بالتوبة لان التوبة لايجب اسقاط العقاب عندها عندنا. وإنما يتفضل الله بذلك عند التوبة فأراد الله أن يبين أن الخلاص من عقابه الذي استحق على الكفر به ومعاصيه لا يستحق على وجهه. وإنما يكون ذلك تفضلا على كل حال. واللام في قوله: " ولهم عذاب اليم " لام الملك لان حقيقتها الاضافة

(١) سورة غافر آية ٣. (*)

(٥١٣)

على معنى الاختصاص غير أنها إذا اضيفت تصح أن يكون فعلا إلى ما يصح أن يكون فاعلا فالإضافة بمعنى اضافة الفعل إلى الفاعل نحو " إن قام زيد " ويجوز أن يكون على معنى المفعول بقرينة ككلام زيد ونحوه. وقوله:

" لو أن لهم مافي الارض جميعا " يدل على أنه ليس لهم مافي الارض جميعا، لانه لو كان لهم لكان الابلغ أن يقال يسلبون النعمة به من غير فدية تسقط عنهم شيئا من العقوبة. وقوله: " يريدون أن يخرجوا من النار " في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال أبو علي معناه يتمنون أن يخرجوا منها فجعل الارادة ههنا تمنيا.

وقال الحسن معناه الارادة على الحقيقة، لانه قال كلما رفعتهم النار بلهبها رجوا أن يخرجوا منها، وهو قوله: " كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها " (١). وقال بعضهم معناه يكادون أن يخرجوا منها، إذا رفعتهم بلهبها كما قال - عزوجل - " جدارا يريد أن ينقض " (٢) أي يكاد ويقارب.

فان قيل كيف يجوز أن يريدوا الخروج من النار مع علمهم بأنهم لا يخرجون؟ قلنا: لان العلم بأن الشيء لا يكون لا يصرف عن إرادته.

كما أن العلم بأنه يكون لا يصرف عن إرادته وإنما يدعو إلى الارادة حسننها أو الحاجة اليها كما أن المراد بهذه المنزلة. فان قيل: هل يجوز أن يطمعوا في الخروج من النار كما قال الحسن قلنا الخروج منها إلى غير عذاب يجري مجرى عذابها فلا يجوز لعلمهم بأن العذاب دائم لا يفتقر عنهم فان كان معه العلم بأنهم لا يخرجون منها لم يجز أن يطمعوا في الخروج، لان العلم ينافي

(١) سورة الم السجدة آية ٢٠. (٢) سورة الكهف آية ٧٨. (*)

(٥١٤)

الطمع ولا ينافي الارادة كما لا يطمع العاقل في أن يعود في الدنيا شابا كما كان. وقال أبو علي: إنما يتمنون الخلاص منها قبل دخولها، لما في التمني من التروح، وليس ذلك من صفة أهلها. ولا يجوز أن يقال في الكلام يريدون أن يستخرجون من النار كما جاز (علم أن سيكون منكم مرضى) (١)

لأن أن المخفة من الشديدة لتحقيق كائن في الحال أو الماضي أو المستقبل. وليس في الارادة تحقيق وقوع المراد لامحالة، كما ليس في الامر تحقيق وقوع المأمور به، فلذلك لم يجز أمرته أن سيقوم، وجاز أمرته أن يقوم. قوله " وما هم بخارجين منها " يعني من جهنم " ولهم عذاب مقيم " أي دائم ثابت لا يزول ولا يحول، كما قال الشاعر:

فان لكم بيوم الشعب مني * عذابا دائما لكم مقيما
وروي أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يأعمى القلب يأعمى البصر تزعم ان قوما يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: " وما هم بخارجين منها " ! فقال ابن عباس ويحك أو ما فقهت هذه للكفار؟! .
قوله تعالى:

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٤١) آية بلاخلاف.

وقوله " والسارق والسارقة " قال سيبويه الاجود فيه النصب ومثله " الزانية والزاني ". وبالنصب قرأ عيسى بن عمر وهو بخلاف ما عليه القراء لا يجوز أن يقرأ به والوجه الرفع. ومثله " اللذان يأتيانها منكم فآذوهما " .

(١) سورة المزمل آية ٢٠. (*)

(٥١٥)

ويحتمل رفعهما شيئين:

أحدهما - قال سيبويه إنه على تفسير فرض فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة. ومنه " والذان يأتيانها منكم " (١).

الثاني - قال المبرد والفراء لأن معناه الجزاء وتقديره من سرق فاقطعوه، وله صدر الكلام. وقال الفراء ولو أردت سارقا بعينه لكان النصب الوجه ويفارق ذلك قولهم زيدا فاضربه، لأنه ليس فيه معنى الجزاء.

وظاهر قوله " والسارق والسارقة " يقتضي عموم وجوب القطع على كل من يكون سارقا أو سارقة، لان الالف واللام إذا دخلا على الاسماء المشتقة أفادا الاستغراق إذالم يكونا للعهد دون تعريف الجنس - على ما ذهب اليه قوم - . وقد دللنا على ذلك في أصول الفقه. فأما من قال القطع لايجب إلا على من كان سارقا مخصوصا من مكان مخصوص مقدارا مخصوصا وظاهر الآية لاينبئ عن تلك الشروط، فيجب أن تكون الآية مجملة مفتقرة إلى بيان، فقوله فاسد لان ظاهر الآية يقتضي وجوب القطع على كل من يسمى سارقا وإنما يحتاج إلى معرفة الشروط ليخرج من جملتهم.

من لايجب قطعه فأما من يجب فاننا نقطعه بالظاهر، فالآية مجملة فيمن لايجب قطعه دون من يجب قطعه فسقط ماقلوه.

وقوله " فاقطعوا أيديهما " أمر من الله بقطع أيدي السارق والسارقة.

والمعنى ايمانهما. وإنما جمعت أيدي لان كل شئ من شيئين، فتثنيته بلفظ الجمع كما قال - عزوجل -: " فقد صغت بكما " (٢) وقال الفراء كلما

(١) سورة النساء آية ١٥ (٢) سورة التحريم آية ٤. (*)

(٥١٦)

كان في البدن منه واحد فتثنيته بلفظ الجمع لان أكثر أعضائه فيه منه اثنان، فحمل ماكان فيه الواحد على مثل ذلك، فقيل قلوبهما وظهورهما. كما قيل عيونهما وأيديهما. وقال الفراء إنما فعلوا ذلك للفصل بين مافي البدن منه واحد وبين مافي البدن منه اثنان، فجعل مافي البدن منه واحد تثنيته وجمعه بلفظ واحد ولم يثن أصلا، لان الاضافة تدل عليه، ولان التثنية جمع، لانه ضم شئ إلى شئ. وإن ثني جاز قال الشاعر:

ظهرهما مثل ظهور الترسين.

فجمع بين الامرين. وإنما اعتبرنا قطع الايمان، لاجماع المفسرين على ذلك. كالحسن والسدي والشعبي وغيرهم. وفي قراءة ابن مسعود

" والسارقون والسارقات فاقطعوا ايمانهما " والنصاب الذي يتعلق القطع به قيل فيه ستة أقوال: أولها - على مذهبنا، وهو ربع دينار. وبه قال الاوزاعي والشافعي، لما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال القطع في ربع دينار.

الثاني - ثلاثة دراهم وهو قيمة المجن. ذهب اليه مالك بن أنس.

الثالث - خمسة دراهم روي ذلك عن علي (ع) وعن عمر، وانهما قالوا:

لايقطع الخمس إلا في خمسة دراهم وهو اختيار أبي علي، قال: لأنه بمنزلة من منع خمسة دراهم من الزكوة في أنه فاسق.

الرابع - قال الحسن: يقطع في درهم، لان مادونه تافه.

الخامس - عشرة دراهم ذهب اليه أبوحنيفة وأصحابه لما رووا أنه كان قيمة المجن عشرة دراهم.

السادس - قال أصحاب الظاهر وابن الزبير يقطع في القليل والكثير.

(٥١٧)

ولايقطع إلا من سرق من حرز. والحرز يختلف، فكل شئ حرز يعتبر فيه حرز مثله في العادة. وحده أصحابنا بأنه كل موضع لم يكن لغيره الدخول اليه والتصرف فيه إلا باذنه فهو حرز. وقال أبوعلي الجبائي الحرز أن يكون في بيت أو دار مغلق عليه وله من يراعيه ويحفظه.

ومن سرق من غير حرز لايجب عليه القطع. قال الرماني، لأنه لايسمى سارقاً حقيقة وإنما يقال ذلك مجازاً كمايقال سرق كلمة أو معنى في شعر لأنه لايلطق على هذا اسم سارق على كل حال. وقال داود: يقطع اذا سرق من غير حرز.

وكيفية القطع عندنا يجب من أصول الاصابع الاربعة ويترك الابهام والكف - وهو المشهور عن علي (ع): وقال اكثر الفقهاء: إنه يقطع من الرسغ. وهو المفصل بين الكف والساعد. وقالت الخوارج يقطع من الكتف. وأما الرجل فعندنا تقطع الاصابع الاربعة من مشط القدم ويترك الابهام والعقب.

دلينا أن ماقلناه مجمع على وجوب قطعه. وماقالوه ليس عليه دليل.

ولفظ اليد يطلق على جميع اليد إلى الكتف ولايجب قطعه - بلاخلاف إلا ماحكيناها عن لايعتدبه. وقد استدل قوم من أصحابنا على صحة ماقلناه بقوله " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم " (١) وإنما يكتبونه بالاصابع.

- والمعتمد ماقلناه - وعليه اجماع الفرقة المحقة.

ومتى تاب السارق قبل أن يرفع إلى الامام. وظهر ذلك منه ثم قامت عليه البينة، فانه لايقطع. غير أنه يطالب بالسرقة وإن تاب بعدقيام البينة

(١) سورة البقرة آية ٧٩. (*)

(٥١٨)

عليه وجب قطعه على كل حال. وقال الفقهاء يجب قطعه على كل حال. فان كان تاب كان قطعه امتحانا، وان لم يكن تاب كان عقوبة وجزاء. ومتى قطع فانه لايسقط عنه رد السرقة سواءكانت باقية أوهالكة، فان كانت باقية ردها - بلاخلاف - وإن كانت هالكة رد عندنا قيمتها. وقال أبوحنيفة وأصحابه: لايجمع عليه القطع والغرامة معا، فان قطع سقطت الغرامة وان غرم سقط القطع. وقد دللنا على صحة ماقلناه - في مسائل الخلاف - ومتى سرق بعد قطع اليد دفعة ثانية قطعت رجله اليسرى حتى يكون من خلاف.

فان سرق الثالثة حبس عندنا. وبه قال الحسن. وقال أبوعلي تقطع اليد الاخرى، فان سرق في الحبس قتل عندنا. ولا يعتبر ذلك أحد من الفقهاء وظاهر الآية يقتضي وجوب قطع العبد والامة إذا سرقا لتناول اسم السارق والسارقة لهما وقوله: " جزاء بما كسبا " معناه استحقاقا على فعلهما " نكالا من الله " أي عقوبة على ما فعلاه. قال زهير:

ولولا أن ينال أبا طريف * عذاب من خزيمة أو نكال

أي عقوبة. ونصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - مفعول له وتقديره لجزاء فعلهما الثاني - نصب على المصدر الذي دل عليه فاقطعوا لان معنى فاقطعوا:

جازوهم ونكلوا بهم. وقال الازهري معناه لينكل غيره نكالا عن مثل فعله يقال نكل ينكل إذا جبن، فهو ناكل " والله عزيز حكيم " أي مقتدر لا يغالب " حكيم " فيما يأمر به من قطع السارق والسارقة، وفي غيره من الافعال.

(٥١٩)

قوله تعالى:

فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم (٤٢) آية بلا خلاف أخبر الله تعالى أن من تاب وأقلع وندم على ماكان منه من فعل الظلم بالسرقة وغيرهما وفعل الفعل الجميل الصالح " فان الله يتوب عليه " ومعناه يقبل توبته باسقاط العقاب بها عن المعصية التي تاب منها. ووصف الله تعالى بانه يتوب على التائب فيه فائدة عظيمة، لان في ذلك ترغيبا للعاصي في فعل التوبة، ولذلك قال تعالى واصفا نفسه بأنه تواب رحيم. ووصف العبد بأنه تواب معناه أواب وهي صفة مدح من أجل المدح على التوبة التي يسقط العقاب عندها. ولا خلاف في سقوطه عندها وهي الندم على ما مضى من القبيح أو الاخلال بالواجب والعزم على ترك الرجوع إلى مثله في القبح.

وفي الناس من قال يكفي الندم مع العزم على ترك المعادة. والذي ذكرناه أولى، لان سقوط العذاب عنده مجمع عليه. وان اختلفوا هل هو واجب أو تفضل؟ وما قالوه فيه خلاف. ويمكن

التوبة من الحسن إلا أن حسنه لا يدعو إلى التوبة منه كما يدعو قبح القبيح إلى التوبة منه لكن قد يتوب الانسان منه لقبحه فيما يتوهمه أو لمضرة تلحقه به. ولا يجوز التوبة من الحسن كيف تصرف الحال لانه تحريم لما ليس بحرام، وقبيح لما ليس بقبيح. ويمكن أن تكون التوبة من القبيح معصية الله كالذي يتوب من الالحاد ويدخل في النصرانية وقال مجاهد: ان الحد كفارة. وهذا غير صحيح، لان الله تعالى دل

(٥٢٠)

على معنى الامر بالتوبة. وإنما يتوب المذنب من ذنبه. والحد من فعل غيره. وأيضا فمتى كان مصرا كان اقامة الحد عليه عقوبة. والعقوبة لا تكفر الخطيئة. كما لا يستحق بها الثواب. وقوله " إن الله غفور رحيم " يدل على ما نذهب اليه من أن قبول التوبة واسقاط العقاب عندنا تفضل من الله، فلذلك صح وصفه بأنه غفور رحيم. ولو كان الغفران واجبا عند التوبة لم يلق به غفور رحيم قوله تعالى:

ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير (٤٣)

قيل فيمن يتوجه هذا الخطاب اليه قولان:

أحدهما - انه متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به امته كما قال " يا ايها النبي إذا طلقتم النساء " والثاني - أنه متوجه إلى كل مكلف من الناس وتقديره: ألم تعلم يا انسان. واتصال هذا الخطاب بما قبله اتصال الحجاج والبيان عن صحة ما تقدم من الوعد والوعيد. وما ذكره من الاحكام والمعنى ألم تعلم يا انسان " ان الله له ملك السموات والارض " يعني له التصرف فيهما من غير دافع ولا منازع " يعذب من يشاء " إذا كان مستحقا العقاب " ويغفر لمن يشاء " إذا عصاه ولم يتب، لانه إذا تاب، فقد وعد بأنه لا يؤاخذ به بعد التوبة. وعند المخالفة يقبح مؤاخذته بعدها.

فعلى الوجهين معا لا يعلق ذلك بالمشيئة. وفي ذلك دلالة على أنه قادر على

(٥٢١)

أن يعاقب على وجه الجزاء، لانه لو لم يكن قادرا عليه لما كان فيه وجه مدح والله على كل شيء قدير " معناه ههنا أن من ملك السموات والارض وقدر على هذه الاجسام والاعراض التي يتصرف فيها ويديرها، فهو لا يعجزه شيء لقدرته على كل جنس من أجناس المعاني. وقوله " على كل شيء قدير " عام في كل ما يصح أن يكون مقدر له تعالى. ولا يحتاج إلى أن يقيد بذكر ما تصح القدرة عليه لامرين:

أحدهما - ظهور الدلالة عليه، فجاز ألا يذكر في اللفظ والآخر - أن ذلك خارج فخرج المبالغة كما يقول القائل أتاني أهل الدنيا. ولعله لم يجئه الاخسة فاستكثرهم قوله تعالى: يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر. من الذين قالوا أمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أو تيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٤٤)

(٥٢٢)

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) نهاه الله أنه يحزنه الذين يسارعون في الكفر أي يبادرون فيه. و (يحزنك) - بفتح الياء وضمها - لغتان. وقد قرئ بهما. وقد قدمنا ذكره مستوفى من المنافقين "الذين قالوا أمنا" يعني صدقنا "بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم" يعني لم تصدق قلوبهم "ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك" وقف ههنا. و "سماعون" فيه مبالغة من سامع مثل جابر وجبار. وقيل في رفع "سماعون" قولان:

أحدهما - قال سيبويه رفع على الابتداء والخبر "من الذين هادوا كما تقول من قومك عقلاء الثاني - قال الزجاج: على أنه خبر الابتداء. وتقديره: المنافقون هم، واليهود سماعون للكذب. وقيل في معنى ذلك قولان:

أحدهما - "سماعون" كلامك للكذب عليك سماعون كلامك "لقوم آخرين لم يأتوك" ليكذبوا عليك إذا رجعوا إليهم أي هم عيون عليك وقيل انهم كانوا رسل أهل خيبر لم يحضروا. فلهذا جالسوك، هذا قول الحسن والزجاج وأبو علي.

الثاني - قال أهل التفسير "سماعون للكذب" قابلون له كما يقال لاتسمع من فلان أي لا تقبل منه، ومنه سمع الله لمن حسده "سماعون لقوم آخرين" ارسلوا بهم في قضية زان محصن. فقالوا لهم: إن أفتاكم محمد (صلى الله عليه وآله) بالجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه، لانهم قد كانوا حرفوا حكم الجلد الذي في التوراة إلى جلد أربعين، وتسويد الوجه والاشهار على حمار.

هذا قول ابن عباس، وجابر، وسعيد بن المسيب والسدي، وابن زيد.

(٥٢٣)

وقال قتادة: إنما كان ذلك في قتل من قتلوا: إن أفتاكم بالديعة فاقبلوه وإن أفتاكم بالقود فاحذروه. وقال أبو جعفر (ع) نزلت الآية في أمر بني النضير وبني قريظة وقوله: " يحرفون الكلم " قيل في معنى (تحريفهم) قولان:

أحدهما - تحريف كلام النبي (صلى الله عليه وآله) بعد سماعه، للكذب " يقولون إن أو تيتم هذا " أي دين اليهود فاقبلوه " وإن لم تؤتوه فاحذروا " أن تقبلوا خلافه - في قول الحسن وابي علي الثاني - جعلهم بدل رجم المحصن جلد أربعين تغييرا لحكم الله - في قول المفسرين.

وقوله: " من بعد مواضعه لان المعنى من بعد استقراره في مواضعه، ومضي الايام عليه. وقال الزجاج من بعد أن فرض فروضه، وأحل حلاله، وحرّم حرامه. ولو قال مكان " بعد مواضعه " عن مواضعه لجاز، لان معناه متقارب، هذا كما يقول القائل: أتيتك عن فراغي من الشغل، وبعد فراغي منه، ولا يجوز كما قياسا على ذلك أن تقول بدل قولك: رميت عن القوس، رميت بعد القوس، ولا في قولك: جاء زيد بعد عمرو، أن تقول:

عن عمرو، لان المعنى يختلف. وذلك أن (عن) لما عدا الشيء الذي هو كالسبب له و (بعد) إنما هي لما تأخر عن كون الشيء، فما صح معنى السبب ومعنى التأخر جاز فيه الامران، وما لم يصح إلا أحد المعنيين لم يجز إلا احد الحرفين.

وقوله: " ومن يرد الله فتنته " في الفتنة ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الزجاج معناه من يرد فضيخته باظهار ما ينطوي عليه.

الثاني - قال السدي من يرد الله هلاكه.

(٥٢٤)

الثالث - قال الحسن وأبو علي والبلخي من يرد الله عذابه من قوله " يوم هم على النار يفتنون " أي يعذبون. وقوله " نوقوا فتنكم " أي عذابكم. وقوله " ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات " يعني الذين عذبوا.

وأصل الفتنة التخليص من قولهم: فتنت الذهب في النار أي خلصته من الغش والفتنة الاختبار تسمى بذلك لما فيها من تخليص الحال لمن أراد الاضلال. وإنما أراد الحكم عليه بذلك بايراد الحجج. ففيه تمييز وتخليص لحالهم من حال غيرهم من المؤمنين. ومن فسره على العذاب فلانهم يحرقون كما يحرق خبث الذهب فهم خبث كلهم. ومن فسره على الفضيحة فلما فيها من الدلالة عليهم التي يتميزون بهامن غيرهم. وقوله " اولئك لم يرد الله أن يطهر قلوبهم " قيل فيه قولان:

أحدهما - قال أبو علي وغيره لم يرد الله أن يطهرها من الحرج والضيق الدال على دنس الكفر عقوبة لهم.

الثاني - قال البلخي وغيره: لم يرد أن يطهرها من الكفر بالحكم بأنها بريئة منه مندوحة بضده كما يطهر قلوب المؤمنين بذلك. ولا يجوز أن يكون المراد بذلك الذين لم يرد الله منهم الايمان، لانه لو لم يكن مريدا منهم الايمان، لم يكن مكلفا لهم، لان التكليف هو إرادة ما فيه المشقة والكلفة،

ولان الله أمرهم بالايمان - بلاخلاف - والامر لا يكون أمرا إلا بإرادة المأمور به على ما بين في غير موضع.

وقوله: " لهم في الدنيا خزي " يعني لهؤلاء الكفار والمنافقين الذين ذكرهم في الآية، فبين أن لهم خزيا عن عذاب الله في الدنيا وهو ما كان يفعله بهم من الذل والهوان، والبغض والزام الجزية على وجه الصغار " ولهم

(٥٢٥)

في الآخرة عذاب عظيم " مضافا إلى عذاب الدنيا وخزيها.

وقال أبو جعفر (ع) وجماعة من المفسرين ذكرنا أسماءهم: إن امرأة من خيبر - في شرف منهم - زنت وهي محصنة فكرهوا رجمها، فأرسلوا إلى يهود المدينة يسألون النبي (ع) طمعا أن يكون أتى برخصة، فسألوه، فقال:

هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فانزل الله عليه الرجم، فأبوه. فقال جبرائيل: سلمهم عن ابن سوريا، ثم اجعله بينك وبينهم، فقال: تعرفون شابا أبيضاً أعورا أمردا يسكن فدكا يقال له ابن سوريا؟ قالوا: نعم هو أعلم يهودي على ظهر الارض بما أنزل الله على موسى. قال: فارسلوا اليه فأسلوا فأتى، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنت عبدالله بن سوريا. قال: نعم. قال:

أنت أعلم اليهود قال: كذلك يقولون. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): فاني أنا شدة الله الذي لا إله إلا هو القوي إله بني اسرائيل الذي أخرجكم من أرض مصر، وقلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون، وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه، هل تجدون في كتابكم الذي جاء به موسى الرجم على من أحسن؟ قال عبدالله بن سوريا:

نعم، والذي ذكرتني لولا مخافتني من رب التوراة أن يهلكني إن كتمت ما اعترفت لك به، فانزل الله فيه " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير " (١) فقام ابن سوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير أمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبي (صلى

الله عليه وآله) عن ذلك، ثم سأله ابن صوريا عن نومه وعن شبه الولد بأبيه وامه وما حظ الاب من

(١) سورة ٤ النساء آية ١٦. (*)

(٥٢٦)

أعضاء المولود؟ وما حظ الام؟ فقال: تنام عيناى ولاينام قلبي، والشبه يغلبه أي المائين علا، وللاب العظم والعصب والعروق، وللام اللحم والدم والشعر. فقال: أشهد أن أمرك أمر نبي، وأسلم، فشتسه اليهود. فقال المنافقون لليهود: إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوه وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا. وهو قوله: " يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه " يعني الجلد " وان لم تؤتوه فاحذروا " وسلاه عن ذلك بقوله: " لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " فلما أرادوا الانصراف تعلقت قريظة بالنضير، فقالوا ياأبا القاسم - وكانوا يكرهون أن يقولوا يامحمد لئلا يوافق ذلك ما في كتابهم من ذكره - هؤلاء اخواننا بنوا النضير اذا قتلوا منا قتيلا لايعطونا القود وأعطونا القود وأعطونا سبعين وسقا من تمر، وإن قلنا منهم قتيلا أخذوا القود ومعه سبعون وسقا من تمر، وإن أخذوا الدية أخذوا منا مئة وأربعين وسقا. وكذلك جراحاتنا على أنصاف جراحاتهم، فانزل الله تعالى " وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط " (١) فحكم بينهم بالسواء، فقالوا:

لانرضى بقضائك، فانزل الله " أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " (٢).

ثم قال " وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيهاحكم الله " شاهدا لك بما يخالفونك. ثم فسرما فيها من حكم الله فقال " وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس " الآية " فان تولوا " يعني بني النضير، لما قالوا لا تقبل حكمك

" يصيبهم ببعض ذنوبهم " وهو أجلاؤهم من ديارهم.

(١) سورة ٥ المائدة آية ٥٣.

(٢) سورة ٥ المائدة آية ٤٦. (*)

(٥٢٧)

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية. وقال السيدي نزلت في ابي لبابة الانصاري لقوله لبني قريظة حين حاصرهم النبي (صلى الله عليه وآله): إنما هو الذبح فلا تنزلوا على حكم سعد.

وقال عكرمة وعامر الشعبي: نزلت في رجل من اليهود قتل رجلا من أهل دينه فقال القاتل لحلفائهم من المسلمين سلوا لي محمدا (صلى الله عليه وآله) فان بعث بالدية اختصمنا إليه وان كان يأمرنا بالقتل لم نأته. وقال أبو هريرة: نزلت في عبدالله بن سوريا، وذلك أنه ارتد بعد إسلامه على ما وصفناه عن أبي جعفر (ع) وقال ابن جريح ومجاهد: نزلت في المنافقين وهم السماعون لقوم آخرين والاصح من هذه الاقوال أنها نزلت في ابن سوريا على ما قدمناه عن أبي جعفر (ع) وهو اختيار الطبري لانه رواه أبو هريرة والبراء بن عازب وهما صحابييان. قوله تعالى:

سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٥) آية قرأ السحت - بضم السين والحاء - ابن كثير وأهل البصرة والكسائي وأبو جعفر (ع) الباقر باسكان الحاء. وقوله: " سماعون للكذب " وصف لهؤلاء اليهود الذين تقدم وصفهم. ورفع كما رفع سماعون الاول سواء، لانه صفة بعد صفة. وقد يجوز

(٥٢٨)

النصب في الموضوعين على القطع لكن لم يقرأه، وقد فسرنا معنى الكذب. وقوله: " أكالون للسحت " معناه أنه يكثر أكلهم للسحت، وهو الحرام. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (السحت الرشوة في الحكم) وفي السحت لغتان ضم الحاء وإسكانها. وقد قري بهما على ما بيناه، فالسحت اسم للشئ المسحوت وليس بمصدر، المصدر بفتح السين. وقال الحسن سمعوا كذبه وأكلوا رشوته. وقال ابن مسعود وقتادة وابراهيم ومجاهد والضحاك والسدي: السحت الرشى وروي عن علي (ع) أنه قال: (السحت الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسب الفحل، وكسب الحجام، وثمان الكلب، وثمان الخمر، وثمان الميتة، وحلوان الكاهن والاستعجال في المعصية). وروي عن ابي هريرة مثله. وقال مسروق سألت عبدالله عن الجور في الحكم قال: ذلك الكفر، وعن السحت فقال الرجل يقضي لغيره الحاجة فيهدي له الهدية. وأصل السحت الاستئصال اسحت الرجل إسحاتا وهو أن يستأصل كل شئ يقال: سحته وأسحته اذا استأصله. وأذهب. قال الفرزدق:

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتا أو مجلف (١) ويقال للحالق: اسحت أي استأصل. ومنه قوله: " فيسحتكم بعذاب " (٢) أي يستأصلكم به وفلان مسحوت المعدة اذا كان أكلولا شرها.

(١) اللسان (جلف). عض زمان: ساء زمان. المسحت الشئ المهلك والمجلف - بضم الميم وتشديد اللام - الشئ الذي بقي منه بقية قليلة لا يعتنى بها. (٢) سورة طه آية ٦١.

(٥٢٩)

وقد اسحت ماله إذا أفسده وأذهب. ففي اشتقاق السحت أربعة أقوال: قال الزجاج لأنه يعقب عذاب الاستئصال والبوار. وقال أبو علي هو حرام لابركة فيه لاهله، لأنه يهلك هلاك الاستئصال، وقال الخليل هو القبيح الذي فيه العار نحو ثمن الكلب والخمر فعلى هذا يسحت مروة الانسان.

وقال بعضهم حرام يحمل عليه الشره، فهو كشره المسحوت المعدة. وقوله: " فان جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم " قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن شهاب: خيره الله تعالى في الحكم بين اليهود في زناء المحصن، وفي رواية اخرى عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد أنه خيره في الحكم بينهم في قتل من اليهود. وكلا القولين قد رواه أصحابنا على ما قدمناه. وروي أن عليا (ع) دخل في بيت المال فأفرط فيه ثم قال لا أمسي وفيك درهم ثم أمر رجلا فقسمه بين الناس، فقيل له لو عوضته شيئا، فقال إن شاء لكنه سحت وفي اختيار الحكام، والائمة الحكم بين أهل الذمة إذا احتكموا اليهم قولان: أحدهما - قال ابراهيم الشعبي وقتادة وعطاء والزجاج، والطبري، وهو المروي عن علي (ع) والظاهر في رواياتنا أنه حكم ثابت والتخيير حاصل.

وقال الحسن وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والحكم، وجعفر بن مبشر، واختاره الجبائي: أنه منسوخ بقوله " وان احكم بينهم بما أنزل الله " (١) فنسخ الاختيار وأوجب الحكم بينهم بالقسط، وهو العدل يقال أقسط إقساطا إذا عدل " إن الله يحب المقسطين " يعني العادلين، وقسط يقسط قسوطا اذا جار. ومنه قوله: " وأما القاسطون فكانوا لجهنم

(١) سورة المائدة آية ٥٢. (*)

(٥٣٠)

خطبا " (١) أي الجائرون وقوله: " وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا " أي لا يقدرون لك على ضرفي دين، ولادنيا، فدع النظر ان شئت وإن حكمت فاحكم بما أنزل الله. قوله تعالى:

وكيف يحكمونك وعندهم التورية فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين

(٤٦)

آية بلاخلاف المعنى كيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضوا بك حكما، وعندهم التوراة فيها حكم الله التي أنزلها على موسى التي يقرون بها أنها كتابي وجه التعجب للنبي (صلى الله عليه وآله) وفيه تقرير لليهود الذين نزلت فيهم فكأنه قال الذي أنزلته على نبيي وإنه الحق وإن ما فيه حكم من حكمي لا يتناكرونه ويعلمونه، وهم مع ذلك يتولون: أي يتركون الحكم به جرأة علي كيف تقرون أيها اليهود بحكم نبيي محمد مع جحدكم نبوته، وتكذيبكم إياه وأنتم تتركون حكمي الذي تقرون به أنه واجب وأنه حق من عند الله. وقوله: " فيها حكم الله " قال أبو علي فيه دليل على أنه لم ينسخ لانه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنه حكم الله كما لا يطلق أن حكم الله تحليل الخمر أو تحريم السبت. وقال الحسن " فيها حكم الله " بالرجم. وقال قتادة وعصيانا لي. " فيها حكم الله " بالقود.

(١) سورة الجن آية ١٥. (*)

(٥٣١)

فان قيل كيف يقولون " فيها حكم الله " وعندكم أنها محرفة مغيرة؟. قلنا: على ما قال الحسن وقاتادة لايتوجه، لانها وإن كانت مغيرة محرفة لايمتنع أن يكون فيها هذان الحكمان غير مبدلين، وهو رجم المحصن ووجوب القود. ويحتمل أن يكون المراد بذلك فيها حكم الله عندهم، لانهم لايقرون بأنها مغيرة بل يدعون أنهاهي التي أنزلت على موسى (ع) بعينها.

والحكم هو فصل الامر على وجه الحكمة فيما يفصل به، وقد يفصل بالبيان أنه الحق وقد يفصل بالزام الحق والاحذ به كما يفصل الحكام بين الخصوم بمايقطع الخصومة وتثبت القضية. وقوله: " ثم يتولون " فالتولي هو الانصراف عن الشئ والتولي عن الحق. الترك له. وهوخلاف التولي اليه، لان الاقبال عليه والتولي له فالله صرف النصره والمعونة اليه ومنه تولى الله للمؤمنين.

وقوله: " من بعد ذلك " قال عبدالله بن كثير: إشارة إلى حكم الله في التوراة. وقال قوم هو إشارة إلى تحكيمك، لانهم ليسوا منه على ثقة، وإنما طلبوا به الرخصة. وقوله: " وما اولئك بالمؤمنين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - وما هم بالمؤمنين بحكمك أنه من عند الله مع جحدهم نبوتك والعدول عما يعتقدونه حكما لله فيه لاعلى من يقرون بنبوته، فبين أن حالهم ينافي حال المؤمن به. والثاني - قال أبو علي أن من طلب غيرحكم الله من حيث لم يرض به فهو كافر بالله وهكذا هؤلاء اليهود.

قوله تعالى:

إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها

(٥٣٢)

النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فالتك هم الكافرون (٤٧) آية عند الجميع قرأ " اخشوني " بياء في الوصل أهل البصرة وأبوجعفر، واسماعيل، ويقف يعقوب بالياء.

أخبر الله تعالى أنه الذي أنزل التوراة فيها هدى أي بيان أن أمر النبي حق وأن ما سألك عنه في حكم الزانيين حق، والقود حق " ونور " يعني فيها جلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس عليهم " يحكم بها النبيون الذين اسلموا " يعني يحكم بالتوراة النبيون الذين أذعنوا بحكم الله وأقروا به.

وقال الحسن وقتادة وعكرمة والزهري والسدي: إن النبي (صلى الله عليه وآله) داخل في ذلك، بل قال أكثرهم: هو المعني بذلك لما حكم في رجم المحصن، ولا يدل ذلك على أنه كان متعبدا بشرع موسى (ع) لأن الله تعالى هو الذي أوجب عليه بوحى أنزل عليه لالرجوع إلى التوراة فصار ذلك شرعاه وإن وافق ما في التوراة وإيمانه اليهود بذلك على صحة نبوته من حيث علم ما هو من غامض علم التوراة ومما قد التبس على كثير منهم وهو قد عرف ذلك من غير قراءة كتبهم، والرجوع إلى علمائهم، فلم يكن ذلك إلا باعلام الله له ذلك وذلك من دلائل صدقه (صلى الله عليه وآله).

(٥٣٣)

وقوله: " للذين هادوا " العامل في (الذين) أحد شيئين:

أحدهما (يحكم) في قول الزجاج وابي علي وجماعة من أهل التأويل.

والثاني - قال قوم العامل (أنزلنا) كأنه قال أنزلناها للذين هادوا.

والربانيون. قد فسرناه فيما مضى (١) وهو جمع رباني وهم العلماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم، قال السدي: عنابه ابن سوريا.

وقال الباقون - وهو الاولى - إنه على الجمع، والاحبار جمع حبر، وهو العالم مشتق من التحبير وهو التحسين فالعالم يحسن الحسن ويقبح القبيح، وقال الفراء، أكثر ما سمعت فيه حبر

بالكسر. وقوله " بما استحفظوا " معناه بما استودعوا. والعامل في الباء أحد سببين:

أحدهما - " الاحبار " كأنه قال العلماء بما استحفظوا.

والثاني - (يحكم) بما استحفظوا.
وقوله: " وكانوا عليه شهداء " قيل في معناه قولان:
أحدهما - قال ابن عباس شهداء على حكم النبي (صلى الله عليه وآله) في التوراة.
الثاني - شهداء على ذلك الحكم أنه الحق من عند الله.
وقوله: " فلا تخشوا الناس واخشوني " قيل في معناه قولان:
أحدهما - لاتخشوهم يا علماء اليهود في كتمان ما أنزلت ذهب اليه السدي.
الثاني - لاتخشوهم في الحكم بغير ما أنزلت بل اخشوني فان النفع والضرر بيدي " ولاتشتروا
بآياتي ثمنا قليلا " معناه لاتأخذوا بترك الحكم الذي أنزلته على موسى (ع) أيها الاحبار
خسيسا. وهو الثمن القليل. وإنما

(١) في تفسير آية ٧٩ من سورة آل عمران المجلد الثاني ص ١١٠ - ١١١. (*)

(٥٣٤)

نهاهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله وتغييرهم حكمه، وهو قول ابن زيد والسدي.
وقوله: " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " معناه من كتم حكم الله الذي أنزله
في كتابه وجعله حكما بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره: من رجم المحصن والقود " فأولئك هم
الكافرون ".
واختلفوا هل الآية على عمومها أم لا؟ فقال ابن مسعود والحسن وابراهيم هي على عمومها.
وقال ابن عباس: هي في الجاحد لحكم الله.
وقيل في اليهود خاصة في قول الجبائي، لانه قال لاحجة للخوارج فيهما من حيث هي خاصة
في اليهود. وقال البلخي يجوز أن تكون (من) بمعنى (الذي) وتكون للعهد، وهو من تقدم ذكره
من اليهود. ويحتمل أن يكون خرج مخرج الشتم لاعلى وجه المجازاة كما يقول القائل: من
فعل كذا فهو الذي لاحسب له ولأصل، ولايريد أنه استحق الدناءة بالفعل الذي ذكروا أنه إنما
كان غير حسيب من أجل فعله وإنما يريدون الشتم وإن كان قد يفعل ذلك لعارض الحسيب
العظيم الهمة. واختار الرماني قول ابن مسعود غير أنه قال الحكم هو فصل الامر على وجه
الحكمة عند الحاكم بخلاف ما أنزل الله، لانه بمنزلة من قال الحكمة خلاف ما أنزل الله.
والاولى أن تقول هي عامة فيمن حكم بغير ما أنزل الله مستحلا لذلك، فانه يكون كافرا بذلك
- بلاخلاف - ومتى لم يكن كذلك فالآية خاصة على ما قاله ابن عباس في الجاحدين أو ما
قاله أبو علي في اليهود.

وروى البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن هذه الآيات الثلاث: " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. ومن لم يحكم بما أنزل الله

(٥٣٥)

فأولئك هم الظالمون. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " في الكفار خاصة، وبه قال ابن مسعود وأبو صالح. وقال ليس في أهل الاسلام منها شئ وبه قال الضحاك وأبومجلز وعكرمة وقتادة. وقال الشعبي: نزلت

" الكافرون " في المسلمين " والظالمون " في اليهود " والفاسقون " في النصارى وقال عطا وطاووس أراد به كفرا دون كفر، وظلما دون ظلم، وفسقا دون فسق. ورووه عن ابن. وقال ابراهيم هي عامة في بني اسرائيل وغيرهم من المسلمين، وبه قال الحسن: وقد بينا الاقوى من هذه الاقاول.

قوله تعالى:

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (٤٨) آية بلاخلاف قرأ الكسائي " والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن " بالرفع فيهن. وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأنه كان يقرأ به. وقرأ نافع " الاذن " بسكون الذال حيث وقع. وقرأ نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب " والجروح قصاص " بالنصب.

قوله " وكتبنا " أي فرضنا عليهم يعني اليهود الذين تقدم ذكرهم " فيها " يعني في التوراة " أن النفس بالنفس " ومعناه إذ اقتلت نفسا أخرى متعمدا أنه يستحق عليها القود إذا كان القاتل عاقلا مميزا، وكان

(٥٣٦)

المقتول مكافيا للقاتل، أما بأن يكونا مسلمين حرين أو كافرين أو مملوكين، فأما أن يكون القاتل حرا مسلما والمقتول كافرا أو مملوكا فان عندنا لا يقتل. وفيه خلاف بين الفقهاء. وإن كان القاتل مملوكا أو كافرا أو المقتول مثله أو فوجه فانه يقتل به - بلاخلاف -.

وقوله: " والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص " من نصب جميع ذلك عطفه على المنصوب بواو الاشتراك ثم استأنف، فقال والجروح قصاص.

ومن نصب الجروح عطفها على ما قبلها من المنصوبات. ومن لم ينصب غير النفس فعلى أن ذلك هو المكتوب عليهم.

ثم ابتداء ما بعده بيانا مبتدأ. ويحتمل أن يكون الواو عاطفة جملة على جملة ولا يكون الاشتراك فيمن نصب. ويحتمل أن يكون حمل على المعنى، لان التقدير قلنا لهم " ان النفس بالنفس " فحمل " العين بالعين " على المعنى دون اللفظ. ويحتمل أن يكون عطف على الذكر المرفوع في الظرف الذي هو الخبر، وإن لم يؤكد المعطوف عليه بضمير منفصل، كما قال " لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا " (١) فلم يؤكد كما أكد في قوله: " يراكم هو وقبيله " (٢) ذكر الوجوه الثلاثة الزجاج، وأبو علي الفارسي ومن نصب الجميع جعل الكل فيما كتب عليهم. هذا وإن كان إخبار من الله أنه ما كتب عليهم في التوراة فانه لاخلاف أن ذلك ثابت في هذا الشرع ويراعى في قصاص الاعضاء ما يراعى في قصاص النفس من التكافؤ. ومتى لم يكونا متكافئين، فلاقصاص على الترتيب

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٤٨. (٢) سورة ٧ الاعراف آية ٢٦. (*)

(٥٣٧)

الذي رتبناه في النفس سواء. وفيه أيضا خلاف، ويراعى في الاعضاء التساوي أيضا، فلانقلع العين اليمنى باليسرى، ولانقطع اليمين باليسار. وتقطع الناقصة بالكامل. فمن قطع يمين غيره وكانت يمين القاطع شللا. قال أبو علي: يقال له إن شئت قطعت يمينه الشلاء أو تأخذ دية يدك. وقد ورد في أخبارنا أن يساره تقطع إذالم يكن للقاطع يمين، فأما عين الاعور، فانها تطلع بالعين التي قلعتها سواء كانت المقلوعة عوراء أو لم تكن. وان قلعت العين العوراء كان فيهاكمال الدية إذا كانت خلقة أو ذهب بآفة من الله أو يقلع احدى عيني القالع ويلزمه مع ذلك نصف الدية. وفي ذلك خلاف ذكرناه في الخلاف.

وأما الجروح، فانه يقتص منها إذا كان الجراح مكافيا للمجروح على ما بيناه في النفس، وتقتص بمثل جراحته الموضحة بالموضحة والهاشمة بالهاشمة والمنقلة بالمنقلة (١) ولاقصاص في المأمومة وهي التي ام الرأس والالجايفة، وهي التي تبلغ الجوف، لان في القصاص منها تعزيرا بالنفس. ولاينبغي أن يقتص من الجراح إلابعد أن تتدمل من المجروح، فاذا اندمل اقتص حينئذ

(١) الموضحة هي الجراح التي بلغة العظم فأوضحت عنه.

(الهاشمة) قيل: شجة تهشم العظم. وقيل: هي التي هشمت العظم ولم يتباين فراشه. وقيل هي التي هشمت العظم فنقش واخرج، فتباين فراشه. و (المنقلة) - بكسر القاف وتشديده - هي التي تنقل العظم أي تكسره حتى يخرج منها

فراش العظم وهي قشور تكون على العظم دون اللحم. وفيها أقوال أخر وروايات في الشرع من شاء فليراجع كتب الفقه الاستدلالية.

(٥٣٨)

من الجارح. وإن سرت إلى النفس كان فيها القود. وكسر العظم لاقصاص فيه، وإنما فيه الدية. وكل جارحة كانت ناقصة فاذا قطعت كان فيها حكومة. ولا يقتص لها الجارحة الكاملة كيد شلاء وعين لا تبصرون سوداء متأكلة (١)، فإن جميع ذلك حكومة لا تبلغ دية تلك الجارحة. وقد روي أن في هذه الأشياء مقدرًا وهو ثلث دية العضو الصحيح. وتفصيل أحكام الجنايات والديات استوفيناها في النهاية والمبسوط في الفقه لانطول بذكره ههنا.

وقوله: " فمن تصدقه فهو كفارة له " الهاء في " كفارة له " يحتمل عودها إلى أحد أمرين: أحدهما - وهو الأقوى - ما قاله عبدالله بن عمر والحسن وقتادة وابن زيد وإبراهيم - على خلاف عنه - والشعبي بخلاف عنه: إنها عائدة على المتصدق من المجروح أو ولي المقتول، لأنه إذا تصدق بذلك على الجارح لوجه الله كفر الله عنه بذلك عقوبة ما مضى من معاصيه. الثاني - على المتصدق عليه لأنه يقوم مقام أخذ الحق عنه ذهب إليه ابن عباس ومجاهد، وإنما رجحنا الأول، لأن العائد يجب أن يرجع إلى المذكور، وهو من تصدق، والمتصدق عليه لم يجر له ذكر، ومعنى " من تصدق " به عفا عن الحق واسقط. فان قيل: هل يكفر الذنب إلا التوبة أو اجتناب الكبيرة؟ قلنا: على مذهبنا يجوز أن يكفر الذنب شئ من أفعال الخير، ويجوز أن يتفضل الله باسقاط عقابها. وقال قوم: يجوز أن يكفر بالطاعة الصغيرة

(١) (المتأكلة) هي السن المحتكة اما من الكبر أو من عاهة فيها وهي أيضا السن التي قد ذهب منها شئ وبقي منها بقية. (*)

(٥٣٩)

حتى يسقط بها. وقوله " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " قد بينا أن في الناس من قال ذلك يختص باليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله في التوراة من القود والرجم. ويمكن أن يحمل على عمومته في كل من لم يحكم بما أنزل الله وحكم بخلافه بأنه يكون ظالما لنفسه بارتكاب المعصية الموجبة للعقاب.

وهذا الوجه يوجب أن ما تقدم ذكره من الاحكام يجب العلم به في هذا الشرع وإن كان مكتوباً في التوراة.

قوله تعالى:

وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (٤٩ آية عند الجميع قوله: (وقفينا) معناه أتبعنا يقال: قفاه يقفوه وقفوا ومنه قافية الشعر لأنها تتبع الوزن ومنه القفا، ويثنى قفوان، واستقفاه إذا قفأثره ليسلبه.

والقفي الضيف، لأنه يقفى بالبر واللفظ. وقوله " على آثارهم " فالآثار جمع أثر وهو العسل الذي يظهر للحس، وآثار القوم ما أبقوا من أعمالهم، ومنه المأثرة، وهي المكرمة التي يأتريها الخلف عن السلف، لأنها عمل يظهر نصا المنفس، والاثير الكريم على القوم لانهم يؤثرونه بالبر، ومنه الايثار بالاختيار، لأنه اظهار أحد العاملين على الآخر واستأثر فلان بالشئ إذا

(٥٤٠)

اختاره لنفسه. والهاء والميم في قوله: " آثارهم " قيل فيمن يرجع اليه قولان: أحدهما - اختاره البلخي والرماني: انهما يرجعان إلى النبيين الذين أسلموا، وقد تقدم ذكرهم. وقال أبو علي يعودان على الذين فرض عليهم الحكم الذي مضى ذكره، لأنه أقرب. والاول أحسن في المعنى. وهذا أجود في العربية.

وقوله: " بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة " نصب مصدقا على الحال. والمعنى أنه يصدق على ماضى من التوراة الذي أنزلها الله على موسى ويؤمن بها. وإنما قال لما مضى قبله بين يديه لأنه إذا كان ما يأتي بعده خلفه، فالذي مضى قبله قدامه وبين يديه.

وقوله (وآتيناه الانجيل) يعني عيسى أنزلنا عليه الانجيل " فيه " يعني في الانجيل " هدى " يعني بيان، وحجة " ونور " سماه نورا لما فيه من الاهتداء به كما يهتدى بالنور و " هدى " رفع بالابتداء " وفيه " خبره قدم عليه. و " نور " عطف عليه و " مصدقا لما بين يديه من التوراة " نصب على الحال وليس ذلك بتكرير لان الاول حال لعيسى (ع) وأنه يدعوا إلى التصديق بالتوراة. والثاني - أن في الانجيل ذكر التصديق بالتوراة وهما مختلفان و " هدى " في موضع نصب بالعطف على " مصدقا ".

و (موعظة) عطف على " هدى للمتقين ". وإنما اضافه إلى المتقين، لانهم المنتفعون بها. وقد مضى مثل ذلك فيما مضى. والمتقون هم الذين يتقون معاصي الله وترك واجباته خوفا من عقابه والوعظ والموعظة هو الزجر عما كرهه الله إلى ما يحبه الله والتنبية عليه.

قوله تعالى:

وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٥٠) آية قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام، ونصب الميم. الباقون بجزم الميم وسكون اللام على الامر. حجة حمزة أنه جعل اللام متعلقة بقوله " وأتيناها الانجيل " لان إيتاءه الانجيل انزال ذلك عليه، فصار كقوله " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس " (١) وحجة من جزم الميم انه جعله أمرا بدلالة قوله: " وأن احكم بينهم بما أنزل الله " فكما أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بالحكم بما أنزل عليه كذلك أمر عيسى (ع) بالحكم بما أنزل الله في الانجيل. وفي معنى الامر قولان:

أحدهما - وقلنا: " ليحكم أهل الانجيل " فيكون على حكاية ما فرض عليهم وحذف القول لدلالة ما قبله في قوله وقفينا، وأتيناكما قال: " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " (٢) أي يقولون سلام عليكم.

الثاني - أنه استأنف الامر لاهل الانجيل على غير حكاية، لان أحكامه كانت حينئذ موافقة لاحكام القرآن. ولم تنسخ بعد - هذا قول ابي علي - والاول أقوى - وهو اختيار الرماني. وقوله: " بما أنزل الله فيه " يعني الانجيل، وهو يذكر ويؤنث،

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٤.

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥. (*)

والانجيل إفعال من النجل وهو الاصل، والنجل النزمن الماء. والنجل الولد. والنجل القطع. ومنه سمي المنجل. وقرأ الحسن (أنجيل) بفتح الهمزة وهوشاذ وهو ضعيف. لانه ليس في كلام العرب شئ على وزن (أفعال) وإنما جزمت لام الامر ونصبت لام كي، لان لام الامر توجب معنى لا يكون للاسم فأوجبت إعرابا لا يكون للاسم ولام كي يقدر بعدها (أن)

بمعنى الاسم. وقوله: " ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون " قيل فيه قولان: أحدهما - قال أبو علي ان (من) بمعنى الذي وهو خبر عن قوم معرفين، وهم اليهود الذين تقدم ذكرهم.

والثاني - قال غيره ان ذلك خرج مخرج المجازاة والمعنى أن من لم يحكم بما أنزل الله من المكلفين فهو فاسق، لان اطلاق الصفة يدل على أنه ذهب إلى ان الحكمة في خلاف ما أمر الله به، فلهذا كان كافرا.

وقال ابن زيد: الفاسقون - ههنا - وفي أكثر القرآن بمعنى الكاذبين كقوله " إن جاءكم فاسق " (١) يعني كاذب.

قوله تعالى:

وأُنزِلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيِنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٦. (*)

(٥٤٣)

في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٥١) آية
بلاخلاف هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) بأنه تعالى أنزل إليه الكتاب يعني القرآن
" بالحق مصدقا " نصب على الحال يصدق ما بين يديه من الكتاب يعني التوراة والانجيل وما
فيهما من توحيد الله وعد له والدلالة على نبوته (ع)

والحكم بالرجم والقود على ما تقدم ذكره. وفيه دلالة على أن ما حكا الله أنه كتبه عليهم في
التوراة حكم بأنه يلزمنا العمل به، لانه جعل القرآن مصدقا لذلك ومهيِنا عليه.
وقيل في معنى (المهيِمن) خمسة أقوال: أحدهما - قال ابن عباس والحسن وقتادة، ومجاهد:
معناه أمين عليه وشاهد. وقال قوم: مؤتمن.

وقال آخرون: شاهد. وقال آخرون حفيظ. وقال بعضهم: رقيب.

والاصل فيه (مؤيمن) فقبلت الهزة هاء، كما قيل في أرقت الماء: هرقت.

هذا قول ابي العباس والزجاج وقد صرف، فقيل (هيمن) الرجل إذا ارتقب، وحفظ وشهد،
يهيمن هيمنة فهو مهيم. وقال بعضهم مهيمنا - بفتح الميم الثانية - وهوشاذ. وفي معنى
المهيمن ههنا قولان:

قال ابن عباس، والحسن، وأكثر المفسرين: إنه صفة للكتاب.

الثاني - قال مجاهد هو صفة النبي (صلى الله عليه وآله) والاول أقوى، لاجل حرف العطف، لانه
قال: " فأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب " ثم قال: " ومهيِنا "
ولايجوز أن يعطف على حال لغير الاول. لاتقول ضربت هند زيدا قاعدا وقائمة، ولو قلت
قائمة بلاواو لكان جائزا. ويجوز

(٥٤٤)

أن يكون عطا على مصدقا ويكون مصدقا حالا للنبي (صلى الله عليه وآله) والاول أظهر.

وقوله " فاحكم بينهم بما أنزل الله " قال ابن عباس، والحسن، ومسروق: يدل على أن أهل الكتاب إذا ترفعوا إلى الحكام يجب أن يحكموا بينهم بحكم القرآن وشريعة الاسلام، لأنه أمر من الله تعالى بالحكم بينهم والامر يقتضي الايجاب. وقال أبو علي ذلك نسخ بالتخيير في الحكم بين أهل الكتاب والاعراض عنهم والترك. وقوله: " ولاتتبع أهواءهم " نهي له (صلى الله عليه وآله) عن اتباع أهوائهم في الحكم، لا يدل ذلك على أنه كان اتبع أهواءهم، لأنه مثل قوله " لئن اشركت ليحبطن عملك " (١) ولا يدل ذلك على أن الشرك كان وقع منه. وقوله " عما جاءك من الحق " أي لاتتبع أهواءهم عادلا عما جاءك من الحق.

وقوله " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " فالشرعة والشريعة واحد وهي الطريقة الظاهرة. والشريعة هي الطريق الذي يوصل منه إلى الماء الذي فيه الحياة فقبل الشريعة في الدين أي الطريق الذي يوصل منه إلى الحياة في النعيم، وهي الامور التي تعبد الله - عزوجل - بها من جهة السمع قال الشاعر:

انتسونني يوم الشريعة والقنا * بصفين في لباتكم قد تكسرا
يريد شريعة الفرات والاصل فيه الظهور اشرفت القنا اذا أظهرته.
وشرعت في الامر شروعا إذا دخلت فيه دخولا ظاهرا، والقوم في الامر شرع سواء أي متساوون. والمنهاج الطريق المستمر يقال: طريق نهج ومنهج أي بين قال الراجز:

(١) سورة الزمر آية ٦٥. (*)

(٥٤٥)

من يك ذاشك فهذا فلج * ماء رواء وطريق نهج (١)
وقال المبرد: الشرعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر قال:
وهذه الالفاظ إذا تكررت فلزيادة فائدة منه. ومنه قول الحطيئة:
ألا حبذا هند وأرض هند * وهند أتى من دونها النأي والبعد (٢)
قال فالنأي لما قل بعده والبعد لما كثر بعده فالنأي للمفارقة، وقد جاء بمعنى واحد. قال الشاعر:

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى واقفر بعد أم الهيثم
واقفر وأقوى معناهما خلا وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك " شرعة ومنهاجا " أي سنة وسبيلا والشرعة التي جعلت " لكل " قيل فيه قولان: احدهما - قال مجاهد شريعة القرآن لجميع الناس لو آمنوا به. الثاني - قال قتادة وغيره واختاره الجبائي أنه شريعة التوراة وشريعة الانجيل وشريعة القرآن.

وقوله " منكم " قيل في المعنى به قولان:

أحدهما أمة نبينا وأمم الانبياء قبله على تغليب المخاطب على الغائب.

الثاني - أنه أراد أمة نبينا وحده، وهو قول مجاهد. والاول أقوى لأنه تعالى بين أنه جعل لكل شرعة ومنهاجا غير شرعة صاحبه ويقوي ذلك قوله " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة " ولو كان الامر على ما قال مجاهد لما كان لذلك معنى، لأنه تعالى قد جعلهم أمة واحدة بأن أمرهم بالدخول

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٦٨ واللسان (روى). وقد رواه الطبري (من يك في شك).

(٢) اللسان " نأى " (*).

(٥٤٦)

فيها والانقياد لها. وقوله " ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة " قيل في معناه أقوال:
أحدها قال الحسن والجبائي انه اخبار عن القدرة كما قال " ولوشئنا لآتيننا كل نفس هداها "
(١).

الثاني قال البلخي معناه لو شاء الله لفعل ما يختارون عنده الكفر، لكنه لايفعله، لانه مناف
للحكمة ولايلزم على ذلك أن يكون في مقدوره ما يؤمنون عنده فلا يفعله، لان ذلك لو كان
مقدورا لوجب أن يفعله مالم يناف التكليف.

الثالث قال قوم: لو شاء الله لجمعهم على ملة واحدة في دعوة جميع الانبياء والاول اصح لان
دعوة الانبياء تابعة للمصالح، فلا يمكن جمع الناس على شريعة واحدة مع اختلاف المصالح.

الرابع قال الحسين بن علي المغربي: معناه لو شاء الله ألا يبعث اليهم نبيا، فيكونون متعبدين
بما في العقل ويكونون أمة واحدة. وأقوى الوجوه أولها.

وقوله " ولكن ليبلوكم فيما أتاكم " معناه ليختبركم بما كلفكم من العبادات وهو عالم بما يؤل اليه
أمركم، لانه عالم لنفسه وقد فسرنا معنى البلوى فيما مضى. " فاستبقوا الخيرات " قيل في
معناه قولان:

أحدهما - بادروا فوت الحظ بالتقدم في الخير.
الثاني - بادروا الفوت بالموت ذكره الجبائي.

(١) سورة ٣٢ حم السجدة آية ١٣.

(٥٤٧)

وقوله " إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " أي إلى الله مرجعكم يعني إلى
الموضع الذي لايملك أحد فيه لكم ضرا ولانفعا غيره فجعل رجوعهم إلى هذا الحد بالموت
رجوعا اليه تعالى وبين أنه يعلمهم ما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمر دينهم وأنه يحكم في
ذلك بينهم بالحق.

قوله تعالى:

وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك
فان تولوا فاعلم أنما يريد الله يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون (٥٢) آية
بلا خلاف موضع " أن احكم " نصب والعامل فيها وانزلنا والتقدير وأنزلنا إليك أن احكم بينهم
بما انزل الله. ويجوز أن يكون موضعها رفعا وتقديره ومن الواجب أن احكم بينهم بما أنزل
الله. ووصلت أن بالامر ولايجوز صلة الذي بالامر لان (الذي) اسم ناقص مفتقر إلى صلة في

البيان عنه فتجري مجرى صفة النكرة ولذلك لا بد لها من عائد يعود اليها وليس كذلك " ان " لانها حرف، وهي مع ما بعدها بمنزلة شئ واحد فلما كان في فعل الامر معنى المصدر جاز وصل الحرف به على معنى مصدره.

وانما كرر الامر بالحكم بينهم، لامرين:

أحدهما - أنهما حكمان أمر بهما جميعا لانهم احتكموا اليه في زناء المحصن ثم احتكموا اليه في قتل كان منهم ذكره أبو علي وهو المروي عن

(٥٤٨)

ابي جعفر (ع).

الثاني - ان الامر الاول مطلق والثاني دل على أنه منزل.

وقوله " ولاتتبع أهواءهم " نهى له (صلى الله عليه وآله) أن يتبع أهواءهم فيحكم بما يهوونه.

وقوله " واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك " في؟؟ قولان:

أحدهما - قال ابن عباس احذرهم ان يضلوك عن ذلك إلى ما يهونون من الاحكام اطماعا منهم في الاستجابة إلى الاسلام.

الثاني - قال ابن زيد احذرهم ان يضلوك بالكذب عن التوراة بما ليس فيها فاني قد بينت لك حكمها. وقال الشعبي الآية وان خرجت مخرج الكلام على اليهود فان المجوس داخلون فيها.

وقوله " فان تولوا " معناه فان أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله " فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم " قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها - قال الجبائي انه وان ذكر لفظ الخصوص فان المراد به العموم كما قد يذكر العموم ويراد به الخصوص.

الثاني - انه على تغليب العقاب أي يكفي أن يؤخذوا ببغض ذنوبهم في اهلاكهم والتدمير عليهم.

الثالث ان يعجل بعض العقاب بما كان من التمرد في الاجرام لان ذلك من حكم الله في العباد.

الرابع - قال الحسين: ان المراد به اجلاء بني النضير بنقض العهد وقتل بني قريظة وقوله " وان كثير من الناس لفاسقون " معناه تسليية للنبي (صلى الله عليه وآله) عن اتباع هؤلاء القوم إلى

اجابته والاقرار بنبوته بأن قليلا من الناس الذين

(٥٤٩)

يؤمنون، وان الاكثرهم الفاسقون، فلا ينبغي ان يعظم ذلك عليك.

قوله تعالى:

أفحكم الجاهلية ييغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٣) آية بلا خلاف قرأ (تبغون) بالتاء ابن عامر وحده الباقر بالبياء. من قرأ بالتاء فعلى معنى قل لهم، ومن قرأ بالبياء، فلان ما قبله على لفظ الغيبة وهو قوله

" وان كثيرا من الناس لفاسقون " فحملوا عليه. والكناية في قوله " افحكم الجاهلية تبغون " قيل فيها قولان:

أحدهما - إنها كناية عن اليهود في قول مجاهد، وأبو علي قال أبو علي لانهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزموهم إياه. وإذا وجب على أقويائهم بالغنى والشرف في الدنيا لم يأخذوهم به، فقول لهم " أفحكم الجاهلية " يعني عبدة الاوثان " تبغون " وأنتم أهل كتاب.

الثاني - انها كناية عن كل من طلب غير حكم الله أي انما خرج منه إلى حكم الجاهلية. وكفى بذلك خزيا أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم.

ونصب " أفحكم الجاهلية ييغون " وهو مفعول به ومعنى تبغون تطلبون يقال بغى يبغى بغيا اذا طلبه والبغاة هم الذين يطلبون التآمر على الناس والترأس بغيرحق والبغى الفاجرة لانها تطلب الفاحشة، ومنه قوله " ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله " (١) أي من طلب عليه الاستعلاء

(١) سورة الحج آية ٦٠.

(٥٥٠)

بالظلم. وقوله " ومن أحسن من الله حكما " نصب على التمييز أي فصلا بين الحق والباطل من غير محاباة، ولامقاربة لانه لايجوز للحاكم أن يحابي في الحكم بأن يعمل على ما يهواه بدلا مما يوجبه العدل وقد يكون حكم أحسن من حكم بأن يكون أولى منه وأفضل منه وكذلك لو حكم بحق يوافق هواه كان ما يخالف هواه أحسن مما يوافق وقوله " لقوم يوقنون " معناه عند قوم يوقنون بالله وبحكمه فاقبمت اللام مقام (عند) هذا قول ابي علي، وهذا جائز إذا تقاربت المعاني ولم يقع اللبس لان حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض.

قوله تعالى:

ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين (٥٤) آية قوله " بعضهم أولياء بعض " إخبار منه تعالى ان الكفار يوالي بعضهم بعضا وقوله " ومن يتولهم منكم " يعني من استنصرهم واتخذهم أنصارا فانه منهم أي محكوم له بحكمهم في وجوب لعنه والبراءة منه ويحكم بأنه من أهل النار. وقوله " ان الله لايهدي القوم الظالمين " معناه لايهديهم إلى طريق الجنة لكفرهم، واستحقاقهم العذاب

الدائم بل يضلهم عنها إلى طريق النار، هذا قول ابي علي. وقال غيره: معناه لا يحكم لهم بحكم المؤمنين في المدح والثناء والنصرة على الاعداء.

(٥٥١)

قوله تعالى:

فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين (٥٥) آية بلاخلاف هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) أعلمه الله أنه يرى الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق " يقولون " في موضع الحال، وتقديره قائلين نخشى أن تصيبنا دائرة. الذين يخشون أن تصيبهم دائرة قيل فيه قولان:

أحدهما - قال مجاهد وقتادة والسدي وأبو علي الجبائي: إنهم قوم من المنافقين.

وقال عطية بن سعد وعبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت: إنه عبدالله ابن ابي بن سلول.

و " الدائرة " الدولة التي تحول إلى من كانت له عنن هي في يديه، قال الشاعر:

ترد عنك القدر المقدروا * ودائرة الدهر أن تدورا (١)

يعني دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم.

وقوله " فعسى الله أن يأتي بالفتح " عسى موضوعة في اللغة للشك وهي من الله تعالى تفيد الوجوب، لان الكريم اذا أطمع في خير يفعله، فهو بمنزلة

(١) مجاز القرآن ١: ١٦٩ وتفسير الطبري ١٠: ٤٠٤.

(٥٥٢)

الوعد به في تعلق النفس به وإرجائها له، ولذلك حق لا يضيع ومنزلة لا تخيب.

والفتح القضاء والفصل - وهو قول قتادة - ومنه قوله " افتح بيننا وبين قومنا بالحق " (١)

وقال أبو علي هو فتح بلاد المشركين على المسلمين وقال السدي: هو فتح مكة. ويقال للحاكم

الفتاح، لانه يفتح الحكم ويفصل به الامر. وقوله " أو أمر من عنده " قيل فيه ثلاثة أقوال:

قال السدي: هو تجديد أمر فيه إذلال المشركين وعز للمؤمنين، وقيل هو الجزية.

وقيل: هو اظهار نفاق المنافقين مع الامر بقتلهم في قول الحسن والزجاج.

وقال أبو علي: هو أمر دون الفتح الاعظم أو موت هذا المنافق، لانه إذا أتى الله المؤمنين ذلك

ندم المنافقون والكفار على تقويتهم بأنفسهم ذلك، وكذلك إذا ماتوا أو تحققوا ما يصيرون اليه

من العقاب ندموا على ما فعلوه في الدنيا من الكفر والنفاق.

قوله تعالى:

ويقول الذين آمنوا أهو لاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (٥٦) آية قرأ ابن كثير، وعامر، ونافع " يقول " بلاواو . الباؤون بالواو، وكلهم قرأ بضم اللام إلا أباعمرو، فانه فتحها. من نصب اللام فالمعنى عسى

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٨٨.

(٥٥٣)

أن يقول، ومن رفعه فعلى الاستئناف.
فان قيل كيف يجوز النصب ولايجوز أن يقول الذين آمنوا؟ قيل: قال أبوعلي الفارسي يحتمل ذلك أمرين غير هذا:
أحدهما - أن يحمل على المعنى، لانه إذا قال عسى الله أن يأتي بالفتح وكأنه قال عسى أن يأتي الله بالفتح، " ويقول الذين آمنوا " كما قال " فاصدق وأكن " كأنه قال: أصدق وأكن، وقد جاء مثله نحو قوله " عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم (١) وقال " عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا " (٢).
ووجه آخر وهو: أن يبدل (أن يأتي) من اسم الله كما أبدلت (أن) من الضمير الذي في قوله " وما أنسانية إلا الشيطان أن أذكره " (٣) فاذا أبدلته فكأنك قلت عسى أن يأتي الله بالفتح، ويقول الذين آمنوا. وأما من رفع فلانه عطف جملة على جملة، ولم يجعلها عاطفة على مفرد. ويقوى الرفع قراءة من قرأ بلاواو وأما إسقاط الواو وإثباتها فجميعا حسنان: أما الحذف فلان في الجملة المعطوفة ذكرا في المعطوف عليها وذلك أن من وصف بقوله " يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصينا دائرة " إلى قوله " نادمين " هم الذين قال فيهم " أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم " فلما صار في كل واحدة من الجملتين ذكر فيما تقدم من الاخرى حسن عطفها بالواو وبغير الواو، كما أن قوله " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦ . (٢) سورة ٤ النساء آية ٨٣.

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٦٤.

(٥٥٤)

خمسة سادسهم كلبهم " (١) لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكرا تقدم اكتفى بذلك عن الواو. ويدل على حسن اثبات الواو قوله " ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم " .

قوله " ويقول الذين آمنوا " أي الذين صدقوا بالله ورسوله ظاهرا وباطنا تعاجبا من نفاق المنافقين " أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم " في معاونتكم على أعدائكم ونصرتكم " حبطت أعمالهم " أي ضاعت أعمالهم التي عملوها، لانهم اوقعوها على خلاف الوجه المأمور به، لان ما فعلوه فعلوه على وجه النفاق دون التقرب به إلى الله. وقوله " فأسبحوا خاسرين " ليس المراد به معنى الصباح، وإنما معناه صاروا خاسرين، ومثل ذلك قولهم: ظل فلان يفعل كذا، وبات يفعل كذا، وليس بمراد وقت بعينه، وإنما وصفهم بالخسران، لانهم فوتوا نفوسهم الثواب واستحقوا عوضا منه العقاب فأى خسران أعظم من ذلك. قوله تعالى:

يأبئها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٧) آية قرأ نافع وأهل المدينة " يرتد " بدالين، وبه قرأ ابن عامر، وكذلك

(١) سورة الكهف آية ٢٢.

(٥٥٥)

هو في مصاحفهم. الباقون بدال واحدة مشددة، وكذلك هو في مصاحفهم. من أظهر ولم يدغم قال: لان الحرف المدغم لا يكون إلا ساكنا ولا يمكن الادغام في الحرف الذي يدغم حتى يسكن، لان اللسان يرتفع عن المدغم والمدغم فيه ارتفاعا واحدة، فاذا لم يسكن لم يرتفع اللسان ارتفاعا واحدة، واذا لم يرتفع كذلك لم يمكن الادغام، فاذا كان كذلك لم يسغ الادغام في الساكن لان المدغم إذا كان ساكنا والمدغم فيه كذلك التقى ساكنان، والتقاء الساكنين في الوصل في هذا النحو ليس من كلامهم فأظهر الحرف الاول في حركة وأسكن الثاني من المثليين، وهذه لغة أهل الحجاز، فلم يلتق الساكنان.

وحجة من أدغم أنه لما اسكن الحرف الاول من المثليين للادغام لم يمكنه أن يدغمه في الثاني والثاني ساكن فحرك المدغم فيه لالتقاء الساكنين وهذه لغة بني تميم. وفي القرآن نظيره قال

الله تعالى: " ومن يشاقق الرسول " (١)

وقال: " ومن يشاقق الله ورسوله " (٢).

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقول:

فقال الحسن وقتادة والضحاك وابن جريج إنها نزلت في ابي بكر.

الثاني - قال السدي: نزلت في الانصار.

الثالث - قال مجاهد: نزلت في أهل اليمن، وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) واختاره الطبري لمكان الرواية. وروي أنهم قوم أبي موسى الأشعري. وكانت وفودهم قد أتت أيام عمر، وكان لهم في نصرة الاسلام أثر. وقال أبو جعفر وأبو عبد الله (ع) وروي ذلك عن عمار وحذيفة، وابن عباس: أنها نزلت في أهل البصرة ومن قاتل عليا (ع) فروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٤. (٢) سورة ٨ الانفال آية ١٣.

(٥٥٦)

يوم البصرة " والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم " وتلاهذه الآية. ومثل ذلك روى حذيفة، وعمار وغيرهما. والذي يقوي هذا التأويل أن الله تعالى وصف من عناده بالآية بأوصاف وجدنا أمير المؤمنين (ع) مستكملها بالاجماع، لانه قال: " ياأيها الذين آمنوا من يردت منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين " وقد شهد النبي (صلى الله عليه وآله) لامير المؤمنين (ع) بما يوافق لفظ الآية في قوله وقد ندبه لفتح خبير بعد فرار من فرعنها واحدا بعد واحد (لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كزار غير فرار لايرجع حتى يفتح الله على يديه) فدفعها إلى أمير المؤمنين، فكان من ظفره ما وافق خبر الرسول (صلى الله عليه وآله). ثم قال " أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " فوصف من عناه بالتواضع للمؤمنين والرفق بهم، والعزة على الكافرين. والعزير على الكافرين هو الممتنع من أن ينالوه مع شدة نكايته فيهم ووطأته عليهم، وهذه أوصاف أمير المؤمنين (ع) التي لايدانى فيها ولايقارب. ثم قال " يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم " فوصف - جل اسمه من عنا بهذا الجهاد وبما يقتضي الغلية فيه، وقد علمنا أن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بين رجلين: رجلا لا عناء له في الحرب ولاجهاد. والآخر له جهاد وعناء، ونحن نعلم قصوركل مجاهد عن منزلة أمير المؤمنين (ع) في الجهاد، فانهم مع علو منزلتهم في الشجاعة وصدق البأس لايلحقون منزلته ولايقاربون رتبته لانه (عليه السلام) المعروف بتفريج الغم، وكشف الكرب عن وجه الرسول (صلى الله عليه وآله) وهو الذي لم يحم قط عن قرن، ولانكص عن هول، ولا ولى الدبر، وهذه حالة لم تسلم لاحد قبله ولابعده فكان (ع) بالاختصاص بالآية أولى لمطابقة أوصافه لمعناها.

(٥٥٧)

فامان قال أنها نزلت في أبي بكر فقولته بعيد من الصواب، لانه تعالى إذا كان وصف من أراده بالآية بالعزة على الكافرين وبالجهاد في سبيله مع اطراح خوف اللوم كيف يجوز أن يظن عاقل توجه الآية إلى من لم يكن له حظ في ذلك الموقف لان المعلوم أن أبا بكر لم يكن له نكاية في المشركين، ولاقتيل في الاسلام، ولا وقف في شئ من حروب النبي (صلى الله عليه وآله) موقف أهل البأس والفناء، بل كان الفرار شيمته، والهرب ديدنه، وقد انهزم عن النبي (صلى الله عليه وآله) في مقام بعد مقام، فانهزم يوم أحد ويوم حنين، وغير ذلك، فكيف يوصف بالجهاد في سبيل الله - على ما يوصف في الآية - من لاجهاد له جملة. وهل العدول بالآية عن أمير المؤمنين (ع) مع العلم الحاصل بموافقة أوصافه لها إلى غيره إلا عصبية ظاهرة. ولم يذكر هذا طعنا على أبي بكر (رضى الله عنه) ولا قدحا فيه، لان اعتقادنا فيه أجمل شئ، بل قلنا أليس في الآية دلالة على ما قال.

ومعنى "أذلة على المؤمنين" أي أهل لين ورقة "أعزة على الكافرين" أي أهل جفاة وغلظة. والذل بكسر الذال غير الذال بضمها، لان الاول اللين والانقياد والثاني الهوان والاستخفاف. وروي عن علي (ع) وابن عباس (رحمة الله عليه) أن معنى "أذلة" أهل رحمة ورقة. ومعنى "أعزة أهل غلظة وشدة. وقال الاعمش "أذلة" يعني ضعفاء.

ومحبة الله تعالى لخلقه إرادة ثوابهم وإكرامهم وإجلالهم. ومحبتهم له إرادتهم لشكره وطاعته وتعظيمه. والارتداد - عندنا - على ضربين: مرتد عن فطرة الاسلام، فانه يجب قتله ولا يستتاب، ويقسم ماله. وبين ورثته وتعتد منه زوجته عدة الوفاة من يوم إرتداده. والآخر من أسلم عن كفر

(٥٥٨)

ثم ارتد فهذا يستتاب، فان تاب وإلا وجب عليه القتل، فان لحق بدار الحرب. اعتدت منه زوجته عدة الطلاق، فان رجع إلى الاسلام في زمان العدة كان أملاك بها، وإن لم يرجع وانقضت العدة فقد ملكت نفسها، ولا سبيل له عليها وإن رجع فيما بعد. وأما المرأة فانها تستتاب على كل حال، فان تابت وإلا حبست حتى تموت. وفي ذلك خلاف قد بيناه في مسائل الخلاف، فأما من يعتقد الجبر والتشبيه وأزلية صفات قديمة معه تعالى فهو كافر بلاخلاف بين أهل العدل. واختلفوا فمنهم من قال حكمه حكم المرتد يستتاب فان تاب وإلا قتل. ومنهم من قال يستتاب ولا يقتل لانه لم يخرج عن الملة لاقراره بالشهادتين.

وقوله "يجاهدون في سبيل الله" صفة للقوم الذين وعد الله أن يأتي بهم إن ارتدوا. وقوله "ولا يخافون لومة لائم" أي لا يخشون لوم أحد وعذله ولا يصدهم ذلك عن العمل بما أمرهم الله به وذلك اشارة إلى هذا النعت الذي نعتهم به "ذلك فضل الله" أي ذلك فضل من الله وتيسر

منه ولطف منه، ومنة من جهته " والله واسع عليم " يعني جواد على من يجود به عليه لا يخاف نفاذ ما عنده " عليم " بموضع جوده وعطائه ولا يبذله الا لمن تقتضي الحكمة إعطاؤه. قوله تعالى:

إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ٥٨ آية
بلاخلاف اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه، فروى أبو بكر الرازي في كتاب

(٥٥٩)

أحكام القرآن على ما حكاه المغربي عنه، والطبري، والرماني، ومجاهد، والسدي: إنها نزلت في علي (ع) حين تصدق بخاتمه وهوراعع، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع) وجميع علماء أهل البيت. وقال الحسن والجبائي:

إنها نزلت في جميع المؤمنين. وقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت في تبرئه من يهود بني قينقاع، وحلفهم إلى رسول الله والمؤمنين. وقال الكلبي نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقتعت اليهود موالاتهم، فنزلت الآية.

واعلم إن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمامة أمير المؤمنين (ع) بعد النبي بلا فصل.

ووجه الدلالة فيها أنه قد ثبت أن الولي في الآية بمعنى الأولى واللاحق.

وثبت أيضا أن المعني بقوله " والذين آمنوا " أمير المؤمنين (ع) فاذا ثبت هذان الاصلان دل على إمامته، لان كل من قال: ان معنى الولي في الآية ما ذكرناه قال إنها خاصة فيه. ومن قال باختصاصها به (ع) قال المراد بها الامامة.

فان قيل دلوا أولا على ان الولي يستعمل في اللغة بمعنى الأولى واللاحق ثم على ان المراد به في الآية ذلك، ثم دلوا على توجهها إلى أمير المؤمنين (ع)

قلنا: الذي يدل على أن الولي يفيد الأولى قول أهل اللغة للسلطان المالك للامر: فلان ولي الامر قال الكميت:

ونعم ولي الامر بعد وليه * ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويقولون: فلان ولي عهد المسلمين إذا استخلف للامر لانه أولى بمقام من قبله من غيره وقال النبي (صلى الله عليه وآله) (أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل) يريد من هو أولى بالعقد عليها. وقال تعالى: " فهب لي من لدنك

(٥٦٠)

وليا يرثني ويرث من آل يعقوب " (١) يعني من يكون أولى بحيازة ميراثي من بني العم. وقال المبرد: الولي والاولى واللاحق والمولى بمعنى واحد والامر فيما ذكرناه ظاهر، فاما الذي يدل على أن المراد به في الآية ما ذكرناه هو ان الله تعالى نفى ان يكون لنا ولي غير الله وغير رسوله، والذين آمنوا بلفظة

"إنما" ولو كان المراد به الموالة في الدين لما خص بها المذكورين، لان الموالة في الدين عامة في المؤمنين كلهم. قال الله تعالى " والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (٢) وإنما قلنا: أن لفظة (إنما) تفيد التخصيص، لان القائل، إذا قال إنما لك عندي درهم فهم منه نفى ما زاد عليه، وقام مقام قوله: ليس لك عندي إلا درهم. ولذلك يقولون إنما النحاة المدققون البصريون ويريدون نفى التدقيق عن غيرهم. ومثله قولهم: إنما السخاء سخاء حاتم يريدون نفى السخاء عن غيره، قال الاعشى:

ولست بالاكتر منهم حصى * وإنما العزة للكائر (٣)

أراد نفى العزة عن من ليس بكائر. واحتج الانصار بما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (إنما الماء من الماء) في نفى الغسل من غير انزال.

وادعى المهاجرون نسخ الخبر، فلولا أن الفريقين فهموا التخصيص لما كان الامر كذلك ولقالوا (إنما) لاتفيد الاختصاص بوجوب الماء من الماء.

ويدل أيضا على أن الولاية في الآية مختصة أنه قال: " وليكم " فخاطب به جميع المؤمنين ودخل فيه النبي (صلى الله عليه وآله) وغيره ثم، قال ورسوله، فاخرج

(١) سورة مريم آية ٤ - ٥. (٢) سورة التوبة آية ٧٢.

(٣) اللسان (كثر) والاكتر هنا والكائر بمعنى العدد الكثير وليس هوللتفضيل. (*)

(٥٦١)

النبي (صلى الله عليه وآله) من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، فلما قال " والذين آمنوا " وجب أيضا أن يكون الذي خوطب بالآية غير الذي جعلت له الولاية. وإلا.

أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف اليه وأدى إلى أن يكون كل واحد منهم ولي نفسه، وذلك محال. وإذا ثبت أن المراد بها في الآية ما ذكرناه، فالذي يدل على أن أمير المؤمنين (ع) هو المخصوص بها أشياء:

منها - أن كل من قال: ان معنى الولي في الآية معنى الاحق قال إنه هو المخصوص به. ومن خالف في اختصاص الآية يجعل الآية عامة في المؤمنين وذلك قد ابطالناه.

ومنها - ان الطائفتين المختلفتين الشيعة وأصحاب الحديث رووا أن الآية نزلت فيه (عليه السلام) خاصة.

ومنها - أن الله تعالى وصف الذين آمنوا بصفات ليست حاصلة إلا فيه، لانه قال: " والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون " فبين أن المعني بالآية هو الذي أتى الزكاة في حال الركوع. وأجمعت الامة على أنه لم يؤت الزكاة في حال الركوع غير أمير المؤمنين (ع)، وليس لاحد أن يقول: إن قوله " وهم راعون " ليس هو حال ل " يؤتون الزكاة " بل المراد به أن من صفتهم إيتاء الزكاة، لان ذلك خلاف لاهل العربية، لان القائل إذا قال لغيره لقيت فلانا، وهو راكب لم يفهم منه الا لقاءه له في حال الركوب، ولم يفهم منه أن من شأنه الركوب. واذا قال: رأيتة وهو جالس أو جاءني وهو ماش لم يفهم من ذلك كله إلا موافقة رؤيته في حال الجلوس أو مجيئه ماشيا. واذا ثبت ذلك وجب أن يكون حكم الآية مثل ذلك.

فان قيل: ما انكرتم أن يكون الركوع المذكور في الآية المراد به

(٥٦٢)

الخضوع كأنه قال يؤتون الزكاة خاضعين متواضعين كما قال الشاعر:

ولاتيهن الفقير علك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه (١)

والمراد علك أن تخضع، قلنا الركوع هو التلطأ المخصوص، وإنما يقال للخضوع ركوعا تشبيها ومجازا، لان فيه ضربا من الانخفاض، يدل على ماقلناه نص أهل اللغة عليه، قال صاحب العين: كل شئ ينكب لوجهه فتمس ركبتيه الارض أو لا تمس بعد أن يطأ رأسه فهو راع قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت * أدب كأني كلما قمت راع (٢)

وقال ابن دريد: اراع الذي يكبو على وجهه، ومنه الركوع في الصلاة قال الشاعر:

وأقلت حاجب فوق العوالي * على شقاء تركع في الطراب (٣)

أي تكبوا على وجهها. وإذا كانت الحقيقة ما قلناه، لم يجز حمل الآية على المجاز.

فان قيل قوله " الذين آمنوا " لفظ جمع كيف تحملون ذلك على الواحد؟ قيل: قد يعبر عن الواحد لفظ الجمع إذا كان معظما عالي الذكر قال تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٣) وقال: " رب ارجعون "

(١) قائله الاضبط بن قريع الاسدي. وهو في اللسان (ركع). وقد مرفي موارد كثيرة من هذا الكتاب.

(٢) اللسان (ركع) وقد مرفي ١ / ١٩٥.

(٣) اللسان (ركع) وقد مرفي ١ / ١٩٥.

(٥٦٣)

وقال " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها " (١) ونظائر ذلك كثيرة. وقال:
" الذين قال لهم الناس قد جمعوا لكم " (٢) ولاخلاف في أن المراد به واحد، وهونعيم بن مسعود الاشجعي. وقال: " أفيضوا من حيث أفاض الناس " (٣) والمراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال " الذين قالوا لآخوانهم وقعودا لو أطاعونا ما قتلوا " (٤) نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول.

فاذا ثبت استعمال ذلك كان قوله " الذين يقيمون الصلاة " محمولا على الواحد الذي قدمناه. فان قيل: لو كانت الآية تفيد الامامة لوجب أن يكون ذلك إماما في الحال ولجاز له أن يأمر وينهى ويقوم بما يقوم به الائمة.

قلنا: من أصحابنا من قال: إنه كان إماما في الحال ولكن لم يأمر لوجود النبي (صلى الله عليه وآله) وكان وجوده مانعا من تصرفه، فلما مضى النبي (صلى الله عليه وآله) قام بما كان له. ومنهم من قال - وهو الذي نعتمده - أن الآية دلت على فرض طاعته واستحقاقه للامامة. وهذا كان حاصله له. وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة كما يثبت استحقاق الامر لولي العهد في حياة الامام الذي قبله وإن لم يجز له التصرف في حياته. وكذلك يثبت استحقاق الوصية للوصي وان منع من التصرف وجود الموصي. وكذلك القول في الائمة وقد استوفينا الكلام على الآية في كتب الامامة بما لا يحتمل بسطه هاهنا.

فان قيل: أليس قد روي أنها نزلت في عبادة بن الصامت أو عبدالله بن سلام وأصحابه؟ فما أنكرتم أن يكون المراد بالذين آمنوا هم دون من

(١) سورة ألم السجدة آية ١٣. (٢) سورة آل عمران آية ١٧٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٩٩. (٤) سورة آل عمران آية ١٦٨. (*)

(٥٦٤)

ذهبت اليه؟ قلنا: أول ما نقوله: إنا دللنا على أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين (ع) بنقل الطائفتين، ولما اعتبرناه من اعتبار الصفة المذكورة في الآية وأنها ليست حاصلة في غيره بطل ما يروى في خلاف ذلك، على أن الذي روي في الخبر من نزولها في عبادة بن الصامت لا ينافي ما قلناه، لان عبادة لما تبرأ من حلف اليهود أعطي ولاية من تضمنته الآية، فأما ما روي من خبر عبدالله بن سلام فبخلاف ما ذهبوا اليه لانه روي أن عبدالله بن سلام لما اسلم قطعت اليهود حلفه وتبرؤوا منه فاشتد ذلك عليه، وعلى أصحابه فأنزل الله تعالى الآية

تسليية لعبدالله ابن سلام وأصحابه وأنه قد عوضهم من مخالفة اليهود، ولالية الله وولاية رسوله وولاية الذين آمنوا. والذي يكشف عما قلناه أنه قد روي أنها لما نزلت خرج النبي (صلى الله عليه وآله) من البيت، فقال لبعض أصحابه (هل أعطى أحد سائلا شيئاً فقالوا: نعم يارسول الله قد أعطى علي بن أبي طالب السائل خاتمه، وهو راع. فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الله أكبر قد أنزل الله فيه قرآنا) ثم تلا الآية إلى آخرها. وفي ذلك بطلان ما قالوه. وقد استوفينا ما يتعلق بالشبهات المذكورة في الآية في كتاب الاستيفاء وحلناها بغاية ما يمكن، فمن أراده وقف عليه من هناك. فأما الولي بمعنى الناصر فلسنا ندفعه في اللغة لكن لايجوز أن يكون مرادا في الآية لما بيناه من نفي الاختصاص.

وإقامة الصلاة إتهامها بجميع فروضها من قولهم فلان قائم بعمله الذي وليه أي يوفي العمل جميع حقوقه، ومنه قوام الأمر. وفي الآية دلالة على أن العمل القليل لايفسد الصلاة.

(٥٦٥)

قوله تعالى:

ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون (٥٩) آية قيل في معنى قوله " ومن يتولى الله ورسوله " قولان:

أحدهما - قال أبوعلي من يتولى القيام بطاعة الله ورسوله ونصرة المؤمنين.

الثاني - من يكون وليا لله ورسوله والمؤمنين: بنصرة دين الله والاخلاص له. ولايدل ذلك على أن الولاية الاولى هي تولى النصره من حيث كان في هذه الآية كذلك، لانه لاتتافي بين أن تنفيذ الآية الاولى الطاعة وإن أفادت الثانية تولى النصره وليس يجب أن تحمل الثانية على الآية الاولى من غير ضرورة.

على أن في أصحابنا من قال: هذه الآية مطابقة للاولى وأنها تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الذين آمنوا، وهم الذين ذكرهم الله في الآية فعلى هذا زالت الشبهة.

و " من " رفع بالابتداء. والجملة خبر عنه وفي " يتولى " ضمير يعود إلى (من) والعائد إلى " من " معنى الخبر، كأنه قال، فهو غالب وصار هذا الكلام في موضعه، وهذا العائد في موضع الجواب. ومعنى " من " في الجزاء معنى " إن " فلهذا جازمت الفعل المضارع، و " لو " لاتجزم لانها للماضي، وليست بمعنى " إن " وإنما يعرب الفعل المضارع دون الماضي.

والفرق بين " من " والذي " من ثلاثة أوجه أحدها - أن " من " لما يعقل

(٥٦٦)

و " الذي " مشتركة. و " من " في الجزاء لما يستقبل، وهي في معنى

" إن " وليس كذلك " الذي " وثالثها - أن " من " تجزم ولاحتجاج في الجزاء والاستفهام إلى صلة ولا يكون جوابها إلا بالفعل والفاء.

وقوله: " فان حزب الله هم الغالبون " قال الحسن حزب الله جند الله.

وقال غيره انصار الله قال الشاعر:

وكيف أضوى وبلال حزبي (١)

أي كيف استضام وبلال نصري. وأصله النائبة من قولهم: حزبه الامر يجزبه حزبا اذ أنابه، وكل قوم تشابهت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب. ومنه قوله " اولئك الاحزاب " (٢) " وكل حزب لما لديهم فرحون " (٣).

و " إن حزب الشيطان هم الخاسرون " وتحزب القوم اذا اجتمعوا كالاتتماع على النائبة. وأرض حزبة غليظة وحمار حزابية مجتمع الخلق غليظ.

(١) قاتلة روية بن العجاج. ديوانه: ١٦، ومجاز القرآن ١: ١٦٩ من ارجوزة يمدح بها بلال بن ابي بردة وقد ذكر

نفسه ثم اعترض من يعترضه في الهجاء فقال:

ذاك وان عبي لي المعجبي * وططح الجد لحاء القشب

القيت أقوال الرجال الكذب * وكيف اضوى وبلال حزبي

ورواية الديوان " ولست اضوى ". ططح الشئ: فرقه.

و (للحاء): المخاصمة و (القشب) - بفتح القاف وسكون الشين الكلام المفترى. (٢) سورة ص آية ١٣.

(٣) سورة المؤمنون آية ٥٤ وسورة الروم آية ٣٢.

(٥٦٧)

قوله تعالى:

يأياها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٦٠) آية قرأ " والكفار " بالجر أبو عمرو، ونافع، والكسائي. والباقون بالنصب، فمن نصب عطف على " الذين اتخذوا دينكم " وحجتهم في ذلك قوله: " لا يتخذوا المؤمنون الكافرين أولياء ". ومن جر عطف على " من الذين اوتوا الكتاب " أي ومن الكفار أولياء وحجتهم في ذلك أن الحمل على أقرب العاملين أجود، لانها لغة القرآن وحسن الحمل على الجر، لان فرق الكفار ثلاث المشرك. والمنافق. والكتابي الذي لم يسلم وقد كان منهم الهزء فساغ لذلك أن يكون الكفار مجرورا وتفسيرا للموصول وموضحا له.

وقد اخبر الله تعالى أن المشركين كان منهم إستهزاء بقوله " إنا كفييناك المستهزئين " (١) وعن المنافقين في قوله: " واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزؤن " (٢) واخبر

عن الكتابي في هذه الآية. فقال

" لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار " وإن وقع على جميع الاصناف، فهو في من ليس من أهل الكتاب أليق، وعليه أغلب، فلذلك أفرد بالذكر. وقال الحسن: المعنى بالكفار مشركوا العرب، وإنما دخل غيرهم في الحكم بما صحب الكلام من الدليل

(١) سورة المجادلة آية ١٩. (٢) سورة البقرة آية ١٤. (*)

(٥٦٨)

وقال غيره: يدخل فيه جميع أصناف الكفار، وإنما وصفهم الله تعالى بما كانوا عليه من التلاعب بالدين لامرين:

أحدهما - لاغراء المؤمنين بعداوتهم والبراءة منهم.

الثاني - ذم لهم وتحذيرا من مثل حالهم لأنها حال السفهاء الذين لاخلق لهم. وقال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويدين الحارث قد أظهرها الاسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فانزل الله هذه الآية ويجوز في " هزوا " أربعة أوجه: الاول " هزوا " بضم الزاي وتخفيف الهمزة، الثاني هزوا بالواو ومن غير همز على التخفيف لان الهمزة مفتوحة قبلها ضمة كجون، الثالث هزأ بسكون الزاي والهمز. الرابع هزى على وزن هدى بفتح الزاي واسقاط الهمزة. والهزاء السخرية وهو اظهار ما يلهي تعجبا مما يجري. قال الله تعالى: " ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون " (١) وقال الشاعر:

ألا هزئت واعجبها المشيب * فلانكر لديك ولاعجب

ويقال هزئ به يهزأ هزوا وهزوا واستهزوا به استهزاء. و (اللعب)

الاحذ على غير طريق الحق، ومثله العبث وأصله من لعب الصبي يقال:

لعب يلعب لعبا اذا سال لعبه لانه يخرج إلى غير جهته وكذلك اللاعب يمر في غير جهة الصواب.

وقوله: " ان كنتم مؤمنين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - ان كنتم مؤمنين بوعدده ووعدده.

الثاني - إن من كان مؤمنا غضب لايمانه على من طعن فيه. وكافاه

(١) سورة الانعام آية ١٠ وسورة الانبياء آية ٤١. (*)

(٥٦٩)

بما يستحقه من المقت له.

قوله تعالى:

وإذا ناديتم إلى الصلوة إتخذها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (٦١) آية بلاخلاف النداء والدعاء بمد الصوت على طريقة يافلان وأصله ندى الصوت وهو بعد مذهبه وضجة جرمه. ومنه قولهم: أناديك ولأناجيك أي أعالنك النداء، ولأسر لك النجوى، وأصل الباب الندو، وهو الاجتماع يقال ندى القوم يندون ندوا إذا اجتمعوا في النادي، ومنه دار الندوة وندى الماء، لأنه يجتمع قليلا قليلا وندى الصوت لأنه عن جرم ندى.

أخبر الله تعالى عن صفة الكفار الذين نهى الله المؤمنين عن اتخاذهم أولياء بأنهم إذا نادى المؤمنون إلى الصلاة ودعوا إليها اتخذوها هزوا ولعبا وفي معنى ذلك قولان: قال قوم: إنهم كانوا إذا أذن المؤمنون للصلاة تضحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والجنون تجهيلا لاهلها، وتنفيرا للناس عنها، وعن الداعي إليها. الثاني - أنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها جهلا منهم بمنزلها وقال أبو ذهيل الجمحي:

وابرزتها من بطن مكة بعدما * أصات المنادي بالصلاة فأعتما

وقوله تعالى: " بأنهم قوم لا يعقلون " قيل في معناه قولان:

أحدهما - انهم لا يعقلون مالهم في اجابتهم لو أجابوا إليها من الثواب،

(٥٧٠)

وما عليهم في استهزائهم بها من العقاب.

الثاني - انهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح ويردعه من الفواحش وقال السدي: كان رجل من النصارى بالمدينة فسمع المؤذن ينادي أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: حرق الكاذب فدخلت خادمة له ليلة بنار وهو نائم وأهله فسقطت شرارة فأحرق البيت واحترق هو وأهله.

قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٦٢) آية واحدة أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب أهل الكتاب فيقول لهم " هل تنقمون منا " وقيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها هل تسخطون. الثاني هل تتكرون. والثالث هل تكرهون، والمعنى متقارب يقول ينقم نقما ونقم ينقم والاول اكثر قال عبدالله بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا (١)

قال ابن عباس: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع وغيره، فسألوه عن يؤمن به من الرسل، فقال

(١) ديوانه: ٧٠ ومجاز القرآن ١: ١٧٠ واللسان (نقم) من قصيدته التي قالها لعبد الملك بن مروان في خبر ذكره ابوالفرج الاصفهاني في الاغاني ٥٠: ٧٦ - ٨٠. (*)

(٥٧١)

أؤمن " بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وأما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا:

لأنؤمن به وبمن آمن به، فانزل الله هذه الآية.

وقوله " وإن اكثركم فاسقون " في موضع نصب، لانه مصدر في تقدير بان اكثركم، ولو أستأنفه كان صوابا لكن لم يقرأ به. وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

قال الزجاج والفراء هل تكرهون منا إلا ايماننا وفسقكم، والمعنى ليس هذا مما ينقم.

الثاني - قال الحسن: لفسقكم نقتم ذلك علينا.

الثالث - قال أبو علي: نقموا فسق اكثرهم، لانهم لم يتابعوهم عليه.

فان قيل كيف قال: " وان اكثركم فاسقون " وهم جميعا فاسق؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة:

أحدها أنهم خارجون عن أمر الله طلبا للرئاسة وحسدا على منزلة النبوة.

الثاني - فاسقون بركوب الاهواء. الثالث - على التلطف للاستدعاء.

ومعنى الآية هل تكرهون إلا ايماننا وفسقكم أي انما كرهتم ايماننا وانتم تعلمون أنا على حق،

لانكم فسقتم بأن اقمتم على دينكم لمحبتكم الرئاسة وتكسبكم بها الاموال.

فان قيل كيف يعلم عاقل أن دينا من الاديان حق فيؤثر الباطل على على الحق؟! !

(١) سورة البقرة آية ١٣٦. (*)

(٥٧٢)

قلنا: أكثر ما نشاهده كذلك، من ذلك أن الانسان يعلم ان القتل يورده النار، فيقتل إما إيثارا لشفاء غيظ أو لآخذ مال. وكما فعل ابليس مع علمه بأن الله يدخله النار بمعصيته فأثر هواء على القربة من الله وعمل لما يدخله النار. وهذا ظاهر في العادات.

قوله تعالى:

قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة
والخنزير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (٦٣)
قراء حمزة " وعبد الطاغوت " بضم الباء وخفض التاء يريد خدم الطاغوت في قول الاعمش،
ويحيى بن رئاب. الباقر بفتح الباء والداد ونصب التاء قال أبو علي: حجة حمزة أنه حمل
على ما عمل فيه (جعل) كأنه قال وجعل منهم من عبد الطاغوت. ومعنى (جعل) خلق، كما
قال " وجعل منها زوجها " (١) وقال " وجعل الظلمات والنور " (٢) قال: وليس (عبد)
لفظ جمع لانه ليس في أبنية الجمع شئ على هذا البناء لكنه واحد في موضع جمع كما قال "
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " (٣) وجاء على (فعل) لان هذا البناء يراد به الكثرة نحو يقط
وندى و (عبد) في الاصل صفة، وان

(١) سورة الاعراف آية ١٨٨ . (٢) سورة الانعام آية ١ .

(٣) سورة الرعد آية ٣٤ وسورة النحل آية ١٨ . (*)

(٥٧٣)

كان استعمل استعمال الاسماء، ولايزيل ذلك عنه كونه صفة كمالم يزل في الابرق والابطح
حيث كسر تكسير الاسماء لم يزل عنهما معنى الصفة بدلالة أنهم تركوا صرفهما كما تركوا
صرف (أحمر) ولم يجعلوه كأوكل وابدع.

وأما من فتح فانه عطفه على مثال الماضي الذي في الصلة، وهو قوله

" لعنه الله وغضب عليه " وأفرد الضمير في (عبد) وان كان المعنى فيه كثرة لان الكلام
محمول على لفظ (من) دون معناه، ولوحمل الكلام أو البعض على المعنى لكان صوابا قال
الفراء: وقرأ أبي وعبد الله " وعبد الطاغوت " على الجمع، والمعنى والذين عبد الطاغوت -
بضم العين والباء - مثل ثمار وثمر، وعبيد وعبد، على أنه جمع جمع، ويكون المعنى وجعل
منهم عبد الطاغوت كما تقول: جعلت زيدا أخاك أي نسبتك اليك ويجوز على هذا رفع الدال
على تقدير، وهم عبد الطاغوت لكن لم يقرأ به أحد. قال:

ولو قرأ قارئ وعبد الطاغوت كان صوابا يريد به عبدة الطاغوت ويحذف الهاء للاضافة كما
قال الشاعر:

قام ولاها فسقوه صر خدا (١) يريد ولاتها وحكي في الشواذ و (عبد الطاغوت) على مالم
يمسي فاعله، ذكره الرماني. قال الطبري هي قراءة أبي جعفر المدني. وحكى البلخي (عابد
الطاغوت، وعبد الطاغوت) مثل شاهد وشهد. وحكى ايضا (عباد الطاغوت) مثل كافر وكفار،
ولا يقرأ بشئ من ذلك. وقال الطبري

(١) معاني القرآن للفراء ١ : ٣١٤ . والطبري ١ : ٤٤١ (صرخد)
موضع في الشام تنسب له الخمرة الجيدة. (*)

(٥٧٤)

عن يريده الاسلامي انه قرأ (عابد الطاغوت) فهذه ثمانية أوجه، لكن لا يقرأ إلا بقرائتين أو ثلاثة، لان القراءة متبوعة يؤخذ بالمجموع عليه، قال الفراء (عبد) على ما قرأ حمزة إن كانت لغة فهو مثل حذر وحذر، وعجل وعجل فهو وجه والافانه أراد قوله الشاعر:

أبني لبيني إن أمكم * أمة وإن أباكم عبد (١)

فحرك وهذا في ضرورة الشعر لافي القراءة وأنشد الاخفش:

أنسب العبد إلى آباءه * اسود الجلدة من قوم عبد (٢) أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب الكفار ويقول لهم

" هل انبئكم " أي هل اخبركم " بشر من ذلك " أي من الذي طعنتم عليه من المسلمين، ومما رغبتم عنه ونقمتم عليه، وانما قال " بشر من ذلك وان لم يكن من المؤمن شر وكذلك قوله " اولئك شر مكانا " على الانصاف في الخطاب والمظاهرة في الحجاج لان الكفار يعتقدون ان هؤلاء أشرار، وأن مافيهم شر فخرج على ما يعتقدونه.

وقوله: " مثوبة " معناها الثواب الذي هو الجزاء ووزنها مفعولة مثل مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر وقال الشاعر:

وكننت اذا جاري دعا لمضوفة * أشمرحتي ينصف الساق مئزري (٣)

(١) قائله اوس بن حجر . ديوانه القصيدة: ٥ البيت ٤ ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٤ ، ٣١٥ واللسان (عبد).

(٢) اللسان (عبد).

(٣) قائله ابوجندب الهذلي . اشعار الهذليين ٣ : ٩٢ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١٧٠ واللسان (ضيف)، (نصف). المضيفة، والمضافة: الامر يشفق منه وقد روي البيت بهما جميعا.

(٥٧٥)

وقال ابو عبيدة هي (مفعلة) مثل مكرهة ومعقلة ومشغلة.

وموضع (من) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: أحدها - الجر والتقدير بشر من ذلك لمن لعنه الله والرفع على من لعنه الله، وانصب على أنبئكم من لعنه الله. وقيل في معنى (الطاغوت) قولان:

أحدهما قال الحسن: هو الشيطان، لانهم أطاعوه طاعة المعبود.

والثاني كل مادعا إلى عبادته من دون الله من الفراعنة، فشبهه به ماعبد من الاصنام ونحوها. قال ابو علي: وهو هاهنا العجل الذي عبدته اليهود، لان الكلام كله في صفتهم. وقوله (أولئك شر مكانا) يعني هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لعنهم وغضب عليهم، وانهم عبدة الطاغوت شر مكانا يعني في عاجل الدنيا وأجل الآخرة. وهو نصب على التمييز وقوله " وأضل عن سواء السبيل " يعني أجوز عن الطريق المستقيم. وظن بعضهم ان قوله (وجعل منهم القردة جعلهم كذلك والخنازير وعبد الطاغوت) يفيد أنه جعلهم يعبدون الطاغوت - يتعالى الله عن ذلك - لانه لو كان جعلهم كذلك لما كان عليهم لوم، وانما المعنى ماقلناه: من أنه اخبر عن شر ممن عابوه، وهم الذين لعنهم وغضب عليهم، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت، لانه تعالى هو الخالق لهم، وان كان لم يخلق عبادتهم للطاغوت. وقال ابو علي: هو معطوف على قوله " من لعنه الله وغضب عليه " ومن " عبد الطاغوت " ومن جعل منهم القردة والخنازير وليس بمعطوف على قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) فعلى هذا سقطت الشبهة.

(٥٧٦)

قوله تعالى:

وإذا جاؤكم قالوا أمانا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦٤) آية
بلاخلاف أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين بانهم اذا جاؤا المؤمنين (قالوا أمانا)
أي صدقنا (وقددخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) قيل فيه قولان:
أحدهما - قال الحسن وابن عباس والسدي وقتادة وأبو علي: وقد دخلوا بالكفر بخلاف ما
أظهروه على النبي (صلى الله عليه وآله) وخرجوا به من عنده.
الثاني - وقد دخلوا به في احوالهم وقد خرجوا به إلى احوال آخر كقولك هو يتقلب في الكفر
ويتصرف به، ومعناه تقريب الماضي من الحال ولهذا دخلت (في) هذا الموضوع. وقال
الخليل: ويكون لقوم ينتظرون الخبر كقولك قد ركب الامير لمن كان ينتظره، وهو راجع إلى
ذلك الاصل لانه تقريب من الحال المنتظرة وأصل الدخول الانتقال إلى محيط كالوعاء إلا أنه
قد كثر حتى قيل دخل في هذا الامر، ولايدخل في المعنى مالميس منه. ودخل في الاسلام.
وخرج بالردة منه. وكان ذلك مجاز. وقوله:

(جاؤكم) لايجوز ان يكون عاملا في " اذا " كمايعمل في " متى " لو.

قيل: متى جاؤكم، قالوا أمانا، لان " اذا " مضافة إلى ما بعدها والمضاف اليه لايعمل في
المضاف لانه من تمامه. وليس كذلك " متى " لانها جزاء.

وقوله " والله اعلم بما كانوا يكتُمون " معناه ما يكتُمونه من نفاقهم اذ اظهروا بالسننهم ما ضمروا
خلافه في قلوبهم فبين الله للناس أمرهم.

(٥٧٧)

قوله تعالى:

وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون (٦٥) آية
بلاخلاف وصف الله تعالى المنافقين الذين تقدم وصفهم لنبيه (صلى الله عليه وآله) بأنه " ترى
كثيرا منهم يسارعون " أي يبادرون في الاثم والعدوان.

قال السدي: الاثم الكفر، وقال غيره وهو يقع على كل معصية وهو الاولى. والفرق بين الاثم
والعدوان أن الاثم الجرم كائنا ما كان، والعدوان الظلم، فهم يسارعون في ظلم الناس وفي
الجرم الذي يعود عليهم بالوبال والخسران. وقيل - العدوان من عدوهم على الناس بما لا يحل.
وقيل - لمجاوزتهم حدود المجاوزتهم حدود الله وتعديتهم اياها. ويقال تأثم اذا تخرج من الاثم.
والآثم الفاعل للآثم. والسحت الرشوة في الحكم - في قول الحسن - وأصله استئصال القطع
فيكون من هذا لانه يقتضي عذاب الاستئصال ويتكرر لانه يقتضي استئصال المال بالذهاب.

وانما قال " يسارعون " بدل قوله (يعجلون) وان كانت العجلة أدل على الذم لامرين:
أحدهما - أنهم يبادرون اليه كالمبادرة إلى الحق، فأفاد " يسارعون " أنهم يعملونه كأنهم
محقون فيه.

والاخر - لازالة إيهام أن الذم من جهة العجلة، وايجابه في الاثم والعدوان.

وقوله " لبئس ما كانوا يعملون " يدل على أن الحمد والذم يكونان

(٥٧٨)

للافعال، لانه بمنزلة بئس العمل عملهم، وهذا ذم لذلك العمل إلا انه جرى على طريقة الحقيقة
أو طريقة المجاز بدليل آخر يعلم. وقد كثر استعماله حتى قيل الاخلاق المحمودة والاخلاق
المذمومة. ونعم ما صنعت وبئس ما صنعت وأصل الذم واللوم واحد إلا أن الذم كثر في نفس
العمل دون اللوم، لانه لا يقال: لمت عمله كما يقال نمت عمله. و (ما) في قوله " لبئس ما "
يحتمل أمرين: أحدهما - ان تكون كافة كما تكون في انما زيد منطلق وليتما عمرو قائم،
فلا يكون لها على هذا موضع. الثاني ان تكون نكرة موصوفة كأنه قيل: لبئس شيئا كانوا
يعملون.

قوله تعالى:

لولا ينهيه الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون (٦٦) آية.

معنى " لولا " هاهنا هلا. واصلها ان يمتنع الشئ لوجود غيره.

(لو) معناها امتناع الشئ لامتناع غيره. وقال الرماني أصلها التقدير لوجوب الشئ عن الاول فنقلت إلى التحضيض على فعل الثاني من أجل الاول. وان لم يذكر ولا بد معها من دلالة دخلها معنى: لم لايفعل.

فان قيل كيف تدخل (لولا) على الماضي وهي للتحضيض وفي التحضيض معنى الامر؟ ! قيل: لانها تدخل للتحضيض والتوبيخ، فاذاكانت مع الماضي فهي توبيخ كقوله تعالى " لولا جاؤا عليه باربعة شهداء " (١) وقوله " ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا " (٢).

(١، ٢) سورة ٢٤ النورآية ١٢ - ١٣ (*)

(٥٧٩)

و " الرباني " العالم بالدين الذي من قبل الرب، وهو منسوب إلى الرب على وجه تغيير الاسم، كما قالوا روحاني في النسبة إلى الروح، وبحراني في النسبة إلى البحر. وقال الحسن " الربانيون " علماء أهل الانجيل والاحبار علماء أهل التوراة. وقال غيره كله في اليهود، لانه يتصل بذكرهم.

وقوله: " لبئس ما " اللام فيه لام القسم ولايجوز أن تكون لام الابتداء، لانها لا تدخل على الفعل الا في باب " أن " خاصة لانها حلقت عن الاسم إلى الخبر لئلا يجمع بين حرفين في موضع واحدبمعنى واحد والصنع والعمل واحد. وقيل الفرق بينهما أن الصنع مضمن بالجودة من قولهم: ثوب صنيع، وفلان صنيعه فلان اذا استخلصه إلى غيره وصنع الله لفلان أي احسن اليه وكل ذلك كالفعل الجيد.

قوله تعالى:

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما انزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين ٦٧، آية.

(٥٨٠)

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود انها قالت: إن " يد الله مغلولة " وقيل في معني (مغلولة) قولان: أحدهما قال ابن عباس وقتادة، والضحاك:

إن المراد بذلك أنها مقبوضة من العطاء على وجه الصفة له بالبخل كما قال تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبتسطها كل البسط " (١) وانما قالوا ذلك لما نزل قوله " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " (٢) قالوا:

إن رب محمد فقير يستقرض منا في أنزل الله هذه الآية.

الثاني قال الحسن معناه انها مقبوضة عن عذابنا.

وقال البلخي يجوز ان يكون اليهود، قالوا قولاً واعتقدوا مذهباً معناه يؤدي إلى ان الله يبخل في حال ويجود في حال أخرى، فحكى الله تعالى ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهم. ويجوز أن يكون ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب له. ويجوز ان يكونوا قالوا ذلك على وجه الهزاء حيث لم يوسع على النبي (صلى الله عليه وآله) وعلى أصحابه. وليس ينبغي أن يتعجب من قوم يقولون لموسى: " اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة " ومن اتخذ العجل إلهاً، ومن زعم أن ربه أبيض الرأس واللحية جالس على كرسي، كيف يقولون إن الله يبخل مرة ويجود أخرى. وقال الحسين بن علي المغربي حدثني بعض اليهود الثقات منهم بمصر ان طائفة قديمة من اليهود قالت ذلك بهذا اللفظ.

وأما اليد فانها تستعمل على خمسة أوجه: أحدها - الجارحة. والثاني - النعمة. الثالث - القوة. الرابع - الملك. الخامس - تحقيق إضافة الفعل،

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٩.

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١. (*)

(٥٨١)

قال الله تعالى " أولى الايدي والابصار (١) معناه القوى ويقال لفلان على فلان يد أي نعمة وله علي يد أشكرها أي نعمة. وقال الشاعر:

له في ذوي الحاجات أيد كأنها * مواقع ماء المزن في البلد القفر

ومثل ذلك يقولون له عليه صنع حسنة. وقوله " الذي بيده عقدة النكاح " (٢) معناه من يملك ذلك وقوله " لما خلقت بيدي " (٣) أي توليت خلقه. وقوله " غلت أيديهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الزجاج وغيره معناه الزموا البخل على مطابقة الكلام الاول فهم أبخل الناس.

الثاني - قال الحسن وأبو علي " غلت أيديهم " في جهنم.

وقوله " ولعنوا بما قالوا " أي أبعدوا من رحمة الله وثوابه. وقوله

" بل يدها مبسوطتان " تكذيب منه تعالى لما قالوا وإخبار أن يديه مبسوطتان أي نعمه مبسوطه. وقيل في وجه تنبيه اليد ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه أراد نعمة الدنيا ونعمة الدين أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

الثاني - قال الحسن معناه قوتاه بالثواب والعقاب والغفران والعذاب بخلاف قول اليهود إن يده مقبوضة عن عذابنا.

الثالث - أن التنبيه للمبالغة في صفة النعمة مثل قولهم: لبيك وسعديك، وكما يقول القائل: بسط يديه يعطي يمنا ويسرة ولا يريدون الجارحة وإنما يريدون كثرة العطية وقال الاعشى:

(١) سورة ص آية ٤٥. (٢) سورة البقرة آية ٢٣٧.

(٣٩) سورة ص آية ٧٥.

(٥٨٢)

يداك يدامجد فكف مفيدة * وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق (١)

وقوله تعالى " ينفق كيف يشاء " معناه يعطي من شاء من عباده ويمنع من شاء منهم، لأنه متفضل بذلك ويفعل حسب ما تقتضيه المصلحة.

وقوله " وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا " أي وسيزدادون عند ذلك طغيانا وكفرا لأن القرآن لا يفعل شيئا من ذلك، كما يقول القائل: وعظتك فكانت موعظتي وبالآ عليك. وما زادتك إلا شرا أي أنك أرددت عندها شرا. وذلك مشهور في الاستعمال. والطغيان هنا هو الغلو في الكفر.

وقوله " والقينا بينهم العداوة والبغضاء " قيل فيه قولان:

أحدهما - إن المراد بذلك بين اليهود والنصارى على ما قلناه في قوله

" فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء " (٢) هذا قول الحسن ومجاهد. وقد جرى ذكرهم في قوله " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء " (٣).

الثاني - إن الكناية راجعة على اليهود خاصة. والمراد ما وقع بينهم من الخلاف بين الأشمعية والعنانية وغيرهم من طوائف اليهود ذكره الرمانى.

وبماذا القي بينهم العداوة والبغضاء؟ قيل فيه قولان:

أحدهما - قال أبو علي بتعريف اليهود قبح مذهب النصارى في عبادة المسيح وبتعريف النصارى قبح مذهب اليهود في الكفر بالمسيح.

الثاني - قال الرمانى بوضع البغضاء عقابا على الاختلاف بالباطل.

وقوله " إلى يوم القيامة " فيه دلالة على أنهم لا يجتمعون على مذهب

(١) ديوانه: ١٥٠ (٢) سورة المائدة آية ١٥.

(٣) سورة المائدة آية ٥٤.

(٥٨٣)

واحد إلى يوم القيامة.، ولا بد أن يكون ذلك مختصا بمن يعلم الله من حالهم انهم لا يؤمنون.
وقوله " كلما أو قدوا نارا للحرب أطفأها الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد: لحرب محمد (صلى الله عليه وآله) وفي ذلك دلالة ومعجزة، لان الله أخبر عن الغيب وكان كما أخبر، لان اليهود كانت أشد أهل الحجاز بأسا وأمنعهم دارا حتى أن قريشا كانت تعتضد بهم والاوز والخزرج تستبق إلى محالفتهم والتكثير بنصرتهم، فأباد الله حضراءهم واقتلع أصلهم فأجلى النبي (صلى الله عليه وآله) بني قينقاع وبني النضير، وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادي القرآن. فمحي الله آثارهم صاغرين وحقق بخبر نبيه (صلى الله عليه وآله). وهذه كلمة مستعملة في اللغة في التشاغل بالحرب والاستعداد لها. قال عوف ابن عطية:

إذا ما اجتئنا جنا منهل * شيبنا لحرب بعلياء نارا

الثاني - قال قتادة: هو عام. والمعنى إن الله أذلهم بذاك لا يغزون أبدا وإنما يطفئ الله بلطفه نار حربهم وما يوقى نبيه (صلى الله عليه وآله) من نقض ما يبرمون.

وما يطلع عليه من أسرارهم ويمن به عليه من النصر والتأييد، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود " يسعون في الارض فسادا " يعني بمعصية الله وتكذيب رسله ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في دفع الاسلام ومحو ذكر النبي (صلى الله عليه وآله).

من كتبهم، وذلك هو سعيهم بالفساد، ثم قال " والله لا يحب المفسدين " بعني لا يحب من كان عاملا بمعاصيه في أرضه.

قوله تعالى:

ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم

(٥٨٤)

سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم (٦٨) آية قد بينا أن معنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره.
وقال الرماني معناه وجوب المعنى الثاني، بالاول على جهة التقدير بطريقة لو كان كذا لكان كذا، فان قطع الاول قطع الثاني بطريقة كقولك وقد كان كذا وكذا، وقد كان كذا وما كان كذا، فما كان كذا فنحوه. وما كفرنا عنهم سيئاتهم فما آمنوا واتقوا. والفرق بين (لو) و (إن) - مع أن

كل واحدة منهما تعلق المعنى الاول - أن " لو " للماضي و " ان " للمستقبل كقولك: ان أتيتني
أكرمك. ولو أتيتني لأكرمك، فيقدر الاكرام بالأتين في الماضي. وفي
" إن " وعد وليس في " لو " ذلك.

أخبر الله تعالى أن هؤلاء اليهود والكفار لو آمنوا واتقوا معاصيه لكفر عنهم سيئاتهم أي
غطاها عليهم وأزال عقابها عنهم وأثابهم على إيمانهم وتقواهم.
" ولادخلناهم جنات النعيم " اللام لام القسم وأصل التكفير التغطية.
ومنه يكفر في السلاح قال الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمامها (١).

وقوله " ولادخلناهم جنات النعيم " وان كان على لفظ الماضي فالمراد به الاستقبال وإنما كان
كذلك، لأنه قدر تقدير الماضي كما قال " ولو ردوا لعادوا " وذلك يدل على أن " لو " أوسع
من " ان " .

قوله تعالى:

ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم

(١) قد مر في ١ : ٦٠ منسوب إلى لبيد.

(٥٨٥)

من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون
(٦٩) آية.

قد بينا معنى (لو) فيما مضى وإنما فتحت (أنهم) بعدها لان هذا موضع قد خالف الابتداء بأنه
بالفعل أولى فصار بمنزلة العامل الذي يختص بالفعل دون الاسم أو الاسم دون الفعل يبين ذلك
امتناع اللام من الدخول على الخبر في (لو) وليس كذلك (حتى) و (الا). ومعنى " أقاموا
التوراة والانجيل " علموا بما فيهما على ما فيهما دون أن يحرفوا شيئاً منهما أو يغيروا أو يبدلوا
كما كانوا يفعلون ويحتمل أن يكون معناه بما فيهما بأن أقاموهما نصب أعينهم لئلا يزلوا في
شئ من حدودهما.

وقوله " وما أنزل إليهم من ربهم " يحتمل أمرين:

أحدهما - قال ابن عباس وأبو علي وغيرهما: المراد به الفرقان.

الثاني - قال قوم: كل ما دل الله عليه من أمور الدين. وقوله " لاكلوا من فوقهم " بارسال
السماء عليهم مداراً " ومن تحت أرجلهم " باعطاء الارض خيرها وبركتها وقال قوم " من
فوقهم " ثمار النخل والاشجار " ومن تحت أرجلهم " الزرع. والمعنى لو آمنوا لاقاموا في

أوطانهم، وأموالهم وزروعهم، ولم يجلوا عن بلادهم، ففي ذلك التأسيف لهم على ما فاتهم، والاعتداد بسعة ماكانوا فيه من نعمة الله عليهم، وهو جواب التبخيل في قولهم "يد الله مغلولة" (١).

الثاني ان المعنى فيه التوسعة، كما يقال: هو في الخير من قرنه إلى

(١) سورة المائدة آية ٦٧.

(٥٨٦)

قدمه أي يأتيه الخير من كل جهة يلتسمه منها. واختار الطبري الوجه الاول. وقد جعل الله التقي من أسباب الرزق فقال "ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب" (١) وقال "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض" (٢) وقال "استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا" (٣) وقال "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا" (٤).

وقوله "منهم أمة مقتصدة" يعني من هؤلاء الكفار قوم معتدلون في العمل من غير غلو ولا تقصير. قال أبو علي: وهم الذين أسلموا منهم، وتابعوا النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو المروي في تفسير أهل البيت.

وقال قوم: نزلت في النجاشي وأصحابه. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: نزلت في قوم لم يناصروا النبي (صلى الله عليه وآله) مناصبة هؤلاء. والاول أقوى، لان الله تعالى لا يجوز أن يسمي الناصب مقتصدا بحال. ويحتمل أن يكون أراد به من يقر منهم بأن المسيح عبدالله، ولا يدعي فيه الالهية والبنوة.

وقال مجاهد: هم مسلموا أهل الكتاب. وبه قال ابن زيد، والسدي.

واشتقاق المقتصدين من القصد، لانه القاصد إلى مايعرف، فكان خلاف الطالب المتحير في طلبه. والاقتصاد الاستواء في العمل المؤدي إلى الغرض. وقوله "وكثير منهم ساء مايعملون" أخبار منه تعالى أن أكثر هؤلاء اليهود والنصارى. يعملون الاعمال السيئة وهم الذين يقيمون على

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٢ - ٣. (٢) سورة الاعراف آية ٩٥.

(٣) سورة نوح آية ١٠ - ١٣ (٤) سورة الجن آية ١٦.

(٥٨٧)

الكفر والجحود بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقوله " ساء " معناه قبيح و " مايعلمون " يحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير: بئس شبيها عملهم كما قال: " ساء مثلا القوم الذين كذبوا ". والثاني أن تكون (ما) بمعنى الذي وما بعدها صلة لها والعائد محذوف. قوله تعالى:

يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٧٠) آية بلاخلاف.

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر " رسالاته " على الجمع. الباقون " رسالته " على التوحيد. من قرأ على الجمع ذهب إلى أن الانبياء يبعثون بضروب الرسائل واختلاف العبادات. ومن وحد، فلانه يدل على الكثرة. قيل في سبب نزول هذه الآية أربعة أقوال:

أحدها - قال محمد بن كعب القرظي، وغيره: إن اعرابيا هم بقتل النبي (صلى الله عليه وآله) فسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه شجرة حتى انتثر دماغه.

الثاني - أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يهاب قريشا فأزال الله عزوجل بالآية تلك الهيبة. وقيل كان للنبي (صلى الله عليه وآله) حراس بين أصحابه، فلما نزلت الآية قال الحقوا بملاحقكم، فان الله عصمني من الناس.

الثالث - قالت عائشة إن المراد بذلك إزالة التوهم أن النبي (صلى الله عليه وآله) كتم شيئا من الوحي للتقية.

(٥٨٨)

الرابع - قال أبو جعفر وأبو عبد الله (عليهما السلام) إن الله تعالى: لما أوحى إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أن يستخلف عليا كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعا له على القيام بما أمره بادائه. والآية فيها خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) وإيجاب عليه تبليغ ما أنزل اليه من ربه وتهديده إن لم يفعل وانه يجري مجري إن لم يفعل ولم يبلغ رسالته.

فان قيل كيف يجوز ذلك؟ ولا يجوز أن يقول: إن لم تبلغ رسالته فما بلغت لان ذلك معلوم لا فائدة فيه ! قلنا: قال ابن عباس: معناه إن كتمت آية مما أنزل اليك فما بلغت رسالته والمعنى ان جريمته كجريمته لو لم يبلغ شيئا مما أنزل اليه في انه يستحق به العقوبة من ربه.

وقوله " والله يعصمك من الناس " معناه يمنعك أن ينالوك بسوء من فعل أو شر أو قهر. وأصله عصام القرية، وهو وكاؤها الذي يشدبه من سير أو خيط. قال الشاعر:

وقلت عليكم مالكا إن مالكا * سيعصمكم إن كان في الناس عاصم (١)

أي سيمنعكم. وقوله تعالى " إن الله لا يهدي القوم الكافرين " قيل في معناه قولان:
قال الجبائي: إن الله يهدي إلى الثواب والجنة الكافرين.
وقال الرماني: معنى الهداية ههنا المعونة بالتوفيق والالطاف إلى الكفر بل إنما يهديهم إلى
الايان والثواب، لان من هداه إلى عرضه فقد أعانه

(١) مجاز القرآن ١: ١٧١ والطبري ١٠: ٤٧٢.

(٥٨٩)

على بلوغه، ولايجوز أن يكون المراد به أنه لا يهديهم إلى الايمان، لانه تعالى هداهم اليه بأن
دلهم عليه ورجبهم فيه وحذرهم من خلافه.

وفي الاية دلالة على صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) من وجهين:
أحدهما أنه لا يقدم على الاخبار بذلك محققا إلا من يأمن أن يكون مخبره على ما هو به، لانه
لاداعي له إلى ذلك غير الصدق والثاني - أنه لما وقع مخبره على ما أخبر به فيه وفي نظائره
دل على أنه من عندعلام الغيوب. وحكى البلخي أن بعد قوله تعالى " والله يعصمك من الناس
" لم يكن الكفار قادرين على قتل النبي ولا منهيون عن قتله، لان مع المنع لا يصح النهي
عنه، قال وإنما هم منهيون عن أسباب القتل التي تقتل غالبا، لانهم كانوا قادرين عليها. قال
ووجه آخر أنهم كانوا قادرين لكن علم أنهم لا يقتلونه. وأنه يحول بينهم وبين القتل. والاول
لايصح، لان القدرة على بعض الاجناس قدرة على كل جنس تتعلق القدرة بها.
قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التورية والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن
كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين (٧١)
سبب نزول هذه الاية ما روي عن ابن عباس أنه جاء جماعة من اليهود، فقالوا: يا محمد ألسنت
تقول: إن التوراة من عندالله؟ قال بلى. قالوا فانا

(٥٩٠)

نؤمن بها ولانؤمن بما عداها فنزلت الاية.
ومعناها أنه تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لاهل الكتاب " لستم على شئ حتى
تقيموا التوراة والانجيل ". وقيل في معناه قولان:
أحدهما - حتى تقيموها بالتصديق بما فيهما من البشارة بالنبي (صلى الله عليه وآله) والعمل
بما يوجب ذلك فيهما.

الثاني - قال أبو علي يجوز أن يكون الأمر باقامة التوراة والانجيل وما فيهما إنما كان قبل النسخ لهما.

وقوله " وما أنزل اليكم من ربكم " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يريد به القرآن الذي أنزله على جميع الخلق.

الثاني - أن يريد جميع ما نصبه الله من الأدلة الدالة على توحيده وصفاته وصدق نبيه (صلى الله عليه وآله).

وقوله: " وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا " والمراد أنهم يزدادون عند نزوله طغيانا وكفرا، لان القرآن المنزل لايزيد شيئا طغيانا.

فان قيل هذا هو المفسدة بعينه، لانهم إذا فسدوا عنده ولولاه لما فسدوا كان ذلك مفسدة. !!!
قيل ليس في الآية أنه لولم ينزل القرآن لم يكونوا يفعلون الكفر بل لايمتنع أنه لو لم ينزل القرآن لفعلوا من الكفر ما هو أعظم، فصار إنزال القرآن لطفافي استتقاص الكفر وتقليل المفسدة، فالمفسدة زائلة واللفظ حاصل، على أنه لايمنع أن يكونوا يفعلون الكفر بعينه لولم ينزل القرآن

(٥٩١)

فحقيقة المفسدة اذا ليست بحاصلة، لان حد المفسدة ما وقع عنده الفساد ولولاه لم يقع من غير أن يكون تمكيننا.

والطغيان ههنا تجاوز الحد في الظلم والغلوفيه وأصله تجاوز الحد.

ومنه قوله تعالى: " انا لما طغى الماء " (١) وقوله: " إن الانسان ليطغى " (٢)

أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق.

وقوله: " فلا تأس على القوم الكافرين " معناه لاتحزن تقول أسي يأسى أسا إذا حزن. قال الشاعر:

وانحلبت عيناه من فرط الاسى (٣)

وهذا تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وليس بنهي عن الحزن، لانه لايقدر عليه لكنه تسلية ونهي

عن التعرض للحزن. قال البلخي ذلك يدل على بطلان ما روي من أن النبي (صلى الله عليه وآله)

دعا للكفار بالهداية، لانه نهاه عن الحزن وأمره بلعنهم ولايجتمع قول اللهم العنهم، واهداهم

واغفرلهم.

قوله تعالى:

إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا

فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٧٢)

أخبر الله تعالى أن الذين صدقوا الله وأقروا بنبوته نبيه (صلى الله عليه وآله) "والذين هادوا" يعني الذين اعتقدوا اليهودية ونبوته موسى، وتأييد شرعه "والصابئون"

(١) سورة الحاقة آية ١١ . (٢) سورة العلق آية ٦ .

(٣) قاتله العجاج. ديوانه: ٣١ ومجاز القرآن: ١: ١٧١ والكامل للمبرد: ١: ٣٥٢ واللسان (حلب)، (كرس).

(٥٩٢)

وهو جمع صابئ، وهو الخارج عن دين عليه أمة عظيمة من الناس إلى ما عليه فرقة قليلة، وهم عباد الكواكب. وعندنا لا يؤخذ منهم الجزية. وعند المخالفين يجرون مجرى أهل الكتاب وصبأ ناب البعير وسن الصبي إذا خرج. وضبأ - بالضاد المعجمة - معناه اختبأ في الأرض، ومنه اشتق ضابئي البرجمي. و "النصارى" وهم الذين يقرون بالمسيح (ع) وقوله:

"من آمن بالله" قيل فيه قولان:

أحدهما يعني الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم المنافقون ذكره الزجاج.

الثاني - من دام على الإيمان والاخلاص ولم يرتد عن الإسلام.

وقيل في معني رفع الصابئين ثلاثة أقوال: أحدها قال سيبويه: إنه على التقديم والتأخير والتقدير: ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. قال الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة ما بقينا في شقاق

والمعنى فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاق وأنتم كذلك. وقال ضبابي البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فاني وقياربهما لغريب (١)

والثاني - قال الكسائي هو عطف على الضمير في (هادوا) وكأنه قال هادوا هم والصابئون. قال الرماني هذا غلط من وجهين: أحدهما ان الصابئ لا يشارك اليهود في اليهودية. والآخر أنه عطف على الضمير المتصل

(١) قد مر هذا البيت في ١: ٢٠٣.

(٥٩٣)

من غير تأكيد بالمنفصل.

والثالث قال الفراء: إن عطف على ما لا يتبين فيه الاعراب وهو (الذين)

ويجوز النسق على مثل (الذين) وعلى المضممر نحو اني وزيد قائمان، فعطف على موضع (ان).

وقوله " وعمل صالحا " فالعمل والفعل واحد. وقال الرماني: فعل الشيء إحداثه وإيجاده بعد أن لم يكن وعمله إحداث ما يكون به متغيرا سواء كان إحداثه نفسه أو أحداث حادث فيه. وقوله تعالى " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " مع ما يمر بهم من أجل يوم القيامة لامرين: أحدهما - أن ذلك لا يعتد به لانه عارض، ثم يصيرون إلى النعيم الدائم. ومنه قوله " لا يحزنهم الفزع الاكبر " (٢) وهو عذاب النار كما يقال للمريض لابس عليك. الثاني أن أهوال يوم القيامة إنما تتال الضالين دون المؤمنون. والاول أقوى لعموم قوله: " يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " (٣) وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الناس يلجمهم العرق. وانهم يحشرون حفاة عراة عزلا، فقالت عائشة لا يحتشمون من ذلك، فقال (صلى الله عليه وآله): لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (٤) فأما قوله " من آمن بالله " وقد ذكر الذين آمنوا، فلان المعني بالذين آمنوا ههنا - في قول الزجاج - المنافقون بدلالة قوله " لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم " (٥) والتقدير من

(٢) سورة الانبياء آية ١٠٣ (٣) سورة الحج آية ٢. (٤) سورة عبس آية ٣٧.

(٥) سورة المائدة آية ٤٤. (*)

(٥٩٤)

آمن منهم. وقال قوم: من آمن يرجع إلى من عدا الذين آمنوا وحمل " الذين آمنوا " على ظاهره من حقيقة الايمان. ومنهم من قال: يرجع إلى الجميع ويكون المعني في " من آمن " من يستديم على الايمان ويستمر عليه. وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في سورة البقرة. قوله تعالى:

لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٣) آية عند الجميع.

اللام في قوله " لقد " لام القسم. أقسم الله تعالى أنه أخذ الميثاق وهو الايمان المؤكدة التي أخذها أنبياءهم على بني اسرائيل في قول ابي علي.

وقال غيره: يجوز أن يكون الميثاق هي الآيات البينة التي قرربها علم ذلك عندهم. وإنما أخذ ميثاقهم على الاخلاص لتوحيد الله تعالى، والعمل بها أمر به، والانتهاه عما نهى عنه والتصديق برسله والبشارة بالنبي الامي والاقرار به، حسب ما تقدمت صفته عندهم. ووجه الاحتجاج على أهل الكتاب بما أخذ على آبائهم من الميثاق أنهم قد عرفوا ذلك في كتبهم، وأقروا بصحته، فحجته لازمة لهم، والعمل به واجب عليهم، وعيب المخالفة يلحقهم كما لحق آباءهم الذين نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم. وقوله " كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم " والهوى هو لطف محل الشئ من النفس مع الميل اليه بما لا ينبغي، فلذلك غلب على الهوى

(٥٩٥)

صفة الذم، كما قال تعالى " ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى " (١) ويقال: منه: هوى يهوى ويقال: هو يهوى هويًا إذا انحط في الهواء وأهوى بيده إذا انحط بها ليأخذ شيئًا. و " امه هاوية " (٢) أي جهنم، لانه يهوى فيما. وهم يتهاونون في الهواء اذا سقط بعضهم في أثر بعض والفرق بين الهوى والشهوة: أن الشهوة تتعلق بالمدركات فيشتهي الانسان الطعام، ولايهوى الطعام. وهواء الجو ممدود، وهوى النفس مقصور. وقوله " وأفئدتهم هواء " (٣) قيل فيه قولان: أحدهما - أنها منحرفة لاتعي شيئًا كهواء الجو. والآخر أنه قد أطارها الخوف. ومنه قوله " كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران " (٤) أي استهوته من هوى النفس. وقوله " فريقا كذبوا وفريقا يقتلون " نصب فريقا في الموضوعين بأنه مفعول به قدم. وإنما قال في الاول " كذبوا " بلفظ الماضي. وفي الثاني " يقتلون " بلفظ المستقبل لامرين: أحدهما - ليدل بذلك على أن من شأنهم ذلك وعادتهم ففيه معنى كذبوا وقتلوا ويكذبون ويقتلون مع موافقته لرؤوس الآي. الثاني - أن يكون على معنى فريقا كذبوا، ولم يقتلوا وفريقا كذبوا وقتلوا فيكون يقتلون صفة الفريق.

قوله تعالى:

وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله

(١) سورة النازعات آية ٤٠ - ٤١. (٢) سورة القارعة آية ٩.

(٣) سورة ابراهيم آية ٤٣. (٤) سورة الانعام آية ٧١. (*)

عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون (٧٤) آية بلاخلاف.
قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي " ألا تكون " بالرفع. الباقون بالنصب. ولم يختلفوا في رفع
(فتنة) فمن رفع، فالمعنى حسبوا فعلهم غير فائن لهم، لأنهم كانوا يقولون " نحن أبناء الله
وأحبأؤه " ومن نصبه فلان

" أن " تنصب الفعل المضارع. وقال أبو علي الفارسي الافعال على ثلاثة أضرب: فعل يدل
على ثبات الشئ واستقراره نحو العلم، وفعل يدل على خلاف الاستقرار والثبات، وفعل يحتمل
الامرین، فما كان معناه العلم وقع بعده (أن) الثقيلة، ولم تقع بعده الخفيفة الناصبة للفعل، لان
الثقيلة معناها إثبات الشئ واستقراره والعلم بأنه كذلك أيضا، فاذا أوقع عليه واستعمل معه كان
وقعه ملائما له. ولو استعملت الناصبة للفعل بعدما معناه العلم واستقرار الشئ له لتباينا
وتدافعا، فمن استعمال الثقيلة بعد العلم وإيقاعه عليها قوله: " ويعلمون أن الله هو الحق المبين "
(١) و " ألم يعلم بأن الله يرى " (٢)، لان الباء زائدة. وكذلك التبيين والتيقن، وما كان معناه
العلم كقوله " ثم بدا لهم من بعد ما رءوا الآيات " (٣) فهذا ضرب من العلم لانه تبيين لامر قد
بان فلذلك كان قسما كما كان علمت قسما في نحو قوله:

ولقد علمت لتأتين منيتي وكذلك " ثم بدالهم من بعد ما رءوا الآيات ليسجننه حتى حين (٤) فهو

(١) سورة النور آية ٢٥. (٢) سورة العلق آية ١٤.

(٣، ٤) سورة يوسف آية ٣٥. (*)

بمنزلة علموا ليسجننه وعلى ذلك قول الشاعر:

بدا لي أنني لست مدرك ماضى * (ولا سابقا شيئا اذا كان جائيا)

فأوقع بعدها الشديدة كما يوقعها بعد علمت واما ما كان معناه مالم يثبت ولم يستقر فنحو (أطمع)
و (أخاف) و (اشفق) و (أرجو) فهذا ونحوه لا يستعمل بعده إلا الخفيفة الناصبة للفعل كقوله
تعالى: " والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي " (١) وقوله " تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم "
(٢) وقوله: " الا أن يخافا الايقيما حدود الله. فان خفتن ان لا يقيما حدود الله " (٣) وقوله: "
فخشينا ان يرهقهما (٤) وقوله " أشفقتم أن تقدموا " (٥) وكذلك أرجو، وعسى، ولعل فأما
ما يستعمل في الامرین نحو حسبت وظننت وزعمت فهذا النحو يجعل مرة بمنزلة (أرجو) و
(أطمع)

من حيث كان أمرا غير مستقر ومرة يجعل بمنزلة العلم من حيث استعمل استعماله. ومن حيث كان خلافة. والشئ قد يجري مجرى الخلاف نحو (عطشان) و (ريان) فاما استعمالهم استعمال العلم، فلانهم قد أجابوه بجواب القسم. حكى سيبويه ظننت ليسقيني. وقيل في قوله " وظنوا مالهم من محيص " (٦) ان النفي جواب الظن كما كان جوابا لعلمت في قوله " علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات " (٧) وكلا الوجهين جاء به القرآن مثل قراءة من نصب قوله " أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا " (٨)

(١) سورة الشعراء آية ٨٢. (٢) سورة الانفال آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٩. (٤) سورة الكهف آية ٨١ (٥) سورة المجادلة آية ١٣ (٦) حم السجدة آية ٤٨.

(٧) سورة الاسرى آية ١٠٢. (٨) سورة العنكبوت آية ٤. (*)

(٥٩٨)

" أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم " (٩) " ألم أحسب الناس أن يتركوا " (١٠) ومثل قراءة من رفع قوله " أم يحسبون أننا نسمع سرهم " (١١) " أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين (١٢) " ايحسب الانسان أن لن نجمع عظامه " (١٣) فهذه مخففة من الشديدة. ومثل ذلك في الظن قوله: " تظن أن يفعل بها فاقرة " (١٤) وقوله " إن ظنا أن يقيما حدود الله " (١٥) ومن الرفع قوله: " وانا ظننا أن لن نقول الانس والجن. وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا " (١) وإن هاهنا الخفيفة من الثقيلة لان الناصبة للفعل لا تقع بعدها (أن) لاجتماع الحرفين في الدلالة على الاستقبال كما لم تجتمع الناصبة مع السين، ولم يجتمعا كالم يجتمع الحرفان بمعنى واحد. ولذلك كانت (ان) في قوله " علم ان سيكون " (٢) المخففة من الشديدة. ومن ذلك قوله " وظنوا أنهم احيط بهم " (٣) فاما قوله: الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم " (٤) وقوله: " ظننت اني ملاق حسابيه " (٥) فالظن هاهنا بمعنى العلم، وحسن وقوع الخفيفة من الشديدة في قول من رفع وإن كان بعده فعل لدخول (لا) وكونها عوضا من حذف الضمير معه وايلاء

(٩) سورة الجاثية آية ٢٠. (١٠) سورة العنكبوت آية ٢.

(١١) سورة الزخرف آية ٨٠. (١٢) سورة المؤمنون آية ٥٦.

(١٣) القيامة آية ٣. (١٤) سورة القيامة آية ٢٥.

(١٥) سورة البقرة آية ٢٣٠.

(١) سورة الجن آية ٥ - ٧. (٢) سورة المزمل آية ٢٠.

(٣) سورة يونس آية ٢٢. (٤) سورة البقرة آية ٤٦.

(٥٩٩)

مالم يكن يليه. ولوقلت علمت أن يقول لم يجز حتى يأتي بما يكون عوضا نحو (قد) و (لا) والسين وسوف، كماقال " علم ان سيكون " ولا يدخل على ذلك قوله: " وان ليس للانسان الاماسعى " (٦) فلم يدخل بين (أن) و (ليس) شئ لان (ليس) ليس بفعل على الحقيقة. أما (فتنة)

فلو نصب لكان صحيحا في العربية على تقدير: أن لا يكون قولهم فتنة. ولكن لم يقرأ به أحد. قال الرماني: وحد الحسابان هو قوة أحد النقيضين. في النفس على الآخر على وأصله الحساب، فالنقيض القوي يحتسب به دون الآخر أي هو فيما يحتسب ولا يطرح ومنه الحساب لانه مما يحسب ولا يطرح لاجل الشرف ومنه قولهم: حسبك أي يكفيك، لانه بحساب الكفاية ومنه احتساب الاجر، لانه فيما يحتسب ويكفي. الفتنة هاهنا العقوبة. وقيل البلية - في قول السدي وقتادة والحسن ومجاهد - وقيل: الشدة. وكل ذلك متقارب. وقال ابن عباس: الفتنة - هاهنا - الشرك. وأصل الفتنة الاختبار، ومنه افتنن بفلانة اذا هوأها، لانه يظهر مايطوي من خبره بها. وفتنت الذهب في النار اذا خلصته ليظهر خبره في نفسه متميزا من شائب غيره. وقوله " يوم هم على النار يفتنون " (١) أي يحرقون. فاذا هم خبث كلهم " وفتناك فتونا " (٢) أي اختبرناك اختبارا أي ليظهر خبرك على خلوص أمرك في طاعتك أو غير ذلك من حالك. وقوله " فعموا ووصموا " معناه عن الحق على وجه التشبيه بالاعمى

(٦) سورة النجم آية ٣٩.

(١) سورة الذاريات آية ١٣. (٢) سورة ٢٠ طه آية ٤٠. (*)

(٦٠٠)

والاصم لانه لايهدي إلى طريق الرشدي في الدين كما لا يهتدي هذا إلى طريق الرشدي في الدنيا لاجل العمى والصمم، فكذلك اولئك لاعراضهم عن النظر. وقوله " ثم تاب الله عليهم ثم عموا ووصموا " إخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار حسبوا أن لا يكون فتنة على ما فسرناها " فعموا ووصموا " وقتلوا الانبياء وكذبوهم ثم أن فريقا منهم تابوا فتاب الله عليهم ثم عموا ووصموا " يعني عادوا إلى ماكانوا عليه. وقيل قوله " ثم عموا ووصموا " في الاقرار بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقوله: " كثير منهم " قال الزجاج يحتمل رفعه ثلاثة أوجه:

أحدها - ان يكون بدلا من الفاء، فكأنه لما قال " عموا وصموا " ابدل الكثير منهم أي عمي وصم كثير منهم كما يقول جاغني قومك أكثرهم.

والثاني - أن يكون جمع الفعل متقدما على لغة من قال اكلوني البراغيث، وذهبوا قومك. قال أبو عمرو الهذلي:

ولكن ديا في ابوه وامه * بحوران يعصرن السليط اقاربه (١)

الثالث ان يكون (كثيرا) خبر ابتداء محذوف والتقدير ذو العمى والصمم " كثير منهم " ثم بين تعالى " إنه بصير " أي عالم " بما يعملون " أي بأعمالهم.

قوله تعالى:

لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه

(١) اللسان (سلط)، (ديف) نسبة إلى الفرزدق. (*)

(٦٠١)

من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وما لظالمين من أنصار (٧٥) آية بلاخلاف.

اللام في قوله " لقد " لام القسم. أقسم الله تعالى بأنه " كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " والكفر هو الجحود لما يجب عليه الاقرار به، والتصديق له. وقال الرماني: هو تضييع حق النعمة بالجدد او ماجرى مجراه في عظم الجرم. ولذلك كان من قتل نبيا فهو كافر وان أقر بجميع نعم الله. وعندنا إن قتل نبي يدل على ان قاتله جاحد لما يجب عليه الاقرار به، والاعتقاد لتصديقه.

والذين يقولون من النصارى: إن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية، وهم مع ذلك مثلثة، لانهم يقولون إن الاب والابن وروح القدس إله واحد.

وغيرهم يقولون: إن المسيح ابن الله. ولا يقولون هو الله وأجمعوا على أنه إله.

وقوله: " وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم " اخبار عن المسيح (ع) أنه قال لبني اسرائيل الذين كانوا في زمانه " اعبدوا الله ربي وربكم " الذي يملكني وإياكم وإني وإياكم عبيده، ومن خلقتي وخلقكم " إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة " فالشرك هو الكفر. وإنما يطلق على من أشرك في عبادة الله غيره، وإنما كان كافرا، لانه جحد نعمة الله باضافتها إلى غيره، وزعمه أن غيره يستحق العبادة مع ما ثبت أنه لا يقدر أحد على ما يستحق به العبادة سوى الله تعالى. والشرك أصله الاجتماع في الملك، فاذا كان الملك بين نفسين، فهما شريكان

وكذلك كل شيء يكون بين نفسين، ولا يلزم على ذلك ما يضاف إلى كل واحد منهما منفردا كالعبد يكون ملكا

(٦٠٢)

الله وهو ملك للانسان، لانه لو بطل ملك الانسان، لكان ملكا لله كما كان، لم يزد في ملكه شيء لم يكن.

وقوله: " فقد حرم الله عليه الجنة " اخبار من المسيح لقومه أن من يشرك بالله، فان الله يمنعه الجنة. والتحریم هاهنا هو تحریم منع لاتحریم عبادة.

وقوله: " ومأواه النار وما للظالمين من أنصار " معناه أنهم مع حرمانهم الجنة مستقرهم النار، ولاناصر لهم يدفع عنهم ويخلصهم مما هم فيه من أنواع العذاب. قوله تعالى:

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من آله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٦) آية بلاخلاف.

وهذا قسم آخر من الله بأنه كفر من قال: " إن الله ثالث ثلاثة " والقائلون بهذه المقالة هم جمهور النصارى من الملكانية، واليعقوبية والنسطورية، لانهم يقولون: أب، وابن، وروح القدس إله واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة. ويمنعون من العبارة. وإن كان يلزمهم أن يقولوا إنهم ثلاثة آلهة.

وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة. وإنما قلنا: يلزمهم، لانهم يقولون الابن إله والاب إله وروح القدس إله. والابن ليس هو الاب.

ومعنى " ثالث ثلاثة " أحد ثلاثة. وقال الزجاج، لا يجوز نصب ثلاثة لكن للعرب فيه مذهب آخر وهو أنهم يقولون رابع ثلاثة، فعلى هذا يجوز

(٦٠٣)

الجر والنصب، لان معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

ثم أخبر تعالى، فقال " وما من إله إلا إله واحد " أي ليس إلا إله واحد. ودخلت (من) للتوكيد.

وقوله: " وإن لم ينتهوا عما يقولون " أي إن لم يرجعوا ويتوبوا عما يقولون من القول بالثلاثية أقسم " ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم " يعني الذين يستمرون على كفرهم والمس - هاهنا

- ما يكون معه احساس وهو حوله فيه، لان العذاب لا يمس الحيوان إلا أحس به ويكون المس بمعنى اللمس، لان في اللمس طلبا لاحساس الشيء، فلهذا اختير هاهنا المس.

واللمس ملاصقة معها إحساس وإنما قال " ليمسن الذين كفروا منهم " لامرين:

أحدهما - ليعم الوعيد الفريقين الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، والذين قالوا هو ثالث ثلاثة والضمير عائد إلى أهل الكتاب.

الثاني - أنه من أقام منهم على الكفر لزمه هذا الوعيد في قول أبي علي، والزجاج، وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح ما هو كفر لأن الذي فيها هو الاخبار عن أن من قال الله ثالث ثلاثة فهو كافر، وهذا لا خلاف فيه. وليس فيها أن هذا القول بعينه هو كفر أن دلالة على الكفر، فمن يقول الكفر هو الجحود، وإن الإيمان هو التصديق بالقلب يقول إن في أفعال الجوارح ما يدل على الكفر الذي هو الجحود في القلب مثل القول الذي ذكره الله تعالى. ومثل ذلك السجود للشمس وعبادة الاصنام وغير ذلك، فلا دلالة في الآية على ما قالوه.

(٦٠٤)

قوله تعالى:

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٧) آية الالف في قوله " أفلا " الف إنكار وأصلها الاستفهام، لأنه لا يصح للسؤال جواب عن مثل هذا فيكون حينئذ تقريرا لهم وإنكارا عليهم ترك التوبة وإنما دخلت " إلى " في قوله: " يتوبون إلى الله " لأن معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله، لأن التائب بمنزلة من ذهب عنها ثم عاد إليها، وقد بينا فيما مضى أن التوبة طاعة يستحق بها الثواب، فأما إسقاط العقاب عندها فهو تفضل من الله غير واجب. والفرق بين التوبة والاستغفار أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء أو التوبة أو غيرهما من الطاعة. والتوبة الندم على القبيح مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبيح أو الإخلال بالواجب والاستغفار مع الإصرار على القبيح لا يصح ولا يجوز. وفي الآية تحضيض على التوبة والإقلاع من كل قبيح والانتكار لتركها، وحث على الاستغفار " والله غفور رحيم " إخبار منه تعالى أنه يستر الذنوب ويغفرها رحمة منه لعباده.

قوله تعالى:

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون (٧٨) آية بلاخلاف أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس المسيح بن مريم إلا رسول أرسله الله " قد خلت من قبله الرسل " أي أنه رسول ليس بإله كما أن الأنبياء قبله

(٦٠٥)

رسل ليسوا بآلهة. وانه أتى بالمعجزات من قبل الله كما أتوا بها من قبل ربهم، فمن ادعى له الآلهية فهو كمن ادعى الالهية لجميعهم لتساويهم في المنزلة ومعنى " خلت " مضت. " وأمه صديقة " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنها كانت تصدق بآيات ربها ومنزلة ولدها، وتصدقه فيما أخبرها به بدلالة قوله " وصدقت بكلمات ربها " (١) ذكر ذلك الحسن، والجبائي.

الثاني لكثرة صدقها وعظم منزلتها فيما تصدق به من أمرها أو سميت صديقة على وجه المبالغة، كما قيل: رجل سكيت. أي مبالغ في السكوت.

وقوله " كانا يأكلان الطعام " فيه احتجاج على النصارى، لان من ولدته النساء، وكان يأكل الطعام لا يكون إلهًا للعباد لان سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر، لان من فيه علامة الحدث، لا يكون قديما. ومن يحتاج إلى غيره لا يكون قادرا لا يعجزه شئ وقيل إن ذلك كناية عن قضاء الحاجة لان من أكل الطعام لابد أن يحدث حدثا مخصوصا على مجرى العادة.

وقوله " انظر كيف نبين لهم الآيات " أمر للنبي وامته بأن يفكروا فيما بين الله من الآيات والدلالات لهم على بطلان ما اعتقدوه من ربوبية المسيح، وبنوته ثم أمره بأن ينظر ثانيا " أنى يؤفكون " أي كيف يؤفكون. وقيل من أين يؤفكون ومعنى " يؤفكون " يصرفون. وقيل يقبلون.

والمعنى متقارب، لان المعنى انظر كيف يصرفون عن الآيات التي بينها لهم ويقال: لكل مصروف عن شئ مأفوك عنه، وقد افكت فلان عن كذا أي صرفته عنه صرفا. فأنا أفكه إفكا فهو مأفوك وقد أفكت الارض إذا صرف عنها المطر،

(١) سورة التحريم آية ١٢. (*)

(٦٠٦)

والافك الكذب، لانه صرف الخبر عن وجهه. والمؤتفكات المنقلبات من الرياح، وغيرها، لانها صرفت بقلبها عن وجهها.
قوله تعالى:

قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٩) آية أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء النصارى الذين قالوا " إن الله ثالث ثلاثة ": " أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا " أي توجهون عبادتكم إلى من لا يقدر على الضر والنفع، لان القادر عليهما هو الله تعالى او من يمكنه الله من ذلك. ولو جاز توجيه العبادة إلى المسيح الذي لا يملك ذلك لجاز توجيهها إلى الاصنام كما يقوله عباد الاصنام. وقد علمنا خلاف ذلك.

والمالك: هو القدرة على تصريف ما للقادر عليه أن يصرفه، فملك الضرر والنفع أخص من القدرة عليهما، لأن القادر عليهما قد يقدر من ذلك على ماله أن يفعل، وقد يقدر منه على ما ليس له أن يفعله. والنفع: هو فعل اللذة أو السرور أو مآدى اليهما أو إلى واحد منهما مثل الملاذ التي تحصل في الحيوان. والصلة بالمال والوعد باللذة، فإن جميع ذلك نفع، لأنه يؤدي إلى اللذة، والضرر هو فعل الألم أو الغم أو مآدى اليهما أو إلى واحد منهما كالألام التي توجد في الحيوان والقذف والسب، لأن جميع ذلك يؤدي إلى الآلام والغضب ضرر لأنه من الأسباب المؤدية إلى الآلام.

وقوله " والله هو السميع العليم " قيل في معناه هاهنا قولان:

(٦٠٧)

أحدهما - أنه ذكر للاستدعاء إلى التوبة فهو يسمع قول العبد فيها وما يضمنه منها. والآخر التحذير من الجزاء بالسيئة، لأنه يعلم الاعمال ويسمع الاسرار والاعلان. وذلك دليل على ملك الجزاء بالثواب والعقاب. قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لاتغلو في دينكم غير الحق ولاتتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٨٠) آية بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب أهل الكتاب، وهم النصارى هاهنا. وقال قوم: المراد به اليهود والنصارى، لأن اليهود أيضا غلوا في تكذيب عيسى، ومحمد (صلى الله عليه وآله) ويقول لهم " لاتغلو في دينكم " ومعناه لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم إلى الزيادة. وضده التقصير وهو الخروج عن الحد إلى النقصان. والزيادة في الحد والنقصان معا فساد أي ودين الله الذي أمر به هو بين الغلو، والتقصير، وهو الاقتصاد. وقوله " ولا تتبعوا أهواء قوم " وقل لهم: لاتسلخوا سبيل الاوائل، لأن الاتباع هو سلوك الثاني طريقة الاول على وجه الاقتداء به وقد يتبع الثاني الاول في الحق وقد يتبعه في الباطل. وإنما يعلم أحدهما بدليل.

والمراد هاهنا النهي عن اتباع سبيلهم الباطل. و (الاهواء) هاهنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة، لأن قد يستتقل النظر لما فيه من المشقة، وميل طبعه إلى بعض المذاهب فيعتقده، وهو ضلال فيهلك به. وقوله:

(٦٠٨)

" قد ضلوا من قبل " فيه قولان:

قال الحسن، ومجاهد: هم اليهود.

وقال أبو علي هم أسلافهم الذين هم رؤساء ضلالتهم الذين سنوالمهم هذا الكفر من الفريقين اليهود والنصارى " وأضلوا كثيرا " يعني هؤلاء الذين ضلوا من قبل وأضلوا أيضا كثيرا من الخلق. ونسب الاضلال اليهم، من حيث كان بدعائهم وإغوائهم.

وقوله " وضلوا عن سواء السبيل " قيل في معناه قولان:

أحدهما - ضلوا باضلالهم غيرهم في قول الزجاج.

الثاني - وضلوا من قبل، وضلوا من بعد، فلذلك كرر. وقيل

" وضلوا من قبل " عن الهدى في الدنيا " واضلوا كثيرا " عن طريق الجنة.

و " سواء السبيل " معناه مستقيم الطريق. والمعنى فيه الحق من الدين، لانه يستقيم بصاحبه إلى الجنة، والخلود في النعيم. وقيل له: سواء لاستمراره على استواء. قوله تعالى:

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٨١) آية بلاخلاف.

قيل في معني " لعن الذين كفروا من بني اسرائيل " الآية ثلاثة أقوال:

أحدها - إياهم من مغفرة الله مع الإقامة على الكفر والمعصية لله - عزوجل - لدعاء الانبياء (عليهم السلام) عليهم بالعقوبة ودعوتهم مستجابة مع مافي ذلك من الفضيحة، وانطواء أولياء الله لهم على العداوة، والمظاهرة

(٦٠٩)

عليهم في إقامة الحجة.

الثاني - قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبومالك لعنوا على لسان داود، فصاروا قردة وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير. وانما ذكر عيسى وداود، لانهما انبه الانبياء المبعوثين بعد موسى (ع) ولماذكر داود أغنى عن ذكر سليمان، لان قولهما واحد. وقال أبو جعفر (ع) أما داود فلعن أهل ايلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم البسهم اللعنة مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين، فمسخهم الله قردة. وأما عيسى فلعن الذين أنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك.

الثالث - قال أبو علي الجبائي: إنه إنما أظهر ذلك لئلا يوهما الناس أن لهم منزلة بولادة الانبياء تتجيبهم من عقوبة المعاصي.

واللعن هو الابعاد من رحمة الله، فلعله الله يعني أبعد الله من رحمته إلى عقوبته، ولا يجوز لعن من لا يستحق العقوبة من الاطفال والمجانين والبهائم، لانه تعالى لا يبعد من رحمته من لا يستحق الابعاد عنها. وقوله:

" ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " إشارة إلى اللعن الذي تقدم ذكره بمعصيتهم واعتدائهم. ف (ذا) لماقرب و (ذلك) لمابعد، لانه اجتزئ في دلالة الخطاب لما قرب بالاقبال عليه. وفي القريب بالاشارة اليه فلما بعد لم يصلح الاجتزاء فيهما كما يصلح فيما قرب، فاتى بالكاف للخطاب واكد ذلك باللام وكسرت لالتقاء الساكنين والكاف في ذلك حرف وفي غلامك إسم، ولهذا لم يؤكد بمايؤكد في غلامك لانك لا تقول ذلك نفسك. كما تقول في غلامك نفسك. وإنما قال: " بماعصوا وكانوا يعتدون " وإن كان الكفر أعظم الاجرام

(٦١٠)

ليدل على أن من خلصت معصيته ممايكفرها أو بقتة، وأنهم مع كفرهم قد عصوا بغير الكفر من الجرم الذي فسر في الآية التي بعد. قوله تعالى:

كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون (٨٢) آية بلاخلاف. أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم لم يكونوا يتناهون عن منكر أي لم يكن ينهى بعضهم بعضا مثل قولك لايتضاربون ولا يترامون ولاينتهون ومعناه لايكفون عما نهوا عنه. وقوله: " لبئس ماكانوا يفعلون " وفتحت اللام لام القسم وتقديره اقسام لبئس ماكانوا يفعلون كما فتحت لام الابتداء لانها لمالم تكن عاملة ك (لام الاضافة) اختير لها أخف الحركات. ولايجوز أن تكون لام الابتداء، لانها لاتدخل على الفعل الا في باب (أن) ولا تدخل على الماضي.

و (ما) في قوله " لبئس ما " قيل فيها قولان: أحدهما - أن تكون (ما) كافة ل (بئس) كما تكف في (إنما) و (بعدها) و (ربما) والآخر - أن تكون اسما نكرة كأنه قال: بئس شيئاً فعلوه، كما تقول بئس رجلا كان عندك.

وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر، لان كل شئ ذم الله عليه فواجب تركه إلا أن يقيد بوقت يخصه، لان ظاهر ذلك يقتضي قبحه، والتحذير منه. والمنكر هو القبيح، سمي بذلك لانه ينكره العقل من حيث أن العقل يقبل الحسن ويعترف به، ولايبأه وينكر القبيح ويبأه والانكار

(٦١١)

ضد الاقرار. فمايقربه العقل هوالحق، وماينكره، فهو الباطل.

وقيل في معنى (المنكر) - هاهنا - ثلاثة أقوال: أحدها صيد السمك في السبت. والثاني - أخذ الرشوة في الحكم. والثالث - أكل الربا وأثمان الشحوم. وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاقدست أمة لاتأخذ لضعيفها حقه غير مضيع. قوله تعالى:

ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٣) آية بلا خلاف.

هذا خطاب من الله للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول له " ترى كثيرا منهم " يعني من هؤلاء اليهود في قول الحسن وأبي علي. وقال غيرهما يعني أهل الكتاب أي " يتولون الذين كفروا " من عبدة الاوثان في قول الحسن وغيره. وقال أبو جعفر يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهوائهم ليصيبوا من دنياهم.

فان قيل: كيف يتولى أهل الكتاب عبدة الاوثان مع إكفارهم إياهم على تلك العبادة؟! قلنا لانهم يعملون عمل المتولي بالنصرة والمعونة والرضا بما يكون منهم من عداوة النبي (صلى الله عليه وآله) ومحاربتة. ويجوز أن يكونوا تولوهم على ذلك في الحقيقة، فيكون على جهة تقييد الصفة.

فان قيل ما الفائدة في اخباره (صلى الله عليه وآله) يراه وهو عالم به؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - التوبيخ لصاحبه فيقرعون بما هو من حالهم. والآخر التنبيه على باطن أمرهم بما يدل عليه ظاهر حالهم المعلومة

(٦١٢)

فينكشف باطنهم القبيح.

وقوله " لبئس ما قدمت لهم أنفسهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما بئس شيئا قدموه من العمل لمعادهم في الآخرة في قول أبي علي.

واللام لام القسم على ما بيناه.

والثاني - أنه يجري مجرى قوله: " سولت لهم أنفسهم " أي قدمت لهم أنفسهم بما بعثهم على تولي الذين كفروا مع مخالفتهم. وقوله: " أن سخط الله عليهم " قيل في موضع " أن سخط الله " قولان:

أحدهما - رفع كقولك: ما قدموه لانفسهم سخط الله أي هو سخط الله عليهم وخلودهم في النار

بما كان من توليهم ورفع كرفع (زيد) في قولك:

بئس رجلا زيد.

الثاني - أنه جر على تقدير لان سخط الله عليهم وحصلوا على الخلود في النار وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصبا على تقدير بئس الشئ ذلك، لان أكسيهم السخطة عليهم.
قوله تعالى:

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون (٨٤)
آية بلا خلاف قيل في معنى قوله " ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم " مع العلم بأنهم لا يؤمنون بالنبي قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد أنه في المنافقين من اليهود الثاني - المراد بالنبي موسى (ع) ومنعى (لو) - هاهنا - النفي

(٦١٣)

لايمانهم وإن لم يكون حرف نفي لكنه خرج مخرج الحجاج الذي يدل على نفي الايمان. وانما معناه تعليق الثاني بالاول في أنه يجب بوجوبه، فاذا ظهر أن الثاني لم يجب دل على ان الاول لم يكن قد دخله معنى النفي من هذه الجهة.
فان قيل: إذا كان المؤمن بالله لا يطلق عليه اسم مؤمن إلا وهو مؤمن بالنبي وبما أنزل اليه فلم ذكر؟.

قلنا للدلالة على التفصيل لان تلك الصفة وان كانت دالة فانما تدل على طريق الجملة وقوله " ما اتخذوهم أولياء " يعني هؤلاء لو كانوا مؤمنين على الحقيقة لما اتخذوا المشركين أولياء و (ما) يجوز أن تكون جواب (لو)

ولا يجوز أن تكون جواب (ان) لان حرف الجزاء يعمل فيما قبله و (ما) لها صدر الكلام فلا يعمل فيها. وليس كذلك (لم) فلذلك لم يجز ان آتيني ما ضرك ويجوز ان آتيني لم يضررك، لانه يجوز أن تقول زيدا لم أضرب ولا يجوز أن تقول زيدا ما ضربت وقوله: " ولكن كثيرا منهم فاسقون " إنما وصفهم بالفسق وإن كان الكفر أعظم في باب الذم لامرين:

أحدهما إن معناه خارجون عن أمر الله فهذا المعنى لا يظهر بصفة كافر.
والآخر ان الفاسق في كفره هو المتمرد فيه والكلام يدل على أنهم فاسقون في كفرهم أي خارجون إلى التمرد فيه.

قوله تعالى:

لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن

(٦١٤)

أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٥)

آية بلا خلاف قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه لما أسلموا.

وقال قتادة: نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى (ع) فلما جاء محمد (صلى الله عليه وآله) آمنوا به.

وقال مجاهد: نزلت في الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب (رحمه الله)

مسلمين واللام في قوله " لتجدن " لام القسم. والنون دخلت لتفصل بين الحال والاستقبال، هذا مذهب الخليل، وسيبويه وغيرهما. وقوله:

" عداوة " منصرف منتصب على التمييز.

وصف الله تعالى اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، لان اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين مع أن المؤمنين يؤمنون بنبوّة موسى والتوراة التي أتى بها، فكان ينبغي أن يكونوا إلى من وافقهم في الايمان بنبيهم وكتابهم أقرب. وظاهروا المشركين حسدا للنبي (عليه السلام).

وقوله: " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى " يعني الذين قدمنا ذكرهم - عن المفسرين. وقال الزجاج يجوز أن يكون أراد به النصارى، لانهم كانوا أقل مظاهره للمشركين، وبه قال الجبائي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: من زعم أنها في النصارى فقد كذب. وإنما

(٦١٥)

هم النصارى الاربعون الذين فاضت أعينهم حين قرأ النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم القرآن إثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام. وساروا إلى الاسلام ولم يسارع اليهود.

والمودة هي المحبة إذا كان معها ميل الطباع يقال: وددت الرجل أوده ودا وودادا ومودة: إذا أحببته وودته: إذا تمنيته أوده ودا. ومنه قوله

" ودوا لو تدهن فيدهنون " (١).

وقوله " ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان " فالقسيسون العباد في قول ابن زيد والقس والقسيس واحد إلا أنه قد صار كالعلم على رئيس من رؤساء النصارى في العبادة. ويجمع قسوسا

وأصله في اللغة النميمة يقس قسا إذا نم الحديث. قال رؤبة بن العجاج:

يضحكن عن قس الاذى غوافلا * لا جعبريات ولا طهاملا (٢)

الطهامل من النساء القباح. ومصدره القسوسة والقسيسة فالقس الذي ينم حاله بالاجتهاد في
العبادة. والرهبان جمع راهب، كراكب وركبان وفارس وفرسان. قال الشاعر:
رهبان مدين لو رأوك تنزلوا * والعصم من شعف العقول الفادر (١)
وقيل: إنه يكون واحدا ويجمع رهابين كقربان وقرايين ورهابة أيضا قال الشاعر:

(١) سورة القلم آية ٩.

(٢) اللسان (قسس)، (جعبر) ورايته (يمسين) بدل "يضكن".

(٣) قائله جرير ديوانه: ٣٠٥ واللسان (ذهب)، ومعجم البلدان (مدين). (*)

(٦١٦)

لو عاينت رهبان دير في القل * لاقبل الرهبان يمشي ونزل (٢)
وكل ذلك من الرهبة التي هي المخافة ورهب يرهب رهبا إذا خاف والترهيب ضد الترغيب.
وقوله " وإنهم لا يستكبرون " معناه إن هؤلاء النصارى الذين آمنوا لا يستكبرون عن اتباع الحق
والانقياد له كما استكبر اليهود وعباد الاوثان وانفوا من قبول الحق، وأخبر الله تعالى في هذه
الآية عن مجاوري النبي (صلى الله عليه وآله) من اليهود، ومودة النجاشي وأصحابه الذين أسلموا
معه من الحبشة لان الهجرة كانت إلى المدينة وبها اليهود والى الحبشة وبها النجاشي
وأصحابه فأخبر عن عداوة هؤلاء ومودة أولئك.

(١) تفسير القرطبي ٦: ٢٥١ وتفسير الطبري ١٠: ٥٠٣. (*)